في
بلاد السمن والعسل

الجزء الثاني

رواية

الكاتب والروائي:
عبد المجيد الدبّاس

في

بلاد السمن والعسل

الجزء الثاني

رواية

عبد المجيد عبدالله الدباس

كانت الساعة تعلن الثالثة والنصف تماماً عندما دخل راكان غرفة الاستراحة ليقضي العشرين دقيقة المخصصة للاستراحة اليومية. دخل الغرفة على عجل، بلهفة زائدة وشوق لا يوصف، ورمى بنفسه فوق المقعد الجلدي الكبير في ركن الغرفة، غير شاعر إن كانت الغرفة بها أحد أو خالية من الناس!

دسَّ يده في جيب بنطاله، وبكل احترام وتقديس أخرج منها رسالة فضّ غلافها بإجلال وخشوع، كأنما هو عابد في صومعته يمدّ يده ليمسك بالكتاب المقدس! لقد كانت الرسالة من الوطن الحبيب... من أمه الغالية!

لقد كانت أول رسالة تخاطبه هي بها، يستلمها منها منذ أن غادر الوطن، كتبها لها حفيدها! لقد استلم عدة رسائل منذ وصوله إلى أمريكا، كلها كتبها أخوه؛ ولكن هذه الرسالة كانت منها هي!

لقد ناوله ساعي البريد الرسالة وهو عائد إلى الشركة بعد انقضاء ساعة الغداء، وأنه ومنذ لحظة تسلمها وبه شوق مستعر لأن يفتحها ويقرأها، ولكنه ما كاد يدخل باب الشركة، بعد أن قطع المسافة بين منزل كفيلته والشركة ينهب الأرض نهباً حتى لا يتجاوز زمن ساعة الغداء، إلا وطلب إليه أن يقوم بمهام عدة!

لقد أمضى راكان ساعة ونصف الساعة، وهو بين الفينة والأخرى، يدس يده إلى جيبه، يتحسس الرسالة وكأنما يتحسس وجه والدته الحبيب! إنه ومنذ دخل الشركة وهو يحاول أن يخلو بنفسه ولو لدقيقتين ليقرأ تلك الرسالة، ولكنه ومنذ عودته من الغداء، والأوامر تلقى عليه تباعاً، وهو يركض من مكان إلى آخر!

بعد أن انتهى من قراءة الرسالة، صار يستعرض بمخيلته ما حدث يوم سفره. لقد كان بيتهم، على الرغم من كبره وسعة ما يحيط به من حديقة وبلكونات، فإنه لم يكن به متسع لقدم لكثرة ما تواجد به من أناس! لقد كان يغصّ

بالأقارب والأهل والجيران والمعارف والأصدقاء. لقدا جاؤوا من العاصمة، حيث يقع بيتهم، ومن جميع أنحاء المملكة لوداعه!

إنه وبعد أن صافح وعانق جميع الحضور، جاء دور والدته وإخوانه وأخواته وأبناء أخته المتزوجة. كانت والدته تحاول جاهدة أن تبتسم، وكان وجهها النحيل يعبر عن ألم عميق وحزن شديد، كما كانت دموعها لا تكف عن النزول! كانت كالشبح لضعفها وإحباطها؛ وكانت قدماها ترتجفان تحت جسمها الهزيل!

- اعذرني يا بني! إنني أحاول جاهدة أن أمنعها من التساقط، ولكنها تأبى إلاّ أن تنزل! إنني أخشى عليك أن تجوع وتتعذب في بلاد الغربة! أخشى عليك أن لا تجد مأوى يؤويك!

- لا تخشي يا أماه! أنا ذاهب إلى أمريكا، بلد الخير والرفاهية! إن الناس هناك عندهم كل شيء، وبكثرة! الأعمال هناك متيسرة لكل من يطلبها، ثم إنني ذاهب ولي عمل مضمون. إنه ينتظر وصولي! قال يطمئنها ويضحك في سره من سذاجتها وطيبة قلبها!

- سافر يا بني! فليباركك الله ولتحرسك الملائكة!

وتعانقا، فامتزجت دموعها بعرقه، وبللت كل وجهه وعنقه! وكان عناقها له حاراً، وكأنما كانت تودعه إلى مثواه الأخير!

ثم جاء دور إخوانه وأخواته، وكانوا جميعهم يبكون، ثم أغمي على أخته الوسطى آمنة وسقطت على الأرض عندما تقدمت لعناقه!

لم يدر راكان ما الذي أصابه، فقد كان طيلة الوقت يضحك، بينه وبين نفسه، من تفكيرهم ويسخر من أقوالهم، ويستغرب من سذاجتهم وخوفهم الموهوم والمزعوم!

وفجأة فارقت الفتى ابتسامته وهاجمته موجة إحباط بددت فرحته وشتت أحلامه، إذا رأى منظراً هزه من أعماقه! فلقد شاهد أولاد وبنات شقيقته الكبرى أميرة، وعددهم سبعة، يقفون في صف خلف بعضهم، وحسب أعمارهم، وكأنهم في طابور عسكري، يتقدم الواحد منهم فيقبل يد خاله بخشوع واحترام، ثم يقف جانباً ليعطي مكانه للذي يليه! وعندما رأى راكان ذلك المنظر اهتز له من أعماقه، فلم يستطع أن يكبح جماح عواطفه، فانفجر يبكي بهستريا وبصوتٍ عالٍ، أذهل الحضور! لقد تصورهم وكأنما هم يلقون عليه نظرة الوداع الأخير قبل أن يوارى التراب!

لقد نسي الشاب، وهو يقرأ الرسالة، وجوده ولم يشعر بما حوله، إذ كانت نفسه مرتعاً لعواطف ثائرة، وكانت دموعه الغزيرة تنزل بغزارة وصمت فوق خديه، إذ نزل بعضها على الرسالة فاختلطت سطورها وطمست بعض كلماتها!

وفجأة تنبه إلى وجوده، وأحسّ وكأنما عينان ترقبانه، وبخفة دسّ يده في جيبه وأخرج منديله فمسح دموعه متظاهراً وكأنما هو يمخط أنفه! وبعد أن أعاد المنديل إلى جيبه تطلع أمامه فرأى المقعدين الجلديين الكبيرين خاليين، وظل يدور بنظره في أرجاء الغرفة حتى وصل المقعد الذي يلي المقعد الذي يجلس عليه، فارتبك واعترته موجة من الخجل والحزن؛ فاحمرّت أذناه ووجنتاه، وشعر بموجة ساخنة من العرق تغرق كل جسمه!

لقد التقت عيناه بعيني فتاة كانت تجلس غير بعيدة منه، وعندما التقت عيونهما، ابتسمت له ثم عادت تنظر من جديد إلى مجلتها! لم يبق لدى الشاب ذرة من شك بأن الفتاة قد رأت دموعه ولاحظت انفعالات وجهه وكل تصرف **<u>للمؤلف</u>**

1- في بلاد السمن والعسل رواية
2- تيه البروفيسور دهشان رواية
3- فبكت وبكيت رواية
4- كريستينا ... الحب المُحرّم ! رواية

باللغة الإنجليزية:

- ✓ Beads of Memory Triology
- ✓ August Rain Novel
- ✓ The Sucide of my Taboos (or) Elizabeth! Novel
- ✓ Celeste… A Teardrop on the Cheek of Destiny! Novel

*****

للتواصل مع المؤلف على البريد الإلكتروني:
majidabujohar@yahoo.comاته منذ دخوله!

مضت فترة ليست بالقصيرة وهو يتظاهر بمتابعة قراءة الرسالة، وإن كان في الحقيقة يفكر بما يجب عمله وكيف يجب أن يتصرف! وعندما التقت عيونهما ثانية ابتسمت الفتاة وأتبعتها هذه المرة بهزة من رأسها علامة التحية، فازداد ارتباك الفتى وتفاقم خجله، فرد ابتسامة مقتضبة فوق شفتيه وهز رأسه وكأنما يرد تحيتها!

- أنا جداً آسفة ! لم أستطع أن أكبح جماح نفسي من التطلع على ما تقرأ، إذ إن الحروف التي كتبت بها هي حروف لا تشبه حروف اللغات التي أعهدها، وقد تراءت لي وكأنما هي لغة اختزال! قالت الفتاة بصوت رخيم عذب، وبلهجة في غاية الأدب والاحترام.

قفز قلب الشاب من مكانه، وعلت وتسارعت ضرباته، إذ شعر ببعض الخوف والتوتر لأن يكون وحيداً مع فتاة ويتكلم معها أيضاً، فقال وهو ينظر إلى الحائط أمامه:

- إنها... أعني إنها... إنها اللغة العربية!

- وهل أنت عربي؟! سألت باهتمام زائد!

- هزّ الفتى رأسه علامة الموافقة ودون أن ينظر إليها!

- يا له من شيء ممتع! أنا لم أر عربياً في حياتي... فقط على الشاشة وصوراً على الورق!

وعندما لم يقل راكان شيئاً، طلبت إليه إن كان من الممكن أن يعطيها الرسالة لأنها تريد أن تتمعن في الخط!

وبيد مرتجفة ناولها الرسالة وهو مازال محدقاً بالحائط!

تطلعت إليها للحظات ثم أعادتها إليه وقالت:

- شكراً! لا شك أن اللغة الإنجليزية تبدو هي الأخرى للذي يراها لأول مرة ، وكأنما هي الأخرى لغة اختزال أيضاً! وبعد أن توقفت قليلاً أضافت:

- يبدو أنها رسالة من إنسان عزيز! اعذرني، لم أستطع إلاّ أن ألحظ تأثرك وأنت تقرأها! قالتها بصوت عذب، حنون، خيل لراكان أنه راهب دير يردد تسبيحاته بتمجيد للخالق!

- إنها رسالة من والدتي من الوطن. إنها حزينة لفراقي! قال بذلة وانكسار!

- آسفة جداً لذلك! إن الفراق دائماً صعب ومحزن! قالتها وكأنما تقرأ شعراً لرخامة صوتها وعذوبته!

ولما لم يقل الفتى شيئاً أردفت:

- وهل لك مدة طويلة بعيداً عنها؟!

- حوالي الشهرين! لقد قضيت حوالي الشهر على الطريق في الباخرة والحافلة ، ثم شهراً هنا في آركاديا. قال ذلك وهو يبتلع ريقه بصعوبة.

- ولكنك تتكلم اللغة الإنجليزية بطلاقة وإتقان، ولولا لكنتك لقلت إنك من مواليد أمريكا! قالت بحماس وقد أضاء وجهها!

- شكراً لك يا آنسة؛ ولكنني لم أشتغل في حياتي عملاً وضيعاً مثل هذا! لقد كنت موظفاً في الوطن في الحكومة، وكان تحت أمرتي أكثر من عشرين موظفاً! لقد وعدتني كفيلتي قبل أن أحضر إلى أمريكا بعمل محترم، وليس موظف تنظيفات! صدقيني! هذه كانت الاتفاقية قبل حضوري، وإلاّ لما حضرت! وهزّ راكان يديه بنرفزة وضربها بالهواء وكأنما يضرب عدواً أمامه، فقد شعر أنه بحجم الحشرة وبمكانتها، وأضاف:

- لو أن والدتي وبقية أفراد عائلتي يعرفون إنني أشتغل عامل تنظيفات، لماتوا حزناً... إن وظيفة كناس في بلدي هي للإنسان العامي وللطبقة الدنيا، جداً جداً ، وأنا متعلم ومثقف ومن عائلة محترمة ومعروفة! وشعر الشاب فجأة بأنه يكاد يبكي من شدة القهر والإحباط، فقد صمم بأنه يجب أن يدافع عن نفسه أمام هذه الحسناء! ثم أضاف:

- إنني حتى الآن لا أدري كيف قبلت هذا العمل! إنني كلما أفكر به أكاد أفقد عقلي، وأصاب بالقهر والإحباط! وسكت للحظة وتطلع بسرعة إلى يمينه فرأى الفتاة تصغي إليه بانتباه واهتمام شديدين ، وتلاحظ تشنجات وجهه وتقلصاته، مما شجعه على الاسترسال:

- كان من المفروض أن يكون لي عمل كمساعد جواهرجي وبراتب ممتاز، ولكن الرجل الذي كفلني طلق زوجته وباع متجره ورحل عن كاليفورنيا إلى نيويورك! لقد بحثت كثيراً لأن أجد عملاً كعملي في الوطن ، ولكن قيل لي أن أعمال المكاتب هنا وقف على الإناث، ولكي أعمل في مكتب فيجب أن يكون عندي مؤهلات تحتاج إلى تدريب خاص. على كل حال؛ سأترك عملي هذا في نهاية الأسبوع. لقد كنت عازماً أن أتركه في نهاية اليوم الأول، ولكن كفيلتي أقنعتني بأن أبقى حتى نهاية الأسبوع! أنا لا أستطيع أن أشتغل عامل تنظيفات. إنه عمل ضد كرامتي! قال الفتى بحماس ممزوج بالتوتر، وهو يكاديبكي !

- ولِمَ؟! سألت باهتمام زائد وقد اتسعت حدقتا عينيها!

- تسألين لمَ؟! لأن عمل التنظيفات عمل وضيع وليس عملاً محترماً! قال راكان بحدة وحماس، مستغرباً من بلاهتها!

- إذا كانت وظيفة عامل التنظيفات في بلادكم معيبة، فهي هنا وظيفة محترمة جداً؛ كأي وظيفة في هذه الدنيا! قالت تدافع بحرارة، ثم أضافت:

- صحيح أنها ليست أحسن وظيفة، وأنها عمل متعب ويتطلب جهداً عظيماً، ولكنها وظيفة يستطيع صاحبها أن يكسب معيشته! إن كل عمل يستطيع صاحبه أن يعمل منه معيشته، إذا كان لا يسرق ولا يخدع الآخرين، فهو عمل شريف ! وسكتت لحظة وكأنما لتستجمع قواها وأضافت:

- إننا لا ننظر إلى أية مهنة باحتقار. إن كل مهنة هي عمل شريف ومحترم، مازال صاحبها يؤديها بأمانة وإخلاص! إن كل عظماء أمريكا تقريباً كانوا يعملون في أول حياتهم أعمالاً وضيعة بالنسبة لمفهومكم. عامل تنظيفات، بائع جرائد، موزع حليب، يفرغ البضائع من كراتين في متجر... الخ! إنهم يفتخرون بأنهم بدأوا صغاراً وأصبحوا كباراً! لقد كان رئيس جمهوريتنا الحالي، " دوايت آيزنهاور" يبيع جرائد في صغره ليكسب نقوداً على الرغم من ثراء أهله الفاحش! إن كل طفل في أمريكا يبدأ العمل لكسب مصروفه اليومي وهو ابن ستة أعوام، بأن يساعد والدته بالقيام ببعض أعمال المنزل الخفيفة، كإفراغ سلال النفايات، أو ترتيب سريره في الصباح، أو بسقاية الحشائش والورود حول البيت!

كان راكان يصغي إليها باهتمام واحترام شديدين، فقد خفف حديثهما من قهره وإحباطه، وأعاد إليه بعضاً من كرامته وكبريائه التي ظن أنه افتقدهما وإلى الأبد!توقفت قليلاً لترطب شفتيها بلسانها ، ثم أضافت :

- إن كل إنسان يبدأ من القاع، ونادراً ما يبدأ من الأعلى، والشجاعة أن يبدأ في التسلق وليس في نفس موقعه طيلة عمره! لقد بدأت عملي كبائعة هنا قبل شهرين، وقبلها كنت أشتغل كجامعة صحون ومنظفة للطاولات والأرض أيضاً في مطعم، ثم ترقيت إلى نادلة، واشتغلت مدة كجليسة أطفال! وصمتت قليلاً وأضافت بحماس أكثر من سابقته:

- إن معظم الطلبة عندنا هنا في أمريكا، يسكنون مع عائلات ، فينظفون بيوتهم ويعتنون بحدائقهم ويجلسون مع أطفالهم، مقابل سكنهم مع أن بعضهم يستطيع أهلهم إعفاءهم من ذلك!

شعر راكان وكأن الصبية كانت تصفعه بكلماتها، وأنها تسخر من معتقدات بلاده وأخلاقيتها، فقال بصوت فيه قناعة وفيه استسلام، وكأنما كان يواسي نفسه!

- ليس من السهل على إنسان نسيان عادات بلاده ومعتقداتها في يوم وليلة ! ثم تمهل قليلاً، ولما لم تعلق على مقولته أضاف:

- إن الذي يزيد من مشكلتي تعقيداً، هو أنني أعيش مع كفيلتي العجوز التي تبلغ السابعة والستين من عمرها، والتي لا تملك سيارة وليس لها جيران ولا أصدقاء لنتحدث إليهم!

- أليس لها أولاد أو أقارب يأتون لزيارتها أو تذهبان لزيارتهم؟!

- نعم، ولكنهم قلما يأتون لزيارتها أو تذهب هي لزيارتهم، لأنهم دائماً مشغولون؛ فأشعر أن الحياة قاسية جداً، خصوصاً وقد كنت في الوطن أعيش بين والدتي وإخواني وأخواتي وعشرات من الأصدقاء والأقارب!

كان كل هذه المدة وهو لا ينظر إلى محدثته، وإنما ينظر إلى الحائط أمامه، وقد شعر بارتياح شديد وسعادة غامرة لأحاديثها! كان في صوتها نغمة محببة... فيه عذوبة وجاذبية وسحر، ولكن كان فيه نغمة حزينة! كانت حتى في حماسها تتكلم بأدب ورقة ونعومة وبصوت يفيض بالأنوثة والسحر! كانت وهي تتكلم وكأنما تلقي قصيدة غزلية، أو تعزف لحناً موسيقياً سماوياً! أو كأنما كانت على المسرح تلعب دوراً عاطفياً مؤثراً! لقد أحسّ الفتى وهي تتكلم بخدر لذيذ يزحف إلى كل خلجة في جسمه!

وفجأة توقفت عن الحديث، وطالت فترة الصمت، فنظر الشاب إلى محدثته فرآها وقد غطت وجهها براحة يديها وقد أسندت ذراعيها في حجرها وراحت في تفكير عميق!

لقد لاحظ صاحبنا أن الفتاة استغرقت في تفكير عميق عميق، وأنها اندمجت في تفكيرها حتى نسيت نفسها وكأنما تلاشت مع الأثير! لقد لاحظ الفتى أنها لم تكن تفكر، لقد كانت تصلي بحرارة حتى خيل إليه أنها قد ارتحلت إلى عالم آخر! كانت في غيبوبتها وكأنما كانت تصلي صلاة الاستخارة! لقد تساءل هل يمكن أن تكون مسلمة؟! وفجأة رفعت رأسها، وكأنما عادت من غيبوبتها، وفوق شفتيها ابتسامة ملائكية، ولما التقت عيونهما قالت:

- سأكون صديقتك! قالت وقد اتسعت ابتسامتها!

لم يصدق راكان أذنيه وظن أنه يحلم، ولولا أنه سمع الفتاة تعيد مقولتها لما صدق أذنيه!

- نعم، سأكون منذ اليوم صديقتك!

لم يشك الفتى للحظة واحدة بأن الفتاة كانت في غيبوبتها تصلي بحرارة، وأنها في صلاتها كانت تستأذن أو تسأل الخالق إن كان يريدها أن تكون صديقة له! وقبل أن يتمكن من السيطرة على حواسه، مدت يدها نحوه وقالت:

- اسمي نيكول بيرسون!

اعترت الشاب رعشة خوف شديدة، وأحسّ كأنما به حمى، ثم قفز واقفاً وأحنى قامته باحترام وقال:

- اسمي راكان عبد الله! لي الشرف وسعيد جداً بمعرفتك!

في هذه اللحظة، دخل دونالد، عامل النظافة الآخر، وقال بغضب وأنفة، أيه ورب الكعبة والمسجد الأقصى الشريف ، وبصوت كأنه قطار يطلق تصفيرة مكتومة:

- ما الحكاية؟! الاستراحة عشرون دقيقة فقط! لقد صار لك أكثر من ثلاثة أرباع الساعة؟!

ارتبك راكان وانتصب واقفاً، وقد شعر بإذلال وغضب معاً، فالتفت إلى زميله ورماه بنظرة مقت واحتقار، ثم انحنى ثانية وقال لمحدثته:

- الوداع الآن، سأراكِ فيما بعد!

- أعادت نفس جملته ونهضت مسرعة! لا شك أنها هي الأخرى كانت متأخرة!

*****

منذ أن تعرّف راكان على نيكول, وكأن يداً سحرية قد لمسته فغيرت حياته رأساً على عقب! لقد تبين له أن حياته ليست بليدة وخاملة كما كان يعتقد، ولكنها ممتعة وجملية! وليست يائسة ومحبطة كما كان قد تصور؛ ولكنها كانت فرحة متفائلة ومستبشرة!

لقد غادر عمله بعد انتهاء الدوام وهو كأسعد ما يكون! كان وهو يسير يحس بقوة عجيبة في جسمه وبطاقات هائلة في كيانه! فإنه وعلى الرغم من كثرة الجري المتواصل وقسوة الأعمال التي مارسها طيلة النهار، إلاّ أنه لم يشعر بألم في جسمه ورجليه، كما كان يشعر في نهاية كل يوم!

لقد قطع المسافة بين مكان عمله وبيت كفيلته في فترة قياسية! كان لا يمشي مشياً وإنما كان يقفز قفزاً! لقد شعر وكأنما كان يرقص! كان وجهه مشرقاً مضيئاً، والابتسامة لم تكن تغادر شفتيه، حتى إن السيدة هييز استغربت جداً هذا التغير، وإن كانت في داخلها، لا شك، قد سُرّت سروراً فرحاً هائلاً! ولقد سألته، وهي تطير فرحاً عن سرّ تغيره فأجابها بأنه توصل إلى قناعة بأن عليه أن يتقبل ما يحدث له بصبر وبرحابة صدر، وأن حياته لا بد وأن تتبدل إلى الأحسن!

إنه لم يذكر لها تعرّفه على الآنسة بيرسون، إذ صمم على عدم إخبارها في الوقت الحاضر، وأنه سينتظر حتى تتوثق عرى الصداقة بينهما!

نام راكان تلك الليلة نوماً هادئاً عميقاً، ورأى أحلاماً جميلة وسعيدة، إذ إن له الآن صديقة، يستطيع أن يمسك يدها، بل ويلف ذراعه حول خصرها وهما يسيران؛ كما كان يفكر ويحلم قبل حضوره إلى أمريكا!

استيقظ مبكراً، الساعة السادسة، وظل مغمضاً عينيه يستمع إلى تغريد الطيور وزقزقة العصافير فوق الأشجار، خلف شبابيك غرفته، وبدأ يحلم مستيقظاً. وقبل أن ينطلق المنبه من عقاله، نهض وحلق واستحم، وشرب كأساً من الحليب.

إنه يتعجل الساعة ليذهب إلى العمل لتكتحل عيناه برؤية حبيبته، وليمتع أذنيه بسحر حديثها! كان يطير في سيره وهو يقطع الطريق بين البيت والشركة! لقد شعر بأنه يحب عمله كثيراً، لدرجة أنه تمنى لو أن ساعات العمل تزداد! فسبحان مغيّر الأحوال، وسبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر!

*****

- صباح الخير يا راكان!

نقز راكان في انحناءته، وجمدت يده فوق المكنسة ودلو القمامة وهو يجمع القاذورات، لسماعه صوتاً أنثوياً ناعماً ورقيقاً ينطق باسمه! وقليلاً قليلاً رفع بصره حتى وقعت عيناه على وجهها، فقال وقلبه يقفز فرحاً بين ضلوعه:

- أسعد الله صباحك يا آنسة بيرسون! كم أنا سعيد برؤيتك! قالها بفرح طاغ وهو يحس بخجل وارتباك شديدين، محاولاً التظاهر بأنه لم يكن يقوم بذلك العمل الحقير!

- كيف حالتك اليوم؟! أرجو أن تكون قد تحسنت عن الأمس! قالتها البنية بصوت شعر الفتى بأنها وهي تتكلم، كأنها كانت تتكلم من أعماق قلبها، وكان في صوتها عذوبة وسحرٌ، وفيه صدق وإخلاص؛ فيا لرحمة السماء من عذوبة صوتها ورخامته!

لقد سمع راكان كثيراً من الأصوات النسائية، هنا وفي الوطن، في الحياة وعلى الشاشة، ولكنه لم يسمع في حياته صوتاً أجمل منه وأعذب! إنه لم يسمع صوتاً به بحة، وبه سحر وجاذبية، كصوت هذه الصبية! إنه يأخذ بمجامع العقول والقلوب معاً! إنه يستولي على سامعه فيجعله أسير هواه وعبد محبته!

- شكراً لك يا آنسة بيرسون! لقد شعرت بتحسن كبير بعد كلامك لي يوم أمس! لقد فكرت طويلاً بما قلته لي، فوجدت أنني كنت مخطئاً في اعتقادي، فشكراً لك مرة أخرى! قال الفتى ذلك وقد اعترته موجة من العرق الساخن، وهو مازال يتجنب النظر إلى وجهها.

- في الحقيقة إنني فكرت كثيراً بحالتك وشعرت بألم شديد لأنني لم أستطع مساعدتك، حتى أنني قد أخبرت جدتي ، فتألمت هي الأخرى، وطلبت إليّ أن أدعوك إلى بيتها لأنها تحب أن تتعرف عليك!

- إنني آسف جداً أنني تسببت لك ولجدتك بألم شديد! ولكن صدقيني إن حديثك القيم لي قد ساعدني كثيراً جداً ، وقد تسببت في تغيير نظرتي التشاؤمية للحياة إلى نظرة كلها أمل وتفاؤل! قال الشاب بحماس صادق!

- كم يسعدني ما تقول! سأخبر جدتي بذلك وستفرح كثيراً! قالت هي الأخرى بحماس وسعادة، وقد ظهر في تورد وجنتيها!

- يجب أن أنصرف حتى أدعك تنهي عملك قبل أن تفتح الشركة أبوابها؛ كما إن عليّ أن أعلّق بعض ملابس الأطفال قبل أن يأتي الزبائن! إلى اللقاء! قالت ذلك وأعطته ظهرها؛ وهمّت بالانصراف، ولكنها التفتت إليه وأعلمته بأنها تحب أن تراه وقت الاستراحة في الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر، مما أسعده كثيراً، ولكنه بعد انصرافها شعر بضيق شديد، إذ تمنى لو أن الموعد كان في غير ساعات العمل، وأن تظل الصبية تتحدث لساعات وساعات ! وتمنى أيضاً لو أنه يستطيع أن يلحق بها ويرجوها أن تبقى، فإن وجودها معه وكلامها إليه، يمنحه الأمن والأمان، ويبعث في نفسه الطمأنينة والسلام! إن في حديثها متعة سماوية تعيد إليه ثقته بنفسه وبمن حوله!

انتهى راكان من تنظيف وجمع قمامة الطابق الأول وكذلك الطابق الأرضي، بسرعة عجيبة أستغربها هو نفسه، إذ شعر بأنه ينتهي من أعماله بدون عناء ولا ملل، وبوقت قصير جداً، وشعر أيضاً بأن قوة جبارة قد حلّت في كيانه!

صعد الدرج وقد حمل صندوقاً فارغاً من الكرتون، متظاهراً بأنه ينوي تنظيف أماكن محددة في الشركة، فصار يمر أمام كل بائعة وينظر إليها وفوق شفتيه ابتسامة كبيرة، ثم يهز لها رأسه علامة التحية، فكانت كل بائعة تبادله ابتسامته وهزّة رأسه!

لقد لاحظ أنهن كن عاديات الجمال، ما عدا واحدة منهن، لاحظ أنها كانت جميلة الجسم وأن في عينيها سحراً وجاذبية، وبعد أن ابتسم لها وحياها ردّت تحيته بابتسامة وغمزة من عينيها، فخفق قلبه، إذ لا شك أنها استلطفته فغازلته، إذ هكذا تفعل المرأة في وطنه؛ ولكنه تذكر ما قالته السيدة هييز، من أن بعض النسوة يقمن بغمز عيونهن كنوع من التحية، وليس لها معنى رومانسي!

تابع سيره فمرّ أمام قسم الحلويات فنادته البائعة وطلبت إليه أن يفرغ صندوق القمامة، ففرح كثيراً إذ إن هذا يعطيه حجة قوية لتجواله بين الأقسام! بعد أن أنهى المهمة ناولته المرأة حبتين من ملبس النعناع، وهم أن يرفض عندما رأى وجهها البارزة عظامه وفمها الكبير الذي يبتلع معظم وجهها، وأنفها الطويل الذي وكأنه منقار صقر، ثم نظارتها السميكة، ولكنه أخذهما، وعندما ابتعد عنها ألقى بهما في صندوق المهملات.

تابع الفتى سيره وهو يتطلع خلسة إلى كل من يقابله، وأخيراً رآها واقفة وإلى جانبها امرأة ومعها ابنتها الصغيرة، والمرأتان تحاولان إيجاد فستانٍ يناسب الصغيرة، وعندما رأته مقبلاً ابتسمت له وأتبعتها بهزة من رأسها، وطلبت إليه مساعدتها في إزاحة بعض الكراتين من أماكنها، وبعد أن فعل شكرته بحرارة فأحسّ بسعادة غامرة!

إن الذي حيّر راكان وأسعده أيضاً؛ هو أن خفقات قلبه تعلو وتشتد، وأن موجة من العرق الساخن تغطي معظم أجزاء جسمه، كلما تقابلت عيناه بعيني نيكول!

*****

جلس الشاب على المقعد المقابل للمقعد الذي جلست عليه الصبية في غرفة الاستراحة، وإن كانت عيناه تتجنبان معظم الوقت النظر إليها حتى لا تتقابل عيونهما، إذ إن خفقات قلبه ترتفع وتتسارع لدرجة أن طبلتي أذنيه تنتفخان وكأنما تكادان أن تتفجرا، ثم تصيبه موجة من العرق الساخن تبلل وجهه وعنقه وصدره وكتفيه! لا شك أن البنيّة لاحظت ارتباكه فابتدأت قائلة!

- لقد كان يوماً مرهقاً حقاً! إنه أكثر يوم تعبت به منذ أن بدأت العمل هنا. وكذلك فإنه أكثر يوم بعت به ملابس!

- ومتى بدأت العمل؟! سأل الفتى بلسان متلعثم.

- منذ أول العطلة الدراسية، قبل حوالي شهرين!

- وهل أنت طالبة؟!

- نعم، ولكن جامعتي ليست هنا... أعني ليست في ولاية كاليفورنيا. إنها في ولاية يوتا، بمدينة "اوقدن"، اسمها جامعة "برقميانق"!

- آسف! لم أسمع بها من قبل! قال ذلك وتلاها بهزة من رأسه عدة مرات. ثم أتبعها بسؤال آخر عندما أحسّ بأنه بدأ يتجاسر على الكلام، وقد فارقه بعضٌ من توتر أعصابه!

- وهل هي جامعة حكومية؟!

- لا، إنها جامعة خاصة وتابعة للكنيسة المورمنية! فهل سمعت بكنيسة المورمن من قبل؟!

- نعم، فقط هنا في أمريكا! لقد ذكرت لي كفيلتي بأن زوجة ابنها هي من أتباع كنيسة المورمن، وأنها أصرّت عليه، بعد أن تزوجها، أن يتحول من الكنيسة الكاثوليكية إلى الكنيسة المورمنية!

ابتسمت البنية وقالت:

- الفتاة أو الشاب من أتباع كنيسة المورمن يشترطون على الذي يتزوجونه أن يعتنق المذهب المورمني، إذا كان من أتباع كنيسة غيرها!

- وهل أنت مورمنية؟!

- هزّت رأسها عدة مرات وأضافت:

- ولهذا السبب التحقت بجامعة برقميانق!

- وهل جميع طلاب جامعتك هم من أتباع الكنيسة المورمنية؟!

- الأغلبية الساحقة منهم! يوجد عدد قليل من الطلبة الذين قدموا من خارج أمريكا ، والذين تساعدهم الكنيسة مادياً، يدرسون فيها أيضاً! ثم بعد أن توقفت قليلاً أضافت:

- إن معظم الطلبة الذين يأتون من وراء البحار يتزوجون بأشخاص من الجامعة، فترسلهم الكنيسة إلى بلدانهم كمبشرين للمذهب المورمني!

سرح راكان بعيداً وصار يفكر بما قالته الشابة، ولم يعُد من سرحانه إلا عندما سمعها تسأله:

- وهل أنت كاثوليكي؟!

- لا، أنا مسلم؛ الحمد لله! قال راكان الحمد لله بالعربي لا شعورياً!

- لقد سمعت عن الدين الإسلامي ، ولكنني لم أعرف عنه شيئاً كثيراً! قالتها بلهجة المكسوف!

- مهما اتسعت معرفتنا في هذا العالم، ومهما حاولنا أن نلمّ بكل شيء، فإن هناك أشياء كثيرة نظل نجهلها! قال الشاب ذلك محاولاً أن ينقذها من الحرج!

- إنني عازمة على أن أدرس جميع الأديان بعمق وحيادية! قالت بجرأة وكأنما تريد أن تتخلص من شعورها بعدم معرفتها شيئاً عن الإسلام!

- إذن، ستعودين إلى جامعتك بعد انتهاء العطلة الدراسية! قال الفتى بلهجة المخذول!

- لا، أفكر أن أتوقف عن الدراسة الفصل القادم، وأتابع دراستي الفصل الذي يليه، في شهر شباط من العام الجديد!

فرح الشاب كثيراً، وشكر الله في سره ! تابعت الفتاة حديثها!

- لقد أنهيت عاماً دراسياً كاملاً، وأريد أن أنقطع عن الدراسة لمدة فصل واحد فقط، حتى أستطيع أن أجمع بعض النقود لتساعدني على الدراسة!

- ألا يساعدك والداك بدفع تكاليف الدراسة؟!

- لقد عرضا علي المساعدة ولكنني رفضت، إذ إنني أحب أن أدفع مصاريف دراستي بنفسي، كما إن دخلهما بالكاد يكفي لهما الاثنين وإعالة ثلاثة أشخاص أخت وأخوين.

- وما هو موضوع اختصاصك؟!

- لغات! أنا أحب الأدب الفرنسي كثيراً! أريد أن أكون مدرسة لغة فرنسية.

- رائع جداً! قالها راكان بفرح عظيم وهو يشد على مقاطع الكلمات!

- وهل تحب اللغات؟! سألت وقد أضاء وجهها فرحاً!

- كثيراً جداً! إنني أفكر أن أتعلم اللغتين الفرنسية والألمانية ، من أجل أن أقرأ أدبيهما باللغة الأصلية! إنهما الأدبان، بعد الأدب العربي، اللذان أنا مغرم بهما، وقرأت الكثير منهما مترجماً إلى اللغة العربية!

- إنه ليسعدني ذلك كثيراً! إذن أنت عربي؟!

- نعم! أنا عربي! قالها راكان بكبرياء وقد شعر فجأة باعتزاز وفخر شديدين!

- لقد رأيت بعض الطلبة العرب في جامعتي، وكانوا من مصر وسوريا! كانوا مسيحيين على ما أعتقد!

- قلت إنكِ تحبين الأدب الفرنسي، فهل تقرأينه مثلي مترجماً أم بلغته الأصلية؟!

- أقرأه بلغته الأصلية!

- لا بد وأن تكون لغتك الفرنسية قوية جداً!

- ليست قوية جداً، ولكن والدتي تساعدني في شرح ما يصعب عليّ فهمه! لقد بدأت أدرس اللغة الفرنسية منذ أن التحقت بالثانوية العامة، وكذلك درستها عاماً في الجامعة!

- وماذا تفعل والدتك؟!

- إنها مدرسة اللغة الفرنسية في كلية جامعية قريبة من مدينة "قاردن قرووف" حيث يسكنون، تبعد حوالي ساعة ونصف بالسيارة من هنا!

- وهل تذهبين كل يوم إلى هناك؟!

- لا، أنا أسكن هنا في "آركاديا" مع جدتي منذ أن بلغت الثالثة من عمري، ولم أفارقها إلاّ العام الماضي عندما التحقت بالجامعة. كان والداي يعيشان جيرانا لجدتي ولكنهما رحلا قبل عامين، والسبب هو أن الدخان هنا أزعج والدي؛ أما في سكنهما الجديد فهي مدينة حديثة، قريبة من البحر وبعيدة عن الدخان! أذهب أحياناً لزيارة أهلي في عطلة نهاية الأسبوع وكذلك في المناسبات الخاصة!

- وهل تعنين أنك تسكنين مع جدك وجدتك؟ !

- جدي توفي قبل حوالي عشرين عاماً، وجدتي تسكن لوحدها، طلبت من والديّ أن أسكن معها لأؤنس وحدتها فوافقا. تخرجت من ثانوية آركاديا وأرسلتني جدتي إلى جامعة "برقميانق"! عمري تسعة عشر عاماً!

- وهل والدك مدرس لغة فرنسية أيضاً؟!

ضحكت طويلاً، ثم تنبهت إلى أنها ربما تكون قد جرحت إحساس جليسها فقالت معتذرة وبصدق وحماس:

- أنا آسفة جداً! والدي لم يكمل الدراسة الثانوية، وهو يشتغل نجاراً! إنه يكره القراءة ويقول بأنها تثير نرفزته!

- لقد أعلمني أحد المتخصصين في الأمور الزوجية والعلاقات العائلية، بأنه من الأفضل أن يكون للزوجين وظائف وهوايات مختلفة، إذ إن عملهما في نفس الوظيفة وممارستهما لنفس الهواية يسببان الغيرة بينهما! قال الفتى محاولاً أن يخفف ما ظنه إحباطاً في داخلها!

- إنني أخالفه الرأي، إذ إن الزوجين يشعران في هذه الحالة وكأنما يتكلمان لغتين مختلفتين، وأن كل واحد منهما يعيش في عالم يختلف عن قرينه!

تساءل الشاب فيما إذا كان والدا جليسته لا يحبان بعضاً؛ ولعل الصبية أدركت ما يجول بخاطره فقالت:

- إن والداي لا يحبان بعضهما كثيراً، ولكنهما جد سعيدين، إذ إن كل واحد منهما يزاول مهامه الزوجية والعائلية دون اعتراض من الآخر! وفجأة نظرت نيكول إلى ساعة الحائط فنهضت واقفة وهي تقول:

- يا إلهي ما أسرع ما يمرّ الوقت! لقد تجاوزنا فترة الاستراحة بخمس دقائق! يجب أن نعود سريعاً!

قبل أن يفتح الفتى للبُنيّة الباب لتخرج، سألها إن كانت ستأخذ استراحتها غداً في مثل هذا الوقت، فأعلمته بأن غداً هو يوم عطلتها!

- ماذا؟! أتعنين أنني لن أراكِ غداً؟! صاح لا شعورياً بعصبية وبقلق زائدين وكأنما داهمه خطر مفاجئ!

ضحكت البنية بسعادة غامرة، إذ لا شك أنها أدركت تعلقه الشديد بها، ولكنها لم تقل شيئاً؛ أما هو فقد تنبه إلى غلطته فقال معتذراً:

- لقد فكرت أنك تعملين مثلي ولا تعطلين إلاّ يوم الأحد!

لم تعلق الصبية وبدأت بصعود درجات السلم، أما هو فتوجه إلى غرفة معدات النظافة ليواصل مهامه اليومية!

*****

أعلمت نيكول راكان عندما وجدته بانتظارها في غرفة الاستراحة بعد الظهر، بأنها حدّثت جدتها عنه وأن الجدة أبدت رغبة في التعرف إليه، وأنها تدعوه هذا المساء لتناول فنجان من الشاي معها، إن كان وقته يسمح بذلك! أعلمها الشاب بأنه يسعده التعرف إلى جدتها، أما هي فأخبرته بأنها ستأتي لأخذه من بيت كفيلته في تمام الساعة السابعة مساء؛ ولكن راكان أعلمها بأنه سيكون بانتظارها في الشارع أمام البيت، بعد أن وصف لها البيت وذكر لها العنوان.

شعر العاشق وهو يسير تحت أشجار الشارع المؤدي إلى بيت كفيلته، بأن الأشجار كانت تبتسم له وتزغرد، وأن كل ما حوله يوحي بالروعة وبالحب والجمال! لقد أحسّ بسعادة جارفة وبسرور لا يوصف، وأن النسيم يداعب شعره ووجهه، وكأنما هو حسناء تدغدغ حواسه وتداعب أعطافه، وأن ساعة الأصيل قد أضفت على الطبيعة جمالاً أخاذاً! إن له الآن صديقة كما لكل الشباب الأمريكان، فها هي أحلامه قد بدأت تتحقق!

فرحت السيدة هييز فرحاً شديداً عندما عاد مكفولها من عمله مساء وأخبرها بأنه تعرّف على زميل له في الشركة، وأن هذا الشاب قد دعاه ليذهبا إلى المدينة الصينية في لوس أنجلوس ليفرجه عليها، وأنه سيمّر عليه في تمام السابعة من هذا المساء ليأخذه بسيارته!

- لقد استجاب المسيح لدعائي، فقد دعوته أن يرسل لك أصدقاء يخففون من غربتك ويسلون وحدتك! كان هذا جواب كفيلته حالما انتهى من إخبارها؛ ثم نظرت إلى أعلى حيث صورة السيد المسيح معلقة على الحائط، وبعد أن رسمت علامة الصليب، قالت:

- أبانا الذي في السموات و الأرض، أشكرك وأشكر أمك مريم بأنكما يسرتما لراكان أصدقاء يأخذونه بسياراتهم ويسلونه! ثم التفتت إلى مكفولها وأضافت:

- أدخل واستحم وارتدِ بذلتك بينما أجهز لنا العشاء!

إن راكان لم يكن يقصد أن يكذب على السيدة هييز عندما أعلمها بأن القادم لأخذه هو شاب وليس فتاة، ولكنه خشي أن تكون المعرفة للقاء أو لقائين فتنقطع، ولذلك فكر أن ينتظر حتى تتقوى عرى الصداقة بينه وبين نيكول فيعلمها عنها! كما إن مجرد فكرة عدم استمرار العلاقة بين الاثنين أزعجته كثيراً، بل إنها أرعبته! إنه لم يعد يتصور نفسه وحيداً بدون صداقة نيكول وتواصلها!

لقد قضى راكان يوم أمس، يوم عطلة نيكول، كأسوأ ما يكون! لقد شعر بضيق شديد حتى خيل إليه بأنه لا يستطيع التنفس وأنه على وشك الاختناق! إذ بعد أن تناول عشاءه مع السيدة هييز شعر بأنه يجب أن يغادر البيت وإلاّ فإنه سيصاب بالجنون!

غادر المنزل بعد أن أعلم كفيلته بأنه ذاهب ليتمشى وأنه لن يغيب طويلاً. تابع سيره في الشارع العريض الذي يشطر المدينة إلى شطرين وتوجه من شمالها حيث تسكن كفيلته، إلى جنوبها حيث أعلمته نيكول بأنها تسكن هي وجدتها! ظل سائراً على غير هدى حتى قطع المدينة من شمالها إلى جنوبها، ولم يعد إلى المنزل إلاّ بعد مضي ما ينيف على الثلاث ساعات، مما تسبب في قلق السيدة هييز التي اعتقدت بأنه ربما حدث له مكروه ! أسرعت المرأة وهاتفت ابنها مدير مخفر المدينة والذي أرسل بدوره سيارة الشرطة تجوب شوارع آركاديا بحثاً عن البدوي القادم من بلاد العرب!

عادت السيارة بعد أكثر من ساعة ليعلم الشرطيان فيها السيدة هييز بأنهما لم يعثرا على مكفولها البدوي، صاحب اللحية الكثة الغبراء، والذي يعتمر الكوفية والعقال، أو العمامة الخضراء، ويرتدي الثوب الأبيض والحزام العريض؛ وأن عليها أن تهاتف المستشفيات في المدينة تسأل عنه؛ مما أضحك السيدة هييز على الرغم من قلقها الشديد على تأخر عودة مكفولها، إذ أعلمتهم من بين ضحكاتها، بأن راكان لا يختلف في لباسه ولون بشرته عن أي إنسان أمريكي ماعدا أن شعر رأسه أسود وجعدي!

*****

في تمام الساعة السابعة وقفت سيارة خضراء اللون بالقرب من منزل السيدة هييز حيث دلف راكان إلى داخلها، فخفق قلبه عندما رأى صديقته تجلس خلف المقود وقد وضعت يديها فوقه، فبدتا له كأنهما قطعتان من العاج النادر ترقدان فوق قطعة من المخمل النفيس!

- إن لك سيارة جميلة! قال وهو يحاول جاهداً أن يهدئ من تسارع خفقات قلبه المتتالية!

- شكراً على الثناء! هذه السيارة اشترتها لي جدتي العام الماضي لثلاث مناسبات، أولهما بلوغي الثامنة عشرة، وثانيهما تخرجي من المدرسة الثانوية، وثالثهما التحاقي بالجامعة!

- جميعها مناسبات مهمة جداً في حياة الإنسان! قال الشاب.

- نعم، هي كذلك! لقد دفعت جدتي القسط الأول، وهي تدفع القسط الشهري، وكذلك دفعت التأمين الكامل لها لمدة عام! أنا أدفع ثمن الوقود فقط. وبعد أن توقفت قليلاً أضافت:

- لقد عرض عليها والداي أن يدفعا جزءاً من المبلغ، ولكنها رفضت وأصرّت على الرفض، كما إنها فكرت أن تدفع ثمنها كاملاً، ولكن قيل لها أن لا تفعل ذلك لأن فوائد المبالغ التي تدفعها تحسم جميعها من الضرائب التي تدفعها للدولة!

- لا شك أن جدتك تحبك كثيراً حتى تفعل كل هذا من أجلك!

- نعم، إنها تفعل، وأنا أحبها جداً جداً! إنها كل شيء بالنسبة لي؛ فهي الجدة والأم والأب والأخ والأخت والصديق! إنها نصفي الآخر!

لم يعلق الشاب على مقولتها، وإنما صار يفكر بما قالته له قبل يومين، وهي أنها ستنقطع عن الدراسة لنصف عام، لتعمل ولتجمع بعض النقود، من أجل مصاريف دراستها! وكأن الصبية قرأت ما يجول بخاطره فقالت!

- لقد أخبرتك بأنني سأتوقف الفصل القادم عن الدراسة، لأجمع بعض النقود من أجل دراستي الجامعية، ولا شك أنك تتساءل ما هو هذا التناقض!

- بالفعل هذا ما فكرت به! حقاً إنك فتاة شديدة الذكاء! قال راكان وهو يبتسم!

- على الرغم من أن ما تدفعه جدتي من نقود في سبيلي، لا يؤثر كثيراً على دخلها، إذ إن لها موارد جيدة؛ إلاّ أنني أكثر سعادة لو أنني أستطيع أن أدفع أنا نفسي جميع مصروفاتي!

وهنا توقفت السيارة أمام بيت متوسط الحجم، تحيط به حديقة غناء، مزروعة بالأشجار المثمرة، وأمام البيت أحواض من الورود والأزهار الجميلة التي تسر الناظرين!

كان باب البيت مفتوحاً على مصراعيه، وكان الباب المردود الوحيد هو باب المنخل ولكن لم يكن مقفلاً! دفعت الحفيدة الباب ودخلت ودخل خلفها ضيفها الذي لاحظ أن الغرفة كانت واسعة جداً، كما ولاحظ أيضاً أنها كانت مملوءة بالأثاث الفاخر والمرتّب ترتيباً شرح فؤاده وأسرّ ناظريه! كانت المدفأة "الفاير بليس"، المزروعة في صدر الحائط، تدلّ على الثراء للطريقة المصنوعة بها! ورأى كذلك أن مصباحاً يقع في أحد الزوايا كان مضيئاً وإلى جانبه كنبة وثيرة تجلس عليها امرأة صغيرة الحجم جداً ، يستطيع المرء أن يحملها بين يديه بسهولة ويسر وكأنها طفلة صغيرة، بيضاء الشعر قصيرة تقرأ في كتاب! وعندما رأت حفيدتها وصديقها يدخلان طوت الكتاب بهدوء ورقة ووضعته على الطاولة الصغيرة التي يقف عليها الضوء، ثم خلعت نظارتها ووضعتها فوق الكتاب!

سارت البنية بخطى ثابتة نحو العجوز، بعد أن أومأت إلى مرافقها أن يتبعها، وعندما اقتربت من جدتها، أحنت قامتها وقالت بأدب ورقة أذهلتا الشاب:

- جونزي! أحب أن أقدّم لك صديقي راكان من الأراضي المقدسة!

ابتسم الشاب للطريقة التي نطقت بها البنية اسمه، إذ قالتها بطريقة محببة إلى القلب وبصوت رخيم عذب، أسعده وأطربه! ثم التفتت إلى مرافقها وقالت:

- راكان! أحب أن أعرفك على جدتي، "أومناي" السيدة جولييت!

أحنى الشاب قامته وابتسامة كبيرة تعلو وجهه، ومد يده نحو يد الجدة الممدوة إليه وصافحها وعيناه لا تتحولان عن وجه المرأة الذي كان يشع منه نور إلهي، وقال:

- سعيد جداً أن أتعرف عليكِ يا سيدتي! لقد حدثتني الآنسة نيكول عنك طويلاً! ما أسعدها أن تكون لها جدة تتمتع بكل مزاياك النبيلة والسامية!

- شكراً لك يا بني! لقد حدثتني أيضاً عنك طويلاً، وأشادت بأدبك وحسن أخلاقك، مما أسعدني كثيراً أن يكون لحفيدتي صديق يتمتع بكل هذه الصفات المتميزة! وبعد أن استراحت قليلاً أضافت وفوق شفتيها ابتسامة بريئة كأنها طفلة صغيرة :

- إن نيكول عندي هي أعزّ ما في الوجود، إنني ومنذ أن كان عمرها ثلاث سنوات، وتزوجت أمها، وأنا لا شغل لي في هذه الدنيا إلاّ حبها ورعايتها!

وهنا التقت عينا نيكول بعيني راكان، فشعر الضيف بأن البنية تعتذر له عن عدم إعلامه بأن زوج أمها الحالي هو ليس والدها، ولا شك أنها تمنت لو أن جدتها لم تخبره، على الأقل في الوقت الحاضر، حتى تتوطد الصداقة بينهما!

أشارت المرأة إلى كنبة مجاورة لمقعدها وطلبت إلى راكان أن يجلس عليها، وبعد أن فعل جلست حفيدتها إلى جواره، وتابعت العجوز كلامها!

- إن نيكول لم تحدثني عن شاب من قبل، بنفس الحماس والإسهاب، كما حدثتني عنك! لقد قالت بأنك خلوق، ومؤدب ومثقف جداً، ويسعدني كثيراً أن يكون لها صديق كريم وشهم مثلك!

- على مهلك يا جونزي! أنا لم أقل لك ذلك لتعيديه على مسامعه! قالت الحفيدة وقد احمرّت وجنتاها خجلاً وألقت بناظريها إلى الأرض!

- شكراً يا أماه! إن ذلك يسعدني كثيراً! إنني أسأل الله أن يساعدني لأن أكون عند حسن ظنك وحسن ظن الآنسة نيكول! قال الشاب بحماس وبصدق وإخلاص!

وهنا ناولها الفتى الهدية التي أحضرها لها معه، والتي كان طيلة الوقت يحملها بيده اليسرى! وبعد أن فتحت المرأة الطرد صاحت بفرح:

- ما أجملها! قاطرة من الجمال الخشبية مصنوعة في بيت لحم، الأرض المقدسة! شكراً لك يا بني! شكراً جزيلاً! إنها هدية جميلة جداً!

- لم أرك تحمل شيئاً! أين كنت تخبئ الطرد؟ ! قالت الفتاة وهي تحدق بفرح وإعجاب بقاطرة الجمال الخشبية!

- كنت أخبئها في قلبي، بين ضلوعي! وجد راكان لسانه ينطق بتلك الكلمات بغير إذن منه!

انفجرت المرأتان تضحكان، فقالت الصبية:

- ألم أقل لكِ يا جونزي بأنه متوقد الذكاء؟!

- صدقاني إن الكلمات نطق بها لساني بغير إرادة مني! قال الفتى صادقاً وبحماس، وقد اعترته موجة من العرق الساخن؛ وبعد أن مسح جبينه بظهر يده قال:

- لقد ذكرت لي الآنسة نيكول بأنك تقرأين كثيراً، وقلما يراك أحداً إلاّ والكتاب بيدك!

- إن أسعد لحظات حياتي، بعد تحدثي مع نيكول والاهتمام بشؤونها، هو أن أغرق نفسي في قراءة أحد الكتب الممتازة! قالت العجوز بفخر ممزوج بالسعادة!

- لقد قال أرسطو إن أعلى درجات السعادة في العالم هي السعادة الفكرية، لأنها أعمق وتستمر أطول، بل هي سعادة دائمة! قال راكان متفاخراً بمعرفته!

ابتسمت العجوز وقالت:

- أعذرني يا بني! إن الذي قال ذلك هو أفلاطون وليس أرسطو! إنني أؤمن بذلك إيماناً مطلقاً!

شعر الفتى بالارتباك والخجل، وشكر للحفيدة سؤالها لجدتها والذي اعتقد أنها سألته لتخرجه من ارتباكه ولتزيل حرجه!

- ومن هو مؤلفك المفضل يا جونزي؟! سأل الشاب.

- إن كل كتاب كتب بإتقان وفهم ووعي ، هو كتاب أسعد بقراءته! إنني أقرأ لجميع كتّاب العالم، طبعاً مترجماً إلى اللغة الإنجليزية! لقد قرأت لكتاب أمريكان وأوروبيين ومن الصين والهند واليابان، ومن بلادكم أيضاً! لقد قرأت لجبران كتابه النبي! فأعجبني كثيراً!

- إن جبران هو أول مؤلف أقرأ له! لقد قرأت كل ما كتب قبل أن أتجاوز الرابعة عشرة من عمري! إن له فضلا كبيرا على الطريقة التي أفكر وأكتب وأقرأ بها؛ كما إنني قرأت في تلك الفترة معظم ما كتب في أوروبا بالفترة الرومانسية، إذ كان يخيل إليّ في ذلك الوقت أنني أعيش فترة أحلام رومانسية متواصلة!

لاحظ راكان أن الجدة وحفيدتها كانتا تنظران إليه وهو يتكلم باستمتاع وإعجاب كالمسحورتين!

- هل تعرف يا راكان، أن جدتي كانت تنظم الشعر؟! قالت نيكول بفرح وهي تبتسم!

- أحقاً ما تقولين؟! أرجوكِ أسمعينا بعضاً منه! قال الضيف بصدق وحماس! ولكنه وجد أن العجوز قد احمرّت وجنتاها الضعيفتان الرقيقتان وألقت برأسها إلى الأرض خجلاً، كأنما هي طالبة مدرسة ثانوية أطرى رجلاً محاسنها!

- ولم تخجلين يا جونزي؟! إنه لا خجل في نظم الشعر! لقد أعلمني راكان بأنه كان ينظم الشعر حتى فكر بأنه سيكون شاعراً يوماً ما! قالت نيكول مشجعة جدتها!

- هذا صحيح! لقد كان يأتيني الوحي أحياناً وأنا راكب حماري أو راكب في سيارة، وكثيراً ما كان يأتيني وأنا في الحمام! أنتظر الماء الموضوع فوق بابور الكاز والذي يهسّ كطنين الذباب في يوم قائظ لأستحم، أو وأنا أستعد للنوم! لقد كان في حوزتي دائماً قلم وورقة بانتظار هبوط وحي الشعر عليّ! قال الشاب بحماس وصدق.

- ولم توقفت عن نظم الشعر؟! سألت الجدة!

- بعد أن قرأت كثيراً في القصة وجدت أنها تشبع جوعي وتروي ظمأي أكثر من الشعر!

- أما أنا فقد كنت أداوي آلامي بنظم الشعر بعد وفاة زوجي الأول السيد جونز، أسكنه الله واسع جناته! قالت العجوز باحترام وقدسية أذهلتا راكان! ثم استرسلت:

- اعتقد أن الله ألهمني نظم الشعر، حتى يخفف من آلامي ومعاناتي بعد وفاة زوجي، وأظن أن لولا تسلية نظمي للشعر وقراءتي المستمرة له، لكنت فقدت عقلي في ذلك الحين!

- وهل بدأ حبك للقراءة منذ ذلك الحين؟ سأل الضيف.

- نعم، تضاعف حبي للقراءة ونظم الشعر بعد وفاة زوجي، إذ إنني كنت قبل وفاته أقرأ ولكن قليلاً جداً ولم أكن وقتها أنظم الشعر! لا شك أن قريحتي تفتقت من شدة الآلام والأحزان! قالت المرأة بصوت ضعيف ينمّ عن حزن شديد! وبعد أن ارتاحت قليلاً أضافت:

- كنت أكرّس كل وقتي لخدمة زوجي وأولادي، ولكن بعد وفاته كنت أشعر بوحدة قاتلة رغم وجود الأولاد والبنات معي!

- ألم تكن نيكول معك في ذلك الوقت؟! سأل الفتى!

- إن نيكول لم تكن قد ولدت في ذلك الحين، بل إن أمها لم تكن قد تزوجت بعد.

- إن جدتي بعد عدة شهور ستبلغ التاسعة والثمانين من عمرها! قالت الحفيدة!

- أعطاها الله الصحة الجيدة والعمر المديد! قال الشاب بحماس ثم أضاف:

- وهل مازلتِ تحتفظين بما نظمت؟!

- لا يا بني! كنت أنظم وأمزق! كان هذا قبل سنوات طويلة جداً جداً! كنت أعتقد أن أحزاني وشكاياتي وتوجعي ودموعي، جميعها خواطر مقدسة لا يجب أن يسمعها أو يعرف عنها أحد، سوى زوجي الراحل، فكنت أترجم له عذاباتي شعراً، أقرأها على قبره كلما ذهبت لزيارة قبره!

- كانت جدتي تزور قبر جدي كل يوم أحد؛ هذا مع العلم بأنها تؤمن بأن الروح تفارق الجسد وتصعد إلى السماء! قالت نيكول بصوت شعر الفتى بعذوبته تحت لسانه!

- إننا كثيراً ما نعمل بما تطلبه منا قلوبنا وما تحسّ به مشاعرنا، وإن كان عقلنا يعتقد العكس! قال الشاب معلقاً ومتفلسفاً!

- لم أعد أهتم بنظم الشعر، وقلّت زياراتي للمقابر، بعد أن أرسل الله إليّ نيكول التي هي عندي أغلى ما في الوجود! قالت ذلك ونظرت إلى حفيدتها بخشوع وتهجد، وكأنما تضمها بين جفون عينيها، والتي هي بدورها ابتسمت حياء وخجلاً !

- منذ أن بلغت نيكول عامها الثالث وهي تعيش معي، وقد صار حبي يتحول إليها عن كل ما عداها؛ وعندما بلغت الثامنة من عمرها، وكان قد مضى على وفاة زوجي عشر سنوات، استولت هي على كل ما كان عندي من حب! هذا الحب الذي يمنحني سعادة مستمرة!

- إن اسم زوج جدتي الأول والذي هو جدي، اسمه جونز، وبعد عشر سنوات على وفاته تزوجت بأحد أصدقاء زوجها واسمه جولييت، ولم ترد أن تترك اسم جونز ولم تستطع عدم حمل اسم زوجها الجديد، فقررنا نحن أحفادها، أن نناديها جونزي، كاسم تحببي! أما أولادها وبناتها فينادونها الوالدة!

- وهل لك أحفاد غير الآنسة نيكول؟!

- إن لها بناتاً وأولاداً وأحفاداً وأولاد أحفاد، ما يزيد عددهم على الأربعين، جميعهم من زوجها الأول. إنها لم ترزق أولاداً من زوجها الثاني! أجابت نيكول.

- عظيم جداً أن يكون للمرء محبون كثيرون يكونون حوله دائماً! قال الشاب بفرح وحماس.

- إنني لم أتزوجه عن حب، وقد أعلمته بذلك قبل الزواج! لقد تزوجته كرفيق وأنيس، وعندما توفي ترك لي هذا البيت الذي أسكنه، وبيتاً آخر بعته قبل عدة سنوات، وبيتا ثالثا يبعد عن هنا حوالي المائة ياردة مؤجراً! لم يدم زواجنا إلاّ أحد عشر عاماً!

- ألم يكن له أولاد من زوجته السابقة؟ سأل راكان.

- كان عاجزاً عن إنجاب الأطفال، ودام زواجه الأول ثمانية عشر عاماً كما أعلمني، وعندما توفيت زوجته تزوجني كرفيقة! ثم التفتت إلى حفيدتها وأضافت:

- أعذريني يا حبيبتي! لقد تحدثت طويلاً مع راكان، ولم أترك لك مجالاً للحديث، ولكن عذوبة حديثه وسعة اطلاعه، وكذلك دماثة أخلاقه، أنستني نفسي!

- شكراً لك يا سيدتي! إنني أفتخر وأعتز بهذه الشهادة! قال الشاب وقد شعر ببعض الحرج!

- أرجوكِ يا جونزي أن تستمري بالتحدث مع راكان، إذ إنني أريد أن أعمل لنا شاياً!

- فكرة رائعة يا عزيزتي! اعملي لنا شاياً من الصنف الذي اشتريناه قبل يومين! لقد أحببته كثيراً.

- لقد أعلمتني الآنسة نيكول بأن عندك أنواعاً عديدة من الشاي، وأن من إحدى هواياتك هي شراء الشاي النادر!

- وكذلك الكثير من الناس هنا؛ ولكن يوجد عدد قليل جداً من الناس عندهم عشق شديد لأنواع الشاي ذات النكهات المختلفة! إن عندي أكثر من عشرة أصناف منه! أنواع الشاي التي أشربها تباع في أماكن خاصة يقصدها الناس من أماكن بعيدة! قالت العجوز.

- إذن فلتعمل لنا الآنسة نيكول من الصنف الذي اشتريتماه قبل يومين! قال الضيف وهو يبتسم!

نهضت الصبية وغادرت إلى المطبخ، بينما انهمك هو بالحديث مع الجدة عن أشياء عامة؛ عن حياته في الوطن وحياته هنا في أمريكا، وما الذي يحبه وما الذي يكرهه، ثم ما هي انطباعاته عن أمريكا؛ وعن طموحاته الدراسية، إلى مثل هذه المواضيع العادية والروتينية!

عادت الصبية تحمل إبريقاً من الخزف الملون الجميل، وثلاث فناجين من نفس الصنف، ومثلها ملاعق فضية اللون، وبعض السكر! وبعد أن سألت راكان عن كمية السكر التي يريدها، انحنت لتناوله فنجان الشاي، فأطل نهداها من فتحة الفستان، فخيل للفتى وكأنهما فتاتان من الوطن تقفان خلف ستائر نافذة بيتيهما تنتظران عاشقيهما أن يمرا من تحت نافذتيهما؛ لتختلسا منهما نظرتين والهتين، ولتمنحاهما ابتسامات خجلى!

غضّ الشاب بصره حياءً واحتراماً للفتاة وحوّل نظره بسرعة البرق الخاطف باتجاه الجدة، فلاحظ أن البنية تبتسم وقد رمته بنظرة إعجاب وتقدير، إذ لا شك أنها قدّرت موقفه، فحمدته له، فنطقت اعتذاراً وهي تغطي صدرها بيدها اليسرى!

لم يتعود راكان على شرب هذا النوع المتميّز من الشاي، ولكنه أعلم الجدة وحفيدتها، بأن للشاي نكهة لذيذة، وأنه لم يتعود إلاّ على شرب الشاي السيلاني العادي ، والذي تشربه عامة الناس!

مرّت فترة ليست بالقصيرة، وهم يتحدثون عن الشاي وأنواعه ومصادره وأين يزرع، وكيف أن عالمه العربي يشربون الشاي أكثر مما يشربون القهوة، ثم فجأة سألت العجوز:

- لقد أعلمتني نيكول بأنك تدين بالإسلام، وأنا يا بني يسعدني أن أعلم أن لك دينا تدين به، إذ إن كثيراً من الشباب في الوقت الحاضر لا يؤمنون بالأديان، ولهم تفكير غريب في نمط حياة هذه الأيام!

- نعم يا أماه! إنني مسلم، ولكن للأسف الشديد، لست مسلماً ملتزماً؛ أي أنني مسلم بالوراثة! قال الشاب بأسى وحزن شديدين!

- لا أفهم ما تعني يا ولدي؟! سألت العجوز باستغراب!

- لقد كنت قبل عدة سنوات مسلماً ملتزماً. كنت أقوم بواجباتي الدينية على أكمل وجه، من صلاة وصوم وعبادة... الخ، ولكنني في السنوات الأخيرة أصبحت مسلماً بالاسم !

- وما الذي غيرك؟! كان السؤال هذه المرة من الحفيدة التي فتحت عينيها واسعتين استغراباً!

- لقد مررت بتجربة قاسية زعزعت عقيدتي الدينية! أرجوكما المعذرة لعدم الخوض في تفاصيلها!

- كما تشاء يا بني! قالت العجوز؛ أما الحفيدة فقد قالت بحماس:

- ولكن الصدمات العاطفية، كما قرأت، تقوي من العقيدة الدينية!

- هذا صحيح! لقد مررت بأزمة عاطفية قوّت من معتقداتي الدينية، ولكنني أصبت بعدها بصدمة اجتماعية زعزعت تلك المعتقدات!

لم تعلق المرأتان على ما قاله الشاب، وكان المتحدث يشير إلى حادثة يوم كان يصلي صلاة الظهر وكان ساجداً في مسجد العاصمة، أحد أيام الجمعة، عندما داس على جسمه حرّاس السلطان وهم يرتدون بساطيرهم العسكرية! إنه ومنذ تلك اللحظة، لم يصلِّ ركعة واحدة؛ ولم يصم يوماً واحداً، ولم يقرأ كلمة في كتاب الله!

مرّت فترة صمت ليست بالقصيرة لم يسمع خلالها سوى رشفات شرب الشاي، وامتلاء الفناجين وإفراغها عندما قطع راكان الصمت قائلاً:

- على كل حال أنا أحترم كل الأديان وجميع المعتقدات، ولو قال لي أحدهم أنني أعبد حجراً لما فكرت حتى بيني وبين نفسي بأنه على خطأ؛ ولكن الذي يغضبني ويثير قرفي واشمئزازي هو التعصب لدين أو لمعتقد ما! إن التزمت حتى ولو كان في سبيل الله، فإنه يجعلني أفقد عقلي غضباً، لأنني أعرف أن الخالق سبحانه وتعالى، يكره التزمت حتى ولو كان في سبيله!

كان راكان يتحدث بطلاقة وقوة وإيمان جعل المرأتين تحدقان به مشدوهتين مذهولتين!

- نعم يا بني! التزمت شيء مكروه مهما كان صاحبه على حق! قالت العجوز بصوت خافت وضعيف! أمام الشابة فقد هزّت رأسها علامة الموافقة!

وهنا نظر راكان إلى ساعته فنهض واقفاً، لا شعورياً، وكأنما نخزه أحدهم بمؤخرته!

- يا إلهي! الساعة تجاوزت الحادية عشرة، والآنسة نيكول عليها أن تنهض غداً مبكرة لتذهب إلى عملها!

- وأنت كذلك! قالت الفتاة وهي تنهض.

- صدقني يا بني؛ إنني سعدت جداً جداً بزيارتك وأحاديثك؛ وأرجو أن تأتي لزيارتنا كثيراً! قالت العجوز وقد وقفت هي الأخرى!

- سأدعوه دائماً يا جونزي، ما زال حديثه يسعدك!

- نعم، إن حديثه يسعدني، وسندعوك قريباً للعشاء!

- يسعدني ذلك، وشكراً! وأريدكما أن تعلما بأنني لم أحصل على هذه السعادة، منذ حضوري إلى أمريكا، كما حصلت عليها هذه الليلة! قال الشاب صادقاً وبحرارة وهو يصافح المرأة ذات الشعر الأبيض والجسم النحيف والصغير؛ والذي شعر وكأنما حرارة قلبها ودفئه قد امتدا إلى يدها المعانقة ليده!

بعد أن خرجت السيارة إلى الشارع قالت الصبية:

- صدقني يا راكان، إنك أنت أول شاب يدخل عقل وقلب جدتي! لقد كانت تتكلم معك دون كلفة ولا مجاملة وكأنما تعرفك منذ سنوات طوال! كانت تناقشك كما كانت تناقش والدتي، وكما تناقشني أنا! قالت الصبية بسعادة وحماس شديدين!

لقد شعر الشاب وكأنما صوتها تغريد عندليب، أو عزف كمان، لعذوبته ورقته، وكذلك لدفئه وحرارته!

- قد تقول كيف عرفتِ وأنتِ لم تسمعي رأيها بعد؟! وأقول لك بكل صراحة وصدق، إنني ومنذ أيام الدراسة الثانوية، أحضرت لمقابلتها أكثر من عشرة شبان من مدرستي وخارجها، فكانت حالما يقفون لوداعها تنظر إليّ وترفع رأسها إلى أعلى علامة أنه ليس الصديق المناسب لكِ! إنها صعبة الإرضاء وشديدة النقد! كانت تقول عنهم بأنهم صغار غير ناضجين، وأحياناً يبالغون وغير صادقين! والغريب أنني أجد بعد فترة من حكمها عليهم بأنها صائبة مائة بالمائة! إن لها عينان بصيرتان ونظرة ثاقبة جداً جداً! إن عندها فراسة قوية وبعد نظر شديدين! إنها تنظر إلى وجه الإنسان وكأنما تقرأ أفكاره وسريرته! حتى صديقاتي البنات! واحدة فقط أعجبتها، إنها رسامة واسمها كرينا! إنها تعتبرها أوسع تفكيراً وأرجح عقلاً من الجميع! وهي ما زالت صديقتي وصدق ظنها بها!

كان الفتى سارحاً مع أفكاره، محلقاً في سعادته؛ فكلام الصبية وثناؤها عليه، رفع معنوياته إلى أعالي السماوات، وأعاد إليه ثقته بنفسه!

- لقد أحبتك جدتي كثيراً، وأنا سعيدة بذلك! إنها لو لم تحبك، لما بقيت جالسة كل تلك المدة! لقد أحبتك كثيراً وجلست معنا ما يقارب الأربع ساعات؛ ثم شربت معنا الشاي! إن هذا نادراً ما يحدث! قالت وهي تكاد تطير فرحاً!

لقد كان الفتى طيلة الوقت الذي كانت تتحدث به الصبية ودموعه تنزل على خديه بغزارة وحرارة! لا شك أن الجلسة العائلية وأحاديث الجدة الممتعة وحبه لنيكول، ونسيم الطبيعة العليل الذي كان يداعب خديه، وسحر الليل وصوت البنية الذي هو كأنه عزف كمان؛ ثم افتقاده والدته وإخوانه وأخواته، وكل أحبابه في الوطن؛ كل هذه المؤثرات مجتمعة هيجت عواطفه وأثارت مشاعره! لقد كان يبكي بصمت... بكاء سعادة... بكاء عاشق!

أوقفت الصبية السيارة غير بعيدة عن منزل السيدة هييز، وتطلعت نحو رفيقها ربما تنتظر منه أن يفتح باب السيارة ويلقي عليها تحية الوداع وينصرف؛ ولكنها وجدته متسمراً في مكانه يحدق أمامه بالظلام على الطرف الثاني من المقعد! ولما وجدت أنه لم يغادر السيارة ولم يقل شيئاً، بل وحتى لم ينظر باتجاهها، صارت هي الأخرى تنظر أمامها وبدأت تتكلم وكأنما تكلم نفسها!

لا شك أن عدوى ما حل براكان قد انتقلت عدواه إلى نيكول فقالت:

- إنني أحب جدتي كثيراً، ولا شك أنها هي تحبني أكثر مما أفعل أنا! إنني واثقة أن كل ما يسعدني يسعدها، وأنها تعيش حياتها من أجل إسعادي! إنني أشعر كلما ذهبت لزيارة أهلي أنني غريبة في بيتهم، ولا أشعر بالراحة والسلام إلاّ بعد أن أعود إلى بيتها وألقي بنفسي بين أحضانها! لقد عرفت الغربة، لأول مرة في حياتي، عندما ذهبت العام الماضي إلى الجامعة للدراسة! لقد شعرت أول الأمر أنني أكاد أختنق من شدة الغربة واشتياقي لجدتي، مع أنني كنت أكتب إليها وتكتب إليّ وباستمرار، كما وأنني كنت أهاتفها كل أسبوع ونقضي وقتاً طويلاً نتحدث عن كل شيء وأي شيء، وكنت أقضي كل عطلة دراسية عندها!

لا يدري راكان لماذا هي تحدثه عن حياتها الخاصة، ولا لماذا استرسلت بهذا النوع من الحديث الشخصي!

- لقد أعلمتها بأنني أريد أن أنقطع عن الذهاب للجامعة فصلاً واحداً بحجة أنني أريد أن أجمع بعض النقود مصاريف دراسية، فأعلمتني بأن لا أفكر بالنقود إطلاقاً، لأن عندها من النقود ما يكفي أكثر من حاجتها، وأنها على استعداد أن تستمر في دفع جميع مصاريفي الدراسية حتى حصولي على شهادة الدكتوراه، إن أردت! إنها تملك بيتاً كبيراً في مدينة "توولا" في ولاية يوتا، ولكنه ليس في نفس المدينة التي بها جامعتي فعرضت عليّ أن ترحل وتسكن هناك وآتي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، أو حتى أن تستأجر بيتاً في نفس المدينة التي بها الجامعة ونعيش سوية!

توقفت الشابة عن الكلام للمرة الثانية، ولعلها توقعت من الشاب مرة أخرى أن يفتح باب السيارة ويخرج بعد أن يشكرها على الوقت الممتع الذي قضاه معها ومع جدتها، ولكنها لا شك احتارت بل ذهلت عندما وصل إلى أذنيها نهنهات الفتى وبكاؤه!

لا شك أنها احترمت مشاعره، لأنها لم تسأله عما يبكيه، بل بقيت صامتة لفترة خالها هو ساعات عندما قالت بصوت يذوب رقة وعذوبة:

- أنا آسفة جداً جداً! لا أدري ما الذي أطلق لساني فجعلني أحدثك عن غربتي ومشاعري، إذ لا شك أن هذا النوع من الأحاديث يؤجج فيك الحنين إلى الوطن، ويلهب مشاعرك! إنني آسفة مرة أخرى!

وهنا خنقت العبرات راكان وبدأ جسمه ينتفض كالمحموم، فدفع الباب بشدة، وجرى يعدو نحو بيت كفيلته دون أن يشكر الصبية! وما هي إلاّ لحظات حتى وصل إلى مسامعه صوت ماكنة السيارة يبتعد عنه قليلاً قليلاً حتى اختفى!

وبكل طاقاته ومن أعماق قلبه تطلع حيث اختفت السيارة وصاح بصوت لم يسمعه أحد سواه!

- خذيني معك يا نيكول ولا تتركيني وحيداً، فإنني خائف... مرعوب... دعيني ألقي برأسي على صدر جدتك، وأظل أبكي لأيام وأيام! إنني أحسّ بالضياع... أشعر وكأنما أنا طفل صغير فقد أهله وكل من يعرف!

لقد شعر المسكين أنه ترك بالسيارة قلبه وروحه، كما ترك فيها جميع عواطفه وأحاسيسه!

أمضى الشاب فترة ليست بالقصيرة مسنداً ظهره إلى الشجرة الكبيرة في حديقة بيت كفيلته، وهو يسفك بصمت دموعاً تهطل حارة وغزيرة كالمطر المنهمر، ولأكثر من نصف ساعة، حتى تخلص من كل ما يختزن في داخله من غربة خانقة ووحدة مرعبة، وشعور مخيف بالتمزق والإحباط، ثم غسل بعدها وجهه بالماء من حنفية الحديقة!

- هل أمضيت وقتاً ممتعاً؟! أرجو أن تكون قد فعلت! سألته السيدة هييز حالما فتحت له الباب، وقبل أن تسمع جوابه أضافت بحرارة وحماس:

- إنني مسرورة جداً جداً أنك وجدت صديقاً يأخذك بسيارته! أريدك أن تدعو هذا الصديق للعشاء وسأطهي لكما أشهى الطعام وأفخره! قل لي أين ذهبتما؟! وهل أعجبتك لوس أنجلوس والمدينة الصينية فيها؟!

كانت قد أغلقت الباب بالمفتاح وتقدمت من مكفولها، وعندما نظرت إلى وجهه صاحت بصوت عالٍ مذهولة ومرعوبة!

- ماذا؟! هل كنت تبكي؟! إن عينيك حمراوان كالدم! هل أصابك مرض الحنين إلى الوطن؟! لقد سمعت عنه قصصاً كثيرة!

لا شك أن ما قالته المرأة قد فجّر ينابيع عواطفه، وفتح قنوات جديدة من الذكريات والحنين إلى أهله ووطنه، فانفجر يبكي بأعلى صوته بهستيريا محمومة، ولا شك أنها أذهلت العجوز التي صارت تبكي وتنوح معه!

- لقد كنت أخشى ذلك! إنني أعرف أنك ستصاب بهذا المرض، ولكنني لم أكن أعرف بأنه سيوصلك إلى هذه الدرجة المفزعة ! أنت شديد العاطفة، وشديد الحساسية! قالت من بين دموعها، ثم اقتربت منه وصارت تربت على ظهره وثم تمر بيدها على رأسه!

ألقى الشاب بنفسه على الكنبة الطويلة وتابع بكاءه ونشيجه!

- أرجوك يا بني! إن بكاءك يحرق دمي ويمزق قلبي ويفقدني عقلي! أرجوك أن ترأف بحالي! إنك ستشفى من هذا المرض سريعاً بمشيئة الله ، وسأطلب من أبينا الذي في السموات والأرض أن يساعدك!

وهنا رفعت عينيها إلى حيث صورة السيد المسيح معلقة على الحائط وقالت!

- أبانا الذي في السموات والأرض! أسألك بمحبتك لأمك ماري أن تساعد راكان في غربته وأن تشفيه من مرض الحنين إلى الوطن! قالت ذلك وتابعت بكاءها ومسح دموعها بظهر يديها.

لقد أحسّ الشاب، وربما لأول مرة منذ وصوله إلى أمريكا، بأن المسافة التي تفصل بينه وبين أهله، ليست فقط عشرة آلاف ميل، وإنما هي مئات الآلاف من الأميال، وبأنه لن يرى مرة ثانية أمه وإخوانه وأخواته وكل من يحبهم في الوطن!

- إنك رجل، ويجب على الرجل أن لا يدع عواطفه تتحكم به!

لقد أعادت جملة السيدة هييز إلى الشاب ما قالته أمه له يوماً، وكان يبكي في غرفته كما هو يفعل الآن، بسبب أزمة عاطفية حادة كان يعاني منها في ذلك الوقت؛ فقد قالت له في حينها أن البكاء تصرف لا يليق بالرجال، وأن النساء وحدهن هن اللواتي يبكين في الملمات!

إن راكان يعرف أنه عاطفي، وعاطفي جداً، وأن هذه نقطة ضعفه؛ وأن هذه العاطفة المتوقدة قد أوقعته في مشاكل عدة، وسببت له آلاماً ومعاناة طويلتين! لقد كره هو نفسه؛ هذه العاطفة الرقيقة والمتوقدة دائماً، ولطالما تمنى لو أن الله خلقه بغير هذه العواطف الزائدة والتي طالما اعتبرها نقمة من الله وعقاباً له، والتي طالما سببت له معاناة وعذابات! إنه يعرف سبب هذه العاطفة الجياشة والتي تولدت به قبل أن يبلغ السابعة من عمره، وذلك يوم وفاة والده!

لقد كانت والدته تضعه في حجرها ، وهو طفل صغير ، وتجلس في إحدى الزوايا المعتمة في بيتهم الكبير، وتظل تنوح وتبكي لساعات وساعات! كانت تضعه في حضنها وهو صامت يحدق بها بعينيه الجامدتين، وهي تبكي

وتعدد مناقب والده، وكيف أنه مات وتركها وتركهم ولا معين لهم، بل على العكس، فإن أعمامه الذين من المفروض أن يهبوا لنجدة !

كانت والدته تضعه هو وأخته التي أصغر منه في حجرها، ويجلس أخوه وأختاه الأخريان، وتظل تبكي وتنوح وهم ينوحون ويبكون معها لساعات وساعات، وبابهم مغلق عليهم حتى لا يسمعهم أحد ولا يراهم إنسان!

ظلت هذه العادة متبعة لمدة طويلة، حتى إن راكان بعد أن كبر ووعى، صار يخرج من البيت، ويظل يركض ويركض حتى يخرج خارج المدينة، وهناك يلقي بنفسه تحت شجرة ويظل يبكي ويبكي حتى لم تعد به طاقة للبكاء، فيعود إلى بيته منهكاً ممزقاً!

هدأ الشاب من نحيبه، ولم يُسمع إلاّ صوته يتردد بين الفينة والأخرى! نهضت السيدة هييز وأنهضته معها، وقادته إلى غرفة نومه وساعدته على ارتداء بيجامته، وبعد أن ألقت الشرشف فوقه وأطفأت النور، رسمت على صدرها إشارة الصليب وخرجت!

واصل المسحوق سفك دموعه التي بللت مخدته، وصار يستعرض شريط طفولته الطويل، وظل على هذه الحالة لساعة متأخرة من الليل، حتى أدركته رحمة السماء فنام!

شيء واحد اكتشفه راكان تلك الليلة، وهو أنه لم يشعر بأية رغبة جنسية نحو نيكول، ولم يحسّ حتى أنه في حضرة شابة جميلة وجذابة، تتمتع بكل ما يشتهيه الرجل في المرأة جنسياً! كان وهو معها يشعر وكأنما هو أمام رسمة زيتية رسمتها يد الخالق الأعظم الذي أجاد فأتقن خلقها؛ وكان يشعر وهو يستمع إليها وهي تتكلم، وكأنما هو يستمع إلى سيمفونية موسيقية، وضع بها الخالق سحراً سماوياً!

*****

ما كادت نيكول توقف السيارة أمام بيت جدتها، وقبل أن تطفئ ماكنتها، حتى قفز راكان من مقعده إلى جانبها ودار حول السيارة، وبسرعة مذهلة فتح لها الباب بيده اليسرى، وفرد يده اليمنى في الهواء احتراماً لها!

- شكراً جزيلاً! إنني لم أتعود هذه المعاملة الفروسية من أصدقائي من الشباب! قالت وهي تتضاحك وقد أخرجت رجلها اليسرى من السيارة ومازالت رجلها اليمنى داخلها، فانحسر فستانها إلى الوراء وظهر تحته فخذان عاجيان كأنهما عمودان سُكبا من الشمع الناصع البياض، فظهر تحته كلسون أزرق اللون أضفى على الفخذين جمالاً فوق جمال! وبطريقة عفوية حوّل راكان نظره إلى الجهة الأخرى وتظاهر وكأنما ينظر إلى شجرة صفصاف في حديقة البيت؛ وفكّر أن يقول شيئاً لكنه وجد أن لسانه قد تجمّد في مكانه، وأن عقله قد تعطل عن التفكير! لا شك أن الصبية قد لاحظت ارتباكه وخجله فقالت:

- إنه ليرضي أنوثتنا، نحن النساء، أن نعامل باحترام وأدب!

- إنه ليسعدني ويشرفني أن أكون في خدمة الآنسات الرقيقات من أمثالك! قالها الشاب بحماس، بعد أن أغلق باب السيارة خلفها!

ابتسمت له وشكرته، فأحسّ وكأنما ضمته بين جفونها!

حالما دخلا باب المنخل، وصلت إلى أنف الضيف رائحة طعام شهية ومحببة ذكرته بالطعام الذي كانت تطهوه له أمه أو إحدى أخواته، فشعر بعاطفة جياشة للأهل، وأحسّ وكأنما يدخل بيتهم في الوطن.

- أنا هنا يا جونزي! قالت نيكول وهي تبحث بناظريها عن جدتها في غرفة الجلوس.

- أنا هنا يا عزيزتي! أنا في غرفة نومي! هل حضر راكان معك؟! وصل صوت العجوز ضعيفاً ولكن مملوءا بالحب والحنان!

- لا يا جونزي! إنه يعتذر! إنه لا يستطيع الحضور بسبب زيارة غير متوقعة من صديق له من وطنه! إنه يبلغك تحياته! قالت الصبية وهي تنظر إلى الشاب وتبتسم ابتسامة فيها شقاوة وشيطنة، وكأنها طفلة صغيرة تمزح مع أمها، ثم أشارت إلى راكان أن يختبئ في الزاوية القريبة منه!

ارتبك الشاب واحتار ماذا يفعل، وتجمد في مكانه لا يبرحه، والفتاة تشير إليه بيدها وشفتيها أن يختبئ!

- أشعر بخيبة كبيرة! ولم لم تدعي صديقه للعشاء أيضاً؟! عندنا طعام كثير! سألت العجوز بصوت فيه خيبة ونغمة حزن، وهي تخرج من غرفة نومها وتتجه إلى غرفة الجلوس حيث يقف الشابان!

- لقد فعلت ذلك، ولكنه اعتذر! قالت البنية وهي مازالت تشير إلى راكان أن يختبئ في الزاوية!

شعر الشاب بأن مزحة الحفيدة لجدتها كانت قاسية على العجوز، وأنها أكثر مما يحتمل، وهنا رفع صوته وقال بغير إرادة منه:

- أنا هنا يا سيدة جوليت! نيكول تمزح معك! قال وهو يتقدم باتجاه موقع العجوز، وعندما تقابلا هجمت عليه وطوقته بيديها، وهي تقول:

- آه يا عزيزي كم أنا سعيدة أنك استطعت الحضور!

- وأنا كذلك سعيد جداً أن أراكِ! قال ذلك وقد فارقه خجله فتشجع وأحاط رقبة الجدة بيديه وضمها إلى صدره، وشعر في تلك اللحظة بحنان جارف وكأنما هو يضم أمه إلى صدره!

- وهل ستقضيان المساء كله بالعناق؟! سألت الصبية وهي مازالت مستغرقة بالضحك!

- أرجوكِ يا عزيزتي أن لا تمزحي معي مثل هذه المزحة مرة أخرى! قالت العجوز وقد فكّ راكان يديه من حول رقبتها؛ وقد استولت على كل كيانه سعادة جارفة ممزوجة ببعض الألم فقال:

- إن رائحة طعامك تذكرني برائحة طعام الأهل في الوطن!

- اذهبا أنتما واجلسا في غرفة الجلوس حتى أطبخ اللحم والبازيلاء وأعمل السلطة! قالت الحفيدة مخاطبة جدتها!

- إن اللحم يُشوى على نار هادئة وسيكون جاهزاً بعد دقائق قليلة، والبازيلاء والسلطة جاهزتان! فقط رتّبي أنت طاولة الطعام! قالت العجوز هذا، فأحسّ الضيف والعجوز تتكلم مع حفيدتها وكأنما تعتذر لها عن ذنب ارتكبته؛ كما رأى أن عينا الحفيدة قد اتسعتا حتى كادتا أن تكونا بكبر وجهها!

- إنك لا شك تمزحين! أنا لا أصدق أذني! قالت الحفيدة ذلك وانحرفت برقة ورشاقة وسارت نحو المطبخ، ثم رفعت الغطاء عن المقلاة، فوصلت إلى أنف راكان رائحة شواء قوية، وسمع لقطعة اللحم صوتاً محبباً وهي تنضج ! قالت الصبية باستغراب وحيرة بعد أن عادت ووقفت أمام جدتها والدهشة تسيطر عليها، فنظرت في وجهها وتأملت عينيها وقالت:

- ماذا حدث لكِ يا جونزي؟! ما هذا التغيير المفاجئ في حياتك؟! إنني لا أكاد أصدق عيني!!

- لا بأس يا حبيبتي! إنه من أجل خاطر راكان! أجابت العجوز وهي تبتسم خجلى وقد ألقت بناظريها إلى الأرض ! وبعد أن مصمصت شفتيها رفعت عينيها رويداً رويداً ونظرت إلى وجه حفيدتها وأضافت!

- إنني أعرف أنكما جائعان بعد عمل يوم شاق وطويل، فلا أريدكما أن تنتظرا أكثر مما يجب!

لم يفهم راكان من محاورة المرأتين شيئاً، وتساءل بينه وبين نفسه عن سرّ استغراب الحفيدة لما قامت به جدتها، ولا عن سرّ اعتذار الجدة لحفيدتها، إلى أن سمع الصبية تخاطب العجوز قائلة:

- ولكنك لم تفعلي هذا طيلة جميع السنوات التي عشتها معكِ! وبعد أن بللت شفتيها بلسانها أضافت!

- إني أعرف أنكِ لم تفعلي هذا لزوجك ولا حتى لأحد من أولادك وأحفادك!

لم تجب الجدة بشيء، وإنما ألقت من جديد بناظرها إلى الأرض، وكأنما هي طفل ارتكب خطأ وينال توبيخاً وتأنيباً من والدته!

أما الفتى فكان ينقل طرفه بين المرأتين وكأنما يرجوهما إيضاحاً!

- سأعتمد عليك بعد اليوم في طبخ اللحم أو شوائه! ثم التفتت إلى الشاب الحائر والواقف إلى جانبها وقالت وابتسامة كبيرة تغطي وجهها!

- الشكر لك يا راكان؛ إذ بسببك صارت جدتي تطبخ اللحم وتشويه ولأول مرة في حياتها!

رفعت العجوز عينيها إلى الشاب الذي كان مازال يحملق بها مشدوهاً، فرأى دموعاً غزيرة تنزل من عينيها، فأحسّ بعاطفة جارفة تهزه، وبلا إرادة منه، وجد نفسه يهجم عليها ويعانقها بشوق وحرارة، ويقبلها مرات ومرات فوق رأسها وعلى رقبتها وهو يردد:

- ما أسعدني يا سيدتي أن أكون صديقاً لحفيدتك الآنسة نيكول، ولأتعرف عليك ولأنال كل هذه المحبة! قال راكان وعاطفة جياشة تهزه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه!

- ما أسعدك حقاً! قالت الحفيدة وهي تتضاحك، ثم أردفت:

- لقد جلبت إلى نفسي منافساً ينافسني في حب جونزي لي!

- لا يا عزيزتي؛ إن حبي لراكان يختلف عن حبي لكِ! قالت الجدة بحماس ولكن بصوت خافت ضعيف مملوء محبة وحناناً!

- لقد ذكرت لنا في زيارتك السابقة، بأنكم في بلادكم تأكلون وتحبون لحم الخراف، فذهبت صباحاً إلى السوبرماركت المجاور، واشتريت لك هذا النوع! الناس هنا لا يأكلون لحم الخراف كثيراً، ولذلك لا تجده في كل سوبر ماركت، وإن وجدته فهو محدود وبكميات قليلة! على كل حال، قل لنا ما هي الأكلات التي تحبها وأنا أجهزها لك! قالت العجوز وهي تتوقف بسبب وهنها وضعف جسمها، بين كل جملة وأخرى!

- صدقيني، أنا أحب جميع الأكلات؛ وذكرت لك لحم الخراف لأننا في بلادنا معظم لحمنا هو لحم خراف؛ ولم أعرف أنك ستعذبين نفسك من أجلي، فتذهبين وتبحثين عن لحم الخراف! قال راكان معتذراً!

- كنت أشعر بسعادة وأنا أشتري وأطبخ لك أكلتك المفضلة، لأنني أعرف أن نيكول تريدك، وكل من تريده نيكول فأنا أريده أيضاً !

لم تعلق الصبية على كلام جدتها ، وإن لاحظ الفتى بعض الاحمرار فوق وجنتيها!

جلس الثلاثة على طاولة الطعام، فطلبت الجدة إلى حفيدتها أن تقول صلاة الطعام، وبعد أن فعلت بدأوا يتناولون الأكل.

كان العشاء يحتوي على شرائح لحم الخروف المحمرة وبعض البطاطا والفاصوليا الخضراء المسلوقتين، وكذلك بعض الجبنة الصفراء والبيضاء، وسلطة مزيج من الخس والبندورة! وعدة شرائح من الخبز وبعض الزبدة!

أما الشراب فكان كأسان من الماء للمرأتين وكأساً كبيرة من الحليب البقري المبرد للشاب! وديرت الصحون على ثلاثتهم فأخذت كل من المرأتين ملعقة صغيرة من كل شيء وقلدهما الضيف ما عدا اللحم؛ فإن الجدة لم تأخذ شيئاً منه، إذ علم بأن الجدة نباتية لا تأكل اللحم ولا تطبخه إطلاقاً، ولا حتى تطيق رؤيته، ولهذا السبب دار الحوار بين الجدة وحفيدتها! أما نيكول وراكان فقد أخذ كل منهما شريحة، وبدأوا يأكلون!

نظر الشاب إلى ما على طاولة الطعام أمامه، فوجد أن كل ما عليها يستطيع أن يلتهمه بعد أن يكون قد انتهى من تناول عشائه وشبع، ففكر بأنه سيتعشى من جديد بعد عودته إلى بيت كفيلته، ولكنه تساءل كيف تستطيع هاتان المرأتان أن تعيشا على مثل هذا المقدار القليل من الطعام؛ وفكر بأبناء وطنه وكميات الطعام الهائلة التي يستهلكونها!

- في المرة القادمة، تذهب أنت ونيكول وتشتريان ما تحب ونساعدك نحن في طبخه! قالت الجدة وهي تغرز شوكتها في قطعة بندورة في صحنها!

- إذا قلت لكما أنني حتى اليوم لا أعرف أن أعمل إلاّ السلطة، فلا تظنناني أبالغ! قال راكان بتواضع!

- ولمَ؟! ألم تطبخ في حياتك؟! سألت المرأتان تقاطعان بعضهما البعض!

- إنني لم أعش يوماً واحداً بعيداً عن والدتي وأخواتي، وهنّ دائماً يقمن بعملية الطبخ وغسل الصحون؛ وفي المجتمع العربي تقوم المرأة عادة بالطبخ والغسيل! قال الضيف وهو يبتسم ثم أردف:

- حتى عندما ذهبت إلى القاهرة للدراسة، كنت أسكن وبعض الطلاب، وكان عندنا خادم نوبي يقوم بعملية شراء كل حاجيات الطعام، وكذلك الطبخ وغسل أدواته، كما كان يقوم بغسل ملابسنا وكيّها!

- إذن أنت بحاجة دائمة إلى من يطبخ لك ويغسل! لا شك أنك مفسد! قالت الحفيدة وهي تتضاحك!

لاحظ راكان أن الجدة نظرت إلى حفيدتها نظرة علامة لوم وتأنيب؛ فقال وهو يبتسم وبروح دعابية، محاولاً أن يزيل تأثر العجوز:

- إنني إنسان محظوظ، ييسّر لي الخالق، سبحانه وتعالى، دائماً من يخدمني!

- وماذا لو طلبت إليك كفيلتك أن تقوم بالطبخ أو بغسل الصحون؟! سألت الصبية.

وبعد أن ضحك الشاب طويلاً أجاب:

- لقد حدث بالفعل! ففي الليلة الثالثة لوصولي، وبعد أن تناولنا العشاء والحلوى، طلبت إليّ أن أساعدها في غسل الصحون! لقد كنت واثقاً بأننا الوحيدان في البيت، ولكنني وبطريقة لا شعورية، نظرت يمنة ويسرة لأتأكد من أن أحداً لم يسمعها، وتابعنا حديثنا! وبعد عدة دقائق سألتني ثانية فتجاهلت سؤالها وبدأت أتحدث في موضوع جديد، وأخيراً سألتني عن سبب تجاهل طلبها، فأجبتها غاضباً وقد شعرت حقاً بالإهانة:

- وهل ساعدتني بالحضور إلى هنا من أجل أن أغسل لك الصحون؟! ذهلت المرأة عند سماعها جوابي، فاستفسرت مني بهدوء ومحبة عن سرّ غضبي، فأجبتها بحدة:

- سرّ غضبي هو أن جميع ما يُعمل بالمطبخ هو من وظائف النساء!

اعتذرت المسكينة وتجاهلت ما حدث، وإن أعلمتني بأنه لا يوجد عمل منزلي، هنا في أمريكا، لا يقوم به سوية الرجل والمرأة!

ضحكت نيكول وبدت أسنانها ناصعة البياض وكأنها عقد من اللؤلؤ، وابتسمت الجدة وكأنها ملاك رحيم!

- إذن، اطمئن لن نطلب إليك غسل الصحون!

- أنا أعرف أنها عادات سيئة، وأحاول أن أتخلص منها بعد وصولي إلى هنا!

- إنها ليست عادات سيئة يا بني، ولكنها تركيبة المجتمع! قالت الجدة.

- إن عيشك في المجتمع الأمريكي، سيرغمك على ترك كثير من عاداتك وتبني عادات المجتمع الجديد! قالت الحفيدة. وبعد أن بلعت اللقمة أضافت:

- إن لكل بلد عاداته! فقد دُعينا ومجموعة من الطلبة الأمريكان إلى العشاء في منزل مدير إحدى المدارس الثانوية في باريس، فقد شعرنا بأن شرائح اللحم التي قدمت لنا تختلف في طعمها عن مذاق ما نأكله من اللحم هنا في أمريكا؛ وبعد العشاء وأثناء الحديث ذكرت إحدى الزميلات لمضيفنا، في معرض الحديث، بأن مذاق اللحوم في فرنسا يختلف كثيراً عن مذاقه في أمريكا!

- هذا لأن اللحم الذي أكلتموه الليلة هو لحم خيول؛ وأنتم لم تتعودوا على أكله هناك! أجاب المضيف!

- ومنذ تلك الليلة، لم نذق لحماً في فرنسا طيلة الرحلة، حتى ولو أقسموا لنا على التوراة بأنه ليس لحم خيول! قالت الصبية!

- إذن أنت زرت فرنسا؟! سأل الشاب.

- نعم، كان ذلك قبل عامين! أعلنت مدرستنا عن أن أستاذ اللغة الفرنسية فيها، سيقضي شهراً كاملاً من فصل الصيف في فرنسا، وأنه قد اتفق مع شركة بواخر فرنسية على تخفيض أجور السفر إلى الربع أن أحضر خمسة عشر طالباً، على الأقل؛ وشجع الأستاذ الطلبة الذين يدرسون اللغة الفرنسية على السفر، لأن تلك فرصة عظيمة لهم لكي يتمرنوا على سماع اللغة في بلدها، وليس فقط من خلال الدراسة!

- هذا صحيح! لقد وجدت أن فرقاً كبيراً في اللغة الإنجليزية بين ما درسته في الكتب وبين ما وجدته في الواقع! لقد تكلمت هنا مع أحدهم مرة، طبعاً، باللغة الإنجليزية، فاستغربتُ لماذا أجابني بلغة لا أفهمها، ولما سألت قيل لي أنه يتكلم معك باللغة الإنجليزية؛ فاندهشت جداً! قال الفتى معلقاً، وقد تذكر قصته العتيدة مع رئيسه السيد روبرت في الشركة!

- ذكرت ذلك أمام جونزي ولم يخطر على بالي السفر؛ ولشدة دهشتي عندما أعلمتني بأنها تود وبحرارة، لو أقبل السفر مع المجموعة، وأنها مستعدة لإعطائي جميع نقود تلك الرحلة! قالت الحفيدة التي كانت وهي تتكلم تنظر إلى وجه جدتها، والتي بدورها كانت تبتسم!

- لا شك أنك محظوظة أن تكون لك جدة مثلها! قال الشاب معلقاً!

- نعم، إنني جد محظوظة، وجد سعيدة! إنني أشكر الله دائماً أن يسّر لي مثل هذه الجدة العظيمة! قالت الصبية بحنان ورقة وهي تطبطب بيدها على ظهر يد جدتها.

- وأنا سعيدة ومحظوظة أن تكون لي حفيدة مثلك! قالت الجدة وهي تنظر إلى حفيدتها وكأنما تعانقها!

- لقد قاموا بنفس الرحلة صيف العام الماضي، ولكنني لم أذهب معهم بسبب عدم تواجدي هنا. أما هذا العام فقد سجّلت اسمي لأذهب معهم أنا وصديقتي كارولاين؛ وسيكون السفر في منتصف الشهر القادم!

انزعج الفتى وعلت وجهه مسحة من الكآبة، فقد تصور نفسه وحيداً بعد سفرها! ولا شك أن الصبية قد لاحظت انقباضه لأنها قالت:

- لو كنت قابلتك قبل أن ألتزم لما سافرت. على كل حال، هذا العام مدة الرحلة أسبوعان فقط، والسفر بالطائرة وليس بالباخرة!

شعر الشاب بسعادة غامرة لهذا الجو العائلي المفعم بالمحبة والحنان، وتمن لو يقضي العمر كله بهذه المتعة السماوية ، ثم شكر الخالق أن يسّرله هذه العائلة الكريمة !

استرجع راكان ذكرياته يوم تخرجه من المدرسة الثانوية! لقد جاء يركض إلى البيت، بعد أن قرأ اسمه في لوحة الناجحين بالمدرسة، ودخل على والدته وكانت تمشط شعر أخته الصغرى وتغني لها، فوقف فوق رأسها وهو يلهث، وانتظر حتى انتهت من أغنيتها فأعلمها بأنه نجح في الثانوية العامة، فقالت له دون أن ترفع رأسها إليه ودون أن تتوقف عن مشط شعر أخته؛ "مبروك يا ابني وعقبال الوظيفة!" ظل واقفاً فوق رأسها حتى انتهت من تسريح شعر شقيقته فأنهضتها وطلبت إليه أن يجلس في حجرها مكان شقيقته ، وبعد أن قبلته على خده صارت تسبل على رأسه وتغني له، وفجأة انفجرت بالبكاء، وانضم إليها هو وكل الشقيقات، واستمر جميعهم بالبكاء لفترة ليست بالقصيرة !

لاحظ الضيف أن المرأتين كانتا تتناولان طعامهما برقة ونعومة، وكأنهما فنانتان تداعبان أوتار عوديهما!

حمل راكان صحن شرائح اللحم وطلب إلى الحفيدة أن تأخذ القطعة المتبقية فهزّت الصبيّة رأسها علامة الرفض وقالت:

- إنها لك! لقد اشترت جونزي ثلاث قطع، اثنتان لك وواحدة لي! أنا لا آكل أكثر من قطعة واحدة.

استغرب الشاب كيف يستطيع إنسان في هذا العالم، أن يعيش العمر كله ولا يأكل لحماً! إنه يستطيع أن يأكل نصف خروف في اليوم الواحد لو تيسّر له ذلك! نعم؛ لقد قرأ أن الكاتب الإيرلندي العظيم برنارد شو ، كان نباتياً ، وكذلك الكثيرين من الناس في العالم، ولكن عقله لم يستطع أن يستوعب أن يعيش إنسان دون أن يأكل لحماً!

- لعلك لم تعرف سبب نقاشي وجدتي بخصوص طبخ اللحم هذا المساء! إنها لم تطبخه في حياتها حتى ولا لزوجها، إذ إن مجرد فكرة طبخه أو أكله تجعلها تشعر بالغثيان؛ ولكنها الليلة، ولأول مرة في حياتها، تشتريه وتطبخه! وبعد أن تضاحكت أضافت:

- لا شك أنها أحبتك أكثر منا! قالتها بشقاوة طفل صغير!

عقدت الدهشة لسان الشاب ولم يستطع أن يتفوه بكلمة، كما لاحظ أن وجنتا العجوز قد احمرتا فألقت بناظرها إلى صحنها!

- أنا آسفة يا جونزي! أحب أن أمزح معكِ فاعذريني! ثم قامت من على مقعدها وعانقت جدتها من الخلف وقبّلت رأسها!

- لا بأس عليك يا عزيزتي! ولكن لأقول لك الحقيقة وهي أن قلبي أراد راكان كثيراً! إنني ومنذ قابلته وأنا أتمنى لو أنه ابني! ولتشهد السماء على ذلك! كانت العجوز تتكلم بصوت خافت وبطء شديد!

وهنا جاشت مشاعر راكان، إذ هزته صراحة المرأة وصدق عواطفها، فلم ير إلاّ والدموع تملأ مآقيه وتنزل غزيرة وحارة، فقال وهو يبتلع ريقه بصعوبة ويحاول أن يخفي دموعه:

- آمل يا سيدتي أن أكون عند حسن ظنك، وأرجو أن تعتبريني منذ هذه اللحظة ابنك، إذ إنه يشرفني ويسعدني أن أكون ابناً لسيدة في داخلها محيطات من المحبة والعطاء للآخرين! ثم وضع يده اليمنى على يد العجوز وكأنما ليوقع بإمضائه على التزامه بما وعد.

مرّت فترة صمت قطعتها الحفيدة بلهجة فيها العمق والصدق ويخرج من أعماق قلبها:

- صدقيني يا جونزي إنني سعيدة جداً بأن أقدم لك صديقاً تريدينه كثيراً! وتوقفت قليلاً وكأنما تريد أن تفكر بما ستقوله وأضافت:

- وإن كنت أحياناً أشعر ببعض الغيرة بأن يكون هناك إنسان يشاركني حبك العظيم!

شعر راكان بالخجل والارتباك ، ففكر أن يغير موضوع الحديث فقال:

- إن هذه أول مرة في حياتي أرى بها إنساناً لا يأكل لحماً! لقد قرأت في أدبنا العربي عن شاعر وفيلسوف أعمى اسمه أبو العلاء المعري، لم يأكل لحماً في حياته بسبب معتقد فلسفي، إذ كان يؤمن بأن بني آدم يستضعفون الحيوانات فيذبحونها ويأكلون لحومها، واعتبر هذا إهانة للآدمية، حتى إنه خاطب الديك فقال: "استضعفوك فذبحوك"! فهل عدم أكلك للحم معتقد فلسفي أم ديني؟

- لا هذا ولا ذاك! كنت حتى سن العاشرة آكله مرغمة من قبل والدتي، وبعدها أصررت على عدم أكله، لأن أكله يجعلني أستفرغ فعلاً! وعندما كبرت قرأت أن هناك أناساً كثيرين لا يأكلون اللحوم لأسباب صحية أو فلسفية!

- ألم يطلب إليكِ زوجكِ أن تطبخي له لحماً؟! سأل الشاب.

- لا، كان يعرف قبل أن يتزوجني بأنني لا آكل اللحم ولا أطبخه، فاحترم رغبتي! كان يطبخه بنفسه، وعندما كبرت البنات صرن هنّ يطبخنه!

- وهل اشترطت عليه قبل أن يتزوجك بأنك لا تطبخين اللحم؟! وبعد أن ألقى سؤاله تمنى لو أنه لم يفعل، إذ شعر بخجل و بتفاهة سؤاله!

- إن الناس يا بني عندما يحبون بعضهم بعضاً، لا يشترطون عليهم شروطاً! إنهم يحترمون رغبات ومعتقدات الآخرين ، ويكونون سعداء أن يلتزموا بها !

"ليس هذا في عالمنا العتيد المتأخر، عالم الجهل والتجهيل!" قال الفتى لنفسه!

- هل تصدق يا راكان أن جدتي أحبت زوجها من أول نظرة! قالت الحفيدة وقد ازداد إشراق وجهها، واتسعت دائرة ابتسامتها!

- نعم أصدق! ولكن كيف حدث ذلك؟! سأل الشاب الجدة باهتمام مبالغ به.

- نعم يا بني! إنني ومنذ أول مرة تكلمت مع السيد جوليت، أحسست وكأنما أعرفه منذ مدة طويلة، فقد شعرت وكأنما روحانا قد امتزجتا معاً، وأن قلبينا قد خفقا سوية! ولقد جزمت بأنني أكلم زوج المستقبل وأب أولادي!

- إذن أنت تؤمنين بهذا الاعتقاد؟ ! سألت الشابة وقد اتسعت حدقتا عينيها استغراباً واستهجاناً!

- نعم ! ألا تؤمنين به أنتِ؟

- طبعاً لا! كيف أحب شخصاً أراه لأول مرة ؟! من يدريني إن كانت أخلاقه حسنة وتصرفاته طبيعية، وأن طباعه توافق طباعي؟!

- هذا صحيح! ولكننا أحياناً نشعر بسعادة طاغية نحو أشخاص نقابلهم لأول مرة، ونظن وكأنما نعرفهم منذ مدة طويلة، فنحبهم، ونتمنى البقاء إلى جانبهم ! نحس أن بيننا تفاهم وانسجام عظيمين يمكن أن يتحولا إلى حب ! قال الضيف بثقة وإيمان !

- إن هذا قد يحدث في المجتمعات البدائية والتي لا يختلط بها الرجال بالنساء، كما ولا شك أنه حدث في الأزمان الماضية عندما كان من الصعب على الجنسين أن يلتقيا، أما في وقتنا الحاضر فأعتقد أنه من الصعب حدوثه! قالت الصبية بحماس!

فكر راكان أن يعلمها بأن الحب من أول نظرة مازال يحدث حتى هذه اللحظة وسيظل يحدث إلى نهاية العالم في مجتمعه العربي والإسلامي، لاعتبارات خاصة، ولكنه خشي أن تتهمه هو وعالميه بالتعصب والرجعية فاكتفى بالتعميم فقال:

- لا شك أن لكل جيل خصائصه، ولكل بلاد ثوابتها!

- صدقت يا بني! قالت العجوز بحماس وأضافت:

- إنني أتكلم عن مدينتي الصغيرة، توولا في ولاية يوتا، قبل أكثر من سبعين عاماً! لقد كان الشبان والشابات لا يختلطون ببعضهم كما يفعلون في هذه الأيام! كانت هناك عادات وتقاليد يجب مراعاتها! كان اختلاطنا إما بزيارة

العائلات لبعضهم البعض أو بلقائهم يوم الأحد بالكنيسة أو بمناسبات أخرى، وكانت المدارس غير مختلطة! كل شيء كان يختلف عن هذه الأيام!

- مازال عندنا حتى هذه الأيام الكثير من المدارس التي لا يختلط بها الذكور بالإناث! قال الشاب.

- كنت أقف مع والديّ وأخي في ساحة الكنيسة يوم الأحد بعد انتهاء الصلاة، عندما لفت انتباهي شابٌ غير بعيد منا يقف مع والديه وأخته، لا يحول نظراته عن التطلع إليّ، فقفز قلبي وخفق وشعرت بسعادة لم أشعر بها من قبل، فعرفت أنه الحب! إنني كلما أنظر نحوه أجده لم يحول نظره عني! لقد كنت أعرف وجوه جميع سكان مدينتنا، "توولا " ، أما ذلك الشاب وعائلته فإنني أراهم لأول مرة، إذ لا شك أنهم قادمون إلى بلدتنا حديثاً!

"صدقيني يا سيدتي إنني أحببت فتاة في الوطن ، حباً كالتقديس وكالعبادة ، لسنوات طويلة، ومن أول نظرة، ولم أكلمها أو تكلمني طيلة تلك السنوات! وصدقيني أيضاً أنني مازلت أحبها، وسأظل أتذكر حبها ما دمت حيّاً!" قال راكان لنفسه!

- إن الناس في البلدات الصغيرة يعرفون بعضهم جيداً، وإن كانوا لا يتكلمون معاً! تابعت الجدة!

- لقد كنت أعرف وجوه جميع سكان مدينتنا تقريباً، وإن كنت لا أعرف أسماءهم! لقد حضرت إلى مدينتنا من العاصمة فتاة لزيارة أختها المتزوجة، فعرفنا عنها كلنا، نحن شباب المدينة! قال راكان بفخر!

رفعت السيدة جوليبيت الشوكة إلى فمها برشاقة وتأنٍ، تماماً كما يفعل الفنان الذي يداعب بأنامله الرقيقة أوتار كمانه، وأضافت:

- تقدم أربعتهم منا، هو ووالداه وأخته، وعرّفونا بأنفسهم وبأنهم رحلوا إلى توولا حديثاً من عاصمة الولاية "صلت ليك سيتي"! لقد أحببته من أول لقاء لنا، ومازلت أحبه رغم موته! لقد كان الناس في السابق يتزوجون ليقضوا كل حياتهم مع بعض، وليس مثل هذه الأيام ، إذ إن الكثيرين منهم يتزوجون لفترة قصيرة ثم ينفصلون!

لم يستطع الفتى أن يمنع نفسه من مقارنة هذه الجدة بكفيلته، رغم أن فارق السن بينهما حوالي العشرين سنة! إنهما مختلفتان في كل شيء، إذ إن جسم السيدة هيبز ضخمٌ وتأكل كميات كبيرة من الطعام كل وجبة، وتشرب كثيراً من السوائل، وخصوصاً شراب الليمون المثلج والمتواجد بصورة دائمة في الثلاجة؛ كما إنها مملوءة نشاطاً وحيوية يمكنانها من العمل في الحديقة كل يوم ! إنها وإن تحدثت تكلمت بصوت عالٍ ونشط؛ لم تقرأ كتاباً أدبياً في حياتها، وإنما تقرأ كل يوم الجريدة "لوس أنجلوس تايم"، وتهتم كثيراً بقسم الإشاعات والفضائح، على مستوى الولاية بل وفي أمريكا كلها!

- اذهبي يا عزيزتي أنتِ وراكان واجلسا في غرفة الجلوس، حتى أغسل أدوات الطعام وألحق بكما! قالت الجدة وهي تنهض وتحمل صحنها الفارغ، بعد أن انتهى ثلاثتهم من تناول الطعام!

- لا يا جونزي، سأغسلهما أنا؛ اذهبا أنتما إلى غرفة الجلوس! قالت الحفيدة وهي تمد يدها وتأخذ الصحن من يد جدتها!

- عندي اقتراح؛ ولم لا نتساعد ثلاثتنا ونغسلها معاً! قال الضيف وهو ينهض حاملاً صحنه.

- ماذا؟! لا شك أنك تمزح! قالت الصبية؛ أما الجدة فقد اتسعت حدقتا عينيها وهي تنظر إلى الشاب مشدوهة حائرة وكأنما لا تصدق أذنيها!

- ألا تشعر بأن رجولتك ستهان؟! قالت الصبية بخبث ممزوج بالشيطنة.

- إن المثل العامي عندنا يقول "إن أتيت بلداً ووجدت أن أهله يعبدون عجلاً فأحضر حشيشاً وأطعمه"؛ والمثل الأمريكي كما تعلمون يقول "إذا كنت في روما فافعل كما يفعل الرومان" ! أليس هذا صحيحاً؟ ! قال ذلك وهو يضحك؛ كما لاحظ أن المرأتين مازالتا تحت تأثير المفاجأة وقد تجمدت كل منهما في مكانها وكأنها تمثال!

- أسرعا حتى لا يضيع الوقت؛ قال ذلك ثم توجه إلى المطبخ.

وما هي إلاّ لحظات حتى كانت نيكول تغسل الأدوات وراكان يجففها والسيدة جوليت تضعها في أماكنها على الرفوف وفي الأدراج.

- أرأيتما؟! إن العملية لم تستغرق إلاّ دقائق قليلة! قال الشاب وهو يشعر بالفخر والسعادة معاً!

- أشكرك يا بني! إنني مسرورة حقاً أن أراك تتقبل بعض العادات الأمريكية الغريبة عليك ، بتفهم واسع! قالت الجدة وهي تنظر إلى وجه ضيفها نظرات كلها حب وامتنان!

- اخفضي صوتك حتى لا تسمعك كفيلتي، فتطلب إليّ أن أساعدها كل ليلة في غسل أدوات الطعام!

وضحك ثلاثتهم وغادروا المطبخ!

في طريقه إلى غرفة الجلوس، لفت انتباه راكان خزانة موضوعة في زاوية الغرفة، مصنوعة من خشب الجوز ومدهونة باللون العنابي، ولها باب زجاجي. وقف أمامها مشدوهاً يحدق بما في داخلها!

- يا إلهي! ما هذا؟! قال ذلك وصار يحدق بما في داخل الخزانة من محتويات!

- وهل أعجبتك؟! سألت العجوز فرحة!

- إنني لم أعرف أنكم كنتم تربون الغنم والبقر والجمال! قال الشاب بحيرة!

- ومن قال لك أننا كنا نربيها؟! سألت الحفيدة باستغراب !

- أليست هذه الأجراس والنحلات والقراقيع ، توضع في رقاب الأبقار والأغنام والجمال؟ ! سأل الشاب.

انفجرت الحفيدة تضحك وهي تنظر إليه باستغراب ودهشة!

- إنني أحب جمع الأجراس كأية هواية أخرى، مثل جمع الطوابع والتحف والكتب وغيرها! قالت الجدة.

لم يستطع راكان أن يستوعب فكرة هذا النوع من الهواية، إذ لو أن أحدهم فعل ذلك في وطنه لظنه الناس مجنوناً؛ هواية جمع أكثر من مائة جرس وقرقاع ونحلة، ولكن هنا في أمريكا، فكل تصرف مهما كان غريباً، فهو تصرف مقبول وعاقل!

- أنا آسف أن أظهر جهلي! إنني أعرف ذلك لأول مرة في حياتي! قال الشاب وهو يمسح العرق المتصبب من على جبينه! وأضاف:

- لقد كان والدي مزارعاً، وكنا نملك كثيراً من الحيوانات كالحمير والبغال والأبقار والأغنام والماعز، وكنا نعلق هذه الأجراس في رقابها، إمّا للزينة والتجمل أو لإعلامنا بقدومها أو بعدها عنا!

نظرت العجوز إلى الفتى وعلى شفتيها بسمة حنونة ولكن خجلى، ثم فتحت باب الخزانة وتناولت أكبر جرس فيها وقالت:

- لقد صار لهذا الجرس أكثر من أربعين عاماً في هذه الخزانة! لقد قدّمه لي السيد جوليت هدية بمناسبة عيد زواجنا! وهزّت الجرس فسمع له صوتاً عميقاً!

بعد أن أعادته إلى مكانه أخرجت الذي بجانبه وكان بحجم الأول ولكن له قبضة ومصنوع من النحاس، ذكّر راكان بجرس مدرسته السلط الثانوية، يوم كان ساعي المدرسة يلف حول بنايات المدرسة ليعلم الطلاب الموزعين حول المدرسة وحتى الذين مازالوا في بيوتهم أو قريباً منها، بأن يسرعوا بدخول فصولهم!

- وهذا أعطته لي والدة نيكول بمناسبة عيد ميلادي! وبعد أن أعادته إلى مكانه أشارت إلى ثالث ورابع وخامس وعاشر، وصارت تذكر تاريخ كل واحد منها ومن أعطاه لها والمناسبة التي أعطيت بها، كما أن قسماً كبيراً منها ابتاعته هي نفسها؛ وعندما سألها عن عددهم أجابت بأنه ثمانية وثمانون!

- إن عددهم كعدد سنوات عمر جدتي! إنها حين تعطى هدايا، ولم يكن يوجد بين هذه الهدايا التي تعطى لها بمناسبة عيد ميلادها جرس، فإنها لا بد وأن تشتري واحداً تضيفه إلى المجموعة، حتى يتطابق عددها مع عدد سنوات عمرها! قالت الحفيدة وابتسامة كإشراقة صباح يوم ربيعي زاهر، وليشهدالخالق، أنك تفكر أن تهجم عليها لتقبلها!

- النحلات المثبتة على الباب الرئيسي وعلى باب المنخل، وكذلك المثبتة على البا ب الخارجي للمطبخ، كلها؛ لم يدخل عددها بالحساب! قالت الحفيدة.

وتذكر راكان أنه عند فتح أحد الأبواب الأربعة، تهتز عدة نحلات من على كل باب، لتعلم من بداخل البيت، إن إنساناً قد فتح الباب إما ليدخل أو ليخرج!

- وكم عدد تلك النحلات؟! سأل الشاب.

- عددها ستة عشر، أربعة مثبتة على كل باب! قالت الصبية والابتسامة الملائكية مازالت فوق شفتيها!

- إنها حقاً هواية ممتعة وجميلة! قال راكان مجاملاً، وإن كان يعتقد بالنسبة لخلفيته الشرق أوسطية، بأنها هواية غريبة ومضحكة نوعاً ما!

على الرغم من أن الشاب وجد أن هواية الجدة غريبة ومضحكة، إلاّ أنه تقبلها واقتنع بها نوعاً ما؛ ولو أن كفيلته أو غيرها، هي التي لها مثل هذه الهواية، لكان اتهمها بالجنون والخرف، ولكن جدة نيكول لا يمكن أن تكون مجنونة أو خرفة! إنها جدة السمو والرفعة، وجدة الفخامة والعظمة!

وهنا نظر راكان إلى يمينه فوجد خزانة مشابهة تماماً لخزانة الأجراس، بالحجم والشكل واللون؛ معبأة بفناجين القهوة والشاي مع صحونها؛ فقال:

- وهل جمع هذه الفناجين هواية أيضاً! سأل الفتى باحترام وأدب شديدين!

- نعم! هذه هواية أخرى لي! قالت العجوز شبه خجلى!

- ما أجمل هواياتك يا سيدتي! إنها جميلة ورقيقة مثلك!

- شكراً لك يا بني! قالت الجدة شبه خجلى وقد طامنت برأسها لتتجنب نظرات عينيه!

- إن النظر إلى هذه الفناجين يسر العين ويبهج القلب! قال الشاب صادقاً وبحماس!

وهنا صارت العجوز تذكر للشاب التاريخ والمناسبة، وكذلك الإنسان الذي أعطى لها ذلك الفنجان، تماماً كما فعلت وهي تعلمه عن الأجراس!

- إن فنجاني المفضل هو هذا، وقد اشترته لي نيكول من فرنسا! قالت العجوز ذلك وهي تشير إلى فنجان متوسط الحجم موضوع في منتصف أحد رفوف الخزانة، وعليه رسم طيرين متعانقين وقد غابا في قبلة عميقة!

- لا شك أنه اختيار يدل على ذوق رفيع! قال الشاب وهو ينقل طرفه بين المرأتين.

- شكراً لك يا بني! أنا مسرورة أن هواياتي أعجبتك!

- إنها هوايات فنان مرهف الإحساس متوقد البصيرة؛ وليست هوايات إنسان عادي!

- حقاً إن جونزي تتصرف تصرف الفنانين العباقرة! قالت الحفيدة بإخلاص!

- دعونا نجلس! آسفة! أشعر ببعض التعب! قالت الجدة وقد سارت باتجاه مقاعد الجلوس عندما سمعوا ثلاثتهم ساعة تدق إحدى عشرة دقة!

- يا إلهي! الساعة الآن الحادية عشرة! لم أعتقد أنها بلغت الثامنة بعد! قال الفتى وهو يحملق في ساعته والتي كانت تشير إلى أربعة دقائق قبل الثامنة!

انفجرت المرأتان تضحكان مما أربك الضيف وأخجله!

- ألم تسمع الساعة تدق قبل الآن؟! لقد ضربت الساعات منذ حضورك أكثر من عشر مرات، ولكن يبدو أنك لم تنتبه إلى ضرباتها إلاّ الآن! قالت الصبية وهي مازالت مستغرقة بالضحك!

نظر الشاب إليها مستفسراً فقد حيره كلامها!

- إن عندي يا بني ثماني ساعات، كل واحدة منها بوقت مختلف عن الأخريات؛ بين الساعة والأخرى عشر دقائق أو أكثر قليلاً! إن سماعي أصواتها يؤنس وحدتي! إن زوجي الثاني هو صاحب الفكرة، وقد أسعدني كثيراً، إذ أشعر وكأنما برفقتي إنسان ملازمٌ لي طيلة الوقت!

- إنها فكرة رائعة! ولكن أيها صاحبة الوقت الصحيح؟! سأل الشاب.

- ولا واحدة من الثمانية! الساعة ذات الوقت الصحيح هي ساعة كهربائية موجودة في المطبخ ولا تخرج صوتاً! قالت وأتبعتها بابتسامة!

- جميع أصدقائي الذين أحضرتهم هنا وعرفوا بهوايات جدتي؛ هواية جمع الأجراس والفناجين والساعات؛ أعلموني بأنها هوايات غريبة!

- إنني على العكس من ذلك! فأنا أعتقد أنها هوايات جميلة وممتعة؛ ثم لا تنسي أن هذه الهوايات تسعد جدتك، وأن الغرض من كل هواية هو لإسعاد صاحبها! قال الشاب بحماس وصدق!

- شكراً لك يا بني! لقد أفرحت قلبي! حقاً إنك شاب ناضج ومؤدب، وتختلف كثيراً عن كل من قابلت! ثم التفتت إلى حفيدتها وأضافت:

- أعتقد يا عزيزتي أنكما يجب أن تبدءا رحلتكما، فالوقت الآن مناسب جداً للتفرج على المدينة الصينية!

وكان الاتفاق مسبقاً بين ثلاثتهم؛ أن تذهب نيكول وتفرّج راكان على المدينة الصينية في لوس أنجلوس، بعد تناول وجبة العشاء!

حاول الشاب أن يقنع الجدة بالذهاب معهم، إذ إن العادات والشهامة العربية، لا تقبلان أن تترك العجوز لوحدها، ولكنها أقنعته بأنها ذهبت كثيراً إلى تلك المدينة، ورأت كل مكان بها مرات ومرات، وأنها ستدعوهما إلى تناول العشاء هناك في القريب العاجل، وأنهم سيذهبون مبكرين!

وعندما احتدم النقاش بين العجوز والشاب، إذ يصرّ كل واحد منهما على موقفه، وحسماً للجدل، مدّت الصبية يدها وسحبت الشاب من على مقعده وهي تقول:

- يكفي إقناعاً! لو أني أعرف أن جدتي ستسر إن ذهبت، لكنت أصررت عليها! دعنا نذهب!

انقاد الشاب لها كما ينقاد الطفل الصغير لأمه، وشعر بدفء يدها وهي تحتضن يده! كانت يدها دافئة كقلبها وروحها وعواطفها، حتى شعر الفتى بأن يكاد يذوب فيها!

لوّحت الجدة لهما وهما يخرجان وعيناها لا تتحولان عن الشابين، فقرأ راكان في عينيها فرحة عظيمة وسعادة لا توصف، ولكنه لاحظ أن شبه خوف يرقد فوق وجهها البريء... خوف لعله من المستقبل ومن عاديات الزمان! وتمنى لو أن الحفيدة تترك يده ليعود ويعانق العجوز ويضمها إلى صدره ويشم رائحة جسدها الطاهر... رائحة أمه الحبيبة؛ ولكن الصبية بقيت ممسكة بيده حتى اجتازا باب مدخل البيت حيث تقف السيارة !

لم تترك الشابة متجراً في المدينة الصينية يستحق التفرج عليه إلاّ وأرته إلى ضيفها، مما هيّج مشاعر الشاب وأسعده! كانا كلما يدخلان متجراً، ويطمئن هو إلى أن أسعاره بمقدرته أن يتعامل معها يعرض على الصبية أن يشتري لها منه شيئاً تحبه، ولكنها كانت دائماً تصرّ على الرفض رغم إلحاحه الشديد والمتواصل! وأخيراً وافقت على أن يبتاع لها كرتونة تحتوي على نصف دستة من الشمع الصغير، وابتاع للجدة بعض كراتين الشاي الصيني، والتي قالت الحفيدة بأن جدتها تبتاع مثلها أحياناً!

وأخيراً دخلا أحد المطاعم ليشربا بعض الشاي قبل أن يبدءا رحلة العودة!

- هل ترين ذلك الطبق من الأرز؟! إننا نطبخ الأرز مثل هذا في الوطن، وأتمنى لو نطلب طبقاً منه لكل واحد منا مع إبريق الشاي! قال راكان وهو يرى النادل يضع على طاولة مجاورة أطباق الأرز وفوقها بعض قطع اللحم الصغيرة الحمراء، وإلى جانبها أطباقاً من الخضروات لم يستطع معرفة أنواعها!

- سأكتفي أنا بالشاي، لأنني أكلت كثيراً عند تناولي وجبة العشاء! قالت الفتاة بأدب!

- وهل أعجبك الأرز؟! سألت نيكول بعد أن أتى راكان على طبق الأرز!

- أعجبني كثيراً! يظهر أن الصينيين يجيدون طبخ الأرز خيراً منا في الوطن! أن لحم الخراف عندهم ألذ طعماً من الخراف عندنا! قال الشاب وهو يتحسس طعم ما أكل في فمه!

ضحكت الشابة حتى كادت تزورّ في شرب الشاي وقالت:

- إنه ليس لحم خراف، إنه لحم خنزير!

- ماذا؟! سأل الشاب وقد احمّرت وجنتاه وبرزت عيناه من محجريها!

لا شك أن الصبية قد تنبهت إلى غلطتها فماتت الضحكة فوق شفتيها، فقالت بلهجة مملوءة أسفاً وحزناً:

- أرجوك اعذرني! لقد نسيت أن لحم الخنزير محرم في ديانتكم! لقد ذكرت أنت لي ذلك!

ولما لم يقل الشاب شيئاً أضافت:

- كيف سأواجه نفسي؟! وماذا سأقول لجدتي بعد أن جعلتك تخالف تعاليم دينك؟! أرجوك سامحني! إنني جداً آسفة! نعم؛ جدّ آسفة!

- لا بأس عليكِ! أنتِ لا تعرفين أننا لا نأكل لحم الخنزير! لقد ذكرته لك بطريق الصدفة ولكنك نسيتِ! أنتِ عملتِ ما اعتقدت أنه يسرني! قال راكان ذلك وهو يمسح فمه بشدة زائدة بالمنديل الورقي، وكأنما يريد أن يمسح ما علق فوق شفتيه من لحم الخنزير؛ ثم أضاف:

- أنا لست متعصباً في معتقدي، ولكنني ومنذ صغري وأنا أسمع أن أكل لحم الخنزير محرم علينا نحن المسلمين! قال ذلك ونهض واقفاً بعد أن اعتذر من الصبية وتوجه إلى دورة المياه، وهناك وضع ثلاثة من أصابع يده في حلقه واستفرغ كل ما بمعدته، ثم وضع بعض الصابون في فمه وصار يغسل فمه ويفركه بشدة حتى شعر بأنه قد تخلص حتى من طعم لحم الخنزير، فارتاح ضميره وفارقه قلقه وانزعاجه!

لم يعلم راكان نيكول بأنه استفرغ كل ما كان بمعدته من طعام وشراب، إذ خاف أن تتهمه بالتعصب والسطحية، رغم أنها أعادت الاعتذار!

طلبا إبريقاً ثانياً من الشاي، وأثناء رشفهما للسائل اللذيذ طلبت إليه أن يكسر إحدى البسكويتات المقدمة لهما مع الشاي، إذ أن بداخلها ورقة صغيرة مكتوب عليها حظه، وبعد أن فعل صار يضحك ويهز رأسه يمنة ويسرة!

- أرجوك! قل لي ما هو مكتوب بها! قالت وهي تتطلع إلى الورقة بين يديه، فناولها لها فقرأت بصوت عالٍ "إنسان ذو شعر ذهبي، تحبه حتى الجنون، يتسبب في شقائك وآلامك! يجلب لك الأحزان والمتاعب!" انفجرت هي الأخرى تضحك، ولما استطاعت أن تتكلم قالت:

- ومن هي يا ترى التي تحبها حتى الجنون، وتوقعك بالمشاكل؟! تمهلت قليلاً، لعلها كانت تفكر، وتساءلت:

- أنا أوقعك بالمشاكل؟! وكيف يكون ذلك؟!

فأجاب الشاب وهو مازال يبتسم:

- دعينا نقرأ ورقتك! لا شك أنها تقول؛ إنسان ذو شعر أسود يوقعك بالمشاكل، فاحذريه!

كسرت الصبية بسكويتها وزمّت حاجبيها بعد أن قرأت الورقة، ثم ناولتها إلى الفتى الذي قرأها: "ولم لا؟ اتبع قلبك!"

هزّ الفتى كتفيه ومط شفتيه ولم يعلق بشيء، وتابع شربه لفنجان الشاي!

أخذ راكان مفتاح السيارة من الصبية وفتح لها الباب ثم أعاد المفتاح إليها؛ وبعد أن دخلت أغلقه خلفها ودار حول السيارة وكانت قد فتحت له بابها من الداخل، وجلس إلى جانبها!

على ضوء الشارع، رأت الفتاة ورأى هو أيضاً في المقعد الخلفي للسيارة المجاورة شابين متعانقين وكأنهما يتضاجعان! لم يتوقفا عن العناق رغم الضجة التي أحدثها فتح بابي سيارة نيكول وإغلاقهما! لقد لاحظ الشاب أن نيكول قد تمهلت بسيارتها قليلاً وهي تمر إلى جانب السيارة ، فألقت عليهما نظرة قبل أن تنطلق بسيارتها!

- شكراً لك يا آنسة نيكول! حقاً؛ إنها تختلف كثيراً عن الأسواق الأمريكية التي رأيتها! إنها تشبه نوعاً ما سوقا في القاهرة! لقد استمتعت كثيراً بمشاهدة المدينة الصينية! حقاً إنها مدينة ممتعة! قال راكان حالما انطلقت بهما السيارة!

لم تجبه الصبية ولم تلتفت إليه، وإنما بقيت محدقة بمقود السيارة أمامها!

- إن أكثر شيء أثار اهتمامي، هو بسكويتة الحظ! أنا لا أؤمن بمثل هذه الأشياء الساذجة، ولكنها مسلية وفكرتها طريفة! قال الشاب.

ومرة ثانية لم تعلق الصبية على ما قال، ولا حتى نظرت إليه، وظلت محدقة بالبعيد أمامها!

- صدقيني إن سعادتي لم تكتمل لأن جدتك لم تأتِ معنا! لقد شعرت بتأنيب ضمير شديد كلما تذكرت أنها بقيت في البيت لوحدها، بينما كان باستطاعتنا إحضارها معنا! إنني كلما أرى جدتك أشعر وكأنما رأيت أمي! إنهما الاثنتان قديستان أرسلتهما العناية الإلهية لإسعاد من حولهما!

استمرت الصبية في صمتها وعدم النظر إليه، وهنا توقفت السيارة بانتظار انقطاع سيل السيارات العابرة، حتى تستطيع أن تنطلق فتدخل بالطريق السريع!

أراح راكان جسمه نحوها قليلاً ونظر إلى وجهها ليستفسر عن سبب صمتها فرأى ما أذهله! لقد كانت الدموع تنزل بغزارة من عيني الصبية فتغطي وجهها وتنزل إلى رقبتها وتصل إلى ملابسها!

تجمد في مكانه ولم يدر ما يقول! وهنا انطلقت السيارة فدخلت في الطريق السريع! وفجأة اجتاحته موجة من العواطف الهوجاء، فقد تذكر أيامه الماضية في الوطن، فقال بصوت عالٍ سمعته البُنية، وإن كان في الحقيقة يتكلم مع نفسه ولكن بصوت عالٍ:

- كثيراً ما كنت أستيقظ من نومي بعد منتصف الليل، وأنا أشعر بأمواج متلاطمة، من العواطف الثائرة، فأجلس تحت عريشة الدالية، أمام بيتنا، ونسيم الليل البارد، يصفع وجهي ويتلاعب بشعري، فلا أشعر إلاّ ودموعي، الغزيرة والحارة، تنزل من مآقيّ كأفواه القرب، فتظل تنزل وتنزل ولا تتوقف عن النزول حتى ينبلج الصبح وتبدأ العصافير في إنشادها ابتهاجاً لقدوم يوم جديد! لقد كنت أسأل نفسي وأتساءل عن السر في كل هذا، فلم أكن قادراً على الحصول على الإجابة، اللهم إلاّ أنها عواطف رقيقة ونبيلة وجميلة، تزخر بها النفس البشرية الغضة!

توقفت السيارة غير بعيدة عن بيت كفيلته، فانتظر الفتى أن تطفئ الصبية ماتور السيارة ليتحدثا قليلاً قبل أن يودعا بعضهما، ولكن موتور السيارة بقي شغّالاً، والصبية مازالت محدقة بالمقود أمامها، فأدرك أنها تريده أن ينصرف!

نظر الشاب إلى الشابة وشكرها على الوقت الممتع الذي قضاه بصحبتها، وسألها إن كان باستطاعته أن يراها غداً، إذ إنه يريد أن يدعوها إلى المكان الذي تحب، ولما لم تقل شيئاً ولم تنظر باتجاهه فتح الباب وخرج! ومع صوت إغلاق الباب انفجرت الصبية تبكي بعاطفة مكبوتة، فانطلقت السيارة بسرعة مجنونة!

فرحت السيدة هييز كثيراً والفتى يقص عليها مشاهداته في المدينة الصينية! لقد حدثها عن كل شيء شاهده وبإسهاب، ولكنه أخفى عنها أن من كان معه هي شابة وليس شاباً!

لم يزر الكرى جفني راكان إلاّ في ساعات الصباح الأولى، فقد أمضى كل ذلك الوقت وهو يفكر بنيكول وبتصرفاتها، محاولاً أن يجد مبرراً لبكائها! لقد أدرك منذ أول تعارف لهما، أنها فتاة عاطفية لدرجة مذهلة، عرف ذلك من تصرفاتها ومن الطريقة التي تتكلم بها عن نفسها وعن ما حولها! صحيح أنه هو عاطفي أيضاً، وربما يكون أكثر منها عاطفية، ولكن عذره هو أنه بعيد عن وطنه وعن أهله وأحبابه، وقد نشأ يتيماً، وتعذب وعانى في طفولته، كما أنه عاش في مجتمع تتحكم به كل سلبيات الحياة وعقدها؛ أما هي، فهي تعيش في وطنها وبين أهلها وأحبابها، وتعيش في مجتمع متحرر منفتح، ليس به عقد ولا سلبيات!

حوالي الساعة العاشرة صباحا، أيقظت السيدة هييز مكفولها ليتناولا فطورهما، وعلى مائدة الإفطار كانت المرأة تتحدث عن أولادها وزوجاتهم وأولادهم، ثم عن أخواتها وبقية أقاربها، ثم انتقلت إلى الحديث عن الجيران وأخبارهم، وعن ما نشر بالجريدة من إشاعات وثرثرة وفضائح، وكان معظم ما قالته له من أخبار سبق وأن سمعها منها ولأكثر من مرة؛ فكان يهز رأسه بين الفينة والأخرى أو يتفوه بجملة قصيرة ليعلمها أنه متابع لحديثها، بينما كان في الحقيقة عقله وكل تفكيره هناك ، مع نيكول وجدتها!

فجأة أحس الشاب بانقباض في صدره، وأنه على وشك الاختناق، وبلا إرادة منه، نهض واقفاً وكأنما نخزه مخرز في قاعه! لقد شعر بأنه يكاد يختنق وبرغبة جارفة وحنين عارم إلى نيكول وإلى جدتها! توجه نحو الهاتف ليكلمها ولكنه تذكر أنه حتى الآن لم يخبر كفيلته عنها، وأنه إن فعل فستتهمه بالغش والخداع؛ ولماذا لم يعلمها قبل الآن؟!

استأذن كفيلته بحجة أنه يريد أن يتمشى في الشارع لبعض الوقت لأنه يريد أن يستنشق بعض الهواء!

- لا بد وأنك تمزح! إن درجة الحرارة في الخارج تكاد تصل درجة الغليان! لقد قالت النشرة الجوية أن درجة الحرارة مائة وواحد، وحذّرت الناس من السير تحت حرّ الشمس اللافح! قالت العجوز وقد فغرت فاها استغراباً وتعجباً!

- لا تقلقي! لن أغيب طويلاً! فقط دقائق قليلة! أريد أن أمشي لأحرّك قدميّ!

- أرجوك أن لا تتأخر! سأظل قلقة عليك حتى تعودا! قالت العجوز وهي تغلق الباب خلفه!

أحسّ الشاب وكأن شهباً من نار تلسع جسمه، وأن أنفاسه تكاد تتوقف عن الشهيق والزفير؛ وتأكد له بأنه لا يوجد إنسان يسير في مثل هذا الطقس اللاهب إلاّ وأن يكون مسحوقاً مثله، لا خيار عنده!

أوسع من خطاه وضاعف من سرعته، وكان كلما ابتعد عن بيت كفيلته واقترب من بيت نيكول وجدتها، كلما ازداد شوقه إليهما اضطراماً، وأن النار في داخله تزداد اندلاعاً! كان كالمتدين الورع الذي أضناه الانتظار وحرّقه الشوق للوصول إلى مكانه المقدس، وها هو الآن في طريقه إليه، وكلما اقترب منه ازداد شوقه إليه!

كانت الشوارع خالية من المارة تماماً، اللهم إلاّ من بعض السيارات العابرة، وظل سائراً حتى وصل قريباً من الشركة التي يعمل بها، فكان من الطبيعي أن جميع المحلات مغلقة بسبب عطلة يوم الأحد!

دخل كشك الهاتف وأغلق بابه خلفه، فشعر وكأنما دخل هو ونيكول غرفة وحيدين فصار يبثها لواعج قلبه، وكيف أنه لا يستطيع بعد الآن أن يعيش بدونها ولا بعيداً عنها!

شعر والهاتف يرن، أن دقات قلبه تعلو وتتسارع حتى ظن لسرعتها وعلوها أن قلبه على وشك أن يتوقف عن الخفقان، وأن مكان قلبه قد انتقل من صدره إلى حلقه، كما أن مكان ضخ الدم قد تحول إلى أذنيه!

توقف الهاتف عن الرنين، وسمع صوتاً ناعماً منخفضاً يصل إلى أذنيه، ذلك الصوت الذي عندما تسمعه تشعر بالأمان والسلام والاطمئنان! صوت مملوء بالمحبة والرأفة والحنان!

- صباح الخير يا سيدتي! أنا راكان! قال الفتى وأنفاسه تتلاحق!

- صباح الخير يا بني! طمئني كيف حالك؟! وهل أحببت المدينة الصينية؟!

- نعم، كثيراً جداً! وأمضيت وقتاً ممتعاً؛ وقد تمنيت لو أنك كنت معنا!

- شكراً لك يا بني! لقد أعلمتني نيكول بذلك! إنك شاب شهم ونبيل! وكيف حال السيدة هييز؟!

- إنها بصحة جيدة! لقد انشرح صدرها عندما أعلمتها الليلة الماضية بأنني قضيت وقتاً ممتعاً في المدينة الصينية، وطلبت إليّ أن أشكر نيابة عنها ذلك الشخص الذي أخذني، وأنها تتمنى أن تقابله لتشكره بنفسها!

- أعطني إياها لأسلم عليها!

- أنا أتلكم من هاتف عمومي قرب الشركة التي نعمل بها؛ الآنسة نيكول وأنا!

- ولكن حرارة الشمس اليوم لا تطاق، وأخشى أن تصيبك ضربة شمس يا بني! وهل هاتف كفيلتك معطل؟! قالت العجوز بصوت يبدو به القلق والخوف معاً، كما أن راكان سره اهتمام المرأة وقلقها عليه.

- شكراً لاهتمامك يا سيدتي! لا تقلقي، البيت قريب من هنا! والسبب أنني أتكلم من خارج البيت لأنني لم أعلمها عنكما بعد، وذلك لأنني أخشى أن تطلب مني أن تزوركما، وأنا كما تعلمين ليس عندي سيارة، وسأعلمها في القريب العاجل!

- كما تشاء يا بني!

شعر راكان بارتياح، ومرّت لحظات دون أن يقول أحدهما شيئاً، وأخيراً طلب إليها أن يكلم نيكول إن كانت قد استيقظت من النوم!

- أنا آسفة يا بني؛ إنها ليست هنا! لقد استيقظت مبكرة وذهبت هي و"فرند" إلى شاطئ البحر!

وقع الخبر عليه وقوع الصاعقة، وفكر أن يسألها إن كان هذا "الفرند" ذكراً أو أنثى، ولكنه لم يستطع، إذ ليس من حقه أن يفعل ذلك! فتح باب كشك الهاتف، إذ أحسّ وكأنما أحدهم قد وضع يده على فمه، فلم يستطع التنفس وأنه على وشك الاختناق، ولكنه وجد أن الهواء ثقيل في خارج الكشك كما في داخله فأغلقه!

تشنجت يد الشاب فوق سماعة الهاتف، وصارت أنفاسه تعلو وتهبط وكأنما يستنجد للتنفس!

- هل مازلت هناك يا بني؟!وصل إلى أذنيه صوت العجوز جزعاً وقلقاً!

- نعم يا سيدتي! قالها بصوت يقطر ألماً وحزناً!

- كنت أفكر أن أكلمك لأسأل عن أحوالك، ولكنني خشيت أن تكون مازلت نائماً! على كل حال أشكر الله أنني لم أفعل ما دمت حتى الآن لم تعلم كفيلتك بمعرفتنا!

لم يقل راكان شيئاً، فقد كان يصارع نار الغيرة وضيق التنفس، فسألت العجوز:

- قل لي ما يضايقك يا بني! اعتبرني بمقام والدتك! فليشهد الله أنني أحببتك وكأنك ولدي! قالت العجوز بلهجة حزينة وكأنها تبكي!

لا شك أن كلام المرأة قد أثار أحزانه وألهب مشاعره عندها لم يستطع كبح عواطفه التي كانت تغلي بداخله كالمرجل، وبعفوية رمى بالسماعة بعيداً وانفجر يبكي بهستيريا محمومة! فقد شعر وكأنما يد حديدية قد أمسكت بقلبه، وبدأت تعصره بشدة، بعدها شعر وكأن سكيناً صارت تطعن في كل جزء من أحشائه! كما وأحسّ أن ناراً اندلعت في داخله وبدأت تلتهمه، ثم أحسّ وكأنما هو يختنق وتمنى لو يستطيع أن يستفرغ!

لقد تصور نيكول بلباس البحر مستلقية على الرمل وفوقها ذلك "الفرند" ملقياً بجسده العاري فوق جسدها، وشفتاة مطبقتان فوق شفتيها ويده تعبث في صدرها وتداعب الرمانتين فوقه، ثم... ولم يستطع أن يذهب أكثر في تخيلاته، فقد شعر بأنه سقط وسط نار مضطرمة، وبدأت النار تأكل كل جسمه! وصار يصيح في داخله وبأعلى صوته يستغيث ويطلب النجدة من رب العباد!

فجأة وجد الشاب نفسه يركض باتجاه بيت كفيلته بكل ما عنده من قوة، وعندما وصل دفع الباب بشدة وألقى بنفسه فوق أرض غرفة الجلوس وبدأ يتلوى كالمصاب بالسم، فيغرز أصابعه بالسجادة، تارة ويصر على أسنانه تارة أخرى، كأنما يريد أن يخمد النار المتأججة بداخله، وعندما لم يتوقف ألمه صار يضرب الأرض بقبضتي يديه وكأنما يريد أن يحطم رأس ذلك الرجل الذي أخذ منه حبيبته! كانت أنفاسه تعلو وتهبط وكأنما روحه تحاول أن تفارق جسده!

جلست كفيلته على السجادة إلى جانبه وطوقت رأسه بيديها وهي تردد كلمات الصبر والفرج والتطمين، وكأنما محاولتها تهدئته قد شجعته فانفجر يبكي من جديد!

- إن بك مرض الحنين إلى الوطن! لقد افتقدت أهلك ووطنك! إنني أعرف ما تعني كلمة مرض الحنين إلى الوطن! لقد أصبت أنا بها أكثر من مرة! ومسحت بيدها دموعه، ثم مسحت على رأسه، وأضافت:

- أرجوك يا حبيبي! لا تعذب نفسك! إن منظرك وأنت هكذا يحرق دمي!

وضع راكان يديه على فمه كأنما ليخنق النهنهة الخارجة من فمه، فصار صوته يخرج متحشرجاً وكأنما يلفظ أنفاسه الأخيرة، وصار يكح حتى ظن أن روحه ستفارقه!

نهضت المرأة على عجل مهرولة إلى المطبخ وعادت تحمل كأساً من الماء ناولته له فاختطفه من يدها وشرب بعضه، فشعر بقليل من الراحة، واستطاع التنفس، غير أنه عاود بكاؤه من جديد!

استمر الشاب في نحيبه واستمرت المرأة برجائها أن يتوقف، ولما لم يُجدِ رجاؤها نهضت إلى الهاتف وهي تقول بأنها ستحاول أن تجد من يأخذه في مشوار، ربما إلى شاطئ البحر، لعله ينسى ولو مؤقتاً، مرض حنينه إلى الوطن! ولكنها عادت بعد عدة مكالمات دون جدوى!

- صدقني يا بني! إن الأمور ستتحسن، وإن كل شيء سيكون على ما يرام؛ فقط شيئاً من الصبر! صدقني إن مرض الحنين إلى الوطن يصاب به كل إنسان يرحل من بلده ويذهب إلى بلد أخرى؛ الفرق هو أن بعضهم يؤثر بهم أكثر من غيرهم!

دخلت السيدة هييز المطبخ وسخنت بعض الحليب، ثم ناولت مكفولها الممد فوق الكنبة، كأس الحليب وحبتي دواء لم يعرف اسمها وطلبت إليه أن يبتلعهما ويشرب بعدها كأس الحليب، وبعد أن فعل أخذت تمسح بيدها على رأسه وتقرأ بعض التعاويذ وعيناها محدقتان بصورة السيد المسيح، ترجوه، بصدق وحرارة، أن يتشفع لراكان عند والده، ليرحم عذاباته ويخفف من آلامه!

مضت فترة ليست بالقصيرة، والفتى مستمر في سكب الدموع، فشعر بأن رأسه يثقل وأن أطرافه تتخدر، وأن ليس باستطاعته تحريك جسمه، وأنه بين النوم واليقظة! لا شك أن كفيلته قد أعطته بعض حبوب المنوّم!

نهضت السيدة هييز وساعدته على إنهاض نفسه، فقادته إلى فراشه ثم ساعدته بخلع ملابسه، وسحبت الغطاء فوقه، ثم أسدلت ستائر شبابيك الغرفة، وما هي إلاّ لحظات حتى أدركته رحمة السماء فراح في سبات عميق!

*****

لقد تجنب راكان، صباح يوم الاثنين التالي، الذهاب إلى قسم ملابس الأطفال، حيث تعمل نيكول، فطلب إلى زميله دونالد، عامل التنظيفات، أن يقوم مكانه بعمل ما يجب عمله، ولكن الشاب كان يعود في كل مرة ويعلمه بأن نيكول تسأل عنه وتريده أن يحضر إلى قسمها لأمر هام، ولكن راكان كان في كل مرة يتجاهل طلبها!

في تمام الساعة الثانية، وبينما كان الشاب يدلف إلى داخل الشركة من باب الموظفين، عائداً من غدائه، وجد نيكول بانتظاره خلف الباب، مما فاجأه وأذهله معاً!

- هل أنت غاضب مني يا راكان؟! لقد طلبت إلى دونالد مرات عديدة أن يعلمك بأنني أريد رؤيتك، فكان في كل مرة يعود إليّ ويعلمني بأنه فعل؛ فلم كنت في كل مرة تتجاهل طلبي؟! سألت البُنية بلهجة مملوءة بالعتاب ويخيم على نغماتها الحزن والأسى!

جملة نيكول أثارت كوامن الشاب وهيجت أحزانه، ولكنه كبح عواطفه وحاول تجاوزها، ولكنها خطت خطوتين إلى الأمام فحالت بينه وبين التقدم، حتى كاد جسمه يضرب بجسمها، فوصلت إلى أنفه أرومة عطرها الفاغم فخدرته، ثم نظرت إليه وبسمة كبيرة تعلو شفتيها فتجمد في مكانه ولم يستطع التحرك!

- قل لي، ما الذنب الذي ارتكبته حتى جعلك تغضب مني؟! سألت بمذلة.

- إن هذا المكان وكذلك الوقت لا يسمحان للعتاب! قال الفتى بخشونة وفجاجة!

- إذن سنتقابل الساعة الثالثة والنصف في غرفة الاستراحة، إذ إنني أريد أن أعلمك أخباراً تهمك جداً؛ أعني تهمنا نحن الاثنين! قالت بحماس.

- وكيف حال جدتك؟! وجد نفسه يقول.

- إنها بخير! وطلبت إليّ أن أبلغك تحياتها، وأن أقول لك شيئاً سأخبرك عنه ساعة الاستراحة! قالت ذلك ونزلت الدرج ونزل هو خلفها، ثم توجه كل واحد منهما إلى عمله!

- لقد هاتفتْ جدتي والدتي وتحدثتا طويلاً عنك، وطلبت والدتي أن تقابلك وستأتي هي وأختي إلى بيت جدتي مساء يوم الجمعة القادم ... ستطبخ جدتي عشاء لنا جميعاً وأنت مدعو كذلك، وسآتي لأخذك في تمام السابعة! قالت نيكول حالما جلست قبالة راكان في غرفة الاستراحة وابتسامة جذلى تعلو شفتيها وفرحة كبيرة تغطي وجهها!

- أحب كثيراً أن أقابل والدتك وأختك! قال الشاب متصنعاً البرود وعدم الاهتمام، وإن كان قلبه يرقص فرحاً في داخله!

- والآن قل لي؛ لم أنت غاضب مني؟! سألت وهي مازالت تبتسم!

- ومن قال لك أنني غاضب منك؟! ثم بأي حق لي عليك حتى أغضب منك؟! قالها بمذلة وانكسار، ثم تابع!

- أنا لا أعني شيئاً بالنسبة لكِ! أنا مجرد إنسان قابلته صدفة وتكلمت معه كلاماً عابراً، ثم انتهى كل شيء! قال راكان بحماس ومرارة!

- أرجوك أن لا تقل ذلك! إن هذا غير صحيح! أنت لست مجرد إنسان قابلته! إنك تعني الشيء الكثير بالنسبة لي! لقد تركت صديقي "براين" من أجلك، وقطعت علاقتي به نهائياً! لقد أعلمتني جدتي بأنك اتصلت بي قبل أقل من نصف ساعة من عودتي، وأنك كنت متأثراً جداً عندما لم تجدني! صدقني إنني حزنت كثيراً! لقد فكرت أن أهاتفك أو حتى أن أحضر إلى بيت كفيلتك، ولكن جدتي أعلمتني بأنك لا تحب أن تعرف كفيلتك عن معرفتنا ببعض! كانت الصبية تتكلم بتواصل وحماس!

- ولماذا تركت صديقك؟! وما الذنب الذي جناه؟! سأل الشاب بفتور مظهراً اللامبالاة، وإن كان بداخله يكاد يطير فرحاً!

- إنه لم يقترف ذنباً، ولكنني اكتشفت أنني لا أحبه ولا حتى أهتم به!

- وكيف اكتشفت ذلك السرّ العظيم فجأة؟! سأل بسخرية لاذعة!

- لأنني شعرت بأنني لا أطيق أن أكون معه، ولذلك طلبت إليه أن يعيدني إلى البيت، ولم نمكث على شاطئ البحر أكثر من نصف ساعة! ثم أرجوك أن لا تسخر مني! قالت بتذلل أحزنه كثيراً ولكنه تظاهر بعدم الاهتمام!

- أنا لا أسخر منك! أنا فقط أشعر بالأسف لصديقك الذي تركتِه! إنه يحزنني كثيراً أن أكون السبب في تعاسة إنسان لم يسئ إليّ! قال الشاب وهو يشعر حقاً ببعض الألم!

- يجب أن لا تشعر ذلك أبداً أبداً! إن معرفتي به حديثة، لا تتجاوز الشهر؛ ولقد اجتمعنا أربع مرات فقط، لمدة قصيرة جداً! جدتي لم تحبه! قالت بحماس وهي تقف؛ ثم أضافت:

- إنني لست بنادمة على تركه، لأن طبائعه تختلف كثيراً عن طبائعي! ثم إنني اكتشفت، بعد أن قابلتك، بأنني لا أريده!

مرت فترة صمت ليست بالقصيرة، لا شك أن كل واحد منهما كان ينتظر أو يتمنى، لو أن الآخر يواصل الحديث؛ وأخيراً قالت الصبية!

- لقد كان يوم أمس حارّاً جدّاً، كما لاحظت؛ لذلك لزمنا، جدتي وأنا، البيت لا نبرحه حتى اختفت الشمس من السماء، وعند الغروب ذهبنا إلى الحديقة وتمشينا بداخلها، وكان النسيم منعشاً، وبعد العشاء عملنا شاياً، وقالت جدتي بأنها تتمنى كثيراً لو أنك تشربه معنا! لقد تحدثنا طويلاً عنك! قالت ذلك ووقفت علامة الانصراف.

لم يعلق راكان على مقولتها، فوقف هو الآخر، إذ إن مدة استراحتهما قد انتهت ويجب أن يعودا إلى عمليهما!

- بالمناسبة! إن في نيتي أن آخذ جدتي في مشوار بالسيارة بعد العشاء، كما أنها تريد أن تشتري بعض الحاجيات من البقالة، وسوف نتوقف لتناول بعض الحلويات، لقد طلبت إليّ جدتي أن أسألك إن كنت تحب الذهاب معنا. فهل تحب أن ترافقنا؟!

- نعم، أحب ذلك كثيراً! قال الشاب بفرح.

- إذن، سأمرّ عليك في تمام الساعة الثامنة!

- سأنتظرك في نفس المكان، قريباً من بيت كفيلتي!

- إلى اللقاء! قالت ذلك، وتقدم الشاب وفتح لها الباب فخرجت وكذلك فعل هو.

سعد راكان كثيراً بصحبة المرأتين، وحاول جاهداً أن يدفع فاتورة ثمن المرطبات والحلويات، التي أكلوها، ولكن المرأتين أصرّتا على الرفض!

*****

الفصل التاسع

- عندما أعلمتاني، والدتي ونيكول عنك، لم أكن أعرف أنك بكل هذه الوسامة وطول القامة! قالت السيدة بيرسون وهي تحملق بوجه راكان وتشد على يده، وكأنما كانت تتساءل إن كان هذا الشاب كفؤاً بأن يكون زوجاً لابنتها وجديراً بحبها، بعد أن قدمته أمها لها!

- إنه يملك أيضاً عقلاً نيراً وشخصية متميزة! قالت العجوز وهي تبتسم وبصوت خافت!

- إنه خلوق ومؤدب جداً يا أما ه ، وكذلك فأنه ذو ثقافة واسعة! أضافت الحفيدة.

- إنكما تبالغان في مدحي، فشكراً لكما على كل حال. قال راكان وهو يحملق بالأرض وقد جدّته موجة من العرق الساخن خجلاً لإطراء النسوة له، ثم أضاف حيث وجد لسانه يقول وكأنما فلت منه:

- وأنا لم أكن أتصور أن والدة الآنسة نيكول تتمتع بكل هذا الجمال وقوة الشخصية! قال الشاب وهو مازال يتجنب النظر إلى وجه الأم التي شعر وكأنما عيناها كانتا تخترقان رأسه لتقرءا أفكاره!

لم يبالغ الشاب فيما قال، فقد كانت السيدة إليزابيث بيرسون ، حقاً ذات جمال أخّاذ وشخصية قوية، فعلى الرغم من أن وجهها كان خالياً تماماً من المساحيق وجميع مفردات التجميل، إلاّ أنه كان وكأنما هو قطعة من البلور لصفائه ولشدة نعومته!

انفجر الجميع يضحكون، وتنبه الشاب إلى فتاة طويلة القامة نحيفة الجسم تقف غير بعيدة من أمها، والتي كانت هي الأخرى تحملق مشدوهة براكان، وفوق شفتيها ابتسامة ملائكية، وكأنها ملاك جلب أخبار السعادة لأهل الأرض!

- راكان! أقدم لك أختي نولا. قالت نيكول!

- آه! ما أسعدني! وأخيراً قابلت الجميلة والحبيبة نولا! إنك تشبهين إلى حد كبير الآنسة نيكول! لقد حدثتني طويلاً عن عذوبتك ورقتك، وعن ذكائك وقوة شخصيتك، وكذلك عن حبها الشديد لك، وإعجابها بجمالك! قال راكان وهو يصافح اليد الصغيرة الناعمة الممدودة إليه، إذ شعر ويدها الصغيرة في قبضة يده الكبيرة وكأنها باقة من البنفسج والرياحين، أو نسمة من أنفاس الصباح العليل! كما ولاحظ أن وجهها كان يضيء وكأنما هو قبس من نور إلهي!

- وأنا أحبها أيضاً! إن نيكول هي مثلي الأعلى بعد جدتي والماما! قالت الصغيرة بأدب ولكن بجرأة!

- هل لاحظت يا ماما، كيف أن راكان ينتقي كلماته، وكيف أنه يعبر عن أفكاره! إن مفردات اللغة عنده واسعة جداً! لا شك أنه يقرأ كثيراً، وعنده إطلاع واسع في الأدب!

- شكراً مرة أخرى على الثناء! أنا أحب الأدب، وأقرأ كثيراً! إن من إحدى هواياتي البحث في معجم اللغة عن معاني كلمات ومرادفات لها! قال الشاب وقد شعر بزهو الرجل الشرقي الذي تمتدحه أنثاه!

- سنواصل حديثنا على طاولة الطعام، تفضلوا قبل أن يبرد الأكل! قالت الجدة!

- كلنا جائعون بعد يوم عمل طويل! قالت الحفيدة موجهة الكلام إلى راكان.

أُديرت أطباق الطعام، وتفرع الحديث في شتى المواضيع! عن سبب رحيل أم نيكول وعائلتها من هذه المدينة التي أصبح بها الدخان لا يطاق وسكناهم قرب البحر، حيث الهواء أنقى؛ ثم عن العمل، وكيف وجد راكان أمريكا، وهل وجدها كما كان يتصورها!

كانت المرأة ذات جمال صامت، وكان جمالها من النوع الذي يزداد تأثرك به كلما جلست إليها أطول وكلما تحدثت إليها أكثر!

كانت في الثامنة والأربعين من عمرها كما أعلمت نيكول راكان؛ كانت طويلة ونحيفة ذات شعر ذهبي، ربطته فوق رأسها وكأنما هو كنز من اللآلئ، وكانت ملابسها بسيطة وجميلة، ومنتقاة بذوق رائع. وكانت من النساء اللواتي يعتنين بعقولهن أكثر مما يعتنين بزينتهن وملابسهن!

- لقد أعلمتني نيكول بأنك تمارس كتابة القصة! قالت الأم.

- ليس تماماً! لقد كنت أنظم الشعر في صغري، حتى فكرت بأنني سأكون في يوم ما شاعراً كبيراً، ولكنني اكتشفت أنني أحب كتابة القصة، لأنني أستطيع أن أغوص في أعماق النفس البشرية، وأتحسس آلامها ومشاكلها! آمل أن أكون كاتب قصة في المستقبل! قال راكان بزهو وفخر!

- وهل كتبت شيئاً أستطيع أن أطلع عليه؟ سألت الأم.

- لقد كتبت بعضها ولكن باللغة العربية، وآمل أن أترجمها يوماً إلى اللغة الإنجليزية، عندها تستطيعين أن تقرئيها وتعلميني رأيك بها!

- إنه ليسعدني جداً جداً! قالت الأم.

- إن والدتي ناقدة صريحة جداً، فستقول لك رأيها دون مجاملة! قالت الصغيرة نولا وهي تبتسم.

- هذا ما يحب أن يفعله الناقد! الصدق والأمانة! قالت نيكول.

- سأحاول أن أساعدك في تصحيحها ونشرها، إن أحببت! قالت الأم.

- إن قولك هذا يشجعني على أن لا أنتظر طويلاً قبل أن أشرع في الكتابة! قال الشاب بفرح.

- عن ماذا ستكتب؟! سألت الصغيرة نولا وقد أضاءت عيناها وتوردت وجنتاها، وانزرعت فوق شفتيها بسمة ملائكية!

- سأكتب عن الجميلة والرقيقة نولا! وجد راكان نفسه يقول دون إرادة منه!

وهنا انفجرت نيكول وأمها تضحكان، أما راكان فقد ندم على مقولته، بينما ابتسمت العجوز!

- هل صحيح ستكتب عني؟! وماذا ستقول؟! سألت الصغيرة نولا بحماس وقد التهبت وجنتاها احمراراً!

- سأقول بأنك أجمل وأرق فتاة قابلتها في حياتي، وأنكِ عندما تمشين، وكأنما كتلة من الزهو تتحرك! ومرة أخرى وجد الشاب نفسه يقول بحماس وبغير إرادة منه!

ازداد احمرار وجنتي الصغيرة، وألقت إلى الأرض بناظريها!

- شكراً لك يا بني! لقد أفرحت قلبي بكلامك الجميل! قالت الجدة!

- إنك محظوظة يا نولا أن تنالي إعجاب الرجال وأنت في هذه السن المبكرة! قالت أمها وقد أضاء وجهها هي الأخرى!

- على مهلكم! وماذا عني أنا؟! لقد تركتموني خارج السرب! سألت نيكول وقد لاحظ الشاب بأن موجة من خيبة الأمل قد علت وجهها؛ فقال بحماس!

- أنت الأصل ونحن الفروع! عند إطلالتك تبتسم الزهور، وتغرد العصافير في الصباح! قال راكان وقد تقدم من نيكول وكأنما يريد أن يعانقها!

- إنك شهم وأصيل يا بني! قالت الجدة وهي تنظر إلى الشاب وكأنما تضمه بعينيها!

- شكراً لك يا راكان! لم يبق عندي ذرة من شك، بعد الآن، من أن نيكول بأيادٍ أمينة!

- ألم أقل لك يا ماما، بأن راكان يختلف كثيراً عن الشباب الذين قابلتهم؟! قالت الصبية والسعادة تكاد تصعد بها إلى أعالي السماء.

وهنا شعر الشاب بأنه يجب أن يقول شيئاً ليزيد في سعادة واطمئنان النسوة؛ وفي نفس الوقت ليظهر تواضعه الجم وامتنانه العظيم!

- كل ما أسأل الخالق عنه، هو أن يساعدني لأن أكون صديقاً وفياً للآنسة نيكول ولجدتها وأمها وأختها؛ كما إنني شاكر له أن يسّر لي معرفة عائلة كريمة ونبيلة مثل عائلتكم!

بعد انصراف الأم والأخت أسرّت الجدة للفتى بأن المرأتين أُعجبتا به إعجاباً كثيراً، وأنهما أعلمتا نيكول بأنها لن تجد يوماً، من يحبها ويسعدها خيراً منه!

*****

- دعنا نخلع ملابسنا الآن ونتركها في السيارة. نأخذ معنا فقط الحقيبة التي بها البطانيات والبشاكير وقوارير الماء والمرطبات! قالت نيكول بعد أن أوقفت السيارة بجانب شاطئ البحر وأطفأت ماتورها. وقبل أن تخرج مفتاح السيارة من مكانه صارت تفك أزرار قميصها، ثم بعد أن فعلت خلعته وألقت به فوق مقعد السيارة الخلفي، ثم فكّت سحّاب بنطالها وبعد أن خلّصت نفسها منه، ألقت به هو الآخر فوق القميص، وتركت صندلها في مكانه تحت مقود السيارة.

- مالك لا تخلع ملابسك؟! ألم ترتدِ بذلة السباحة تحت البنطال؟! سألت البنية باستغراب عندما وجدت أن راكان ما زال مسمراً في مكانه ويحدق أمامه في الأفق البعيد!

- لا، أنا مرتدٍ بذلة السباحة، ولكن...! أجاب الشاب دون أن يحوّل نظره إليها!

- ولكن ماذا؟! سألت وقد فتحت مآقيها على وسعيهما اندهاشاً واستغراباً!

- أشعر بالخجل الشديد وأنا أظهر أمام الناس شبه عار! أنا لم أتعود أن أفعل ذلك من قبل! أتصور كل الناس ينظرون إليّ باستهجان! قال بتلعثم ثم أضاف:

- إن منظر الأجساد العارية، حتى الرجال تبعث في نفسي قشعريرة شديدة! لقد تربيت في مجتمع يعتبر أن مجرد نظر الرجل إلى وجه امرأة حرام، فما بالك بالنظر إلى جسدها؟!

- الناس يعرضون أجسامهم للشمس وليس ليراها الآخرون! قالت الصبية! ثم بعد أن بللت شفتيها بلسانها أضافت:

- لقد قلت لي ذلك، وتحدثنا طويلاً في هذا الموضوع، واتفقنا على أن ننسى جميع عادات العالم القديم، ونتأقلم مع المجتمع الجديد الذي نعيش به!

- هذا صحيح، ولكن ليس من السهل أن ينسى الواحد منا عادات وتقاليد خمسة وعشرين عاماً في ليلة وضحاها! إنها جزء من كياني وتجري بدمي! قال وهو مازال محدقاً بالأفق البعيد!

- أرجوك حاول! إن المسألة أبسط مما تعتقد! قالت ذلك ومدّت يدها وكأنما تريد أن تساعده على خلع قميصه، وهنا نظر إليها مليّاً، ولأول مرة، إرتد بصره مرعوباً مذهولاً، وقال بعفوية دون أن يعي ما يقول:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ!

لا شك أن الصبية لاحظت ردّة فعله الغضبي ، فسألت بفرح وهي تبتسم جذلى:

- وهل أزعجك منظري في ملابس البحر؟! كنت أعتقد أنه سيسعدك جداً، خصوصاً وقد ابتعت بذلة سباحة جديدة من أجلك فقط!

لم يدر بمَ يجيبها، ولكنه فعل كما فعلت، إذ خلع هو الآخر قميصه وبنطاله بنزق وعصبية، وألقى بهما فوق مقعد السيارة الخلفي، ثم دفع باب السيارة بشدة وخرج ! بعد أن أغلقه خلفه فتح الباب الخلفي وحمل الحقيبة وسار إلى جانب الصبية متوجهين نحو الماء، وعيناه لا تبرحان النظر إلى موطئ قدميه، وإن كان يرى بطرف عينيه قدميها وجزءاً من ساقيها، وكذلك أقدام وسيقان السابحين والسابحات المتناثرين في كل بقعة من بقاع الشاطئ!

وهنا جلجل صوت الشيخ عبد الحليم زيد الكيلاني ، مدرس الدين، أستاذ راكان في مدرسة السلط الثانوية ، قبل أكثر من خمسة عشر عاماً، وهو يلهب بخيزرانته المصنوعة من أغصان الرمان ظهر الطاولة أمامه، وكأنما يلهب بها ظهر الشيطان نفسه، وهو يصرخ: المرأة عورة! لا تنظر إليها! لعن الله الناظر والمنظور! ما اجتمع رجل وامرأة إلاّ وكان الشيطان ثالثهما! وهنا قال الطالب سليمان العقلة، شريك راكان في المقعد، لقد رأيت يا سيدي والدي ووالدتي في الفراش عدة مرات عاريين، ولكنني لم أر شيطاناً معهما! انفجر الطلاب يضحكون، واستشاط الشيخ غضباً وتقدم من سليمان، وصار يضربه بعصاه في كل مكان من جسمه تقع عليه عصاته وهو يقول: لقد عنيت أيها الحمار أنه ما خلا رجل وامرأة إلاّ وفكّرا أن يتناكحا! وهنا انفجر الطلاب جميعاً يضحكون، مما زاد في غضب الشيخ فصار يضرب كل طالب أمامه وهو يقول ويعيد، كلكم أولاد كلاب ! كلكم أولاد حمير ! إن هذا فصل تربية ودين، وأنتم معدومو التربية ولا أخلاق ولا دين عندكم! سأكسّر هذه العصاة على رؤوسكم يا أولاد الكلاب! ونال راكان بعضٌ من هذه الضربات، وسليمان يستغيث ويقول: والله إنني سأتوب يا سيدي ولن أعيدها، والشيخ يقول له: والله لأحرق روح سيدك !

وفجأة توقفت الصبية عن السير، ونظرت طويلاً إلى الشاب وقالت وهي تبتسم:

- إنك تبدو رائعاً في لباس البحر! إنك تبدو أكثر وسامة به، منه وأنت بكامل لباسك! لا شك أن لجدتي ذوقاً رائعاً في اختيار الأشياء!

- إن جدتك ملاك رحمة أرسلها الخالق لتخفف من معاناة كثير من الناس! قال الشاب وهو مازال ينظر إلى الأرض بين قدميه!

- لو تعرف كم هي تحبك! إنها تسألني عنك كلما أعود إلى البيت، وطلبت إليّ أن أدعوك لأن تذهب معي إلى كل مكان أذهب إليه! إنها هي صاحبة فكرة حضورنا إلى هنا! إنها تريدني أن أعلمك السباحة!

لم يقل راكان شيئاً وإنما بدأ يسحب رجليه بصعوبة من الرمال التي غاصت بها، والاثنان سائران باتجاه المياه!

فردا البطانية فوق الرمال في بقعة منعزلة نوعاً ما عن الناس، وحالما انتهيا من ذلك رمى راكان نفسه فوقها، على معدته، وكأنما ليحمي عريه من أنظار الناس! لقد شعر وكأنما عاد لتوّه من الشارع إلى بيته، بعد أن قضى مدة واقفاً أمام الناس بدون ملابس!

لاحظ بطرف عينيه أن الصبية أخرجت من حقيبتها حنجوراً، وصارت تأخذ بعضاً مما بداخله وتفرده فوق جسمها، وبعد دقائق ناولته الحنجور وطلبت إليه أن يضع مما به فوق جسمه؛ ولما استفسر منها عن سبب وضعه أجابت بأنه يمنع الشمس من حرق الجسم!

بعد أن انتهى الشاب من وضع السائل فوق جسمه رفع عينيه من تحت إلى أعلى، لأول مرة منذ أن أوقفا السيارة عند شاطئ البحر، فرأى صدر نيكول الأتلع وقد برز نهداها بشكل مثير، ورأى جسمها البض وعنقها الطويل فأغضى حياء، ثم عاد ونظر إليها ثانية فالتقت عيونهما، فأحسّ وكأنما لسعته صدمة كهربائية، إذ ابتسمت الصبية له، فخيّل إليه وكأنما تبتسم له لأول مرة، فرمى ناظريه إلى الأرض ثانية!

من الغريب العجيب أن الشاب لم يشعر برغبة جنسية نحو الصبية، على الرغم من أنه يراها لأول مرة في بذلة السباحة، والتي تراءت له وكأنما هي شبه عارية! لقد أثار عريها في نفسه شعوراً غامضاً لم يدرك كنهه، شعوراً يسمو به إلى درجة الملائكة!

كان وهو ينظر إلى جسدها شبه العاري، يشعر وكأنما هو ينظر إلى رسمة زيتية أبدع الخالق الأعظم في رسمها، وكانت بذلة السباحة تبدو وكأنها قطعة من القماش تغطي بعض أجزاء هذه الرسمة! كان وهو ينظر إلى جسدها وكأنما كان ينظر إلى شيء مقدس، وكان وهو في حضرتها وكأنما هو يجلس في محراب يتعبد به الناس يكبّرون ويهللون!

"من أحبّ امرأة ولم يشتهِها، ولم يستطع أن يتزوجها، فإن الله سبحانه وتعالى سيزوجه بامرأة خيرٍ منها، جمالاً وأخلاقاً؛ فإن لم يحدث في هذه الدنيا، فإنه قطعاً سيحدث في الآخرة! "هذا ما قاله الشيخ عبد الحليم يوماً لراكان وزملائه في فصل الدين، وكان الشيخ يحدثهم عن أصناف الحب؛ حب الخالق والحب العذري! لقد أحببت سميحة يا سيدنا الشيخ، خمس سنوات كاملة، حباً عذرياً صادقاً، ولم أكلمها ولم أشتهِها، ولم تعرف حتى أنني أحبها؛ فهل معنى ذلك أن الله سيزوجني بفتاة خيرٍ منها، جمالاً وأخلاقاً؟!

- لا تصدق أستاذ الدين يا راكان! إنه يريدنا أن نعيش في حرمان جنسي، على أمل موهوم ومزعوم! إنني يا صديقي لم أر فتاة جميلة إلا واشتهيت جسدها وتمنيت مضاجعتها، وكذلك يفعل أستاذ الدين نفسه! صدقني يا راكان!

- حرام عليك يا صديقي أن تقول هذا عن مدرسنا الجليل! إنه إمام تقي وورع!

- إنه يجعلك تظن بأنه هكذا، ولكنه لا يرى امرأة جميلة إلاّ ويعريها بخياله!

- أرجوك يا شاهر أن تكف عن هذا الكلام! والله أن بدني يقشعر لسماعه! إنني سأغادرك الآن إذا لم تغير هذا الموضوع!

- لا تغضب يا صديقي! سأغيره! صدقني! اقترب مني لأقول لك شيئاً! انظر إلى ساعتي، إنها تشير إلى الحادية عشرة ليلاً، فانظر إلى هناك فهاهي شبابيك سميحتك مظلمة، فإنها الآن تمسح السائل المنوي من بين فخذيها، بعد أن انتهى زوجها من مضاجعتها!

- أقول لك بحق الشيطان غيّر هذا الموضوع القذر! إن كل ذرة في جسمي ترتجف قرفاً واشمئزازاً! لقد أحببت روحها... كبرياءها... تألقها... عفّتها... جمالها... طهارتها! إنني أحبها حباً عذرياً لا رغبة فيه ولا شهوة! أقسم لك بالله العظيم !

- إن حب المراهقة في بلداننا، المتأخرة والمسحوقة، يبدأ عذرياً! إنه حب الجوع... الحرمان! عدم الحصول على جسم من نحب! ولذلك نقول عنه عذرياً!

- لن أبقى معك لحظة واحدة! إن كلامك يفقدني عقلي! إلى اللقاء! سأراك غداً في المدرسة!

آه! شكراً لك يا رب! لقد أحببت سميحة حباً طاهراً عذرياً ولم أشتهِ جسدها، فأرسلت لي نيكول، أكثر جمالاً ورقة وأنوثة، وأكثر حنيّة! مرة أخرى، الشكر لك يا رب!"

- لقد وضعنا على أجسادنا ما يكفي لحمايتها من حرّ الشمس، فدعنا أولاً نمشي على الشاطئ بعض الوقت، ثم أعطيك أول درس في السباحة! قالت نيكول هذا وقفزت من على البطانية كالغزال، ومدّت يدها إليه ليمسك بها!

تردد الشاب قليلاً أن يستجيب لطلبها فاقتربت منه وأمسكت بيده، عندها لم يمانع وأسلم يده ليدها وسار إلى جانبها، فقال فجأة وهو يعود بنظره إلى الوراء وكأنما تذكر شيئاً:

- لقد نسينا أن نحمل حاجياتنا!

- دعها في مكانها! إنها بقعة متميزة، فلو حركناها منها لاستحلها آخرون! قالت وقد سحبته من يده وتابعت سيرها.

- أنا أعني... أنا أقول... إننا قد لا نجدها عندما نعود! قد يسرقها أحدهم!

وبعد أن ضحكت طويلاً قالت:

- اطمئن! لن يلمسها أحد بسوء! انظر حولك لترى كم كومة من الحاجيات ليس عندها أحد، وأصحابها إما يتمشون على الشاطئ أو يسبحون!

وبالفعل؛ نظر الفتى حوله فرأى كثيراً من البطانيات المفروشة، وحولها ثلاجات سفر صغيرة وحقائب متناثرة هنا وهناك؛ فشعر بالخجل من صاحبته ومن نفسه، إذ شطح به تفكيره بعيداً، ولكنه طرد جميع هذه الأفكار من رأسه، وسار إلى جانبها، وصار رويداً رويداً يرفع رأسه عن الأرض ويتأمل الناس الذين حوله، فرأى أجساماً من جميع الأشكال والأحجام! رأى المرأة السمينة والنحيفة، والجميلة والقبيحة، والقصيرة والطويلة؛ ورأى المرأة التي يشتهي لو أنها إحدى صديقاته، والأخرى التي يبعث منظرها على القرف والاشمئزاز؛ والتي حجم صدرها يفوق حجم صدر بقرة مرضعة!

- تمدد على بطنك فوق يدي، وحرك يديك وقدميك بطريقة تناغمية! قالت الشابة عندما وصلت هي ورفيقها إلى بقعة ذات ماء ضحل يسبح بها أطفال صغار برفقة آبائهم أو أمهاتهم، وهم يساعدونهم في تعلم أصول السباحة!

- ولكن جميع الذين يسبحون صغار، وأنا أخجل أن أسبح معهم! قال الشاب محتجاً!

- صغار أو كبار؛ الناس لا يفكرون بهذا! هذا المكان خصيصاً للذين لا يعرفون السباحة ويحبون أن يتعلموا! الخجل من ماذا؟! هل نحن نسرق؟ إنك تقول أحياناً أشياء من الصعب جداً عليّ أن أستوعبها! لا شك أنه اختلاف الحضارتين! قالت الشابة بحزم، ولكن بحنية وأدب!

لم يرد راكان أن يدخل معها في مناقشة، إذ تأكد له بأنه في النهاية سيكون الخاسر، لأن جميع القضايا التي اختلفا عليها، كانت بسبب خلفيتهما المتباعدة؛ ولذلك أذعن لطلبها وألقى بجسمه فوق يديها المفتوحتين، وصار يستمع لتعليماتها، طالبة إليه أن يحرك يديه أحياناً وقدميه أحياناً أخرى، ثم يقف على قدميه في كثير من الأحايين!

الغريب العجيب هو أن راكان لم يشعر ونيكول تمسك بيده، ولا وهو ينام بصدره فوق ذراعيها، ولا وهي تمسك برقبته وترفعها عن الماء، أو وهي تمسك برجليه وتريه كيف يمددها ويضرب بهما الماء؛ بالرغم من كل هذه الأسباب مجتمعة؛ لم يشعر بأن الجسم القريب والذي يعانقه أحيانا ويستنشق عطره أحياناً أخرى، هو جسم فتاة في ريعان شبابها؛ جسم يشتهيه كل شاب ويتمنى لو يستطيع أن يعانقه!

كان يشعر وكأنه جسد إحدى محارمه، جسد محرّم عليه لمسه. إنه جسم فتاة يحبها إلى درجة التقديس، ولكنه لا يشتهي جسدها؛ بل وإنه أكثر من ذلك يشعر بالاشمئزاز والغثيان عندما يتصور نفسه وهو يلامس ذلك الجسد الطاهر المقدس؛ بقصد الشهوة والاشتهاء!

كان يغمض عينيه ويشد عليهما، وكان يضغط على أسنانه ويعبس وجهه، وكان جسمه يرتعد هولاً كلما لامس جسمها! كان يشعر وكأنما يرتكب إثماً بل جرماً!

عاد الشابان إلى حيث مكان حاجياتهما، بعد أن لف كل واحد منهما جسمه بمنشفة كبيرة وألقيا بنفسيهما فوق البطانية! كانا يلهثان من شدة الإرهاق، إذ إنهما أمضيا حوالي الساعة وهما يتخبطان في الماء!

مرت دقائق قليلة وكل واحد منهما يحاول أن يلتقط أنفاسه عندما سألت نيكول فجأة ودون مقدمات:

- قل يا راكان! لم يحب الناس بعضهم بعضاً؟!

احتار الفتى ماذا يجيبها كما أنه، وفي نفس الوقت، استغرب سؤالها، فأجاب:

- يقولون بأنهم يفعلون ذلك ليحافظوا على دوام الجنس البشري!

- إنني أعرف هذا وإن كنت أعتبره سبباً واهياً؛ إذ إن الحيوانات والنباتات كذلك تتزاوج لتبقي على سلالتها؛ إذ معنى ذلك أن لا فرق بيننا وبينها؛ ولكنني أريد رأيك الشخصي!

ابتسم الشاب ابتسامة فرح كبيرة أضاءت وجهه، وقال:

- إن فلسفتي الشخصية هو أن بعض الناس، وأقول بعضهم لأن ذلك يعتمد على سموهم الفكري وإدراكهم الحضاري؛ يحبون بعضهم بعضاً ليسموا عن مستوى الشهوة والجنس أي درجة الحيوان، إلى مستوى السمو والرفعة؛ أي إلى درجة الملائكة!

صاحت الفتاة فرحة وبصوت عال كفرحة العالم الذي توصل إلى اختراع جديد مما أدهش راكان وحيره؛ فقالت وقد نهضت من تمددها بعد أن ألقت بالمنشفة بعيدة عنها:

- هذا ما صرت أعتقده أنا بعد أن قابلتك! لقد تغيرت كل مفاهيمي للحب! لقد كنت في الماضي أعتقد أنني سأحب وسأتزوج وسأنجب أطفالاً ويكون لي بيت وعمل وأعيش حياة روتينية كبقية خلق الله!

شعر الشاب بسعادة جارفة، وأحس وكأنما هو يحلق في أعالي السماء على أجنحة من نور وبين ذرات الأثير، ولكن يبدو أن جذوره البدوية وتفكيره القبلي، مازالا متأصلين في أعماقه، إذ استهجن أن تكشف فتاة لشاب عن عواطفها أو تبوح له بمكنون قلبها، بكل صراحة وصدق ودون مواربة ولا خجل!

إن الفتاة في وطنه لا تفعل هذا وإنما تتركه إلى الشاب ليقوله هو، حتى ولو كانت تؤمن به! لقد توصل إلى قناعة تامة، بينه وبين نفسه، بأنه تربى في مجتمع دجّال ومزيف؛ مجتمع تتحكم به الأفكار السقيمة والعادات البالية!

إن ما قالته نيكول في بلده، يجعل منها فتاة مبتذلة ورخيصة؛ أما هنا في بلد الحرية والديمقراطية، وبلد الإباحيّة الجنسية، فيجعل منها فتاة صادقة وأمينة، تعبّر عن معتقداتها ومكنونات صدرها بجرأة وصراحة!

وتذكر راكان أن بلده هي بلد "التابوهات"، بلد الحرام والحلال! كل تصرف في مفهومهم له مسمى؛ هذا عيب وهذا مقبول؛ هذا يجوز وهذا لا يجوز؛ فالناس لا يجرؤون أن يتحدثوا عن حبهم لبعض، لأن ذلك سوء تصرف وقلة أدب، وانعدام في التربية!

- هل أحببت في حياتك يا راكان؟! قطعت عليه نيكول حبل أفكاره!

هز الشاب رأسه علامة الموافقة، ثم بعد أن نظر إلى وجهها طويلاً لاحظ أن عينيها عميقتان كقاع البحر، زرقاوان كالعسل المصفى، هادئتان كماء الغدير؛ رأى صورته بهما؛ قال:

- نعم؛ لقد أحببت والدتي وأخواتي وإخواني، وما زلت أفعل!

- إنك تعلم أنني لا أعني ذلك! قالتها بلهجة دلال ودلع!

- نعم؛ لقد أحببت!

حدثني عنها! أرجوك! هل كانت تحمل لك نفس الحب؟! ثم هل كانت جميلة؟! وما الذي حببها إليك؟! وهل مازلت تحبها؟! أرجوك قل لي الصدق!

ابتسم الفتى وقال بمرارة وخجل:

- لقد كان حباً من طرف واحد!

- كيف؟ ! لا أفهم!

- إنه من الصعب عليك جداً جداً، كأمريكية، أن تصدقي ما سأقوله! لقد أحببتها خمس سنوات كاملة، ولم يكلم أحدنا الآخر طيلة تلك المدة؛ كما أقسم لك ، بأنها حتى ما كانت تعرف بأن هناك إنساناً اسمه راكان!

هزت الصبية رأسها وكأنما تسمع العجب العجاب!

- نعم؛ إنها لم تعرف بأن هناك إنساناً اسمه راكان! لقد عشت في مدينة لا يسمح مجتمعها باختلاط الذكور بالإناث؛ ولذلك لم يكن هناك من طريقة أعلمها بحبي؛ حتى ولو فرضنا جدلاً بأن هناك وسيله لإعلامها، فإنها كانت من مستوى أعلى من مستواي، وكان من المستحيل إيصال رسالتي إليها!

- أرجوك؛ حدثني عنها! وكيف حدث أن أحببتها؟ سألت الفتاة وقد اتسعت حدقتا عينيها حتى كادتا تبتلعان القسم الأعظم من وجهها!

بدأ راكان يتكلم! كان يتكلم بحماس وشوق ملتهبين، وكان كأنما يلقي قصيدة شعرية يحفظها عن ظهر قلب؛ قصيدة كان وهو يقرأها تهتز لكل حرف منها كل خلجة في نفسه وكل ذرة في كيانه! كان يتكلم دون توقف ودون انقطاع، إذ كان وكأنما يزيح عن قلبه حملاً ثقيلاً أرقه وأزعجه لسنوات طوال!

- إنها قصة طويلة طويلة، يحتاج سردها إلى أيام بل إلى أسابيع؛ ولكنني سأخبرك عن نبذة منها! لقد قابلت سميحة وأنا في السادسة عشرة من عمري؛ فأحببتها حباً محموماً منذ اللحظة التي وقعت عليها عيناي! لقد أحسست برعشة هزت كياني وبسعادة سماوية لا أستطيع وصفها! لقد شعرت وكأنما ولدت في تلك اللحظة، وأنني كنت أعمى فرُدَ إلي بصري؛ أو كأنما كنت ميتاً فردت إلي الحياة! لقد شعرت بأنني أحلّق في أجواء السماوات العلى؛ وأنني قد حشرت في زمرة الملائكة والقديسين والصالحين، أهلّل مع المهلّلين، وأشهّد مع المشهّدين! أحد! أحد! كانت منصرفة من مدرستها عصراً، وكنت أمر بالشارع وصديقاً لي صدفة، شعرت وكأنما قلبي قد أضاء بنور رباني! إنني ومنذ تلك اللحظة ما كان باستطاعتي أن أمضي يوما واحداً دون رؤيتها؛ وعندما كان يهزني الحنين لرؤيتها، أشعر بأنني على وشك الجنون! كنت كالمدمن أظل أتعذب وأعاني حتى أراها؛ وعندما أفعل كنت أشعر بالهدوء والأمان!

تطلع الشاب إلى جارته فوجدها تتأمل وجهه بعمق ومهابة! ثم تابع حديثه:

- كانت طالبة في مدرسة البنات الثانوية، وكنت طالباً في مدرسة البنين الثانوية، فكنت أهرب من آخر حصة عند العصر لأراها وهي تغادر مدرستها إلى البيت، وأحياناً أتأخر عن أول حصة بعد الغداء لأراها وهي في طريقها إلى المدرسة؛ وكان أسوأ أيام حياتي هي أيام الجمع والعطل المدرسية؛ فقد كنت أشعر، والله، بأنني أكاد أختنق من شدة شوقي إليها! كنت أرابط في الشارع الذي تسكنه لساعات وساعات علّها تخرج فأراها، وإن كانت لا تخرج من

البيت إلا نادراً! إنني لم أعرف حتى هذه اللحظة إن كانت تشعر بوجودي عندما كنا نتقابل في الشارع، إذ لا شك أنها كانت تظنني مجرد عابر سبيل!

- ولم لم تعلمها بحبك؟! تدعوها إلى السينما؛ إلى حفلة موسيقيه؛ إلى نشاطات مدرسية؛ إلى وجبة طعام؛ إلى مشوار؛ إلى أي شيء تستطيع به أن تبوح لها بحبك؟! سألت الصبية بغيظ ممزوج بالشفقة!

- ألم أقل لك بأنه من الصعب عليك جداً؛ بل حتى من المستحيل أن تدركي ما أتحدث عنه؟! أولاً إن المدينة كلها لا يوجد بها سينما ولا مطعم؛ ثانياً؛ إن العادات والتقاليد تحرم مكالمة شاب غريب لفتاة بالشارع، وإن فعل فإن المارة سيتجمهرون عليه ويضربونه ضرباً وربما يأخذونه إلى السجن، وتصير فضيحة كبيرة في المدينة، وسيطرد من مدرسته! بالإضافة إلى أن الناس في مثل هذه المدن يعرفون بعضهم بعضاً. ثم إن هناك قضية مهمة جداً جداً وهي أنني لم يكن يهمني إن كانت تعرف عن حبي لها؛ كما إنني أشك جداً جداً، أنها كانت تشعر بوجودي وأن هناك إنساناً، الذي هو أنا! كل ما كان يهمني هو أن أراها، وأن أطفئ النار المشتعلة في قلبي وروحي! كنت أحياناً أستيقظ في الثانية أو الثالثة صباحاً، فأشعر بتشوق محموم إلى رؤيتها، وأنني سأنفجر إن لم أفعل؛ فكنت أرتدي ملابسي، وأمر من تحت شبابيك بيتها فيعاودني الهدوء والاطمئنان!

- لقد أحزنتني قصتك كثيراً؛ ولم أكن أعرف أن في العالم أحداً من هذا النوع! قالت الصبية بصوت منخفض وكأنما تناجي نفسها! أما الشاب فقد استرسل مع أفكاره، إذ إن كلامه أثار شجونه القديمة والمدفونة في أعماقه:

- كانت المعاناة المبرحة والعذاب الممزق هو بعد رحيلنا إلى العاصمة؛ فقد كنت أظل أتعذب طيلة أيام الأسبوع، حتى إذا جاءت عطلة نهاية الأسبوع سافرت إلى هناك علني أستطيع أن ألمحها وهي تعبر الشارع؛ وما أكثر السفرات التي عدت منها دون أن تكتحل عيناي برؤيتها، على أمل أن أراها في عطلة نهاية الأسبوع الذي يليه!

تمهل راكان قليلاً ثم أضاف!

- مضى عامان وأنا أعيش معها وبعيداً عنها، إلى أن سمعت أنها تزوجت بشاب ذي ثقافة ومركز عاليين ففرحت كثيراً!

- ولماذا إذن تقع في مثل هذا الحب؟!

شعر الشاب بأن الفتاة في سؤالها هذا قد وصلت إلى قمة الغباء، لكن حبه لها أعذرها بحجة أنها ولدت في مجتمع يختلف كثيراً عن مجتمعه، فقال!

- هذا هو الفرق بيننا وبينكم! إن الواحد منكم يحب الآخر بعد أحاديث ولقاءات طويلة وعديدة، وبعد دراسة وتمحيص، أما في بلادنا فالحب يأتي كالزوبعة العاتية، يحطم أبواب القلب وشبابيكه ويدخل دون استئذان، ودون أن يكون لك به رأي أو اعتراض!

- ولكنك تعذبت طويلاً! قالت شبه محتجة.

- إن هذا صحيح! ولكن ذلك الحب قد صقل عواطفي ورقق أحاسيسي، كما إنه هذب طباعي وسمى بي إلى درجة عالية من الجمالية والإدراك، أضيفي إلى ذلك أنه نوّر عقلي!

وهنا ازداد حماس الشاب عندما وجد أن الشابة تصغي إليه، وكأنها تصغي إلى أستاذ لها، معجبة بآرائه عاشقة لروحه، فأضاف:

- عندما أتكلم عن الحب أنا لا أتكلم عن الحب الجسدي الذي يقصدون منه دوام الجنس البشري، ولا حتى عن الحب الروحي الذي تتحدث عنه الأديان السماوية؛ أنا أتحدث عن نوع آخر من الحب؛ حباً تلتقي به الأرواح فقط !

بقيت الصبية تحملق بالشاب كأنما لا تفهم ما يعني.

ابتسم الفتى ابتسامة حانية، كأنما هو أستاذ كبير يفسر لتلميذته مشكلة فلسفية صعب عليها فهمها فأضاف:

- إن النساك يعبدون الله في مناسكهم، فيواصلون الليل بالنهار، يتكلمون مع إله لا يرونه ولا يسمعون صوته، ومع هذا لا يكفون عن عبادته ولا يتوقفون عن تسبيحه!

- ولكنهم يفعلون ذلك خوفاً من عذاب جهنم وطمعاً بالجنة!

- إن كانوا يفعلون ذلك فإنهم في رأيي انتهازيون! إن العبادة الحقيقية يجب أن تكون حباً في الله، وليس خوفاً من عقاب أو طمعاً في ثواب! يجب أن يكون الدافع لعبادتهم شوقا روحيا وظمأ عاطفيا لمعانقة روح الخالق!

- إن ما تقوله يمنحني شعوراً بالسعادة الروحية لم أمر بمثلها من قبل! قالت الشابة بوعي المنوم!

- أنا لم أحب سميحة لأنني كنت أطمع في أن أتزوجها، ولا أن يلامس جسدي جسدها؛ بل لم أكن أطمع في مكالمتها، ولا حتى أن تعرف أنني خلقت؛ ومع كل هذا كنت أقضي شطراً من الليل أتحدث مع طيفها وأناجي خيالها! لقد أصبح حبها الغذاء الذي أعتاش منه؛ والهواء الذي أتنفسه! لم أشعر أنني حي إلا يوم أحببتها؛ ويوم انقطعت عن حبها؛ شعرت وكأنما مت! ومنذ ذلك الحين وأنا أشعر أنني إنسان ميت ينتظر الدفن؛ إلى حوالي قبل شهر إذ شعرت أنني ولدت من جديد!

توقف راكان فجأة وكأنما أغلق أحدهم فاه ومنعه من الاستمرار، إذ شعر بأنه ارتكب خطأ فاحمرت وجنتاه وتظاهر بأنه يتطلع إلى الجهة المعاكسةَ!

- أرجوك! يكفينا اليوم الحديث عن الروحانيات، فأنا أشعر الآن وكأنما أنا مخدّرة!

مرت فترة صمت ليست بالقصيرة خيم عليها السكون، بعدها نهضت الصبية وألقت بالمنشفة بعيداً عنها، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها مرطباناً وبدأت تضع ما بداخله على جميع أجزاء جسمها وبعد أن انتهت ناولته إلى رفيقها الذي قلدها فيما فعلت!

نهضا من جلستهما وسارا على الشاطئ، واستغرب راكان كيف أنه كان ينظر إلى الأجساد العارية التي تقابله دون أن تثير في نفسه نزعة شهوانية كما كان يفعل في الماضي؛ إذ كان وكأنما ينظر إلى رجال في ملابس البحر، مما جعله يتساءل عن سر تغيره المفاجئ! فهل حب نيكول أيقظ من جديد في قلبه الحب العذري التصوفي الذي مات منذ سنوات؟! وهل عاد يفكر بالمرأة كما كان يفكر بها أيام حبه لسميحة؟! إنسان يلهمه ويرفعه حبه إلى مستوى القديسين والملائكة؟! هل فارقه كفره بالروح وعاد إليه إيمانه بالحب والفضيلة والقيم والإبداع؟!

لقد أعلمت نيكول راكان في طريق عودتهما، بأن والدتها هاتفتها صباح اليوم وأعلمتها بأنها وجميع أفراد العائلة مشتاقون لرؤيتها كثيراً، ورجتها أن تأتي لتقضي اليوم معهم؛ ولكنها اعتذرت لأنها كانت قد وعدت راكان أن تأخذه إلى شاطئ البحر؛ ولكنها ستحضر صباح الغد لتقضي اليوم معهم لأنه يوم عطلتها الأسبوعية وأنها ستنام مساء الاثنين وتكون في عملها صباح الثلاثاء!

لقد تمنى الفتى من أعماق قلبه، لو أن الفتاة تطلب إليه مرافقتها، إذ يستطيع أن يتغيب عن عمله بحجة أنه مريض أو أنه ذاهب إلى دائرة الهجرة أو إلى أي شيء من هذا القبيل؛ ولكنها سامحها الله لم تفعل!

*****

- هل في نيتك الخروج الليلة؟ سألت السيدة هييز راكان وهما يتناولان العشاء.

- لا، سأقضيها معك نفعل ما تشائين!

- رائع جداً! سنلعب النرد وسأتساهل معك هذه المرة لأجعلكَ تغلبني! قالت العجوز بفرحة عارمة ظهرت في تورد خديها!

خالج راكان شعور عميق بأن كفيلته تحاول رشوته لتشجعه على عدم الخروج؛ فقال:

- لقد غلبتني في كل مرة لعبنا بها، ولكنني عازم الليلة على أن أكون أنا الغالب، دون أن تتساهلي معي! قالها الشاب مازحاً!

لعبا ثلاث مرات كانت الغلبة فيها للسيدة هييز، أما في المرة الرابعة فقد انتصر عليها راكان عن جدارة.

- أؤكد لك أنني لم أتساهل معك إطلاقاً؛ لقد غلبتني عن جدارة! صدقني إنني سعيدة جداً، لأنني واثقة الآن أنك أتقنت أصول اللعبة! قالت العجوز فرحة!

- إنني، وكما أخبرتك، لا أحب أي لعبة من هذه الألعاب المسلية، لأنني أعتبرها مضيعة للوقت، وإنني ألعبها فقط لأدخل السرور إلى قلبك؛ فأنا، وكما تعلمين، أحب أن أمضي وقت فراغي إما بالمطالعة أو الكتابة!

- ولكني أقضي كل يوم حوالي الساعتين في قراءة الجريدة! قالت المرأة محتجة.

- لا شك أنه عمل رائع، لولا أن معظم ما تقرئينه في الجريدة، هو الفضائح وأخبار المجتمع!

- وكذلك الأخبار السياسية وحل الألغاز، فذلك يتطلب صبراً ومعرفة!

- إنني أوافقك؛ وأرجو أن لا تفهمي أنني أعترض على ما تفعلينه أو أنني أكرهه؛ إن كل هواية بالنسبة لي، خارج نطاق المطالعة الأدبية والكتابة، لا تثير حماسي ولا تجد قبولاً عندي؛ هكذا خلقني الله! أنا أتمنى لو أنك تقضين وقت فراغك بقراءة الكتب الأدبية، لكان عندك ثقافة فكرية وليست ثقافة فضائح وأخبار المجتمع! قالها مكفولها مازحاً وأتبعها بضحكة.

ضحكت العجوز طويلاً ومن أعماق قلبٍ خلي، وقالت:

- إنك على حق، ولكنني صار لي أكثر من عشرين عاماً أمارس هذه الهواية، هواية قراءة الجريدة اليومية، ولا أستطيع التخلي عنها، تماماً مثلما لا تستطيع أنت أن تتوقف عن هوايتك!

كان يحزن راكان جدا ويشعر بتأنيب الضمير وهو يرى كفيلته تمضي الساعات الطوال، بعد أن تفرغ من قراءة الجريدة ومن واجباتها المنزلية، في لعب الورق والدومينو لوحدها، وكان يتمنى من أعماق قلبه لو أن باستطاعته أن يقنع نفسه، وأن عنده الصبر الكافي ويمضي معها بعض الوقت كل ليلة يؤنسها ويرفه عنها!

إنه يشعر بتأنيب ضمير ممزق، فلقد كفلته وأحضرته إلى هنا ليسليها في وحدتها، ولكنه يخرج ويقضي أمسيته مع أناس غيرها، خصوصاً بعد أن تعرف على جدة نيكول، فإنه يخرج في معظم الليالي!

وبينما هما وسط وطيس معركة اللعب، شعر راكان فجأة وكأنه في زنزانة وأنها أفرغت من الهواء، وأن هذه الزنزانة بدأت تضيق وتضيق، حتى كادت تحطم ضلوعه، وأنه يكاد يختنق؛ وبقوة جبارة لا يستطيع كبحها، وبهوى مدمر لنيكول ولجدتها، وكالذي لسعة سوط من نار، قفز من مقعده وفتح الباب وخرج، حتى دون أن يستأذن من كفيلته!

ظل يجري تارة ويهرول أخرى بين بيت كفيلته وبيت جدة نيكول، إذ كانت المسافة بين البيتين حوالي الميلين، فقد كانت الأولى تعيش في شمال المدينة والثانية في جنوبها.

كان يجري بدون وعي ويهرول بلا شعور، وكان بداخله قوة عنيفة ورغبة مجنونة تقودانه إلى بيت السيدة جوليت! لقد شعر وكأن سياطاً من نار تلهب جسده وتحثه على الجري، وكان كلما اقترب من البيت يزداد شوقه ويتعاظم هواه!

كان يجري وكأن البيت ومن فيه سيهربان، وكان كلما اقترب منه أسرع في جريه وأوسع خطاه، لأنه إن تأخر قليلاً فلن يجده في مكانه أو أن أبوابه ستغلق في وجهه ولن تفتح له أبداً!

إن راكان يعرف جيداً أن السيدة جوليت تترك جميع أبواب بيتها مفتوحة ولا تغلقها إلا وقت النوم! دفع الباب الخارجي على عجل ولم يغلقه خلفه كعادته، وهرول بينه وبين باب الفرندة، وسمع صوت باب المنخل خلفه يطرق وهو يغلق، والباب الخشبي يضرب بالحائط أمامه، فركض في أرض الفرندة وسمع صوت باب المنخل خلفه والباب يضرب بالحائط أمامه، ولم يخفف من جريه إلا عندما وقف أمام باب غرفة الجلوس ورأى الجدة جالسة على كرسيها المعهود قرب الموقدة، وكانت تنتظر لترى من القادم الذي يدفع الأبواب بشدة فترتطم بالجدران وتنصفق ببراويزها!

- أهذا أنت يا راكان؟! ما أسعدني برؤيتك! آه يا بني! لقد افتقدتك كثيراً! قالت العجوز وفرحة كبيرة تغطي وجهها!

ألقت بهمة بالكتاب الذي في يدها على الطاولة الصغيرة التي عليها المصباح، ونهضت مسرعة نحو القادم، وقابلها هو في منتصف الغرفة ولف يديه حول عنقها واستنشق عطر جسدها؛ إنه يشبه عطر جسد والدته، وشعر براحة وأمان، تماماً كما كان يشعر وهو يلف يديه ويعانق والدته ! لقد طفرت دمعتان من عينيه، وتمنى لو يستطيع أن تنزل أكثر، بل وأن يظل يبكي حتى يتخلص من كل ما بداخله من قهر وإحباط، وكل ما في وجدانه من ضياع ويأس؛ كما تمنى لو يستطيع أن يقضي العمر كله هكذا!

- لقد أعلمتني نيكول بأنك لن تأتي الليلة، وفكرت أن أهاتفك ولكنني ترددت مخافة غضب كفيلتك، فطمعت بأنك ستهاتفني لأسمع صوتك وأطمئن عليك! قالت الجدة بصوت منخفض ناعم وكأنه صوت كمان حنون؛ وبعد أن فكت يديها من حوله وصارت تنظر إلى وجهه نظرات كلها حب وحنان كذلك ذكرته بنظرات والدته التي كانت تحتضنه بعينيها! أما هو فلم يفتح فمه ولم ينطق بحرف، وإنما كان ينظر إليها، وداخله مرتع لشتى العواطف الجياشة الممزقة والانفعالات الثائرة المحرقة!

- ما رأيك أن تصنع لنا بعض الشاي؟! لقد تكاسلت الليلة فلم أشربه لعدم وجود من يشاركني شربه!

- يسعدني جداً! اذهبي أنتِ واجلسي، فسأجهزه بنفسي ونشربه سوية! قال ذلك وتوجه إلى المطبخ، أما الجدة فقد عادت إلى مقعدها!

- لقد طلبت إليّ جارتنا السيدة " بويكو" بعد ظهر هذا اليوم، أن أجلس مع طفليها بعض الوقت، حيث ذهبت واشترت هدية عيد ميلاد لزوجة مدير زوجها. لقد غابت حوالي الساعتين فاستمتعت بأحاديث الصغيرين جداً، إذ أرياني ما عندهما من ألعاب وشرحا لي عنها! كانا يتنافسان بالحديث، وكثيراً ما حاولت البنت أن تسكت أخاها لتتكلم هي، مع أنها تصغره بعامين؛ إذ إن عمرها أربع سنوات بينما عمر أخيها ست.

توقفت السيدة جوليت عن الحديث ربما لترتاح قليلاً أو لعلها أرادت أن تعطي الفرصة لجليسها ليدلو بدلوه، ولما لم يقل شيئاً استأنفت حديثها:

- إنني أقلق عليك كثيراً يا بني عندما أعلم أنك تسير ليلاً لوحدك. أنا أعرف أن كفيلتك ليس عندها سيارة وليس بمقدورها أن تشتري لك واحدة، وأنك أتيت إلى أمريكا حديثاً وليس معك نقود تكفي لشراء سيارة، فإنك إن سمحت لي فأنا أبتاع لك سيارة كهدية مني إليك!

- إنني أشكرك من أعماق قلبي لاهتمامك بي وحرصك علي؛ سأحاول أن أوفر بعض النقود في نهاية كل شهر، وعندما يتجمع لي القسط الأول فسأشتري واحدة !

- إنهم لن يقبلوا أن يقسطوها لك بسبب أنك قادم جديد، وليس عندك خلفية شرائية تستطيع بموجبها شراء سيارة، وفي هذه الحالة ستحتاج إلى كفيل، وأنا على استعداد أن أقوم بهذه المهمة!

- شكراً لك ثانية! أنا لا أحب أن أزعجك! إنني في هذه الحالة سألجأ إلى كفيلتي! قال الشاب بثقة وقد شعر بأنه كبر في عيني نفسه!

- لا أعرف يا بني لماذا؟! إننا نحاول أن نتقرب إليك، ولكن تبدو وكأنك ترفض هذا التقرب! قالت بحماس ولهجة عتاب.

ألهب كلام السيدة جوليت الحميمي عواطف راكان، فقال بحماس فاق حماسها:

- لا أدري لماذا تقولين هذا يا أماه؟! أنتم تسكنون وجداني!

- وهل تحب نيكول يا بني؟ ! سألت العجوز بجرأة وحماس.

سؤالها فاجأ راكان وحيره أيضاً، فلم يدر ماذا يقول! تردد... تلعثم؛ فقد كان سؤال الجدة مخجلاً أيضاً لإنسان ولد ونشأ في مجتمع محافظ جداً، لا يتحدث الناس به عن الحب الرومانسي!

- وهل تشكّين في ذلك يا أماه ؟!

- إطلاقاً؛ فقط أريد أن أسمعها من فمك!

- إن نيكول بالنسبة لي كالهواء الذي أتنفسه، وعندما تكون بعيدة عني، صدقيني بل وأقسم لك، أشعر بضيق شديد وكأنما أنا على وشك أن أختنق!

- أصدقك يا بني؛ ولكن...؟

- و لكن ماذا يا أماه؟!

- اعذرني لسؤالي! لقد كنت واثقة من حبك لها، إلا أنها أعلمتني خبراً جعلني وجعلها هي أيضاً، تشك في حبك لها!

التفت الشاب إلى العجوز وقد جحظت عيناه وخفق قلبه، وكأنما سمع اتهاماً خطيراً يوجه إليه، وهو بريء منه!

- وماذا قالت؟!

انفرجت شفتا العجوز عن ابتسامة حانية، ولاحظ الفتى أن حمرة خفيفة قد علت وجنتيها المتجعدتين، فقالت وقد تطلعت إلى الأرض، وكأنها ابنة الرابعة عشرة تسمع شاباً يغازلها فيطري محاسنها!

- لقد أعلمتني بأنك حتى الآن لم تبُح بحبك لها، ولم تقبلها ولم تضمها إلى صدرك، بل وحتى لم تلامس يداك يديها برومانسية!

شعر راكان وكأنما جبل انزاح عن كاهله، كما جدته موجة من العرق الساخن، ولكنه لم يعلق على ما قالته الجدة، لسبب بسيط جداً، هو أنه لم يعرف ماذا سيقول! وعندما لم تسمع منه تعليقاً أضافت:

- هل تعرف كم صار لكما تعرفان بعضكما؟!

هز الفتى رأسه علامة النفي.

- لقد أعلمتني ليلة البارحة بأنكما تكلمتما مع بعض، لأول مرة، قبل ثلاثة شهور وخمسة أيام بالضبط!

توقفت الجدة قليلاً قبل أن تستأنف حدثيها، وإن صارت تتكلم هذه المرة بصوت أعلى وبحماس أشد، وكأنما زايلها خجلها وتدافع عن حق من حقوق حفيدتها:

- إنك، وكما تعلم، خلال الشهرين والنصف الأخيرين، قلما يمر يوم دون أن تريا بعضكما البعض!

- هذا صحيح! قال الشاب بصوت مبحوح.

- لقد أعلمتني البارحة وهي تبكي بأنك لا ترى أنها جميلة، ولا أنها جذابة، وإلا لما نظرت إليها وكأنما هي شاب لا فتاة!

- هذا غير صحيح إطلاقا! إنني أعاملها بكل احترام وأدب ولطف! قال راكان هذا وقد أثارته التهمة الباطلة.

- لقد أعلمتني ذلك، بل وقالت بأنك تعاملها وكأنها ملكة! إنها تخجل من نفسها أحياناً بسبب معاملتك الرائعة لها، وتقول بأنه لا يمكن لرجل أن يعامل أنثاه، مثلما تعاملها أنت! لقد قالت حتى أكثر من ذلك، وهو أنك تعاملها كما يعامل شاب فتاته وهما في شهر العسل!

- يسعدني أن أعرف أن هذا رأيها بي؛ يا أماه!

- ولكن هذا لا يكفي يا بني! إن الفتيات العاشقات يردن أن يسمعهن عشاقهن كلمات الحب والغزل، وبأنهن جميلات وجذابات! ثم ابتسمت الجدة ببراءة وأضافت بصوت أقل حماساً وأكثر انخفاضاً من ذي قبل.

- إنهن يحببن أن يُقبلن ويُعانقن وتمسك أيديهن، وأن يلف الشاب دائماً يده حول خصرها أو عنقها وهما جالسان أو سائران! إن هذه الأفعال يا بني تغذي الحب! صدقني!

توقفت المرأة قليلاً وزادت من خفض صوتها وكأنما تبوح سراً لا تحب غريباً أن يعرفه!

- إننا نحن النساء يسعدنا كثيراً أن نعرف أن الرجل الذي يحبنا يريدنا كنساء، وأنه يرغب في أجسادنا أيضاً! الجنس يقرّب الرجل والمرأة من بعض!

علت ابن "التابوهات" سحابة من العرق الساخن، فأخرج منديله القماشي من جيب بنطاله الخلفية، وبدأ يمسح عرقه المتصبب من على جبينه ووجهه ورقبته!

لا شك أن الجدة عرفت سبب هذا العرق المفاجئ إذ قالت:

- لقد قلت لنا يا بني بأنك تربيت تربية دينية واجتماعية صارمة، إذ تعتقد أن ملامسة الشاب للفتاة قبل الزواج خطيئة؛ إن هذا الاعتقاد قد يقبله الناس في بلادكم، ولكنه لا يقبل في بلادنا، بل يعتقد بأنه تفكير رجعي وغير حضاري!

أضافت العجوز مستدركة وكأنما تذكرت شيئاً، فقد تغيرت ملامح وجهها وصارت أكثر جدية:

- أرجو أن لا تسيء فهمي يا بني، إننا نؤمن بما تؤمنون به، وهو أن الاتصال الجنسي قبل الزواج خطيئة ومحرم؛ ولكن تدليل الرجل للمرأة، وعناقها وتقبيلها، يؤكد الحب ويقويه!

أمضي راكان معظم وقته مستمعاً، وقلما علق على ما قالته الجدة، وإن أدرك أن عندها الشيء الكثير الذي تريد أن تقوله له في غيبة حفيدتها!

- إن نيكول يا بني مرهفة الإحساس وعاطفية جداً جداً! إنها تجلس أحياناً في غرفتها ليلاً، فتطفئ الأنوار وتضع الموسيقى الكلاسيكية الناعمة وتغلق الباب، وتظل لفترة، وعندما تخرج تكون عيناها حمراوين من كثرة البكاء! وعندما أسألها السبب تجيبني بأنه ليس هناك من سبب وإنني يجب أن لا أقلق! إنني أخشى أن تدمر عاطفتها حياتها ؛ إنني أرعاها وأرقبها ساعة بساعة ويوماً بيوم! لقد زرعتها في تربة نقية، فعلمتها كل ما تعلمته أنا من الحياة. لقد ربيتها تربية سليمة لتكون زوجة ممتازة وأماً عظيمة. لقد زرعت في وجدانها جميع المبادئ والقيم والأخلاق العالية.

إن نيكول لم تحب من قبل، والشاب الذي تعرفه هو مجرد صديق عابر أعلمتني بأنها لا تكن له أية عاطفة، وأنا أصدقها! إن براعم نيكول قد بدأت في التفتح بعد أن تعرفت عليك، وهي بحاجه إلى عناية ورعاية شديدتين. إنها تريد حباً كبيراً؛ حباً يملك عليها جميع حواسها؛ حباً يملأ قلبها ويشبع عواطفها ويقتنع به عقلها؛ فإنها إن وجدت ذلك فإنها ستكون أماً وحبيبة وزوجة سعيدة، تسعد نفسها وزوجها وأولادها وكل من حولها! أما إذا لا سمح الله...

وهنا أغمضت المرأة عينيها وهزت رأسها وكأنما لتطرد فكرة سيئة مرّت بمخيلتها، فاعترتها قشعريرة استبدت بجسمها، إذ لعلها تصورت حفيدتها و قد حلت بها مأساة؛ فأردفت:

- أما إذا لا سمح الله فشلت، فستدمر حياتها وحياة كل المحيطين بها؛ ويومها لن يبقى لي شيء أعيش من أجله، فأنتهي!

- لا تقولي هذا يا أماه! إنني أحب نيكول أكثر من عيني، وسأحافظ عليها تقديساً لصداقتك وحبك لي، وتعظيماً لحبي لها! قال الشاب بحماس ولكن بخجل.

- إن نيكول تحبك كثيراً، وأنا واثقة أنك تحبها، فحافظ عليها! إنها أمانة في عنقك أسألك عنها يوم القيامة ! قالت هذا وأجهشت بالبكاء، مما أحرق دم راكان حتى نخاع النخاع، وهو يرى دموع الجدة تتساقط بغزارة!

مرت فترة صمت ليست بالقصيرة، لم يسمع من خلالها سوى رشفات الشاي وأصوات الفناجين ترتطم بصحونها ، عندما التفتت الجدة إلى الشاب الجالس على يمينها وعلى وجهها ابتسامه مشرقه أدرك بأنها تريد أن تقول له شيئاً يطيب خاطره.

- إن حادثة المطعم أزالت شكوك نيكول وجعلتها تتأكد من حبك لها!

عبس راكان واكفهر وجهه وتمنى لو أن الأرض تبتلعه! شعر بخجل أغمض عينيه حياء من نفسه!

- نعم يا بني! لقد سرها ذلك كثيراً كما سرني أنا أيضاً!

- إنني كلما أتذكر ذلك اشعر بخجل شديد من تصرفي السيّء! لقد تصرفت كما يتصرف الإنسان المتوحش واللاحضاري. لقد كرهت نفسي واحتقرتها !

- أن ما عملته يا بني هو ما يعمله رجل يحب فتاته ويغار عليها!

- ولكن الناس هنا يعتبرون الغيرة دليل الهمجية والرجعية والشعور بالنقص!

- ومن قال لك هذا؟! سألت المرأة باستنكار.

- إنها هي التي نعتتني بهذه الصفات بعد الحادث!

- لا تصدقها! إنها لم تعنِ ما قالت؛ بل على العكس، لقد سرها ذلك كثيراً! كانت وهي تقص علي القصة ترقص فرحاً!

- ولكنها لم تظهر ذلك أمامي!

- لقد نسيت أنها امرأة، والمرأة يسرها أن ترى رجلها يغار عليها، لأن هذه إحدى الطرق التي تعلم مقدار حبه لها. إن بعض النساء يا بني، يحببن أن يرين أزواجهن يغارون عليهن، حتى لو أنهم يتصرفون معهن كما كان يتصرف رجل الغاب!

توقفت العجوز لحظة، ثم أغمضت عينيها وقالت كالحالمة وبنشوة عظيمة:

- لقد حطم زوجي مرة طقم فناجين شاي فاخر، بسبب غيرته علي. لقد كنت أعتز بها وأفخر ولها ذكرى عاطفية خاصة، أعطاها لي هو نفسه في ذكرى عيد زواجنا الأول! لقد أحزنني تحطيمها ولكن سروري كان أعظم، فقد أسعدتني غيرته علي!

- وماذا فعلت يا أماه حتى أثرت غيرته؟! سأل الشاب بسعادة!

ابتسمت الجدة ابتسامه ابنة العشرين وهي تسمع رجلاً يتغزل بمحاسنها.

- لقد كنا في حفلة راقصة، وكانت موسيقى الفالس تتسرب إلى الأعصاب فتتلاعب بها وتثير بها النشوة الحالمة، ورقصت وزوجي حتى لم يعد باستطاعتنا أن نستمر بالرقص لشدة الإرهاق ! جلسنا لنستريح، وكانت الموسيقى ما

زالت تصدح، وبعض الراقصين ما زالوا يرقصون، فتقدم مني شاب جميل وأنيق... ومصمصت العجوز شفتيها كأنما تتذوق قبلة مشتعلة طبعت للتو على شفتيها وأضافت:

- استأذن من زوجي ليرقص معي، فنظر زوجي إلي وقال بأنه لا يمانع إن أحببت، فنهضت ورقصنا، فضمني الرجل إلى صدره وأحسست بقوة عجيبة وبطاقات ضخمة وكأنني أرقص تلك الليلة لأول مرة ! همس الشاب بأذني بأنني أجمل راقصة في الحفلة!

أغمضت الجدة عينيها، إذ لاشك أنها كانت تسترجع ذكرياتها، ومرت فترة صمت فكان راكان هو الآخر يسترجع حادثة تلك الليلة معها!

- قرب الشاب وجهه من وجهي فشعرت بأنفاسه تدغدغ عنقي، فأغمضت عيني وشعرت كأنما أحلق في أجواء السماء! لم أعِ إلا وزوجي يسحبني من ذراعي ويجرني أمام الناس ويخرجني من قاعة الرقص! ثرت عليه وغضبت ولكنه ظل يجرِني طيلة الطريق حتى وصلنا إلى البيت! بكيت من فعلته هذه وإن كنت في داخلي قد سرني تصرفه!

- لقد أعلمته بأنني لم أكن أوافق على أن أرقص مع غريب، لو لم يأذن هو لي، فأعلمني بأنه ما كان يوافق لو كان يعرف أنني سأقبل، خصوصاً وقد عدنا لتونا منهكين من حلبة الرقص! لقد كان واثقاً بأنني سأعتذر!

لعل الجدة في زحمة الذكريات العاطفية نسيت أن تذكر لضيفها كيف أن زوجها قد كسر طقم فناجين الشاي التي لها ذكرى عزيزة عليها؛ وعندما فتح فمه ليسألها، توقف احتراماً وإجلالاً لدموع العجوز التي رآها تنزل فوق خديها المتجعدتين بصمت!

وهنا نهضت الجدة من مقعدها وتوجهت إلى دورة المياه بعد أن استأذنته!

*****

كان ذلك قبل حوالي أسبوعين، إذ بعد أن خرج راكان ونيكول من السينما، دخلا أحد المطاعم ليتناولا بعض المرطبات، فجلسا إلى طاولة كان يجلس على الطاولة المجاورة لهما شاب وفتاة في مثل سنيهما يتناولان بعض الحلويات! نظر الشاب إلى نيكول وابتسم، ثم غمز لها بطرف عينه، فابتسمت هي الأخرى وغمزت له بطرف عينها. غلى الدم في عروق راكان وبدأ يرتجف من شدة الغضب، ولكنه ضبط انفعالاته وسألها بلهجة مؤدبة:

- هل تعرفينه؟!

- لا! أجابت بلهجة اللامبالاة!

- ولماذا تغامزتما إذن؟!

- الشاب حيّاني، فرددت تحيته! قالت وهي تبتسم!

- أيتها الجميلة! ما رأيك بقبول دعوتي للسينما غداً مساءً؟! سألها الشاب.

- ولكن معك فتاة أجمل مني! قالت نيكول.

- إنها زوجتي ولا تمانع! أجاب ثم حول وجهه نحو الزوجة كأنما يطلب إليها أن تؤكد على كلامه!

- أنا لا أقبل دعوة إنسان متزوج! قالت نيكول وهي تتضاحك بدلع!

- الرجال المتزوجون خير من العزاب؛ فإن عندهم الدراية بمعاشرة النساء! قال الشاب.

- على كل حال، لا، شكراً!

وقبل أن تنهي نيكول جملتها، كان راكان قد هجم على الشاب يضربه بيديه ويركله برجليه، فهرع الحضور يحولون بينهما، والشاب يردد: "من الخير لك أن تلاحظ ما تفعل! إنك مجنون! لقد كنت أمزح. إنني أحب زوجتي ولن أستبدل بها امرأة غيرها".

كان الشاب وهو يصدّ اللكمات بيديه، يهدد ويتوعد، ويقول كلاماً كثيراً، لم يفهم راكان الكثير منه في ثورة غضبه! وبعد جهد جهيد أبعد الحضور راكان بما فيهم نيكول، عن الشاب وأعادوه إلى مكانه، فسمع راكان الزوجة تعاتب زوجها وتقول بغضب:

- قلت لك مراراً؛ كف عن مزاحك، فإن كثيراً من الناس لا يقبلون المزاح ولا يسكتون عليه! ثم التفتت إلى راكان ونيكول، وقالت وعلامات التأثر الشديد بادية على وجهها:

- أنا آسفة جداً، واقبلا اعتذارنا الشديد، أن " إيان" لم يعنِ ما قال؛ إنه دائماً يحب المزاح، ويفكر أن جميع الناس يتقبلونه!

- أنا آسف! لقد فقدت أعصابي، إذ لم أكن أعرف أنه غير جاد! قال راكان وعلامات الندم العميقة بادية في صوته.

عندما تقدمت النادلة من راكان ونيكول تسألهما عما يرغبان في تناوله، اعتذرت البنية وقالت بأنها لا ترغب في تناول شيء رغم إلحاح راكان عليها؛ وعندما أصرت على الرفض طلب راكان صحنين من الآيس كريم بالشوكلاتة، إذ إنه يعرف أن نيكول تحبها، وحالما انتهت النادلة من كتابة الطلب سمع راكان الشاب نفسه يخاطب النادلة؛ بأنه سيدفع فاتورة الحساب، ولكن راكان رفض الطلب شاكراً ً! بعد نقاش وأخذ ورد أصر الزوج على دفع الفاتورة إشارة منه إلى حسن النية وتناسي ما حدث!

بعد جهد جهيد، وافقت نيكول على تناول ما قدم لها، ولكنها لم تفتح فمها ولم تكلم راكان، الذي حاول جاهداً إرضاءها والاعتذار لها، طيلة تواجدهما بالمطعم والوقت التي قطعته السيارة حتى وصولهما أمام بيت كفيلته!

وقفت السيارة أمام بيت السيدة هييز ولم توقف نيكول موتور السيارة كعادتها في كل مرة، ليتحدثا قليلاً قبل أن يفترقا، ولكنها بقيت تنتظر أمامها دون أن تلتفت إليه، وفهم أنها تريده أن يغادر السيارة، فلم يجد بدّاً من أن يفتح الباب ويخرج!

لم ينم تلك الليلة، فقد اعتقد أنه فقدها إلى الأبد، وقضى تلك الليلة ساهراً يتقلب في فراشه. كان يشعر أنه يذوب ألماً ويتلاشى خجلاً!

لم يصدق الشاب عينيه ولا أذنيه، عندما جاءت إليه الصبية صباح اليوم التالي وألقت عليه تحية الصباح، وتحدثت إليه باحترام ومودة لم يعهدهما منها سابقاً! إنها ومنذ تلك الليلة وهي أكثر أدباً وطاعة ورقة! إنها لم تذكر له تلك القصة ولم يذكرها هو لها أبداً!

*****

اتصلت نيكول هاتفياً براكان في مكان عمله حوالي الساعة الرابعة، وأعلمته بأنها عادت لتوها من زيارة أهلها، وأن جدتها تدعوه إلى العشاء، وأنها ستأتي لأخذه من أمام بيت كفيلته كالعادة إن وافق.

قبل الشاب الدعوة شاكراً، وتناول ثلاثتهم طعام العشاء، ثم تساعدوا على غسل الصحون، جلس راكان والجدة بعدها يستمعان إلى نيكول تخبرهم عن أهلها وماذا فعلت منذ وصولها إلى بيت أهلها وحتى تركته!

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة ليلاً بقليل، وكانت نيكول قد كفت عن التحدث عن زيارتها لأهلها، وصارت تقرأ قسم المحليات في جريدة "لوس انجلوس تايم".

كانت تجلس على طرف الكنبة الطويلة ومتكئة بكوعها الأيسر على مسندتها، وكانت مرتدية بنطالاً مخططاً أبيض قصيراً، وقميصاً شفافاً من الحرير الناعم ذي أكمام قصيرة أيضا. كانت أطراف القميص السفلى مدلاة فوق البنطال، كما كان الزر القريب من العنق غير مزرر، مما جعل مساحة كبيرة من الصدر مكشوفة وقد برز القسم الأعلى للنهدين رغم ارتداء الحافظ لهما! كان ساقاها الأبيضان المكشوفان يبدوان كعمودين من المرمر المتألق حيث وضعت الساق اليمنى فوق اليسرى، والذي جعل قسماً كبيراً من كلسونها ظاهراً للعيان.

كان راكان يجلس على الكنبة الصغيرة قبالتها متظاهراً بقراءة القسم السياسي من الجريدة، وإن كانت عيناه تختلسان النظر إليها بين الحين والآخر ، فقد كان يتأمل خلسة شعرها ووجهها وصدرها ونهديها!

إن راكان لم يذكر طيلة المدة التي عرف بها نيكول أن رآها بكل هذا الجمال الباهر كما رآها الليلة! كانت رموش عينيها السوداوين الطويلة تظلل عينيها وكأنما هي غمامة تظلل قديساً من حر الشمس اللافح ! كان حاجباها قد سويا بطريقة منظمة وكأنما يد رسام ماهر قد رسمتهما بقلم الزيت؛ وكانت شفتاها مكتزنتين كأنهما حبتا عناب ناضجتان تنتظران القطاف! أما صدرها فقد كان واسعاً وكأنما هو معبد من معابد الرومان، وكان نهداها نافرين متوثبين وكأنما يتحديان الناظر إليها!

فجأة بدأ قلب الشاب يدق دقات عالية ومتواصلة، حتى خيل إليه أن جارته قد سمعت دقات قلبه، فتجمد لسانه في فمه وقد جف لعابه في حلقه!

نظر خلسة نحو الجدة فإذا هي تسرق النظر إليه، وعندما تقابلت عيونهما ابتسمت له ابتسامة أحس الشاب وكأنما هي ابتسامة أم رؤوف تبتسم إلى فلذة كبدها؛ ثم عادت تقرأ في كتابها! احمرت أذنا راكان ووجنتاه خجلاً، وشعر وكأنما قبض عليه وهو يسرق بعض فناجينها الثمينة!

عاد الفتى وألقى ناظريه إلى الجريدة، ومر بعض الوقت ثم رفع ناظريه فوجد أن العجوز مازالت تسرق النظرات إليه، وفي هذه اللحظة نهضت العجوز بعد أن ألقت بكتابها جانباً وقالت:

- اسمحا لي! سأنهض لأستحم قبل أن آوي إلى فراشي!

- يجب أن أنصرف! قال راكان وقد وضع الجريدة جانباً وهمّ بالنهوض!

- لا، لا؛ سأستحم، وسنشرب الشاي بعد ذلك! الوقت مازال مبكراً! قالت العجوز وهي تشير بيدها إلى الأرض، ثم توجهت نحو الحمام.

- وهل أنت نعسان ؟! سألت الصبية.

- أبداً! أنا في منتهى اليقظة؛ ولن يزور النوم جفناي قبل منتصف الليل! لقد ظننت أن جدتك نعسانة!

- جدتي تنام متأخرة، إذ إنها تنام وقت القيلولة! قالت الصبية ذلك وتابعت القراءة.

سمع راكان صوت سقوط الماء في حوض الحمام وبعد قليل سمع الباب يغلق.

نظر إلى جارته وصار يتأمل ما خلق الله من جمال، وتصور نفسه يقبلها ومن ثم يضمها إلى صدره، ولكنه لم يشعر كما كان يشعر نحو بعض النسوة اللواتي التقاهن واشتهى تقبيلهن وعناقهن. وفجأة بدأ قلبه يخفق خفقاناً عالياً وهو يفكر بالاقتراب منها وتقبيلها.

كان واثقاً من أنها ستستجيب لقبلاته وأنها لن تصده، ولكنه كان خائفاً ومتهيباً أيضاً، وأخيراً صمم على أن يقبلها، فكان كلما اقترب منها كلما ارتفع وجيب قلبه وازدادت ضرباته، فأحس وكأنما قلبه قد ارتفع فوقف في حلقه حتى صعب عليه التنفس ! لقد أحس بأن الدم يكاد ينفر من أذنيه ووجنتيه معاً! وأخيراً اقترب منها وطوق بيده اليسرى عنقها. فكان عقله في تلك اللحظة قد تعطل عن التفكير، وقال وهو لا يسمع ما يقول:

- أنت جميلة يا نيكول! أنت آلهة من آلهة الإغريق!

حولت وجهها نحوه وقالت:

- ما... ما... ماذا؟ سألت بانبهار!

- إنك ساحرة! أنا أحبك! قالها وهو يرتجف، ويبلع ريقه بصعوبة ، وكأنما يبتلع لقمة لم يمضغها وقفت في حلقه!

لاحظ أن حدقتي عيني الصبية قد اتسعتا، وكأنما تسمع خبراً أذهلها! أدار لسانه في فمه عدة مرات وكأنما ليحرره من جموده وأضاف:

- أنت لي كالهواء! أنا لا أستطيع العيش بدونك. لقد كنت كالمجنون أجوب شوارع المدينة أبحث عنك!

لاحظ راكان أن الصبية تحدق به جاحظة العينين، دون أن تقول شيئاً! ثم هزت رأسها عدة مرات وكأنما لتتأكد من أن ما تسمعه حقيقة وليس حلماً!

قرب الشاب وجهه من وجه الشابة وطبع قبله خفيفة فوق شفتيها، فشعر وكأنما يقبل لوحاً من الثلج؛ وعندما أراد أن يقبلها ثانية رفعت يدها ومنعته بلطف، ثم تبعتها بأن ألقت الجريدة بعيداً عنها ونهضت مسرعة باتجاه غرفة نومها!

عندما عادت الجدة بعد حوالي نصف الساعة، كان راكان مازال متجمداً في مقعده كالصنم، محدقاً بالحائط أمامه بعيون جامدة، وتنبه على صوت الجدة تسأله بلهفه واهتمام زائدين، عن حفيدتها.

- لقد ذهبت إلى غرفتها! أجابها بصوت حزين ونفس كسيرة، وهو مازال محدقاً بالحائط.

- وماذا حدث؟! سألت وقد تعاظم اهتمامها.

- اعتقد أنني تصرفت معها تصرفاً مشيناً. تصرُّفاً أغضبها! أجاب الشاب بعد أن بلع ريقه ونظر إلى موقع قدميه، وقد شعر بخجل شديد.

- إنك لا يمكن أن تتصرف مع إنسان تصرفاً غير لائق! أرجوك يا بني قل لي ماذا حدث؟! قالت ذلك وقد جلست قبالته على مقعدها.

نظر الشاب إلى الجهة المعاكسة وكأنما ليخفي حاجة سرقها، وقال بلهجة خجلي وقد احمرت وجنتاه واشتعلت أذناه.

- لقد قبلتها دون استئذانها، ولا شك أنني جرحت شعورها! قالها بسرعة وكأنما ليخفي عاراً ارتكبه!

- ألهذا السبب، تشعر بالحزن والخجل؟! آه يا بني! آسفة أن أقول لك، بأنك لم تدرك الحقيقة!

- ولكنها كانت غضبى يا أماه! قالها وقد بدأ خجله يزاوله وحديث المرأة يشجعه، وهنا رفع عينيه عن حذائه وتطلع إلى وجهها فوجده يطفح سروراً ومحبة فقالت:

- إنك لا تفهمنا نحن النساء يا بني! إننا جنس معقد وكلنا ألغاز! إننا نغضب ونلوم الرجل إذ لم يُرِ ميلاً لنا، ونعتبره إهانة لأنوثتنا؛ حتى إذ أراد أن يعبر لنا عن ميله ويُريَ عواطفه لنا، غضبنا وشعرنا بالإهانة. إننا نتظاهر بالغضب ولكننا في حقيقة الأمر جدُّ سعداء!

- ولكنها كانت غضبى بعد أن قبلتها، والدليل على ذلك أنها نهضت وغادرت على عجل!

- أن آخر شيء تغضب منه نيكول هو تقبيلك لها!

- ولكن لماذا هربت؟!

- لقد كانت خجلى يا بني؛ منك ومن نفسها أيضاً! إن كثيراً من التصرفات تكون مخجلة في بدايتها!

إن راكان لا يعرف شيئاً عن المرأة، وأن كل ما يعرفه عنها هو ما قرأه في الكتب أو ما سمعه من الآخرين! إنه غرّ ساذج، وكثيراً ما قال عن نفسه بأنه مغفل! حقاً أن المرأة لغز محير، فلقد حيرت حتى الفلاسفة، وكلما فكر أحدهم بأنه فهمها كلما ازداد حيرة! من يدري؛ لعل الخالق نفسه سبحانه وتعالى احتار في مكرها ودهائها!

سكت الشاب ولم يقل شيئاً، ومرت فترة صمت لا شك أن كل واحد منهما كان يفكر بما قاله الآخر عندما نهض راكان وقال:

الساعة الآن تقترب من الحادية عشرة، فيجب أن أنصرف. قال هذا ومد يده ليصافح الجدة علامة الانصراف.

- لحظة حتى أعلم نيكول لتأخذك!

- أعتقد أنه من الأفضل عدم سؤالها، سأسير على قدمي!

- طبعا لا! نيكول ستأخذك بالسيارة! قالت العجوز بإنكار، ثم نادت:

- نيكول! نيكول! أين أنت يا عزيزتي!

- أنا هنا يا جونزي! أجابت الصبية من غرفة نومها.

- وماذا تفعلين يا عزيزتي؟!

- لا شيء! أنا مضطجعة فوق سريري.

- تعالي يا عزيزتي؛ إن راكان يرغب في الانصراف!

وقبل أن تنتهي من جملتها، برزت الحفيدة من باب غرفة الجلوس وفوق شفتيها ابتسامة لم ير الشاب يوماً أجمل ولا أكثر سحراً وجاذبية مما هي عليه الليلة، فقالت بعد أن نظرت إلى راكان وقد احمرت وجنتاها فأصبحتا بلون العناب الناضج؛ قالت بصوت حنون وكأنه صوت كمان آت من بعيد ومن أعماق الليل:

- إن الوقت مبكرٌ! ألم تقولي يا جونزي بأننا سنشرب الشاي بعد أن تستحمي؟!

- شكراً لكما! يجب أن أنصرف، فإنني أشعر بالنعاس! قالها راكان بحزم وبرود!

- كما تشاء يا راكان! قالتها بصوت أكثر عذوبة وأكثر حنية أبهجتا كل خلجة في جسم الشاب وروحه، والذي شعر برغبة جامحة بأن يهجم عليها ويقبلها ثانية!

- هيا بنا! قالت وقد حملت حقيبة يدها، ووجهها ينظر نحوه، وإن كانت عيناها محدقتان بالأرض.

- تصبحين على خير يا أماه! إلى اللقاء. قال الشاب إلى الجدة وهو يدير وجهه نحو الباب ليخرج.

- تصبح على خير يا بني! سلم على السيدة هيز!

فتح راكان للصبية باب السيارة ثم أغلقه خلفها، ولاحظ بطرف عينيه من مقعده بأنها تنظر إليه وتبتسم، ولكنه تجاهل ابتسامتها وتطلعاتها وتشاغل بالنظر إلى الجهة المعاكسة، ولم يفتح فمه بكلمة.

أوقفت الصبية السيارة كالعادة تحت الشجرة الكبيرة والقريبة من بيت السيدة هييز وهم هو بفتح الباب ليخرج، ولكن صوت السائقة أوقفه وهي تقول:

- إن بيت كفيلتك غارق في الظلام. قالت الصبية بلهجة مودة.

- إنها تأوي إلى فراشها مبكرة. شكراً لإحضاري وتصبحين على خير! قال هذا وفتح الباب ليخرج.

- ولم السرعة؟!إن الساعة لم تبلغ الحادية عشرة بعد!

- لقد دعتك جدتك من غرفة نومك لإحضاري، فقطعت عليك نومك. يجب أن لا أؤخرك أكثر مما فعلت، فآسف للإزعاج.

- أنا لم أكن نائمة. كنت مستلقية فوق السرير.

- المعذرة! لقد قطعت عليك استمتاعك! تصبحين على خير. قال ذلك وبدأ بالانصراف؛ ولكنها نادته وطلبت إليه عدم الذهاب لأنها تريد أن تسأله!

- ماذا تريدين؟! سأل بلهجة قاسية استغربها هو نفسه.

- عد واجلس في مكانك، فإنه سؤال مهم. قالت ذلك ومدت يدها وفتحت له الباب من الداخل.

- اسألي ما تريدين. قال بعد أن جلس في مكانه وأغلق الباب خلفه.

- ماذا كنت تقول لي الليلة؟!

- كنت أسألك إن كنت قد قرأت رأس المال لكارل ماركس.

فعلاً لقد سأل راكان نيكول إن كانت قد قرأت كتاب رأس المال لماركس، ولكن كان ذلك في أول تعارفهما وكانا يتحدثان عن الكتب والأدب.

- لقد كان هذا في الماضي. أنا أعني الليلة! قالتها شبه محتدة.

- لقد سألتك إن كنت تفضلين أكل لحوم الدجاج على لحوم البقر.

- إنك تعرف أنني لم أعن ذلك! قالتها بعصبية وغضب فائقين!

- إنني لا أعرف أي موضوع تعنين! لقد تحدثنا في عدة مواضيع الليلة. قالها الشاب ببرود وإن كان في داخله يتمزق ألماً عليها، ويستغرب من نفسه هذا التصرف!

- أعني عندما ذهبت جونزي لتستحم وكنا وحدنا.

- آه، الآن تذكرت!

إنفرجت أساريرها ولكن انفراجها لم يدم طويلاً، بعد أن سمعت الجزء الثاني من جملته.

- لقد سألتك أن كنت مازلت تفضلين "كامو" على" سارتر" ، أم أن تفكيرك قد تغير!

كانت نيكول قد أعلمت الشاب في حديثهما عن الأدب الفرنسي، حيث إنها تدرس اللغة الفرنسية وعازمة على التخصص في الأدب الفرنسي لتكون أستاذة أدب فرنسي في الجامعة.

- إنه يسعدك أن تراني أتعذب! سمعها راكان تقول وهي تشعل ماكنة السيارة وتنطلق.

- لحظة واحدة! لم لا تذكري لي الموضوع بالتحديد؟! وقبل أن يكمل الشاب جملته كانت السيارة قد انطلقت بكل قواها، وسمع هو صوت صرير حديد الماكنة يزعق بشدة وكأنما كان يستغيث من قسوة السائق وظلمه!

لا يدري الفتى لماذا علت شفتيه ابتسامة جذلي والسيارة تبتعد عن ناظره!

فكر العاشق أن البنية ستبدأ الحديث معه صباح اليوم التالي، مازالت هي التي أثارت تلك الزوبعة، وأنها ستأتي وتعتذر منه وصمم أنه لن يقبل اعتذارها إلا بعد إلحاح ورجاء شديدين؛ ولكن النهار مضى ولم تحضر لرؤيته ولم ترسل من يطلب إليه الحضور، كما أنها لم تستوقفه وهو يمر من أمام مكان تواجدها وقد عبره عشرات المرات؛ بل حتى تجاهلت النظر إليه!

عاد مساء إلى بيت كفيلته مهموماً محزوناً يجر قدميه جراً، وإن تظاهر أمام العجوز بالهمة والانشراح.

لعب راكان الورق في المساء مع كفيلته، متظاهراً بالسرور والانسجام، وإن كان عقله مع نيكول وجدتها. وعندما رن الهاتف قفز قلبه واعتقد أن المتكلم لا بد وأن تكون نيكول، ولكن خاب ظنه عندما عرف أن المتكلمة هي الجارة السيدة "دوول" تطلب إلى كفيلته أن تحث ابنها على الإسراع في إحضار الصفارة العسكرية التي وعدها بها، لأن صفارتها الحالية قد بح صوتها وأصبحت لا تفي بالغرض!

أوشك اليوم الثاني على الانتهاء ونيكول لم تكلم راكان بل وتجاهلت حتى النظر إليه، فصمم على أن يذهب هو ويكلمها ويعتذر إليها، ولكنه سرعان ما غير رأيه، إذ فكر بأن ذلك إهانة لكرامته ولحبه، فقد تعلم أن الحب بدون كرامه إذلال وعهر!

في تمام الساعة الخامسة من اليوم الثالث، وقبل أن يغلق المخزن أبوابه بنصف ساعة، توجه راكان قاصداً قسم ملابس الأطفال، وكان قلبه يخفق خفقاناً موجعاً حتى ظن أنه سيهرب من أذنيه، وكان لسانه متجمداً، وعندما وقف أمام الصبية سألها بصوت منخفض:

- كيف حال جدتك؟! شعر بعد أن قالها وكأنما صخرة كبيرة انزاحت عن ظهره!

- بخير! قالتها دون كبير اهتمام ودون أن تنظر إليه؛ وقد تابعت ترتيب الجوارب التي كانت تقوم بترتيبها.

- وهل سألت عني؟! قالها بصوت مبحوح وقد تملكه رعب شديد من أن يكون بالنفي وعند ذلك يجد نفسه محرجاً ولا يدري كيف سينسحب!

- نعم! قالتها الصبية بعد أن تمهلت قليلاً!

شعر الشاب بالارتياح الشديد والشكر العظيم للفتاة التي حافظت على كرامته ، والتي تجنبت إحراجه، فقال وهو يتصنع الابتسام:

- عن ماذا سألت؟!

- لا شيء مهم! سألت إن كنا تناولنا طعام الغداء، وأخذنا استراحتنا معاً.

- وبماذا أجبتها؟

شعر الفتى بعد أن انتهى من سؤاله بأن سؤاله كان تافهاً، وتمنى لو أنه لم يسأله ، بل هم أن يستبدله بسؤال آخر لولا أن الشابة سبقته بالقول:

- أجبتها بالنفي!

وسألها الفتى بسرعة وكأنه محقق يقرأ من ورقة:

- ألم تستغرب ذلك؟!

هزت الصبية رأسها علامة الإيجاب وهي مازالت محدقة برزمة الجرابات التي أمامها.

- وماذا كان عذرك!

- قلت بأنني غاضبة منك!

- ألم تسألك السبب؟! قالها بصوت فيه تحد وغطرسة.

ومرة أخرى هزت الفتاة رأسها علامة الموافقة.

- وبماذا أجبتها؟ سأل الشاب وهو يحدق في وجهها.

- قلت لها كل شيء. أجابت الفتاة ببطء وهي تتجنب النظر إليه.

- وماذا كان رأيها؟!

- قالت بأنك شاب أبله وغبي! وانفجرت تبكي بهستيريا.

تطلع الفتى حوله وقد شعر بحرج شديد، ولما تأكد من أن أحداً لم يسمعه، قال وقد شعر بألم وحزن شديدين:

- أنا آسف! آسف جداً! لقد كنت حقا أبله وغبياً! إنني عبيط وعنيد فاعذريني!

مسحت الصبية دموعها بظهر يديها وصارت تنهنه كالطفل الصغير!

- أرجوك أن تكفي عن البكاء! سيسمعنا الناس ويسخرون منا!

- ليقل الناس ما يشاؤون! إنني لا أهتم! قالت وهي ما زالت تبكي وتنهنه!

- قلت لك آسف جداً! ألا تقبلين اعتذاري! ورفع ذقنها إلى أعلى وتطلع في عينيها وقال:

- أرجوكِ أن لا تبكي! حرام على هاتين العينين الجميلتين أن تبكيا!

نظرت إلى عينيه فلاحظ أن شفتيها ترتجفان، فسحب يده من تحت ذقنها وقال:

- سآتي الليلة لزيارتكم بعد العشاء؛ سأسير على قدمي. لقد افتقدت جدتك كثيراً! قالها بصوت حزين.

- سآتي لأخذك كالمعتاد! جونزي ستغضب مني إن أتيت ماشياً! قالت بصوت حنون ناعم!

حاول الشاب أن يقنعها بعدم الحضور، ولكنها أصرت !

*****

- اعذرني يا بني! لقد وعدت جارتنا السيدة بويكو أن أجلس مع ولديها الليلة لبعض الوقت. لقد دعاها زوجها إلى العشاء بمناسبة عيد زواجهما. قالت الجدة لراكان حالما دخل هو ونيكول من باب البيت؛ وقد كانت ترمي بجرزتها فوق كتفيها وتلتقط كتاباً من على الطاولة الصغيرة.

- نستطيع أن نأتي معك ونسليكِ الآنسة نيكول وأنا! قال راكان وهو ينظر إلى البُنية وكأنما يطلب موافقتها.

- ليس عندي مانع. قالت الصبية وقد هزت رأسها علامة الموافقة، وإن كان هو قد لاحظ أن جملتها ينقصها الحماس.

- لا حاجة لذلك! ابقيا أنتما وتحدثا معاً. لا تقلقا من ناحيتي. أنا لا أشعر بالضجر مازال معي كتاب! قالت ذلك وأشارت إلى الكتاب الذي بيدها.

همت بالخروج ولكنها التفتت إلى حفيدتها وقالت:

- لا تنسي أن تقدمي إلى راكان بعض الكيك الذي صنعته الليلة الماضية!

- لا تقلقي؛ لن أنسى!

- ولم لا نوصلها إلى حيث هي ذاهبة؟! سأل الفتى الصبية.

- إنه البيت الملاصق؛ إنها المرأة التي قلت عنها "بالعة راديو" وقلت عن زوجها بأنه يشبه الوعل! قالت ذلك وانفجرت تضحك وكأنما سمعت النكتة لأول مرة.

- أنا آسف إنني قلت ذلك عنهما؛ لقد كنت غير مؤدب في قولي! إنني أشعر بالخجل والندم معاً!

- إنه على العكس من ذلك؛ لقد وصفتهما وصفاً دقيقاً. قالت الصبية وهي تتضاحك!

كان ذلك في الأسبوع الماضي، وكان ثلاثتهم، الجدة والحفيدة وراكان يشربون الشاي عندما سمعوا قرعاً خفيفاً على باب المنخل ومن ثم فتح الباب ودخلت امرأة مربوعة القامة لعلها في الثلاثين من عمرها، تلبس شورتاً يكشف عن فخذين ناصعي البياض مملوءتين، وقميصاً ذا أكمام قصيرة يكشف عن تحت إبطيها وصدرها، وكانت تتكلم قبل أن تدخل، وكأنما كانت تكلم نفسها؛ ذات شعر منكوش، لعله لم يمشط طيلة ذلك اليوم؛ وبعد أن قدمت الصبية راكان إليها وقدمتها له، انهالت الأسئلة على الفتى تسأله عن بلاده وعائلته وإن كان أحب أمريكا ورأيه فيها، وأن أجدادهما، هي وزوجها، قد حضروا من روسيا البيضاء قبل مدة طويلة؛ وراكان مسرور بإيجابيتها أول الأمر، ولكن الذي أزعجه هو أن المرأة تسأله سؤالاً آخر قبل أن ينتهي من جواب الذي سبقه!

بقيت المرأة على هذه الحالة لأكثر من ربع ساعة عندما دخل رجل في مثل سنها، ولكنه ضخم الجثة يرتدي، كلسون سباحة فقط، وعاريا من كل شيء! كان حقا يشبه الوعل؛ وبعد أن تعرف على راكان سأله عدة أسئلة مجاملة، وبعدها أعلم زوجته بأن الصغيرين يرفضان أن يناما إلا إذا حضرت والدتهما، وقرأت لهما بعض القصص!

- كان الله في عون زوجها؛ إنني لا ألومه إن فقد عقله يوماً! اختتم راكان حديثه؛ وضحكت الجدة والحفيدة لمقولته!

جلست نيكول على الكنبة الكبيرة وجلس راكان على نفس الكنبة ولكن غير بعيد عنها! مرت فترة ليست بالقصيرة وهو يفكر كيف يبدأ الحديث معها بحيث لا يغضبها ولا يجرح شعورها!

- هل مازلت غاضبة مني يا نيكول؟! قالها بهمس وكأنما كان يناجيها!

أدارت الصبية وجهها نحوه ونظرت إليه وهي تحاول أن تضع ابتسامة خجلى فوق شفتيها! انتظر أن تقول شيئاً ولكنها لم تفعل، وهنا رأى صدرها يعلو ويهبط وكأنما بداخله شيءٌ يحاول أن يهرب!

- إنني أحبك يا نيكول! أحبك كثيراً! لقد كانت حياتي صحراء قاحلة، قبل أن أقابلك، وعندما قابلتك، شعرت بأن روحي قد ردت إلي! لقد كنت أعيش بلا أمل ولا رجاء، وبعد أن قابلتك أصبحت مملوءاً بالآمال وحب الحياة! لقد وجدت نفسي يوم وجدتك! إن لك روحاً صافية وقلباً نقياً وضميراً طاهراً! إنك ملاك! أنت شعلة مضيئة تنير لي دربي!

شعر الفتى بأنه يريد أن يتكلم لساعات؛ فكان لا يفكر بما يقول. كان لسانه هو الذي يتكلم؛ ولكن كلامه كان يخرج من قلبه؛ من أعماقه!

لم تنطق الصبية بكلمة واحدة، وإنما بقيت تنظر إلى حضنها؛ إلى صدرها الذي يعلو ويهبط!

- لقد كنت قاسياً عليك يا نيكول؛ لقد سببت لك عذابا كثيراً، ولكن صدقيني وأقسم لك بحبي لك، إنني لم أكن أقصد ذلك! لقد كنت أقضي الليالي الطوال أتعذب؛ إذ لم أكن أعرف ماذا أفعل! لقد كنت أخشى أن أغضبك إن حاولت أن أقبلك أو حتى أن أقول لك إنني أحبك! كنت أخشى أن أفقدك!

بلل راكان شفتيه الجافتين بطرف لسانه، وانتظر أن تقول الفتاة شيئاً ولكنها لم تفتح فمها وبقيت محدقة بما أمامها!

- لقد تربيت تربية دينية قاسية، كما أخبرتك وأخبرت جدتك، وهي أنه حتى لمس الشاب ليد فتاته قبل الزواج محرم بل معيب أيضاً! أنت جميلة بل ساحرة يا نيكول! إن عينيك تسحراني كلما نظرت إلي! إنك فاتنة، وأنت فتاتي التي أحب! ما أسعدني بحبك! إنني أشعر وكأنما العالم بأسره ملك يدي! إنك ملهمتي يا نيكول؛ إنك حياتي؛ إنك الهواء الذي أتنفس، والغذاء الذي أقتات منه! إنني ضائع بدونك!

كان راكان يتكلم من أعماق قلبه... من أعماق روحه...! كان يشعر بأن أجزاء من قلبه وشعيرات من روحه تخرج مع كلماته!

ارتمت الصبية على صدر الفتى وأخذت تبكي، فأحس بأن دموعها قد اخترقت ملابسه، ولامست حرارتها صدره، فشعر هو بسعادة لا توصف وفرحة لا تتصور، فطوق بيديه الاثنتين خصرها، وأخذ يشم عطر شعرها!

رفعت الصبية رأسها عن صدره ونظرت إلى وجهه، وعندما تقابلت عيونهما قال:

- حرام على هاتين العينين الساحرتين أن تبكيا! إنهما سراجي الذي ينير لي الظلمة!

عادت ودفنت وجهها بصدره وهي تغطي أطراف وجهها بيديها ثم قالت:

- آو راكان! راكان! أرجوك، هذا كفاية! إنني لا أستطيع أن أحتمل أكثر! إنني سعيدة، سعيدة، وأكاد أطير فرحاً! ودست وجهها في صدره وكأنما تريد أن تحشي رأسها في داخله! كانت كالقطة في ليلة باردة وقد جمد البرد أطرافها؛ فراحت تنشد الدفء والأمان!

توقف الفتى عن الكلام، وظل يمر بفمه وأنفه وذقنه يمنة ويسرة على رأسها، يشم تارة، ويتوقف للحظات لينهل من بحر هذا العطر الفاغم، ثم يستأنف رحلة الاستنشاق من جديد!

سحب يده اليمنى المحيطة بخصرها وصار يمر بها على شعرها بلطف ورقة، وبقي يعمل هذا لفترة، وكان لا يسمع إلا تردد أنفاسها! توقف عن العبث بشعرها، فدس يده من تحت ذقنها ورفع وجهها إليه وصار ينظر في عينيها العسليتين المحدقتين به!

- ما أجمل عينيك يا نيكول! إنني منذ أن رأيتهما وأنا أشعر وكأنما ولدت من جديد! إنني أرى نفسي بهما! إن بهما سعادتي وهنائي ومستقبلي أيضاً! إنهما عميقتان كالبحر، صافيتان كنهر من عسل! أنت يا نيكول كل شيء بالنسبة لي في هذه الحياة!

كان العاشق وهو يتكلم ينظر في عيني الفتاة وكأنما يقرأ في كتاب!

ارتجفت شفتاها، فطامن ومسهما بشفتيه مساً خفيفاً، فارتد مذعوراً؛ كانتا حارتين كجمرتين ملتهبتين!

ما كاد يبعد شفتيه عن شفتيها ويبدأ ينظر في عينيها من جديد حتى انقضت عليه كاللبؤة التي أخذ منها أولادها، فأطبقت شفتيها على شفتيه بوحشية وجنون، وكأنما تريد أكلهما، فأحس الشاب بأنه يكاد يختنق. ورويداً رويداً، وبرقه

ولطف، ضغط على رأسها محاولاً أن ينزله إلى صدره، ولكنها مانعت بعنف، وبقيت تضغط على شفتيه مما أزعجه بل أرعبه، إذ إنه لا يريد أن تذهب أفكارها بعيداً! وأخيراً استطاع أن يحرر شفتيه من بين شفتيها وأن يشدها إلى صدره!

كانت ترتجف كالمحمومة، وتهتز فوق صدره وهو يربت على ظهرها كالطفل الصغير حتى هدأت!

خيم الظلام على الغرفة وإن كان ضوء المدخل مازال مشعاً؛ مد يده وأطفأ النور ثم أراح ظهره إلى الوراء واسترخى... شعر بهدوء ووئام مع نفسه وأحس كأنما حمل ثقيل قد انزاح عن صدره!

مضى بعض الوقت والهدوء والظلام يخيمان على الغرفة، وكانت الصبية مكورة نفسها فوق صدر الشاب، هادئة كالقطة الوديعة التي خدرها دفء الموقد في إحدى ليالي الشتاء الباردة، وقد حاول راكان أن لا يزعج هدوءها فكانت يده اليسرى تلتف حول خصرها وتشد جسمها إلى صدره، أما يده اليمنى فكان يربت بها، بين الفينة والأخرى، على ظهرها برقة ولطف، وأحياناً يمر بكفه على رأسها فتعبث أصابع يده بشعر رأسها، فيقبله في أماكن مختلفة، ثم يمسه أحياناً بذقنه وخديه، وأحياناً بجبينه وأنفه وأذنيه، فيشعر بسعادة ونشوة عظيمتين!

كان صامتاً لا يقول شيئاً، يفكر ويحلم، وقد تمنى لو أن الزمن يقف عن سيره ويظل هو ضامّاً إياها إلى صدره وإلى الأبد!

مضت فترة ليست بالقصيرة عندما رفعت الشابة رأسها إلى الخلف ونظرت إلى وجهه فابتسم لها ابتسامة جذلى، فرأى بعض الدموع تملأ مآقي عينيها؛ فقالت بصوت حنون شجي هز أعطاف الشاب من الأعماق:

- إنني أحبك كثيراً! أكثر مما تستطيع أن تتصور! لقد أحببتك منذ اليوم الذي رأيتك تقرأ به رسالة والدتك ودموعك تنهمر! فهل أنت تحبني بمقدار حبي لك؟!

- وهل تشكين في حبي لك؟!

- أعني؛ هل تحبني بنفس القوة والعمق اللذين أحبك أنا بهما؟!

- أخشى أن يكون أعمق وأقوى! قالها بحزم وصدق.

- آمل يا راكان! آمل! قالتها وكأنما عندها شكّ في ذلك!

لاحظ الشاب أن دموعاً مازالت تجول في مآقيها، فمد يده في جيب بنطاله الخلفية وأخرج منديلاً من القماش، وصار يجفف به دموعها وهو يقول:

- لا حاجة للبكاء بعد اليوم! إن كل شيء سيسير كما تشائين!

- إنني أريد أن أبكي طويلاً! إنني لم أكن أعرف من قبل أن للبكاء لذة عظيمة وسعادة لا توصف ، إلا وبعد أن أحببتك! وبعد أن توقفت قليلاً أضافت:

- لقد كنت أظن قبل أن أحبك، إن الناس وهم يبكون يتعذبون؛ ولم أكن أعرف أن البكاء أحياناً، نوع من السعادة السماوية، تفوق جميع اللذات والسعادات الأرضية! أريد أن أبكي طويلاً على صدرك! آه يا حبيبي ما أدفأ حضنك، وما أحنّ عناقك!

- لقد بكيتِ الليلة ما يكفي، وأخشى أن يفسد البكاء جمال عينيك! إنني أريدهما أن تظلا جميلتين ساحرتين، تمداني بالدفء والنور والحياة! إنهما سراجي المنير في هذه الحياة القاسية!

- عدني يا راكان أن لا تتركني! إنك إن فعلت فسأجن أو أموت!

- إنكِ أنتِ روحي؛ وهل يترك الإنسان روحه إلا إذ أخذت منه بالقوة؟!

ابتسمت الفتاة فجأة وقد لمعت عيناها ببريق مضيء وقالت:

- إن والدتي تريدك كثيراً! لقد قضينا طيلة البارحة نتحدث عنك!

- إن والدتك امرأة عظيمة! لقد بهرتني بأحاديثها وسعة اطلاعها! ثم ابتسم وأضاف:

- وكذلك بجمالها ورقتها؛ رغم قصر الوقت الذي قضيناه سوية!

- شكراً! شكراً! لقد قالت بأنها لم تكن تفكر أنك تتمتع بكل هذه المعرفة والاطلاع، ثم إنك جميل ومؤدب!

لقد هيّجت أحاديثها وكذلك حنانها، مشاعري، فحننت إلى أحاديث وحنان والدتي التي أفتقدها كثيراً!

وهنا لمعت عيناها وقالت بعد أن ألقت بوجهها إلى الأرض، وقد احمرت وجنتاها خجلاً:

- إن أختي نولا تريدك كثيراً لقد سألتني أين وجدت هذا الشاب الجذاب؟! قالت إن في عينيك شيئاً يشبه المغناطيس، يسحر لب وقلب الفتاة التي تحادثها! وهل تستطيعين أن تجدي لي شاباً مثله عندما أكبر قليلاً! لقد قلت لها بأنني سأتنازل لها عنك، فأجابتني بأنها لا تأخذ حبيب أختها!

- لقد كنت أفكر أن الفتيات في مثل عمر نولا لا يفكرن بالشباب ولا يعرفن شيئاً عنهم!

- إن نولا ومن في مثل سنها من الفتيات، يعرفن عن الشباب والحب مقدار ما أعرف أنا ومن في مثل سني! قالت وهي تتضاحك.

لم يعلق الشاب وبقي صامتاً، وإن سرح في خياله بعيداً، إذ صار يفكر بالفتاة في وطنه، ويقارن بينها وبين الفتاة الأمريكية. إن معظم الفتيات في وطنه يعشن في أغلال ورق عبودية العادات البالية، والمجتمع الذي لا يرحم؛ بينما الفتاة هنا تعمل ما تريد دون خوف من أهل ولا رقيب! فتاة هناك تخمد عواطفها وأحاسيسها وتخشى أن تظهرها أو تبوح بها، وفتاة هنا يراقب أهلها تفتح قلبها ونمو عواطفها كما يراقبون تفتح الزهور!

قطعت الشابة حبل أفكار الشاب وقالت وهي مازالت تنظر إلى الأرض:

- لقد افتقدتك كثيراً الليلة الماضية، وكنت حزينة جداً ومتضايقة فسألتني والدتي إن كنت أنت السبب فلم أستطع إنكار ذلك! ولفت يدها اليسرى حول عنقه وقالت وهي تنظر في عينيه:

- كنت أفكر أنني لن أعيش خلال ليلة البارحة. لقد شعرت أنني أكاد أختنق من شدة شوقي إليك. كنت أشعر كالغريبة بين أهلي! لقد طلبت إلي والدتي أن أهاتفك، وتمنيت لو أنني أستطيع ولكنني خشيت غضبك، فأنت لا تريدني أن أكلمك في بيت كفيلتك! لم أكن أعلم انك في بيت جدتي! لقد سألتني والدتي إن كنت تحبني فأجبتها بأنني غير واثقة!

- أوه نيكول! كيف تقولين ذلك؟! سأل الشاب باستنكار!

- لأنك لم تقل لي ولا مرة واحدة بأنك تحبني، ولأنك لم تمسك حتى بيدي!

وبعد أن مرت بيدها على رأسه وعبثت بأصابعها في شعره أضافت:

- أجابتني والدتي بأنك شاب خجول ومؤدب، وانك من النوع الذي لا يتكلم عن عواطفه!

- وهل قالت لك أن ذلك التصرف هو عادة سيئة؟!

على العكس من ذلك! لقد قالت بأن أمثالك أكثر إخلاصاً وأعمق حباً من الذين يتكلمون عن عواطفهم بدون حساب؛ وأنك تمارس الأفعال لا الأقوال!

- لو سمعتها لقبلتها على وجنتيها!

- ألا تخشى غيرتي وغضبي؟!

- لا؛ ولكنني أخشى غيرة وغضب والدك.

- هل تعرف أن والدي يغار منك؟! نعم يغار منك! يبدو أن والدتي عندما عادت إلى البيت بعد لقائك، أسهبت بالثناء عليك أمامه وأمام إخواني؛ ثم جاءت خالتي وأعادت على مسامعها ثناءها عليك؛ ثم تحدثت مع جارتنا بحماس عنك، مما أثار حفيظة والدي فصاح بها سائلاً: لم لا تذهب وتتزوج صديقها العربي مازال يملك كل هذه الصفات الحسنة، فيركبك على جمل ويسكنك في خيمة! ضحكت والدتي ظانة أنه يمزح، ولكنه تبين لها فيما بعد أنه جاد، إذ طلب إليها أن لا تذكر اسمك ثانية أمامه!

- أنا حزين جداً أن أسبب سوء فهم بين والديك!

- إنه أنانيّ ويعتقد أنه يعرف كل شيء، ويحب أن لا يمدح أي رجل سواه!

آلم راكان أن تتحدث الصبية عن والدها بغير احترام، واستنكر عليها ذلك، ولكن استنكاره ازداد بعد أن سألها:

- ألا يتمتع والدك بنفس الصفات والمزايا التي تتمتع بها والدتك؟! أعني ثقافة وأدباً وتصرفاً.

- إنه عكس والدتي تماما! لقد أنهى فقط المرحلة الابتدائية، وليس عنده ثقافة عامة حتى الجريدة لا يقرأها! إنه يحب فقط مشاهدة التلفاز... ثم إنه يعمل نجاراً!

هم الفتى أن يسألها عن الدافع الذي جعلها تتزوج بمثل هذا الرجل غير المثقف وغير المصقول، ولكنه خشي أن يجرح شعورها فقال:

- يبدو أنك لا تحبين والدك حبك لوالدتك! آسف أن أسالك، ما هو السبب!

هزت الصبية رأسها علامة النفي وقالت:

- لأنه ليس والدي! قالت وهي تتجنب النظر إلى عيني عاشقها.

- ماذا؟! سأل راكان مندهشاً؛ ولكنه سرعان ما تبين له خطؤه فقال مستدركاً:

- كثير من النساء يتزوجن بعد وفاة أزواجهن؛ ولو قبلت والدتي الزواج بعد وفاة والدي لكان لي الآن زوج أم.

- ولكن والدتي لم تتزوج ثانية بسبب وفاة والدي! لقد خرج والدي من البيت دون أن يعلمها، ولم يعد! انتظرت عودته ثلاث سنوات، ثم تزوجت! ثم إننا لا نعرف، لا أمي ولا أنا في أية ولاية يسكن، منذ رحيله؛ وأنا لم أره في حياتي. لقد ترك والدتي وأنا ما زلت في رحمها!

- ألم يكتب إليك أو يأتي لزيارتك ؟!

هزت الصبية رأسها يمنة وميسرة علامة النفي.

- مازلت لم تريه فأعتقد أنك لم تفتقديه! قال راكان ذلك وكأنما وجد حلاً للمشكلة.

- إنني على العكس من ذلك، دائماً في شوق له وبي حنين لرؤيته! لقد أمضيت ليالي طويلة أبكيه في وحدتي، وأتمنى لو أستطيع رؤيته والتحدث إليه!

- أتعتقدين أن زوج والدتك لا يحبك لأنك لست ابنته؟!

- نعم. لأنه يحب جداً أختي وأخَوَيّ ، جداً جداً!

- يا له من إنسان قاسي القلب! وكيف إذن تزوجته والدتك؟!

- لقد وعد والدتي بأنه سيحبني كابنته تماماً! لقد تزوجته وكان عمري ثلاث سنوات. لقد كان يضربني ويهينني لدون سبب اقترفته! لقد فكرت والدتي أن تتركه من أجلي، ولكن جدتي رجتها أن لا تفعل ذلك ، وكفلتني هي، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش معها. كان السيد جوليت، زوجها، يعاملني كابنته وكان يحبني كثيراً! وليس له أولاد.

- ربما كان من الأفضل لو أن والدتك لم تفكر بالزواج حتى تكبري! شعر الشاب بأنه قال شيئاً قاسياً فاستدرك:

- أعني أنه ربما كان من الأفضل لو أنها تزوجت برجل ذي ثقافة وأخلاق كريمة مثلها.

- لقد كانت والدتي وقتها تسكن في بلدة صغيرة بولاية يوتا، وكان زوجها يسكن في نفس البلدة! لقد أعلمها بأنه سيعاملني كابنته تماماً، ولكن صار يعاملني معاملة سيئة فيصرخ في وجهي ويؤنبني لأتفه غلطة أرتكبها ويضربني؛ لقد كنت أستغرب من والد يعامل ابنته في منتهى القسوة! كنت أعتقد أنه والدي، وصمموا على أن لا يعلموني بأني لست ابنته. فقط علمت عندما كنت ابنة سبع سنوات. قالتها والدتي في ساعة غضب. لقد كرهته قبل أن أعرف أنه ليس والدي. لقد قبلت والدتي الزواج به لأنها كانت وحيدة وتظاهر بأنه إنسان نبيل!

- الشعور بالوحدة ليست سبباً كافياً للزواج من إنسان قاسي القلب سيء الطباع!

- يبدو أنك لم تجرب الوحدة وإلا لما كان رأيك هكذا!

- أنا لا أعرف الوحدة؟! سامحك الله. لا أعتقد أن إنساناً على وجه الخليقة عانى من الوحدة كما عانيت منها أنا! لقد كنت، والله، أحسّ وكأنما إنسان مطبق بيده على فمي ويمنعني من التنفس، فأشعر بأنني سأختنق وأموت؛ فأظل أناضل وأناضل حتى أبعد عن فمي هذه اليد الحديدية التي تكممه! قال الشاب وحزن مدمر يبدو على وجهه!

- منذ أن تعارفنا وأنا أرغب في أن أحدثك عن والدي، ولكنني كنت أحس دائماً بالحرج، حيث إنني كنت أشعر أننا لم نكن متقاربين وأن روحينا لم تنصهرا معاً، إلى درجة أن أبوح لك بأسرار عائلتنا ! لقد كنت أشعر بأن بيننا حائطاً سميكاً يفصل بين روحينا، أما الليلة فإن روحينا قد انصهرتا حتى أصبحتا واحدة! هكذا أشعر الآن!

- إنني أشكرك على صراحتك. قال الفتى بحماس، ثم أضاف ؛

- ولكنني أؤكد لك أنني أحسست، ومنذ الأسبوع الأول على تعارفنا، بأن روحينا قد التقتا وأصبحتا روحاً واحدة! نعم، منذ الأسبوع الأول!

- ولكنك لم تذكر لي ولا مرة واحدة أنك تحبني!

- لقد كنت أخجل ان أقول لك ، ولكنني الآن أقولها؛ بأنني أحبك بكل جوارحي، وبكل طاقاتي وكياني!

فك يده الشمال من خلف خصرها، وبكلتا يديه أحاط بهما وجهها، ورفعه إليه وبدأ ينهل من شفتيها رحيق الحب !

كانت شفتاها مازالتا متقدتين كالجمر، ولكن الذي أزعج راكان وحيره هو أنه لم يشعر بالشهوة العارمة وهو يضمها إلى صدره ويقبلها، كما شعر عندما عانق جوليانا وجيسيكا وسالي! كان يشعر بشهوة محمومة حتى وهو ينظر إليهن، وكأن ماءً مغلياً قد صب في عروقه! أما وهو يقبل نيكول فإنه لا يشعر بأنه يشتهي جسدها، وإنما يشعر بسعادة روحية لا يستطيع وصفها!

- راكان! أحبك! أحبك! قبلني بحرارة! ضمني إلى صدرك بقوة! بعنف! إني أحترق!

كانت ترتجف كالمحمومة بين يديه، وكان يتلذذ بهذا العناق، ولكنه لم يشعر بأنه يشتهي جسدها! إنه يشعر أنه يحترم هذا الجسد لأنه يحب صاحبته؛ وتدنيسه له احتقار لصاحبته، في اعتقاده!

إنه يريد أن يتزوجها مازال يحبها! إنه يريدها بالحلال، بالمأذون! هذه هي ثقافته الدينية والاجتماعية!

توقف عن تقبيلها بحرارة؛ مكتفياً بضمها إليه، معتقداً أنها ستفعل المثل، ولكنها على العكس من ذلك ازدادت عنفاً؛ وشعر بأنها تريد أن تأكل شفتيه أكلاً لا تقبيلاً، وبكل قوة أبعد رأسه عنها، وبكل قوته أنزل رأسها قليلاً قليلاً وشده إلى صدره!

كانت ما زالت ترتجف وبيده اليسرى ضمها إلى صدره، وباليمنى صار يمر بها على رأسها، وبأصابعه يسبل شعرها، محاولاً بعمله هذا أن يربت بيديه على عيني الوحش الهائج في داخلها، عله يهدأ قليلاً فيستريح ثم ينام!

فتح الباب ودخلت السيدة جوليت، فأضاء راكان النور؛ هبت الصبية كالزوبعة وانطلقت من بين ذراعي الفتى ورمت بنفسها إلى صدر جدتها وصاحت:

- جونزي! جونزي، ضميني إليك! أنا خائفة! خائفة جداً! وصارت تبكي بهستيريا أرعبت الفتى ولا شك أنها أرعبت العجوز أيضاً!

- ماذا حدث يا حبيبتي؟! أخبريني! سألت الجدة بجزع وقد صارت ترتجف هي الأخرى!

- إنني خائفة! خائفة! احميني! أرجوكِ! أرجوكِ!

- لا تخافي يا حبيبتي! أنتِ في حضني! لن يؤذيكِ أحد!

نظرت الجدة إلى راكان بعينين والهتين ترجوانه أن يعلمها ما حدث، هز الفتى رأسه يمنة ويسرة علامة أن لا شيء حدث.

قادت الجدة حفيدتها إلى غرفتها، وعادت بعد حوالي نصف ساعة قضاها راكان سابحاً مع أفكاره محتاراً مهموماً ومستغرباً هذا التصرف العجيب من الصبية!

- لقد نامت، الشكر لله! قالت الجدة وهي تجلس في مكانها المعهود.

- مالها يا أماه؟! صدقيني؛ أنا لم أقل ولم أفعل لها شيئاً يغضبها! سأل راكان بجزع.

- أنا أعرف يا بني! لقد أعلمتني بكل شيء! إنها مسكينة! قالت الجدة وهي تمسح دموعها بظهر يدها اليمنى!

- ماذا حدث لها يا أماه، حتى تستحق الشفقة؟! سأل بحيرة.

- نعم، إنها مسكينة يا بني! لقد حدث ما كنت أخشاه!

- أرجوكِ! قولي يا أماه، فإن القلق يمزقني!

- لقد ظلت نيكول تختزن حبها تسعة عشر عاماً! كانت تختزنه كبركان يهدر في باطن الأرض، وينتظر أول فرصة ينطلق بها! وهكذا كانت نيكول! كان يزعجني ذلك ويقلقني! لقد كنت أشجعها أن تفتح قلبها وتحاول أن تستلطف وتريد بعض الشباب، لأنني كنت أعرف أن حبها عندما ينطلق سيخرج كالمارد من قمقمه! كانت تختزن كل طاقات الحب في قلبها، وهاهي اليوم تعطيها كلها لك!

- وهل أنتِ آسفة يا أماه، إننا نحب بعضاً؟!

- لا يا بني، إنني على العكس من ذلك! إنني مسرورة جداً، وأشكر الله أن الإنسان الذي أحبته هو أنت؛ وإلا لقتلني الهم والخوف معاً!

- اطمئني يا أماه، فإنني سأحبها بكل ما عندي من طاقات، وسأحاول كل ما بوسعي لأن أجعلها سعيدة !

- أرجوك يا بني، لا تخيب ظني ولا ظنها! إنها وديعة في عنقك أحاسبك عليها يوم القيامة! قالت ذلك وانفجرت تبكي بحرقة ، مزقت قلبي!

- توكلي على الله، وسأكون إن شاء الله عند حسن ظنك وظنها! قالها الشاب والشهامة العربية تملأ إهابه، وحزنٌ على العجوز يمزق قلبه!

- وهل أعلمتك ما حدث؟!

هزت الجدة رأسها عدة مرات علامة الموافقة والفرحة تتطاير من عينيها وقالت:

- أعلمتني كل شيء وبالتفصيل! لقد كانت في غاية السعادة! كانت تكاد تطير من الفرح!

- إذن، تصبحين على خير يا أماه! سأراك غداً! قالها الشاب وهو ينهض من مقعده لينصرف.

- انتظر يا بني لأسأل السيد أو السيدة بويكو، ليوصلك أحدهما! قالت الجدة ذلك وتوجهت نحو باب الخروج.

- لا يا أماه! سأسير على قدمي؛ فإنني أحب السير في الهواء الطلق وخصوصاً ليلاً! قال راكان بصدق وحماس.

- لا يا بني! لا أريدك أن تسير ليلاً وخصوصاً في هذا الوقت المتأخر من الليل؛ ثم إنهما سيسعدان إن طلبت إليهما أن يقوما بأية خدمة لي. إنهما دائماً يسألانني أن أجلس مع الطفلين ليذهبا لقضاء حاجة ما، ويتمنيان أن يقوما بخدمة لي! قالت ذلك وخرجت.

- مرحباً يا راكان! كم هو مفرح أن أراك ثانية! قالت السيدة بويكو ذلك وهي تبتسم والسعادة تتوهج على وجهها!

- شكراً يا سيدة بويكو! عيد زواج سعيد!

- شكراً! لقد دعاني دونالد إلى العشاء في الخارج، وقدم لي هذه الساعة هدية! قالت ذلك وقدمت منه ذراعها تريه الهدية!

- ساعة جميلة جداً! لا شك أنها ثمينة!

- ثمينة جداً! جميع الساعات التي أملكها كانت متوسطه الثمن، أما هذه فهي ساعة متميزة. قالت ذلك وتوجهت نحو سيارتها!

- ساعة متميزة لامرأة متميزة! قال راكان وهو يأخذ مفتاح سيارتها من يدها ليفتحها لها!

- أوه راكان! حقاً إنك شاب متميز! تجعل المرأة تعتز بأنوثتها وتفخر أنك صديقها! هكذا قالت عنك السيدة جوليت!

- السيدة جوليت نفسها امرأة نادرة ومثالية! قال راكان.

- حقاً، نحن سعداء بأننا جيران لها! لم أذكر مرة واحدة أنها اعتذرت عن طلب معروف تقدمه لي! صدقني إنه لا يمر أسبوع دون أن أسألها، وإن كان معظمها لمدة دقائق قليلة، لمراقبة الأطفال!

- لقد خففت صداقتُها عني كثيراً من قساوة الغربة وفراق الأهل! قال الفتى بعد أن أغلق باب السيارة خلفها، ثم دار حول السيارة وجلس في مقعده بجوارها!

- هل تخرج أنت ونيكول باستمرار؟!

- أحياناً!

- إن نيكول فتاة لطيفة ومؤدبة، وكذلك ذكية ومثقفة، ولكن عيبها الوحيد أنها حساسة وعاطفية جداً جداً! قالتها بتأثر وهي تصر على الكلمات وتغمض عينيها!

لم يعلق راكان على مقولتها، فسألت:

- هل تحبان بعضا؟! سألت والسيارة تنطلق بهما.

ضحك راكان وهز كتفيه وقال:

- لقد عرفنا بعضاً حديثاً، والحب يأخذ وقتاً حتى ينمو ويترعرع!

- هذا صحيح! وهل تستلطفان بعضكما؟!

- أعتقد ذلك؟!

- وهل تنويان الزواج؟!

- ابتسم الشاب وقد اخضلت رقبته، وصار يفرك جبهته من شدة الخجل.

- إنني لم أفكر بهذا.

- إن النساء يفكرن بذلك من أول لقاء ! لقد فكرت به من أول مرة دعاني بها دونالد للخروج معه! وتحدثنا عن الزواج في الدعوة الثانية! قالت وهي تبتسم.

لم يعلق راكان على ما قالت، وإنما شاركها الابتسام.

- إن السيدة جوليت تريدك كثيراً، وتعتقد أنك شاب مهذب وشهم، وأنا أعتقد كذلك، إن الشاب النبيل يتميز بسهوله! ضحكت ولاحظ الفتى أن وجهها يزداد بهجة وأن خديها يزدادان احمراراً ، إذ قالت:

- إنني لو كنت عازبة لوقعت في حبك من كثرة ما مدحتك السيدة جوليت! قالت بأن نيكول كانت تحضر جميع الشباب الذين تعرفهم لمقابلتها، فكانوا كلهم شباباً غير ناضجين وغير مسؤولين، وأنها لم تتصور في مخيلتها واحداً منهم يصلح زوجاً لنيكول؛ وإنما رأتك أنت!

- إن السيدة جوليت امرأة عظيمة في كل مجال، وأظن أنها تبالغ في مدحي، ولكنني آمل أن أكون عند حسن ظنها! قال راكان وقد ازداد سروره، فسأل المرأة:

- هل تعرفين السيدة جوليت منذ مدة طويلة؟

- منذ تزوجت؛ قبل حوالي ثماني سنوات! لقد اشترينا بيتنا منها! باعته لنا بأقل من سعر السوق. إنها امرأة كريمة جداً!

- وما رأيك بنيكول؟! أخيراً تجرأ راكان وسألها!

- فتاة مثالية! عاقلة وذكية وذات تربية عالية. منذ أن كان عمرها ثلاث سنوات وهي تعيش مع جدتها! فقط العام الماضي ذهبت إلى جامعة برقميانق في ولاية يوتا. إنها متدينة جداً، تتبع المذهب المورمني ومعتقدها الديني يختلف عن معتقدي، والشيء الوحيد الذي يقلق جدتها هو أنها حساسة وعاطفية جداً جداً! ثم إنها خيالية لدرجة زائدة، يعتقد المراقب لها بأنها تعيش في عالم آخر!

- وماذا تعنين؟ ! سأل راكان بهلع!

- لقد رأيتها مراراً من خلال الشباك وهي تستمع إلى الموسيقى وترقص على نغماتها رقصات غريبة كرقصات سكان الغابات والجبال! ترقص لوحدها لفترات طويلة، فتسقط فوق فراشها منهوكة القوى؟

- وبماذا تفسرين ذلك؟!

- صدقاً؛ إنني لا أعرف! لقد قال دونالد أنها إذا أحبت فسيكون حبها عنيفاً، وإذا فشلت في هذا الحب، فإنه سيدمر حياتها؛ وكذلك أعتقد أنا.

- ولم تعتقدان ذلك؟!

- لأنها سوف تمنح حبها الذي اختزنته كل سنوات عمرها لشخص واحد، فإذا لم يتفهم ذلك الشخصي مشاعرها ويراعي أحاسيسها ويتصرف تصرفاً قد تعتقد أنه مهين لها، فسوف يسبب لها ألماً عظيماً، قد يدمر حياتها!

أزعجت الفكرة راكان كثيراً، وعزم الأمر بينه وبين نفسه، على أن لا يقول ولا أن يتصرف تصرفاً يجرح إحساسها أو يسيء إليها.

وكانا قد اقتربا من بيت كفيلته، فطلب الشاب إلى السيدة بويكو أن تتوقف، إذ إنه لا يريد أن تنزله أمام بيت كفيلته، لأنهما سيبدآن الحديث وقد تطلب إليها السيدة هييز أن تتفضل بالدخول، ويتفرع بهما الحديث، وكلاهما تعشقان الثرثرة وتناقل الأخبار، مما قد يقود إلى مشاكل هو في غنى عنها!

شكر راكان السيدة بويكو وتمنى لها ليلة سعيدة، وهنأها مرة أخرى بعيد زواجها ومد يده ليفتح باب السيارة ويخرج.

- هل أنت في عجلة من أمرك؟ !سألت:

- لا، أبداً! أستطيع أن أبقى بعض الوقت.

- فقط عشر دقائق أخرى!

فرح الشاب لطلبها فقد ظن أنها ستحدثه عن نيكول وجدتها، ولكنها لم تفعل ، فقد سألته عن عمره وعن أهله في الوطن عددهم وأعمارهم أيضاً، وماذا يفعلون وماذا في نيته أن يدرس وأية جامعة سيلتحق بها، وكيف وجد أمريكا وهل أحبها؛ ثم سألته عن كفيلته وهل هو مسرور في بيتها!

كانت هي تسأل وهو يجيب ثم تعلق على إجاباته أحياناً، وقبل أن تنطلق بسيارتها قالت له بأنها تريده أن يناديها باسمها الأول "توتسي" وليس السيدة بويكو، رفعاً للتكلفة، ومن ثم تمنى لها ليلة سعيدة، ومرة أخرى هنأها بعيد زواجها!

*****

الفصل العاشر

بعد أن تحدث الشاب مع كفيلته لبعض الوقت، في أمور شتى، أويا إلى فراشيهما.

لم يستطيع العاشق النوم، إذ كانت كل خلجة في جسمه متيقظة وترقص طرباً! كان يفكر بما قالته له نيكول وبحبها له، وكيف يجب أن يتصرف معها حتى يحافظ على هذا الحب، وكذلك يفكر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه؛ كيف يجنبها الألم وخيبة الأمل ؛ عندما رن جرس الهاتف!

نهض راكان مسرعاً ليجيبه، ولكي يجنب صليله المزعج، كفيلته المستغرقة بالنوم؛ ولكن تبين له أنها قد نقلت السماعة إلى غرفتها، فعاد إلى فراشه!

فتح الباب خرجت السيدة هييز وسألت راكان إن كان مازال مستيقظاً، أجابها بالإيجاب وقد قفز من فراشه وقلبه يدق دقات عنيفة ومتلاحقة، وكل ذرة في جسمه ترتجف، إذ لا أحد يعرف رقم هاتفه غير نيكول وجدتها، ولا شك أن سوءا حدث لأحدهما أو لكليهما، دعاهما لمكالمته في بيت كفيلته، وفي مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل!

- لمَ تخبئ علي ولِمَ لم تقل لي بأن لك صديقة عربية؟! وهل تعتقد أنني سأغضب إن عرفت أن لك صديقة من وطنك وتتكلم لغتك؟! إن هذا يفرحني جداً! قالت السيدة هييز بلغة عتاب، ولكن فيها رقة وحنيّة!

ارتفعت ضربات قلب راكان، وبلع ريقه ومصمص شفتيه وفتح فاه لينكر التهمة، ولكنها سبقته وأضافت:

- إنها لو لم تكن صديقة حميمة، لما كلمتك في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل!

- إنني لا أدري عم تتكلمين! قالها بصوت مخنوق وقد تشجع قليلاً لتأكده من أنه لا يعرف صديقة عربية!

- على كل حال إنها على الهاتف وتريد أن تكلمك! إنها حتى تعرف اسمي، وسألتني عن صحتي وعن عملك أيضاً!

- راكان عبد الله يتكلم. قال الفتى بصوت هامس!

- كيف حالك يا راكان؟! آمل أن تكون مسروراً بوظيفتك! آسف للإزعاج في هذا الوقت المتأخر من الليل. آمل أن لا أكون قد أيقظتك من نومك! لقد عدت إلى البيت الآن من العمل، وكما تعرف فإن ساعات عملي تبدأ من الثالثة بعد الظهر وحتى منتصف الليل! قالت بالعربية.

احتار الشاب من هذه المرأة العربية التي تكلمه وكأنما يعرفان بعضاً جيداً! استعرض الشاب الحائر في مخيلته كل من عرف من العرب في أمريكا، إنه لا يعرف واحدة ولم يتذكر أنه قابل ولا تعرف على امرأة عربية! واستمرت المتكلمة تقول:

- أنا آسف أنني لم أكلمك أو آتي لزيارتك إذ إنني جد مشغول!

ازدادت حيرة الفتى، إذ أن المتكلمة تتكلم بلسان المذكر مع أنها امرأة!

- سنقيم غداً مساء احتفالاً بزواج شاب عربي على فتاة أمريكية، وفكرت أن أدعوك، لأنها فرصة جيدة أن أراك، وأن أعرف أخبارك وكذلك تتعرف على بعض الشباب من العرب، وتمضي وقتاً ممتعاً !

هم راكان أن يسأل من المتكلمة، ولكن المرأة أضافت:

- أنا أعرف أنك تعمل غداً حتى الخامسة والنصف، فقد أعلمتني السيدة هييز ذلك! لقد أعلمتني أيضاً بأنك غير مسرور في عملك. كل شاب يصل الوطن لابد وأن يبدأ بأدنى الأجور وبأقل الأعمال! سأكون بانتظارك في بيتها الساعة السادسة إن شاء الله!

- من المتكلمة لطفاً؟! أخيراً سأل راكان.

انفجرت المرأة تضحك بهستيريا، لفترة طويلة مما أربك الشاب وأخجله كثيراً!

- يبدو أنك مازلت تحت تأثير النوم! أنا إبراهيم ألم تتبين صوتي؟! قال المتكلم بعد أن توقف عن الضحك والكركرة!

التجم لسان راكان، وجدّته موجة من العرق الساخن، فقد خجل كثيراً لعدم تمييزه صوت صديقه!

- آسف يا أخ إبراهيم، إن النوم مازال مسيطراً علي! قال مدارياً خجله!

- لا بأس عليك! لا بأس عليك! لا تنسَ! سنفطر غداً معاً في بيتي. تصبح على خير! قال إبراهيم ذلك وأغلق السماعة.

لقد فسر راكان قول صديقه بأنهما سيفطران معاً بدلاً من سيتعشيان معاً بسبب عمل إبراهيم ليلاً!

- ماذا تريد منك صديقتك العربية في هذا الوقت المتأخر من الليل؟! آمل أن لا تكون في ورطة وتطلب مساعدتك! قالت السيدة هييز التي مازالت تقف بباب الغرفة وتسند ظهرها إلى الحائط.

- اعذريني! إنني مازلت تحت تأثير الصدمة! لقد ظننت مثلك، أن الشخص الذي على الهاتف هو امرأة، وبقيت أتكلم معه وأخاطبه على أنه أنثى، ولكنني أخيراً أدركت خطئي! إنه إبراهيم يدعوني غداً إلى حفل زواج شاب عربي!

ما كاد راكان ينتهي من جملته حتى انفجرت المرأة تضحك بصوت عال وكأنما سمعت نكتة غريبة؛ وبعد أن كفت عن الضحك قالت:

- ما أغبانا نحن الاثنين! كيف لم ندرك ذلك؟! إن هذه هي المرة الثالثة التي يتكلم بها معي، ومع هذا لم أستطع تمييز صوته! على كل حال إنه لكرم أخلاق ولطف منه أن يدعوك وأن يأتي لأخذك؛ تصبح على خير! قالت ذلك وأغلقت خلفها باب غرفة نومها!

أن لإبراهيم صوتاً حنوناً وناعماً، إذ إنه يتكلم دائماً بلطف زائد ولهجة مؤدبة جداً، يظنه الذي لم يتعود على سماع صوته أنه صوت نسائي؛ أما الذي يتعود على سماع صوته فلن يحصل له هذا الارتباك!

لقد ذكرت السيدة هييز لمكفولها مساء وصوله إلى كاليفورنيا، وبعد أن أحضره إبراهيم إلى بيتها، أنها ظنت أول الأمر أن الذي كلمها كان صوتاً نسائياً؛ وكذلك ذكرت له بعد عودته مساءً من عمله، أن إبراهيم اتصل بها يسأل عنه ويستفسر إن كان قد وجد عملاً، إنها حسبت المتكلم معها، أول الأمر، سيدة وليس رجلاً!

لقد ندم راكان أول الأمر على أنه قبل دعوة صديقه إبراهيم، حيث إنه كان يفضل قضاء أمسيته مع نيكول وجدتها، ولكن شعوره بأنه سيقابل ويتعرف على بعض شباب وطنه أفرحه؛ ثم إن نيكول نفسها قد شجعته على الذهاب عندما أعلمها في اليوم التالي، قائلة بأنها فرصة ذهبيه تتيح له التعرف على بعض أبناء وطنه والتحدث إليهم بلغته القومية؛ وتمنت له وقتاً ممتعاً وليلة سعيدة.

- إن صديقتي كارولاين عاتبة علي كثيراً؛ لأنني ومنذ أن تعرفت عليك، لم نجتمع كما كنا نفعل؛ سأنتهز فرصة ذهابك لنجتمع ونمضي بعض الوقت معاً!

شعر راكان بالحزن الشديد وهو يودع نيكول بعد ساعات العمل وكأنما سيغيب عنها شهوراً!

أوسع الشاب خطاه وهو عائد في طريقه إلى بيت كفيلته، بعد انصرافه من العمل وبعد أن ودع نيكول؛ فإن مجرد فكرة أن يرى إبراهيم وبعض شباب وطنه أسعدته جداً، إذ صار له مدة لم ير أحداً من الوطن الحبيب ولم يتكلم لغته القومية التي يفخر بأنه ينتمي إليها!

رأى وهو يدخل من الشارع إلى بيت كفيلته سيارة إبراهيم تقف أمامه، فشعر بدقات قلبه تتسارع، وعلت وجهه فرحة أضاءته؛ دفع الباب ودخل فرأى صديقه جالساً على طرف الكنبة الطويلة، وعلى الطرف الآخر تجلس السيدة هييز؛ فقال بحماس وفرح بالعربية:

- أهلاً بك يا أخ إبراهيم، إنه يسرني جداً أن أراك، لقد وحشتني والله يا رجل! كيف صحتك، وأرجو أن تكون أحوالك جيدة! قال ذلك ومد يده بحرارة ليصافح صديقه؛ فمد صديقه يده نحوه بفتور ودون أن يقف في وجهه وقال:

- لقد كنت مشغولاً!

شعر راكان بمذلة عظيمة، وأحس كأنما ابن وطنه قد بصق في وجهه فبدت الخيبة والأسف على وجهه، وإن تظاهر بالحبور والانشراح!

- هل أنت صائم؟! سأل إبراهيم فجأة وبلهجة آمرة.

حملق راكان بصديقه محتاراً!

- ماذا؟!

- هل أنت صائم؟! أعاد إبراهيم السؤال بلهجة استعلائية أكثر من الأولى، وكأنما هو محقق يطلب من مجرم أن يعترف بجريمته!

- إنني لم أفهمك! قال المتهم صادقاً محاولاً أن يفهم الأحجية!

- لماذا لا تقول أنك لست بصائم ؟! لقد أعلمتني السيدة هييز أنك لم تصم ولا يوماً واحداً!

وقبل أن يكمل كلامه، قال القادم:

- لقد كنت أفكر أنك شاب متدين، تصلي الأوقات الخمسة وتصوم شهر رمضان، ولا تشرب الخمرة! لقد خلقك الله فأعطاك الحياة؛ ألا تستطيع أن تعطيه دقائق من وقتك كل يوم لعبادته؟!

- أرجوك قل لي ما هي الحكاية؟! سأل المتهم بغضب وقد نفد صبره!

- ألا تعرف أننا في اليوم الخامس من شهر رمضان الفضيل؟!

- أقسم لك إنني لا أعرف! يا مرحباً بك أيها الشهر الكريم! قال راكان صادقاً وبحماس.

- صدقتك بالنسبة لرمضان؛ ولكن ماذا عن الصلاة؟! لقد أعلمتني السيدة هييز بأنها لم ترك تصلي ولا مرة واحدة منذ قدومك!

كانا يتكلمان بالعربي، وكانت السيدة هييز تنقل طرفها يبين الاثنين حائرة محتارة وهي لا تعرف عن ماذا يتكلمان ولا ماذا يقولان! إنها تسمع اسمها يتردد كثيراً بأحاديثهما!

- كيف عرفت السيدة هييز أنني لا أصلي؟!

- لأنها لم ترك ولا مرة واحدة تفعل، كما قالت!

- وهل الذي يصلي يجب أن يعلن على الملأ ما يفعل؟! وهل الصلاة مباهاة ومفاخرة؟!

- لا، ليس من الضروري أن يفعل ذلك.

- لا تنس أن كفيلتي غير مسلمة، وقد لا ترتاح إذا صليت أمامها. إنني أغلق عليّ باب غرفتي عندما أصلي حتى لا تراني! قال راكان غير صادق!

- أما أنا فإنني لما أصلي أفعل ذلك أمام الناس غير خائف ولا خجل، وقد فردت مرات سجادة الصلاة على شاطئ البحر وصليت، وكان اليوم يوم أحد والشاطئ يعج بآلاف السابحين والسابحات! والذي لا يعجبه فليشرب البحر!

- إنك لا تخاف أحدا لأنك لست بحاجة إلى أحد؛ أما أنا فبحاجة إلى السيدة هييز ويهمني جداً أن لا أعمل شيئاً يثير حفيظتها!

- وهل تظن أنها ستمنعك من الصلاة؟!

- لا أظن أنها ستمنعني، ولكنها قد تمتعض فتتمنى لو أن أرحل.

قال راكان همساً وكأنما كان يخشى أن تسمعه السيدة هييز فتعرف ما يقول؛ وفي نفس الوقت بدأت عيناه ترقصان رقصات الفرح إعجاباً بما قال!

- إنني لم أفكر بهذا! قال إبراهيم بلغة مؤدبة وبلهجة المتراجع.

- إنني أعرف ذلك، وإلا لما سألتني.

كان قد بقي على موعد الإفطار حوالي النصف ساعة عندما دخل الشابان مكان سكن إبراهيم.

- لقد طبخت الفاصوليا والبصل والبندورة واللحمة قبل ذهابي لإحضارك، وبقي علي الآن أن أطبخ الأرز وأعمل السلطة. قال إبراهيم حالما دخل الشابان المنزل.

عرض الضيف على مضيفه مساعدته، ولكن الأخير شكره وطلب إليه الجلوس؛ فصارا يتحدثان والمضيف منهمك في إعداد طعام الفطور.

لا شك أن إبراهيم طباخ ماهر، فقد كان الطعام لذيذاً جداً. لقد أكل الضيف بنهم وشهية زائدتين، فقد أكل ضعفي ما أكله إبراهيم نفسه!

- حقاً، إنك طباخ ماهر، يا أخ إبراهيم! لقد ذكرتني بطبخ والدتي، فشكراً لك! قال الضيف بحميمية!

- أنا مسرور أنك أحببت طبخي. كنت أخشى أن لا يعجبك! قال المضيف بتواضع مصطنع!

تساعد الاثنان وغسلا أدوات الطبخ، فظن راكان أنهما سيغادران رأساً إلى الحفل، فأعلم مضيفه بأنه جاهز للانطلاق، ولكن إبراهيم ذكّره بصلاة المغرب!

- إنه لمن المؤسف والمحزن، أن شبابنا المسلم، ينسون واجباتهم الدينية عندما يغادرون الوطن إلى بلاد أوروبية أو أمريكية! قال المضيف لضيفه وهو يرميه بنظرات شزرة، مما أخجل الضيف وأزعجه في نفس الوقت!

إن إبراهيم سامحه الله، ينصب من نفسه دائماً حامياً للدين وراعياً للأخلاق وجندياً للفضيلة!

*****

سمع راكان وهو يقترب من باب قاعة الرقص موسيقى ناعمة تصل إلى أذنيه، فأحس بنشوة لذيذة وحالمة تملأ أعطافه، وكأنما مخدر يتسرب إلى جميع شرايين جسمه!

فتح إبراهيم باب القاعة فدخل، ودخل ضيفه خلفه، ورأى أن القاعة كانت تغص بالراقصين، فظن الفتى أن جميع الراقصين سيتوقفون عن الرقص ليستقبلوهما وليرحبا بهما، ولكن هاله أن أحداً من الحاضرين لم يلتفت إليهما ولم يعرهما أدنى انتباه؛ وكأنما هما خنفستان دخلتا من ثقب الباب!

لقد كانوا حوالي العشرين زوجاً، وكان كل راقص يطوق زميلته بيديه وقد ألصق خده بخدها وكأنما هو يعانقها، وقد أغمض عينيه ولا شك أنه كان يحلم مستيقظاً!

توقف إبراهيم قليلاً وتصفح وجوه الراقصين زوجاً زوجاً، ثم سار بعدها نحو الطرف الداخلي من القاعة، حيث كان يجلس شاب نحيف وطويل، أسود الشعر محروق البشرة، أمامه مسجلة يضع عليها بعض الأسطوانات بعد أن يدقق بأسمائها؛ كما لاحظ أن شاباً وفتاة كانا يجلسان على كرسيين متلاصقين ينظر أحدهما إلى الآخر بشوق ووله يتناجيان وكأنما يذوبان في بعض شوقاً وهياماً!

توقع راكان أن ينهض الشاب ويصافح إبراهيم فيقدمه الأخير إليه، ولكنهما مرّا ولم يشعر بوجودهما، مما أحزنه وشعر أن جميع عادات اللياقة التي تربوا عليها في الوطن لا وجود لها هنا!

كان هناك صف طويل من الكراسي ملاصقة للحائط، تجلس على اثنتين منها فتاتان متلاصقتان، وحالما دخل الشابان القاعة صارتا تنظران إليهما وتبتسمان وكأنما ترحبان بقدومهما!

توقع راكان أن يجلس هو وإبراهيم على أحد الكراسي المنتشرة في القاعة يرقبان الراقصين، لأن إبراهيم كان قد أعلمه الليلة الماضية، بأنه لم يسبق له أن رقص في حياته، بل إنه لا يميز حتى أنواع الرقصات من بعضها!

- إننا ذاهبان لنهنئ صديقينا منصوراً وجوليا بمناسبة خطوبتهما، وأريدك أيضاً أن تتعرف على أصدقائي من الشباب العرب في منطقة لوس انجلوس. هكذا قال له صديقه إبراهيم الليلة الماضية على الهاتف.

لم يستغرب راكان ذلك، لأن صديقه إنسان متدين جداً بل ومتزمت؛ ولا يمكن أن يعانق امرأة غير زوجته، كما يفعل هؤلاء الراقصين!

التفت راكان حوله يبحث عن إبراهيم ليسأله أين سيجلسان، وليشكو إليه فقدان اللياقة عند أصدقائه، لأن أحداً منهم لم يتقدم من راكان ويرحب به؛ وهاله أن يرى صديقه يقف بانحناء أمام إحدى الفتاتين الجالستين وشفتاه تتحركان ويقول لها شيئا لا شك أنه كان يتغزل بمحاسنها، لأن راكان رأى أن الفتاة كانت تنظر إلى الأرض حياء وخجلاً، وقد احمرت وجنتاها وأذناها، وقد مد يديه أمامها مفتوحتين وعلى وجهه ابتسامه كبيرة، ابتلعت نصف وجهه!

كان إبراهيم وهو يرقص، وبدلع مبالغ به، يتمايل برأسه يمنة ويسرة، وقد فتح ذراعيه وحدهما على طولهما ويحركهما إلى أعلى وأسفل، وكأنما تحاولان الطيران، ويهتز كأنه درويش اجتاحته موجة من الانفعال الديني!

فجأة مدت الفتاة يديها أمامها، وبسرعة قياسية سحبها إبراهيم إليه ولف يديه حول خصرها معانقاً، وكالثور الهائج "المبرطع" أيام الربيع، وخلال أقل من ثانية كان قد دار بها دورة دائرية، وهو يرفع يديه وينزلهما، ودخل بها حلبة الرقص!

إن العادة الكلاسيكية للرقص، هو أن يمشي الراقصان إلى حلبة الرقص، من حيث يقفان، ثم رويداً رويداً يتجهان إلى حيث مجموعة الراقصين والراقصات فينضما إليهما؛ ولكن إبراهيم بدورة واحدة، وبسرعة صاروخية، وخلال أقل من ثانية، دار بالفتاة ودخل وإياها في وسط الحلقة!

تجمد راكان في مكانه مبهوتاً مذهولاً، وسقط على أحد الكراسي، وانفجر يضحك ضحكات هستيرية؛ كما لاحظ أن الفتاة الثانية كانت تنظر إليه وتبتسم وكأنما كانت تدعوه ليتقدم منها ويطلب إليها أن تراقصه!

حاول راكان أن يضبط نفسه بأن يمنعها من الضحك، ولكنه لم يستطع، بل على العكس من ذلك، كلما حاول أن يمنع نفسه من الضحك كلما ازداد إمعاناً في الضحك حتى اختلطت دموعه بمخاطه! وأخيراً حشى منديله القماشي بفمه وركض باتجاه الباب الخلفي وخرج منه، وظل يضحك ويضحك كالمعتوه، ولم يتوقف عن الضحك إلا بعد أن فكر بأمه وأخواته وإخوانه وبالوطن وبأحبابه وببعده عنهم، فصار يبكي بدلاً من أن يضحك!

غير بعيد من مدخل قاعة الرقص وجد راكان ما يشبه حجراً كبيراً فجلس عليه، وأغمض عينيه وسرح في تفكير عميق! صار يفكر بالخالق سبحانه وتعالى وفي الأديان وتعاليمها، وفي الناس وطبائعهم وأخلاقهم، وفي القيم والمثل العليا! صار يفكر بتعاليم الدين الإسلامي في البلاد العربية والإسلامية، ونفس التعاليم هنا في أمريكا ويقارن بينها! إنه نفس الإله سبحانه وتعالى!

إن الإله هناك، في الشرق كما صوره لنا رجال الدين وأئمة المساجد، إله شديد صارم، متعصب بل متزمت، بطاش، لا يرحم؛ يطلب إلى مخلوقاته أن تطبق قوانينه وتعاليمه حرفياً، بدون تهاون ولا أقل قصور؛ وإلا فإنه سيدخلهم نار جهنم ليعيشوا بها مخلدين!

لقد صوروه لنا بأنه إله عابس الوجه مقطب الجبين، متقد النظرات، صارم الطباع غليظ القلب، لا يرق ولا يلين ولا يرحم؛ دائماً حذر متيقظ يراقب الناس، يحصي عليهم أنفاسهم ويراقب كل هفوة يرتكبونها! يعتبر أن النظرة إلى الجنس الآخر حرام، واللمسة خطيئة، ومضاجعة الشاب للفتاة، إذا كانا غير متزوجين، زنا، بل حتى مكالمة الذكر للأنثى أو العكس محرم!

لقد صوروه وكأنما هو عملاق، ذو لحية سمراء طويلة يقدح الشرر من عينيه، عابس، غاضب دائماً يهدد، ويتوعد، يحذر وينذر، عنيد، جبار، متكبر، ظالم، يضع عباده في جهنم إن لم ينفذوا تعاليمه حرفياً، فيراقبهم، وهم يقاسون ويتعذبون...!

أما هنا في أمريكا، فقد رسموه لنا سبحانه وتعالى؛ بصورة تختلف اختلافاً كبيراً عن إخوانهم هناك! لقد صوروه لنا بأنه إله كريم، شفوق، ودوود، رحيم، غفور، متسامح، محب؛ يسامح مخلوقاته إن زلّت، ويغفر لها إن أخطأت؛ ينصحهم بالتقيد بقوانينه ويعدهم بجنة عرضها السماوات والأرض! يسره أن يرى عباده يحبون بعضهم بعضاً؛ يتعانقون، يقبلون بعضهم بعضاً!

لقد صوروه لنا وبيده ضمة من الورود يلقي بها على الناس، يرافقها بقبلاته وابتساماته! إنه إله في خفر العذارى، ورقة النسيم، وعذوبة الندى، والنور يشع دائماً من عينيه! يحزنه أن يرى عباده يتعذبون، ويفرحه أن يراهم سعداء هانئين!

إننا نعبده هناك لأننا نخافه، ونعبده هنا لأننا نحبه! فما أشسع البون بين العبادتين!

لا يدري راكان كم مضى من الوقت وهو جالس في مقعده يفكر ويتفكر، عندما تنبه من غفوته على صوت يسأله بلهجة مؤدبة ورقيقة:

- هل أنت مريض يا سيدي؟! سأل الشاب بالإنجليزية، وقد انحنى وقرّب وجهه من وجه راكان.

- لا، شكراً! إنني أستريح! قالها راكان وقد قفز واقفاً!

لا شك أن الشاب قد تبين له من ملامح محدّثه ولهجته بأنه عربي، فقد سأله بالعربية إن كان عربياً، ولما أجابه بنعم أضاف:

- وهل أنت خارج من الحفل أم داخل إليه؟ ! سأله راكان.

- لا؛ نحن داخلان! قالها وأشار إلى فتاة قصيرة القامة نحيفة الجسم، ينسدل على كتفيها شعر ذهبي، ذات جمال لا بأس به تقف خلفه!

- اسمي سامي سلطان من لبنان! قالها وقد مد يده مصافحاً.

- اسمي راكان عبد الله من الأردن! قالها راكان وقد مد هو الآخر يده مصافحاً بعد أن ألقى بنظره إلى الأرض!

- صديقتي اوفيليا براون!

تصافح الشابان، وكان راكان يحدق بالأرض محاولاً عدم النظر إلى وجهها، ولكنه لاحظ بطرف عينيه أنها تنظر إليه وتطيل النظر، مما أخجله وأربكه !

صارت الفتاة توجه إلى راكان أسئلة متلاحقة، متى جاء، وفي أية جامعة يدرس، وفي أي مدينة يسكن، وهل أحب أمريكا، وكيف وجدها وهل اختلف عليه الطعام... الخ، وكان هو يجيبها أجوبة مقتضبة! إن هذه الأسئلة وأمثالها كان يسألها كل إنسان يقابله ويعرف أنه قادم جديد إلى أمريكا!

وأخيراً، اقترح سامي أن يدخلوا ففعلوا.

كانت الموسيقى صاخبة وشديدة، وكان الراقصون وكأنما في دمائهم نار مشتعلة، يندفعون في الرقص كالمسعورين، وكانت كلما طالت مدة الرقص كلما ازداد الراقصون حماساً وسعاراً!

لاحظ راكان أن إبراهيم راقصٌ ماهرٌ، خفيفٌ في دورانه، سريعٌ في نقل خطاه وتحريك جسمه، مذهلٌ في تحريك جسم مراقصته وتدويره؛ ثم التزامه الشديد بإيقاع الموسيقى؛ بينما كان معظم الراقصين لا يتبعون نغمات الموسيقى، وكانوا ثقال الخطوات، وكانوا يرقصون خارج السرب!

كان إبراهيم يرقص بوحشية مجنونة، وتبين لراكان أنه أمهر راقص في حلبة الرقص وأن زميلته لا تقل عنه جودة، وكان هو في عنفوان قوته، بينما كانت هي تكاد تسقط على الأرض من شدة الإعياء!

توقفت الموسيقى، وأعلن أحدهم استراحة لتناول المرطبات.

سألت اوفيليا راكان إن كان يعرف العروسين فأجابها بالنفي، وأعلمها بأنه حضر مع صديقه إبراهيم وأنه لم يقدمه بعد إلى العروسين لأنهما حضرا متأخرين، وكان الرقص قد بدأ!

- إن صديقك إبراهيم يكون مشغولاً جداً في مثل هذه الليلة، فلا تنتظر منه أن يبقى معك، ولا حتى أن يقدمك إلى أحد! قالت الفتاة وهي تبتسم!

- إنه مشغول جداً؛ ألا ترينه؟! قال صديقها وهو يشير بذقنه إلى زاوية القاعة الجنوبية.

نظر راكان إلى حيث أشار، فرأى إبراهيم والفتاة التي كان يراقصها يقفان وحيدين، والفتاة تضحك بهستيريا، وشفتا إبراهيم تتحركان، فتارة يبتسم، وأخرى يشير بيديه، وثالثة يهز رأسه، ورابعة يضرب يديه ببعضهما، والفتاة ما تكاد تبطئ في ضحكها أو تكف عنه، حتى تنفجر فتضحك من جديد؛ بحماس أشد وبفاعليه أكبر!

- هذه عادته في كل حفلة! إنه يتغزل بالفتاة وهو يقص عليها نكاته البذيئة! لاحظ راكان أن سامي قالها بغضب ممزوج بالحقد! وبعد أن مصمص شفتيه أضاف:

- إنه لم يحضر ولا مرة واحدة بصحبته فتاة! دائماً يحضر وحيداً ويبحث عن فتاة من بين الحضور! لا شك أن الفتاة التي يراقصها لم يحضرها معه! إنه دائماً يجد فتاة ولو حتى من تحت الأرض! وبعد أن توقف قليلاً أضاف:

- إنني لا أدري كيف، ولكنه يجد! إنه إذا لم تكن هناك فتاة وحيدة في الحفل، فإنه يأتي إليك ويدق على ظهرك مستأذناً المقاطعة، وقبل أن تفتح فمك لتقول شيئاً، يكون هو قد اندس بينك وبين التي تراقصها، فيأخذها منك فتبقى أنت كالأبله في وسط الحلقة، مضطراً للانسحاب!

-أوه سامي! إنه لم يفعلها معنا سوى مرة واحدة! لقد كانت مدة رقصه معي لا تتجاوز الدقيقتين؛ ثم أعادني إليك بلطف واحترام! لو كان يعرف أنك تغضب لما فعلها معك! إنه يفعل ذلك مع أصدقائه وحسب الأمل ودلالته عليكم! قالت الفتاة بصوت ناعم حنون وبلهجة رقيقه مؤدبة! ثم أضافت:

- إن إبراهيم لطيف وخفيف الروح يسعد الفتاة بمراقصته لها فيسمعها كلمات حلوة تسرها. إنه يأخذ منك دقيقتين، ودقيقتين من الثاني والثالث وكل واحد موجود في حلبة الرقص، فيستمتع هو ولا يتأثر الآخرون بدقيقتين تؤخذ منهما! إن إبراهيم شاب خدوم وصديق مخلص لا يتردد في مساعدة أصدقائه إن احتاجوا إلى ذلك ولا يرفض طلباً لأحد! هذا إن لم تكن هناك من فتاة بمفردها، وغالباًً ما يكون عدد الفتيات أكثر من عدد الشباب! قالت الفتاة بمنطق أذهل راكان وأسعده.

- إنك تعرفين كم أحب إبراهيم وأحترمه، وأوافقك على أنه يتمتع بكل الصفات التي ذكرتها؛ ولكن الذي يحيرني هو؛ لماذا لا يتخذ له صديقة دائمة، أو لماذا لا يدعو إحدى الفتيات عندما تكون هناك حفلة ويحضرها معه؟

- لقد ذكر لنا مرة، عندما سأله محمود عن ذلك، فأجاب بأنه لم يجد حتى الآن فتاة تتوفر بها المواصفات التي يطلبها بفتاة أحلامه! قالت الشابة بصوت هادئ!

- وهل صدقت ذلك؟! إن السبب الحقيقي هو أنه لا يحب أن يلتزم بواحدة فيصرف عليها نقوداً! إنه بخيل! إنه ليس على استعداد أن يصرف عشر سنتات على أية فتاة، حتى ولو كانت ملكة جمال! إنه أبخل شاب عربي قابلته في حياتي، وهو في نفس الوقت أغنى واحد فينا! قالها الشاب بغضب وكأنما يريد أن يتخلص من حقدٍ مكبوت في داخله!

هنا شعر راكان أنه يجب أن يقول شيئاً ليساهم في الحديث الجاري فقال:

- لعل إبراهيم يخجل أن يدعو فتاة!

انفجر سامعاه يضحكان بصوت عال مما جلب انتباه القريبين منهم، مما أخجل راكان وأربكه!

- إبراهيم يخجل من الفتيات؟! إنك لا تعرف إبراهيم! إنه أجرأ شاب عرفته في حياتي، يتكلم مع الجنس الآخر! أخبريه ماذا حدث عندما رقص معك تلك المرة!

- آه يا حبيبي! قالت الفتاة هذا ورمت برأسها إلى الأرض، فلاحظ راكان أن وجنتيها وأذنيها قد احمرت كحمرة الورد!

- لقد كان يضمها إلى صدره، وكأنما كان يريد أن...

- أرجوك يا سامي! قالت الشابة مقاطعة، وقد تبدلت حمرة وجنتيها وأذنيها إلى زرقة!

- لم يبق أحد واقف في الصف، والجميع جالسون يتناولون الحلوى والمرطبات، ونحن الوحيدون الذين لم نفعل! قال راكان، ثم أشار بيده إلى الفتاة أن تتقدم نحو طاولة الطعام!

- ماذا تريدين أن أحضر لكِ؟! سأل راكان الفتاة بأدب وعيناه تنظران إلى مقدمة حذائه!

- لا، شكراً، إنك لطيف جداً، أنا أخدم نفسي! قالتها الفتاة بلهجة واهنة شعر الشاب وكأنما هي لا تعنيها وتريده أن يخدمها!

- لا، لا بد من أن الرجل هو الذي يخدم المرأة التي بصحبته! قالها بلهجة وأسلوب فارس القرون الوسطى!

- أريد فنجان قهوة بدون سكر ولا حليب، وقطعة (جاتوه) من فضلك! قالت بأدب جم وهي تذبل عينها، وابتسامة ساحرة تعلو شفتيها، وقد مالت نحوه برقة ودلال وخفة، ورمته بنظرة أربكته وأخجلته!

- لا تفسدها! دعها تخدم نفسها! إنها سوف تنتظر مني أن أخدمها في المستقبل! قالها صديقها بالعربية!

- إنني أعرف ماذا قال لك! إنه لا يريدك أن تخدمني حتى لا يفعلها هو في المرات القادمة! قالت الفتاة محتجة!

- أنت تعرفين اللغة الغربية؟! !سأل راكان بفرح !

- لا، أنا أعرف فقط كلمات! ولكن هذه الجملة أنا حفظتها عن ظهر قلب ، لكثرة ما رددها سامي ! إننا كلما اجتمعنا مع شباب عرب وكان هناك طعام، فإنهم دائماً يتبرعون ويسألونني ماذا أريد أن آكل أو أشرب ، وحتى الذين معهم صديقاتهم، إلا أن سامي يحول بينهم وبين خدمتي!

- إنه يقول بأن كل واحد يجب أن يخدم نفسه، شاباً أو فتاة! لقد ذكرت له مراراً أننا نشعر بالزهو والفخر بأنوثتنا، عندما يطلب إلينا شاب أن يخدمنا! إننا في أول تعارفنا، قبل عامين، كان يسعد سامي أن يحضر لي الطعام أو الشراب! كان يعاملني بمنتهى الاحترام والرقة، ويصر على أن يخدمني في كل مكان نذهب إليه! كان يتصرف معي كأنني ملكة يلبي رغباتي، وكان ذلك يسعدني فأعجبت بأخلاقه وأدبه فأحببته، وبعد ستة شهور تقريباً توقف عن ذلك، لأنه رأى الشباب الأمريكي، كل يخدم نفسه! قال إنها الطريقة الصحيحة! فما رأيك أنت يا جيمي؟!

أحرج سؤالها راكان وخاف أن يغضب ابن قوميته فقال:

- كل له تفكيره! أما بالنسبة لي فإنه يسعدني كثيراً أن أقدم الطعام والشراب إلى التي في رفقتي!

- وهل توقفتِ عن حبك لي بعد أن توقفت أنا عن خدمتك، يا صاحبة الجلالة؟ ! سأل سامي وهو يضحك!

- لقد كان يخدمك وينفذ كل طلباتك حتى كسب حبك، ولما تأكد منه، رأى أنه لا لزوم لخدمتك! قال راكان محاولاً أن يكون مرحاً وخفيف الظل!

- إنني لا أعتقد ذلك! إنكم أنتم شباب العرب عندما تأتون إلى أمريكا تعاملوننا نحن الفتيات، بمنتهى الرقة والأدب والاحترام، ثم تتغيرون عندما ترون شبابنا يعاملوننا بغير اهتمام!

- إنكن متساويات معنا بالحقوق، فلماذا نخدمكن؟!قال سامي مازحاً!

- إن الشاب الوحيد الذي لم يتخلَّ عن عادات بلاده الحميدة هو إبراهيم؛ فإنه على الرغم من أنه صار له أكثر من ست سنوات هنا، فإنه يعامل الفتاة التي بصحبته وكأنها ملكة، وأنه متيم بهواها، وأنها الجميلة الوحيدة على هذه الأرض؛ على الرغم من أنها قد تكون المرة الأولى التي يتعرف بها إليها! قالت ذلك ثم أشارت بذقنها نحو إبراهيم.

رأى راكان إبراهيم مستغرقاً مع فتاته في حديث عميق، وهو دائم الكلام والنظر إلى وجهها وهي مواصلة الضحك والتطلع إلى الأرض، ثم فجأة انحنى وفتح يديه وأشار بهما نحو طاوله المرطبات، فسارت وسار خلفها، حتى إذا وصلا طاولة الطعام انهمك بوضع صحون "الجاتوهات" والمرطبات فوق صينية، ثم حملها وذهبا إلى إحدى الزوايا، وبعد أن وضع أمامها ما طلبته، شرعا يأكلان!

- هل تعتقدين أن إبراهيم يعامل تلك الفتاة لأنه يحبها ومتيم بها؟! إنه ربما رآها لأول مرة هذه الليلة! قال سامي شبه محتدٍ!

- إنني أعرف أنه قابلها الليلة لأول مرة، ولكنه يعاملها كسيدة مميزة؛ يشعرها بأنوثتها وأنه سعيد بصحبتها؛ إن هذا ما نريد أن نشعر به نحن النساء! قالت الفتاة بعصبية وكأنما أزعجتها بلاهة صديقها!

وهنا أقبل نحوه شاب وفتاة، اعتقد راكان بأنهما لا بد وأن يكونا من الوطن العربي، بسبب لون بشرتيهما وسواد شعرهما، فقد كان شعر الفتاة حالك السواد كظلام الليل، وكان مرسلاً فوق كتفيها، وابتسامة حلوة عذبة لا تفارق شفتيها كانت عيناها ساحرتين، وكانت رموش عينيها طويلتين وقد ألقتا ظلالاً، وكأنما لتحميا عينيها الأخاذتين من وهج الضوء ومن نظرات المتطفلين الشرهة!

كانت نحيفة القوام وتتثنى في مشيتها كالغزال! أما مرافقها فقد كان شاباً صغير الحجم ونحيف الجسم جداً، تظهر عظام وجهه وكأنه غادر لتوه سرير المرض! كانت عيناه غائرتين برأسه وكأنما هما جحرا جرذان وقد قرأ راكان بهما المكر والخبث، له وجه صغير وشفتان دقيقتان!

حالما رأى إبراهيم الشابين مقبلين نحو راكان وكذلك الشابين الذين معه، قاد فتاته وخلال ثوان كان قد انضم إلى راكان وشلته ليستقبل القادمين، الفتاة والشاب!

- إنني أتمنى لكما السعادة والسرور! إنني واثق بأنكما ستكونان زوجين سعيدين. قال إبراهيم ذلك، وهو يصافح الفتاة أولاً ثم الشاب بعدها.

كان إبراهيم يتكلم بالإنجليزية وبصوت عال يسمعه جميع الحضور، فعرف راكان أنهما الشابان اللذان يحضر حفلة خطوبتهما.

فجأة خفض إبراهيم صوته وصار يتكلم بالعربي فقال مخاطباً الشاب:

- طمنّي هل أسلَمَتْ؟!

ضحك الشاب ولم يقل شيئاً!

- هل تريد أولادك أن يتربوا كمسيحيين؟! أين شهامتك وغيرتك على الإسلام؟! يجب أن تسلم قبل أن تتزوجها! اشترط عليها ذلك!

ومرة أخرى، ابتسم الشاب ولم يجب!

- دعوني أقدم لكما صديقي راكان! لقد حضر حديثاً من الوطن! قال إبراهيم وهو يقدم ضيفه إلى الخطيبين، وبعد أن فعل أضاف:

- أقدم لك الآنسة سندي قونزالص والسيد فاروق نور الدين.

مدت الفتاة يدها وصافحت راكان الذي شعر وهو يصافحها وكأنما يمسك بقطعة مخمل مصنوعة من قماش الحرير الناعم لطراوتها ورقتها!

- كم أنا سعيد أن أحضر حفل خطوبتكما! أتمنى لكما السعادة من أعماق قلبي! قال راكان ذلك بحرارة وحماس وعيناه تطوفان فوق وجه الفتاة وشعرها!

وهنا نظر الخطيب إلى راكان نظرة فاحصة، أحس الفتى وكأنما هو ذئب يريد افتراسه.

أزعجت نظرات الخطيب الوقحة راكان، فقد كانت نظرات استعلائية فاحصة حتى تصور راكان نفسه عارياً أمامه!

- هل إبراهيم صديقك من الوطن؟! سأل الخطيب باستهانة وازدراء؛ وخيل لراكان وكأنما يقول له، وهل أنت مجنون دين كصديقك؟!

- لا، لا؛ عرفته فقط هنا. هذه هي المرة الثانية التي أقابله بها! صاح راكان بصوت عال وكأنما ينفي تهمة باطلة وجهت إليه!

قدم إبراهيم الشباب المحيطين بالخطيبين إلى راكان بعد أن قدمه إليهم فقال:

- عدنان شقير مهندس زراعي من الأردن؛ ماجد قسوس تحاليل طبية من الأردن، فريد معدي إدارة أعمال من فلسطين، سالم محيسن محاسبة من سوريا، مصطفى صادق مهندس معماري من لبنان. وآخرون كثيرون كثيرون لم يحفظ راكان أسماءهم، وإن كان لاحظ شيئاً مهماً وهو أن أحداً من الذين قدمهم له صديقه يدرس إنسانيات! كلهم كانوا يدرسون مواضيع لها علاقة بالتجارة أو بالعلوم!

- ماذا تنوي أن تدرس؟ ! سألت الخطيبة راكان.

- أدب إنجليزي كموضوع رئيسي، فلسفة كموضوع فرعي!

- عظيم! هائل! صاحت الفتاة بحماس وبصوت عال وبطريقة عفوية وقد أضاء وجهها مما زادها جمالاً، ومما جلب انتباه جميع الحضور! ثم تابعت:

- أنت أول شاب عربي أقابله يريد أن يدرس إنسانيات! كلهم يريدون أن يدرسوا "بزنس"، والقليلون منهم يدرسون العلوم!

- لعلي المجنون الوحيد بين هذه الجموع المستنيرة! قال راكان مازحاً وبسمة كبيرة تغطي شفتيه.

- لا، حاشا لله! أنا لا أعني ذلك! إن الذي أريد أن أقوله، هو أنك أول شاب عربي يريد أن يدرس موضوعاً يتعامل مع المشاعر والعواطف والأحاسيس! مع الجماليات! قالت بصدق وحماس!

- صدقيني إنني فهمت ما عنيت؛ ولكنني أردت مداعبتك!

- شكراً لك! لقد خشيت أن تكون قد أسأت فهمي! قالت بارتياح!

نظر راكان حوله فرأى أن الشباب ملتفين حول إبراهيم والخطيب، وهم يتكلمون بالعربية عن موضوع يشغل بال الجميع، وهو قضية الوحدة العربية ومشاكل الوطن العربي بأسره، وخصوصاً قضية الدكتاتورية والاستبداد؛ وصديقاتهم يتابعن النقاش المحتدم بينهم، دون أن يعلمن عن ماذا يتكلمون!

انتهز راكان هذه الفرصة فقال وقد خفض صوته قليلاً ربما حتى لا يسمعه الحاضرون:

- إن الجميلات من أمثالك، لا يمكن أن يخرج من أفواههن كلامٌ غير موزون!

- شكراً جزيلاً! قالت الفتاة وقد احمرّت وجنتاها خجلاً وألقت برأسها إلى الأرض!

- ماذا يقول والداك وكل أقاربك عندما تعود إلى الوطن ومعك زوجة مسيحية وأولاد معمدون؟! أقنعها بأن تعتنق الإسلام وأحضرها إلى المسجد ونحن نقوم بإجراء اللازم لإشهار إسلامها! سمع راكان صديقه إبراهيم يقول للخطيب!

- هل تصدقين إن قلت لك، بأنني فكرتك عربية ومن العراق بالذات، عندما أقبلت نحونا؟! قال راكان للعروس !

- ولماذا من العراق ولست من الأردن مثلاً؟! سألت وقد اتسعت حدقتا عينيها وعلت الدهشة وجهها!

- لأن النساء العراقيات، من دون نساء العالم العربي كله، يتمتعن بجمال العيون، ليس له مثيل عند بقية نساء البلدان العربية الأخرى؛ وجمال عينيك لم أر مثيلاً له في كل حياتي! صدقيني عندما اقتربتِ مني ونظرت في عينيك تصورت نفسي وكأنما أنظر في بركة صغيرة رقراقة مملوءة بالعسل المصفى، وفكرت أن ألقي بنفسي وأعب من فيض العسل المصفى! قال راكان بحماس وصدق!

- شكراً! شكراً! شكراً! ما أجمل كلامك! أنا لم أسمع ولم أقرأ مثل هذا الكلام الجميل! لا شك أنك شاعر! قالت الفتاة وقد اشتعل خداها احمراراً وألقت برأسها إلى الأرض!

- أنا لم أقل ذلك لأخجلك! إنها الحقيقة! صدقيني! قال راكان وهو يعانقها بخياله!

- شكراً لك! شكراً! إنك شاب لطيف ومهذب! أنا من إسبانيا من بلد اسمها اشبيلية. ولدت هنا في لوس انجلوس، ولكن والديّ قدما إلى أمريكا قبل حوالي ثلاثين عاماً! إنني ومنذ صغري وأنا أقول لنفسي لا بد وأن أتزوج من عربي؛ وها أنا أفعل!

- أتمنى لك حياة سعيدة، وبالرفاء والبنين! لا بد وأن فيك دماً عربياً! قال الشاب بفرح!

- أظن ذلك! قالت وهي تهز رأسها. ثم أضافت:

- سنتزوج بعد عامين من الآن، إذ إن فاروقاً سيتخرج بعد عام ويشتغل لمدة عام آخر ثم نمضي شهر العسل في إسبانيا ونذهب بعدها إلى الأردن لنعيش به!

- إذا كانت تحبك حقاً، فإنها ستعتنق الدين الإسلامي دون تردد! سمع راكان إبراهيم يقول للخطيب!

- سأسألها مرة أخرى، وآمل أن تقبل هذه المرة ! سمع راكان الخطيب يجيب.

- قل لها إنك لن تستطيع أن تتزوجها إذا لم تسلم!

ابتسم راكان وهز رأسه، ولا يدري لماذا تذكر في تلك اللحظة بيتاً من الشعر قيل في مثل هذه المناسبة:

ما زاد حنون في الإسلام خردلة   ولا النصارى لهم شغل بحنونِ!

- لماذا تبتسم؟ وماذا يقول إبراهيم لفاروق! سألت الفتاة منزعجة!

- إنه يقول إن عروسته ذات تربية وأخلاق عالية، فأحبها وارعها!

- لا أظن أنه يقول ذلك! إنه دائماً يريدني أن أعتنق الدين الإسلامي، ودائماً يطلب إلى فاروق أن يصر على أن أفعل!

- وماذا تقولين له عندما يطلب إليك؟!

- أقول له بأنني عندما أقتنع، فإنني سأفعل، دون طلب أحد مني!

- هل أنتِ سعيدة بديانتك!

- جداً! ولكن فاروقاً ليس سعيداً! يقول بأن أهله لن يرضوا عنه، ولن يباركوا زواجنا! وأنه سيربك الأولاد بسبب اختلاف معتقدات والديهم الدينية!

- هذا صحيح! هذا صحيح! على كل حال أمامك متسع من الوقت لتقرري! قال راكان بصدق وإيمان؛ ثم أضاف:

- لو أحببت فتاة ونويت الزواج منها، فإنني لن أفعل إن طلبت مني أن أغير ديانتي من أجلها، لأن معتقدي هو جزء من شخصيتي؛ من كياني! قال الشاب بحماس مبالغ به!

وهنا انطلقت الموسيقى تصدح من جديد، فخطف كل شاب يد فتاته ودخل بها حلبة الرقص، وكان إبراهيم أول الداخلين!

بقي راكان واقفاً في مكانه، يراقب الراقصين وهم يضمون فتياتهم إلى صدورهم، فتذكر نيكول، ثم نظر إلى ساعته فوجد أنها تقترب من منتصف الليل! سأل شاباً كان واقفاً مع صاحبته عن مكان هاتف عمومي، فتوجه إليه!

- منزل السيدة جوليت هنا! أجابت المرأة على الخط الآخر!

لم يكن الصوت لأحد من المرأتين، لا نيكول ولا جدتها!

- يبدو أنني غلطت في طلب الرقم؛ أرجو المعذرة! قال راكان وهم أن يغلق سماعة الهاتف!

- ألست أنت راكان؟ ! أنا كارول! ألا تتذكرني! صديقة نيكول.

- طبعاً! طبعاً! كيف حالك يا آنسة هدسون؟! إنني لم أرك منذ مدة طويلة!

- أنا دائماً متواجدة! قالت وهي تضحك.

- لقد حدثتني نيكول عنك كثيراً بعد أن عرفتني عليك! يبدو أنكِ أنتِ صديقتها الوحيدة والحميمة! قال راكان بفرح!

- كان هذا قبل أن تتعرف عليك؛ أما الآن فأنت كل تفكيرها وحبها! قالت الفتاة وهي تواصل الضحك!

- وما الذي جعلك تقولين هذا؟!

- ما رأيته الليلة! لقد كانت قلقة جداً عليك حتى خفت أن يصيبها انهيار!

فرح راكان جداً لما سمع ولكنه تظاهر بعدم الاهتمام فسأل:

- وأين هي الآن؟ ! ولماذا لم تجب على الهاتف؟!

- لأنها غضبى منك، فقد وعدتها أن تهاتفها في الساعة التاسعة!

- الساعة التاسعة، لم نتناول، إبراهيم وأنا، فطورنا بعد! قال راكان بغيظ!

- ماذا تقول؟!

- لا شيء! إنك لن تفهمي!

- عندما تجاوزت الساعة التاسعة وصارت العاشرة ولم تهاتفها، فكرت أن لا بد وأن يكون قد حدث لك مكروه!

- في الساعة العاشرة لم نكن قد صلينا المغرب جماعة، بعد! قال راكان بحقد أشد!

- ماذا تقول؟!

- هل لك أن تطلبي إليها أن تكلمني؟!

- سأحاول؟ لقد تركتنا وذهبت إلى غرفة نومها قبل حوالي الساعة؛ لقد قالت لجدتها ولي، لابد وأنك قابلت إحدى الفتيات من وطنك، وأنك تمضي معها وقتاً طيباً! ولكننا أكدنا لها بأنها مخطئة، وأنك لست من ذلك النوع من الشباب!

- بارك الله فيكما! إنها الحقيقة يا آنسه كارول! صدقيني!

- هكذا أكدت لها جدتها!

- هل تعني أنها ذهبت إلى غرفتها لتنام؟!

- لا، لا! لقد ذهبت غاضبة، وأعلمتنا أن لا نزعجها إن حدث وهاتفت!

- هل السيدة جوليت في فراشها؟!

- لا، لقد كنت أجلس وإياها في غرفة الجلوس، نتحدث عنكما أنت ونيكول، وفكرنا أن لا نجيب أول الأمر على الهاتف علها هي تفعل، لأننا عرفنا أن المكالمة لا بد وأن تكون منك؛ ولكنها لم تفعل! طلبت إلي السيدة جوليت أن أجيب أنا!

- شكراً لكما! ولكن هل لك أن تعلميها بأنني على الهاتف وأنني أود مكالمتها!

- انتظر لحظة من فضلك!

مضت أكثر من دقيقة خالها العاشق أكثر من ساعة، وأخيراً سمع صوتاً ذا نغمة باردة، لم يستطيع أن يتبين صاحبته لولا أنه يعرف أنه من المفروض أن يكون صوت نيكول!

- هالو! قالت.

- مرحباً يا نيكول! أنا راكان! كيف حالك؟ ! هل أيقظتك من نومك؟!

- هل تريد شيئاً؟! قالتها بلهجة رجل الأعمال الذي يريد أن يبحث في عقد صفقة تجارية!

شعر الفتى بخيبة شديدة، وفكر أن يعتذر لها عن إزعاجه لها في هذه الساعة المتأخرة من الليل، ومن ثم يغلق السماعة! لكنه سمع صوته يخرج من فمه دون إرادة منه، وكأنما يسمع صوت إنسان آخر يقول بلهجة حماس وصدق:

- نعم! إنني أريد أن أقول لك بأنني أحبك كثيراً، وأنني افتقدتك جداً جداً!

- هل أنت جاد فيما تقول؟! قالتها بلهجة بين الجد والتهكم!

- نعم يا نيكول! صدقيني! لقد افتقدتك كثيراً، وأشعر بوحدة قاتلة وأنا بعيد عنك! قالها بصدق وقد شعر بأنه يتمنى لو يستطيع أن يطير إليها ويعانقها!

- ألم تؤنس بنات قومك وحدتك؟! سألت وقد فارقت لهجتها بعضاً من برودها؛ وضغطت على كلمة "بنات"!

- لا يوجد واحدة في العالم من تؤنس وحدتي سواك! إن الفتاة الوحيدة التي أحب وآمل أن أقضي كل عمري إلى جانبها، منذ أن وقعت عليها عيناي، هو أنتِ يا نيكول! قالها الشاب من أعماق قلبه وقد بدأت عواطفه بالثوران!

- ولمَ لمْ تهاتفني مبكراً؟! لقد أعلمتني بأنك ستفعل ذلك في الساعة التاسعة على أكثر تقدير!

- إننا لم نكن قد توضأنا بعد في تلك الساعة!

- ماذا تقول؟!

- سأشرح لك ذلك عندما أقابلك! لقد شعرت بوحدة قاتلة حتى إنني ندمت على الحضور! لقد افتقدتك بجنون! صدقيني أنني أتمنى لو أستطيع أن أدخل خلال أسلاك الهاتف لأصل إليك!

- وماذا ستفعل إن وصلت إلي؟ ! سألت وهي تتضاحك!

- سأعصرك بين ساعدي وأشرب من خمر شفتيك!

سمع الشاب كركرة ضحكاتها فتشجع واسترسل:

- كم أنا محظوظ أن أحبك يا نيكول!

- إنني سعيدة جداً أن أسمع ذلك! قالتها بصوت حنون وعاطفي أحسه الشاب خلال أسلاك الهاتف!

- كم تمنيت لو أنني بقيت معك ورفضت دعوة صديقي!

- هل تريدني وكارول أن نأتي لإحضارك؟! سألت بحماس وبفرحة تشبه فرحة طفل صغير أعطى ما طلب!

أفاق راكان من سرحاته مذعوراً، ولم يدر بما يجيب، وأخيراً فتح الله عليه فقال متعثراً في كلامه:

- لا؛ لا أريد أن أزعجك في هذه الساعة المتأخرة من الليل! ثم إنني لا أدري أين أنا ولا أستطيع أن أرشدك إلى مكاني!

- هل تريد أن تسأل صديقك عن العنوان، ونحن سنجد طريقنا!

- سيغضب صديقي إن غادرت وتركته، وإن كنت أتمنى لو أستطيع المغادرة! إن السأم يكاد يقتلني، ولولا طيفك المرافق لي لطققت قهراً!

ضحكت الفتاة بجذل وقالت:

- شكراً! شكراً! أنا دائماً معك، وسأبقى إلى آخر العمر! لقد كنا نستمع ثلاثتنا إلى الموسيقى ونتحدث عنك!

- ما أسعدني أن أكون مدار حديثكن!

- جدتي تحبك كثيراً!

- أنا أريد حب الحفيدة أيضاً!

ضحكت ولم تعلق!

وهنا سمع راكان صوت الشاب الذي كان يضع كاسيتات الموسيقى على المسجلة يعلن من خلف المايكروفون أن هذه ستكون الرقصة الأخيرة، شاكراً الحضور متمنياً السعادة للخطيبين!

اعتذر راكان من نيكول، وتمنى كل واحد للآخر ليلة سعيدة، ولكنه سمع صوت صاحبته وهي تقبل سماعة الهاتف وتقول:

- عد إلي سريعاً ولا تتأخر، فقد افتقدتك كثيراً!

أغلق راكان سماعة الهاتف وهم بالمغادرة، ولكن الهاتف رن فظن أنها نيكول تريد أن تقول له شيئاً نسيت قوله، ولشدة استغرابه كانت عاملة شركة الهواتف تطلب إليه أن يضع أيضاً بعض النقود!

عاد راكان إلى حلبة الرقص والفرحة تملأ كل ذرة في نفسه، وهو يكاد يرقص في سره، بل ويحلق في السماوات العلى لسعادته!

رأى أن معظم الحضور قد تفرقوا وشكلوا جماعات في مختلف أنحاء القاعة يتسامرون ويتحاورون، وأن الذين مازالوا يرقصون لا يتجاوز عددهم الخمسة أزواج، وأنهم كانوا يرقصون بتراخ وكسل والإرهاق بادٍ على وجوههم.

تصفح وجوه الحاضرين يبحث عن صديقه إبراهيم فلم يعثر عليه بادئ الأمر، وأخيراً وجده مع زميلته في إحدى الزوايا يتحدثون ويضحكونَ!

رأى الفتى الخطيبة تنظر إليه وتبتسم، ثم رفعت يدها وكأنما تقول له تفضل فنحن هنا!

- لقد بحثنا عنك بين جميع المدعوين وسألنا عنك صديقك إبراهيم، إذ ظننا أنك قد انصرفت فأكد لنا بأنك لا بد وأن تكون في مكان ما، هنا في القاعة! قالت الآنسة قونزالص وهما يتصافحان ويهنئها مرة أخرى بالخطوبة وبالسعادة الدائمة!

- آسف لإزعاجكم! لقد كنت أهاتف صديقة لي! قال راكان بفخر البدوي الذي له أنثى تنتظر عودته!

- ولم لم تحضرها معك؟! كنا سنفرح بوجودها معنا! قالت الآنسة قونزالص بحماس!

- عندها التزامات فلم تستطع التنصل منها! قال الفتى غير صادق.

- أحضرها معك عندما تحضر إلى اجتماعاتنا وحفلاتنا! دعها تنضم إلينا، ولا شك أنها ستمضي وقتاً ممتعاً، وسنسعد نحن أيضاً بحضورها!

- أشكرك من أعماق قلبي! إنك لطيفة وكريمة! سأفعل سأفعل! إن شاء الله! قال راكان بسعادة.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بقليل عندما غادر الصديقان قاعة الحفل. لقد شعر راكان برطوبة هواء الصباح المنعش والذي أيقظ في نفسه شتى الانفعالات والمشاعر.

- كيف وجدت الحفلة؟ ! سأل إبراهيم حالما ركب صديقه بجانبه.

- لا بأس بها! شكراً لدعوتي! لقد استمتعت كثيراً!

- ولم لم ترقص؟! لقد كانت هناك فتاة لاشك أنها كانت تتمنى لو أنك تقدمت وطلبت منها أن ترقص معك!

- قلت لك لا أعرف الرقص! قال راكان بحدة.

- الرقص سهل جداً! الإنسان لا يحتاج إلى تعلم! فقط يتبع الموسيقى!

- وإذا كان هذا الإنسان لم يشاهد الرقص إلا على شاشة السينما؟! قال راكان وهو يغلي غضباً على إبراهيم وعلى مجتمعه المتزمت الذي نشأ به! ثم أضاف:

- وهل تعتقد أن عندي الجرأة لأن أتقدم من فتاة، أراها لأول مرة في حياتي، وأطلب منها أن تعلمني الرقص! وصرّ راكان على أسنانه قهراً وأضاف:

- لو أن فتاة تقدمت مني وطلبت إلي أن أرقص معها لهربت إلى خارج القاعة!

- اطمئن! الإتكيت لا يسمح للفتاة أن تطلب من الرجل أن يرقص معها؛ هذا شأن الرجل!

- شكراً لله على هذا الإتكيت! صدقني إنني كنت أخشى أن تأتي الفتاة التي كانت تجلس مع صاحبتك وتطلب مني أن أرقص معها! كنت متوتر جداً!

ضحك إبراهيم بجذل وقال:

- يبدو أنك مغرق في جهل الإتكيت! لقد كنت مثلك أول ما أتيت إلى أمريكا. لقد تربيت تربية دينية صارمة، وعشت في مجتمع متزمت، حتى بنات أعمامي وخالاتي كن يتحجبن عني! لقد أمضيت أكثر من عام أقاسي وأتعذب من ماضيّ! أما الآن فإنني والحمد لله على ما يرام!

- أنت على ما يرام؟! أنت أجرأ إنسان رأيته في حياتي. إنني لم أر راقصاً بين الحضور ولا حتى على شاشة السينما من هو أمهر منك في الرقص! إنك مذهل حقاً! قال راكان بحماس يتأجج في عيونه!

- شكراً لك يا صديقي! شكراً! آمل أن تكون مثلي يوماً! قال إبراهيم وهو يبتسم ثم أضاف:

- مشكلتي الوحيدة أنني مازلت خجولاً ورقصي ضعيف!

وهنا، وبغير إرادة منه، انفجر راكان يضحك ويقهقه بصوت عال!

- يا لرحمة السماء! أنت خجول؟! ماذا ستفعل بالفتاة إذا لم تكن خجولاً! تنام معها أمام الناس؟!

- أرجوك؛ لا تتكلم عن الجنس! هل نسيت أننا في شهر رمضان الفضيل؟! قال إبراهيم بلهجة عتاب!

- المعذرة يا صديقي! لقد نسيت! فليسامحني الرب! قال راكان بلهجة تهكم فاضح، ممزوجة بالثورة والغضب معاً؛ ثم أضاف:

- إن تصرفاتك وأقوالك يا أخي إبراهيم تذكرني بحادثة روتها لي جدتي، رحمها الله، وأنا صغير!

- جداتنا كن حكيمات جداً، وعندهن قصص ذات حكم ومواعظ تفيدنا كثيراً، نحن أحفادهن! قال إبراهيم وقد بدت على وجهه علامات الاهتمام المبالغ به.

- توقف أعرابي وحماره قبل الغروب أثناء سفره في بيت من إحدى بيوت القرى التي مرّ بها، متوقعاً ، كما هي العادة، أن يقدم له المضيف ولحماره وجبة العشاء، وفراشاً يقضي به ليلته قبل أن يتابع سفره صباح اليوم التالي. لم يخيب المضيف أمل ضيفه، فقد رحب به ترحيباً حارّاً، وطلب إلى زوجته أن تقدم له العشاء، ولا تنتظر عودة من يعملون عنده، وكان عددهم خمسة. وضعت المرأة كل ما طبخته عشاء للعاملين الخمسة، ولزوجها وولديها ولنفسها، أمام الضيف وطلبت إليه أن يأخذ حاجته منه، ولاستغراب المرأة بل لذهولها أتى الضيف على كل ما وُضع أمامه، وصار يتطلع حوله وكأنما يسأل هل من مزيد. وجدت المرأة نفسها مضطرة لأن تطبخ لتسعة أشخاص من جديد. وفي صباح اليوم التالي، والضيف يهم بالمغادرة، قال لمضيفه والحزن بادٍ على وجهه بأنه أتى من قرية تبعد مسافة نصف نهار راكباً حماره، وأنه ذاهب إلى قرية تحتاج إلى نفس المدة ليصلها، وأن جماعة ذكروا له وجود طبيب ماهر يداوي لفتح شهية الذين يأكلون قليلاً، ويحتاجون دواءً يفتح لهم شهيتهم. وهنا جثا المضيف وزوجته عند قدمي الضيف ورجواه أن لا يمر بقريتهم في طريق عودته، وبعد أن يكون قد استرد عافيته وفُتحت شهيته للأكل!

ضحك إبراهيم حتى بدت نواجذه، وقال:

- لقد فهمت ما عنيت!

- يظهر لي أنك الشخص الوحيد الذي لا يتخذ له صديقة دائمة!

- الصديقة الدائمة التزام ومسؤولية عليها واجبات كثيرة؛ وهذه الواجبات تتطلب صرف نقود كثيرة! إنني أشتغل بعناء وقسوة، وأحصل على نقودي بعرق جبيني! إنه لمن غير المعقول أن أصرفها على فتيات من أجل متعه تافهة! إنني لا أحب أن تستغفلني أي فتاة لأصرف عليها نقودي!

- إذن، ما فائدة النقود إذا لم تصرفها على الجنس الآخر، خصوصاً إذا كان هذا الآخر هو يحبنا ونحبه؟

- إنني أدعو بعضهن لتناول العشاء في بيتي، وأنا طباخ لا بأس به، وطعامي أجود من كثير من المطاعم!

- ولكن الحياة بدون حب مملة وروتينية ولا طعم لها ولا معنى، ومن المفروض أن نأخذ الفتاة التي نحبها إلى الأماكن التي تسعدها، وهذا طبعا يتطلب صرف نقودٍ!

- إن الفتاة التي ستحبني لأنني آخذها إلى الأماكن التي تتطلب صرف نقودٍ، فإنني لا أريد تلك الفتاة!

وهنا وصلا إلى المنزل، فأطفأ إبراهيم ماتور السيارة وأنوارها وخرج منها مسرعاً وضيفه يلحق به! فقال بعد أن فتح ودخلا وأغلقه خلفهما:

- انتظرني دقيقتين فقط؛ سآخذ حماماً على عجل!

- أرجوك! دلني على فراشي أولاً، ثم اذهب واستحم! إنني أكاد أسقط من شدة النعاس والإعياء أيضاً!

- ماذا؟! تنام قبل أن تصلي؟ أجاب إبراهيم بلهجة إنكار فكأنما سمع شيئاً إدّا!

- إننا نستطيع أن نصلي الصبح، بعد أن ننام ونستيقظ. إنه مسموح في شهر رمضان أن يصلي الإنسان بعد أن يستيقظ من النوم، حتى لو استيقظ وقت الظهر! قال الضيف محاولاً التخلص من أداء هذا الواجب!

ازداد عبوس وجه الصديق وقال بصبر نافد:

- أنا لا أتكلم عن صلاة الصبح؛ أنا أعني صلاة العشاء التي فاتتنا! وأصر على أسنانه وأضاف:

- أنسيت؟!

- إن الوقت الآن متأخر لصلاة العشاء، والذين يصلون صلاة الصبح حاضراً يستطيعون أن يصلوا الصبح الآن! قال راكان وقد أغمض عينيه كلية، وهو يكاد يبكي من شدة القهر والإرهاق!

- لا تزعج نفسك؛ أنا أعرف الدين جيداً! قال ذلك وأدار ظهره متوجهاً نحو دورة المياه، ثم وكأنما تذكر شيئاً فالتفت إلى صديقه وسأل:

- ألا تريد أن تستحم أنت أيضاً؟!

وهنا طار النعاس من عيني راكان، وتيقظّت كل خلجة في كيانه، وفتح عينيه على وسعيهما، وصاح بغضب ممزوج بالقهر:

- ولماذا آخذ دوشاً؟ لقد استحميت قبل ساعات قليلة؟!

- يجب أن تكون نظيفاً قبل أن تصلي! طهارة الجسد مهمة مثل طهارة القلب!

- قد لا يكون قلبي طاهراً؛ ولكن جسدي نظيفٌ، صدقني! وفجأة كأنما تذكر شيئاً فسأل:

- هل حصل لك أثناء الرقص ما يدعوك للاستحمام؟!

لم يجب إبراهيم وإنما تجنب النظر إلى وجه ضيفه.

- ألا تعتقد أنه من الأفضل لك، أن لا تصوم ولا حتى تصلي، من أن تمارس هذا النوع من الارتواء الجنسي؟!

- إن الصلاة والصيام واجبان أمرنا الله بأدائهما؛ وليس للمرأة بهما دخل!

- ألا تعتقد أن ارتواءك جنسياً، وأنت تعانق تلك الفتاة راقصاً، هو كارتوائك كما لو كنت تعانقها في الفراش عاريين؛ وأن هذا مخالف لتعاليم ديننا الحنيف !

- أنا لم أرتوِ جنسياً؛ ثم إنه لا إرادة لي بما حدث وأنا أرقص معها!

- لقد كنت أعتقد، في يوم ما، أن الرقص هو فنٌ راقٍ، وأنه نوع من عبادة الله! لم أكن أعرف أنه نوع من إشباع الغريزة الجنسية!

- دعنا نتوقف عن النقاش، فقد تأخرنا في أداء واجب الصلاة كثيراً! قال المضيف ذلك وهرول باتجاه دورة المياه! أما الضيف فقد جلس ينتظر انتهاء صديقه من إزالة الجنابة عن جسده، حتى يستطيع الاثنان الوقوف أما الخالق نظيفي الجسمين، على الأقل؛ وإن لم يكونا طاهري القلوب!

بعد أن انتهى الصديقان من صلاة العشاء، طلب راكان من صديقه أن يريه فراشه لأنه يكاد يسقط إعياء، وأنه يفتح عينيه بصعوبة؛ ولكن صديقه استمهله لأنه مازال أمامهما واجبٌ يجب تأديته قبل أن يأويا إلى الفراش:

- لا تقل لي أننا يجب أن نصلي الصبح! صاح راكان مذعوراً!

- لا؛ سنصلي الصبح غداً صباحاً، ولكن يجب أن نسخن الأكل لنتسحر!

- ولكنني لست جائعاً! أرجوك! أريد أن أنام! أنا عادة أصوم دون سحور! قال الفتى فزعاً.

- لا يجوز الصيام بدون سحور؛ أعني السحور حلال؛ أم أنك لا تريد أن تصوم؛ وأنك تريد أن تظل على كفرك!

- وهل هذا فرض أيضاً؟!

لم يجب إبراهيم وإنما أسرع في تسخين الطعام؛ وبينما كان الصديقان يتناولان طعام السحور؛ كان راكان يدعو الله في سره أن لا يفكر صديقه بعمل شيء آخر، يجب أن يفعلاه قبل أن يأويا إلى فراشهما؛ كأن يقرأ بعضاً من سور القرآن الكريم، أو بعضاً من تفسير الآيات! لقد استجاب الخالق سبحانه وتعالى إلى دعائه؛ إذ حالما انتهيا من تناول طعام السحور قال إبراهيم:

- الآن نستطيع أن نذهب إلى الفراش؛ وقد أدينا واجبنا كاملاً!

قبل أن يضع راكان نفسه في فراشه ناوله صديقه كأساً من الماء وطلب إليه أن يشربها!

- وهل هذا من واجبات الصوم أيضاً! سأل راكان صديقه، ولكن الصديق لم يجب وإنما بقي ماداً إليه الكأس، فتناولها ورماها في جوفه، وتوجه إلى فراشه دون أن تكون عنده المقدرة ليذهب وينظف أسنانه!

*****

الفصل الحادي عشر

كان إبراهيم قد أعلم صديقه راكان، عندما هاتفه قبل ليلتين، بأن عند الشباب العرب، بالإضافة إلى حفلة الخطوبة مساء السبت، مناسبة ثانية عصر يوم الأحد! والمناسبة الثانية هي مسابقة في جمال الأجسام وعرض العضلات؛ مشترك بها أحد شباب العرب، وتقام على شاطئ مدينة "اللونق بيش" ، في تمام الساعة الخامسة، غير بعيدة عن سكن إبراهيم!

بعد أن صلى الصديقان صلاة الظهر غادر الشابان سكن إبراهيم، وقد أعار المضيف صديقه، إحدى بدلات السباحة!

لقد دار نقاش طويل بين الصديقين عن جواز الشاب المسلم والصائم، بالسير على الشاطئ، وآلاف لابسات بدلات "البكيني" ممددات وملقحات فوق الرمال، ويتبخترن على شاطئ البحر؛ وعدم صحته لأنه لا يجوز، بل وأنه حرام! ولكن المضيف أقنع ضيفه بأنه ليس حراماً قائلاً:

- إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى! المهم القلب! إنك عندما تسير على شاطئ البحر أو في أي مكان عام، وهناك منظر مناف للأخلاق أو الدين، فإنك تستطيع أن تمر دون أن تنظر إليه! فقط أغلق عينيك!

لم يقتنع راكان بالنظرية، وبلعها على مضض، إذ لم يرد أن يمضي يوماً آخر بجدل عقيم مع صديقه؛ جدل يرهق الاثنين دون الوصول إلى نتيجة!

كان الشاطئ يغص بالناس حتى ظن الضيف أن جميع سكان لوس انجلوس والمدن المجاورة ، قد جاؤوا إلى الشاطئ ليلقوا بأنفسهم في مياهه الباردة، وليخففوا من لهيب الحر المشتعل!

ظل الشاب لا يحول عينيه عن مواضع قدميه، ليتجنب النظر إلى الأجساد العارية، وليعمل بنصيحة صديقه من أن كبح رغبات النفس؛ هي البرهان الصادق لإرادة الإنسان والامتحان الصعب لإيمانه!

لقد صمم على أن يصوم ذلك اليوم، وليزرع له "إشكارة"، كما كانت تقول له أمه وهو صغير؛ بأن يصوم أياماً قليلة من شهر رمضان، وليس الشهر كاملاً، بسبب صغر سنه، أو أن يصوم كل يوم إلى الظهر فقط! لذلك كان الفتى لا ينظر إلا إلى الأماكن البعيدة في وسط البحر؛ حتى لا تقع عيناه على الأجساد شبه العارية والمتمددة فوق الرمال!

كان راكان يسير إلى جانب إبراهيم عندما لاحظ بطرف عينيه أن صديقه ينظر إلى فتاتين صغيرتين ترتديان "مايوه" لا يغطي إلا النهدين وما هو راقد بين الفخذين؛ كانت الفتاتان تتحدثان وتتضاحكان ثم تميلان على بعضهما البعض! كان إبراهيم ينظر إلى الفتاتين ويبتسم، وعندما مرّ هو وراكان من أمامهما، أحنى إبراهيم رأسه على الطريقة الشرقية وفرش لهما يديه وكأنما يقول لهما تفضلا! زادت الفتاتان من ضحكهما وتمايلهما على بعض، وصارتا تقولان شيئاً لبعضهما!

هم راكان أن يذكّر صديقه بشهر رمضان الفضيل وأنهما صائمان؛ ويذكّره أيضاً بقوة الإرادة وضبط النفس؛ ولكنه قبل أن يفعل ذلك رأى صديقه يحملق في صدور فتيات ثلاث مقبلات نحوهما! وهنا غير راكان رأيه وعدل عن فكرته، فصار هو الآخر يحملق في جسم كل أنثى جميلة تقابله!

منظرٌ واحد أثار قرف راكان واشمئزازه، فقد رأى امرأة ضخمة الجسم، كأنها بقرة هولندية، طويلة، فخذاها كأنهما جذعا سنديانة هرمة، ونهداها يتدليان فوق صدرها كأنهما شوالان من الأسمنت أو باذنجانتان ضخمتان، لعلها في أواخر الخمسينات من عمرها، ترتدي هي الأخرى "بكيني" صغيرة، لا تغطي لا نهديها ولا مابين فخذيها، مما يثير القرف والاشمئزاز، ويصور عملية الجنس التي ن المفروض أن تكون من جماليات الحياة ومتعها، بأنها غوص في الوحل والقاذورات!

كانت تحمل فوق ذراعها الأيسر منشفة كبيرة تجر قسماً منها فوق الرمال، وكان يسير إلى جانبها رجل نحيف قصير جداً، يصل رأسه إلى كتفيها، تتكئ عليه بدلال وغنج، فتغوص قدماه بالرمل يخرجهما منه بصعوبة!

كانت منصة عرض الأجسام مصنوعة من الخشب، ومن طريقة صفها عرف راكان أنها صنعت حديثاً ومؤقتاً ولهذا الغرض فقط! كما علم أن الذي موّل هذا الحدث، هو بلدية المدينة، وذلك ترفيهاً عن المواطنين ودعاية لجلب الزائرين الذين سينشّطون حركة البيع والشراء!

كان يقف في وسط المنصة رجل متقدم في السن، صغير الجسم، ولكن يبدو أنه متقاعد، ولا شك أنه الحكم، لأنه كان يحمل بين يديه ورقة ينظر إليها تارة، وتارة أخرى ينظر إلى ساعته!

كان على طرف المنصة طاولة صغيرة محاطة بأربعة كراسي يجلس على كل واحد منها رجل، عرف الفتى فيما بعد، أنهم لجنة التحكيم.

كانت الأرض المحاطة بالمنصة واسعة جداً ومزدحمة بالناس من الجنسين، وجميعهم ودون استثناء، يرتدون ملابس السباحة! وكان معظمهم يلفون أيديهم حول خصور صاحباتهم أو حول رقابهن!

كانت الدنيا تكوي الأجساد بلهيبها، على الرغم من نسمات البحر المنعشة، والتي تصل بين الحين والآخر؛ وشعر راكان وكأن لسانه جمرة مشتعلة في حلقه، وأن في حلقه أتوناً مشتعلا؛ وأن به ظمأ يكاد يقتله!

نظر الفتى إلى إبراهيم الواقف أمامه فرآه يحملق في ظهر فتاة عار كانت تقف أمامه وقد لف صاحبها يده حول عنقها وشدها إليه وكأنما يمسك بها مخافة أن تهرب منه! ثم لاحظ أن صديقه بدلاً من أن ينقل طرفه بين المتبارين، كان يسرّح طرفه بين صدور وظهور وسيقان الحسان!

- إنني بحاجه إلى أن أذهب إلى دورة المياه! قال راكان إلى صديقه!

عرف الشاب أن صديقه لم يسمعه لأنه لم يفتح فمه، ولأنه رآه مازال يحملق بمؤخرة الفتيات اللواتي أمامه وبظهورهن!

- إنني مضطر أن أذهب إلى دورة المياه! أعاد راكان الطلب؛ ولكن بصوت أعلى، ولما لم يسمع جواباً من صديقه، مد يده ولكزه في ظهره، وعندها التفت إليه وسأله ماذا يريد، فأعلمه بأنه مضطر لزيارة دورة المياه!

- اذهب بسرعة، لأن وقت المسابقة سيكون بعد أقل من ربع ساعة! قد يكون اسم خليل على رأس قائمة المتسابقين!

- ومن هو خليل هذا؟! سأل راكان باهتمام شديد!

- خليل الكلاس! الشاب المتسابق؛ والذي نحن هنا من أجله! كان البارحة في الحفلة الم تقابله؟! قال إبراهيم محتداً!

- لم يكن عند أحد الوقت ليقدمني إليه! جميعكم كنتم مشغولين بصديقاتكم! قال الشاب بسخرية ممزوجة بالغضب!

- اذهب وعد في الحال! لا تتأخر! قال إبراهيم ذلك وأعاد نظره إلى حيث كان ينظر سابقاً!

اجتاز راكان القسم الرملي ووصل إلى الشارع المرصوف، ودخل أول مكان قابله واشترى أربع تنكات من الشراب المبرد وأدارها في جوفه، فشعر أن معدته قد تعبأت ولكن جوفه مازال عطشاً، فأدرك أنه لا بد من الماء لأنه السائل الوحيد الذي يروي ظمأه، فدخل المكان من جديد واشترى قارورة كبيرة أفرغها في جوفه، وعندها شعر بأنه قد ارتوى وأن ظمأه قد فارقه!

- هل جاء دور...؟ توقف راكان عن الكلام وجمدت الكلمات فوق شفتيه وحملق مذهولاً لا يصدق عينيه! لقد رأى صديقه ملصقاً جسده بجسد فتاة ترتدي "البكيني" وقد طوق يده اليسرى حول خصرها وبيده اليمنى يداعب وجهها وشعرها وعنقها، وهو يهمس بأذنيها فيقول شيئاً، لم يسمعه راكان، والفتاة تضحك وتكركر!

اجتاحت راكان نوازع شتى... غضب... اشمئزاز... قرف... ثم رضا... سرور... لامبالاة... ثم تجاهل الأمر... ونسيه!

عندما أعلنت الساعة الخامسة، لاحظ الفتى أن حركة نشطة دبت بالجمهور وبالمحكمين، وصار الناس يتطلعون إلى المنصة بشوق وحماس وكأنما سيرون شيئاً عجيباً وممتعاً!

وأخيراً تنحنح الرجل الواقف في وسط المنصة، وقال بصوت عال معلناً أن عدد المتسابقين ستة وعشرون متسابقاً؛ ثم نظر إلى الورقة التي بيده ونادى اسماً، صعد إلى المنصة!

صاح الجمهور وأطلق صرخات عالية، ورأى راكان أن الفتاة التي مع إبراهيم صارت تصفق مع الجمهور، وأن إبراهيم قد فك يده من حول خصرها وصار هو الآخر يصفق، عندها لكز راكان صديقه، فقد وجد الفرصة سانحة ليجنب صديقه خجله، فأعلمه بعودته!

بدأ الشاب المتسابق يعرض عضلاته بصور مختلفة، كان أحدها أن رفع يديه فوق جسمه وكأنما هو دجاجه تهم بالطيران، ثم نزل عن المنصة، ونودي على ثان وثالث ورابع وخامس، كلهم يعرضون عضلاتهم بطرق مختلفة والجمهور يصفق ويضحك ويعلق؛ وأخيراً نودي على خليل!

حالما صعد المنصة رفع يده وحيا الجمهور، ناداه إبراهيم ولوح له بيده، وأعلمه بأنه هو هنا والشلة، وتمنى له الفوز، بعد أن رفع إصبعيه عالياً، علامة النصر!

بعد أن انتهى خليل من عرض عضلاته، نزل عن المنصة وتقدم من الشلة الذين صافحوه ورحبوا به، وأعلموه بأن عرضه كان أجمل عرض وأن جسمه الرياضي كان أحلى جسم؛ ثم أكدوا له بأنه لا بد وأن يكون الفائز الأول، ولكنه أعلمهم بأنه يقبل أن يكون الفائز الثاني؛ من بين الفائزين الخمسة!

لم يخاطب الشباب زميلهم باسمه خليل، وإنما صاروا ينادونه بالبطل! قدم إبراهيم البطل إلى راكان وقدم راكان إليه بعد أن أسمعه بأن سيرفع رأس العرب عالياً في أمريكا وفي المحافل الدولية، وأن الحكومة السورية قد تعينه قنصلاً فخرياً لها في لوس انجلوس؛ ثم فكر أن يقدمهما إلى صاحبته الجديدة، ولكن يبدو أنه لم يهتم بمعرفة اسمها عندما بدأ يغازلها وعندما استجابت لغزله، فقد التفت إلى الفتاة وقال:

- اعذريني! لقد نسيت اسمك!

- سارة رودنبيرق! قالت الفتاة وهي تمد يدها وتصافح البطل!

ما كاد إبراهيم ينتهي من تقديم الشلة إلى صديقته، حتى أقبل شاب وسيم ذو شارب جميل، وقبل أن يلقي التحية قال مخاطباً إبراهيم:

- ألا تعتقد يا أبا رشيد، بأن بطلنا خليل سينال الجائزة الأولى؟!

- أو الثانية على الأقل! أجاب إبراهيم بلهجة الواثق!

- سأسكّركم كلكم الليلة على حسابي إن ربحت إحدى الجائزتين! قال البطل مفاخراً وبزهو المنتصر؛ ثم أضاف:

- إنني أعرف مكاناً رائعاً ليس بعيداً من هنا، نستطيع أن نتعشى به ونسكر ونرقص أيضاً حتى الصباح!

- لقد قبلنا دعوتك! ولكن لا تنسى أن عياري أنا، زجاجة شمبانيا كاملة! قال القادم الجديد ذو الشارب الجميل!

لقد علم راكان أن قيمة الجائزة الأولى خمسة عشر ألفا دولارٍ أمريكيٍّ!

وفجأة تسمر البطل في وقفته، فانقطع عن الكلام، وكأنما رصاصة فجّرت دماغه فأردته قتيلاً! لقد نظر راكان حيث ينظر فلاحظ أن عيني إبراهيم قد اتسعتا حتى كادتا تغطيان كل وجهه، بل حتى كادتا تخرجان من محجريهما! أما راكان، فإنه ما كاد يسمع كلمة أسكّركم، حتى نظر إلى الجهة الثانية وغطى وجهه بيديه، إذ لم يستطيع أن يستمر بالنظر إلى وجه إبراهيم الذي بدأ يحمرّ تارة، ويصفرّ تارة أخرى!

مرت لحظات لم ينطق واحد من الشلة بكلمة واحدة، وإن كان الجمهور المحيط بهم يزعق ويصرخ ويصفق ثم، يهلل للشخص الذي صعد المنصة ليعرض عضلاته!

نظر راكان إلى إبراهيم فوجده يصر على أسنانه والشرر يتطاير من عينيه وهو ينقلهما بين البطل وصاحب الشارب الجميل! وأخيراً تكلم إبراهيم وشعر راكان بأن كلماته كانت أقسى من سياط من نار جهنم:

- لقد قلتما لي قبل يومين اثنين، عندما التقينا في رابطة الطلبة العرب، بأنكما تصومان، وأنتم الآن تقولان بأنكما لا تصومان فقط؛ بل تشربان الخمر في شهر رمضان الفضيل! يا ويلكما من عقاب الله وعذابه! وكأنما كلماته قد ألهبت حماسه وأيقظت غيرته على الدين، فأضاف وهو يصر على أسنانه:

- الويل لكما من عذاب جهنم الشديد! قالها وقد حرك رأسه يمنة ويسرة!

- لقد كنت أمزح يا رجل! قال البطل وهو يبلل شفتيه الجافتين بلسانه والصفرة تعلو وجهه، والشعور بالندم يظهر على كل خلجة من خلجات جسمه!

لقد تصوره راكان كطفل مذنب يقف بين يدي والده، غليظ القلب والطباع، وهو يؤنبه تأنيباً شديداً على فعلته الفظيعة!

- إنني لا أعمل شيئاً يغضب وجه الله، لا في شهر رمضان ولا في غيره! إن شهر رمضان هو شهر التوبة والغفران! ثم مسح بظهر يده العرق المتصبب على جبينه وأضاف:

- لقد عنيت أن نفطر ونرقص!

- تعال يا محمود لأقدمك إلى صديقتي! قال إبراهيم إلى القادم الجديد!

- محمود سليمان؛ سارة... سارة... أعذريني، لقد نسيت اسمك الأخير! إن ذاكرتي بطيئة في تعلم أسماء الفتيات! قالها بالإنجليزية!

- ولكنك لست بطيئاً في التقاطهن! قال محمود بالعربية.

ضحك الجميع وحملقت الفتاة بمن حولها تحاول أن تتبين ما قال؛ ولكن نظرة إبراهيم العابسة أسكتت الجميع عن الضحك!

- ماذا قال؟! سألت الفتاة إبراهيم!

- قال إن صديقتك ملكة جمال! أجاب إبراهيم!

- أشكرك جداً! إنك لطيف ومؤدب! قالت ذلك وغمزت له بطرف عينها!

شعر راكان بالاشمئزاز والقرف من هذا المراء والدجل؛ فقد كانت الفتاة تضج بالبشاعة والقبح، كما إن تصرفاتها كانت في منتهى الرخص والابتذال، إذ ذكره منظرها وتصرفاتها بمنظر ساقطات رآهن في أحد الأفلام الإيطالية بالوطن!

- إننا لم نعرف أن لك صديقة! مبروك وتهانينا! قال محمود لإبراهيم!

- لقد تعارفنا اليوم فقط! قالت الفتاة وقد تصورها راكان عنزاً مريضة "مجعومة". وهنا نظر إبراهيم إليها وابتسامة تتطاير من شفتيه، وفرحة غامرة تشع من عينيه، ومد يده اليسرى وطوق بها خصرها وشدها إليه، وباليد اليمنى صار يتحسس شعرها! أما هي فقد أمسكت باليد اليمنى والتي تلاعب شعرها فأنزلتها ووضعتها على صدرها فوق النهدين والملاصق له!

لاحظ راكان والنقاش جار بين المجموعة أن عيونهم ومشاعرهم كانت مشدودة إلى ما يجري فوق منصة المسابقة!

- إن آخر متسابق الآن فوق المنصة! سمع راكان البطل خليل يقول ذلك وكان في قمة التوتر والقلق!

- إن أول متسابق سينادي عليه ليسلمه الجائزة الكبرى هو أنت! قال محمود صاحب الشارب الأشقر للبطل!

- إن شاء الله! الله يسمع منك! سمع راكان البطل يرد عليه!

مضت حوالي خمس دقائق عندما جلجل صوت الرجل الذي كان ينادي على المتسابقين!

- والآن، سيداتي سادتي، سننتظر رأي المحكمين حتى يعلمونا من هم الفائزون! ثم قال شيئاً باللغة العامية لم يفهمه راكان، إذ لا شك أنه قال نكتة لاذعة، لأن الحضور انفجروا يضحكون بصميمية ومن أعماق قلوبهم!

ثم ألقى بنكتة ثانية لاقت صدى لا يقل عن الأولى!

مضت بضع دقائق عندما لاحظ راكان مع الحضور أن لجنة التحكيم قد سلمت ورقة إلى ذلك الرجل، إذ لا شك أنها أسماء الفائزين!

- والآن سيداتي سادتي إليكم النتائج! ثم نادى على اسم الفائز الأول.
تطلع راكان إلى بني قومه فوجدهم عابسين، فعرف أن الفائز الأول لم يكن خليلاً!
صعد المنصة شاب لعله في حدود الثلاثين من عمره، حيا الجمهور بأن شد كفي يده بعضهما ببعض وهزهما بالهواء. ناوله رئيس اللجنة الكأس وشد على يديه وناوله معها مغلفاً لا شك أنه قيمة الجائزة!
- الآن دورك! هيئ نفسك! قال محمود لخليل!
نادى على الفائز الثاني والثالث والرابع والخامس، ولم يكن خليل بينهم!
- واأسفاه! لقد خسرنا السكرة! قالها خليل بغضب ممزوج بالمرارة، ثم استدرك كأنما تذكر:
- لقد خسرنا الفطور والرقص!
- لو كنت صائماً لكنت نلت الجائزة الأولى! إنكم تنسون الله وهو بدوره ينساكم! قال إبراهيم بلهجة غضب وتشفٍ!
- أنا آسف يا سيدي أنك خسرت! هذه حال الدنيا؛ إما ربح وإما خسارة! قالت صاحبة إبراهيم وهي تبتسم.
- إن الفشل يعلمنا لذة الانتصار! آمل يا سيد خليل أن تربح في المرة القادمة! قال راكان بأدب وأسف!
- إنها لجنة متحيزة! لا شك أن الفائزين قد رشوا اللجنة! إنهم قذرون وأوغاد! قال البطل خليل بالعربية؛ ثم بصق على الأرض بكل طاقاته وأضاف بالإنجليزية وقد طأطأ صوته:
- يهود قذرون!
- يا ابن الكلبة! إنكم عرب قذرون ومتوحشون! قالت صاحبة إبراهيم إلى البطل خليل وهي تلوح بقبضتها بالهواء، ثم اقتربت من خليل وبصقت في وجهه وأدارت له ظهرها وانصرفت وهي تردد مسبات وشتائم لم يسمع بها راكان من قبل!
- لماذا غضبت الساقطة؟! سأل البطل خليل محتاراً وهو يمسح وجهه بظهر يده ويبصق بشدة لينظف ذرات البصاق التي هدت فوق شفتيه وربما داخل فمه!
- ألم تعرف بعد! إنها يهودية! قال محمود بفخر وكأنه اكتشف سراً خطيراً لم يستطيع أحد قبله أن يكتشفه!
- ولماذا بحق جهنم تصاحب هذا النوع من القمامة؟ ! سأل البطل خليل إبراهيم وهو يرتج غضباً واحتقاراً!
- إنها هي التي رمت نفسها علي! لقد كانت تقف إلى جانبي وتنظر إلي وتبتسم، فكلمتها فردت علي! هذا كل ما في الأمر!
- ألم تعرف أنها يهودية قذرة؟! إنك لم تترك امرأة رخيصة إلا وتلتف حولها؟! لماذا بحق السماء لا تجد لك فتاة محترمة وتتخلص من هذه القاذورات؟! يا حامي حمى الدين؟! كانت الكلمات تخرج من فمه وكأنها شواظ من نار!
- إن اليهودية لا تنسى يهوديتها ولو كانت زوجة لك! إنهم متعصبون قذرون! قال محمود ببطء، وكأنما يلقي موعظة!
عندما أقبل محمود لاحظ راكان أنه كان يتلفت خلفه ويخاطب فتاة كانت تسير وراءه، وعندما انضم إلى الشلة وقفت الفتاة غير بعيدة عنهم تراقب المجموعة وعيناها لا تتحولان عن النظر إليهم! لاحظ راكان أيضاً أنها كانت تختلف في ملامحها ولباس البحر الذي ترتديه اختلافاً كلياً عن بقية الفتيات اللواتي على الشاطئ، إذ كان مزركشاً كثيراً، ثم إنها كانت تضع وردة حمراء في شعرها! كما لاحظ أنها كانت شاحبة الوجه، حزينة النظرات!
وأخيراً تقدمت الفتاة من الشلة، بعزيمة مترددة وخطى متعثرة، وما كادت تقترب حتى صاح بها محمود بلهجة سوقية رخيصة وبصوت غاضب عال:
- لقد قلت لك أغربي عن وجهي! إنني لا أريد أن أراكِ!
- أرجوك محمود! إنني أحبك، ولا أستطيع أن أعيش بعيدة عنك! إنني سأموت إن تركتني! قالت الفتاة بجرأة فائقة ودون خوف ولا وجل، وبلهجة حزينة مزقت قلب راكان حزناً عليها!
وهنا تقدمت الفتاة من محمود الذي صاح بها غاضباً:

- لقد قلت لك أكثر من ألف مرة اغربي عن وجهي! إنني لا أحبك ولا أريد أن أراكِ! قال ذلك ورفع يده عالياً مهدداً بضربها!

في تلك اللحظة غلا الدم في عروق راكان وفكر أن يتقدم من محمود ويصفعه على وجهه ويبصق في وجهه وليكن ما يكون! لقد شعر أن محموداً نذلٌ من أنذال العرب، ومن أحقر مخلوقات الله!

لم ترعب الفتاة يد محمود المرفوعة لضربها، وإنما حاولت أن تمسك اليد المرفوعة لضربها، لتبوسها!

- هه! هل تريدين أن يحبك بالقوة؟! والله هذا شيء عجيب! قال البطل خليل بكل صلف ووقاحة!

- أرجوك خليل! ابق أنت خارج الموضوع! لقد كنت أفكر أنك أنت الذي سيساعدني، ولكنني وجدتك تساعده علي! قالت الفتاة بجرأة أذهلت راكان!

- قلت لكِ إنني لا أحبك ولن أتزوجك! ألا تفهمين؟! قال محمود بغضب لاهب!

- ولكنني أحبك كثيراً! قالت الفتاة بلهجة إذلال وخشوع؛ ثم أضافت بعد أن مصمصت شفتيها وبلعت ريقها:

- إنك ستحبني، قطعاً ستفعل عندما يرى محمود الصغير النور! صدقني!

- هل هي حامل؟! صاح إبراهيم بالعربية!

- هل أنت صديقه؟! سألت الفتاة إبراهيم.

- نعم! ومن المفروض أن أكون أعز صديق له! قال إبراهيم بفخر!

- إذن قل له أن يتزوجني! أرجوك أن تقنعه! إنني أحبه كثيراً وسأموت إن تركني! سأكرس حياتي لخدمته! أقسم لك! لا أحب أن يتربى ابننا في الملاجئ!

هنا فكر راكان أن ينصرف حتى لا يسمع كلاماً أكثر، لأن الألم وكذلك الغضب والاشمئزاز، قد خنقه حتى كان يتنفس بصعوبة؛ وشعر بأنه على وشك أن يستفرغ!

- ولكنه يقول بأنه لا يحبك؟! قال إبراهيم.

- ولكنه كان مجنوناً بحبي! كان يطاردني من مكان إلى آخر ويقول إنه يحبني ويريد أن يتزوجني؛ ولما أعطيته نفسي وحملت منه تركني!

- ما هي الحكاية؟! سأل إبراهيم محموداً بالعربية.

- لقد قابلتها قبل حوالي ستة شهور على شاطئ سانتا مونيكا، وكان معي خليل، وغازلتها وأعلمتها أنها جميلة وكذبت عليها بأنها استحوذت على قلبي فرفضتني أول الأمر؛ ولكن بعد عدة مقابلات استجابت لغزلي وصدقت أنني أحبها!

- وماذا حدث بعد ذلك؟! تقول إنها حامل، هل ما تحمله هو منك؟ ! سأل إبراهيم.

- عندما قابلتها كان لها أسبوع فقط قادمة من ولاية هوائي، وكانت أول مرة تأتي إلى كاليفورنيا. قالت بأنها أنهت الدراسة الثانوية وجاءت لتلتحق بالجامعة هنا ! جاءت وحيدة وسكنت مع إحدى معارفها! ثم صارت تأتي إلى شقتي ونمضي وقتاً ممتعاً!

- وهل كانت عذراء؟! سأل إبراهيم بحماس!

هز محمود رأسه علامة الموافقة وأضاف بفخر وكأنما استرجع فلسطين والجولان والأندلس !!

- لقد عبأ دمها الفراش! قاتلها الله! لقد كان من الكثرة وكأنما ذبحت عنزاً!

- إذن اطلب إليها أن تسلم وتزوجها! قال إبراهيم بكل بساطة وثقه، وكأنما وجد حلا للمشكلة!

- أنا واثق لو طلبت إليها أن تعبد العجل لفعلت! قال الشاب بغضب ثم أضاف!

- وهل تظنني قلق على الإسلام وأنني لا أنام الليل من أجله؟! أنا لا أريد أن أتزوجها والسلام! لقد كنت أضحك عليها! قالها وطوح يده بالهواء بعصبية!

- ولكنك حطمت قلبها! الم يؤنبك ضميرك؟! سأل راكان.

انفجر محمود وخليل يضحكان، فقال محمود:

- إنك قادم جديد من الوطن، وبعد مدة قصيرة ستنسى هذه الكلمات!

- إنه لا ينساها فقط، بل يتصرف أسوأ مما تصرفت أنت! قال البطل خليل ثم أضاف:

- المرأة الأمريكية لا تعرف الحب! إنها لا قلب لها، وتبدل عشاقها كما تبدل أحذيتها!

غضب راكان لهذا التشبيه الوضيع والتفكير السوقي، فقد تذكر في تلك اللحظة نيكول وحبه الجنوني لها، فقال محتداً:

- المرأة هي هي، أينما كانت؛ إنسانة رقيقة؛ مهما كانت جنسيتها وديانتها! إنها تحب وتكره، لها قلب وعواطف ومشاعر!

- ليس المرأة الأمريكية! إسأل محمودا عنها، فإنه خبير بالنساء! إنني قبل أن أسكن معه كنت مغفلاً ومسكيناً ولا أعرف شيئاً عن النساء!

كل هذه الحوارات كانت تدور بالعربي.

- دعونا من النقاش! يجب أن أوصل راكان إلى بيت كفيلته، ثم أعود لأجهز فطوري! قال إبراهيم ذلك وسار باتجاه موقف السيارات!

- هل أقنعتماه! سألت الصبية بمذلة.

- لقد رفض بشدة! لا أمل! قال إبراهيم!

- أرجوك يا محمود! سأموت إن تركتني!

- هذا عظيم جداً، إذ إنني سأتخلص من ملاحقتك لي! قال ذلك وأتبعها بضحكة، ثم أضاف:

- اذهبي وألقي بنفسك بالبحر وستأكلك الأسماك! قالها محمود بضمير مطمئن، وكأنما حسم القضية ووجد لها حلاً!

- ولماذا لا تحولها إلى خليل؟! سأل إبراهيم.

- لقد رجتني أن أقنع صديقي محموداً، فأعلمتها بأنني سأفعل، ولكن الثمن هو أن تدعني أنام معها أولاً، فغضبت وأهانتني!

وللمرة الثانية، شعر راكان بالغثيان، وتمنى لو أنه يستطيع أن يستفرغ من أعماق وجدانه، هذه الكومات من القذارة والانحطاط الأخلاقي! وعرف الآن لماذا يحتقر العالم العرب ويقول عنهم ما يقولون؛ عندما يرى هذه الكومات من القمامة، تلك الحشرات من أمثال محمود وخليل! فالتفت إلى الفتاة وقال لها بصوت العاجز الضعيف:

- أعتقد أنه من الخير لك أن تنسي هذا الحب وتبحثي لك عن إنسان ملتزم، يحترم آدميتك ويقدر حبك له! قالها بقرف وقد حدج محموداً بنظرة احتقار لاهبة، وان كان محمود لم يبال بها!

أجابت الفتاه وقد صارت تبكي:

- إنني لا أستطيع أن أنساه! إنني أشعر بأنني أكاد أختنق إذا لم أره... يصيبني شبه جنون! قالت ذلك وانفجرت تبكي من جديد!

لقد تأثر راكان تأثراً عظيماً لجملة الفتاة المعذبة، لأنه جرب ما تتكلم عنه الفتاة، وهو الشعور بالاختناق عندما كان الشوق يهزه إلى زينة، وتمضي عدة أيام وهو يعاني من الاختناق بسبب عدم رؤيتها، قبل أن يلمحها من بعيد!

غادرت المجموعة الشاطئ ورماله، وذهبت إلى الشارع المزفلت، ومرت من أمامهم، فتاة ترتدي البكيني، نحيفة وطويلة القوام! صفّر محمود فابتسمت، ثم تقدم منها خليل وقال وهو يقف إلى جانبها بعد أن طوق خصرها بيده اليمنى وشدها إليه، وكأنما هي صديقته التي يعرفها منذ فترة طويلة، وقال مخاطباً محمود:

- صورنا يا محمود! ثم خاطب الفتاة وهو ينفش صدره كالديك الرومي، ويشير بإبهام يده اليمنى إلى نفسه!

- تصوري مع البطل!

- ماذا تقول؟! حقاً إنك ابن ساقطة! قالت الفتاة وهي تبتعد عنه مرعوبة!

انفجر ثلاثتهم يضحكون؛ أما راكان فقد أذهله هذا التصرف الشائن! حقاً! إنهم مجموعة من السوقة والمعاقين!

ومرّوا بفتاة تسير لوحدها تتبختر في مشيتها، وقف البطل إلى جانبها ومد يده محاولاً أن يطوق عنقها، فدفعته عنها بشدة بعد أن عبست في وجهه! قالت:

- ما مشكلتك؟! هل أنت مجنون أم معاق؟!

- تصوري مع البطل؟! أنا البطل! ألم تريني على المنصة عصر هذا اليوم في مسابقة جمال الأجسام؟!

قالت الفتاة بلهجة كلها احتقار ممزوج بالغضب اللاهب:

- أنت بطل؟! أنت نذل قليل التربية؛ فلتذهب إلى جهنم!

ضحك الثلاثة وسرّ راكان أن الفتاتين أهانتاه ولم تقبلا رفقته!

ورأوا فتاة من بعيد لوحدها، كانت تتأمل بعض شبابيك المحلات، فناداها خليل "يا آنسة! يا آنسة!" ولما التفتت، قال لها:

- هل تريدين صوراً تذكارية مع بطل العضلات؟!

- ماذا تقول؟! سألت محتارة وقد أغمضت عينيها قليلاً!

- هل تريدين أن تتصوري مع بطل العضلات؛ الذي هو أنا؟!

وقبل أن تجيب الفتاة بالرفض أو القبول قال محمود:

- إنك الآن أمام بطل العضلات بدمه ولحمه، ولولا أن لجنة التحكيم كانت متحيّزة لحصل على الجائزة الأولى، ودخل التاريخ من أوسع أبوابه!

- يجب أن تدخلا الجور الامتصاصية! أنتم skunks وجرذان وقليلو التربية! قالت ذلك ورفعت يدها بالهواء تهم بضرب البطل!

- هذه "عقلها زفت وإيدها فرطة ما عندهاش مزح!" قال البطل وهو يهرول مبتعداً عنها!

انفجر الجميع يضحكون وقال إبراهيم:

- يا إلهي! هذه لا تتقبل المزاح! إنها امرأة مسترجلة!

كانوا وهم يسيرون يحملقون بكل فتاة جميلة تقابلهم، إذا كانت لوحدها أو حتى لو معها رفيق! فقد كان كل إنسان على ذلك الشاطئ، ودون استثناء، يرتدي بذلة سباحة!

وفجأة لاحظ راكان أن محموداً يلحق بفتاة تسير غير بعيدة عنهم، فسمعه يقول لها:

- اعذريني يا آنسة! هل تسمحين لي بأن أرافقك؟

- إلى أين؟!

- إلى حيث تذهبين!

- إنني لست ذاهبة إلى أي مكان محدد. أنا أتفرج على الناس والمحلات!

- وهل تذهبين معي؟!

- إلى أين؟!

- لنشرب بعض المرطبات!

- لا مانع! قالت الفتاة وهي تبتسم.

وحالما نطقت ذلك، وضع ذراعه بذراعها وسارا جنباً إلى جنب! ثم التفت إلى خليل وقال له بالعربية:

- هذه هي الطريقة الصحيحة لتصطاد بها فتاة، وليست طريقتك البدائية العقيمة! وبينما كان يسير جنب الفتاة كان يمازحها ويضاحكها!

كانت الفتاة التي من جزيرة هوائي تسير خلفهم وغير بعيدة عنهم، تتعثر بمشيتها وتمسح دموعها، فتمنى راكان لو كان باستطاعته أن يعمل شيئاً يرفه عنها وينسيها حب ذلك الضربان skunk النتن!

ناول محمود تنكة المرطبات إلى صاحبته وأخرى إلى البطل وناول الثالثة إلى راكان الذي اعتذر بأنه صائم، ففتحها هو وصار ثلاثتهم يشربون ويتلذذون ثم يلقون النكات بالعربي وبالإنجليزي!

- وصاحبتك من هوائي؟! سأل راكان محموداً بالعربي!

- فلتشرب من ماء جهنم! قال بقرف واحتقار!

وهنا تقدم راكان وفتح صندوق المرطبات وأخذ واحدة منه ناولها إلى الفتاة التي كانت تقف غير بعيدة منهم، والتي كانت تمسح دموعها بظهر يديها!

- شكراً! شكراً! أنت لطيف وشفوق! أنت تختلف عنهم! قالت من بين دموعها وهي تتناول العلبة من يده!

غادر إبراهيم وراكان الشلة التي كانت ضحكاتهم تصل إلى مسافة بعيدة، بينما كانت الفتاة من جزيرة هوائي، ترقبهم ذليلة بعيون دامعة ونفس كسيرة!

رفع راكان يده وحياها وهو يغادر مع صديقه الذي سيعيده إلى بيته، ورفعت هي يدها وردت التحية، ولكن بيد المخذول الضائع!

إنه غني عن القول أن نقول بأن قلب راكان قد تمزق حزناً على تلك المسكينة، وشعر بحنق شديد على أولاد وطنه الذين يعيشون حياة الاستهتار واللامسؤولية وتساءل: "هل هؤلاء الشباب هم الذين سيجمّلون صورتنا البشعة في الغرب، والذين سيكونون درع الوطن الحامي؟!"

عندما سأل راكان إبراهيم عن مصير الطفل الذي في أحشاء تلك الفتاة أجابه، بأن أمام الأم عدة خيارات وهي: إما أن تسقطه، أو أن تعطيه إلى أحد الذين يتمنون أن يتبنوا أطفالاً، وهم كثرة، أو أن تسلمه إلى أحد الملاجئ، وإن هناك إمكانية أخرى وهو أنه ربما يحب أحدهم تلك الفتاة ويتزوجها، فيعتبر ذلك المولود ابناً له!

طلب الفتى من الخالق، أن ييسر لها من هو خيرٌ من ذلك النذل، فيحبها ويتزوجها ويرعاها هي وطفلها!

*****

طلب راكان إلى صديقه إبراهيم، أن يوصله إلى بيت السيدة جوليت بدلاً من بيت كفيلته، وأعلمه بأنه مدعو هناك، وتمنى لو أنه يعرف أصدقاءه جيداً لكان أصر عليه أن يفطرا معاً؛ ولكن إبراهيم اعتذر بأنه لا يحب أن يفطر هنا في أمريكا في شهر رمضان خارج بيته، وشكر راكان على فكرته!

وقفت السيارة أمام بيت السيدة جوليت، وقبل أن يطفئ إبراهيم ماتور السيارة، قفز الشاب منها وأغلق الباب وهرول مسرعاً باتجاه البيت دون أن يشكر صديقه أو يقول له كلمة! لقد كان كل تفكيره مركزاً على لقاء نيكول؛ وما كاد يخطو عدة خطوات حتى ارتد خجلاً، فقد تذكر تصرفه اللاحضاري، فقال لصديقه:

- أعذرني يا صديقي! لقد كنت سارح العقل أفكر بمأساة الفتاة من ولاية هوائي وبمصير ذلك الطفل الذي لا ذنب له! إنني أشكرك من أعماق قلبي على استضافتك لي، فقد أمضيت وقتاً ممتعاً لن أنساه! مع السلامة؛ وإلى اللقاء!

قال الفتى ذلك، وهرول نحو الباب وكأنما يطير على أجنحة الهواء!

كانت تجتاحه موجة من الشوق العارم المستبد لرؤية نيكول، وكأنما قلبه يطير ويسبقه لعناقها! كان كالمتدين الواله للقاء من يحب، إذ كلما قربت المسافة، كلما ازداد شوقاً وحنيناً!

دفع الباب الخلفي والذي يعرف أنه لا يغلق إلا وقت إيواء الجدة وحفيدتها إلى الفراش، ودخل على عجل يبحث بعينيه عن ضالته، وقبالته على كنبتين متجاورتين رأى الجدة والحفيدة تحملقان وتتساءلان عن القادم الذي دخل ولم يقرع الباب، والذي لا بد أن يكون من المقربين جداً إلى المرأتين!

- جونزي! إنه راكان! صاحت الفتاة كطفلة صغيرة رأت أمها بعد غيبة طويلة وقد تجمد الكتاب بين يديها!

ألقت بكتابها وقفزت من على مقعدها تجري نحو فتاها الذي فعل هو مثلها؛ وألقت بنفسها إلى صدره فضمها بين يديه، وكأنما يحاول أن تمتزج روحاهما وجسماهما؛ حتى يصبحا جسماً واحداً لا ينفصلان بعد اليوم؛ وانهال عليها عناقاً وتقبيلاً، يقبلها في كل مكان تقع عليه شفتاه.

لقد قبلها بشوق ووله على شفتيها وعينيها وخديها وعنقها وأذنيها وأنفها، ثم دس أنفه بشعرها يستنشق عطره؛ وكانت الفتاة بدورها تستجيب لجميع ضماته وقبلاته بشوق وعاطفة لا يقلان عن شوقه وعاطفته!

فجأة توقف العاشق الولهان عما يفعل، وكأنما تجمد جسمه وجميع أطرافه، إذ تنبه إلى أن ما يقوم به هو نوع ما، عمل مستهجن، بالنسبة لما تربى عليه، ويجب أن لا يكون أمام الجدة الجالسة غير بعيده عنهما، وشعر بخجل شديد من نفسه ومن الجدة التي لا شك أن ما كان يقوم به الشاب نحو حفيدتها قد أسعدها وفي نفس الوقت ربما قد أثار استغرابها!

نظر الشاب إلى الجدة فالتقت عيونهما، فغضا الاثنين طرفيهما وقد احمرت وجنتا كل منهما، فنهضت العجوز من مقعدها وهي تقول:

- أعذراني يا أعزائي؛ سأدخل المطبخ لأجهز بعض الشاي!

ما كادت الجدة تختفي من غرفة الجلوس، حتى ضمّ الفتى الصبية من جديد إلى صدره، وحتى كاد يحطم ضلوعها، إذ انهال عليها عناقاً وتقبيلاً أكثر حماساً وأشد شوقاً من السابق؛ حتى شعر كل واحد من العاشقين بأنه ذاب في الآخر وتلاشى به!

لم يكن راكان يقبل نيكول ويعانقها، لقد كان وكأنما يأكلها!

- لم أكن أعرف أنني أحبكَ كل هذا الحب! لقد ظننت أنني لن أراكَ! لن أدَعَك تذهب بدوني بعد اليوم! قالت البنية وهي مغمضة العينين وتستجيب لقبلات الفتى!

- لقد خلت بأنه صار لي عام كامل بعيداً عنكِ! لن أذهب بعد اليوم بدونكِ! إنك أنتِ التعويذة التي تحرسني من الأذى! قال الشاب وهو يمسك بذقنها، ينظر في عينيها وكأنما ليرى حبه وسعادته!

- إنك أنت الذي أيقظ روحي وأضاء قلبي وفتح عيني على جمال الحياة! قالت وهي تمر بيدها فوق خده ذهاباً وإياباً وتنظر في عينيه كالحالمة وكأنما تتحدث عن شيء!

وهنا انفجر الشاب ضاحكاً بعد أن توقف عن عناقها، وقال:

- اعذريني! لقد عدت فوجدتك قد أصبحت شاعرة!

- إنكَ أنتَ سراجي الذي يضيء طريقي في الليالي الحالكة! قالت الفتاة بحماس وجدية حيرت راكان، فقد ظن أن الفتاة أصابها مس من الجنون! إنها لم تأبه لضحكته ولا لما قال، إذ لعلها لم تسمعه ،إذ استرسلت في كلامها كالمنومة:

- إنكَ أنتَ الذي حببت لي الحياة، وزرعت في قلبي الأمل! لولا حبك لبقيت ضالة ابحث عن نفسي وأفتش عن كياني في دروب الحياة المظلمة! ولولا حبك لبقيت متدثرة في أكفاني أنتظر الجبّان ليدفنني! قالت الفتاة بصوت حالم، وكأنما تلقي قصيدة!

ارتعب راكان حقاً، وابتعد عنها مذعوراً، وظن أنه لا بد وأن يكون قد أصاب البنية لوثة في عقلها! لقد خرج كلامها عن ما يحدث بين العاشقين! لقد تذكر قول الجدة بأن حفيدتها عاطفية لدرجة غير معقولة ولا مقبولة، وإنها تخشى عليها أن أحبت وفشلت في حبها، فإنها ستكون فيها نهايتها لا محالة! ثم استرسلت:

- إن حبي وقلبي وعقلي وعواطفي وكياني، كلها ملك لكَ! أنتَ أوجدتني من العدم وإلى العدم سأعود إن تخليت عني! أنت الحياة بأسرها!

وفجأة حررت الفتاة نفسها من بين يدي عاشقها وراحت تركض باتجاه المطبخ! وعندما لحق بها الشاب وجدها تضع يديها حول عنق جدتها ومجهشة بالبكاء، فعاد أدراجه حائراً وفي نفس الوقت خائفاً، وجلس في غرفة القعاد يفكر بهذه الفتاة وبأقوالها وتصرفاتها!

عادت الجدة وحفيدتها تحملان الشاي وبعض البسكويت، فانهال راكان، لا شعورياً، على البسكويت، فأكله حتى أتى عليه جميعه!

- يبدو أنك لم تتغد بعد! قالت الحفيدة.

- وحتى لم أفطر بعد! قال الشاب بغضب وقهر!

- وما السبب؟ ! سألت الجدة.

- لأنني من المفروض أن أكون صائماً!

تبادلت المرأتان نظرات التساؤل والحيرة!

- نحن الآن في شهر رمضان؛ شهر الصوم؛ ومن المفروض أن أكون صائماً، ولكنني لم أصم لأسباب يطول شرحها!

- إذن، لماذا لم تأكل طيلة النهار؟! سألت الحفيدة!

وهنا قص عليهما راكان حكايته مع صديقه إبراهيم من لحظة ما هاتفه، قبل ليلتين، حتى لحظه إنزاله أمام البيت! قصها عليهما بالتفصيل، وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً!

كانت المرأتان تصغيان باهتمام شديد، وكان في بعض الأحايين، يضفي عليها شيئاً من الطرافة، فتضحك المرأتان ويسر الشاب لضحكهن؛ وكانتا تستوقفانه في بعض الأحيان لتستفسرا عن نقطة لم تستوعباها!

شيءٌ واحدٌ لم يذكره راكان متعمداً للمرأتين، وهو قصة الفتاة من جزيرة هوائي! إنه لا يريد أن تعرف المرأتان حقارة ونذالة وانحطاط أخلاق بني قومه، حتى لا تظن المرأتان أن كل واحد من ذلك الجزء من العالم، هو إنسان مستهتر ومتهتك وبلا ضمير!

- يبدو أن صديقك "إبراهام" هذا متزمت في الدين! علّقت الحفيدة!

- هو ليس متزمتاً فقط، ولكنه، سامحه الله، نصّب من نفسه حارساً على الدين! قال راكان بحماس؛ ثم أضاف:

- أنا احترم المتدينين من كل ملة، مهما بلغت درجة تعصبهم وغيرتهم على الدين؛ ولكن الذي يزعجني هو أن ينصب الإنسان من نفسه قاضياً، يدين هذا ويبرئ ذاك! إنه ليس متعصباً ضد أحد، ولكنه غيور جداً على الدين الإسلامي!

- دعونا ندخل المطبخ ونعد بعض الطعام، إذ لا شك أن راكان يموت جوعاً! قالت الجدة ذلك، ونهضت وتبعها الشابان!

*****

الفصل الثاني عشر

- ماذا أرادت بترشيا منك اليوم؟! سألت نيكول راكان بلهجة آمرة وقد رأى الشرر يتطاير من عينيها، وكان الثلاثة، هما والجدة، يشربون الشاي في المساء في غرفة الجلوس.

- ومن هي بترشيا هذه؟ ! سأل الفتى ببراءة وقد قرّب مابين حاجبيه!

- إنك تعرف من أعني؛ فلم التظاهر بالبراءة؟! قالتها بلهجة غاضبة، وخيل للشاب أن في كلامها بعض الوقاحة والغلظة، لم يعهدها بحبيبة قلبه!

- صدقيني إنني لا أعرف من تعنين!

- بترشيا البائعة في قسم ملابس النساء الداخلية! أجابت البنية بغضب!

- أتعنين السيدة أوكييف؟!

- نعم، هي! أجابت وقد ضربت بيدها مسند الكنبة التي تجلس عليها.

- وماذا عنها؟!

- أرجوك! أعلمني الحقيقة ولا تخبئ علي! قالت متوسلة وقد أحزن تذللها راكان!

- إنني لا أدري ماذا تقصدين! لقد طلبت إلي اليوم، بعد الظهر، أن أحضر لها البراويز من مخزن الشركة، ففعلت، وشكرتني! قال الشاب بهدوء وبرودة أعصاب.

- هل هذا كل ما فعلت؟ ! تطلب منك شيئاً آخر؟! ألم تطلب منك أن تذهب وإياها إلى العشاء أو السينما أو أي مكان آخر؟!

وهنا انفجر الفتى يضحك، ثم قال:

- أوه نيكول! وماذا حدث لك؟! ما الذي جعلك تفكرين مثل هذه الأفكار؟! ألا تعلمين أن حبي لك قد أعمى عيني عن رؤية كل امرأة سواكِ؟ ! وهل تشكين في حبي لك؟! ما هذا الكلام اللامعقول؟ !ألا تعرفين بأنها امرأة متزوجة؟!

كان راكان يتكلم بتأنٍ وهدوء أعصاب، مستعملاً المنطق، ليزيل من قلبها كل الشكوك والأوهام!

- إن الزواج لا يعني شيئاً بالنسبة لأمثالها! إنها امرأة رخيصة! قالت بغضب ممزوج بالاحتقار.

- يظهر لي أنها امرأة فاضلة، لأن كل تصرفاتها تدل على ذلك!

- هذا ما تعتقد!

- إذا كانت امرأة فاضلة أو غير ذلك، وما شأننا بها! زوجها هو الرابح أو الخاسر!! ثم ما الذي تقودين إليه؟!

- ألا تعلم؟ ! إنها تريد أن تأخذك مني! قالت ذلك وصارت تبكي!

وهنا انفجر الشاب يضحك وبقهقهة مما زاد في غضب البنية وثورتها!

- إنك تسخر مني وتظنني مغفلة؟! قالت ذلك وغادرت إلى غرفتها!

- أنا أعرف يا بني أنها مجرد أوهام! لقد فاتحتني بالموضوع وأكدت لها بأن شكوكها في غير محلها، وأنها مخطئة! قالت الجدة بصوت هادئ، ثم أضافت:

- أرجوك أن تكون صبوراً معها، وأن تستمر في إقناعها حتى تزيل شكوكها!

- كما تأمرين يا أماه! قال ذلك ولحق بالحفيدة إلى غرفة نومها.

- ألهذا السبب كنت متحفظة معي بعد ظهر هذا اليوم، ورفضت الجلوس إلى جانبي هذا المساء؟! سامحك الله! إنني أزداد حباً لك في كل يوم. قال الفتى.

لم تجب الفتاة وإنما بقيت تنهنه وتمسح دموعها المتساقطة بظهر يديها الاثنتين.

تقدم راكان وجلس إلى جانبها فوق السرير، وبيده اليمنى طوق عنقها وأسند رأسها إلى صدره، وبيده اليسرى أخرج منديله القماشي من جيب بنطاله، وصار يجفف دموعها وهو يقول:

- أنتِ تعرفين يا حبيبتي أن حبك يجري في شراييني مع دمي، وإنني لا أستطيع نسيانه حتى لو صممت! ثم وضع أصابع يده تحت ذقنها ورفعها إلى أعلى، ثم خفض شفتيه والتقط بها شفتيها، ثم قبلها قبلة حارة طويلة وأضاف:

- صحيح أن السيدة أوكييف جميلة وجذابة، ولكنك في نظري أجمل فتاة وأكثر جاذبية من جميع نساء العالم!

- إذا لم تكن معجباً بها، فلم تكلمها؟!

- إنني لا أكلمها إلا بما يخص أعمال الشركة.

وهنا سقطت خصلة من شعرها غطت عينها اليسرى، وبعد أن أعادها الشاب إلى مكانها أضاف:

- إنك تعلمين أن السيدة أوكييف هي واحدة من النساء اللواتي يجب أن ألبّي طلباتهن؛ كما إنك واحدة منهن. هذه وظيفتي، فإن كنت أرفض أن أفعل ذلك، فمعناه يجب أن أترك عملي! إذا كان ذلك يسعدك فسأتركه! قال راكان بحماس!

- إنها تكلمك بسبب وبدون سبب! قالت محتجة.

- أظن أنك تبالغين في تصوراتك؛ لأنك تغارين من كل فتاة تكلمني! إنك تتصورين تأدبي بالكلام معهن وتأدبهن بالكلام معي، أننا مغرمون ببعض! إن واجبات الوظيفة تتطلب هذا، كما إنني هكذا تربيت!

- هذا ليس الواقع! قالت مدافعة بحرارة ثم أضافت:

- لم لا أغار من جولي مثلاً أو جنفيف أو كارمن؟! صحيح أنهن لسن بجمال بترشيا، ولكنهن جميلات! إنهن لا يتوددن إليك كما تفعل هي، فإنهن يعرفن أنك صديقي!

- الفرق بينها وبينهن، أنها امرأة لطيفة ورقيقة! إن شخصيتها تختلف عن شخصيتهن! على كل حال وما الذي يريحك ويسعدك لأفعله؟

- هو أن لا تكلمها إلا إذا كانت هناك طلبية بضاعة لها!

- أعدك بأنني سأفعل، وبكل سرور! هل أنت راضية وسعيدة الآن؟!

- شكراً! شكراً! إنها تعتقد أنك معجب بها لأنك تعاملها بلطف وأدب واحترام! لقد قالت لي هذا، وقبل أن تعرف أننا أصدقاء! قالت بأنك وأنت تتكلم مع إحداهن تشعرها وكأنما أنت متيم بحبها، وكأنما أنت تناجيها؛ ولكنني أعلمتها

بأن هذا ربما يعود إلى تربيتك الشرق أوسطية، وقد تكون هذه عاداتكم في بلادكم! كدت أن أصفعها وهي تقول ذلك، ولكنني عذرتها لأنه في ذلك الوقت لا أحد يعرف عن حبنا لبعض! قالت البنية ذلك، وأتبعتها بصرّة على أسنانها، وبأن ضربت الهواء بيدها!

ضحك راكان من أعماق قلبه، وشعر بالزهو والفخر، وهو الفحل العربي الذي تثني أنثاه على رجولته وفحولته!

- قالت وأنت تنظر إلى الفتاة، فكأنما عيناك تقصان عليها قصة رومانسية! ثم خفضت نيكول من صوتها وكأنما لا تريد أن يصل صوتها إلى جدتها وأضافت:

- طبعاً، هي لم تكن تعرف ما بيننا من علاقة حميمة، إذ كانت تتحدث عنك كشخص غريب! تصور أنها قالت لي مرة، بأنك وأنت تنظر إلى المرأة وكأنما تطلب منها أن تذهب معك إلى الفراش! لم أستطع الاستماع إلى أكثر فانصرفت معتذرة، بأن علي واجبات تنتظرني! على كل حال بعد أن علمت بصداقاتنا، فإنها لم تعد تذكر اسمك أمامي!

- أعتقد يجب أن تشعري بالفخر والسعادة، لأن الرجل الذي يحبك، تتوفر به كل هذه الصفات الرائعة!

- أوه راكان! إنني أحبك كثيراً! قالت ذلك وبدأت تقبله على شعره وأذنيه وخديه وأنفه وشفتيه ورقبته، وفي كل مكان تقع عليه شفتاها! ثم أضافت بعد أن توقفت عن تقبيله!

- إنني أحياناً أتمنى لو أنك غير مؤدب وقبيح وقزم، حتى لا ينافسني بك أحد!

- إنه لا ينافسك بي أحد! صدقيني واطمئني! قالها راكان بمنتهى الصدق والإخلاص؛ ثم أضاف!

- إنه وحتى إن كانت هناك امرأة تحاول أخذي منك، فإنها لن تستطيع!

- إنك لا تعرف النساء وحيلهن ودهائهن وخبثهن، إذا أردن أن يوقعن رجلاً في شراكهن! يلجأن إلى حيل يعجز الشيطان عن الإتيان بمثلها!

- وهل فعلت أنت هذا معي؟! سأل الشاب مازحاً وهو يبتسم!

- أوه راكان! ماذا تقول! قالت ذلك وقد جدّتها موجة من العرق الساخن بللت وجهها ورقبتها!

- لا تهتمي يا حبيبتي! إنهن لو استعملن جميع حيل الشياطين فلن يغرينني، ولن يأخذنني منك! قال هذا بلهجة جادة ومطمئنة!

- أوه راكان! كم أنا سعيدة بحبك! قالت ذلك وألقت برأسها على صدره من جديد، وكأنما هي قطة تنشد الدفء أيام البرد القارسة!

- أقول لك، لا تخافي ولا تقلقي، أنا لك وأنتِ لي، ولن تفرق قوة على الأرض بين قلبينا ، إن شاء الله!

عادا إلى غرفة الجلوس، حيث كانت السيدة جوليت، وتحدثوا في مواضيع مختلفة حتى صار وقت رواح الشاب إلى بيت كفيلته.

*****

كان ذلك ثالث يوم لسفر نيكول إلى فرنسا؛ وكان الشاب في مستودع الشركة يفتح بعض الكراتين الكبيرة، والتي وصلت إليهم للتو من المصنع، ويرتب محتوياتها ويضعها في الأماكن المخصصة لها؛ عندما انتبه فجأة ورفع عينيه إلى أعلى فرأى امرأة تقف على بعد خطوات منه تراقب ما يفعل!

قفز قلب الفتى، وتجمدت يداه فوق الصندوق الذي كان بين يديه، وارتجف جسمه واهتز كل كيانه!

- من فضلك! هل تعلم أين أجد هورتن؟! سألت المرأة وهي تبحث بعينيها في أرجاء المستودع بصوت حنون ورخيم، هيّج عواطف راكان وأثار ذكرياته!

- السيد هورتن في اجتماع مع مدير الشركة في مكتبه، يا سيدتي! أجابها الشاب بأدب جم وبلسان متلعثم، وهو ينظر إلى الأرض!

- وهل تعلم متى يعود؟! سألت بصوت رقيق، ولكن بلهجة آمرة، مما زاد في خفقان قلبه وتلعثمه وارتباكه!

رفع راكان عينيه عن الأرض لينظر إليها، وعندما تقابلت عيونهما، فإن راكان يقسم، بأنه شعر وكأنما سهمٌ قد أصاب قلبه، أو لمسة كهربائية قد ضربته، فأعاد جملته الأولى كالببغاء بعقل معطل وذهن شارد وقلب واجف!

- إنه في اجتماع مع مدير الشركة بمكتبه، يا سيدتي!

لعل لكنة راكان الأجنبية وارتباكه وحيرته، قد أثارت غريزة حب الاستطلاع لدى المرأة، ففكرت أن تقوم بعمل يعيد الهدوء إليه، ويخلصه من الارتباك والتوتر اللذين اعترياه، إذ انحنت والتقطت إحدى المزهريات الطويلة والتي كان يفرغها راكان من الصناديق أمامه، وبعد أن تأملتها طويلاً قالت:

- أليست تحفة ظريفة؟!

هز الفتى رأسه علامة الموافقة، دون أن يحول عينيه عن الأرض!

انحنت وأعادت المزهرية إلى مكانها، وبعد أن اعتدلت في وقفتها، نظرت إلى الفتى وقالت بأدب مبالغ به، وبصوت تملأه الرقة والعذوبة:

- أعذرني! لا شك أنني قد خربطت لك ترتيب المزهريات، بعد أن تعبت أنت بترتيبها!

- أبداً يا سيدتي؛ وبكل سرور! قالها راكان بسعادة وقد أفرحه تصرفها وكأنما رقتها وعذوبة صوتها قد قللتا من توتره وارتباكه فأضافت:

- آسفة لإزعاجك أيها الشاب! قد أكون أخّرتك عن عمل ما بيدكِ!

- أنا الآسف؛ أنك لم تجدي السيد هورتن! سأعلمه بأنك تريدينه!

- إن لك لكنة محببة، كلامك واضح ومعبر، وتتكلم اللغة الفصحى؛ فهل أنت أرمني؟!

- كثيرون ظنوني ذلك يا سيدتي! قالها الشاب وقد شعر أن تبسط المرأة معه قد أزال بعضاً من توتره وارتباكه!

- طلياني إذن؟ قالت وهي ترنو إليه بعينيها النجلاوين!

- قليلون ظنوني كذلك! قالها وقد علت وجهه ابتسامة خفيفة، فقد أسكرته رخامة صوتها وعذوبة أنوثتها، إذ تعمّد أن يطيل حديثها معه ووجودها قريبة منه.

- لا بد وأن تكون من جنوب أمريكا! قالتها بابتسامة، وكان في لهجتها شيء من التصميم وحب الاستطلاع!

- ولا ذلك! قالها وقد راقه حديثها وحيرتها أيضاً!

- الآن عرفت! أنت يهودي إذن!

فارقت راكان ابتسامته، وعلا وجهه شيء من العبوس، وشعر كأنما ندمت على الفرحة التي أدخلتها إلى قلبه، فاستردتها منه؛ فقال شبه غاضب وبجديه:

-لا! لا! أنا عربي!

-لا بد وأنك تمزح! قالتها بصوت عال وابتسامة كبيرة تغطي معظم وجهها؛ وقد فتحت يديها استغراباً!

- نعم؛ أنا عربي من الأردن! قال بفخر واعتزاز وتحدٍ أيضاً!

- عظيم جداً! صاحت المرأة بفرح وكأنما وجدت شيئاً مسلياً أو أعطيت قطعة من الألماس!

وهنا صارت المرأة تنظر إلى الشاب مشدوهة وتنقل عينيها بين قمة رأسه وأخمص قدميه، وتتوقف عند كل قسم من جسمه تتفحصه وكأنما لتجد شيئاً مغايراً لرجال بني البشر ليؤكد لها أنه عربي!

- أنا لم أر عربياً من قبل إلا على شاشة السينما أو في الجرائد والمجلات!

- إنك ترينه الآن! قال الشاب بلهجة تفيض أدباً ورقة.

- إنني جداً سعيدة! صدقاً إنني جداً سعيدة! قالتها وهي مازلت تنظر إلى الفتى مشدوهة، مما زادت نظراتها في خجله ونرفزته!

- آمل أن لا تكون رؤيتي قد شوهت الصورة التي رسمتها للإنسان العربي! قال راكان وقد شعر أن بعضاً من خجله، قد فارقه!

- على العكس تماماً! لقد كنت أظن أن الصورة التي تعطيها لنا أفلام هوليود عن جمال الرجل العربي مبالغ فيها! قالت بحماس، وقد لاحظ الفتى توهج عينيها! ثم أضافت:

- أنا السيدة أوكييف! نادني بتريشا! وأنت!؟

- أنا راكان! نادني "راكو" قال الفتى بفخر، ثم أضاف!

- إن اسمك رومانسي النغمة؛ وكلامك رقيق جداً!

انفجرت المرأة تضحك، فبانت أسنانها بيضاء ناصعة البياض وكأنما هي عقد من اللؤلؤ الأبيض!

- وأنتَ اسمكَ له نغمة موسيقية، فهل يعني شيئاً بلغتكم؟ سألت وهي تمسح دموعها بظهر يدها اليسرى!

- يعني جميل!

- حقاً إنك جميل يا راكان! أنا سعيدة بالتعرف عليك! سأراك! أنا مسؤولة عن قسم ملابس النساء الداخلية!

- أنا لم يسبق لي الشرف برؤيتك، هنا في الشركة!

- لقد كنت في فرع الشركة الموجود في مدينة باسدينا، فطلبت نقلي إلى هذا الفرع، لأنني أسكن غير بعيدة من هنا. واليوم هو أول يوم لي هنا!

- أرحب بك، وأرجو أن تري السعادة والخير في وظيفتك الجديدة! رحّب بها راكان على الطريقة العربية بأن هز رأسه وأحنى قامته احتراماً!

- شكراً! شكراً! إلى اللقاء! سأراك! قالت ذلك ومدت يدها لمصافحته، وصافح هو اليد الممدودة إليه، بعد أن أحنى قامته قليلاً احتراما لصاحبته!

وهنا دخل مدير المخزن وقال حالما رأى المرأة بعد أن حياها:

- طلبيتك جاهزة! وها هي! وأشار إلى كومة من علاقات الملابس الداخلية كانت موضوعة غير بعيدة عنهم، فطلب إلى راكان أن ينقلها إلى قسم ملابس النساء الداخلية.

حمل الشاب بعض الكراتين، وحملت المرأة بعض العلاقات المحملة بالملابس، وتوجها إلى حيث يقع قسم ملابس النساء الداخلية، وفي الطريق سألت المرأة الشاب كم صار له في أمريكا، وإن كان معه أحد من أهله هنا، فأعلمها بأنه قدم لوحده!

بعد أن انتهى الفتى من نقل كل ما طلب إليه نقله، شكرته المرأة وشعر بأن شكرها له كان يختلف عن شكر بقية البائعات، عندما يقوم بخدمة لهن أو يطلبن منه القيام بها، فقد كن يخرجن كلمات الشكر من أفواههن كالببغاوات، لا روح فيها ولا حرارة، أما هذه المرأة فقد كانت كلمات الشكر تخرج من فمها مملوءة بالصدق والامتنان ؛ وشعر الفتى وكأنما تخرج من أعماق قلبها!

إن راكان يهوى الحسن ويعشق الجمال في أي شكل من أشكاله، وأية صورة من صوره!! يعشقه في زهرة بحديقة، أو صورة في معرض، أو تمثالاً في متحف أو في جسم كاعب حسناء!

إنه، ومنذ أن كان طفلاً ورؤية الجمال تهزه وتبعث في قلبه السرور وفي نفسه الحبور، حتى يشعر أحياناً وكأنما باستطاعته أن يطير في أجواء السماء وأن يسبح بين السحب وداخل أجزاء الغمام! إن قصيدة من الشعر أو فقرة في كتاب، وكذلك مرجة خضراء في البراري تهز أعطافه وتجذل نفسه، أكثر مما يهزه ويجذله، أغلى متاع من أمتعة الدنيا الفانية!

إن الجمال والفن والموسيقى، ضرورة من ضروريات السعادة التي لا غنى لروحه عنها، وإنه على استعداد أن يبذل الغالي والنفيس للحصول عليها!

كان راكان إلى ما قبل فترة قصيرة، وبالتحديد قبل أن تطأ قدماه أرض العالم الجديد ويقابل جوليانا، يؤمن إيماناً مطلقاً، بأن هناك نوعاً من النساء الجميلات يجب أن يعامَلْن كالزهور، بأن لا يلمسهن أحد، لأن اللمس يذبل جمالهن وينضب شذا عطرهن! كان يحزنه جداً جداً، ويجرح إحساسه ويشوه الصورة الجمالية في داخل وجدانه، بأن يدرك أن لهؤلاء النساء شهوات ورغبات جنسية، كما للأخريات!

كان يريدهن أن يكن كما قرأ عنهن في القرآن الكريم، زادهن تسبيح الخالق، ومتعهن عبادته! وكما خلقهن خياله المنفلت، كُتلاً من النور المتحرك، وباقات من الغمام المتجول، يطفن السماوات والأرض؛ يرتلن تراتيل العذرية والطهارة، ويترنمن ترانيم العفة والنقاوة، وينشدن أناشيد السلام والمحبة!

لقد أمضى الفتى أسبوعاً كاملاً، والله ، في حزن شديد؛ عندما قرأ رواية "تاييس" للروائي العالمي، أناتول فرانس، وهو يرى البطل يأخذ البطلة إلى الفراش ليمارس الجنس معها! لقد شعر بأنه يريد أن يتقيأ لشدة القرف والاشمئزاز!

كان وقتها في الرابعة عشرة من عمره، وكان وقتها يعتقد أن الناس يتناسلون بالعناق، وليس بالجماع! وكم مرة ومرة، تمنى لو أن السيدة أوكييف، كانت تعيش كما تعيش الملائكة، قطعة من الطهر والعفة؛ ولكنها امرأة متزوجة، ولا شك أنها تحب زوجها وأولادها! إنها ملاك على الأرض!

لقد أسعد راكان أن رآها لا توزع ابتسامتها على الزبائن والموظفين، كما تفعل جميع البائعات والموظفات في الشركة، وأسعده أكثر عندما تأكد له أنها، أثناء عملها، لا تمنح ابتسامتها إلا له وحده! إنها نعمة من السماء أرسلها الخالق له، ليسبحه وليمجده؛ فشكراً لك أيها الرب العظيم!

إن السيدة أوكييف امرأة ذات جمال باهر، وشخصية قوية ومتميزة، ترغم محدثها أو حتى الناظر إليها، على احترامها والإعجاب بها! إنها أجمل من نيكول كثيراً، ولكن أقصر منها بقليل! إنها مملوءة الجسم قليلاً، مفتولة العضلات، فيخيل للناظر إليها أنها أستاذة رياضة في إحدى المدارس الثانوية! كانت وهي تسير وكأنما تدق الأرض بقدميها، وكأنما هي تتحدى العالم في سيرها!

كانت ذات شعر ذهبي، ينزل إلى تحت رقبتها قليلاً ولكن لا يصل إلى كتفيها، وكان يتموج فوق رأسها كأنه سبائك من ذهب! كان لها عينان زرقاوان صافيتان وكأنهما نهران من العسل المصفى، وأن بهما أسهماً تصوّبها إلى القلوب المولعة بالجمال فترديها أسيرة الإعجاب بها والتوله بحبها! كان لها فم صغير، وكأنما فنان عبقري قد أمضى سنوات في رسمه، وكان لها أنف قد أبدع الخالق في تكوينه! كانت بشرتها صافية ووجهها مملوءاً متناسقاً مع جمال جسمها ورشاقته!

كانت دائماً متأنقة، وكان لها ذوق رفيع في اختيار ملابسها!

لم تكن تستعمل المساحيق أبداً، وكأنما تسخر من مصنوعات الإنسان التجميلية، فقد منحها الخالق جمالاً كاملاً، لا تحتاج إلى الاستزادة!

كانت سعادة راكان لا تتصور بعد أن تعرف على السيدة أوكييف، وكان فرحه عظيماً وهو يراها تبتسم له، أو وهو يمر من أمام قسمها، أو وهو يزيل ما تجمع في قسمها من الكراتين والمهملات.

الذي حير الفتى وأقلقه، وإن كان في الحقيقة أسعده وأطربه، وهو أنه كان يشعر أحياناً بتشوق جارف وحنين طاغ، إلى السيدة أوكييف؛ شوق الفنان إلى رؤية رسمة زيتية أو الاستماع إلى قطعة موسيقية، أو حتى شوق العابد الوثنيّ إلى رؤية معبوده، وإن كان لا يكلمه! كان يترك عمله في أقسام أخرى ويذهب إلى قسمها محتجاً بأية حجة تتيح له رؤيتها ولو من مسافة بعيدة !

كان ما يكاد يقبل من بعيد، حتى يبدأ قلبه يدق دقاً عنيفاً ، وكأنما هو داخل معركة بالسلاح الأبيض؛ ثم يجف لسانه في حلقة؛ ثم يمر مسرعاً دون أن يجرؤ بأن ينظر إليها! تماماً كما كان يفعل أيام حبه لسميحة، في مدينته ، السلط الخالدة !

مضى أكثر من أسبوع وهو قانع بهذه الصداقة سعيد بها؛ مكتفٍ بهذه النظرات الحنونة الدافئة التي تمنحها له بين الحين والآخر!

كان راكان جالساً في غرفة الاستراحة مسترخياً بعد عمل يوم شاق، محدقاً بالسقف، وكأنما يشكو له ظلم القدر الذي أبعده عن أهله وأحبابه، والذي جعله يقوم بهذا العمل المرهق بعد أن كان موعوداً بعمل أكثر راحة وأجزل عطاءً ... ثم كان يفكر بنيكول، وعندما فتح الباب ودخلت السيدة أوكييف! وبطريقة عفوية نهض واقفاً وبدأ قلبه يدق كأعنف ما يكون! لقد تملكه رعب شديد من أن يكون معها في مكان وحيدين!

- إنني، ومنذ أن عدت من الغداء، وأنا أحاول أن أراك، ولكنني لم أوفق، حتى فكرت أنك ربما كنت مجازاً بعد الظهر! قالت المرأة.

- إنني ومنذ أن عدت من الغداء، وأنا أساعد السيد هورتن في فتح الكراتين التي وصلتنا هذا الصباح، فقد أتيت لأستريح، حالما انتهيت من ترتيب محتوياتها! قال راكان بلسان متلعثم وقلب واجف، ثم أضاف الشاب:

- على كل حال، أستطيع أن أقوم بما تريدينه مني الآن!

- أريدكto escort me، هذا المساء إذا تكرمت وكنت غير مرتبط بموعد!

- أنا آسف يا سيدتي، إذ إنني لا أعرف معنى كلمة escort!

ضحكت حتى بدت نواجذها وقالت:

- عندما تريد المرأة أن تخرج خارج البيت وتحتاج إلى رجل يرافقها، كنوع من الحراسة أو الحماية، أو كمظهر من مظاهر التكريم من قبل الرجل للمرأة التي يرافقها!

- إن ذلك يسعدني كثيراً، أن أحظى بشرف مرافقتك إلى أي مكان على وجه البسيطة! قال الفتى وقلبه يقفز بين جنبينه فرحاً وكأنما يريد أن يهرب من مكانه!

- يعرض في مدينة باسدينا، مسرحية اسمها "القمر في شهر أغسطس" وهي المدينة المجاورة لمدينتنا، وتبعد حوالي ثمانية أميال من هنا، إن كنت لا تعرف، ولقد اشتريت تذكرتين لحفلة الليلة، وريع حفلة الليلة يتبرع به إلى الجمعيات الخيرية، وأريد إنساناً يرافقني ففكرت بك أن لم تكن مرتبطاً وتتكرم بمرافقتي!

- يسعدني ذلك ياسيدتي! قال الشاب بفرح وقلبه يقفز بين ضلوعه؛ ثم وكأنما تذكر فقال:

- وهل يشتغل زوجك في المساء؟!

- زوجي ليس في أمريكا! إنه في ألمانيا! إنه طيار في القوات الجوية الأمريكية المرابطة هناك ! قالت المرأة وقد علت وجهها مسحة من الكآبة!

- أنا آسف أن أسمع ذلك! قال الفتى صادقاً وقد أحزنه الخبر! ثم أضاف:

- على كل حال، أنا سعيد جداً أن أكون تحت تصرفك!

- الحفلة تبدأ في الساعة الثامنة، وأمر لآخذك في الساعة السابعة والنصف! فهل تعطيني عنوانك؟!

كتب لها الشاب عنوانه، ثم وصفه لها، وودعها وخرج ليقوم بالمهمات الموكلة إليه!

لو لم توقف المرأة سيارتها على بعد قدم واحد فقط من أمام راكان، وتفتح شباك سيارتها وتناديه باسمه، وتطلب إليه أن يتفضل، لما كان صدق عينيه من أن صاحبة السيارة التي أمامه كانت هي السيدة أوكييف!

ففي تمام الساعة السابعة والنصف، أوقفت الشابة سيارتها أمام بيت السيدة هييز، وعندما فتح راكان باب السيارة ودلف إلى داخلها، شعر وكأنما دخل عالماً سحرياً؛ فإن برودة التكييف وأرومة العطر المميز، أسكرتاه وجعلتاه يعتقد بأنه دخل عالماً سحرياً ليس على هذه الأرض! عالماً من الزهور والورود والعطور والرومانسية!

كانت ترتدي فستاناً أبيضَ شفافاً به بقع خفيفة السواد، ذو أكمام قصيرة، مفتوح الصدر يظهر أعلى النهدين! أما شعرها فكان مربوطاً فوق رأسها وكأنه باقة من زهور البنفسج! وأما الوجه والعينان والأنف والأذنان والشفتان، فلا يستطيع مخلوق أن يصف جمالها! فسبحان الذي خلقها فسوّاها فعدلها، وسبحان الذي يحيي العظام وهي رميم!

لم تكن المرأة التي أمامه هي السيدة أوكييف، ولا حتى امرأة إنسية من على هذا الكوكب الأرضي! لقد ظنها راكان حورية من حوريات الجنة التي قرأ عنها في القرآن الكريم أو في قصص ألف ليلة وليلة!

فتح الشاب فمه وبحلق بعينيه مشدوهاً مذهولاً، ووقف مبهوتاً أمام هذا المخلوق الذي تفنن الخالق في تكوينه!

- مالك؟ !ألا تعرفني؟!سألت المرأة وهي تضحك!

مصمص الشاب شفتيه، وهز رأسه بشدة يمنة ويسرة، ليستيقظ من هذا الحلم الذي غشيه فجأة وقال بالعربية دون أن يعي:

- سبحان المبدع الأعظم! ثم أدرك أنه يتكلم لغة لا تفهمها سامعته فأضاف:

- أنتِ رسمة زيتية خطتها ريشة الخالق الأعظم! أنتِ آلهة من آلهة الإغريق! أنتِ لست إنسانة! أنت حورية من حوريات الجنة! وجد الفتى لسانه يقول دون سيطرة عليه!

- شكراً! شكراً! تفضل وادخل! قالت وهي ما زالت تبتسم؛ ثم أضافت:

- إنني أنا أيضاً لم أميّزكَ أول الأمر، ولو كنت قابلتك في غير هذا المكان الذي تواعدنا عنده، لما عرفتك! صدقاً! إنك ببذلتك الفخمة وربطة عنقك الجميلة، وكذلك شعرك الجعدي الذي يبدو وكأنك خرجت للتو من صالون حلاقة، تبدو وكأنك أحد موظفي البيت الأبيض!

أسعد كلامها راكان فقال بفرح لا يوصف:

- هذه البذلة التي أرتديها الآن، هي إحدى البذلات الثلاث الجديدة، والتي أحضرتها معي من الوطن؛ لقد خاطها الخياط خصيصاً هي وعدة قمصان وبيجامات! قال الشاب بفخر!

- لا بد وأن تكون واسع الثراء! الأغنياء هنا في أمريكا، هم الذين يذهبون إلى الخياط ليخيط لهم ملابسهم!

- ليس في الشرق الأوسط! الأغنياء والفقراء يفعلون ذلك!

لاحظ الشاب وهما يقطعان المسافة بين موقف السيارات وباب المسرح، في مدينة باسدينا ، بأن الذين يرونهما، رجالاً ونساء، شباباً وشيباً، كانوا يتمهلون قليلاً وينظرون إليهما ثم يتابعون سيرهم؛ مما أسعد الشاب وأطربه!

كان يشعر بالزهو وبالاعتزاز، وقد ارتدى ولأول مرة منذ قدومه، ملابسه التي أحضرها معه هديته إلى بنات أمريكا، ويسير جنباً إلى جنب مع فتاة من أجمل فتياتها!

كانت المسرحية هزلية، على الرغم من أن كثيراً من التعابير التي قيلت، والتي ضحك الجمهور عند سماعها طويلاً، ولم يفهمها هو، إلا أنه استمتع كثيراً بالتمثيلية وضحك كثيراً!

- هل أعجبتك المسرحية؟! سألت السيدة أوكييف الشاب وهما يغادران المسرح في طريقهما إلى السيارة.

- جداً، جداً، وأسعدني أكثر أن أكون برفقتك! أنا لا أبالغ، وصدقيني، إنني لم أشعر بالسرور وبالسعادة أيضاً، منذ قدومي إلى أمريكا، كما شعرت هذا المساء! قال راكان بحماس وصدق؛ وقد هزته سعادة غامرة!

- إن هذا يسعدني جداً؛ وشكراً لك أن قبلت مرافقتي، وإلا لما فكرت بالمجيء!

- ما أسعدني أن أسمع ذلك! إنني أعتبر نفسي محظوظاً جداً أن يكون لي شرف مرافقتك! إنني أنا الذي أشكرك من أعماق قلبي أن تكرمت ودعوتني!

- لقد ارتحت لحديثك في ذلك اليوم الذي تقابلنا به، فتوسمت بك المروءة والإخلاص! قالت بنبرة تؤكد للشاب بأنها لا تجامله!

- أتمنى لو تقبلين دعوتي بأن نتوقف في أحد المطاعم ونتناول بعض الحلوى والمرطبات، أو أي شيء تحبين تناوله! قال الشاب متردداً؛ وبعد أن خرجت السيارة من موقف سيارات المسرح.

- شكراً، ويسعدني ذلك! فهل لك مكانٌ محددٌ تحب أن نذهب إليه؟!

- في الحقيقة لا! خذينا إلى مطعمك المفضل.

- وهل أنت جائع؟! سألت.

- لا، لقد تعشيت؛ فقط أريد تناول بعض الحلوى أو المرطبات معك إكراماً لك! ثم وكأنما تذكر:

- وهل أنت جائعة؟! يسعدني أن أدعوك إلى العشاء!

- لا، لا! شكراً! لقد تناولت طعام العشاء؛ ثم بعد فترة وكأنما خطرت على بالها فكرة فسألت:

- هل تحب الشاي المثلج! إذا كنت تحبه فإنني أدعوك أن نتناول بعضه في بيتي، إذ إن عندي كمية لا بأس بها منه!

- نحن في الوطن نشرب الشاي ساخناً، وكفيلتي لم تقدمه لي مثلجاً حتى الآن؛ وأحب أن أجربه!

- إذا لم يعجبك، فإن عندي عصائر مختلفة، إذ لا بد أن نجد نوعاً تحبه!

- شكراً! شكراً! أنا واثق من ذلك!

- إذن نذهب إلى بيتي؟!

- على بركة الله! قالها بالعربية دون شعور ثم استدرك:

- نعم؛ فلنذهب إلى بيتك!

لم يستطع راكان إلا أن يفكر بوطنه وبعاداته وتقاليده! لقد تساءل أكثر من مرة، لو كان هو وهذه المرأة في الوطن، فهل تجرؤ هي على دعوته، وهل يستطيع أن يقبل هو دعوتها؟! ثم ماذا سيقول الناس عنهما؟ ! امرأة متزوجة تدعو شاباً أعزب إلى بيتها، ليشرب معها الشاي المثلج؟! فحتى لو كانت هي عزباء مثله، فهل تجرؤ هي على دعوته، وهل يجرؤ هو على قبول دعوتها؟!

تجاوزا بعد أن أوقفت السيارة، وعند دخولهما بيتاً كبيراً يقع على مساحة كبيرة من الأرض ومحاطاً بأشجار كثيفة بعضها مثمر وبعضها غير مثمر، وكان قسم كبيرٌ من الأرض مزروعاً بشتى أنواع الورود والأزهار، ومن ثم دخلا بيتاً صغيراً يقع خلف الأول. كان أول ما قابلهما غرفة الجلوس ومطبخ متصلين ببعض، وكان في تلك الغرفة كنبة كبيرة واثنتان صغيرتان! أشارت إليه أن يجلس، فقال وهو يدير بصره في أرجاء البيت:

- إنه بيت جميل جداً، وأنا على استعداد أن أقضي عمري كله به! قال الشاب بحماس وقد هزته شاعرية البيت ورومانسيته!

- أنا مسرورة أنك أحببته! قالت وهي تبتسم.

- وهل قلتِ بأنك لم تحبي العيش في هذا البيت، وأنك سكنت بعد زواجك في بيت آخر؟

- نعم هذا صحيح! هذا البيت والبيت الكبير الذي أمامه يملكهما والدي. عند زواجنا، بروس وأنا، قبل عام، سكنا في شقة غير بعيدة من هنا، حيث إنني فكرت أنني لا أحب أن أظل ساكنة في نفس البيت الذي ولدت وترعرت به؛ ولكن عندما سافر بروس إلى ألمانيا وافقت على السكن هنا، لأكون قريبة من والديّ!

- لو كنت أملك مثل هذا البيت لما استبدلته بأي بيت آخر! إنه جميل جداً ومريح وآمن! قال الشاب بحماس وصدق، ثم أضاف وهو يضحك:

- إنه رومانسي وعش غرام!

انفجرت المرأة تضحك وقد ألقت بناظرها إلى الأرض خجلاً، فأدرك بأنه تجاوز حدود اللياقة فقال:

- أعني أنه بيت صغير ومريح، ويتميز بجميع مريحات الحياة!

- شكراً! شكراً! أنا أحبه كثيراً، وخصوصاً بعد سفر زوجي، فقد صرت أقدر قيمته! أرجوك أن تتفضل بالجلوس!

- فلتجلس السيدة أولاً! قال ذلك وأشار بيده إلى الكنبة المقابلة!

- كم أنت لطيف ومؤدب! قالت وهي تجلس!

- كان يملك هذين البيتين جدي لأبي، وكنا نسكن نحن الخمسة في البيت الكبير؛ جدتي وجدي ووالدتي ووالدي وأنا، إذا إنني الابنة الوحيدة لوالدي، كما إن والدي الابن الوحيد لوالديه. سكنت في هذا البيت أستاذة لغة إنجليزية لمدة تسع سنوات، ولم تغادر إلا عندما تزوجت ورحلت هي وزوجها إلى مدينة سان فرانسيسكو. ثم توقفت عن الكلام فجأة:

- يا إلهي! أنا آسفة! لقد سرقنا الوقت فنسينا الشاي المثلج! قالت ذلك ونهضت متوجهة إلى الثلاجة.

عادت تحمل صينية مطلية بالفضة وفوقها إبريق ضخم مملوء بالشاي المثلج وإلى جانبه كأسان من الزجاج المبزر الفاخر، وكذلك وعاء به سكر وآخر به قطع من شرائح الليمون، ووضعتها أمام الضيف.

حالما وضعت المرأة الصينية أمامه، نهض الفتى واقفاً، وملأ الكأسين فسألها كم ملعقة من السكر وكم قطعة من الليمون تريد!

- يجب أن أخدمك، فأنت ضيفي! قالت وهي تحاول أن تأخذ منه الكأس.

- الرجل هو الذي يجب أن يخدم السيدة، لأن في خدمته لها شرف عظيم ومتعة لا توصف! قال الشاب بحماس، وهو ما زال ممسكاً بالكأس:

- كم أنت جنتلمان! إنك تسعد المرأة التي برفقتك!

- شكراً لك؛ شكراً! أرجوك تفضل واجلس!

- السيدة هي التي تجلس أولاً! قال راكان مبالغاً في تكريمها!

- هل تحب أن ترى صورة زوجي؟!

- يسعدني ذلك كثيراً! قال وهما مازالا واقفين.

أحضرت صورة كانت موضوعة فوق البيانو، غير بعيد عنهما، وناولتها إليه وهي تقول:

- هذه صورته بالملابس العسكرية، أرسلها لي قبل حوالي شهرين من ألمانيا! على كل حالٍ سيعود قريباً، بعد تسعة أيام بالضبط!

- وهل سيعود نهائياً؟ !أعني لا يرجع إلى ألمانيا؟! سأل الشاب.

- لا؛ سيقضي شهراً كاملاً إجازة هنا، ثم يرجع بعدها إلى ألمانيا لمدة ثلاثة شهور، يترك بعدها الخدمة نهائياً.

- وماذا يريد أن يعمل بعد أن يترك الخدمة؟!

- سيلتحق بجامعة جنوب كاليفورنيا ليدرس الهندسة الميكانيكية، فإن الحكومة ستدفع له كل تكاليف دراسته، وكذلك راتباً شهرياً، لا بأس به، حتى يحصل على الدكتوراة إذا أحب!

- أوه! هذا شيء رائع! قال الشاب.

- سأكمل أنا كذلك دراستي الجامعية قبل أن نبدأ في إنجاب الأطفال!

احتار الشاب ماذا يقول، فبقي صامتاً! فتابعت الشابة حديثها:

- أنهيت سنتين جامعيتين، وأريد أن أتخصص لأكون مدرّسة أطفال!

- أعتقد أنها فكرة ممتازة! ثم التفت إلى صورة الزوج وقال:

- إنه وسيم جداً! قال راكان وهو يحدق بصورة شاب يفيض صحة وعافية، مملوء الوجه طويل القامة، عريض الكتفين، كالصقر في وقفته!

ثم فجأة سألت راكان عن عمره، ولما أعلمها بأنه في الخامسة والعشرين قالت:

- وكم تظن عمر زوجي؟

- في الخامسة أو السادسة والعشرين.

- وكم تظن عمري أنا؟

ضحك الشاب وهز كتفيه، ثم قال:

- أن أصعب شيء عندي هو أن أعرف سن المرأة الأمريكية، لأنني أظن الواحدة في الخامسة والعشرين، فأكتشف بأنها في الخامسة والأربعين بسبب المكياج! ومرة سألتني كفيلتي كم أظن عمر جارتها فقلت لها في الخامسة والثلاثين فأعلمتني بأن عمرها ثلاثة وخمسون عاماً! ومرة شكرت بائعة في السوبرماركت بعد أن قدمت لي خدمة ودعوت لها الله أن يرزقها بزوج صالح؛ ولما سألتني كم أظن عمرها، أجبتها جاداً بين الثامنة عشر والتاسعة عشر، فضحكت بهستريا، ولعلها ضحكت من غبائي فأعلمتني بأنها لن تخبرني عمرها، ولكنها أعلمتني بأنها جدة لها حفيدتان؛ بنت في التاسعة من عمرها، وابن في الخامسة من عمره! إنني أعرف أنني غبي، وخصوصاً في فهم المرأة ومعرفة عمرها!

ضحكت بسعادة حتى دمعت عيناها، وبعد أن مسحتهما بمنديل ورقي سحبته من حافظة مناديل ورقية قريبة منها، قالت:

- إنني جادة. كم تظن عمري؟!

تظاهر الشاب بأنه يفكر، فقال وعلامات الجد تبدو على وجهه وقال:

- بين الخامسة والأربعين والثامنة والأربعين!

ومرة أخرى انفجرت تضحك وقالت:

- أرجوك! أنا جادة، كم تفكر عمري؟

- ثمانية أو تسعة عشر! قال بعد أن نظر إليها فاحصاً.

- إن عمري ثلاثة وعشرون وعمر زوجي خمسة وعشرون!

كانت طيلة هذا الحوار تجلس قبالته على الكنبة المقابلة، فنهضت وهي تقول بأنها ستحضر ألبوماً من الصور المتفرقة لتريه إياها؛ وعندما عادت جلست إلى جانبه، وإن تعمدت أن لا تكون ملاصقه له؛ وفتحت الألبوم وصارت تقلب صفحاته وتشرح له عن كل صورة! كانت بعض تلك الصور لها وهي في أعمار مختلفة، ثم صوراً أخرى لزوجها ولوالديها ولجديها وجدتيها؛ وصوراً لأقارب ومعارف!

اللعنة! اللعنة! لماذا خلق الله الشهوة في الإنسان؛ ولماذا لم يخلقه كالملائكة، يكتفي بتسبيح الخالق وتمجيده؟! وهل كان السبب من أجل ديمومة البشرية؟! ألا يوجد طريقة لحفظ النسل غير أن يتناكح الرجل والمرأة؟! ما أقذرها وأحطها من عملية! هكذا فكر راكان والفتاة تجلس غير بعيدة عنه!

لقد أثار عطر المرأة الفاغم، وعري صدرها الذي يمتد لمساحة تصل حتى منتصف النهدين، وحرارة جسمها المحاذي لجسمه، وعبير أنفاسها الذي يخدر يديه وهو يشير إلى الصور في الألبوم، ووجود أنثى ورجل في مكان منفردين، والشيطان ثالثهما، أيقظ الذئاب الجائعة في داخل راكان، وصارت تعوي مسعورة إلى التهام لحم الآخر!

استعاذ الشاب بالله من الشيطان الملعون الذي جعله يفكر بهذا الشيء الذي يجب أن لا يفكر به أبداً، حفاظاً على عهد الزوجية، واحتراماً لقدسية الضيافة، ثم والأهم من ذلك كله حفاظاً على قدسية عهده لنيكول وحبها!!

إن راكان متأكد كل التأكد، بأن المرأة عندما جلست إلى جانبه، ولا حتى عندما طلبت إليه مرافقتها، بأنها ما كانت تقصد شيئاً من كل ذلك، غير شيء واحد؛ وهو الاستمتاع برفقة بريئة وبحديث ممتع!

لقد شعر الفتى والمرأة تجلس إلى جانبه، وهي تحدثه وهو يحدثها، بانسجام لا مثيل له، وسعادة مطلقة؛ ولكن الذي أزعجه هو تلك الذئاب التي استيقظت فجأة في داخله! لقد تمنى لو أن الله لم يوجدها بالإنسان، أو لو أنها لم تستيقظ فتعكر عليه صفاءه وانسجامه!

لم يجد الشاب بداً من أن يستأذن المرأة ويذهب إلى دورة المياه، وهناك فتح حنفية الماء البارد وتركها تغمر رأسه لعدة دقائق!

-هل أعجبك الشاي المثلج؟! سألت الفتاة الفتى حالما عاد إلى غرفة القعاد وجلس قبالتها وليس إلى جانبها!

- كثيراً جداً! إنني لم أكن أتصور أن أشرب يوماً شاياً مثلجاً وليس ساخناً! حقاً إنه لذيذ! قال وهو يتجنب النظر إلى صدرها!

- أنا مسرورة أن أعرف أنك تحب شيئاً في بلادنا! قالت وهي تبتسم. لقد عرف راكان ماذا تعني! لقد سبق وأن أعلمها بأنه قدم إلى أمريكا وفي رأسه أحلام وردية جميلة منصباً ونفوذاً، وليس عامل تنظيفات في شركة!

- إنني أحب كل شيء في بلادكم!

وهنا نهضت المرأة وانحنت إلى الأمام، فظهرت مساحات كبيرة من نهديها، وصبت له كأساً أخرى؛ فغض بصره وركزه على مقدمة حذائه.

وفجأة نظر راكان إلى ساعته وصفّر:

- يا إلهي! الساعة تقترب من الثانية عشرة، فيجب أن أنصرف، إذ لا شك أن كفيلتي قلقة الآن لتأخري، ثم إنك بحاجة إلى الراحة بعد عمل يوم طويل!

- غداً الأحد، وسأنام متأخرة، إلا إذا كنت أنت متعباً وتحب الانصراف!

- أنا مستمتع جداً جداً في سهرتي، وأستطيع أن أسهر حتى الفجر. يجب أن أهاتف كفيلتي حتى لا تقلق لتأخري!

أعلمته كفيلته بأنها سعيدة أنه أخيراً تعرف على أناس يستطيع أن يقضي وقتاً ممتعاً معهم، ولكنها رجته أن لا يتأخر عن الساعة الواحدة، ولكنها استدركت؛ أما إذا طلبوا إليه أن يقضي الليلة عندهم، وأحب أن يفعل ذلك فلا بأس عليه!

- منذ بعض الوقت وفي خاطري أن أطرح عليك سؤالاً، ولكنني مترددة، مخافة أن أجرح شعورك! قالت وفي لهجتها شيء من التردد والخجل!

- لن يحرج شعوري أبداً أي سؤال تطرحينه علي، ولا أي شيء أو أي قول تقولينه، لأنني جد واثق، بأنك تفعلين ذلك بنية حسنة وقلب صادق! قال الشاب بهدوء ورزانة!

- شكراً على الثقة المطلقة! وسؤالي هو: لقد قرأت بأن المسلمين لا يشربون أي نوع من المشروبات التي بها كحول، وأنا أعرف أنك مسلم، كما أخبرتني؛ فهل أنتَ ملتزم بهذا المنع؟!

- في الحقيقة إنني مسلم ولكنني للأسف الشديد غير ملتزم؛ ولقد شربت في حياتي بعضاً من البيرة والنبيذ! لم أذهب أبعد من البيرة والنبيذ، إنني لم أشرب كحولاً قوية! في مناسبات متباعدة شربتها في بيوت بعض الأصدقاء! قد تمضي ستة شهور لا أشرب بها كأساً واحدة! لم أشترها في حياتي! القضية ليست بذات شأن عندي!

- عندي بعض من البيرة، وليس عندي نبيذ، وإنما عندي نوع يشبهه؛ شمبانيا!

- لا بأس من ذلك!

- لقد اشترينا، زوجي وأنا، عدة قوارير منها، وسافر وقد بقي ثلاثة منها، بقيت كما هي حتى الآن، لأنني لم أشعر بأن عندي المزاج لشربها! أرجوك لا تجاملني إن كنت لا تحب ذلك! قالت بحماس!

- صدقيني إنني أحب أن أجربها، وأعدك أنني لن أجاملك وأشربها إذا لم أحبها!

نظفت المرأة كل ما على الطاولة وأخذته إلى المطبخ، وعادت تحمل صينية وكوؤساً غير الصينية والكوؤس الأولى، يتوسطها قارورة من الشمبانيا!

طلبت إلى ضيفها أن يفتحها، ولكنه اعتذر لعدم معرفته، فأرته كيف يفعل ذلك، وعندما فعل خرج للقارورة صوت عالٍ، أتبعه بعض البخار خرج من فوهة القارورة!

ناولها القارورة ولكنها طلبت إليه أن يملأ هو كأسيهما ففعل، بعدها ناولها كأسها وحمل هو كأسه وضربها بكأسها، فقد شاهد مرات كثيرة الناس يفعلون ذلك في السينما، وقال:

- بسعادتك وعودة زوجك إليك في القريب العاجل، معافى وسعيداً! قالها الفتى بصدق وإخلاص!

- أوه راكان! شكراً! شكراً! أنت إنسان شهم وعظيم!

- إنه ليس من العدل أن لا يكون هناك راع لكل هذا الجمال، وكل هذه الرقة والأنوثة!!

وجد راكان لسانه يقول بغير إرادة منه، وبعد أن قال ذلك شرب رشفة كبيرة من كأسه!

لم تعلق المرأة وإنما لاحظ احمراراً على وجنتيها وكسوفاً في عينيها!

- كيف؟! هل أعجبك؟ سألت.

- رائع جداً ولذيذ! قال الشاب وشرب بقية الكأس دفعة واحدة، وصار يتلمظ ويمصمص شفتيه بشهية ولذة! ثم ملأ كأسه أولا وحاول أن يملأ كأس جليسته بعدها، ولكنه وجدها شبه مملوء، فأدرك أن أصول الشرب هو أن يرشف رشفات قليلة ومتباعدة؛ ولكن المشروب، قاتله الله لذيذ، ولم يستطيع أن يقاوم إغراء الكأس المملوءة والمصمودة أمامه كالعروس في ليلة جلوتها، فمد يده وأفرغها في جوفه دفعة واحدة!

- يبدو أنك أحببت الشمبانيا كثيراً! قالت وهي تضحك بخفوت!

- لقد أحببت أكثر، اليد التي قدمتها لي! ثم نهض بتثاقل وتناول يدها اليمنى وقبلها، فلم تمانع وتركت له يدها يقبلها بشوق ونهم، وهي تنظر إليه وتبتسم!

إن راكان يقسم بكل ما يؤمن به، أنه بعد أن قال ما قال، لم يتذكر أي شيء ولا ماذا حدث!

عندما استيقظ الشاب صباح اليوم التالي، وجد نفسه نائماً إلى جوار السيدة أوكييف وفي فراشها، والاثنان عاريان كما ولدتاهما أمّاهما! كان يلف ذراعه اليمنى حول عنقها وتلف هي يدها اليسرى حول كتفه وأريج عطر شعرها يملأ أنفه.

نظر إلى وجهها، وجه الملاك البريء الطاهر، واعترته شتى الانفعالات والإرهاصات ! حاول أن ينهض من فراشه بخفة وحذر حتى لا يوقظها، ويغادر، ولكنها فتحت عينيها وألقت عليه تحيه الصباح! لم يجبها، بل عبس وجهه ونظر إلى الجهة الأخرى، بعد أن سحب يده من حول عنقها وأبعدها عنه.

- ماذا حدث؟! ولم أنت غاضب؟! قالت فزعة وقد نهضت من الفراش مذعورة، وفارقتها ابتسامتها!

- لم تركتني أنام في فراشك ؟! لقد حطمت الصنم الذي صنعته لك، ودنست العفة التي زرعتها فيكِ! قال الشاب بغضب وكلماته تخرج من داخله كأنها شواظ من نار!

- إنني لا أفهم عن ماذا تتكلم! قل لي بحق السماء ، لم أنت غاضب! سألت حائرة محتارة!

- طبعاً لا تفهمين عن ماذا أتكلم، لأنك امرأة وعواطفكن مبرمجة مع شهواتكن! لقد دعوتني وأسقيتني الشمبانيا، لأنك مخططة لأن أنام معك! لقد فجعتني في أحلامي وقيمي ومثلي العليا! أنتِ باقة من الزهور، يجب أن لا نلمسك، فقط نتطلع إليك، ونعبد الله فيك، لأنه هو مبدعك وخالقك! لقد دنّسنا إبداعات الخالق وقيمه وعهّرنا مقدساته، وإنزالاته! كانت الكلمات تخرج من فم الفتى كشهب من نار!

- لا، لا؛ وأقسم بوالديّ وبزوجي وبالمسيح، وبكل ما أؤمن به؛ أنه لم يكن في تفكيري هذا المخطط، أبداً، أبداً؛ ولكن القدر هو الذي رتب كل هذا! قالت ذلك وصارت تبكي، ثم أضافت:

- لم تتهمني بهذه التهمة الباطلة، وقد قضيتُ ساعة كاملة أقاومك، وأنت تلح وترجو، وتتذلل وتبكي؛ حتى قبلت!

- إذن أنا اغتصبتك؟! سأل الفتى والحزن يكاد يمزقه!

- لا، لا؛ إنك لم تغتصبني! لقد قبلت أنا برضى، بعد أن أمضيت أنت ساعة كاملة وأنت تعلمني كم أنا جميلة، وأنك تحبني وتحب أن نتطارح الغرام! أنسيت ذلك! لماذا تتهمني ظلماً وزوراً وبهتاناً! أرجوك! قالت بغضب ممزوج بالقهر والإحباط، ثم أضافت:

- على كل حال أنا لست بنادمة! لقد أمضينا نحن الاثنين وقتاً ممتعاً! لقد أسعدني كثيراً! لقد كنت رقيقاً جداً، تفيض محبة وعاطفة وحناناً؛ وتجعل المرأة وهي بين يديك، وكأنها الوحيدة على هذه الأرض التي تحب بل تقدس! قالتها بصوت رقيق، حنون ودافئ!

فجأة، توقف الشاب عن لوم الشابة وعن تأنيبها، كما وتوقف عن صبّ حمم غضبه عليها، وكذلك توقف عن لوم نفسه واتهامه لها بالضعف وقلة العزيمة؛ وكذلك لومه لكؤوس الشمبانيا وتأثيرها عليه، وإنما لام معتقداته الصدئة وقيمه الجوفاء التي تربى عليها! وكذلك لام الشيخ عفيفاً والشيخ عبد الحليم، أستاذيه في مادة علوم الدين، وإمامي المسجدين اللذين كان يصلي بهما، والذين زرعا في عقله ووجدانه أن عملية الجنس بين الرجل والمرأة، هي أقذر الأفعال التي يمارسها الإنسان، مع أنها ومن خلالها تدوم الحياة ويستمر الإنجاب وتتناسل البشرية!

كما صب جام غضبه على دراسته الصوفية التي جعلته يعتقد أن المرأة الجميلة زهرة، يجب أن نستمتع بالنظر إليها دون أن نلمسها، لأن لمسنا لها يذبلها ويفقدها طهارتها ونقاوتها وعفتها!

لقد اعتقد الفتى أن الخالق سبحانه وتعالى، قد وصل القمة في إبداعاته وإدراك الذروة في خلق الجماليات، عندما خلق السيدة أوكييف، مثال الجمال والإخلاص والوفاء، ومثال العفة والطهارة والأخلاق؛ ثم وضع فيها شهوة جنسيه وغرائز حسية؛ مما شوه الصورة الجمالية والفنية عند راكان !

لقد تمنى من أعماق قلبه لو أن بترشيا أوكييف كانت حزمة من الغمام... من الزهور... قارورة عطر... قصيدة غزل... وليست مخلوقة من دم ولحم؛ لكان أسعد حالاً...!

- هل مازلت تحقد علي وتكرهني؟! إنني والله أحببتك كما لم أحبب إنساناً من قبل، واشتهيتك بكل طاقاتي وبكل عنفواني، ولكن بإرادة غير إرادتي! لقد تنازعتني ثلاثة عوامل، عامل الرغبة المجنونة، وعامل الوفاء للقدسية الزوجية، وعامل الخوف من الله؛ ولكن يبدو أن الأولى تغلبت على الاثنتين الأخريين؛ فليسامحني الرب! قطعت عليه السيدة أوكييف حبل أفكاره؛ وهي ما زالت تمسح دموعها بظهر يدها!

- لم أعد غاضباً عليك، ولم أعد كارهاً لنفسي؛ بل على العكس من ذلك فإنني أحبك الآن أعظم، وأريدك الآن أكثر! قال ذلك وتقدم منها وأمسكها بيدها وقادها إلى غرفة النوم فلم تمانع، وشعر وكأنما يدها مسها سلك من الكهرباء، إذ صارت تهتز وترتجف وكأنما بها حمى؛ وبكل حنية واحترام، حملها وألقى بها فوق الفراش، بعد أن نزع عنها ملابسها وركب فوقها وصار ينهل من رحيق شفتيها ويغرق كيانه في عبق جسدها، ويظل يلكدها ويلكدها؛ حتى يصلا الذروة، فيدخل جنة أنوثتها؛ ويفرغ في عبق كينونتها، لبيده المحتبس! لبيد الحرمان الطويل، ولبيد القهر والإحباط والحلال والحرام!

- إنها المتعة الخالصة هي عندما يكون الإنسان بكامل صحوته، وبكامل إرادته، ومتمتعاً بجميع حواسه، وليس وهو شبه فاقد الإدراك ومغيب عن الوعي! قالت المرأة من بين تنهداتها وتأوهاتها!

*****

الفصل الثالث عشر

أعلنت خطبة نيكول وراكان بعد عودتها من فرنسا في حفل عشاء صغير وبسيط، في بيت الجدة؛ ضم أهل الخطيبة وكذلك السيدة هييز وأصدقاء الخطيب.

لقد حضر والدا نيكول وأخواها وأختها، كما حضرت خالتها وزوجها وولدهما وابنتها اللذان لم يتجاوزا العاشرة من عمريهما ، كما حضر بعض أصدقاء راكان من الشباب العرب؛ إبراهيم، وكالعادة لم تكن معه رفيقة؛ وفاروق وخطيبته، وعدنان وماجد، ومع كل منهما صديقته، وكذلك بطل العضلات ومعه صديقة، ومحمود وكان بصحبته فتاة فلبينية، ولم تكن الفتاة التي من جزيرة هوائي!

كانت فكرة الجدة هي أن تعمل لهم عشاء صغيراً تقدم به بعض الساندويشات والحلوى والمرطبات، ويتحدثوا لبعض الوقت يتعرفون بها على بعض، وبعدها تعلن خطوبة حفيدتها على راكان، ثم ينصرف الحضور؛ ولكن الذي حدث، هو أن الناس بعد أن أكلوا وشبعوا، وتحدثوا مع بعضهم حتى سئموا، لم يحبذوا فكرة الانصراف المبكر، وتمنوا لو يستطيعون أن يجدوا سبباً ليقضوا وقتاً أطول، وخصوصاً أن الجميع مستمتعون مسرورون، فاقترح إبراهيم مشكوراً، أن يجمعوا أثاث غرفة الجلوس، ويضعوه في إحدى الزوايا ويستعملوا أرض الغرفة كقاعة للرقص؛ خصوصاً والموسيقى الراقصة تبعث من المسجلة، وتلهب المشاعر وتؤجج العواطف!

هلل الجميع للفكرة وصفقوا لها، وفي خلال دقائق قليلة كانت أرض الغرفة خالية من الأثاث وجاهزة للراقصين، وخلال دقائق أخرى، كان كل ذكر يعانق أنثاه ويرقصون!

كانت الحفلة موفقة جداً على الرغم من بساطتها وقلة عدد الحضور؛ فلقد لاحظ الفتى أن كل إنسان قد أمضى وقتاً ممتعاً، مما جعل خطيبة فاروق تطلب إلى راكان، بصوت عال وأمام جميع الحضور، بأن يقيم حفلة كبيرة في إحدى قاعات الاستئجار، كما فعلت هي وفاروق، وأن يدعو إليها أعداداً كبيرة من أقارب العروس وأصدقاء الخطيبين! لقد وعد راكان بأن يحقق لها هذا الطلب في القريب العاجل!

شخصٌ واحدٌ لم يمض وقتاً ممتعاً أول الأمر هي نولا، أخت العروس، فلقد سمعها راكان تهمس في أذن أختها، وهما متعانقان يرقصان، عاتبة على أن لا أحد من الشباب طلب إليها أن ترقص معه، بل ولم يتكلم معها، مع أنها كانت تساعد، وبهمة وإخلاص، توصيل الطعام والشراب إلى الحضور!

- صحيح أنك شابة جميلة ومملوءة حيوية، ولكنك ما زلت صغيرة يا حبيبتي، والشباب يخجلون من أن يتقدموا إليكِ ويطلبون مراقصتك! قالت نيكول إلى أختها نولا وهي تضحك!

- ومن قال لكِ إنني صغيرة؟! إنني بعد شهرين ونصف سأصبح ثلاثة عشر عاماً! قالت الصبية بغضب ممزوج بالعتب، وهي ترفع قامتها، وكأنما لتبدو أطول مما هي!

على الرغم من أن راكان لم يكن يجيد الرقص، إلا أنه فك يديه من حول خصر خطيبته، وتقدم من الصغيرة وقد أحنى قامته وفتح يديه احتراماً، ثم قال:

- وهل تسمح لي سيدتي الحسناء، بأن تمنحني شرف مراقصتها؟! قالها الشاب على طريقة القرون الوسطى!

ابتسمت الصغيرة وأحنت قامتها قليلاً وقالت:

- يسعدني ذلك يا سيدي!

ما كاد راكان يلف يديه حول خصر الصغيرة نولا ليرقص معها؛ حتى رأى إبراهيم، هو الآخر، يلف يديه حول خصر نيكول ويرقص معها!

لقد ذهل راكان بتصرف نولا المؤدب والحضاري، وبمعرفتها بأصول الإتكيت وهي في مثل هذه السن! وبعد أن رقص معها دقائق قليلة، مشى وإياها إلى إحدى الزوايا حيث يتواجد كرسي هناك، ففرد يديه احتراماً وأشار إليها أن تجلس؛ ولشدة ذهوله، عندما رأى إبراهيم، الذي كان يستأذن من هذا ومن ذاك ليرقص مع فتاته، أن يذهب ويطلب من نولا أن تراقصه ! ولقد ظل يرقص معها حتى آخر الليل، مما جعل الاثنين سعداء، إذ إن نولا طويلة جداً رغم صغر سنها! إنها تبدو وكأنها في السادسة عشرة من عمرها!

لقد وفر وجود الصغيرة نولا على إبراهيم الذهاب إلى الأصدقاء العرب، للسماح بمراقصة صاحباتهم!

قبيل منتصف الليل بدقائق، تقدم إبراهيم من نيكول وراكان اللذين كانا يرقصان رقصة كسلى، واستأذن الفتاة من أنه يريد العريس على انفراد لأمر هام!

- هل أسلمت نيكول؟ ! سأل إبراهيم راكان حالما ابتعد عن الفتاة.

هز الخطيب رأسه علامة النفي، وهو يشعر بأنه يكاد يتفجر من الغضب!

- هل طلبت إليها أن تعتنق الدين الإسلامي؟! سأل عندما لم يتلقَ جواباً!

مرة أخرى هز راكان رأسه علامة النفي، وقد ازداد غضبه!

- وهل أفهمتها بأنك لا تستطيع أن تتزوجها إلا إذا أصبحت مسلمة؟! سأل إبراهيم وعلامات الجد والصرامة باديتان على وجهه!

إن راكان يقسم بأن الذي كان يتكلم، وإن كان لسانه، إلا أنه لم يكن له عليه بسلطان؛ لأنه قال:

- اطمئن! لقد أفهمتها ذلك وأكدت عليها عشرات المرات، فأعلمتني بأنها ستفعل! لا يكون لك فكر، وشكراً لك على غيرتك على الدين الإسلامي!

- بارك الله بك! أنا واثق من صدق عقيدتك وقوتها؛ وأعرف أنك شاب مسلم وملتزم! قال إبراهيم وهو يشد على يد صديقه!

- والآن سيداتي سادتي! يجب أن نتوقف عن الرقص، ونعود إلى بيوتنا بعد أن نبارك للخطيبين! قال إبراهيم مخاطباً الحضور!

توقف الرقص وتقدم الحاضرون يباركون للخطيبين، يتبادلون القبلات ويشدون على أيادي بعضهم بعضاً!

لقد انصرف الجميع حتى والدي نيكول وأخويها وأختها وخالتها وزوجها وابنها وابنتها... جميعهم، غادروا إلى مدينة فاردن قرووف، حيث يسكنون!

أوصلت نيكول راكان وكفيلته إلى بيتهم؛ سأل الفتى كفيلته عن رأيها في خطيبته، فأعلمته بأنها غير ناضجة عقلياً وعاطفياً، وأنها تختلف اختلافاً كبيراً عنه، إذ إنه شاب ناضج عاطفياً وعقلياً، وأنه جاد وملتزم...، ثم أضافت!

- إنها لا تصلح زوجة لك إطلاقاً، وإنكما إذا تم زواجكما فستنفصلان في أقل من ستة شهور!

كلام السيدة هييز آلم راكان وأحزنه؛ فقد لاحظ بأن خطيبته قد بالغت باحترام كفيلته والترحيب بها؛ إذ كانت تقدم لها الطعام والشراب، وتأخذ منها الصحون والأكواب الفارغة وتعيدها إلى المطبخ! لقد سكت ولم يقل شيئاً!

منذ ليلة الخطبة لا يمضي يوم واحد دون أن تقول السيدة هييز، سامحها الله، قولاً مشيناً بحق نيكول، مما سبب ألماً شديداً إلى مكفولها، إذ إنه ما يكاد يدخل البيت إما عائداً من العمل، أو من مقابلة خطيبته إلا وتسأله؛ كيف حال التي يشبه وجهها وجه الحصان؛ أو، التي يشبه رأسها رأس البغل، أو التي عندما تتكلم فإنها تشبه البقرة المريضة؟!

كان الشاب طيلة تلك الأيام، يكتم غيظه ولا يجيبها، رغم معاناته الشديدة، وحيرته وتساؤله عن سبب كره كفيلته لخطيبته، وعندما سألها يوماً أجابت:

- إن كرهي الشديد لشخصها واحتقاري الزائد لتصرفاتها، هو أنها خدعتك بالتظاهر بأنها تحبك! إن مثل هذه الفتاة أنانية وغير ناضجة ولا تحب إلا نفسها! وستبرهن لك الأيام القادمة كم أنا محقة! قالتها بعناد وإصرار وتأكيد.

- إنك تظلمينها! إنها مسكينة، وطيبة القلب وصافية السريرة! أنا فقير لا أملك شيئاً من أمتعة الدنيا الفانية حتى تتظاهر بحبي لتحصل على ما أملك!

- إنك تملك شباباً وشهامة ورجولة، وهذا أثمن من الذي تسميه أمتعة الدنيا الفانية...! قالت بحماس وهي تهز بإصبعها وكأنما تتهدد وتتوعد!

- على كل حال شكراً! أنك تعتقدين هذا، ولكنني أحبها ولا أستطيع أن أعيش بدونها! قال مكفولها بهدوء محاولاً أن يقنع كفيلته!

- إن هذا ما يحزنني، وهو حبك المجنون لها وولعك الشديد بها، فلا تستطيع أن تتركها! أنت الآن في أول الطريق وحبك لها سيقوى ويزداد في كل يوم، فيا ليتك تتركها الآن قبل أن يأتي اليوم الذي لا تستطيع تركها به، فيدمرك هذا الحب!

ضحك العاشق طويلاً لفلسفة كفيلته وتنظيرها، وإن كان يعتقد جازماً بأنها مخطئة، وأن ما تقوله هو من توهماتها؛ وفي نفس الوقت فإنه يعتقد في قرارة نفسه، بأن ما تقوله كفيلته، هو محبة له وخوف عليه؛ ولكنها بهذه الأقوال والتصرفات تثير حنقه وألمه معاً!

- لماذا لا تدعيني أجرب بنفسي؛ فإن نجحت في هذا الحب، أكون سعدت، وإن أخفقت به، تكون مشيئة الله، ولا اعتراض على حكمه!

- ولكنك ابني، وحبي لك يجعلني لا أنام الليل قلقاً عليك، لأنني أعرف أن حبك لتلك الفتاة يقودك إلى الهلاك والدمار والضياع أيضاً!

- أنا أعرف أنك تتصرفين من فكرة خوفك علي، ولكنني لا أستطيع التخلي عن نيكول! إن كل ما أطلبه منك بل وأرجوك؛ هو أن لا تذكريها أمامي، لا خيراً ولا شراً؛ لأن ذلك يضايقني، ويؤلمني! قال الفتى برجاء!

- إنني لا أستطيع أن أراك تحترق بالنيران وأنا واقفة أتفرج عليك! إن نعتي لها بالسوء، يخفف عني ويريحني! قالت بحزم!

- ولكنه يؤلمني، بل ويمزقني! قال مكفولها بغيظ؛ ولما لم تقل شيئاً سألها:

- هل تمانعين أن أرحل من هنا؟!

- وأين تسكن؟!

- سأجد لي غرفة بسعر معقول، أستطيع أن أدفع ثمنها!

- كما تشاء! إذا كنت تتخلى عني من أجل تلك البقرة المريضة، والتي يشبه وجهها وجه الحصان، فتفضل! قالت ذلك بغضب لاهب، ثم نهضت وتوجهت إلى المطبخ وفتحت الثلاجة وصبّت لنفسها كأساً من عصير الليمون، رأى راكان أنها ألقت بها في جوفها دفعة واحدةً!

*****

استأجر راكان، وبمساعدة خطيبته، غرفة مفروشة ومتواضعة عند عائلة من أصل أرمني، وكانت المسافة تبعد حوالي النصف ميل عن بيت السيدة جوليت!

لقد ألحت عليه المرأة أن يسكن في إحدى الغرف الخالية في بيتها الكبير، ولكنه رفض لأن ثقافة المجتمع الذي ولد به وتربى، يعيب عليه أن يسكن في بيت خطيبته قبل الزواج!

إن الجدة والحفيدة لم تستطيعا أن تتفهما هذا المعتقد، رغم إيضاح الفتى المسهب؛ ولكنهما قبلتاه مرغمتين!

مرت ثلاثة شهور على إعلان الخطبة، وكان راكان لا يُرى، بعد ساعات العمل، إلا ومعه نيكول، وكانت نيكول لا تُرى إلا وهي، إما بين ذراعيه، أو جالسة في حضنه!

كانا يقضيان معظم وقتهما في بيت الجدة، وكانوا ثلاثتهم إما يطبخون أو يأكلون أو يستمعون إلى الموسيقى أو يتناقشون في بعض القضايا الأدبية والفكرية؛ وإما يستمعون إلى نيكول وهي تقرأ بصوتها الحنون الرخيم شعراً أو نثراً!

كان العاشق يشعر بالضيق الشديد عندما لا تكون حبيبته معه، وكان يحس بالاختناق إذا طالت مدة غيابها عنه!

لم يكن الشاب يفكر بأنه سيحب مثل هذا الحب يوماً؛ ولم يكن يعلم أن الحب يعطي الإنسان كل هذا الكم من السعادة! لقد أحب راكان نيكول حباً لم يعتقد أن أحداً أحب مثله يوماً! لقد أحبها بكل ما عنده من طاقة!

لقد ملأ حبها كل ذرة في جسمه، وشغل كل مساحة في عقله؛ ولم يعد يفكر بإنسان سواها! لقد نسي الوطن ونسى أهله وأصدقاءه! لم يعد يطيق أن يرى وجهاً غير وجهها، ولا أن يسمع صوتاً غير صوتها!

إن الدنيا تبتسم أن ابتسمت نيكول، والكون كله يعبس إن غضبت!

لقد أصبحت معبودة الشاب على الأرض ، وابتسامتها هي المشعل الذي يضيء طريقه، وصوتها هو الموسيقى التي تطربه وتفرحه!

كانت عندما تذهب لزيارة والديها، ولا يستطيع مرافقتها، فإنه يمضي طيلة وقته ممداً على الكنبة يخاطب طيفها ويحلم بلقائها!

كان وهو ينحني ليقبل خدها أو عنقها أو شفتيها، ينحني بكل إجلال وتقديس، وكأنما ينحني ليقبل رمزاً مقدساً؛ وكان وهو يلمس أي جزء من جسدها، كأنما يلمس رمزاً محرماً لمسه!

كان وهو يمسك بها وكأنما يمسك بزهرة يخشي إن ضغط عليها أن يذبلها أو أن يفتت أوراقها؛ وكان وهو ينظر إليها وكأنما هو عابد أوثان يتعبد في حمى صنمه! كان وهو يتطلع إليها وكأنما يتطلع إلى ملاك، ولم يكن يشعر نحوها إطلاقاً، بأية رغبة أو شهوة!

كانت هذه حالتهما أول الأمر، ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال، إذ إن نيكول لم تعد ترضى بالقبلة الخاطفة والخفيفة، ولا باللمسة المتبادلة والحنونة؛ بل صارت تلف يدها حول رأسه وتطبق على شفتيه بوحشية وكأنما تريد أن تمزقهما، وتلصق جسدها بجسده وكأنما تريد للجسدين أن يلتحما، فيصبحا جسداً واحداً!

إن الذي أزعج راكان؛ بل أرعبه، هو أنها عندما تطبق بشفتيها المحمومتين على شفتيه، يحس بأن جسده كله قد تحول إلى مجموعة من النيران المتأججة، فتنقلب كل ذرة في جسمه وكأنها ذئب يعوي في داخله، فيدفعها عنه برفق، ويخلص نفسه من بين ذراعيها، وشفتيه من بين شفتيها، ومئات الذئاب المنفلتة في داخله تعوي وتطالب بحقها بالإشباع!

لم تكن هذه المناظر تحدث في بيت السيدة جوليت، وإنما كان حدوثها في غرفة الفتى المستأجرة، إذا إنهما ما يكادان يدخلان الغرفة، وحالما يغلق الباب خلفه حتى تنقض عليه وكأنما تريد افتراسه، فيدفعها عنه برفق، ويركض نحو المطبخ إلى حيث الثلاجة فيكرع قارورة كاملة من الماء المثلج، وكأنما يريد أن يطفئ النيران المتأججة في داخله!

كانت كثيراً ما ترتدي الملابس المغرية والتي تكشف عن صدرها وفخذيها، وكانت تخلق الأعذار الواهية للدخول إلى غرفته، كأن ترتب سريره، أو تغير الشراشف أو تحضر كتاباً؛ إلى مثل هذه الأعذار السخيفة، وكان هو يحاول دائماً أن يجد المعاذير ليمنع هذا الدخول!

*****

اقترحت الجدة على حفيدتها أن تأخذ خطيبها يوم السبت، والذي صادف وكان يوم عطلة من العمل للاثنين، وتريه مدينتي هوليود وبفرلي هيلز، تلكما المدينتان المشهورتان عالمياً، إذ إن الشاب سمع عنهما كثيراً ولم يرهما!

لاقت الفكرة استحساناً من الاثنين، وهجم الشاب على العجوز وقبلها على رأسها، مما أسعدها كثيراً، وأسعد الحفيدة أيضاً!

لم تدع نيكول مكاناً ممتعاً إلا وأرته إلى الشاب مما أسعده سعادة لا توصف، وزاد من محبته واحترامه للمرأتين!

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلاً بقليل، عندما وقفت السيارة أمام باب غرفة راكان، وأمال الفتى جسمه إلى الشمال ليطبع قبلة خفيفة على شفتي الفتاة، بعد أن شكرها وتمنى لها ليلة سعيدة ولكن الفتاة أعلمت الشاب بأنها ليست متعبة ولا نعسانة، وأنها تحب أن تدخل غرفته وتتناول بعض المرطبات ويتحدثان لبعض الوقت؛ ولما أعلمها بأن الجدة لوحدها طيلة النهار وقد تقلق لتأخرهما، أعلمته بأن الجدة متعودة على العيش لوحدها، وأن كتابها هو عندها أعز صديق، ولا تعرف الملل أو الوحدة بسببه!

لم يكن أمام الشاب من وسيلة إلا الموافقة، فجلست الشابة على طرف السرير، وجلس هو على كرسي قبالتها، وصارا يستعيدان ما شاهداه ذلك اليوم!

فجأة مالت الصبية إلى الوراء وألقت بجسمها على الفراش، فانحسر فستانها عن فخذين عاجيين كأنهما عمودان مصنوعان من الأبنوس؛ وبرز نهداها من أعلى الفستان، فظهرا وكأنهما إلهان من آلهة الإغريق، يتحديان العالم!

استعاذ الفتى بالله العظيم من الشيطان الملعون، وحوّل ناظريه إلى الجهة البعيدة، ليتجنب النظر إلى ما يعتبره محرماً عليه!

- راكان! يا حبيبي! لِمَ لا تأتِ وتجلس إلى جانبي؟! قالت الفتاة بصوت رقيق حالم وكأنها امرأة تعلم رجلها بأنها خلعت ملابسها ومستعدة للفراش؛ وكانت تشير بيدها اليمنى إلى المكان الخالي فوق السرير!

- شكراً لكِ! إنني مستريح حيث أنا! قال وهو ما زال ينظر إلى الجهة الأخرى من الغرفة!

- أرجوك! إنني أريدك قريباً مني!

- إنني قريب منك دائماً! لقد امتزجت روحانا منذ أول يوم قابلتك به!

- ولكنك بعيد عني في جسدك! الروح بدون جسد، هلامة تسبح في الأثير، فلا تُلمس ولا تُرى!

- الروح هي الخالدة، كما تعلمين؛ والجسد هو فان! قال الشاب متفلسفاً!

- هذا صحيح؛ ولكننا، بني آدم، نحتاج إلى الاثنين! إننا لسنا ملائكة؛ نحن بشر؛ ولنا رغبات! قالت شبه محتدة!

- أوافقك على ما تقولين؛ ولكنني لا أريد أن تتحكم بي شهواتي! قال هذا وقد بدأ يحول ناظريه من الجهة المعاكسة إلى حيث ترقد!

وهنا رآها تنهض رويداً رويداً، وهي محدقة به بكل قوتها، فقالت بصوت لاهب وكأنما هو سياط من جهنم تلهب جسده وكل وجوده:

- هل تحبني حقاً يا راكان؟!

فاجأ سؤالها الشاب، بل حيره وأربكه، فسأل:

- وهل تشكين في حبي؟!

- وما مقدار حبك لي؟!

- إنني أحبك بكل كياني وكل ما يتسع قلبي من الحب!

- إذن برهن لي على ذلك! قالتها بتحد.

- وكيف أفعل ذلك؟!

- تعال هنا واضطجع فوقي وقبلني وعانقني!

خجل الفتى كثيراً، بل صدمه كلامها؛ وبطريقة لا شعورية، رفع يده وغطا بها وجهه، وكأنما ليتجنب منظراً مفزعاً، وقال:

- إن قبلاتك في الفترة الأخيرة نيران تحرق شراييني!

- ولم دائماً تتجاهلني، إذن؟!

- أنا لا أتجاهلك؛ ولكنني أحاول أن أحميك من نفسي!

- وما نوع هذه الحماية؟!

- من النيران التي تشتعل في شراييننا، نحن الاثنين!

- وهل يسعدك أن ترى جسدينا يتعذبان؟!

- إنك لا تستطيعين أن تتصوري كم أتعذب بل وكم أقاسي! إنني أتعذب أضعاف ما تتعذبين أنتِ، لأنه أهون على المرأة أن تخمد النيران المشتعلة في داخلها من أن يخمدها الرجل!

- ولماذا المعاناة أصلاً؟! ولماذا لا توقف معاناتك ما زال باستطاعتك إيقافها؟! وما الذي يمنعك؟ ! إنك أنت تريد جسدي وأنا أريد جسدك، فما الإشكال؟! سألت وكأنما حيرها غباؤه!

- آمل أن لا تكوني جادة فيما تقولين! قال بغضب ممزوج بخيبة أمل، وقد صدمته المفاجأة؛ ثم أضاف:

- هل تعنين أن نعاشر بعضاً كرجل وامرأة؟! قال وهو يشعر بخجل شديد!

- ألسنا رجلا وامرأة؟! أليس لنا غرائز جنسية؟! ولماذا يجب أن نخمدها؟! قالت بصوت عال حتى خشي الفتى أن يسمعها أصحاب البيت.

- إن الرجل والمرأة لا يمارسان الجنس إلا إذا كانا متزوجين بعقد نكاح، وإلا اعتبر عملهما زناً! قال الشاب وكأنه وجد حلاً للمشكلة.

- ومن قال ذلك؟!

- الله... الأنبياء... الأديان... الشرائع... النواميس... الأعراف... التقاليد... كل هؤلاء! المجتمع الذي أتيت منه! قال راكان بلهجة ثقة وتحدٍ!

- ألا تعرف أن جميع ما ذكرت أصبحت تاريخ ما أهمله التاريخ؟!

فغر الشاب فمه مذهولاً، إذا أحزنه حتى النخاع أن تؤمن الفتاة التي يحبها ويفكر أن يتخذها أماً لأولاده وشريكة عمره، بهذه المعتقدات؛ وقبل أن يفتح فمه ليقول شيئاً أضافت:

- إن الشباب في هذه الأيام ينامون معاً قبل الزواج، ليتأكدوا من أنهم يناسبون بعضاً جنسياً!

- لقد كنت أفكر أن الحب هو الذي يقرر صلاحهما لبعض؛ وكنت أعتقد أنه لا بد أن تلتقي الأرواح وتتعانق قبل أن تلتقي الأجساد وتتعانق!

- الحب الروحي؛ وحده لا يكفي! يجب أن يكون هناك حب للجسد، حتى تكتمل المعادلة!

- إنني أوافقك الرأي! قال الشاب.

- إذن، ما هي نقطة الخلاف بيننا؟! سألت وقد ابتسمت ابتسامة المنتصر!

- نقطة الخلاف بيننا، هو أن حب الجسد... أعني، لقاء الجسدين يكون بعد الزواج... أي بعد أن يوقع المحبان على عقد الزواج! هذه هي ثقافتي الدينية، والأخلاقية والاجتماعية!

- وإن وجدا أنهما غير متلائمين جنسياً؟!

- إن هذا مستحيل أن يحدث، إذا كانا يحبان بعضاً حباً حقيقياً واعياً؛ إذ إن حبهما هو الذي يقرر صلاحيتهما لبعض! وهنا تحمس الفتى وأضاف:

- إن حب الشابين لبعض يكون حب الواحد لأخلاق وشخصية وسلوك الشخص الآخر؛ تماماً كحبي لك؛ ثم من خلال ذلك يحب الواحد جسد الآخر!

- ألا تعتقد أننا قد نكتشف بعد الزواج، أن حبنا لبعض كان، فقط حباً جنسياً؟!

- إن هذا مستحيل! فأنا أحببت روحك وأخلاقك وأدبك وتصرفاتك ورقتك ولطفك وحنانك، وكل شيء فيك؛ قبل حتى أن أفكر بجسدك! قال راكان مدافعاً ومغتاظاً!

- أما أنا فأستبعد ذلك! قالت بجرأة واعتداد أذهلا راكان!

- نيكول! إن هذا قول مخيف! ماذا حدث لعقلك؟! صاح بها الفتى بصوت متشنج وقد هب واقفاً!

- هذه هي الحقيقة! لقد ولدت أنت وتربيت في عالم محافظ لا يستطيع أن يحيد قيد أنملة عن هذا التفكير! لقد تغيرت الدنيا اليوم؛ فالمعتقدات التي كان يرضى بها الناس أيام جدتي، يسخر منها جيلنا اليوم بل ويحتقرها!

- قد يكون هذا هنا في أمريكا؛ ولكننا في عالمنا العربي، ولله الحمد، ما زلنا نحتفظ بتلك الأفكار، نعتز ونفتخر بها!

- قلت لك هذه أصبحت من موجودات المتاحف، هنا في أمريكا، وستصبح عندكم يوماً! إنك أنت الآن في أمريكا، ويجب أن تؤمن وتتصرف بما يؤمن به الأمريكان ويتصرفون، وإلا فمن الصعب أن تعيش سعيداً!

- لقد عشت في الوطن العربي خمسةً وعشرين عاماً، أؤمن بأخلاقيات معينة، وبقيم ثابتة محدودة، ولا يمكن أن أستبدلها بين يوم وليلة! قال الشاب محتداً!

- يجب أن تفعل، إذا كنت تريد أن تعيش سعيداً!

- إنه زنا وحرام وضد جميع الأديان! أرجوكِ أن تفهمي! قال راكان وقد ازداد غضبه ونفد صبره!

- هل تعرف ما هو التعريف القديم للزنا؟! وهو أن ينام إنسان مع آخر ولكل منهما قرين، أي كل منهما مرتبط بعقد زواج مع آخر؟ أما في هذه الأيام فيسمونه عملاً غير مستحب!

أذهل؛ تعريف المجتمع الأمريكي للزنا والحرام والحلال، الشاب، بل صدمه، وقد فتح فمه على سعته، وبقي محدقاً بها لا يستطيع النطق بكلمة واحدة! ولما رأت الفتاة أن الشاب صامت مذهولٌ لا يقول شيئاً أضافت:

- وقد يتقابل شابان لأول مرة، فيستلطف أحدهما الآخر، فيقررا أن يناما معاً، ثم لا يريان بعضاً بعد ذلك الوقت! إنهما يتطارحان الغرام كنوع من التسلية وقتل الوقت!

وهنا شعر المصدوم بالقرف والتقزز، وأن شعر رأسه قد وقف متشنجاً، وأن عقله على وشك أن يغادر رأسه، فأحسّ بقشعريرة تهزه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه!

- إن هذا زنا مع سبق الإصرار! إنه تدنيس للحب وازدراء لآدمية الإنسان، واحتقارٌ لجميع الأديان والنواميس السماوية!

- أرجوك، دعني أكمل! قالت الشابة بهدوء وهي ترقّص يدها اليمنى بالهواء، وقد لمت أصابعها إلى بعضها!

- أما أنتَ وأنا، فنحن نحب بعضاً حباً عنيفاً، منذ شهور، ثم إننا مخطوبان لبعض، وقد أشهرنا خطوبتنا أمام الناس؛ وسنتزوج بعد شهور قليلة! إن كل ما نحتاجه لنصبح زوجين قانونياً، هو أن نوقّع ورقة أمام رجل دين أو كاتب عدل! نحن الآن شبه زوجين؛ بل أجرؤ فأقول نحن زوجان!

- وماذا لو حملتِ، وحدث لي حادث ومت، قبل أن نوقع على هذه الورقة؟! فماذا تفعلين بالطفل، وكيف ستواجهين المجتمع؟ ! ثم ماذا تظن بي جدتك وقد وثقت بي وائتمنتني؟!

تصور راكان السيدة جوليت تنظر إليه بعينيها البريئتين الصغيرتين نظرة لوم وعتاب فأضاف:

- إنني أفضل الموت علي أن تظن أنني خنت الأمانة! حتى إن الدم يتجمّد في عروقي، وشعر رأسي يف! كنت وقتها مغيباً بالقبر !

- إنك تعاملني وكأنما أنا طفلة قاصرة! ألا تعلم أنني بعد حوالي أربعة شهور، سيصبح عمري واحداً وعشرين عاماً؟ ! لقد نسيت أنه يوجد طرق عديدة للوقاية من الحمل؟! ثم دعني أحمل، أنا مسؤولة عن ذلك الطفل، إن كان هناك طفلٌ! صاحت به غاضبة!

وهنا شعر راكان وكأنما رجولته وكبرياؤه وكرامته، قد أهينت، وأن أخلاقياته ومبادئه ومثله العليا جميعها؛ قد تمرغت بالوحل، فقال:

- إن واجبي كرجل، يلزمني أن أحمل أنا المسؤولية! إن حبي الشديد لك يجعلني أفقد عقلي وأصاب بالجنون، عندما أتصورك تتعذبين من أجل عمل أنا المسبب له! قالها بصوت هادئ حنون، وقد نظر إليها نظرات كلها حب ورجاء!

وهنا نهضت الفتاة ولفت ذراعيها حول رقبته وتطلعت ملياً في عينيه، ثم قبلته قبلة خاطفة على شفتيه، وأسندت رأسه إلى صدرها وقالت بصوت يفيض رقة وحناناً:

- إنني أحبك يا راكان... أعبدك؟ إن حبي لك وهيامي بك يزداد كل يوم؛ وكل ما مررنا بإشكالية يتبرهن لي تمسكك بي، وتزيدني قناعة برجولتك ومواقفك الشهمة والنبيلة!

شكر الشاب الخالق، أن حبيبته اقتنعت أخيراً بفلسفته ومعتقداته، مما أراح ضميره وأسعد قلبه!

أحس الشاب بدبيب دموع تتساقط فوق رأسه، فازداد تأثره، وتابعت الفتاة:

- إنني أتساءل أحياناً إن كنت حقاً أستحقك وأستحق كل هذا الحب الذي تمنحني إياه! إنك لا شك تظن أنني فتاة لا تفكر إلا بالجنس؛ ولكنك لا تدري كم أعاني وأنا معك! إنني أشعر وكأنما يتحول داخلي إلى حمم مجنونة عندما تنظر إلي بعينيك الساحرتين، أو عندما يلامس جسدك جسدي! قالت بلهجة المتوسل المستعطف!

- أنا آسف يا حبيبتي! صدقيني إنني أنا صرت أشعر مؤخراً مثلك، ولكن المشكلة هي أنني لا أستطيع أن أقوم بعمل ضد أخلاقياتي وقناعاتي! قالها الشاب بقهر وعصبية!

استلّ راكان رأسه من بين ذراعيها، وقد أسكره شذى أعطافها؛ فنهض وجلس على حافة السرير وأجلسها في حضنه فدفن وجهه بشعرها وصار يستنشق عطره وينعم بنعومته، ثم صار يداعب خديها ويحدثها عن جمالها وحبه الشديد لها، وبعدها نقل يديه وصار يداعب بهما أذنيها وعنقها ثم أنزلهما إلى صدرها وذراعيها العاريتين، وصار يمر فوقها، وكأنما يهدهدها لتنام!

نظرت الفتاة إلى وجه الفتى فابتسم لها، وكأنما ليؤكد لها حبه، وليجدد لها عهده! كانت كفرس تحمحم عندما ترى أليفها؛ فهاله أن يرى بريقاً مخيفاً ينبعث من عينيها، ورأى شفتيها ترتجفان فغضّ طرفه وحول ناظريه عنها!

فجأة نهضت الفتاة، ودفعت الفتى بصدره عنها، وبقوة إلى الوراء، فسقط على ظهره، ورمت بجسمها فوقه وأطبقت بشفتيها على شفتيه، فأحس الشاب وكأنما تأكل شفتيه وليست تقبلهما، وشعر بأنه يكاد يختنق تحتها!

حاول أن يخلّص نفسه من تحتها بأن دفعها بلطفٍ، بعيداً عنه فلم يستطع، فقد أذهله أن تكون الفتاة تتمتع بكل هذه القوة والعناد والإصرار ! بقي لفترة يحاول أن يخلص نفسه من تحتها، ولكنها كانت قوية كالأسد، ثائرة كاللبؤة؛ وأخيراً لم ير بُداً من أن يشدها بشعرها بعيداً عنه حتى تركته؛ وعندما وقف على قدميه صاح بها بغضب أن تنصرف!

حملت الصبية حقيبة يدها، ثم فتحت الباب وصفقته خلفها وخرجت؛ وبقى هو جامداً في مكانه مذهولاً لا يتحرك، يحدق بالحائط كالأبله.

*****

انبلج الصبح وراكان مازال يتقلب في فراشه، يفكر بما قالته نيكول وما فعلته! لقد حاول أن يجدد مبرراً لأقوالها وعذراً لأفعالها، إذ إنه يحبها حتى العبادة ولا يستطيع أن يعيش بدونها! لقد أصبحت عاملاً مهماً في حياته، بل ركيزة من ركائز سعادته ووجوده! إنه لا يريد أن يفقدها، لأنه بفقدها فسيفقد عقله وأمنه، وسينطفئ السراج الذي ينير ظلمته والأمل الذي يشجعه على الاستمرار في غربته ووحدته!

إن نيكول تختلف عن غيرها من الفتيات؛ فهي بالإضافة إلى جمال جسمها المميز، جميلة في أخلاقها وتصرفاتها، رقيقة في عواطفها وأحاسيسها، مثقفة ثقافة رفيعة على الرغم من صغر سنها، بالإضافة إلى كل هذا، فهو يحبها حباً جنونياً! إن لها عقلاً كبيراً وروحاً سامية!

لقد سما به حبها ورفعه من درجة حب الأجساد إلى عبادة الأرواح. لقد كان قبل أن يعرفها مغرماً بأجساد الفتيات... ليضاجعها... ليغرق وجوده في ذاتها؛ وإنّ حبها رفعه من درجة الحيوانية إلى درجة روحية، سماوية! لقد حوله حبها من وحش يهيم بالأجساد ويتمرغ بالشهوة، إلى متيم بالجمال عابد للروح؛ ورفعته من الوحل إلى قمة الطهر والنقاء! والآن ها هي تريده أن ينزل من عليائه إلى الحضيض...! تباً للرغبة الجنسية التي أوجدها الخالق بنا! ليته خلقنا كالملائكة بلا رغبات ولا شهوات، فنعيش على التسبيح والتهليل!

لقد اعتقد عندما أحبها بأنها كانت تختلف عن بقية النساء، ولكن ويا للأسف، وجد أنها واحدة منهن! لذات الجسد تأتي أولاً، وسعادة الروح ليست بذات قيمة!

لعن راكان مجتمعه الجديد، هذا المجتمع الذي تسيطر عليه الشهوة ويتحكم به الجنس! إنها تصر على أن تكون مثل جوليانا وجيسيكا أو كالسيدة جيري، عقولهن مبرمجة بفروجهن!

لقد حاول أن يجد لنيكول عذراً يبرر به فعلتها أمام نفسه، حتى لا يُفجع بها! إنه يريد أن لا يرى أحلامه تنهار، ولا مثله العليا أن تتحطم!

إن أعصابه لا تستطيع أن تتحمل فجيعة جديدة!

لقد حاول الفتى أن يقنع نفسه بأنه الآن يعيش في مجتمع جديد يختلف كثيراً عن مجتمعه العربي! إن المرأة في المجتمع العربي، في كثير من الأحيان، خادمة للرجل، بل عبدة ذليلة له! إنها تشتهي الرجل وتريده ولكنها لن تسأله أن يطارحها الغرام، لأن المجتمع وليس الدين، زرع في عقلها منذ ولادتها، بأن هذا ضد أنوثتها، وضد تربيتها، وضد الأخلاق والعرف والعادات والتقاليد، وتعتبر أن الرجل عندما يطارحها الغرام، هو كرم أخلاق وفضل منه؛ بل منّة يمنها عليها! أما هنا، في بلد الحرية والديمقراطية، فالمرأة مساوية للرجل، ولها حقوق حتى أكثر منه! إنها تطلب إليه أن يطارحها الغرام عندما تريد هي وليس عندما يريد هو، لأنها هي صاحبة الجسد الذي يمنح اللذة!

عندما أعلنت الساعة الثامنة إلا ربعاً، فتح راكان باب غرفته، وكله أمل أن تكون نيكول تنتظره كعادتها صباح كل يوم، لتوصله إلي مكان عمله، ولكن لشدة خيبته لم تكن هناك؛ وعندما مرت خمس دقائق بدأ يقلق، وعندما مرت خمس دقائق أخرى داخله الشك بحضورها، وعندما أعلنت الساعة الثامنة، تأكد له بأنها لن تحضر!

هرع إلى الهاتف العمومي وتكلم مع الجدة التي أعلمته بأن نيكول قد عادت الليلة الماضية إلى البيت غاضبة ورفضت أن تعلمها السبب، وأنها قد غادرت البيت هذا الصباح مبكرة، وأسفت أنها لم تمر عليه لإيصاله، وطلبت إليه الجدة أن يركب الحافلة إلى مكان عمله!

طلب إليها الشاب أن تهاتف مكان عمله وتعتذر لهم عن تأخره، بسبب ظروف قاهرة، وأن تعلمهم بأنه سيكون على رأس عمله في تمام التاسعة!

حاول الفتى المسحوق، خلال ساعات النهار، مرات عديدة، أن يكلم نيكول في الشركة، فكانت تتجاهله، وحاول وقت الاستراحة وساعة الغداء، ولكن دون جدوى، وقضى يوماً من أتعس أيام حياته!

فكر الشاب أن لا يذهب إلى بيت السيدة جوليبيت بعد انتهاء ساعات العمل، كما كان يفعل هو ونيكول في كل يوم، وأن يذهب إلى غرفته ويقضي ليلته وحيداً؛ ولكن مجرد الفكرة جعلته يشعر بأنه يكاد يختنق ويموت ألماً وحزناً؛ ولذلك صمم على الذهاب!

ما كادت الجدة تراه مقبلاً من البوابة الخارجية، حتى هرعت نحوه وقابلته عند الباب وعانقته وقبلته على جبينه، وقالت بصوتها الحنون الذي يفيض رقة وعذوبة:

- الشكر لله! لقد كنت خائفة أن لا تأتي! وهنا رفعت رأسها إلى السماء وأضافت:

- الشكر لك يا رب أنك استجبت لأدعيتي؛ فألهمت راكان أن يأتي إلى بيته هنا، وأن لا يذهب إلى غرفته! ثم التفتت إلى الفتى وقالت:

- اذهب واستحم، فإن العشاء جاهز!

جلس الشاب على طاولة الطعام قبالة الجدة، منهوك القوى محطم الأعصاب، يمزقه الحزن ويقتله اليأس، وصار يلقي الطعام بجوفه دون أن يتذوقه!

كانت المرأة الملاك تبتسم إليه وتحدثه بصوتها الهادئ العميق، عن السيدة بويكو وعن زوجها وأولادها، وكيف أنهم يفكرون بشراء قارب صغير يستعملونه في إجازاتهم، وكيف أنهم طلبوا منها أن يضعوه خلف بيتها وفي أرضها لأن أرضهم صغيرة ولا تتسع له!

بقيت المرأة تحدثه عن أشياء تافهة حتى انتهيا من تناول الطعام، وبعد أن غسلا أدوات الأكل وضعت إبريق الشاي على النار، وبينما كانا يشربان الشاي طلبت الجدة إليه أن يقرأ لها بعضاً من شعر ملتون، الشاعر الإنجليزي الذي تحبه كثيراً؛ وذكرت له رقم الصفحة!

بدأ راكان يقرأ بصوت حزين مخذول، وقد استرسل مع عواطفه، فقد كانت كلمات القصيدة رقيقة ومؤثرة، ولم ير نفسه إلا وهو ينفجر في بكاء عميق!

قامت المرأة من على مقعدها وجلست إلى جانبه على المقعد الكبير ومدت يدها اليسرى وأمالت رأسه حتى وضعته في حجرها، وصارت تتمتم بصلوات لم يفهمها هو!

بقي الفتى يبكي بحرقة ولوعة تدميان القلب، والمرأة لم تطلب إليه أن يتوقف عن البكاء؛ بل إنها لم تفتح فمها لتقول له شيئاً، وإنما ظلت تربت بيدها على رأسه؛ تماماً كما كانت تفعل أمه بالوطن، عندما كانت تصيبه ساعة من ساعات الضعف العاطفي، فتقرأ على رأسه ما تحفظ من آيات الذكر الحكيم!

قضى الشاب أكثر من عشرين دقيقة واضعاً رأسه في حجر الجدة، وكان بين الفينة والفينة يحس بدبيب دمعة تسقط فوق أذنه أو على صدغه؛ إذ لا شك أن العجوز كانت تشاركه بكاءه هي الأخرى!

عندما توقف راكان عن البكاء، طلبت إليه أن ينهض ويغسل وجهه، ولما عاد كانت تجلس في مكانها، فجلس هو في مكانه، وقالت بصوت حازم ونبرة قوية على الرغم من وهنْ المرأة التي تدق أبواب التسعين عاماً!

- إنني أريدك أن تعرف هذا: لقد اعتبرتك ابناً لي منذ أن دخلت بيتي لأول مرة، ومنذ أن وقعت عيناي عليك؛ وإنني سأظل اعتبرك هكذا حتى أموت!

وهنا خنقتها عبراتها، ولكنها كتمتها، وأضافت:

- وسواء تزوجت أنت ونيكول أم لم تتزوجا؛ فإن هذا البيت سيظل مفتوحاً لك، ومرحِّباً بك، تدخله وقت ما تشاء، وتخرج منه وقت ما تريد! إنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض ، يستطيع أن يمنعك من دخوله، ما زلت أنا حية!

لم يقل راكان شيئاً، وإنما نظر إليها نظرة حب وامتنان، لا تستطيع صفحات طويلة أن تعبر عن عمقها وصدقها! وتابعت الجدة:

- أما بخصوص ما حدث البارحة بينك وبين نيكول، فأؤكد لك يا بني، بأنه سوء فهم مؤقت! إن نيكول تحبك كثيراً كثيراً، وتحترمك إلى أبعد الحدود؛ ولكنها البارحة شعرت بأنها أهينت كرامتها وأذلت أنوثتها! لقد أعلمتني، وهي تبكي، بأنها لم تشعر أنها ارتكبت حماقة كما فعلت الليلة الماضية! وابتسمت العجوز ابتسامة شاحبة وأضافت!

- إنها خجلى أن تواجهك! يجب أن تعرف يا بني أن هناك اختلافاً كبيراً بين المجتمع الذي أتيت منه، والمجتمع الذي أتيت إليه؛ وإنكما لا يمكن أن تريا بعض العادات والتصرفات بنفس المنظار! إن هذا يحتاج إلى بعض الوقت حتى تتعودا على بعض، وحتى تفهم أنت عادات مجتمعنا وتتأقلم به. وهزت المرأة رأسها وأردفت:

- إن هذا شيء طبيعي يا بني؛ وإنني لواثقة تماماً بأنكما ستتغلبان على مثل هذه العقبات، خصوصاً وأنا أثق بك وأعرف أخلاقياتك وتربيتك!

- إذن لقد أعلمت الحفيدة جدتها! قال الشاب لنفسه؛ ثم سأل العجوز بصوت واهن!

- أين هي الآن يا أماه ؟!

- لقد جاءت إلى هنا، وهاتفت صديقتها كارول، وذهبتا لتتناولا طعام العشاء!

- إذن، يجب أن أنقطع عن المجيء إلى هنا، حتى لا تضطر أن تأكل بالخارج!

- إنك لن تفعل هذا! صاحت العجوز بإنكار؛ ورافقتها بهزة من إبهام يدها!

- إنها لن تأتي إلى البيت وأنا موجود به!

- طبعاً ستأتي! فقط الليلة! قد لا تكلمك لعدة أيام، ولكنها ستكون هنا صدقني!

- هل أنتِ واثقة يا أماه؟! سأل الشاب بمذلة واستجداء.

- كما أنا واثقة من وجودك أمامي الآن.

لقد هيج كلام الجدة عواطف راكان، فنهض وعانق العجوز وقبلها على جبينها وقال:

- ما أسعدني بك يا أماه!

- إنني سعيدة وفخورة أن يكون لي ابن مثلك! قالت العجوز وهي تقبله على رقبته.

- هل أنتِ واثقة أننا سنعود إلى سابق عهدنا؟! ونعيش سعداء كما كنا؟! سأل الشاب بقلق عاصف.

- طبعاً يا بني، طبعاً! وبسبب معرفتي الأكيدة لحبها الشديد لك، فإنني واثقة أن المسألة لن تأخذ سوى بضعة أيام! على كل حال تجاهلها، وتصرف ببرود ولا أبالية نحوها؛ ولا تكلمها إلا إذا هي ابتدأت ذلك! أجبها باختصار، ولكن بنفس احترامك السابق لها!

- كما تأمرين يا أماه! سأتقيد بنصائحك إلى أبعد حدود!

- تبدو لي أنك مرهق جداً؛ فلم لا تذهب وتأوي إلى فراشك!

وقبل أن يجيب الفتى نهضت وهي تقول:

- لقد نسيت أن أغير لك الشراشف، فتعال معي لنتساعد على وضع شراشف جديدة.

- لا يا أماه! سأذهب إلى غرفتي! قال الفتى وهو ينهض.

- كما تشاء يا بني! لن أضغط عليك، ولكن دعني أطلب لك سيارة أجرة، أو أطلب إلى جارتنا السيدة بويكو أن توصلك! إنها لن تمانع وستكون سعيدة أن تلبي لي مطلباً!

- لا يا أماه! سأمشي، المسافة قصيرة، تصبحين على خير! قال ذلك وقبلها على رأسها، وانصرف؛ وكانت الساعة قد جاوزت التاسعة ببضع دقائق.

*****

قضى راكان أربعة أيام بعذاب جهنمي؛ وشعر بعد انقضاء هذه الأيام الأربعة بأنه قد كبر عشر سنوات!

كان يعرف عظيم حبه لنيكول ومقدار ولعه بها، ولكنه لم يشعر أنها كانت ضرورة لحياته إلى هذه الدرجة! كان يحس وكأنما فقد أهله جميعاً؛ وكذلك أقاربه وجميع أصدقائه! لقد شعر، ولأول مرة، أنه غريب حقاً، وأنه يعيش في وطن لا تربطه به، ولا بأهله أية رابطة! ولعله لولا وجود السيدة جوليت ووقوفها إلى جانبه ومساعدتها له، لكان، وبلا أدنى شك، أصابه جنون وانهيار في الأعصاب! وكم شكر الله بحرارة ومن أعماقه أن يسرها له!

كان يمر كل يوم عشرات المرات من أمام مكان تواجد نيكول، متظاهراً بالقيام بأعمال يؤديها، على أمل أن تناديه وتكلمه، أو حتى تبتسم له، ولكن دون فائدة؛ فقد كانت دائماً تتجاهله وتتجنب حتى أنها رأته!

كان الشاب دائم العبوس مشتت الذهن ولا يكلم أحداً، إلا إذا طلب أحدهم منه شيئاً، وإن كلمه فلا يكلمه إلا باقتضاب، حتى ظن بعضهم، وخصوصاً رئيسه المباشر، بأنه لا بد وصلته أخبار سيئة من الوطن!

إن الذي أرعب راكان وقضى على البقية الباقية من آماله ومن شجاعته أيضاً، عندما طلبت منه السيدة أوكييف، ضحى اليوم الثاني أن يساعدها في حمل بعض الكراتين من غرفة الخزين إلى قسم ملابس النساء الداخلية، وأعلمته شديد أسفها أن تسمع أنهما، هو ونيكول، قد فسخا خطبتهما، وأنهما لم يعودا حتى أصدقاء!

- ومن أعلمكِ ذلك؟! سألها الفتى مرعوباً!

- نيكول نفسها! قالت وهي تواسيه بنظراتها الحنونة.

- وهل ذكرت السبب؟! سأل بلهفة.

- لم تحدد بالضبط، وإنما قالت أنكما لم تريا الأشياء بنفس المنظار، وذلك بسبب اختلاف الحضارتين!

عندما أعلم راكان الجدة ما نقلته إليه السيدة أوكييف، ضحكت العجوز حتى بدت أسنانها المستعارة وقالت:

- لا تصدقها يا بني! إنها تريد أن تثير غيرتك، وإلا لما ذهبت وأعلمت السيدة أوكييف التي لا تريدها، وتشكو من تصرفاتها الحميمة معك؛ هذا بالإضافة إلى قناعاتي وما يؤكده لي قلبي الذي لم يضللني!

على الرغم مما قالت العجوز، فقد كان لدى الشاب إحساس عميق بأن نيكول جادة في قطيعتها، وليس كما أكدت له الجدة!

كان راكان يعود من عمله كل مساء إلى بيت الجدة، والتي كانت تعلمه بأن نيكول قد جاءت واستحمت وهاتفت صديقتها كارول وخرجت!

- لقد فهمت منها أن الفتاة التي تقاسم الصديقة كارول شقتها، قد ذهبت في إجازة، ولمدة أسبوع، لزيارة والديها اللذين يسكنان في مدينة " كليف لاند "، في ولاية أوهايو؛ وأنها ستعود مساء يوم الأحد القادم! لا شك أن هذا ما شجع نيكول على أن تخرج كل ليلة، إذ إن الفتاتين تخرجان فتتناولان طعامهما سوية، ثم يذهبان بعدها إلى أي مكان من أماكن التسلية. توقفت العجوز قليلاً، وبعد أن ابتسمت أضافت:

- إنها تهاتفني قبل أن تحضر، وتسألني إن كنت ما زلت موجوداً، فأعلمها بأنك انصرفت، فتقول إنها الآن قادمة.

- ألا تعتقدين يا أماه بأنني يجب أن أنقطع عن الحضور، حتى لا تضطر هي للمغادرة؟! سأل الفتى وإن كان في قرارة نفسه يتمنى لو أن الجدة ترفض طلبه!

- سأحزن كثيراً إن فعلت! البيت كبير، فإذا كانت لا تحب أن تجلس معنا، حيث نجلس؛ فإن باستطاعتها أن تجلس في أية بقعة تحلو لها؛ في غرفتها مثلاً!

شكر الشاب الجدة، بل شكر الله الذي ألهمها هذا الجواب.

كان من عادة راكان أن يذهب إلى غرفته، وبعد أن يمكث بها بعض الوقت، يعود ويرقب بيت الجدة من بعيد، ليرى إن كانت سيارة نيكول في مكانها فيطمئن قلبه ويأوي إلى فراشه وهو مرتاح البال نوعاً ما!

حدث هذا في الثلاثة ليالي الأولى؛ أما في الليلة الرابعة، فقد انتصف الليل وراكان يقطع المسافة، ذهاباً وعودة بين بيت السيدة جوليت وغرفته، فيجد أن مكان سيارة نيكول مازال خالياً؛ فيشعر وكأنما نار تلتهم جوفه وتحرق أحشاءه، إذ يتصور حبيبته في أحضان رجل غيره، يتبادلان القبل ويتطارحان الغرام، فيجن جنونه ويفقد اتزانه؛ ويشعر وكأنما سكاكين حادة تمزق جوفه، وكأن سياطاً من نار جهنم تلهب جسده، وأن جمراً مشتعلاً يشوي لحمه!

بعد أن تعانقت عقارب الساعة بقليل، رأى السيارة تدخل معبر بيت الجدة، وشكر الله وهو يرى نيكول تنزل منها وتدخل البيت!

أما الليلة الخامسة فقد كانت أسوأ ليلة في حياته منذ أن ولدته أمه!

لقد عاد الشاب إلى غرفته بعد أن تعانق هو والسيدة جوليت وبعد أن قبلته المرأة على رقبته وجبينه كعادتها، طلبت إليه أن يرحم نفسه؛ إذ أعلمته بأنها تقضي معظم الليالي وهي تصلي وتطلب من الخالق أن يزيل سوء الفهم الذي حدث بينه وبين حفيدتها، وأن يعودا إلى بعض، كما كانا في السابق!

ما كاد يفتح باب غرفته حتى وجد رسالة زرقاء ملقاة تحت الباب. إنه يعرف هذه الرسائل جيداً! إنها رسالة من الوطن الحبيب، تحمل طابعه يكتبها عادة أخوه على لسان والدته!

خطف الرسالة من على الأرض، وكأنما كان يخطف يد والدته ليقبلها بكل مهابة وتقديس، ومن ثم يرفعها ليضعها على جبينه، ثم ليلقي بنفسه في أحضانها؛ وليظل يبكي ويبكي حتى تنفد ما في مآقيه من دموع!

كانت رسالة تفيض بالحنين والعاطفة، وتشتعل بالمحبة والأشواق؛ يعلمه أخوه بأنهم جميعاً قلقون جداً لعدم استلام رسالة منه منذ أكثر من شهرين، وأن والدته ملازمة الفراش خوفاً من أن يكون قد حدث له مكروه!

لقد كان مشغولاً بنيكول، يمضي وقتاً طيباً معها! لقد أنساه حبها حتى أمه التي تعذبت وقاست، وذُلّت وأُهينت، والتي ضحت بحياتها من أجله، ومن أجل أخيه وأخواته!

أحس الشاب بأن أحزانه تتضاعف، وأن آلامه تتعمق، وأن جراحه بدأت تنزف من جديد، وتمنى لو أن أمه أمامه الآن، لكان ألقى بنفسه في حجرها، كما فعل كثيراً أيام وجوده معها، ويظل يبكي ويبكي، حتى يتحول جسمه كله إلى دموع!

بعد أن قرأ الرسالة للمرة الخامسة، أخرج من درج مكتبه دفتر رسائل وصار يكتب... لم يكن يكتب رسالة؛ كان يكتب شكواه... كان يصب آلامه على الورق، ويذيب أحزانه في الحبر!

لقد شعر بتأنيب ضمير موجع، لإهماله الكتابة إلى أمه، بل لانقطاعه حتى عن التفكير بها؛ وعلل سبب هجران نيكول له، انتقاماً من الخالق، جلّ وعلا، لعدم كتابته إلى والدته ونسيانه لها!

كان يكتب ويكتب، كأنما امتلكه شيطان! كان يكتب كل ما يخطر على باله دون ترتيب ولا اعتناء! كان يكتب رسالة شكوى إلى الخالق وإلى أمه، وظل يكتب ويكتب، حتى كتب صفحات وصفحات، ولم يكف عن الكتابة حتى رأى السطور تزوغ أمام عينيه، وحتى صارت الصفحات تسبح أمام ناظريه، وأحس أن يده لم تكن جزءاً من جسمه، وإنما هي قطعة من الخشب ألصقت به! أما عقله، فقد توقف عن التفكير، وأصبح وكأنما هو طبل أجوف!

وضع رأسه على الرسالة فوق الطاولة وراح في سبات عميق! لم يدر كم مضى عليه نائماً عندما استيقظ مذعوراً على صوت سيارة إسعاف تمر غير بعيدة من غرفته! أحس بقشعريرة تهز كيانه، فنظر إلى ساعته فإذا هي قد تجاوزت الواحدة والنصف ببضع دقائق! فتح الباب وخرج، وظل يركض حتى وصل بيت السيدة جوليت وهناك شاهد سيارة نيكول، فشعر بحنين طاغ إلى صاحبتها، فمد يده وصار يتحسس مقبض الباب وكأنما يتلمس يد نيكول! وأخيراً قفل راجعاً، وكانت دموعه تتساقط من مآقيه حتى كان يضطر أحياناً لمسحها بظهر يديه ليستطيع أن يتبين طريقه!

هل الألم يقربنا من الخالق؟! هل يصقل أرواحنا ويرقق قلوبنا ويهذب طباعنا؟! وهل يجعل منا عقلاء وحكماء وفلاسفة؟!

لقد جعل الألم من راكان متصوفاً وسما بروحه حتى وصل درجة من السمو، شعر وكأنما روحه قد اتحدت مع ملكوت الخالق سبحانه وتعالى!

لقد بقي راكان يدور فوق أرض غرفته كالكلب المسعور، إذ ظل يضرب رأسه بقبضة يديه، وكأنما لينتقم لوالدته من نفسه، ثم يشد شعر رأسه حتى يحس بأن الجلدة قد انفصلت عن الجمجمة!

لم يدر كم مضى عليه وهو يفعل ذلك، فقد استيقظ حوالي الساعة الرابعة صباحاً، فوجد نفسه ملقى على السجادة فوق أرض الغرفة، وقد تيبّست أطرافه، فقام وألقى بنفسه فوق الفراش بعد أن ضبط منبه الوقت!

*****

كان اليوم يوم سبت، ولقد صمم راكان أن يفعل شيئاً يغير نهج حياته في نهاية هذا الأسبوع! إنه لم يدر ما هو هذا الشيء! هل يذهب ويظل يشرب ويشرب حتى يفقد الوعي ولم يعد يشعر بما حوله، فينسى نفسه وكل وجوده؛ أم هل يترك عمله ويرحل إلى مدينة أخرى أو حتى ولاية أخرى، يبتعد عن نيكول ولا يعود يفكر بها؟!

لم يدر الفتى ماذا يفعل، إذ وصل إلى درجة مخيفة من الإرهاق الجسمي والعقلي والعاطفي، وكذلك بلغ شأواً من القهر والإذلال والإحباط! إنه لا يستطيع أن يعيش ليلة أخرى، وكلما يتصور نفسه بأنه يفعل، فإنه يسد بأصابع يديه على أذنيه حتى لا يسمع، ويضع كفتي يديه على عينيه، وكأنما ليمنعهما من رؤية عذاباته ومعاناته في هذه الليلة القادمة!

كان يحس بأن دماغه قد تحجر في رأسه وفقد حاسة التفكير، وتمنى لو أنه يستطيع أن يذهب ويلقي بنفسه في أي مكان لينام... ليغيب عن الوجود، لأيام... لأسابيع... لشهور... لسنوات... بل حتى إلى آخر يوم من عمره!

اللعنة! اللعنة! كم يذل الحب أحياناً، وكم يدمر! إنه بدلاً من أن يسعد الإنسان ويسمو بروحه وعواطفه وتفكيره، فإنه يتعسه وينزل به إلى أعماق الحضيض!

لقد مر الفتى عشرات المرات من أمام تواجد نيكول، وفي كل مرة كان يأمل أن تناديه وتسأل عن أحواله، فيجلس عند قدميها ويعلمها كم قاسى وتعذب بسبب هجرانها له! ولكنها سامحها الله، لم تفعل! لقد كانت دائماً تتجاهله، وكانت دائماً تدير له ظهرها!

إنه لو عرف أن اعتذاره؛ بل توسله إليها سيجعلها تسامحه، لكان جثا عند قدميها، أمام العاملين والزبائن أيضاً، ولابتهل إليها أن تسامحه وتغفر له غباءه، إذ إنه لا يستطيع أن يحتمل هجرانها ليلة أخرى، بل لا يستطيع أن يعيش بدون حبها وبعيداً عنها!

كان الفتى كعادته في مثل هذا الوقت من اليوم، يجمع أوراق وكراتين النفايات من الأقسام، ويضعها في العربة الكبيرة التي يدفعها، ليأخذها ويلقي بها في الحاوية الضخمة المتواجدة خلف العمارة.

وكان قد انتهى لتوه من إفراغ نفايات ما وجده في قسم السيدة أوكييف، وتقدم باتجاه قسم نيكول عندما سمعها تقول بصوت عال لأحد الزبائن الذي كان يتفحص بذلة رياضة أطفال؛ وكان بصحبته زوجٌ من الأطفال، وقد التقت عيناها بعيني راكان، الذي ارتعد قلبه واحمرّت أذناه ووجنتاه!

- إنني أحب أن أُدعى إلى حفلات راقصة!

- أليس لك صديق؟! إنني أستغرب أن لا يكون لفتاة مثلك حبيب، ولك كل هذا الجمال!

- لقد كان لي حبيب إلى عهد قريب فافترقنا! إننا لم نر الأشياء بنفس المنظار!

- لا تقلقي! سيعود إليك! لا أظن أنه سيجد من عندها مثل جمالك وقوة شخصيتك!

- ولكن صديقي لم يعتقد هذا! قالت بدلال!

- هناك بعض الرجال لا يشعرون بقيمة حبيباتهم إلا بعد أن يفارقوهن! إنهم عندما يتبيّنون ذلك، يعودون إليهن سريعاً! صدقيني، لقد جربت ذلك بنفسي!

غلا الدم في عروق الفتى وشعر أن الدنيا تغيم أمام عينيه، وتجمدت يداه فوق العربة التي يدفعها، إذ صار يرتجف، ولم يستطع أن يسمع بقية المحادثة، فدفع العربة بعنف وقوة وابتعد عن المكان!

دخل الشاب أحد المراحيض على عجلٍ، وبعد أن أغلقه عليه وجلس فوق حجره؛ وضع يديه فوق معدته وكأنما ليوقف السم الزعاف الذي يأكله، وقد انحنى إلى الأمام ليوقف النار المندلعة في أحشائه!

لقد أحسّ وكأنما دماغه هو الآخر يوشك أن يتفجر، فقضى بعض الوقت وهو يتلظى من شدة الألم؛ إذ شعر وكأنما قلبه طير ذبيح يتلوى في صدره!

كانت الغيرة كوحش مفترس تلتهم قلبه وتكتم أنفاسه، وبقي يقاوم ويقاوم حتى شعر أخيراً أن كيانه كله مثخن بالجراح، وأنه فقد إحساسه بالألم، وأن جسمه كله قد نُوّم، وكأنما أُعطي إبرة مخدر!

أغمض عينيه، وحاول أن ينام فوق حجر المرحاض، فقد شعر ببلادة ثقيلة تلفّ جسمه؛ إذ تعطلت كل حواسه، وتوقفت عن القيام بواجباتها!

لا يدري كم طالت فترة غيبوبته الهلامية، عندما قفز واقفاً وفتح باب المرحاض على عجل وخرج يركض فوق أرض الطابق الأرضي، وكأنما كان عفريت يركبه!

كان وهو يركض يشعر وكأن الفكرة نار تحترق داخل رأسه، فيسرع في جريه فيزداد اشتعال النار!

- هوّن عليك يا هذا! لا عمل في الشركة يستحق الجري بهذه السرعة! قال رئيسه وهو يبتسم عندما قابله ورآه يركض!

لم يتوقف الفتى عن الجري، فقط صار يقفز كل درجتين معاً، فكان كلما اتضحت الفكرة وتبلورت في رأسه كلما ازدادت اشتعالاً، وكلما أسرع في جريه!

توقف الشاب عن الجري قبل أن يصل قسمي ملابس النساء الداخلية وملابس الأطفال ببضعة أمتار، حيث لاحظ أن السيدة أوكييف ترتب ما تناثر من الفساتين؛ ورأى نيكول تساعد جدة وحفيدتها على اختيار بعض القمصان.

وقف للحظات يراقب السيدة أوكييف ويتأمل وجهها الملائكي، دون أن تحس بوجوده، وشعر وكأنما كانت تقبله بعينيها، ولما رأته ابتسمت له، وحيته بصوت رقيق حنون، يفيض عذوبة وحناناً، وبعد أن رد تحيتها ابتسم، وسألها بصوت عال تعمد أن تسمعه نيكول:

- هل أحضرتِ غداءك معك اليوم؟!

هزت المرأة رأسها علامة النفي، وقد ظهر على وجهها علائم التفكير، وكأنما تحاول أن تعرف سبب هذا السؤال الغريب!

- أنا لا أحضر معي غداء! أنا أتناول عادة صحناً من السلطة الخضراء المشكلة أو صحناً من الشوربة، في المطعم المجاور!

- لا شك أنك لم تدخلي مطعم "العصافير العاشقة"! لقد افتتح الأسبوع الماضي، وطعامه، كما يقولون بالعربي، تأكلين أصابعك مع الطعام، لجودة طعمه! وأنا يسعدني جداً أن أدعوك إلى الغداء به هذا اليوم، فهو يبعد تقاطع شارعين من هنا؟

لمح راكان بطرف عينه اليمنى، فوجد أن نيكول تصغي إلى حديثهما باهتمام شديد، وإن كانت تتظاهر بالتحدث إلى الزبونة!

- طبعاً نحن الثلاثة؛ أنت ونيكول وأنا؟!

- لا، فقط أنت وأنا!

- ولم لا تذهب نيكول معنا؟!

- أنا أدعوكِ أنتِ، وليس نيكول! أنا أحب صحبتك أنت، ولا أحب صحبة نيكول! لم أعد أطيق رؤيتها! قالها الفتى بصوت أعلى متصنعاً القرف والاشمئزاز!

- ولكنني أحب أن تذهب معنا! قالت المرأة بتوسل!

- إنها إن ذهبت فستكون ضيفتك، وليست ضيفتي!

- يسعدني أن تكون ضيفتي، فهي صديقتي الحميمة! قالت ذلك ثم التفتت إلى نيكول وقد رفعت صوتها:

- أن راكان يدعوني إلى الغداء في مطعم افتتح الأسبوع الماضي، ويقول بأن طعامه رائع، وأنا أحبك أن ترافقينا وسأرتب مع السيدة هانسون لتحل مكانك ساعة الغداء!

- لا، شكراً، سأذهب إلى مطعم "بيرقر كنج"! قالت نيكول بحزن مزق قلب راكان، حتى ولشدة ألمه، فكر أن يصارحها بالحقيقة، ويعلمها بأن ما يقوم به هو تمثيلية ليثير غيرتها!

- على كل حال، سأمر عليك الساعة الثانية عشرة! قال الشاب ذلك وانصرف مسرعاً، والكون كله لا يتسع لفرحته؛ وصار وهو يسير وكأنما له جناحان يحلق بهما في الفضاء، كما خيل إليه أن أرض الشركة قد انقلب إلى ساحة رقص، وأن عربة النفايات التي يدفعها، هي فتاة رشيقة يراقصها!

ما أغباك يا راكان وما أبلد تفكيرك! لمَ لمْ تفكر بهذا من قبل؟! إنك تعرف أن نيكول تغار حتى النخاع من السيدة أوكييف، وتعتبرها المنافسة الوحيدة لها؛ وأنها طالما طلبت إليك أن لا تكلمها وأن لا تكون لطيفاً معها! ألم تلاحظ كيف كانت ترتجف وكأنها مصابة بالحمى، وتكاد تبكي وهي تجيب على سؤال السيدة أوكييف؟!

إن راكان يقسم بأغلظ الأيمان، أنه بعد أن ذهبت السكرة وجاءت الفكرة، كما يقولون؛ بأنه شعر بندم شديد وألم عميق على تصرفه هذا! لقد اعتبر أن تصرفه هذا – مهما كانت الأعذار والمسببات – كان عملاً لا رجولياً ولا حتى أخلاقياً! ليسامح الله نيكول التي أرغمته على هذا التصرف الوضيع والمقرف!

إن الذي زاد في حزن الفتى وغضبه على نفسه، هو أنه بعد أن ابتعد عن المرأتين، ووقف مختبئاً خلف أحد الأعمدة المزروعة في أرض الشركة، لاحظ أن المرأتين كانتا تتكلمان، ورأى أن نيكول، تمسح دموعها بظهر يديها، بين الفينة والأخرى!

- لقد كانت دعوتك لي، مؤلمة جداً لها! لو رأيت الحالة التي كانت عليها بعد انصرافك، لحزنت جداً عليها! لقد اختفت خلف أحد الحواجز وبقيت لفترة ليست بالقصيرة تبكي، وعندما عادت كانت عيناها حمراوين كالدم! قالت السيدة أوكييف بعد أن مسك لها راكان الكرسي لتجلس، وسحابة من الحزن تخيم على محياها!

- إنني آسف يا بتريشا أن ألجأ إلى هذا النوع من التصرف الذي أعتبره رخيصاً وغير أخلاقي، ولكنها سامحها الله، هي التي أرغمتني على أن الجأ إلى مثل هذا! لقد كنت، والله، أتمزق من الداخل، وأنا أراها تتألم. قال راكان بحماس وصدق.

- لقد شعرت بألم شديد لحالها، ولولا رغبتي في مساعدتك، لذهبت واعتذرت لها، ولأعلمتها بأنني غيرت رأيي في قبول دعوتك! ثم ابتسمت ابتسامة باهتة وأضافت:

- ولكنت ما قبلت الدعوة من البداية! لقد رأيتك تتعب طيلة تلك الأيام، وكنت أتألم كثيراً لحالتك! لقد حاولت مراراً أن أفاتحها بموضوع القطيعة بينكما، علني أحاول أن أقنعها بأن تعودا لبعض، ولكنها كانت دائماً تصدني، وتطلب إليّ أن أبقى خارج هذه المشكلة!

- إذن، كنت تعرفين القصد من دعوتك؟!

- طبعاً! ألم تكن تعرف أنت، إنني فهمت القصد من دعوتك لي أمامها؟ ! سألت وقد اتسعت حدقتا عينيها!

- في الحقيقة، لم أكن واثقاً! لقد خفت أن ترفضي دعوتي فتحرجيني أمامها، وتفشل خطتي! بالمناسبة! في اللحظة التي وقفت بها أمامك وحييتك، وحالما فتحت فمي لأدعوك، جاءتني ومضة فكر، وهي؛ لماذا لم أتفق معك مسبقاً، وأعلمك بالخطة! على كل حال، أشكر لله الذي جنبني الإحراج!

وهنا جاءت النادلة، فطلبت السيدة أوكييف صحن سلطة خضار مشكلة وفنجان قهوة، أما راكان فقد كان جائعاً جداً، وشعر بأنه يستطيع اليوم أن يأكل كل ما في المطعم من أكل، حيث إنه لم يأكل في الأيام الماضية إلا القليل؛ فطلب هامبيرجر كبيراً مع بطاطا مقلية، وصحن سلطة خضراء، وكأساً من الحليب المثلج!

- هل تحب نيكول يا راكان! فجأة سألت المرأة!

- أكثر من حبي لعيوني؛ وإلا لما تعذبت طيلة تلك الأيام الماضية، ولما كنت لجأت إلى هذه الحيلة التي أعتبرها رخيصة لا تليق بالحب العظيم السامي الذي أكنه لها! قال الشاب بحماس وهو يحرك يديه وبعصبية!

- إنها هي تحبك أيضاً؛ ولا أظن أن حبك لها، يزيد عن حبها لك، بل إنه أقوى! وقالت وموجة الجد الصارم تغطي وجهها!

- وكيف عرفت ذلك؟! سأل راكان باهتمام بالغ.

- هي قالت لي ذلك! لقد أكدت لي قبل أقل من أسبوعين بأنها ستنتحر إن تركتها؛ إذ إنها مجنونة بحبك، ولا تستطيع أن تعيش بدون هذا الحب!

- ولكنها هي التي تركتني! ألم تقل لك ذلك؟! قال الفتى بغضب لاهب.

- نعم؛ قالت، فذكرتها بما قالت لي قبل أسبوعين، فأعلمتني بأنها توصلت إلى حقيقة، وهي أن اختلاف العادات والتقاليد والتفكيروالثقافة بين بلديكما يجعل من الصعب عليكما الانسجام والتفاهم؛ وأن هناك أشياء كثيرة لا تستطيعان رؤيتها بنفس المنظار!

- وهل أعلمتك ما هي بعض هذه الاختلافات التي لا نستطيع رؤيتها بنفس المنظار؟! سأل راكان بعصبية!

- كلا؛ لم تعلمني، رغم سؤالي لها وإلحاحي عليها! لقد تحاشت الجواب، ولكنني استطعت أن أحزر! إنني أتمنى لو تعلمني أنت بعضها، قبل أن أقولها لك؛ لأرى صوابي من خطأي! قالت وهي تبتسم.

احمر خدا راكان وانكمشت أذناه، وجدّته موجة من العرق الساخن، وابتسم؛ ولم يقل شيئاً!

- إنني لا ألومكما، إذ إن بعض الشباب، يخجلون أن يتحدثوا بهذه المواضع! إنني أحب أن أقول لك حقيقة قد تكون غائبة عن تفكيرك، وهي أننا عندما نحب، نريد من الذي نحبه أن يكون لنا كليةً! نريده جسماً وروحاً وعقلاً... إن هذه هي الطبيعة البشرية...! إن شريحة كبيرة من الشباب، رجالاً ونساء، يريدون من الذين يحبونهم أن يتبادلوا الغرام منذ بدء علاقتهم، حتى ولو لم يكن هناك حبٌ!

لم يقل راكان شيئاً وظل يستمع إليها، وباهتمام شديد، وهو يسرّح ناظريه بجمال عينيها وبصفاء وجهها! كان يستمع إليها، كما يستمع طالب علم مجدّ إلى محاضرة أستاذ شيقة!

- إن بعض الفتيات لا يمانعن في منح محبيهن كل ما يريدون، ولكن البعض الآخر، يرفضن إلا بعد الزواج! أعني بعد توقيع العقد إما أمام الكاهن أو في المحكمة. قالت بتأن مبالغ به؛ ثم تابعت:

- إن بعض الشباب يعتقدون أن العملية الجنسية قبل الزواج هي أصدق طريقة لأن يفهم الواحد منهما الطرف الآخر، ويتأكد من لياقته لأن يكون شريك العمر؛ ثم هناك نوع آخر يؤمن بأن الإنسان يظل محدوداً في تجاربه سطحياً في عواطفه ما لم يمارس العملية الجنسية!

- وما هي أفضل طريقة في رأيك؟! سأل الشاب وهو يتلعثم خجلاً!

- هذه فلسفات ووجهات نظر! أنا لا أستطيع أن أصوّب هذا وأخطّئ ذاك، ولكنني أقول لك ماذا حدث معي وكيف تصرفت! كان زوجي من الذين يؤمنون بأن التجربة الجنسية قبل الزواج ضرورية، وكان يريدنا أن تكون لنا علاقات جنسية قبل أن نوقع عقد الزواج، ولكنني أعلمته بأن ذلك مستحيل، لأنه ضد قناعاتي وضد تربيتي العائلية والدينية! إذا كان يحبني حقاً، ويريدني أن أكون شريكة حياته، فيجب أن يحترم رأيي!

- وهل أفهم أنه كان الأول في حياتك ؟!

- نعم، كان الأول، وكنت عذراء؛ ومن المفروض أن يكون هو الوحيد، لولا أنك ظهرت في حياتي! قالت بجرأة وصراحة، وعفوية أيضاً، أذهلت راكان!

- أنا آسف! صدقيني إنني لمت نفسي كثيراً، وندمت ندماً عظيماً، فليسامحنا الرب!

- لا تندم! لم تكن الغلطة غلطتك أنت وحدك! إنها غلطتي أنا! لا تصدق أن رجلاً ينال من امرأة شيئاً لا تريده هي، إلا إذ كان بطريقة الاغتصاب، ولم يكن لها وسيلة لتدافع عن نفسها! أنت لم تغتصبني! وبعد أن مسحت بظهر يدها دمعتين حارتين نزلتا من عينيها، رآهما راكان تسقطان، أضافت:

- أنا سهلت لك العملية بأن قدمت لك الخمرة! كنت أريدك أكثر مما كنت أنت! لقد قرأت في عينيك؛ في أول لقاء لنا، أنك أردتني؛ وقرأت في اللقاء الثاني أنك أعجبت بشخصيتي، وقرأت في اللقاء الثالث أنك لو تستطيع أن تحدثني وأنك معجب بي؛ إن الشيء الذي لم أقرأه بعينيك هو أنك اشتهيتني!

- صدقيني إنني لم أشتهِ جسدك وأنا بكامل قواي العقلية؛ أعني قبل أن أحتسي الكحول؛ وإنما فكرت بك كلوحة فنية... كزهرة... كمخلوق جميل جميل، أحب أن أنظر إليه وأكلمه! أنا حزين، حزين حتى النخاع! لقد كنت أنا المهاجم وأنت المدافعة، وغالباً ما يخسر المدافع ويربح المهاجم!

- هذا صحيح! ولكن كان باستطاعتي أن أقاوم كما قاومت زوجي وغيره قبل الزواج!

وفجأة تغير صوتها وعلا وجهها سحابة من الكآبة والحزن، وشعر راكان وكأنما المرأة على وشك الانخراط في بكاء عميق!

- إنني أحب زوجي كثيراً! إنني لم أحب أحداً كما أحببته! إنه كريم وخلوق ومؤدب، يحبني كثيراً ويحترمني ويراعي مشاعري ويتفهم رغباتي، ويحققها لي ولا يرفض لي مطلباً! إنني لم أفكر بأنني سأخونه يوماً، حتى ولا بمخيلتي!

وهنا رأى الفتى دمعتين تنزلان من عينيها مسحتهما بالمنديل الورقي الذي بيدها وأضافت:

- ولكنني عندما قابلتك أول مرة ورأيتك تنظر إلي، وعندما سمعت صوتك، شعرت وكأنما قد تحولت إلى مجموعة من الشهوة المحمومة! لقد كنت وأنت تكلمني وتنظر إلي، فكأنما كنت تصب في شراييني سائلاً يغلي، فأشعر أن كل خلجة في جسمي تريدك، بل وتشتهيك! لقد قضيت ليالي طويلة أصلي وأبكي وأسأل الله والمسيح والعذراء وزوجي أن يحموني منك، ولكنني عبثاً حاولت!

وهنا فكر أن يعتذر لها من جديد، ويطلب إليها أن تسامحه على نذالته وحقارته وكذلك على انحطاطه، ولكنه وجد أن كلمات الاعتذار سخيفة وتافهة!

استمرت المرأة تقول:

- ألا فليسامحني الرب! لقد فرحت كثيراً عندما جاءت نيكول وأعلمتني بأنكما تركتما بعضاً؛ ولكنني عندما رأيت حالتك البائسة والمزرية تألمت وحزنت؛ ثم ندمت أيضاً...! وصدقني إنني حاولت أكثر من مرة أن أقنعها بالعودة إليك، ولكنها أصرت على الرفض!

- إنني لا أدري ماذا أقول لك يا بتريشا! إنني لو لم أكن أحب نيكول، ولولا أنك متزوجة، لبقيت أتبعك حول العالم حتى تقبلي أن تكوني رفيقة دربي! إن عشقي لك هو نوع من التقديس والعبادة!

- لولا هذان السببان اللذان ذكرت، لما احتجت أن تفعل شيئاً لتقنعني أن أكون حبيبتك! قالت المرأة وهي تبتسم من بين دموعها!

- إنك امرأة عظيمة يا بتريشا! إنني لن أنساك وأنسى ما فعلته لي، طيلة حياتي! أنت امرأة نادرة! صدقيني إنك تختلفين كثيراً عن الأخريات! بالمناسبة؛ ما هي أخبار زوجك؟!

- إنه سيعود نهائيا في منتصف الأسبوع القادم، وسيلتحق بالجامعة في أول العام الدراسي القادم.

- أقسم لك إن ذلك يسعدني كثيراً، فإنه ليس من العدل أن تبقى امرأة مثلك، تتمتع بكل هذه الصفات المتميزة والنادرة وحيدة! قال الشاب صادقاً.

- إنك شهم وكريم وذو أخلاق عالية؛ وتفيض رجولة ومحبة وحناناً؛ فأستغرب كيف تفكر فتاة بقطع علاقتها معك! وتمهلت قليلاً ثم أضافت:

- إنني لو كنت فتاتك لقبلت منك كل شيء لأنني أعرف أنك إنسان عاقل وناضج ولا تتصرف برعونة!

وهنا استولت على راكان رغبة قوية بأن يعلم المرأة بأن نيكول هي التي تريد أن يذهب معها إلى الفراش وليس هو صاحب الفكرة، غير أن المرأة استرسلت:

- حتى لو أن نيكول هي صاحبة الفكرة لعذرتها، لأنه من الصعب على فتاة تحبك ولا تشتهيك!

كان راكان طيلة هذا الوقت يقارن في مخيلته بين الفتاة العربية المسلمة وبين الفتاة في الغرب، إذ هل يمكن أن يأتي اليوم الذي تجلس به الفتاة من وطنه مع شاب آخر ويبحثان قضية مثل هذه، دون خوف ودون وجل!؟

- أنتِ لم تعلميني سبب هجر نيكول لي بعد!

- أنا أعرف أن نيكول ملتزمة دينياً؛ وأعرف أيضاً أنها ذات تربية عالية ولا تقبل أن نعمل شيئاً يخالف معتقدها وقناعاتها! وبعد أن مسحت بالمنديل الورقي ما علق من الطعام على شفتيها أضافت:

- لو كنت مكانك لاحترمت رغبتها، إذ إنه وعلى الرغم من حبها الشديد لك، فهي تعارض أن تنالها قبل الزواج، وهذا يؤكد لك أنها امرأة فاضلة ذات عفة، وليس من السهل الحصول عليها! أنا أعلم أنه من الصعب على بعض المحبين أن يكونا معاً منفردين دون أن يفكرا بممارسة الجنس! ثم إنها ربما تخشى أن تحمل، وهذا يسبب لكما إحراجاً أمام الأهل والأصدقاء! قالت وكأنما وجدت حلاً للمشكلة!

"ما أشد سذاجتك يا سيدة أوكييف! وما أطيب قلبك وأنقى سريرتك! ثم ما أشجعك وأجرأك! وما أسعد الرجل الذي تزوجك! ومن هي الفتاة العربية التي تجلس مع غريب وتحدثه، بصراحة مطلقة، عن الجنس والحمل والعلاقات الجنسية، دون أن تُتهم بالعهر وباللاأخلاقية؟!"

هم الفتى أن يصيح بها ويقول لها؛ كفاك سذاجة وغباء؛ وليعلمها أن المشكلة هي العكس، فإن نيكول هي التي تطالب بالجنس قبل الزواج، وليس هو؛ ولكن كيف يفعل ذلك، وهو الفحل العربي الذي يحب أن يأخذ أنثاه إلى الفراش، وليست هي التي تطلب منه ذلك! أليس هذا ضد دستور القبيلة التي يحترم راكان قوانينها ويطيعها إطاعة عمياء؟! أين الشهامة والرجولة والكبرياء!؟

- يجب أن نذهب الآن، فساعة غدائنا على وشك الانتهاء! قال راكان بعد أن ألقى بنظرة على ساعته!

- أريد أن أدخل دورة مياه السيدات! قالت السيدة أوكييف وهي تحمل حقيبة يدها وتهم بالنهوض!

- سأنتظرك عند باب الخروج! قال الشاب وقد نهض مسرعاً، وأمسك لها الكرسي حتى تنهض!

- كم أنت مؤدب وكريم! قالت المرأة وقد منحته ابتسامة تنمّ عن شكر وتقدير عظيمين.

- وكم أنت جميلة ورقيقة يا بتريشا! أنت ملاك رحمة لي! ماذا كان بوسعي أن أفعل لو لم تضعكِ رحمة السماء في طريقي؟!

لم تعلق المرأة وافترقا، واتجه كل منهما نحو هدفه.

أصر العاشق المخذول على أن يرافق ضيفته حتى مكان عملها، فقد رأى نيكول من بعيد تقف خلف إحدى الفاترينات مستغرقة في تفكير عميق، وعندما رأتهما مقبلين، تشاغلت بترتيب بعض ملابس الأطفال!

تبادلت المرأتان التحية، وتجاهل راكان الحبيبة، وإن كان لاحظ جفافاً في شفتيها واصفراراً في وجهها.

- شكراً لك يا سيدة أوكييف على قبول دعوتي للغداء! قال راكان ذلك وأحنى قامته قليلاً على الطريقة اليابانية!

- الشكر لكَ أنتَ! إنك أنت الكريم الذي تكرمت ودعوتني!

- لقد استمتعت بالطعام وبالحديث أكثر! أجاب الفتى؛ ثم أضاف:

- السرور دائماً لي أن أدعوك! قالها الشاب بصوت أعلى من السابق ليتأكد من أن نيكول قد سمعت ما تفوّه به! قال ذلك وانصرف والفرح يجعله يحلق في أعالي السماء، إذ تأكد له بأن خطته قد نجحت ما في ذلك شك، وإن كان يحزنه أحياناً أن يرى حبيبته تتألم، كما كان يحزنه أكثر أن يلجأ إلى مثل هذا الأسلوب الرخيص واللاأخلاقي ليستعديها!

- أعتقد أن خطتنا قد نجحت! قالت السيدة أوكييف لراكان وغمّازتا عينيها تتضاحكان وتتراقصان جذلاً وحبوراً؛ وهي توصله بسيارتها إلى مكان سكناه بعد انتهاء ساعات العمل!

- وما الذي جعلك تقولين ذلك؟! سأل بشوق وقلق زائدين!

- لقد جاءت نيكول وسألتني إن كنتُ قد أمضيت وقتاً ممتعاً، فأعلمتها نعم؛ وأكثر مما تستطيع أن تتصور! إذ لم أكن أعرف أنك مثقف إلى هذه الدرجة العالية، بالإضافة إلى كرمك وشهامتك؛ ثم إن صحبتك تسعدني جداً!

- أنت امرأة عظيمة يا بتريشا! لن أنسى معروفك أبداً!

- وسألتني أيضاً إن كنت سأقبل الخروج معك ثانية؛ فأجبتها؛ ولم لا؛ وبكل تأكيد سأفعل؛ وكحقيقة ثابتة، فقد قبلت دعوتك الليلة للذهاب إلى سينما "منروفيا" حيث يعرض فيلم تحدث عنه الناس كثيراً، فأنت شاب أمين ومخلص، والمرأة معك تشعر بالأمان والاطمئنان! أنت حماية كبرى للمرأة، وصحبتك ممتعة جداً! وأعلمتها بأنني لن أقبل منك أن تدفع ثمن تذكرتي، إذ إن ميزانيتك لا تحتمل دعوتين في يوم واحد!

- ولكننا لم نتفق على هذا؟! سأل الفتى وقد جحظت عيناه استغراباً!

- صدقني يا راكان، إنني قلت ذلك دون إرادة مني! لقد وجدت لساني يقوله رغماً عني، إذ لعله كما يقولون في علم النفس؛ هو رغبة داخلية مدفونة في داخلي بأنني أريدك أن تدعوني إلى السينما!

التجم لسان الشاب ولم يدر ما يقول، وأخيراً فتح الله عليه فقال:

- بارك الله بك! ليس هناك من كلمات في اللغة توفيكِ حقك من الثناء! إنك مساعدة بارعة، وأجدت دورك بروعة فائقة!

- وسألتني؛ ألا أشعر بتأنيب الضمير، أن أخرج مع رجل غريب وأنا زوجة، وزوجي خلف البحار؛ يقوم بواجبه نحو وطنه؟! فأعلمتها بأنني واثقة من أنك لن تفعل شيئاً يقلل من وفائي لزوجي، ثم إنك تعلم كم أحب زوجي، وكم أنا مخلصة له!

- وبماذا أجابتك؟!

- قالت، يجب أن لا تعتمدي على ذلك، إذ إن عندك أساليب تلين قلوب العاصيات الحصينات؛ ويجب أن لا أقبل دعوتك ثانية إذا أردت الاحتفاظ بزوجي، فقلت لها، وليسامحني الرب؛ إنه لا مانع عندي من أن أترك زوجي إذا كنت حقاً تريد أن تتزوجني!

- يا إلهي! هذا شيء كثير؛ كثير جداً! قال الشاب مستاءً!

- اصفّر وجهها غضباً وقهراً وأقسم بالمسيح أنني أشفقت عليها! قالت المرأة.

- أظن أننا بالغنا في إثارة غضبها وغيرتها! قال راكان والألم يفري كبده.

- لقد قالت لي، إنه بسبب اهتمامي الشديد بك، فإنني قد أجعلك تشغف بي، وأن أكون قد آذيتك دون أن أقصد! وهنا ابتسمت السيدة أوكيف بمرارة، وقالت:

- إن المسكينة لا تدري أنني أحبّك أكثر مما تفعل هي؛ وأنني منحتك نفسي، ولولاها لكنت اليوم تحبني مقدار حبي لك!

- أنا أحبك كثيراً يا بتريشا؛ وأقسم بالله العظيم! ولكنه حباً يختلف عن حبي لنيكول!

- نعم، أعرف ذلك! إنك تحبني كما تحب أختك أو كما تحب جدة نيكول! قالتها بنرفزة وعصبية!

- إنك تعرفين أنه ليس من العدل أن أحب امرأة متزوجة! اللعنة! اللعنة! لماذا خلق الله الجنس! إنني أشعر بسعادة لا توصف وأنا معك أنظر إلى وجهك وأستمع إلى أحاديثك! والله إنني أتصور أنني أجلس في حضرة أختي الكبرى؛ أميرة؛ يوم كنت أجلس إليها وأحدثها عن مشاكلي العاطفية، وكانت ترشدني وتنصحني... ثم تشجعني على الصبر!

- إنني أتصورك وكأنك تقول لي! ألا تخجلين يا امرأة بأن تحبي رجلاً غير زوجك الذي منحك حبه وأعطاك خاتم الزواج، وهو يخدم في بلاد غريبة، يدافع عن وطنه؟!

- إنك تعلمين أنه لا يمكن أن أقول هذا، ولا يمكن حتى أن أفكر به! أنت بالنسبة لي عاملٌ مهمٌ في حياتي! أنتِ صرحٌ عظيم وشامخ أستند عليه، يقف سدّاً منيعاً، يحميني من السقوط، يوم تشتد الزوابع وتعصف بحياتي العواصف! أنت عملاق يأخذ بيدي ويجتاز بي دروب الحياة الوعرة! صدقيني! قالها راكان بغضب وبصوت عال!

- لقد سألتها: وماذا يهمك ما يفعل راكان ما دمتما تركتما بعضاً؟! قالت: إنه يحبني وأنت تحاولين أخذه مني، فقلت لها، ولماذا إذن لا تذهبين إليه وتعتذرين منه وتعودان لبعض؟! لم تجبني، وانصرفت غاضبة!

- شكراً لك على كل شيء؛ وآمل أن تمضي أنت ووالديك وقتاً ممتعاً هذا المساء!

كانت السيدة أوكييف قد أعلمت راكان ساعة الغداء أن لوالدتها صديقة تعيش في مدينة "كلفرستي" قد دعتهم هذا المساء إلى العشاء، وأنها ستأخذ والديها ويذهبون ثلاثتهم إلى هناك! وكذلك تعهدت أن توصله بسيارتها إلى مكان سكناه.

اقترب الشاب من السيدة أوكييف، ورفع قامته ليطبع على جبينها قبلة الوداع كما هو معروف، ولكنها بدلاً من أن تعطيه جبينها أعطته شفتيها! وبلا شعور أنزل هو شفتيه ولامس بهما شفتيها، وهاله أن امتدت يدها اليمنى وطوقت عنقه وشدته إليها، وضغطت شفتاها بشدة على شفتيه، فخيل إليه أنها لم تكن تقبله، وإنما كانت تشعل النيران بهما!

لم يحاول الشاب منعها، فقد أذهله تصرفها، فلم يستجب لقبلاتها، بل تركها تفعل ما تشاء! كانت كالذي يقتله الظمأ، تشرب وتشرب وتشرب، وكلما شربت أكثر، كلما ازداد ظمأها، حتى تحولت في النهاية إلى سيل عارم من الظمأ! وفجأة توقفت، ثم دفعت راكان عنها بقوة حتى ارتطم جسمه بالباب، عندها فتحه هو وخرج؛ فأشعلت هي موتور السيارة وانطلقت مسرعة، وبقي الفتى واقفاً فوق رصيف الشارع كالمنوم، مذهولاً يحاول أن يجمع بقايا نفسه وشتات أفكاره المبعثرة، وعندما تنبه إلى وجوده رفع يده اليمنى، وبظهرها، مسح دمعتين كبيرتين كانتا تترقرقان في مآقيه!

اللعنة! اللعنة! اللعنة! قالها راكان للمرة الألف. لماذا لم يخلقنا الله أرواحاً شفافة كالملائكة، نسبح في ملكوت الله العلي، نحب بعضنا بعضاً، دون أن يشتهي أحدنا جسم الآخر؟! أليس ذلك أعمق حباً وأصدق وفاء؟ ألا يغذي الحب الروح ويسعدها ويشبعها، أكثر مما يسعد ويشبع الوصال الجسدي؟! وهل أراد الخالق، سبحانه وتعالى، أن يذكرنا دائماً، وبأن لا ننسى، بأنه خلقنا من أقذر وأحط ما يفرزه فرج المرأة، عند انقضاض قضيب الرجل عليه، حتى لا نتكبر ولا نتجبر، وأن لا نظلم ولا نطغى؟!

كم تمنى الفتى، لو أن الله لم يخلق الجنس، عندما تتعلق المسألة بصداقته للسيدة أوكييف! كان يتصورها أخته أميرة، وهو يجلس في حضرتها، وهي تطلب إليه أن يصبر ويصابر، عندما كان يشكو إليها آلامه وأوجاعه! وكم تمنى الفتى لو أن بتريشا أوكييف، أخت له من أمه وأبيه، هنا، في أمريكا، بلد الضياع والقهر والإحباط والتمزق!

*****

عزم راكان أن يتناول طعام العشاء في أحد أماكن الطعام القريبة، ثم يذهب بعد ذلك إلى إحدى دور السينما التي ستضطره إلى أن يركب الحافلة. لقد صمم أن لا يبقى في غرفته لأنه من المفروض أنه يذهب إلى السينما مع السيدة أوكييف، كما أنه خشي إن بقي في غرفته أن تخونه إرادته فيضعف فيفكر بالذهاب إلى منزل السيدة جولييت!

بعد أن استحم، وأثناء ارتدائه ملابسه، سمع نقراً على باب غرفته، فاستعاذ بالله، إذ عرف من يكون الطارق ! إنها صاحبة البيت، سامحها الله، فقد جاءت لتأخذ إيجار الغرفة الذي بقي على موعده ثلاثة أيام! إنها عادة ما تأتي قبل نهاية كل شهر بعدة أيام لتذكره بأن لا ينسى موعد دفع الإيجار، فكان الفتى يدفع لها الإيجار في التو واللحظة إن كانت النقود متوفرة معه، أو يعلمها بأنه سيدفعها غداً أو بعده!

- إنني أعرف أن في دماغك أشياء كثيرة أهم من دفع إيجار الغرفة، ولذلك خشيت أن تنسى، فأتيت لأذكرك! هكذا كانت تدعي في كل مرة!

ربط راكان حزام بنطاله، وأخرج محفظة نقوده وأخذ منها إيجار الغرفة، وبيده اليسرى فتح درباس الباب، ومد يده اليمنى وناول الطارق النقود دون أن يرى وجهه، تماماً كما كانت تفعل النسوة المحجبات في بلده، عندما يطرق الباب عليهن شحاذٌ ويقول لهن: "حسنة لله"، فإنهن يذهبن أولاً ويحضرن له ما يردن إعطاءه، ثم بعد ذلك يفتحن الباب!

- أين أنت يا بني؟! سمع راكان صوت السيدة جولييت يأتي إليه من خلف الباب!

- آه! أهذه أنتِ يا أماه! قال الفتى وقد أذهلته المفاجأة، فسحب يده بسرعة من فتحة الباب !

- ادخلي يا أماه ! لقد تشرفت بزيارتك! قال وهو يتراجع إلى الوراء ليفسح للمرأة الطريق لتدخل!

دخلت العجوز وأغلق الباب خلفها وهو يرحب بقدومها!

- إن مكان سكناك حسنٌ للغاية! قالت العجوز وهي تدير عينيها في أرجاء الغرفة، وتوقفت بناظريها عند صورة للسيد المسيح المعلقة على الحائط، فقالت:

- ألا تعرف صاحبة البيت أنك مسلم ؟! سألت العجوز وهي تبتسم.

- ربما لو عرفت ذلك لعلقت صورة على كل جدار بدلاً من صورة واحدة في الغرفة كلها! قال وهو الآخر يبتسم وأضاف:

- إنك تعرفين يا أماه؛ إنني أحترم جميع الأديان، ومهما قال الناس أو فعلوا، فإن ذلك لا يزعجني!

- أنا أعرف يا بني أنك شاب رائع! قالت وهي تجلس على الكرسي الذي قدمه الفتى لها.

- لقد تأخرت الليلة عن موعد حضورك، فانزعجت عليك فأتيت لأطمئن على أنك على ما يرام! قالت المرأة وقد رفعت ناظريها إلى أعلى حيث وجه الشاب الواقف أمامها، وفوق شفتيها ابتسامة تفيض حباً وحناناً!

- أرجو أن لا تكوني قد سرت كل تلك المسافة الطويلة على قدميك من أجلي! صاح الفتى بفزع ثم أضاف:

- إن هذا يجعلني حزيناً جداً!

اتسعت ابتسامة العجوز وقالت:

- لقد أحضرتني نيكول إلى هنا؛ واستدركت ثم أضافت:

- أعني، إنني طلبت إليها أن تحضرني بسيارتها!

نظر الشاب إلى الساعة الموضوعة فوق مكتبه، فوجد أنها لم تكن السادسة والنصف بعد، وهو الموعد الذي يصل به هو عادة إلى بيتها في كل ليلة بعد القطيعة بينه وبين نيكول!

- أنا آسف جداً جداً يا أماه! ما كان يجب أن تزعجي نفسك! أنا أعرف أنكِ دائماً ترحبين بي، وكنت عازماً أن آتي غداً مساء كالعادة!

- لا يا بني! ستأتي الليلة! لقد صليت إلى الله كثيراً، فاستجاب له الشكر لدعواتي!

- وما الذي حدث؟ ! سأل الشاب متظاهراً بعد الاهتمام وكأن الأمر لا يعنيه!

نظرت العجوز إلى الباب المغلق خلسة، وكأنما تخشى أن يكون أحدٌ خلفه يستمع لما تقول، وقالت بصوت كالهمس، وقد حاولت أن تتقرب بجسمها من جسم الفتى:

- لقد جاءت إلي نيكول تبكي وبعينين محمرتين من كثرة البكاء، وأعلمتني بأنك دعوت إحدى البنات إلى الغداء وأنك ستأخذها الليلة إلى السينما!

- هذا صحيح! وما وجه الغرابة في ذلك؟! قال الشاب مبالغاً في عدم الفهم!

- إن نيكول لم تعرف أن المسألة ستصبح جدية، وتتطور إلى هذه الدرجة! لقد قالت بأنها تريد أن تمتحن صدق حبك لها وقوة هذا الحب عندك!

- إن هذا ممتع جداً! قال الشاب بتهكم، وإن كان في داخله يرقص فرحاً.

- أرجوك يا بني، لقد أعلمتني بأنها نادمة للغاية؛ ولكنها رجتني أن لا أعلمك!

- وماذا تريدنني أن أفعل يا أماه؟! اؤمريني وأنا أنفذ!

- إنها تريدكما أن تعودا لبعض، لأنها لا تقوى على فراقك؛ كما أنها تعرف أن تصرفك هذا ليس حباً في غيرها، وإنما لتثير غيرتها!

- ولم لَمْ تأتِ هي وتكلمني؟!

- لقد طلبت إليّ أن أصالحكما؛ إنها كفتاة تتوقع من الشاب أن يأتي هو ويصالحها، ويعتذر إليها!

- ولكنني يا أماه، لم...

واستمرت العجوز تقول ولعلها لم تلاحظ أن الفتى بدأ يتكلم:

- إنها تعرف بأن الغلطة غلطتها، ولكنها تحبك أن تأتي أنت وتصالحها احتراماً لأنوثتها؛ وحتى تبقى محتفظة بكبريائها!

ابتسم الشاب وقال:

- يا له من منطق أعوج!

- أنا أعرف ذلك يا بني! إن الرجل دائماً هو الأقوى، ومصالحتك لها، وهي المخطئة، يجعلك تسمو في عينيها وعيني أنا أيضاً! أرجوك أن لا تفشلني يا بني! قالت العجوز بلهجة رجاء!

- لا ترجوني يا أماه؛ بل أنتِ تأمرين! إنك تعرفين مقدار حبي لك، وإنني لا يمكن أن أرفض لك مطلباً! قال راكان بحماس وإخلاص!

- أنا واثقة من ذلك يا بني! دعنا نذهب! قالت ذلك ونهضت من على كرسيها، ومدت يدها اليمنى وأمسكت بيده اليسرى كأنما هو طفل صغير تريد أمه أن تقوده حتى لا يسقط في مشيته، وتوجهت نحو الباب!

اجتاحت الشاب موجة من الحب الجارف لهذه المرأة الطيبة، ففك يده من يدها بلطف، وانقض عليها عناقاً وتقبيلاً! قبلها على رأسها ووجها ورقبتها ويديها، وفي كل مكان تصل إليه شفتيه وهو يقول:

- إنني أحبك يا أماه! أنت ملاك رحمة أرسله الله لي في غربتي!

لفت العجوز يديها حول عنقه، وقبلته على رقبته وهي تشم رائحة جسده وعبق الكالونيا التي وضعها على وجهه!

- دعيني ألبس حذائي يا أماه! قال وهو يفك يديها من حول رقبته بلطف ومحبة! ثم أضاف:

- وماذا عن الفتاة التي تنتظر حضوري إليها لآخذها إلى السينما؟!

- أرجوك يا بني! اعتذر لها! قل لها الحقيقة! نعم يا بني! قل لها الحقيقة! لا شيء ينجي الإنسان في هذه الحياة مثل الحقيقة!

بعد أن فتح راكان الباب وخرج هو والجدة، وجد أن نيكول تجلس في مكان السائق بالسيارة، وبعد أن فتح الباب للجدة ودخلت إلى جانب حفيدتها؛ قال بصوت عال وهو يغلق باب السيارة ويتوجه نحو الهاتف العمومي!

- أريد أن أهاتف المرأة لأعتذر لها!

- ستفعل ذلك من بيتنا! قالت الجدة بحماس!

- لا، سأهاتفها من الهاتف العمومي أفضل! قال ذلك، وواصل سيره نحو كشك الهاتف:

بعد أن أدار الشاب الرقم وصل إليه صوت حزين، وكأن صوت صاحبته قد توقفت لتوها عن البكاء!

- هالو بترشيا! لم أنت حزينة؟! ماذا حدث؟! لقد أقلقتني!

- آه أهذا أنت يا راكان؟!

وكأنما سؤاله لها قد شجعها على البكاء فصارت تبكي من جديد!

- قولي! ما هي الحكاية؟! ماذا حدث؟! لم أنتِ تبكين؟! تلاحقت أسئلته عليها كالمطر!

- لا شيء! أشعر بحزن شديد لا أعرف سببه! أجابت من بين دموعها!

- أرجو أن لا أكون أنا السبب! قال وقد فارقته فرحته بعودة نيكول، وحل مكانها حزن قبض عليه قلبه!

- لا أحد السبب! إنها حماقتي وبلاهتي!

- أرجوكِ أن لا تقولي ذلك! أنا آسف جداً لكل ما حدث! قال الفتى وهو يتوجع من الحزن!

- لا حاجة للاعتذار! إن الغلطة غلطتي؛ وأنا الذي ألام، وانفجرت تبكي من جديد!

بقي راكان ممسكاً بسماعة الهاتف وهي تبكي بحرقة، وقلبه يتمزق حزناً بين أحشائه! بقيت تبكي لبعض الوقت، ثم تحول البكاء إلى نشيج خافت!

- إنني آسف يا بتريشا! حقاً أنا آسف جداً! إنك لا تستطيعين أن تتصوري مقدار أسفي وحزني أيضاً! قال ذلك وهو يشعر بمرارة حادة في فمه؛ وكأن مواساته لها قد أثارت كوامن الألم في نفسها من جديد، فراحت في هستيريا من البكاء جعلت الشاب يثور على نفسه وعلى قدره!

- أرجوكِ يا بتريشا! لا تبكي! أن بكاءك يمزق قلبي! والله إنني أفضل الموت على أن أراك في هذه الحالة! إنك تجعلينني أندم على معرفتي لكِ! قال الشاب بحماس وصدق.

- أرجوك أن لا تقل هذا! إنني لا أدري ماذا حدث لي مؤخراً! لقد فقدت عقلي، وأظن أنني جننت! إنني كلما أفكر بك أشعر أن نيراناً تلتهم أحشائي! بأي حق أغار عليك وأطلب إليك أن تبادلني نفس العواطف والأحاسيس؟!

وهنا راحت في هستيريا من البكاء أشد من قبل، ثم صارت ترتجف كالمحمومة التي امتزجت الحمى عندها بالجنون! ثم لم يعد راكان يسمع شيئاً!

- هالو! هالو! بتريشا؟ أجيبي! كلميني! أرجوكِ! سأغضب منك! هالو! هالو! وظل ينادي ويصرخ بسماعة الهاتف ولكن دون جدوى؛ وأخيراً انقطع الخط!

أخرج قطعة نقود ووضعها بالآلة وأدار الرقم، فجاءته نغمة تشير إلى أن الهاتف مشغول، فأغلق السماعة وخرج، تعلو وجهه صفرة كصفرة الموت.

لقد هاتفها ليعلمها بأن خطتهما قد نجحت نجاحاً باهراً، وحتى يدخل السرور إلى قلبها، ولكنه بدلاً من ذلك، جلب لها الحزن والدموع! اللعنة! اللعنة! ماذا يجري في هذا الكون؟!

ألقى بنفسه فوق المقعد الخلفي بالسيارة وراح في ذهول عميق، ولم ينتبه إلا والجدة تفتح له الباب لينزل، فقد وصلوا إلى البيت! لقد كان طيلة الوقت يفكر بتصرفات السيدة أوكييف ويتساءل! هل ما يكنه لها في قلبه هو حب لها أم شفقة عليها ؟! إنه لم يستطيع أن يتوصل إلى جواب!

جلس الشاب في غرفة القعاد، وتظاهر بتصفح الجريدة الملقاة فوق طاولة الوسط، وتوجهت المرأتان إلى المطبخ لتجهزا العشاء! أحس هو بضيق شديد في صدره، وأنه لا يستطيع أن يتنفس وكأنما قبضة حديدية تمسك بقلبه وتضغط على ضلوعه، وأنه على وشك الاختناق؛ كما شعر، ولأول مرة في حياته، ومنذ أن دخل البيت قبل شهور، وكأنما هذا البيت زنزانة أصغر من أن تتسع لجسده !

ألقى الجريدة بعصبية بعيدة عنه، ونهض واقفاً وكأنما لسعه سوط من نار، وصمم أن يخرج من البيت ويذهب إلى حيث كشك الهاتف العمومي ليتكلم مع السيدة أوكييف، حتى أن وجد أن هاتفها ما زال مشغولاً فصمم أن يأخذ سيارة أجرة ويذهب ليطمئن عليها! ما ذنب المسكينة حتى تتعذب من أجله؛ وما هي الجريمة التي ارتكبتها حتى تعاقب عليها؟!

سار يضرب الأرض بقدميه بشدة وكأنما يريدها أن تتحطم تحت رجليه، وتوجه نحو المطبخ ليعلم الجدة بأنه خارج لأمرٍ هام، وأنه سيعود بالحال! في طريقه رأى الهاتف موضوعاً في مكانه المعتاد، على طاولة صغيرة في زاوية غرفة الجلوس، فشعر بقوة لا تقاوم؛ قوة مجنونة، وكأن الهاتف قطعة مغناطيسية جبارة تشده إليها!

نظر حوله، فسمع حركة المرأتين في المطبخ، فرفع السماعة وأدار قرص الهاتف، وارتجف وهو يتصور نفسه بأنه سيسمع الإشارة المشغولة، ولكن الهاتف بدأ يرن... كاد قلب الشاب يتوقف وهو يصيخ السمع لرنين الهاتف، مخافة أن يسمع أخباراً سيئة، ثم أجاب صوتها! الصوت الحبيب إلى قلبه، والذي يستطيع أن يميزه من بين آلاف الأصوات! الصوت الحنون الذي وأنت تستمع إليه، وكأنما تستمع إلى صوت كمان حنون يأتيك من بعيد... بعيد... من أعماق الليل!

- كيف حالك يا رجل؟! قلقنا عليك! قال راكان بفرحة وحماس، متظاهراً بأنه يخاطب رجلاً!

- هالو راكان! إنني سعيدة جداً جداً أنك هاتفتني ثانية! لقد لمت والله نفسي كثيراً لتصرفي الصبياني! قالتها بفرحة تحس وكأنما أسلاك الهاتف تشاطرها الفرحة!

- إنسَ ذلك يا رجل! إنني سعيد أن أستطيع مكالمتك! كيف تشعر الآن؟ ! قال الشاب وهو يحاول أن يضفي على صوته بهجة من السرور.

- أشعر الآن أنني أحسن بكثير عن ذي قبل.

لعلها لاحظت الآن أنه يخاطبها وكأنها ذكر، فسألته:

- أين أنت الآن؟!

- إنني في بيت صديقة لي اسمها السيدة جولييت، دعتني إلى العشاء، ثم جاءت هي وحفيدتها وأخذتاني إلى بيتهما! أجاب الفتى بنغمة تضج بالجدية والوقار!

- آه يا راكان، كم أنا سعيدة من أجلك! الشكر لله أنكما عدتما لبعض، وأن خطتنا قد نجحت! هل تكلمتما معاً؟! قالتها بنغمة تدل على السرور حقاً!

- إنني لم أشجعه، وأظن أنه سيفعل! قال راكان متصنعاً الرزانة والوقار!

- مرة أخرى؛ أنا مسرورة جداً جداً، وأتمنى لك حظاً سعيداً! متشوقة جداً لأن أعرف ما سيحدث! ومرة أخرى أيضاً؛ آسفة جداً لتصرفي الصبياني!

- قلت لك إنس ذلك يا رجل! ومتى ستغادر؟!

- خلال دقائق! ولو تركت ولم أسمع منك لكنت قضيت الليلة مشوشة وغير سعيدة؛ أما الآن فإنني أشعر أن جميع أحزاني قد غادرتني! قالت بصوت ينم عن السعادة!

- إنني سعيد جداً أنك تشعر هكذا! لقد ارتحت أنا كذلك، فلقد كنت متضايقاً جداً لأجلك! رحلة سعيدة وعطلة نهاية أسبوع ممتعة؛ وتصبح على خير! سأفكر بك! قال راكان!

- وأنا كذلك! قالت وأغلقت السماعة.

*****

جلس ثلاثتهم حول مائدة الطعام؛ الجدة على شمال راكان ونيكول قبالته. كان كل واحد يلتهم طعامه دون أن يقول شيئاً، ولعل كل واحد منهم كان ينتظر الآخر ليبدأ هو الحديث، وكان لا يُسمع إلا صوت الملاعق والشوك والسكاكين تضرب الصحون!

مرت فترة صمت ليست بالقصيرة، وأخيراً قالت الجدة وهي تنظر إلى وجه راكان العابس.

- لقد شويت شرائح لحم الخروف، هذه المرة، بالشواية، ولم أقلها بالمقلاة، كما كنت أفعل في السابق!

- إن طهيك دائماً لذيذ يا أماه! قال الفتى ذلك وقد فارقه عبوسه، وفرد فوق وجهه ابتسامة كبيرة ومضيئة؛ ثم مد يده اليسرى وأمسك بيد العجوز اليمنى، وقربها من فمه وطبع على ظهرها قبلة طويلة، ثم فرك شفتيه فوقها عدة مرات ذهاباً وإياباً!

- أشكرك يا بني! إنك شاب لطيف ومؤدب! قالت العجوز وهي تحضنه بعينيها.

- صدقاً يا أماه! إنني مهما شكرتك وذكرت أفضالك علي، فإنني لا يمكن أن أوفيك حقك! فليكافئك الخالق نيابة عني!

وضعت الجدة يدها اليسرى فوق يده الممدودة وضغطت عليها بامتنان، دون أن تتفوه بكلمة.

لاحظ سعادة غامرة تنطق بها تجاعيد وجهها الصغير النحيف، وكلاماً كثيراً تريد أن تقوله عيناها!

- هل شعرت الفتاة التي دعوتها إلى السينما بخيبة، عندما أعلمتها بأنك لا تستطيع مرافقتها؟ ! أعني هل أظهرت بعض الاستياء؟!

هز راكان رأسه يمنة وميسرة، ولم يقل شيئاً.

- أنا جداً آسفة يا بني، أن أطلب منك مثل هذا الطلب، وأن أسبب لك إحراجاً أمام أصدقائك!

- أرجوكِ أن لا تعتذري يا أماه! ليس هناك امرأة في العالم كله، لا أضحي بها من أجل طلب بسيط لك! قال الشاب بتمهل وهو يحاول أن ينتقي كلماته!

- حتى ولا أنا ! لا شك أن السؤال خرج من بين شفتي الحفيدة بطريقة عفوية؛ ولا شك أنها ندمت على قوله؛ فقد لاحظ راكان تورد وجنتيها واحمرار خديها، وقد نظرت إلى الأرض خجلي!

تجاهل الشاب سؤالها ولم يقل شيئاً، بل إنه تجنب حتى النظر إليها!

- ما ألطفك وأكرمك يا بني! كم أتمنى لو أنك ابنٌ لي في الحقيقة! وكأنما أدركت المرأة غلطتها فاستدركت!

- أرجوك أن تعذرني يا بني! إن حبك ومعزتك عندي تفوق الوصف، ولكنني أعني لو أنك ابني من دمي ولحمي، وتحمل اسمي، حتى أفاخر بك الأهل والأقارب!

- إنني والله أفهم ما تعنين! فأرجوكِ أن لا تعتذري! قال الفتى مطمئناً إياها. ثم تطلع إلى وجهها بورع وتهيب وكأنما ينظر إلى مخلوق مقدس وأضاف:

- آمل أن أكون عند حسن ظنك، فأنا فخور لأن أكون ابناً لأعظم امرأة، بنظري؛ في العالم كله!

- إن كثيراً من الأبناء الغرباء يحبون أمهات لهم، لم يلدنهم! قالت البنية بكسوف وخجل!

- هذا صحيح يا عزيزتي! قالت الجدة وهي تضم حفيدتها بعينيها.

وفجأة، غيرت الحفيدة مجرى الحديث، إذ قالت وهي تنظر إلى جدتها متجنبة النظر إلى وجه راكان:

- إنني أستغرب جداً، كيف تقبل امرأة متزوجة دعوة رجل غريب! قالتها بلهجة تفيض غيرة وغضباً!

سر الفتى لغيرتها وغضبها، ولكنه تصنع العبوس وعدم الاهتمام وقال:

- إنني لا أرى خطأ في ذلك، إذا كانت المرأة واثقة من نفسها، وعلى دراية بحسن أخلاق داعيها!

- حتى لو كانت واثقة من نفسها ومن الآخر، فلا يجب أن تخرج مع إنسان غير زوجها! قالتها بغضب لاهب وحقد مشتعل!

- وجهة نظر! قال الشاب ببرود وهو يهز رأسه ويمطّ شفتيه وأضاف:

- إن السيدة أوكييف امرأة تحب زوجها، ومخلصة له وتحافظ على عهده! إنها في رأيي امرأة فاضلة جداً؛ ثم حدج الحفيدة بعينيه وأضاف:

- إنها فوق الشبهات!

- وكيف عرفت ذلك؟! سألت وقد حدجته هي الأخرى هذه المرة!

- إنني أميز المرأة الفاضلة من ما سواها، بمجرد أن أنظر إليها!

- تقول عنها فاضلة، وتقبل دعوتك إلى الغداء وكذلك إلى السينما، وزوجها خلف البحار؟! ما هي مواصفات الإنسان الفاضل عندك؟ قالت وقد ألقت معلقتها فوق صحنها بعصبية ظاهرة وتوقفت عن الأكل، مما أسعده سعادة تفوق الوصف!

- أرجوكما يا عزيزاي أن تتناقشا بهدوء دون غضب، إذ إن جميع المشاكل، مهما كانت معقدة، تحل بالحوار! قالت الجدة بصوت كالهمس!

- ألا تلاحظين يا أماه ؟! أنها تتهم امرأة فاضلة في شرفها! إن هذا ليس عدلاً! قال راكان ممعناً في غيرة الحفيدة وأثارتها؛ ثم أضاف:

- إنها امرأة وحيدة وتحتاج إلى التسلية والترفيه عن نفسها، فما المانع من قبول دعوة للغداء والسينما؟!

- إنك لا تعني هذا! أنا أعرف مواصفاتك للشرف والإخلاص! إنك تريد أن تثير غيرتي، وتجرحني؛ بل وتذلني!

وهنا انفجر راكان يضحك، فقالت الجدة:

- مازلت تعرفين الحقيقة يا عزيزتي، فلماذا تناقشينه؟ ! سامحك الله!

- لا، أنا أعني ما أقول! أنا الآن في أمريكا، ويجب أن أفكر وأتصرف كما يتصرف الأمريكان! ألم تقولي لي أنتِ هذا، أم أنكِ غيّرت رأيك؟! قالها الشاب مظهراً عدم المبالاة.

- إنه لا يوجد إنسان في أمريكا، عنده أخلاق ويؤمن بالقيم، ويقر امرأة متزوجة أن تقبل دعوة شاب عازب لا يعرفها؟!

- ومن قال لك إنني لا أعرفها؟!

- إذن أنت تعرفها، وذهبت إلى بيتها؟! قالت وقد ازداد اشتعال غضبها!

- أرجوكِ يا عزيزتي! هدّئي من روعك! إن راكان لا يمكن أن يفعل ذلك! قالت الجدة تلوم حفيدتها!

- وماذا يهمك إن كان بيننا علاقة أم لا؟! قالها الشاب وهو يتصنع الجدية في كلامه!

لم يشعر الفتى إلا وصفعة ترنّ فوق خده الأيسر!

تجمد في مكانه أول الأمر، وأذهلته الصفعة، وبعد لحظات بدأ الذهول يفارقه، وبدأ عقله يستعيد ما حدث، فأدرك أنه تمادى في إثارة غيرتها والاستهانة بمشاعرها، فلم يقل شيئاً!

نهضت الصبية على عجل وراحت تركض باتجاه غرفة نومها وقد انخرطت في بكاء حار! أما الجدة فقد ذهلت، وألجمت الدهشة لسانها، وفتحت فمها على وسعه؛ وصارت تنظر إلى راكان وقد فتحت عينها على وسعهما!

- إنني أستحق الصفعة يا أماه! صدقيني إنني مسرور لذلك! قال الشاب صادقاً وهو يبتسم وقد اقترب بفمه من أذن الجدة وهمس بها، ثم ربت على ظهرها وأضاف:

- ربما لو لم تفعل ما فعلت لشككت في حبها لي!

- إنني لا أصدق عيني! نيكول تفعل ذلك؟! قالت الجدة وهي ما زالت تحت ما تعتقده وقاحة وقلة تربية من حفيدتها؛ ثم أضافت:

- ولكن لماذا يا بني هذا التصرف غير الحضاري؟! سألت الجدة وقد بدأت تفيق من الصدمة!

- أقسم لك إنني لست غاضباً؛ وأقسم بحبي لك أيضاً!

- ما أعظمك يا بني! ما أكبر عقلك وأنقى سريرتك! كم أنا سعيدة بك! إنك إنسان متفهم! قالت الجدة وقد بدأ يفارقها غضبها على حفيدتها!

- أقسم لك يا أماه، إن ما قلته كان مجرد إثارة غيرتها، وإنني لم أعن ما قلته! ثم اقترب منها ثانية وهمس في أذنها وهو يبتسم!

- لقد اتفقت أنا والسيدة أوكييف علي أن نمثل هذا الدور على نيكول لاستعادتها! فقط مجرد تمثيل!

- وهل تعني ما تقول يا بني؟! سألت الجدة بحماس زائد.

- صدقيني يا أماه! إنك تعرفين أنني لا أكذب عليك!

- آه يا بني! الشكر لله ولك! لقد أرحت قلبي الآن! لقد كنت أتساءل بيني وبين نفسي، كيف تتصرف مثل هذا التصرف الذي لا يتفق وأخلاقياتك!

- أنا لم أدعُها إلى السينما، لقد ذهبت مع والديها إلى مدينة "كلفر ستي" لزيارة صديقة لوالدتها!

- وهل المرأة تعرف هذا؟

- طبعاً! طبعاً! إنها تعرف مقدار حبي لنيكول، وتعرف غضبها مني، كما لاحظت معاناتي؛ فتبرعت لأن تقوم بهذا الدور لتساعدني في استعادة نيكول! قال راكان بسعادة وفخر الفحل العربي الذي ينتصر على أنثاه!

- فليباركك الرب يا بني! قالت وهي تبتسم، وقد علت وجهها موجة من الفرح والإشراق! ثم أضافت:

- ولماذا لا تذهب الآن وتعلم نيكول بذلك؟ إنها ستُسرُّ كثيراً!

- ليس الآن يا أماه! سأعلمها بالوقت المناسب!

- نيكول! نيكول! تعالي يا عزيزتي، وأكملي عشاءك! إننا لسنا غاضبين منك! صدقيني يا حبيبتي! نادت الجدة حفيدتها بصوت حاولت أن يكون مرتفعاً رغم وهنها! لم تحضر البنية فناداها راكان:

- تعالي يا نيكول، وأكملي عشاءك؛ إذ ما علاقة الأكل بغضبك مني؟! إذا لم يكن من أجل خاطري، فليكن من أجل خاطر جدتك التي تحبك!

وهنا أقبلت الصبية، متحفزة كاللبؤة التي هاجم أحدهم جراءها، وكانت منكوشة الشعر حمراء العينين، ووقفت أمامهما، منتصبة القامة مرفوعة الرأس، وقد باعدت ما بين رجليها، وقالت:

- أنهي عشائي؟! ولماذا لا تدعو بتريشا لتتعشى معك، فإن صحبتها خير من صحبتي؟! ولعلها تذكرت غريمتها فأضافت ولكن بحماس أكثر، وصوت أعلى:

- إنني أحذرك! فإنني لو رأيتكما معاً، فسأقتلكما الاثنين! قالت ذلك وأشارت بيدها اليمنى إلى رقبتها وكأنها تريد أن تقطعها!

- نيكول! يجب أن تخجلي من نفسك! هذه ليست التربية التي ربيتك إياها! قالت العجوز بغضب!

- اجلسي على كرسيك ودعينا نتكلم كإنسانين عاقلين حضاريين، بدون انفعال وغضب، وليس كأطفال صغار! قال الشاب باحترام ووقار، وبصوت هادئ ورزين!

- أرجوكِ يا حبيبتي أن تجلسي وأن تتكلما بهدوء ومحبة ودون غضب! قالت الجدة بصوتها المنخفض الحنون الدافئ، عندما لاحظت أن حفيدتها ما زالت واقفة.

سحبت الصبية الكرسي بعيداً عن طاولة الطعام، وجلست عليه وقد اتكأت برأسها على يدها اليسرى وصارت تنظر إلى الأرض. سحب راكان وهو الآخر كرسيه إلى الخلف بعيداً عن طاولة الطعام ليقابلها في جلستها، ثم سأل:

- والآن أعلميني، لماذا غضبتِ من دعوتي للسيدة أوكييف؟ !

رفعت الفتاة رأسها من فوق يدها وحملقت به مذهولة ومراحل الغضب تهزها!

- لماذا؟! ! ما هذا السؤال الساذج؟ ! ألا تعرف؟!

- والله، إنني أعرف جيداً؛ ولكنني أقود إلى شيء، فأرجوك أن تجيبيني!

- لأنني أحبك! أعني، لأننا نحب بعضنا!

- عظيم جداً، إذن لماذا أعلمتها بأننا لم نعد نحب بعضاً، وأننا فسخنا خطبتنا؟!

- ولكنني لم أعن ذلك! قالت وهي تتأفف وبغضب.

- وكيف يعرف الناس أنك لم تعني ما قلت، وخصوصاً وهم عرفوا أننا لا نتكلم مع بعض، ورأوا أيضاً مقدار العذاب الذي كنت أعانيه؟! وكأنما الحديث عن السيدة أوكييف قد سر راكان فاستطرد بحماس أكثر!

- لقد رأت المرأة تعاستي ومعاناتي، فآلمها ذلك وأحزنها، ولما تقدمت منها أطلب إليها أن ترافقني إلى المطعم ثم إلى السينما، لم تمانع لأنها تعرف أنني ليس عندي رغبة لأن أبني علاقة حب مع أحد، إذ إن قلبي مشغول ومملوك لواحدة اسمها نيكول!

وهنا لاحظ الفتى ابتسامة خفيفة تغطي وجه الصبية، فتظاهر بعدم رؤيتها، وتحمس في كلامه:

- إن المرأة تعرف أنني لن أحاول معها شيئاً، ولم أفكر حتى مجرد التفكير بعمل شيء! هذا بالإضافة إلى أنها تحب زوجها ومخلصة له، ففكرت، وهنا قالت لي وبصراحة؛ بأن قلب كل واحد منا مشغول بحب آخر، فلماذا لا نخرج سوية ونرفه عن أنفسنا في حدود الآداب؟!

تمهل الشاب قليلاً ثم أضاف:

- إنني أحبك وسأظل أحبك؟! فهل ما زالت تحبينني أم أنك توقفت عن حبي؟!

- طبعاً أحبك، وأكثر من السابق! قالتها بحماس ومن أعماق قلبها، وكأنما تخرج مع كلماتها أجزاء من قلبها! قالتها وهي تنظر إلى الأرض وقد احمرت وجنتاها وأذناها!

- وأنا أحبك، وسأظل أحبك، ولو تقدمت إليّ جميع بنات الأرض! قالها راكان هو الأخر بسعادة خدرت جميع أجزاء جسمه.

- آه يا راكان! ما أغباني! قالت ذلك ونهضت من على الكرسي، كالظبية البرية، وألقت بنفسها بين ذراعيه وانهالت عليه عناقاً وتقبيلاً، ولم يكن شوقه إليها بأقل من شوقها إليه، فصارا يقبلان بعضاً بنهم ولوعة!

وهنا لاحظ الشاب انسحاب الجدة من غرفة الطعام، كما لاحظ السرور والارتياح يطفحان فوق وجهها!

قاد العاشق معشوقته إلى غرفة القعاد، وشعر وهو يجلسها على الكنبة الطويلة ويجلس هو إلى جانبها، أحس بأن قلبه وعقله وروحه، قد أعيدت إليه بعد أن فارقته لعدة أيام! إنه الآن يشعر بالهدوء والأمان والاطمئنان، بعد أن حُرم من ذلك طيلة أيام بُعده عن نيكول!

إنه يكاد لا يصدق أن التي تجلس أمامه، وينظر في عينيها، ويمسك بيدها، هي نيكول حقيقة لا وهماً! فشكر الله أن رد إليه روحه بعد أن رد نيكول إليه!

حرف الفتى جسمه قليلاً حتى قابلها، ومد يديه وصار يتلمس بهما خديها وينظر في عينيها، وكأنما ليرى بهما مستقبله وسعادته! حاولت هي، بلطف، أن تحرر وجهها من يديه وتنظر إلى الأرض، ولكن الطريقة التي امسكها بها، لم تمكنها من إنزال وجهها حتى تتجنب النظر إلى عينيه، فأغمضت عينيها!

- ما أجمل عينيك يا نيكول! إنهما بعد أن تذرفا بعض الدموع، تتحولان إلى نهر رقراق من الخمر الحلال، فتخلبان عقل الناظر إليهما!

- كم أنا خجلة منك ومن نفسي يا حبيبي! لقد تصرفت تصرفاً صبيانياً، وكنت في كل مرة تسامحني! أجابت وهي مغمضة العينين.

- لا تقولي هذا يا ملاكي! إنك فعلتِ ما فعلته لأنكِ مؤمنة به، واعتقدتِ ِأنه الصواب ! إنه من بين عشرات الخصال التي أعجبتني بك هي شجاعتك الأدبية. إنك تقولين وتفعلين ما تعتقدين أنه الصواب، حتى لو أن الآخرين يخالفونك الرأي ويغضبون منك! قال وهو يطبع قبلات متتالية على شفتيها.

- ولكنني كدت أفقدك بسبب هذا المعتقد! قالت بعد أن فتحت عينيها، وكأنما ما قاله شجعها على الإفصاح!

- إنك لن تفقديني إلا إذا صممت أنت على الرحيل! نعم، إنني لن أرحل من حياتك إلا إذا أنتِ طلبت مني ذلك!

رفعت يدها وطوقت بهما عنقه وصارت تقبله ودموع الفرح تمتزج بقبلاتها!

- آه يا حبيبي! لقد فكرت أن بتريشا قد أخذتك مني، وأنني قد فقدتك إلى الأبد! كانت الصبية كلما استرسلت في حديثها، تهيجت مشاعرها، فازداد بكاؤها، حتى أصبحت كالتي بها حمى وهي تقبل راكان! ثم أضاقت بتهيج وولة:

- كم أحتقر نفسي وأثور عليها كلما أتذكر السبب، وأنني انحرمت من حبك ومن عناقك وقبلاتك، ومن دفء حديثك وكذلك حنانك، طيلة هذا الوقت!

وهنا فك الشاب يديها من حول عنقه بلطف، وابتعد هو بجسمه عنها قليلاً وقال بهدوء وهو ينظر إلى وجهها!

- أرجوك أن تستمعي إليّ ولا تقاطعيني، إذ لعلني لم أذكر لكِ قبل اليوم معتقدي وفلسفتي في الحياة! إنني لا أريدك أن تغيري رأيكِ وتندمي على تصرفك، إرضاء لي أو لغيري؛ اللّهم إلاّ إذا اعتقدت أنتِ، أن ما فعلته كان حقاً خطأ! إن معتقدك ورأيك وتصرفك وكل هذه الأشياء هي جزء من شخصيتك، ويوم تفقدين هذه الصفات تفقدين شخصيتك، وتصبحين فتاة مهلهلة لا شخصية لكِ! هل تفهمين ؟!

- ولكنني طلبت منك شيئاً هو من واجب الرجل أن يطلبه!

- صدقيني إنه واجب الاثنين، وديننا الحنيف يقول، بأن الذي يطلب من الآخر هو الطرف الذي يشعر برغبة نحو الآخر؛ لا فرق بين رجل وامرأة!

- إذن أنت لست غاضباً مني؟!

- لا، وألف لا! وهل يغضب الإنسان من روحه؛ من نصفه الثاني؟! إن رفضي للفكرة هو لأنها تحصل قبل أن نوقع قسيمة الزواج؛ فاستصعبت ذلك وقتها!

- وهل أفهم أنك سامحتني عن ما طلبته منك تلك الليلة في غرفتك؟!

- إنني لم أسامحك، لأنك لم ترتكبي خطأً يحتاج إلى مسامحة! صدقيني! كل ما فعلته هو أنك أبديت رأياً تعتقدين بصوابه، ولم أقبله أنا في حينه! طلبكِ أنت ورفضي أنا، لا يجعلنا على صواب ولا على خطأ! إنه مجرد إبداء رأي! قال الشاب متفلسفاً!

- أوه راكان! إنك متفهم ومتسامح! كم أحبك! ما أغباني أن أغضب منك، وأحرم نفسي من حبك وحنانك كل هذه المدة! إنني لن أغضبك ولن أغضب منك بعد اليوم ! قالت ذلك وألقت بنفسها بين أحضانه، وصارت تقبله بنهم وشراهة، في كل بقعة تقع شفتاها عليها! ثم أضافت:

- أوه يا جبيبي! أرجوك ضمني إلى صدرك، فإنني خائفة! خائفة! قالت ذلك، وازدادت حمى عناقها له وتقبيله!

- لا تخافي يا حبيبتي! أنا دائماً... إلى جانبك... أحميك... لن أتركك بعد اليوم لحظة! قال راكان ذلك، وصار هو الآخر يبادلها العناق والقبل، ولكن بنهم وشوق شديدين!

- ولن تكلم بترشيا أو أية فتاة دون أن أكون معك!

- ولن أكلم أنثى دون أن تكوني معي!

- ولن تدعوها إلى الغداء أو السينما!

- ولن أدعوها إلى الغداء أو السينما! أعاد راكان خلفها وكأنما هو تلميذ صغير يطلب إليه معلمه أن يردد بعده!

فجأة شعر الفحل العربي بالسعادة تتمدّد في جميع خلجات نفسه، ممزوجة بالزهو والفخر، فقال كالحالم وقد كفّ عن تقبيل الصبية:

- إن دعوة السيدة أوكييف إلى الغداء وإلى السينما، كانت خطة مرتبة بينها وبيني لإثارة غيرتك!

وهنا توقفت الصبية عن تقبيله وعناقه، وابتعدت عنه قليلاً وقد تبدلت أسارير وجهها وعلته سحابة من الصرامة والجد، وسألت:

- ماذا تعني؟!

فقال راكان وهو يبتسم فرحاً بحذاقته ومعجباً بسعة تفكيره وسداد رأيه:

- لقد فكرت أن الطريقة لإعادتك إليّ هي جعلك تغارين، والمرأة التي تثير غيرتك هي السيدة أوكييف، فاتفقت وإياها أن نذهب للغداء معاً؛ أما السينما فقد أعلمتني بأنها ذاهبة هذا المساء إلى مدينة "كلفرستي" هي ووالديها!

كان الشاب يتكلم بهدوء وثقة، وتصور نفسه وهو في الوطن جالس بين أصدقائه وهو يروي لهم حادثة ممتعة حصلت له ذلك اليوم!

- ولكنك ذهبت وتكلمت معها من الهاتف العمومي، وأنا وجونزي ننتظرك! قالت الفتاة وقد ازداد وجهها قتامة!

- هذا صحيح! وتكلمت معها لأعلمها بأن خطتنا قد نجحت؛ وبأنك أتيت وجدتك لأخذي! قال هذا وقد اتسعت ابتسامته، وازداد سروره وفخره بحذاقته!

ما كاد الفتى المغفّل والساذج ينهي جملته، حتى قفزت الشابة من على الكنبة، وابتعدت عنه وهي تنظر إليه بعينين مذهولتين، ثم صارت تتراجع إلى الوراء قليلاً قليلاً وكأنما هو إنسان أجرب أو مأفون، ثم صاحت بأعلى صوتها:

- إنك غبي! إنك أبله! أنت معتوه... متخلف... لن أكلمك بعد اليوم... لقد جعلت مني أضحوكة وسخرية للساقطة بتريشا... إنني أحتقرك... إنني أكرهك... أكرهك...! قالتها وهي تصر على أسنانها، وتطوح برأسها في الهواء يمنة ويسرة؛ ثم انفجرت تبكي!

قطّب راكان ما بين حاجبيه، وحملق بها مشدوهاً، وسألها حائراً!

- ماذا حدث؟! أخبريني؟! ما هي الحكاية؟! أي خطأ ارتكبت؟! قال ذلك ونهض من مقعده وسار نحوها، وهو يعيد نفس الأسئلة!

- لا تقترب مني! لا تمسني! إنني لا أريد أن أراك! إنني أكرهك! أحتقرك!

- أرجوكِ؛ قولي لي ما الخطأ الذي ارتكبته؟! سأل وهو يحاول الاقتراب منها؛ ولما رأت أنه مواصل تقدمه نحوها؛ ركضت نحو غرفتها، فلحق بها، عندها دخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها، وهي تردد:

- لا أريد أن أراك! ابتعد عني! لقد جعلت مني هزءاً وسخرية! وهنا أقبلت الجدة تستفسر عما حدث!

- لقد فكرت أنكما تراضيتما، وأنه لا غضب بعد اليوم، فماذا حدث؟!

- هذا ما أحاول أن أعرفه يا أماه! قال الشاب.

- لا بدّ وأنك قلت شيئاً أغضبها!

- لقد أعلمتها أن دعوتي للسيدة أوكييف كانت خطة مدبرة، وفكرت أن هذا سيسعدها! قالها بعد أن بلع ريقه ورطّب شفتيه بلسانه؟!

- ما كان يجب أن تعلمها! آسف أن أقول لك يا عزيزي بأنك أخطأت! على كل حال أتركها الآن، وتعال لنشرب الشاي معاً! لقد جهزته لنحتفل بمصالحتكم! قالت ذلك وقادته من يده وتوجها نحو المطبخ. ولما ابتعدا من أمام غرفة نوم نيكول، همست الجدة:

- إنه من الصعب عليكم معشر الرجال أن تفهمونا نحن النساء!

- ولكنني لم أكن أعرف أن ذلك سيغضبها، وإلاّ لما فعلت! قال راكان بحرارة إنسان بريء يريد أن يبرئ نفسه من تهمة ألصقت به زوراً!

- إنني أعرف ذلك يا بني! تجاهلها لفترة، فإنها ستعود إليك! قالت ذلك وناولته صينية كبيرة موضوع عليها الشاي وتوابعه، وتوجها إلى غرفة القعاد، وصارت العجوز تحدثه عما جرى خلال يومها، فحدثته عن السيدة بويكو وزيارتها اليومية لها، وأنها تسعدها بهذه الدقائق التي تمنحها لها، فتحدثها عن أخبار زوجها وأولادها والكنيسة وما اشترت وما طبخت، إلى أن قالت:

- إن الفتيات يا بني يسعدن كثيراً، ويجدن لذة عظمى في التدلل على محبيهن! إننا نحن النساء معقدات ومحتارات، في كثير من الأحايين، ماذا نريد! وبعد أن رشفت بعض الشاي أضافت:

- لقد كانت نيكول في غاية الخوف والقلق من أن لا تعودا لبعض، وعندما تصالحتما وعدتما إلى بعض عادت وغضبت من جديد!

فجأة نهضت العجوز واستأذنت من الفتى، وتوجهت إلى غرفة حفيدتها، ووصل صوتها إلى الفتى وهي تقول لها، ومن وراء الباب:

- إن راكان يحبك كثيراً، وقد لجأ إلى طرق عديدة، لا شك أنها كانت قاسية عليه ومؤلمة له، من أجل استرجاعك؛ فإذا كنت تعتقدين أن هذه الطرق التي لجأ إليها هي إهانة لك، وأنا أعتقد أنها العكس، فتذكري يا عزيزتي، أنكِ أنتِ التي أرغمته للجوء إليها! تعالي، واشربي الشاي معنا، وإنسي ما حدث! قالت ذلك بلهجة حازمة، وعادت إلى مكانها!

- بارك الله فيكِ يا أماه، ما أعظمك! قال الفتى ذلك وتابع شرب الشاي.

لم تمض إلاّ دقائق قليلة، فقد سُمع صوت باب غرفة الصبية يُفتح وتقبل نحوهما وهي تسير بخجل وتردد، فقال راكان بحماس:

- هل تصدقين يا أماه، إن قلت لك بأنني لم أذق، في حياتي كلها، ألذّ طعماً، من شايك هذا اليوم! إن له نكهة ممتعة جداً!

- إن ذلك يسعدني جداً! إنك تشعر بهذا يا بني، لأنك تحبني، والحب هو سبب سعادتنا في هذا الكون. إنه إكسير الحياة!

- تعالي يا نيكول، وتذوقي الشاي لتعرفي أن ما أقول هو حق! قال الشاب يشجع البنية على القدوم، والتي كانت غير بعيدة عنهما؛ إذ لا شك أنها كانت تنتظر منهما تشجيعها على الانضمام إليهما!

- تعالي يا حبيبتي! إن راكان لم يقصد الإساءة! لقد أخبرني مبكراً وقبل أن يخبرك! أعتقد أنكِ يجب أن تحبيه أكثر وتحترمي تصرفاته، لأنه أعلمك ولا يحب أن يخفي عنك شيئاً! كان باستطاعته أن لا يقول لا لي ولا لكِ، ولكن لأنه إنسان أمين وشريف لم يخبئ علينا! أنا احترمته أكثر وأحببته أكثر!

- شكراً لك يا أماه! إن لنيكول قلباً كبيراً! قال الشاب.

- ولِمَ لم تعلميني يا جونزي؟ ! سألت الحفيدة!

- إن هذا بينك وبين راكان... هو الذي يجب أن يعلمك، إن كان رأى من المناسب إعلامك؛ وقد فعل! أعتقد أنه يجب عليكِ أن تشكريه؛ ولو كنت مكانك لتقدمت منه وقبلته، وطلبت منه المسامحة! قالت الجدة بحزم.

وهنا خاطبت الحفيدة راكان وقالت بلهجة المذنب الحزين:

- أنا آسفة يا راكان! لقد تبينت خطأي بعد حديث جونزي، وكذلك بعد أن اختليت بنفسي في غرفتي! قالت ذلك ثم أضافت بعد أن أعادت خصلة شعر سقطت فوق وجهها فحجبت عينها اليمنى أضافت وابتسامة حزينة فوق شفتيها!

- حقاً! لقد تبين لي عظم تضحيتك! فإنني أعتذر إليك، وأرجو أن تسامحني!

- إن الله هو الذي يسامح؛ كما أنك، في ملتي واعتقادي، لم ترتكبي خطأ يوجب المسامحة! إن ما حدث بيننا هو سوء تفاهم تافه!

وهنا تقدمت الصبية، وألقت بنفسها بين ذراعي الشاب وهي تقول:

- آه يا حبيبي! إنني أشعر بتفاهتي أمام حبك وإخلاصك، وأمام أخلاقك العالية وتصرفاتك النبيلة! قالت ذلك وانفجرت تبكي من جديد!

أخرج الشاب منديله القماشي من جيب بنطاله الخلفية، وبدأ يمسح دموعها ويقول:

- الآن، وقد أوضح كل واحد منا وجهة نظره إلى الآخر، وأصبحنا نفهم بعضاً جيداً وفهماً واعياً مدركاً؛ فلماذا لا تنسي الماضي، ونبدأ، وكأننا تعارفنا منذ هذه اللحظة! قال بحماس زائد وهو يستعمل يديه لمساعدة لسانه في توضيح الفكرة!

- صدقت يا بني! صدقت! إنها فكرة ممتازة! قالت العجوز بحماس لا يقل عن حماس الشاب، وقد استعملت، هي الأخرى يديها لتعبر عن فكرتها!

- ثم إن عندي فكرة أخرى؛ إن نيكول لم تنهي عشاءها، وأنا أشعر بضيق في صدري، وأحب أن نخرج في جولة بالسيارة، فأدعو حبيبة القلب لتأكل شيئاً، فهي لم تنهي طعامها؛ ونتناول أنتِ وأنا بعضاً من "الآيس كريم"! قال الفتى مخاطباً الجدة!

- أنا بدأت اليوم قراءة رواية جديدة، ومتشوقة أن أواصل القراءة! اذهبا أنتما وامضيا وقتاً ممتعاً. إن غداً عطلة، فاسهرا كما يحلو لكما، إذ تستطيعان أن تناما متأخرين! أجابت المرأة.

- ما رأي حبيبة القلب؟ ! سأل الشاب البنية.

- أعطني بعض الوقت لأهيئ نفسي! قالت ذلك وهي تنهض بخفة الغزال، وقد أشرق وجهها وابتسمت عيناها، وتوجهت إلى الحمام.

- كم أنا شاكرة إلى الخالق الذي أرسلك هدية إلى نيكول ولي أنا أيضاً! إنك أنت الرجل الوحيد الذي يفهم تقلبات عواطفها، ويتغاضى عن تصرفاتها المزاجية! لو كان واحد غيرك لما كان تفهم وضعها، ولما كان صبر عليها، ولغضب منها ولتركها تقاسي، ولتحطم قلبها! قالت الجدة بتأثر شديد، هيّج عواطف الشاب، وأحزن قلبه! وهنا نزلت دمعتان من عيني الجدة، مسحتهما بظهر يدها!

- إن السعادة والأمان والحب الذي أعطيتماهم، أنت ونيكول لي، في بلاد الغربة العاتية، لأعجز عن وصفها، فإن كنت قد سددت جزءاً ضئيلاً من هذا الدين، فهو بعض من الاعتراف بالجميل!

- آه يا بني! إنك لا تستطيع أن تتصور مقدار سعادتي بك! إنك والله هدية السماء لنيكول ولي.

وهنا طبطب راكان على ظهر يدها ونظر إليها وابتسامة كبيرة تعلو وجهه وقال:

- وكما تعتقدين أنني هدية السماء لكما، فإنني أعتبركما هدية السماء والأرض أيضاً، لي! قال هذا وهو يهزّ رأسه لتأكيد ما يقول!

أقبلت نيكول ترتدي فستاناً من الستان الأبيض، تسبقها رائحة عطر فاغم، تثير بالنفس شتى الانفعالات والأحاسيس؛ وتحمل على يدها جارزة بيضاء، وكأنما صنعت خصيصاً لتنسجم مع الفستان!

- ما شاء الله! إنكِ تبدين كالعروس ليلة جلوتها! إنك آلهة من آلهة الإغريق أو الرومان! رفقاً بقلبي يا حبيبتي! أنا لا أستطيع أن أقاوم كل هذا الجمال! صاح الشاب لا شعورياً!

خجلت الفتاة وألقت بناظريها إلى الأرض ، بينما قالت الجدة وفرحة عارمة تضيء جميع جنبات وجهها:

- ليحفظك الرب يا عزيزتي! أرجو أن تمضيا وقتاً ممتعاً! أنا لا أتوقف عن الصلاة، لأن يسعدكما الخالق!

تقدمت الشابة وطبعت قبلة على رأس جدتها وهي تتمنى لها ليلة سعيدة؛ وقبلتها الجدة على خدها الأيمن، ثم أصرت على أن تقبلها أيضاً على خدها الأيسر!

- وماذا عني أنا؟ ! أليس لي نصيب من هذه القبل! سأل الشاب مازحاً!

- دعنا نذهب! قالت الصبية وهي تتضاحك!

وهنا تقدم راكان من الجدة فقبلها وقبلته، وتمنت لهما ليلة سعيدة، ثم خرجا!

*****

الفصل الرابع عشر

كان المساء جميلاً جداً؛ وكان النسيم العليل يداعب الأعطاف فيخدرها ويسعدها، وكانت سلسلة جبال ولسون، المطلة على مدينة آركاديا ومجموعة المدن المحيطة بها، تقف شامخة، وكأنها آلهة عظيمة، تؤكد للناس قدرتها وتؤكد لهم ، وجبروتها أيضاً!

أحس راكان بسعادة طاغية، وبفرحة طفولية هي مزيج من اللذة والحبور! وبدأ المساء له، نقياً شفافاً وكأنه عروس ارتدت ثوبها الأبيض!

فتح الشاب باب السيارة للصبية فدخلت، ومن جديد أزكم عطرها الفاغم أنفه ودغدغ مشاعره وهيّج الذئاب النائمة في أعماقه، وقال مازحاً وهو يغلق الباب:

- يجب أن تكوني حذرة الليلة، فقد أقوم بفعل عمل لا تحبينني أن أقوم به، إذ أنت جد مغرية هذا المساء!

- وهل أنا مغرية الليلة فقط؟ ! قالت وهي تتضاحك.

- أنت دائماً مغرية؛ ولكن الليلة أشعر وكأنما أريد أن آكلك! قال بعد أن أغلق باب السيارة خلفها وفتح الباب الآخر ودخل.

فأجابت وهي تدير المفتاح في موتور السيارة:

- وهل تريد ملحاً وفلفلاً؟!

- إن الحلوى لا تحتاج إلى ملح وفلفل؛ تريد فقط أن نغرق أنفسنا بكينونتها؛ ونظل نأكل ونأكل حتى نشبع!

- إذن؛ لِمَ لا تبدأ الآن؟! سألت وهي ترجع السيارة وعيناها ترقبان الشارع!

- ليس الآن؛ فلنؤجلها إلى وقت آخر! قال وهو الآخر يتضاحك!

- وأين تريدنا الآن أن نذهب؟! سألت بعد أن أدركت السيارة الشارع.

- إلى حيث ترغب مالكة قلبي؟ إن هذه الليلة ليلتك، فيجب أن تختاري.

- شكراً، شكراً! حقاً؛ أين تريدنا أن نذهب؟!

- قلت لك هذه ليلتك؛ فاختاري أنت المكان! قال الشاب هذه المرة بلغة جادة!

- أرجوك! اختر أنت! إن الشاب هو الذي يعلم فتاته إلى أين سيأخذها!

- ولكنه أحياناً يريدها أن تختار مكانها المفضل؛ أو أن تختار المكان الذي تريد أن تذهب إليه في ليلة مميزة كهذه الليلة!

- فكرت أن نذهب إلى السينما، ولكن ليس عندي التفكير الكافي ليركز على مشاهدة فيلم! قالت.

كانا طيلة هذا الوقت يتحاوران، والسيارة ما زالت لا تبرح مكانها عند مدخل الشارع!

- هل تعرفين مكاناً قريباً من هنا يقدم مع الطعام مشروبات روحية؟!

- ولِمَ ؟! لقد قلت لي بأنك لا تشرب! سألت باهتمام!

- لقد ذقت الشمبانيا مرة، فانسجمت في شربها؛ وأشعر الليلة أن بي رغبة عارمة لشربها ثانية!

- ولكنني أنا لا أشرب؛ ولا أحبك أن تشرب! قالت بحماس وشبه مستاءة!

- وهل قالوا لك عني بأنني سكير؟! أنا، وكما تعرفين، لا أشرب إطلاقاً؛ ولكنني الليلة أريد أن أحطّم القيود، فأشرب؛ لنحتفل بسعادتنا وحبنا، وعودتنا لبعض! قال وهو يهز رأسه وكتفه ويديه!

- أعرف مكاناً في مدينة منروفيا، يبعد من هنا حوالي ثمانية أميال، يقدم طعاماً ومشروبات روحية!

- وهل أحببت الطعام الذي يقدمونه؟!

- جداً؛ إنهم يضعون عليه توابل عديدة، ولكن ثمنه غالٍ جداً!

- لا بأس! فإلى هناك! قال وهو يشير بيده علامة الانطلاق!

عندها انطلقت السيارة باتجاه مدينة منروفيا!

*****

كان المكان شاعرياً حقاً، وكان رومنتيكياً جداً ! كانت تحيط به منظومة من الأضواء الخافتة والملونة، وكأنه عش غرام حقّاً! كان أمامه نار تشتعل، وكأنما هي دعوة للناظرين والعابرين بسياراتهم لأن يتوقفوا ويستمتعوا بمنظر حطب السنديان المشتعل!

لاحظ راكان أن باب المطعم مصنوع من الخشب غير المصقول، وأنه بعد قطعِهِ من الغابة لم يدخل عليه أي تغيير، وكأنه كوخ بني في الغابات، أيام اكتشاف أمريكا! كما ذكره أيضاً بالأبواب المصنوعة من الخشب غير المنظف وغير المنجّر والمجلوب لتوه من الأحراش وأكواخ الفلاحين والفقراء في مدينته، مدينة السلط الصامدة والخالدة!

استقبلهما عند الباب، رجل قادهما إلى الطاولة الوحيدة الخالية في الزاوية! وكان المكان يغصّ بالزبائن؛ حتى إن الشابين استغربا أن يحصلا على طاولة خالية! فشكر راكان الله أن سهل أمرهما، واعتبرها منّة من الخالق منّ عليهما بها!

رحّبت النادلة بهما، ووضعت أمام كل واحد منهما قائمة للطعام والمشروبات الروحية، بعد أن منحتهما ابتسامة. كانت الفتاة متوسطة الجمال، وكانت ابتسامتها لا تفارق شفتيها، حتى خُيل لراكان أنها ابتسامة لا روح فيها، فهي تفتح شفتيها وتغلقهما لكل زبون وكأنهما تتحركان بواسطة لولب أو زمبرك، من كثرة ما فتحتهما وأغلقتهما!

أعلم راكان نيكول بأن تقوم بعملية الطلب، إذ لا شك أن النادلة تستطيع أن تفهم عليها أكثر مما تستطيع أن تفهم عليه هو، وأخبرها بأن تطلب لنفسها عشاء وأن تطلب إليه قارورة من الشمبانيا! ولما فعلت، طلبت النادلة منهما أن يرياها هويتهما لتتأكد من أنهما قد بلغا الواحدة والعشرين عاماً من عمريهما.

- هذه هوية صديقي تدل على أنه قد بلغ الواحدة والعشرين من عمره، أما أنا فلا حاجة لأن تري هويتي، فأنا مازلت دون ذلك العمر! قالت نيكول للنادلة وهي تقدم لها هوية راكان.

- هل ستشاركينني شرب الشمبانيا لو أن القانون لا يحرّم عليك شربها في مكان عام؟! سأل راكان بعد أن أحضرت النادلة قارورة الشمبانيا وفتحتها، وبعد أن رفع هو كأسه وضربها بكأسها المرفوعة والمملوءة بالماء!

- أنا لم أذق الكحول في حياتي، ومصممة على أن لا أذوقها أبداً! إن كنيستنا، كنيسة المورمن، تحرم علينا شرب جميع المنبهات بما فيها الشاي والقهوة وجميع أنواع الصودا!

- ولكننا نشرب ثلاثتنا الشاي في كل يوم، في بيت الجدة! سأل راكان باستغراب

- الشاي الذي تصنعه جونزي هو شاي أخضر مستورد من الهند وسيلان، وتعتبره أعشاباً وليس شاياً!

- شكراً لك للتوضيح! قال وهو يبتسم لهذا التعليل غير المقنع!

- ولولا أنكَ قلت بأنك تريد أن نحتفل بعودتنا إلى بعض، لرجوتك أن لا تشرب!

- أنا لا أشرب كحولاً! أنا أشرب فقط البيرة وبعض النبيذ! قال الفتى محتجاً!

وبعد أن ضحكت الفتاة حتى بدت نواجذها، فظهرت أسنانها ناصعة البياض وكأنهما عقدٌ من اللؤلؤ، قالت:

- ألا تعتقد أن النبيذ والبيرة والشمبانيا كحولٌ؟ ! إنها تسكر الإنسان تماماً، كما تفعل بقية أنواع الكحول الأخرى!

- إنك على حق! أنا آسف! لقد كنت دائماً أعتبر أن الويسكي والجن والكونياك والعرق في بلادنا هي فقط المشروبات الروحية! قال ذلك وكرع جرعة كبيرة من الشمبانيا.

جاءت النادلة تحمل ما طلبته نيكول من الطعام، وقبل أن تضع الصبية بعضاً منه في فمها وضعت قطعة من اللحم في فم راكان، الذي شكرها ورجاها بأن لا تفعل ذلك ثانية، ولكنها كانت تصر في كل مرة حتى شعر بأنها أطعمته أكثر مما أكلت هي، وعندما أعلمها ذلك أجابت:

- إنني أشعر بسعادة لا توصف وأنا أطعمك من يدي هاتين، وأشعر بلذة مذاق الطعام في فمك أكثر مما أحسّ بلذته في فمي!

- آه! كم أحبك يا نيكول! إنني والله أشعر بالاختناق عندما تكونين بعيدة عني! إنني أتساءل دائماً إن كان هذا الذي أشعره نحوك، هو نوع من الحب أم العبادة! قال الفتى بلغة تتقد حرارة!

- أوه راكان! لا تقل ذلك! صدقني ما أكنه من الحب لك لا يقل عما تكنه لي؛ ولكنك أمهر مني بالتعبير عن عواطفك كلاماً وتصرفاً! صدقني! وحياة جونزي عندي!

- أستحلفك بجونزي وبالإله الذي خلق جونزي، أن لا تبعدي عني بعد اليوم، لأنني سأفقد عقلي وأصاب بالجنون! أنت لا تعرفين أنك الهواء الذي أتنفسه! قال راكان ذلك ونهض، ولكن بصعوبة وسحب كرسيه وألصقه إلى جانب مقعدها، ولف ذراعه حول عنقها وصار يقبلها بنهم!

- راكان! ما كان يجب أن تشرب الشمبانيا في مكان عام! أرجوك أن تعود إلى مكانك! أنت تحرجني أمام الآخرين، وإن كان ذلك يسعدني! قالت ذلك ودفعته عنها بكوعها، ولكن بلطف ورقة!

ومرة ثانية أعاد هو كرسيه إلى مكانه مقابلاً لها، ولكن بمشقة أكثر، فقد تمكنت الشمبانيا من عقله، إذ شعر بثقل في رأسه وبتخدرٍ في جسمه، وبرغبة مجنونة إلى أن يضحك ويظل يضحك لساعات!

- هل أستطيع أن أقدم لكما خدمة أخرى؟! سألت النادلة.

- هل تسمح لي سيدة قلبي ومالكة روحي، أن أطلب قارورة شمبانيا ثانية؟ ! سأل راكان نيكول وهو يلوك الكلمات ببطء وصعوبة!

- طبعاً لا! إن فعلت ذلك، فسأغادر المكان، ولن ترى وجهي ثانية! قالتها بغضب وقد حملت حقيبة يدها وهمت بالقيام! ثم خاطبت النادلة قائلة:

- كلا، شكراً، لا نريد شيئاً! أحضري فاتورة الحساب من فضلك! قالتها بلهجة غاضبة؛ وبعد أن انصرفت النادلة أضافت:

- لقد جعلتني أغضب منك!

- لا تغضبي! إنني أريد أن أتعبد في محراب حبك، وأسبّح الخالق الذي سوّاك فأبدعك! إنك لو قضيت خمسة أيام تقاسين كما قاسيت لعذرتني، ولشعرت معي! قالها راكان بعد جهد جهيد في إخراج الكلمات من فمه!

- لقد قاسيت أنا وعانيت، ربما أكثر من معاناتك أنت! إن عذابي ظهر هذا اليوم فقط، عندما ذهبت أنت وبتريشا إلى الغداء، يعادل معاناتك أنت طيلة الخمسة أيام كلها! إنك لم تجرب الغيرة؛ إنها تأكل الأحشاء وتمزق الروح؛ صدقني! قالت وسحابة من الكآبة تغطي وجهها.

- لقد جربت الغيرة كثيراً؛ صدقيني! أنا أتفهم ما تقولين! لم يستطع الشاب أن يكمل فكرته، فقد كان لسانه متوقفاً في فمه لا يقوى على الحركة!

- لتكن هذه التجربة درساً لنا وعبرة! قالت وهي تساعده على النهوض، وبقي متكئاً على ذراعها، وعطرها الفاغم يتسلل إلى كل ذرة في كيانه، فيزيد في سكره، حتى أدخلته السيارة وأغلقت الباب خلفه.

*****

عندما أوقفت الصبية سيارتها أمام سكن راكان، كان معظم تأثير الشمبانيا قد فارق رأس الشاب، وأن حالته الطبيعية قد عادت إليه، لولا صداعٌ خفيف ما زال يسكن رأسه!

طلب إلى الشابة أن تساعده بالنزول بحجة أنه ما زال تحت تأثير الكحول، فلفت ذراعها اليمني حول خصره، فاتكأ عليها، فشعر من جديد، بعطرها اللذيذ الفاغم يدغدغ أعطافه ويلهب مشاعره؛ كما وطلب إليها أن تساعده في فتح باب غرفته ففعلت.

أضاءت النور وأجلسته فوق السرير، ثم ساعدته على خلع ملابسه وارتداء بيجامته، وهمت أن ترفع غطاء السرير لتساعده على الدخول تحته، فقال لها وهو يحول بينها وبين رفع الغطاء.

- لم أعد سكران من الشمبانيا، وإنما أنا الآن سكران من سحر عينيكِ وعطر أنفاسك! قالها الشاب همساً وقد أغمض عينيه نصف إغماضة، وكأنما يلقي قصيدة غزلية!

- أراك قد انقلبت فجأة إلى شاعر! قالت الفتاة وهي تحدق به، وقد أضاء وجهها وانفرجت شفتاها!

- إن عينيكِ تحولاني إلى شاعر كلما تطلعتا إليّ! قال ذلك ودفعها بلطف إلى الوراء فصار رأسها فوق المخدة، ومن ثم أهوى على شفتيها! لم يكن يقبلهما، وإنما كان يأكلهما... يمتص رحيق الحياة من شفتيها!

- أرجوك يا حبيبي! إن هذا النوع من القبلات يشعل الحرائق في دمي! إنني لا أقوى على احتماله! أنت تعذب أجسادنا بفعلتك هذه! أرجوك! قالت عاتبة وشبه غاضبة، وهي تدفعه من فوقها، محاولة أن تحرر نفسها من تحته!

- إنها لن تتعذب بعد اليوم! لقد تعذبت بما فيه الكفاية! لقد كنت غبياً يا حبيبتي! إنه لحرام أن نجعل أجسادنا وأرواحنا أيضاً تتعذب، لمجرد عادات بالية، ومعتقدات سخيفة! قال ومدّ يده وأطفأ النور الموضوع فوق الطاولة!

- وماذا تعني! خيل للفتى أنها كانت مرعوبة!

- أعني أن لا فرق بين أن نحرر أجسادنا من سعير شوقها لبعض، الآن أو بعد ثلاثة شهور! قال ذلك ونزع عنه ملابسه، وبدأ ينزع عنها ملابسها!

- راكان! ماذا تفعل؟!

لا شك أن الفتاة باغتتها المفاجأة! كاد الشاب أن يتوقف، إذ أفزعه سؤالها!

- أفعل ما كان يجب أن أفعله منذ مدة طويلة! ما أغباني يا حبيبتي! قال ذلك وهو ينزع عنها ملابسها الداخلية!

لم تعترض الفتاة، ولم تحاول إيقافه، وإنما كانت ترفع نفسها أحياناً أو تحركها ذات اليمين أو ذات الشمال، حتى تيسر له نزع كل قطعة من ملابسها عن جسمها!

- آه يا راكان! لقد آلمتني يا حبيبي! تلطّف بي! إنني لم أتعود على هذا من قبل! قالت من بين تأوهاتها وتنهداتها!

- حقاً لقد كنت غبياً، بل متخلفاً؛ أن أجعل أجسادنا تتعذب وتنتظر، حتى نوقع بعض الأوراق التي لا يعترف بها ملايين الناس هنا في أمريكا، ويعتقدون أنها لا تساوي الورق الذي كتبت عليه! قال وهو يلكدها!

لم تدم فترة التحام جسديهما طويلاً، فقد عجّل الجوع الطويل بالشبع المبكّر، إذ سقط الاثنان منهوكي الجسدين ولكن متأججا الروحين! نام الشاب إلى جانبها وصار يقول:

- آه يا حبيبتي؛ ما أجمل الأخذ والعطاء! لقد كنت أبلهَ عندما تركت أجسادنا تحترق بنار الشوق! ما الفرق بين أن نكون لبعض الآن، أو بعد ثلاثة شهور؟! ما الفرق بين أن نستمتع بحبنا الآن أو لاحقاً، ما زلنا نحن لبعض، وسنكون لبعض حتى آخر العمر؟! ما الفرق بين أن نأخذ ونعطي قبل الزواج، ما دمنا خلقنا لبعض، وما زال ملايين الناس في شتى أنواع المعمورة يفعلون ذلك؟! سامحيني يا حبيبتي! إن الحب لم يعبّر عن أعمق سعادته، ولم يرتفع إلى عنان السماء، إلاّ إذا التحمت الأجساد كما تمتزج الأرواح! إن امتزاج الأجساد، هو الذي يميزنا عن الملائكة! لقد كان حبنا ناقصاً، سطحياً، غير حقيقي، قبل أن تلتقي أجسادنا! إن التقاء الأرواح دون الأجساد هو عمل القديسين والملائكة، وهذا ما يفضلهم علينا ويميزهم عنا!

وهنا نهض الشاب من جديد وعانق الفتاة التي استقبلته بحماس أشد، وبقي حتى الصباح، هو يعطي بكرم وهي تأخذ بامتنان؛ حتى اعتقدا أنهما عوضا كل ما فاتهما!

لقد أسعد الفحل العربي وأطربه، أن يجد أن أنثاه، غير العربية، والتي ستكون رفيقة دربه وأماً لأولاده، أن وجد أن لا أحد قد سبقه إليها، وأنه كان أول إنسان يلتحم جسده بجسدها، بعد أن عانقت روحه روحها!

أليست هذه قوانين العشيرة في البلد التي قدم منها، والتي يتوجب عليه أن يطيعها ويحترمها؟!

*****

قضى راكان ونيكول ثلاثة أشهر في سعادة دائمة وصفاء متواصل! كانت حياتهما لذة لا تنقطع وحبوراً لا يتوقف! كم تمنى لو أن الأرض تكف عن دورانها، والفلك يقف في مكانه، ليظل هو ونيكول يعبان من نهر السعادة الخالد ومن هنائها السرمدي، حتى يغرقا نفسيهما، ويغرقان الكون من حولهما! كم تمنى لو أن الزمن يغلق عينيه، ويسهو عن الدوران، لبضع سنوات، حتى ينهل هو وحبيبته كل ما في هذا الزمن من سعادة، وحتى لا يعود فيه متسع للذة ولا مكان للمتعة!

لقد توصل الفتى إلى قناعة مطلقة، بأنه حصل في هذه الشهور الثلاثة، على متعة وسعادة، لم يحصل عليها منذ ولادته وحتى التقائه بنيكول؛ وأن هذه الشهور الثلاثة الأخيرة، قد عوضته عن سنوات الحرمان الجنسي والقحط العاطفي لأجيال وأجيال!

لقد أعطته نيكول من حبها وحنانها، ومن جسمها وعواطفها، ومن اهتمامها ورعايتها، ما تعجز عن إعطائه له مائة امرأة مجتمعات! هكذا توصل إلى قناعة!

كانت تسهر على راحته، وكأنما هو طفل لها صغير؛ وتحقق له رغباته، وكأنما هو سيد عظيم مطاع! كانت تخلعه حذاءه، وتنزع عنه ملابسه، وتدخله الحمام؛ ثم تلبسه بيجامته وشبشبه!

لطالما رجاها أن لا تفعل؛ إذ كثيراً ما كانت تقوم بذلك أمام جدتها، مما يسبب له إحراجاً وخجلاً شديدين!

كانت وجنتا راكان وأذناه تحمران خجلاً والجدة تنظر إليهما، وكان يخيل إليه وكأنما الجدة تضمهما بعينيها، وابتسامة سعادة وأمان وغبطة تعلو شفتيها، وكأنها تقول لهما؛ لا تخجلا يا أحبائي! فليبارككما الرب، وليزدكما سعادة! كان يلح عليها أن تتوقف عن تدليله وعن الاعتناء الزائد به، لأن ذلك يفسده ويعلمه الكسل والاتكالية!

- أريدك أن تكون مفسداً واتكالياً حتى تعتمد عليّ دائماً، وحتى أقوم بكل ما تحتاج؛ إذ إن ذلك يمنحني سعادة لا أستطيع وصفها لك! قالت له يوماً!

كانت تقول ذلك وهي تتأمل وجهه وكأنما تهيم به حباً وعلى وجهها ابتسامة جذلى!

- ولكن ماذا يحدث لي يا حبيبتي، لو لا سمح الله أن ذهبتِ، وتركتني، وكان عليّ أن أعيش بدونك؟! كان دائماً يسأل ذلك محتجاً!

- إن هذا لن يحدث! اطمئن! لن تتخلص مني ما دمت حيّة! كانت تقول ذلك وهي تضحك! بعدها تسحبه إليها فتضع رأسه على صدرها، فتسكت لفترة ثم تسأله؛ ماذا يسمع، فيجيب بأنها نبضات قلبها؛ فتسأله وماذا تقول؛ فيجيب بغباء وبلاهة، دون أن يدرك ما ترمي إليه: إنها تقول: تك! تك! تك!

- لا يا حبيبي! إنها تقول: أحبكَ! أحبكَ! أحبكَ! ولن أكفّ عن حبك حتى تتوقف نبضاتي عن الحركة! عندها ينهض من جديد ويعانقها، فيلتحمان وينقضان على بعض، فيحترقان ويحرقان نفسيهما معاً!

كانت نيكول متمددة فوق الفراش يوماً، وكان هو جالساً على طرف السرير يعبث في شعرها تارة، ويتحسس خديها تارة أخرى؛ ثم ينظر في عينيها، وكأنما كان يريد أن يقرأ مستقبله فيهما، عندما فاجأته بسؤالها:

- كم طفلاً تريد يا حبيبي؟!

- لا أظن أنني أريد أطفالاً!

- ولم يا أغلى ما في الوجود؟!

- لأنني لا أريد لأحد أن يشاركني في حبكِ لي!

- لا أحد يشاركك في حبي لك! إن حب الأطفال هو امتداد للحب الكبير الذي هو أنت!

- ما أذكاكِ وأكبر عقلك يا حبيبتي! إن كل ما تنطقين به درر وحكمة!

- حبك هو الذي أنار عقلي ونوّر بصيرتي! قل لي كم طفلاً تريد؟! أرجوك!

- أنتِ التي تقررين، وأنا بحكمك جدّ راضٍ!

- أتمنى أن يكون لي طفلان، ولد وبنت! سأسمي الولد راكان الصغير؛ وأعتقد أنه سيكون له عينان زرقاوان كعينيك، وشعر أسود مجعد كشعرك! أما البنت فسأسميها أمينة، على اسم أمك، لأنني أعرف جيداً كم تحب أمك وتقدسها! أمك التي طالما حدثتني عن تضحياتها وتفانيها في خدمتكم، أنتم أولادها، بعد وفاة والدك، وما قاسته من ظلم الأقرباء وجبروتهم!

- شكراً يا حبيبتي! إنك دائماً تتصرفين تصرف العظماء والمخلّصين!

- إنني أريد أن أرى ثمرة حبنا بعيني، وأن ألمسه بيدي هاتين! أريده أن يكون معي عندما تكون أنت في جامعتك أو عملك! قالت ذلك ونظرت إلى يديها بعد أن فتحتهما ثم قلبتهما!

- ولكنني سأترك روحي وقلبي وعقلي وفكري معك، عندما أغادر البيت! قال العاشق وهو يتصور نفسه يحلق بين السحاب ويسبح مع ذرات الأثير؛ ثم أضاف:

- أريد أن تكون لي ابنة تشبهك، لها كل جمالك وسحرك، وكبر عقلك وسعة تفكيرك! فإذا كان لنا طفلة مثلك وطفل مثلي سيكونان تحفة فنية خالدة، وسنكون قد جمعنا المجد من جميع أطرافه!

وهنا تعانق الشابان وراحا في قبلة طويلة، قادتهما إلى التحام جسدي!

*****

كان الشابان ينصرفان من العمل فيذهبان إلى بيت السيدة جوليت، حيث يتناولون ثلاثتهم طعام العشاء، ثم بعد ذلك، يتناولون ما تيسر من الفواكه أو الحلويات، ويبدأون بعدها في شرب فناجين الشاي الأخضر اللذيذ!

كانوا كثيراً ما يستمعون إلى بعض الموسيقى التي تجعلهم يحلقون مع تسبيحاتها، ويذوبون بسحر أنغامها، وكثيراً ما كانت نيكول تشرح لهما، الجدة وراكان، بعض القطع الموسيقية، فتبين لهما مواقع الجمال بها، مما يجعل الفتى يشعر بضآلة معرفته وقلة إطلاعه، وإن كان يحس، في نفس الوقت بالفخر والاعتزاز، والشكر أيضاً؛ أن الخالق سبحانه وتعالى، قد تكرم عليه وتفضل، فأنعم عليه بفتاة مثل نيكول، تملك كل هذه المعرفة الضخمة، بالإضافة إلى جمال الجسم وقوة الشخصية!

كانت الصبية، تنهض أحياناً، ودون إعلان، وتبدأ ترقص بمهارة وخفة فائقتين، وكأنما تعبّر بحركات قدميها ويديها، عما تعبّر عنه الموسيقى وعما تريد أن تقوله للإنسان؛ حتى كان الفتى يتصورها في بعض الأحايين، وكأنما هي جنيّة من جنيات الغاب، أو حورية من حوريات الجنة، انطلقت لتوها من الغاب أو خرجت لساعتها من البحر!

كان الشاب يشعر أحياناً بسعادة صوفية، حتى يخيل إليه أنه ارتفع فوصل عنان السماء وذاب بل تلاشى مع ذرات الأثير، فلا يجد إلاّ وعيناه تذرفان الدموع، بغزارة مذهلة تبلل قميصه!

- هل تعلمين يا حبيبتي، بأن حبك يجعلني أشعر أحياناً بأنني إنسان عظيم عظيم، وأنني أستطيع أن أصنع المعجزات وأحقق المستحيل! إنك مصدر إلهام عظيم ومتميز لي، ولولاكِ لما كنت شيئاً، ولكنت نسياً منسياً! قال راكان لنيكول يوماً!

- أوه راكان! كم أحبك! وكم أتمنى لو أن ألهمك عملاً فنياً! أنا لا أعني أن ألهمك أن تكون رجل أعمال ناجحاً ولا موظفاً متميزاً! أريد أن ألهمك أن تكون أستاذ جامعة... شاعراً... روائياً... رسّاماً... نحّاتاً... موسيقيّاً... كاتباً... يشيرون إليك بالبنان! أي شيء له علاقة بالفن... بالعواطف... بالفكر! أرجو أن تكون قد فهمتني!

- صدقيني إنني فهمتك جيداً؛ وهذا ما أريدك أن تلهميني إياه! أريدك أن تلهميني أن أكتب تحفة فنية، أدبية، رائعة مثلك؛ رواية مثلاً، أصف بها حبنا الجبار لبعض... عظمتك، تفانيك ، إخلاصك... أحاسيسك الفنية والجمالية... رواية تخلدكِ!

- تخلدنا نحن الاثنين! قالت.

- أنتِ عظيمة يا نيكول! أنت نعمة من السماء جاد بها الخالق عليّ! قال الشاب بحرارة!

- إنني أستمد عظمتي منكَ... من حبكَ... من وفائك... من تضحياتك... من رجولتك... من شهامتك!

- سأطلب إليكِ يوماً يا حبيبتي أن تجلسي أمامي، وسأحضر الورق والقلم، وأنظر في عينيك، وأبدأ بالكتابة، فأظل أنظر وأكتب، فأنقل ما أقرأه في عينيكِ وأنقله على الورق حتى أنتهي من كتابة ملحمة حبنا!

- كفى يا حبيبي! كفى! أرجوك! إنني لا أستطيع أن أحتمل كل هذه السعادة! إن كلامك يجعلني أنسى أنني إنسانة، فأتصور نفسي إحدى جنيات البحر، أصول وأجول، بلا قيود ولا حدود!

ومن جديد يتعانق الشابان ويضمان بعضهما بعضاً!

كانت الجدة وراكان يجلسان في بعض الليالي يستمعان إلى نيكول، وهي تقرأ لهما، بصوتها العذب الرخيم، بعضاً من أشعار ملتون وشلي، وغيرهما من الشعراء الإنجليز والأمريكان؛ بصوتها الحنون الساحر، فيتأثر أحدهم أو ثلاثتهم، فيحلقون في سماوات العلى أحياناً، وتنزل بغزارة ، في كثير من الأحايين!

كانوا يجلسون الساعات الطويلة، محزونين ساعة، وفرحين ساعات، يضحكون تارة ويعبسون تارات!

كانوا كثيراً ما يتناقشون ويحللون ما تقرأ الصبية من أشعار ... وهال راكان، بل قلب جميع مفاهيمه رأساً على عقب، أن يجد ، أن الجدة ، هذه المرأة التي تطرق أبواب التسعين من عمرها، عندها كل هذه الغزارة من المعرفة وسعة الاطلاع، والطريقة التي تحلل بها هذه القصيدة أو تلك!

ولقد أسعد راكان أيضاً أن يجد هذه البنية الصغيرة، والتي اعتقد أنها غير ناضجة فكرياً، تتمتع بكل هذا الذوق الأدبي والحس النقدي؛ وقد عرف الآن بأنها، ومنذ الثالثة عشرة من عمرها، تقرأ أدب الشوامخ، وخصوصاً الفرنسية التي تقرؤها بلغتها الأصلية !

لقد كان الفتى يعتقد، أن له إطلاعاً واسعاً وذوقاً رفيعاً، في فهم الأعمال الأدبية والفنية، لكثرة ما قرأ في حياته ومنذ طفولته، ولكنه وجد نفسه قزماً، أمام هاتين المرأتين العملاقتين، الجدة وحفيدتها!

كان يجلس إليهما، كما كان يجلس التلميذ إلى أستاذه الشيخ، يفتح فمه على وسعه، ويحدق بهما بعينين مذهولتين، وهما تشرحان القصيدة، ومكامن الجمال والضعف بها!

لقد عاش الشابان شهر عسل متواصل، بجميع ملذاته ومغامراته، قبل أن يحل شهر العسل المتفق عليه! لم يمر يوم واحد دون أن يقوما بعمل نشاط جديد، يستمتعان به، ويغرقان نفسيهما بملذات ومسرات تزيدهما حباً لبعض، وتؤكد لهما بأن الحب هو أجمل وأسمى ما خلق الله في هذا الوجود!

كانا في كل يوم لهما برنامج معد مسبقاً، فقد أرته البنية كل بقعة ممتعة وتستحق الزيارة في جنوب ولاية كاليفورنيا! لقد شاهدا معاً جميع الأماكن السياحية؛ كالمعارض الفنية والمتاحف الأثرية ودور السينما و"دزني لاند" والجبل السحري وحدائق الحيوان في هوليود ولوس أنجلوس وبفرلي هيلز وباسدينا ولونق بيش، وغيرهم، وغيرهم...!

كان برنامجهما لشهر العسل أن يمضيا أسبوعين في شمال ولاية كاليفورنيا، حيث مدينة سان فرنسيسكو وما حولها، وما بها من أماكن يعجز اللسان عن وصفها؛ والتي يأتيها الزائرون والسوّاح من جميع أنحاء العالم!

لقد علمته أيضاً قيادة السيارات والسباحة، وشيئاً قليلاً من الرقصات الشائعة، بحيث يستطيع أن يتواصل مع حبيبته، إذا صادف وتواجدا في مكان رقص!

كان العاشق يريد أن يسابق الزمن، فيعوض ما فاته في وطنه وما حُرم منه في طفولته ويفاعته، فأقبل على تعلم كل ما يجد به متعة، ويستمتع بكل شيء يسعد عقله وحواسه!

لقد اقترحت نيكول على راكان أن يلتحق هو بالجامعة وتعمل هي، وبعد أن يتخرج يعمل هو وتلتحق هي بالجامعة، ولكن الشاب رفض الفكرة، بحجة أنه لا يقبل أن تعيله امرأة، لأن ثقافة المجتمع الذي جاء منه، يرفض أن تعيل المرأة الرجل، إذ إنه هو الذي عليه أن يعيلها!

- ولكنك يا حبيبي؛ هنا في أمريكا ولست بالوطن! وهنا، لا فرق بين الرجل والمرأة! الأكثر تأهيلاً هو الذي يقوم بالمهمة أولاً! قالت الشابة شبه مستاءة ، إذ لا شك أن كثيراً من آراء ومعتقدات الشاب، التي أحضرها معه من الوطن، قد أربكت تفكير البنية وحيّرتها!

- حتى ولو كان ذلك! إنني أعتبر ذلك ضد رجولتي وقناعاتي! قال راكان بإصرار وعناد!

وهنا تكلمت الجدة فقالت بصوت منخفض مخاطبة الفتى!

- إن نيكول تعرف يا عزيزي، كم أملك من عقارات ونقود، هنا في كاليفورنيا وفي مدينة توولا بولاية يوتا! إنني والشكر لله أملك الكثير، وسيكون ما أملكه، طبعاً، بعد وفاتي، من نصيب أولادي وبناتي. وكما تعرف نيكول، فإنها أقرب الجميع إلى قلبي، إذ إننا معاً ومنذ أن كانت طفلة صغيرة! إنها تعرف أنني متكفلة بجميع مصاريفها الجامعية، وليست بحاجة إلى أن تشتغل أثناء دراستها الجامعية؛ ولكنها تصرّ على ذلك، إذ إنها تعتقد بأن العمل يقوّي من شخصيتها ويعمق اطلاعها على مشاكل الحياة ويوسّع مداركها. أنا لم أناقشها فيما تعتقد، ولم أعترض على تصرفاتها؛ ما زال ذلك يسعدها!

- شكراً يا جونزي! إنك حبيبة مثالية! قالت الحفيدة وقد تطلعت إلى جدتها بعيون مملوءة بالشكر.

تابعت الجدة حديثها بعد أن منحت حفيدتها ابتسامة تفيض حباً وسعادة.

- لقد وضعت في البنك، باسمها، قبل أكثر من عشر سنوات، مبلغاً جيداً من الدولارات، ولا شك أنه الآن قد تضاعف، وهو رسوم دراستها الجامعية، إذا صادف وأن توفيت قبل انتهاء دراستها الجامعية، أما وأنا ما زلت حية، فإنني لا أريد أن يمس ذلك المبلغ، حيث أنني سأتكفل بذلك!

- لقد نصحتني والدتي لأن استثمره بشراء عقارات، حيث الاستثمار بها خيراً من فوائد البنك! أنا أنتظر حتى أبلغ الواحدة والعشرين من عمري فأستطيع سحبه!

- إنه لكِ يا حبيبتي تفعلين به ما تشائين وقت ما تريدين! قالت العجوز ذلك، ثم بلعت ريقها واستراحت قليلاً، إذ يبدو أن الكلام قد أتعبها!

- إن الذي أريد أن أصل إليه هو؛ ما زال الله قد أرسل لك زوجاً ممتازاً كراكان، فإنني أتمنى لو أنكما بعد زواجكما، تذهبان وتلتحقان كلاكما بجامعة "برقميانق". إنها تقع في مدينة جميلة وهادئة، تبعد حوالي ساعة بالسيارة من مدينة توولا، حيث بيتي وأملاكي وأولادي وأحفادي! قالت الجدة!

- إنها جامعة جيدة وذات سمعة عالية وفيها تخصصات عديدة. لقد قلت لك بأن بها طلاباً أجانب كثيرين، ويقدمون لهم منحاً سخية، ولا شك أنه يوجد بها طلابٌ من الأردن، قالت الصبية:

- إن بيتي كبير في مدينة توولا، به أربعة غرف نوم، وهو مغلق كل هذه السنوات، وستأخذ نيكول سيارتها، وتستطيعان أن تمضيا عطل نهاية الأسبوع وكل العطل الأخرى معي. قالت الجدة!

- وهذه العملية تقلل من مصاريفنا إلى النصف! قالت الصبية بحماس!

أعجبت الفكرة راكان، وإن أزعجه التحاقه بجامعة تحت إشراف كنيسة فقال:

- دعونا لا نتسرع في اتخاذ قرار سلباً أو إيجاباً، إذ ما زال أمامنا بعض الوقت لنصمم!

- طبعاً يا بني! لا تتسرعا في اتخاذ مثل هذا القرار، وإن كنت أتمنى من صميم قلبي أن تكونا قريبين مني! قالت الجدة بحماس.

*****

كان العاشقان يستأذنان الجدة أحياناً فيذهبان في جولة قصيرة بالسيارة، فيشربان بعض المرطبات أو يأكلان بعض الحلويات؛ وأحياناً يستأذنانها فيتمشيان على قدميهما تحت النجوم المتلألئة، ونسيم المساء يداعب وجهيهما وشعريهما، فيلف كل واحد منهما يده حول خصر الآخر، وكأنما يخشى عليه من أن يختطفه عدو! وكانا كثيراً ما يذهبان إلى غرفة راكان، ذلك المكان الذي يعتبرانه عشّاً لحبهما العظيم، حيث يستمتعان ببعض، فكرياً وجسدياً، حتى ساعات الصباح الأولى!

- إنه يضايقني جداً أن أمضي جزءاً من حياتي في النوم، لأن ذلك يحرمني من متعة النظر إلى عينيك، وسعادة التواصل مع عواطفك الجيّاشة وأحاسيسك المتقدة؛ وكذلك الالتصاق بجسدك الدافئ الحنون! كثيراً ما قالت نيكول إلى عاشقها مثل هذا الكلام وهي جالسة في حضنه يتبادلان العناق والقبل!

وكثيراً أيضاً ما كان الشاب يسأل نفسه عشرات الأسئلة، عندما يكون متمدداً لوحده فوق السرير ويحدق بسقف الغرفة! أسئلة يحاول أن يجد لها جواباً ولكن دون فائدة! أسئلة تجعله أحياناً يكاد يفقد عقله ويصاب بالجنون!

ما هو الخطأ وما هو الصواب؟! وهل كان، هو ونيكول، بحبهما لبعض، يرتكبان الخطيئة ويأتيان عملاً منكراً؟! وهل من الخطأ أن يمنح إنساناً نفسه إلى آخر، ما دام هذا الإنسان قد أعطاه مسبقاً، قلبه وعقله وروحه وكل مشاعره وأحاسيسه وتفكيره، وأعطاه له بكرم وسخاء، وبكل كيانه ووجوده؟! وهل الجسد أكثر قدسية من الروح، ومن كل ما تفضل به الخالق على الإنسان؟! وهل توقيع ورقة في حضرة قاضي أو خوري أو حاخام أو كاتب عدل، يحلل لاثنين أن يعطي أحدهما الآخر جسده، ويحرم عليه ذلك الجسد حتى ولو أعطاه روحه وكل كيانه؟! وهل الجسد أهم من الروح حتى يتطلب عقداً أمام رجل دين؟!

كم من رجل دين يوقّع ورقة بين اثنين، بينما يكره الواحد منهما الآخر، بكل ذرة في كيانه وكل نبضة في قلبه، ومع هذا يباركهما الناس! فهل يباركهما الخالق؟!

كان راكان يسأل نفسه هذه الأسئلة وعشرات مثلها، محاولاً أن يجد جواباً مقنعاً ليوقف عذاب الضمير الموجع، من أن التقاء جسديهما، هو ونيكول، حرام ويعاقب عليه يوم القيامة، حتى ولو منح أحدهما الآخر روحه وكل كيانه!

- هل تعتقد يا حبيبي أن حبك لي سيقل يوماً، أو أنه قد يتلاشى؟ ! سألت نيكول وهي تضغط جسدها العاري ضد جسده، وكأنما تحاول أن تجعل الجسدين يذوبان في بعض فيصبحا جسداً واحداً!

ضحك الفتى وهو يشدها هو الآخر وكأنما يحاول أن يمنعها من أن تهرب من بين يديه فقال:

- إنه على العكس من ذلك، فإن حبي لك، وبمرور الزمن سيقوى وسيكبر، وستتعمق جذوره في نفسي، وسيصبح عملاقاً، ضخماً، جباراً!

- وهل ستخبرني، وتكون صادقاً وصريحاً معي، إن خفّ أو انطفأ أواره؟!

- لا تقولي هذا يا حبيبتي! أرجوكِ! أرجوكِ! إن أواره لن يخف، بل سيزداد بمرور الأيام، حتى يصل عنان السماء! قال الشاب وهو يقبل تلكما الشفتين اللتين تنطقان مثل هذا الكلام!

- أرجوك يا حبيبي؛ لا تتركني يوماً، ولا تفكر بتركي! إنني عندها لن أقوى على الحياة، وإنني سأموت، لأنني إن فقدت حبك لي، فلن يكون لي هدف أعيش من أجله! قالت الصبية وقد بدأت بعض الدموع تطل من عينيها!

- ما هي حكايتك الليلة؟! وما هذا الكلام السخيف؟! ثم ما هذا التشاؤم وهذه الأفكار السوداء؟! صاح بها راكان غاضباً!

- إنني لا أدري! لقد رأيت نفسي بعين الخيال، وحيدة! إن الفكرة تكاد تفقدني عقلي! قالت ذلك وبدأت الدموع التي أطلت من عينيها بالنزول؛ ثم أضافت:

- أرجوك! ضمني إلى صدرك! إنني جد خائفة! إن الرعب يأكل أحشائي! قالت وصارت هي تشد جسدها إلى جسده، حتى شعر وكأنما عظامها قد تكسّرت فوق جسده!

ضحك الفتى وهو يقول:

- إن أحداً لن يجرؤ على إيذائك وأنا إلى جانبك؛ ولن يستطيع أحد أن يأخذك مني! وكأنما هزّته كلماته وحرّكت وجدانه فأضاف:

- إنكِ أنتِ عقلي وروحي وكل كياني؛ ويوم تفارقينني، فأنني سأصبح جسداً ميتاً، خالٍ من كل مسببات الحياة!

- إنك إن تركتني، فإنني سأقتل نفسي!

- قلت لكِ أتركي هذه الأفكار السوداء! إنني أتشاءم عند سماعها! حدثيني عن حبنا؛ عن سعادتنا... عن مستقبلنا معاً! صاح بها راكان بصوت عالٍ حتى خاف أن يسمعها أصحاب البيت!

كفّت نيكول عن الكلام، وإن لم تكفّ عن البكاء والنهنهة فوق صدره!

وهنا بدأ يحدثها عن بعض أفكاره وتأملاته، لينسيها ما يخيفها، محاولاً أن يدخل السرور إلى نفسها والاطمئنان إلى قلبها! فقال وهو ينظر في عينيها ويتأمل في عنقها وصدرها وشفتيها، ويجوس بأصابعه خلال شعرها:

- هل تعرفين ماذا كنت أفكر قبل أن أقابلك؟! لقد كنت أعتقد أنه لكي يبدع الفنان ويصل إلى قمة إبداعه، ولكي يخلق تحفة فنية رائعة تخلده، فلا بد من أن يحب حبّاً قوياً عنيفاً، يملك عليه عقله وروحه وجميع عواطفه ومشاعره

وأحاسيسه؛ ثم يفشل هذا الحب، بأن تموت الحبيبة، أو أن تخونه، أو أن تملّه فتغادره؛ عندها يستطيع الفنان بشظايا قلبه، وفتات روحه، أن يحلّق فيصل القمة؛ فيخلق عملاً فنياً رائعاً!

- ألا تعتقد أن الصدمة قد تقضي عليه، فلا يستطيع أن يعمل شيئاً؟! سألت الصبية وقد فتحت عينيها على وسعهما!

- إن هذا صحيح! لقد كنت أعتقد أنه لا يمكن أن يبدع الإنسان في جو من السعادة والرفاهية وراحة البال، لأن السعداء ليس لديهم الوقت ولا الحافز، وكذلك لا هم لهم، سوى أن يعبّوا من نهر السعادة الفياض!

توقف العاشق عن اللعب بشعرها، ونقل أصابعه وصار يداعب بها وجنتيها وشفتيها، ويمر بيده على خديها وذقنها وأضاف:

- كنت أعتقد أن السعداء لا يمكن أن يخلقوا فناً حقيقياً، لأن الفن الذي يؤثر في عواطف وأحاسيس القارئ أو المشاهد، يجب أن يكون نتيجة ألم ومعاناة ودموع! وكنت أعتقد أيضاً، أن الفنان لكي يقدم عملاً فنياً رائعاً يجب أن يحب إنساناً بكل جوارحه، وبكل طاقاته، وإن ذلك المحبوب لا يبادله الحب، بل وحتى يسخر من حبه له ويستهزئ، وأنه من الأفضل أن لا يعرف بحبه، بل وحتى لا يعرف أن هناك من يحبه! عندها يستطيع الفنان أن يتعملق ويصل القمة!

كان طيلة هذا الوقت والبنية تحدق بفتاها بعيون مذهولة، ولم تعلق بشيء بل ولم تفتح فاها! واسترسل الشاب:

- أو أن يحب إنساناً قد لا يستطيع حتى أن يمسك بيده، وربما لا يستطيع أن يكلمه، كأن يكون متزوجاً أو من طبقة اجتماعية تختلف كثيراً عن طبقة ذلك المحب!

وهنا شعر راكان بجفاف في حلقه، وكأنما حديث المعاناة قد فكره بالأيام التي لاقى بها الموت وجهاً لوجه يوم فقد زينة فاستطرد:

- كنت أفكر بكل هذا؛ أما الآن، وبعد أن أحببتك كل هذا الحب، وبعد أن عرفت سعادة وهناء هذا العشق، أدركت كم كنت أنا مخطئاً! وهنا نهض ووقف في وسط الغرفة وقد شعر بقوة خارقة فقال وكأنما يلقي خطبة في حشد من الحضور!

- إنني أشعر الآن وعيناي تُسبحان المبدع الأعظم، وهما تتأملان محاسنك وما أبدع الخالق الذي سوّاكِ فعدلك؛ بأنني أستطيع أن أزحزح الجبال، بل وأن أهزّ العالم كله! إنني أستطيع الآن أن أكتب رائعة أدبية؛ أضخم عمل فني من الممكن أن يقدمه مخلوق في هذا العالم!

مدّت الشابة يدها وأطفأت الضوء الملاصق لها، ثم نهضت من فوق السرير، وبجسمها العاري عانقت جسمه، فقالت وهي تقبل صدره بنهم وشغف، قبلات حارة ومتلاصقة:

- ما أسعدني بحبك يا حبيبي؛ وما أسعدني أن أسمع مثل هذا الكلام! قالت الصبية بحماس وقد نقلت قبلاتها من صدره إلى عنقه!

- إننا بعد أن نستقر؛ أعني بعد أن نتزوج ونسكن في بيتنا، فسأجلس كل ليلة لأكتب قصة حبنا الخالد... قصة سعادتنا الدائمة!

- إنني لن أدعك تجلس طويلاً؛ فإنني لن أسمح لقصصك أن تأخذك مني! قالت الصبية وهي تتضاحك وقد كفت عن تقبيله!

- اطمئني! لن يأخذني أحد منك يا حبيبتي! لا يوجد قوة على الأرض تبعدنا عن بعض! إن حبنا أقوى من الزمن ومن الحياة نفسها! إنني لن أجلس للكتابة إلاّ بعد أن أحملك بين يدي، وأضعك في السرير، ثم أظل أهدهدك حتى تنامين، كما تفعل الأم الرؤوم بطفلها؛ أنتِ يا طفلتي الصغيرة!

- ولم لا تفعلها الآن؟! فإنني أشعر حقاً بأنني متعبة، وأشعر ببعض النعاس!

وبالفعل حملها الشاب بين يديه، بكل رقة ودلال، ورفع الغطاء ووضعها تحته، ثم صار يمر بيده، بلطف فوق رأسها، يمنة ويسرة، تماماً كما كانت تفعل والدته معه ومع أخوته، أيام كانوا صغاراً؛ فتقرأ عليهم بعض ما تحفظ من القرآن الكريم! لقد فعل هو نفس الشيء، إذ صار يقرأ على حبيبته، همساً بعض ما يحفظ من سور كتاب الله العظيم!

- هل أحببت هذه الطريقة؟! سأل راكان همساً؛ ولما لم تجبه أعاد بصوت أعلى قليلاً، فتأكد له بأن الصبية قد استغرقت في نوم عميق، عندها رفع الغطاء ودسّ نفسه إلى جانبها!

*****

الفصل الخامس عشر

كان رأي الجدة والحفيدة أيضاً، هو أن يكتب عقد الزواج مأذون المسلمين في مدينة لوس انجلوس، وكان رأي راكان أن لا فرق، مأذون مسلم أو مسيحي، المهم عنده أن يكون هناك عقد زواج، وأن تكون الجدة وحفيدتها، مقتنعتان وراضيتان عن هذا الذي يكتب عقد الزواج! وأخيراً اتفقوا على أن يتركوا الأمر في الوقت الحاضر، ويصمموا فيما بعد!

كانوا قد حددوا اليوم التاسع والعشرين من شهر آب موعداً ليوم زفافهما؛ ولقد اختارا هذا اليوم المجيد، كاحتفال لذكرى مرور عام، على اليوم الذي أنزلت به الباخرة اليونانية العملاقة "كوين فردريكا"، راكان في ميناء نيويورك العتيد!

*****

كان الشابان، راكان ونيكول، يجلسان، إحدى الأمسيات، في غرفة قعاد السيدة جولييت بعد العشاء وحيدين، حيث كانت الجدة تجلس مع ولدي جيرانها، السيد والسيدة بويكو، إذ كان الأبوان في زيارة أصدقاء لهما، بمناسبة عيد ميلاد الزوجة.

كان راكان يجلس قبالة نيكول ويرقبها وهي تقرأ في جريدة "لوس انجلوس" اليومية، والمشتركة بها الجدة، وكان يتأمل قسمات وجهها وجمال عينيها وسحر شفتيها؛ ويشكر الخالق في سره الذي تكرم عليه، فأرسل له هذه الفتاة، كاملة الأوصاف الجسدية والعقلية؛ لتكون شريكة حياته وأماً لأولاده!

- ما أسعدني يا حبيبتي، وكم أنا محظوظ من الخالق سبحانه وتعالى! تصوري أنه في مثل هذا اليوم، بعد شهر واحد وثلاثة أيام، سيكون يوم زفافنا، وستصبحين زوجتي أمام الناس، بعد أن أصبحت زوجتي أمام الخالق! قال الشاب بفرحة وحماس شديدين، وهو يرقبها في عبادة وتقديس. ولما لم تقل شيئاً، استرسل:

- نعم، فإنني سأعلن أمام كاتب العقد والحضور، وأمام الناس، أنني سأظل أميناً على عهدك، مخلصاً لحبك، ساهراً على راحتك وسعادتك، حتى آخر لحظة من عمري.

لعلّ ما قاله، قد هيّج عواطفه وألهب مشاعره، فاسترسل وكأنما كان يناجي نفسه:

- كم أكره أن أذهب إلى غرفتي وحيداً، وأنت لستِ معي، فأنام في فراشي وأعانق الوحدة بدلاً من أن أعانق جسمك الحبيب! صدقيني، إن كل لحظة أقضيها بعيداً عنك، أعتبرها ضائعة، ولا أحسبها من عمري!

لم تتفوه الشابة بكلمة، وإنما واصلت قراءتها، مما جعل الشاب يشعر بخيبة ومرارة في نفسه، ولكنه مع كل ذلك واصل حديثه حيث قال:

- إنك حتى الآن لم تبتاعي فستان الزواج، ولم تقرري أين سنقيم الحفلة، ولا عدد المدعوين ولا أين سنقضي شهر العسل؛ هل سنقضيه في سان فرانسيسكو أو جزيرة هوائي؟ ثم إن الأهم من ذلك كله، هو أننا يجب أن نعلم الشركة متى ستبدأ إجازتنا حتى يجدوا من يقوم مقامنا!

لم ترفع الشابة عينيها عن الجريدة، فقالت بكل تراخ وكسل:

- سنقوم بكل هذه الإشكالات في الأسبوع الأخير!

- الناس يبدأون بالتحضير قبل شهور وشهور من يوم الزفاف، وأنتِ تريديننا أن نقوم به في الأسبوع الأخير؟! ما هذا التفكير؟! لماذا لا نعمل كل شيء مبكراً حتى لا نضطر لعمله على عجل وتحت ضغط الوقت؟!

ومرة أخرى لم ترفع الشابة عينيها عن الجريدة، ولم تعلق على ما قاله الشاب، مما أغاظه وأقلقه!

- إنني أستغرب ما الذي جرى لك في الفترة الأخيرة! لقد كنت في السابق لا يمر يوم دون أن تتحدثي عن مراسيم زواجنا ومستقبلنا وبيتنا وشهر العسل! لقد كنت تتحدثين عنه، حتى وأنت نصف نائمة! فماذا حدث لكِ؟!

- لا شيء! لا شيء!؟ أترك كل شيء لآخر أسبوع! قالتها هذه المرة وقد حوّلت عينيها عن الجريدة!

- قلت لكِ لا نستطيع أن ننتظر حتى الأسبوع الأخير! مستحيل!

رفعت رجلها اليمني ووضعتها فوق اليسرى بعصبية ظاهرة، ثم عادت ووضعت اليسرى فوق اليمنى!

هنا نهض راكان وجلس إلى جانبها، ومدّ يده اليسرى ومرّ بها بلطف على رقبتها، وقال بصوت حنون يفيض بالحب والاحترام:

- أرجوكِ يا حبيبتي أن تصارحيني؛ إن هناك شيئاً يقلقك ويزعجك في المدة الأخيرة! لقد حدث هذا في الأسبوعين الأخيرين!

- لا يوجد شيء! قالتها بعصبية ممزوجة بالغضب؛ وقد أبعدت بفجاجة، يده عن رقبتها!

- نعم، يوجد شيء! لقد بدأت تكرهينني ولا تطيقين رؤيتي! أرجوكِ أعلميني السبب!

- قلت لك لا يوجد شيء! قالت ذلك وضربت بشدة طرف الكنبة التي تجلس عليها!

فقال الشاب وقد ازدادت لهجته رقة وحناناً، وخفّض صوته حتى أصبح كالهمس الحالم:

- لا تنكري يا حبيبتي! إنه ليس من السهل عليكِ أن تخفي عني شيئاً!

ولما لم تقل شيئاً تشجع ليقول لها ما كان يحاول قوله منذ أسبوعين:

- لقد حدث تغييرٌ كبيرٌ في عواطفك وسلوكك نحوي! لقد كنت دائماً متأججة العواطف والمشاعر، تفيضين حباً ورقة وحنان! لقد كنت دائماً تطلبين أن نذهب إلى عش غرامنا، حيث نكون هناك لوحدنا ولبعضنا؛ ولكن في الفترة الأخيرة تخلقين شتى المعاذير حتى تتجنبي دخول مكان سكناي! لقد كنت وأنتِ بين ذراعي تذوبين رقة وعاطفة وحباً، وتمنحينني نفسك بكرم وسخاء؛ أما في الفترة الأخيرة، فأشعر وكأنما أعانق صنماً من الجليد! إنك حتى تتجنبين الاختلاء بي، وعندما أريد تقبيلك تعطيني خدك بدلاً من شفتيك، بينما كنت في السابق أنت التي تبدأين في تقبيلي! لقد ذهبتِ إلى أبعد من ذلك؛ لقد توقفت عن قراءة الأشعار لجدتكِ ولي؛ ولم تعودي تجلسين معنا لتستمعي إلى الموسيقى، فتذهبين إلى غرفتك وتقرأين وتستمتعين لوحدك، محتجة بالإرهاق أو الصداع!

توقف راكان عن الكلام ليعطيها الفرصة لتقول شيئاً، ولكنها بقيت صامتة!

- لقد توقفتِ عن توصيلي إلى العمل، في يوم عطلتك، ولم تأتِ مساء لإحضاري، ولا تأتين لنتناول طعام الغداء معاً، كما كنت تفعلين قبلاً! لقد صرت تذهبين إلى الغداء وتأخذين استراحتك في غير وقت استراحتي!

وهنا حوّلت البنية رأسها ونظرت إليه، فرأى أن عينيها مخضلتان بالدموع، وحاولت أن تتكلم ولكن اختنقت بعبراتها، ثم حوّلت نظراتها عنه وانخرطت في بكاء عميق!

مدّ الشاب يده اليمنى، وسحب بها وجهها نحوه، فلم تحاول مقاومته، فألقت برأسها فوق صدره، فارتفع نشيجها وازداد تساقط دموعها، وصارت تهتز وكأن بها حمى!

هزّ منظرها الشاب، إذ شعر بحزن يصل إلى عظامه فيخرقها، فمد يده اليسرى وطوق بها عنقها، ثم أسندها على صدره وقال:

- أرجوكِ يا حبيبتي أن لا تبكي! أنا واثق أن علاقتنا ستعود إلى سابق عهدها! إن العالم كله ملك يدينا ما دمنا نحن الاثنين لبعض!

لكن بكاء الصبية لم ينقطع ولا حتى خف، بل ازداد، وهنا تضاعف رعب راكان وقلقه!

- أرجوكِ يا روحي أن تصارحيني وأن تقولي لي ما يزعجك، فقد أستطيع أن أساعدك! لقد عودتني دائماً على الجرأة والصراحة، ولم تحاولي أن تخفي عني سراً طيلة معرفتنا!

لم تتكلم الصبية ولم تتوقف عن البكاء؛ بل ازداد نحيبها وعلا صوتها واشتد انفعالها؛ وهنا توقف الشاب عن إلحاحه وتركها تبكي؛ إذ فكر بأن أنجح وسيلة هي تركها تبكي حتى تبدد كل ما هو مخزون بداخلها ويزعجها، فترتاح!

واصلت الشابة بكاءها لفترة ليست بالقصيرة، ثم توقفت بعدها؛ رفعت رأسها من على صدره واستقامت في جلستها، ثم مدت يدها اليسرى بلطف وأبعدت يده عن رقبتها! انتظرت قليلاً، ثم نهضت وجلست على المقعد المقابل لمقعده. نفس المقعد الذي جلست عليه في أول ليلة قدمته إلى جدتها!

همّ الفتى أن يطلب إليها بأن تذهب وتغسل وجهها من الدموع التي مازالت تملأ مآقيها، والتي تركت على وجهها مسحة من الكآبة والألم الشديدين، ولكنه توقف!

نظرت إليه للحظات! ثم أنزلت وجهها إلى أسفل ونظرت إلى الفستان المبتل بالدموع فوق النهدين! ومن نظراتها عرف الفتى الحزين، بأنها تريد أن تقول شيئاً!

- راكان! أريد أن أقول لك وبصراحة! قالت الفتاة بصوت الإنسان المنهك؛ جسمياً وعاطفياً!

- نعم يا حبيبتي! قولي كل ما يزعجك، بجرأة وصراحة حتى تريحي منه صدرك! قال الشاب بحماس ليشجعها على الكلام!

- لقد كنت عازمة أن لا أخبرك وأن أدعك تجد ذلك بنفسك؛ ثم فكرت أن أكتب لك رسالة، أو أن أقول لجونزي لتخبرك!

- يجب أن يكون الإنسان صريحاً مع من يحب، حتى لا يتركه بالعذاب! إنني أعاهدك يا حبيبتي، أنني سأقول لك كل شيء بصراحة، وأنني لن أخبئ عليك سرّاً بعد أن نتزوج! إن هذه أحسن وأسعد طريقة لدوام السعادة الزوجية!

وهنا بدأت الصبية تتكلم ولكن بصوت ضعيف حزين:

- لقد أحببتك حباً، لم أحبب أحداً مثله، ولا أظن أنني سأفعل يوماً! لقد أحببتك بكل كياني! لقد منحني حبك سعادة لا يمكن أن أنساها مدى الحياة! لقد كنت أمتع شاب قابلته في حياتي، وجعلتني أعيش في عالم سحري! لقد أدركت منتهى اللذة والسعادة في أول مرة تبادلنا بها الجنس معاً، وكانت تغمرني سعادة لا أستطيع وصفها، في كل مرة تضمني بين ذراعيك!

- كم يسعدني هذا القول؛ وأعاهدك أنني سأجعلك أكثر سعادة وأكثر استمتاعاً! قال الشاب وقد هزته كلمات الصبية، حتى شعر بأنه وصل عنان السماء!

- لقد اكتشفت الآن أنني لم أعد أحبك، وأن حبي لك قد خبا؛ وأنك قد أصبحت شخصاً عادياً، لا يجذبني شيء إليك!

يا إله السماء! رحمتك وعفوك وغفرانك! لو أن إنساناً كان يحمل طناً من الحديد، وبكل ما أوتي من قوة ألقى به فوق رأس راكان، لما كانت الضربة أكثر إيلاماً ولا أشدّ وقعاً مما سمع!

هزّت الصبية رأسها بعصبية، يمنة ويسرة لعدة مرات وهي ما زالت تنظر إلى صدرها، وكأنما هو كتاب تقرأ به، ثم بلعت ريقها ورطبت شفتيها بلسانها واسترسلت:

- إن الذنب ليس ذنبك، إذ إن كل ما بك من صفات حميدة قد قوي وازداد؛ ولكنني لم أدر ما حدث لي!

صرّت الشابة على أسنانها أولاً، حتى كادت تحطمها، وعضّت على شفتها السفلى حتى كادت تدميها، ثم شدّت قبضتي يديها ورفعتهما من حضنها حتى قربتهما من وجهها، ثم ضربت بهما الهواء وكأنها تضرب بهما الشيطان وأضافت:

- إياك أن تفكر أنني أحب إنساناً آخر! لا؛ لا؛ أبداً! وأقسم بحب جونزي! لقد شعرت وكأنني قد استيقظت من حلمي اللذيذ، وأن عالمي السحري قد تبدد، فأصبحت أعيش حياة روتينية، جوفاء، خالية، لا أحلام بها ولا لذة ولا سحر! سنتزوج... وسننجب أطفالاً، تماماً كآلة التفريخ، ثم ينتهي سحر الحياة ومتعها، فتصبح حياتنا رتيبة مملة، ونعيش كالأموات!

كان راكان طيلة الوقت الذي تتكلم به نيكول مصغياً إليها، محدقاً بها، وكانت عيناه مفتوحتين على وسعيهما، متجمدتين، وكأنهما عينان زجاجيتان في تمثال؛ أما جسده فكان يهتز وكأنما أصابته حمى شديدة، أو كأنه غصن لين في مهب ريح عاتية! لقد حاول أن يحرك لسانه ليقول شيئاً، ولكنه وجده متجمداً في حلقه وكأنما هو قطعة عظم! وأخيراً استطاع أن يسأل!

- هل تعني أننا لن نتزوج؟! خرج صوته مثقلاً كحشرجة الموتى!

- نعم؛ إننا لن نتزوج! قالتها بسرعة، إذ خرجت الكلمات من فمها كالطلقة!

- ماذا تقولين بحق السماء؟! سأل الشاب بدون وعي؛ وقد جحظت عيناه فاتسعت حدقتاهما، حتى خيل إليه أنهما ابتلعتا كل وجهه!

رفعت الشابة عينيها من النظر إلى صدرها، وألقت بنظره خاطفة على وجهه، وكأنما لتعرف وقع كلماتها عليه، وأضافت:

- نعم يا راكان! إننا لن نتزوج! قالتها هذه المرة ببطء ووضوح، إذ لعلها تريد أن تتأكد من أنه قد سمعها جيداً!

- ماذا تقولين؟! صاح بكل ما عنده من طاقة، وكأن حرارة الروح التي على وشك أن تفارقه قد أعطته قوة دفعٍ جبارة، ولكن للحظات!

- لقد توصلت إلى قناعة تامة بأن زواجنا لن ينجح، وأنه سيكون كارثة علينا نحن الاثنين!

- يمـ ـ ـ ـاه!! صاح الشاب بأعلى صوته، ثم سقط على الأرض مغشياً عليه، فاقد الوعي والحركة!

إن راكان يقسم بأغلظ الأيمان، أنه لم يدر ماذا حدث له بعد ذلك، إذ إن كل ما يتذكره، هو أن نيكول كانت تتحدث إليه، وأنها أعلمته بأنها لم تعد تحبه، وأنها لا تريد أن تتزوجه! أمّا كيف وصل إلى غرفته، ومن الذي وضعه في فراشه؛ فهذا ما لا علم له به!!

*****

استيقظ الفتى على صوت طرق متصل على باب غرفته، إذ كان تارة ينخفض فيظنه آتياً من بعيد، وتارة يرتفع حتى يظنه طرقات فوق جمجمة رأسه !

كان يرافق الطرق صوتٌ نسائيٌ، يعلو وينخفض ليتناسب مع انخفاض وارتفاع الطرقات!

فتح الشاب عينيه للحظة ثم عاد وأغلقهما، ثم فتحهما ثانية لمدة أطول، ثم عاد وأغلقهما؛ وبصعوبة شديدة رفع يديه الممدتين إلى جانبه، وبظهريهما فرك عينيه عدة مرات، ثم تركهما تسقطان إلى جانبه؛ ثم فتح عينيه وأبقاهما مفتوحتين، وبدأ يتطلع حوله، محاولاً أن يتبين موضعه، فوجد أنه متمدد فوق سريره وفي غرفته، كل ذلك والطرق ما زال مستمراً، وصوتٌ حبيبٌ إلى قلبه يعيد ويكرر، مرافقاً الطرقات!

- أرجوك يا بني أن تفتح! أنا أمّك! افتح الباب يا حبيبي! راكان! راكان! بقي الصوت يلحّ ويتوسل!

همّ الفتى أن ينهض، فلم يقدر على النهوض، إذ شعر بأن جسمه قطعة متصلبة أو كأنما هو جذع شجرة يابسة ملقاة فوق السرير، فقد أحس بألم شديد شديد ، يأكل جسمه!

حاول جاهداً، أن ينهض ثانية فلم يقدر؛ ثم وجد أنه ممدد فوق السرير بكامل ملابسه؛ حتى حذاؤه ما زال في قدميه!

عمل جاهداً أن يتذكر سبب وجوده فوق سريره، بكامل ملابسه، ولكنه لم يستطع، إذ إن عقله كان معطلاً، وشعر وكأنما رأسه حجرٌ موضوعٌ فوق جسمه!

استمر الطرق على الباب، والصوت الملّح يرافقه، وقليلاً قليلاً استطاع أن ينهض من سريره، ولكنه عندما وقف في وسط الغرفة سقط على الأرض!

وبكل صعوبة ومعاناة، استطاع أن ينهض، ولكن رجفة شديدة اجتاحت كل جسمه، فشعر ببرد ينخر العظام اصطكّت له أسنانه، حتى صار يهتز وكأنما هو غصن ليّن في مهب ريح عاتية؛ وبجهد جهيد، وبأرجل واهية وخطى مرتجفة سار نحو الباب، ولمح على شماله الساعة الموضوعة فوق مكتبه، واستطاع عقله أن يتميزها، فإذا هي تقترب من الحادية عشرة، وأشغل عقله ليتبين إن كان الوقت ليلاً أم نهاراً، وكاد يعلن عجزه لولا أن لمح شعاعاً ضئيلاً من الشمس، يدخل من شقوق النافذة !

ما كاد الفتى يفتح الباب حتى اندفعت إليه السيدة جولييت بجسمها الصغير الضعيف، وطوقته بذراعيها حول عنقه، وانهالت عليه عناقاً وتقبيلاً وهي تردد:

- الشكر لله؛ فلقد وجدتك! لقد كنت أظن أنني لن أراك ثانية! آه يا ولدي! كم أنا حزينة من أجلك! ولكن لا تهتم؛ فكل الأمور ستكون على خير ما يرام!

كان الشاب قد تطامن بجسمه قليلاً تحت ضغط يدي العجوز الملفوفة حول عنقه، والتي تقبله قبلات نهمة على رأسه ووجهه وعنقه، وكل مكان تقع عليه شفتاها. كانت ترافق قبلاتها في بعض الأحايين وقفة قصيرة بأن تشمه؛ تماماً كالعنزة التي غاب عنها وليدها بعد أن قضت يوماً كاملاً بعيدة عنه، ترعى في الحقول!

لم يستجب الفتى لعناق العجوز ولم يقاومه، وإنما ترك لها نفسه تصنع بها ما تشاء ! كان واقفاً بين ذراعيها كالصنم، يحدق بها بعينين جامدتين، مستحثاً عقله، محاولاً أن يتذكر السبب لكلامها أولاً ولعاطفتها الزائدة نحوه ثانياً؛ ورويداً رويداً، بدأت حوادث الليلة الماضية تعود إليه، وهنا ازدادت الحمى في جسمه وازداد ارتجافه ثم صارت أسنانه تصطك، حتى سمع لها صوتاً كأنه جاروشة تدور، وصار يهذي ويردد!

- أماه! أين نيكول؟! أحقاً تركتني وذهبت؟! هل صحيح أنها لم تعد تحبني؟! كيف سأعيش بدونها بعد اليوم؟! إن نيكول هي روحي التي أعيش بها، وهي عقلي الذي أفكر به؛ وقلبي الذي ينبض بالحياة؛ وهل يمكن للإنسان، أن يعيش بدون عقله وروحه وقلبه؟! إنها كل ما لي في هذه الحياة! إنها أملي ورجائي!

كان جسد الشاب يهتز بين يدي العجوز الواهنتين، كأنه جسد صوفي، هزته حمى الدين، فلم يعد يملك زمام نفسه، وقد انفلتت منه إرادته ! كان يصيح بأعلى صوته، مما جعل صاحبة البيت المقعدة، تأتي لتستفسر عما يحدث، وقد سبقتها عكازتها!

- أرجوك يا بني! إن كل الأمور ستعود إلى ما كانت عليه! أنسيت ما حدث قبل مدة، وأنها عادت إليك معتذرة ونادمة؟! ألم أقل لك إنها ستعود فعادت؟! قالت العجوز ملتاعة جزعة!

لقد شعر الفتى أن لغة الجدة هذه المرة ينقصها الإيمان بما تقول؛ وأنها هي نفسها لا تصدق ما ينطق به لسانها!

- إنها لن تعود هذه المرة! لقد أخبرتني أنها لم تعد تحبني! لقد ملّت حبي وسئمت وجودي! هي نفسها قالت ذلك صراحة وبقوة!

كان الفتى يتكلم، بل يهذي، والمرأة تحاول أن تطيب خاطره لتسكته، بأن تقول بعض كلمات العزاء والتطمين بأن حفيدتها ستعود؛ ولكن الشاب لم يكفّ عن الصراخ والارتجاف معاً!

فجأة أحسّ الفتى وكأنما أُعطي إبرة مخدر، فكفّ عن الحركة وعن الصراخ، وتوقف ارتجاف جسمه، فشعر بأنه متعب جداً، وأنه لا يقوى على الوقوف، واستولت عليه هجمة من النعاس الشديد، فسار نحو سريره وألقى بنفسه فوقه، وراح في نوم عميق.

لم يعرف كم مضى عليه نائماً، وعندما استيقظ، رأى المرأة راكعة على الأرض، إلى جانب سريره تصلي بحرارة، وسيلٌ من الدموع الغزيرة تسيل فوق خديها، وتملأ الشقوق والأخاديد في وجهها!

وجد راكان نفسه ينضم إليها في البكاء دون إرادة منه، وإن بقي راقداً في فراشه، لا يتحرك، مغلقاً فمه، ينهنه بصمت!

عندما انتهت السيدة جوليبت من صلاتها، مسحت عينيها بظهر يديها؛ ثم نهضت وتناولت ورقة خفيفة من صندوق كان موضوعاً إلى جانب السرير وبدأت تجفف دموعه!

- أرجوك يا بني أن تنهض وتغسل وجهك وتدعنا نذهب إلى بيتنا. قالت المرأة وهي تحاول أن تضع ابتسامة فوق وجهها الكئيب.

- لا يا أماه! من الأحسن أن لا أفعل ذلك! إن نيكول لا تحب أن تراني في بيتك. قال الفتى بصوت ضعيف وهو يشعر بأن المخدر ما زال مسيطراً عليه!

- إن البيت بيتي يا حبيبي؛ وأنت ابني؛ وحبي لك لا يعلم مقداره إلاّ الله.

- من الخير أن لا تراني في الوقت الحاضر! قال الشاب وهو يتمنى لو أن المرأة تتركه مدة أطول متمدداً فوق الفراش، إذ شعر بأنه منهك ولا يقوى حتى على الوقوف.

- إنها لن تأتي الليلة إلى البيت! قالت بسرعة حتى وكأنما لا تريد أن يسمعها الفتى.

- ولم يا أماه؟! سأل الفتى مرعوباً، ومبهور الأنفاس؛ وقد اتسعت حدقتا عينيه حتى خيل إليه أنهما ستفران من محجريهما وهو يحملق بالجدة مستوضحاً؛ إذ خشي أن تكون الفتاة قد ارتكبت حماقة الانتحار، أو عملت عملاً تؤذي نفسها، وهي الغريبة التصرفات!

صمتت الجدة قليلاً، خالها الشاب قروناً، وهو ينظر إليها منهوك القوى متوقد الأنفاس، إذ لعلها كانت تفكر بطريقة تعلمه النبأ بحيث لا تضاعف آلامه:

- لقد وجدتها البارحة، بعد أن أوصلناك إلى غرفتك، تجمع حاجياتها، ولما سألتها السبب، أعلمتني بأنها ذاهبة لتعيش مع والديها! قالت الجدة ذلك وهي تتجنب النظر إلى عيون راكان.

تنفس الشاب الصعداء، إذ إن البنية لم تؤذِ نفسها، وإن زاد في حزنه أنها رحلت بعيداً، مما يقوى شكوكه بأن القطيعة هذه المرة لن تكون لها عودة كسابقتها، فسأل:

- وماذا عن وظيفتها؟!

- لقد طلبت إليّ أن أتصل بالشركة وأعلمهم بأنها تركت المدينة لأسباب قاهرة !

- ومن الذي أوصلني إلى غرفتي؟!

- السيد والسيدة بويكو جزاهما الله خيراً!

همّ راكان أن يسألها إن كانا عرفا السبب، ولكن الجدة وفّرت عليه آلام السؤال عندما قالت:

- لقد ذكرت "توتسي" بأنها تتوقع نهاية غير سعيدة لعلاقتكما أنت ونيكول، وإن كانت تعتقد أن الذي سيترك الآخر هو أنت وليس هي، بسبب معرفتها الوثيقة بنيكول!

- ومن أعلم السيدة بويكو بما حدث؟!

- أنه أنت يا بني! كنت تتكلم وأنت تبكي! قالت الجدة من بين دموعها!

- أقسم لكِ أنني لم أتذكر ذلك! كل ما أتذكره أنه أُغمي عليّ!

- أصدقك يا بني! أصدقك! كانت ليلة قاسية علينا جميعاً؛ وبعد أن مصمصت شفتيها، ومسحت بعض الدموع بظهر يديها أضافت:

- أنا واثقة بأن نيكول لم تعنِ ما قالت؛ وأن كل شيء سيعود على ما كان عليه! إنه لا بد من حدوث سوء تفاهم بين المحبين، بين الفينة والأخرى؛ وسيظل هذا يحدث بينهما حتى يتأقلما ويكيفا طباعيهما!

لاحظ راكان، مرة أخرى، أن حديث الجدة تنقصه الحرارة، وأنها هي نفسها لا تؤمن بما تقول، فأضافت هذه المرة بحماس وبصوت أعلى، إذ لا شك أنها تريد أن تقنع نفسها قبل أن تقنع الفتى:

- أعطها أسبوعاً أو أسبوعين، وستعود إليك معتذرة ونادمة! إنها لا تقوى على فراقك، أعادت المرأة هذا للمرة الثانية!

- ليس هذه المرة يا أماه! صدقيني! لقد رحلت ولن تعود! ومن جديد، انفجر راكان في بكاء هستيري!

عندما هدأ قليلاً طلبت الجدة إليه أن يذهب ويغسل وجهه ويستعد لمرافقتها، ولكنه وهو يهم بالنهوض تذكر أنه من المفروض الآن أن يكون على رأس عمله، ولما أخبر الجدة قالت:

- لقد هاتفت الشركة وأعلمتهم بأنك جد مريض، طبعاً بعد أن أعلمتهم عن ترك نيكول للعمل؛ فاستغرب المدير بأن نيكول تترك العمل وأنك أنت مريض في يوم واحد؛ فتجاهلت تعليقه ولم أقل شيئاً.

*****

كانت الصدمة قوية جداً على راكان، وقد تركته في حالة ذهول مستمر، حتى اعتقد الكثيرون من الذين حوله، بأنه يعيش في عالم غير عالمهم، وقد كانت تصيبه أحياناً حالة رجفة يشعر أنه عاجز عن الوقوف، وغير قادر حتى على حمل كأس ماء؛ فتظل تهز جسمه ولا تتركه إلاّ بعد أن يجلس ويمرّ بعض الوقت!

لم يقدر الشاب على الاستمرار في العمل، فصمم على الاستقالة بالقريب العاجل؛ إذ كان كل مكان فيه يذكره بالأوقات السعيدة وبالأيام الحلوة التي قضاها مع نيكول، مما كانت تثير في نفسه أقسى الآلام وأشد العذاب؛ وتفتح جروحاً عميقة في قلبه، تنزف دماً!

إن صورة نيكول لم تكن لتبرح خياله، وحبها لم يفارق قلبه؛ وكان لسانه لا ينقطع عن ذكر اسمها، بينه وبين نفسه، وكأنما اسمها تعويذة تحرسه من المعاناة والوحدة!

*****

كان راكان يقضي معظم أوقاته، بعد ساعات العمل، في بيت السيدة جولييت، إذ إنه لم يعد ينام في غرفته إطلاقاً، فكان لا يذهب إليها إلاّ ليحضر بريده، أو ليدفع إيجارها! كان يقضي، أول الأمر، معظم هذه الأوقات ممدداً فوق الكنبة الطويلة، إما محملقاً بسقف الغرفة أو بالحائط، أو محملقاً باللاشيء!

ويوماً أحضرت له السيدة جولييت من المكتبة العامة بعض الروايات، وطلبت إليه أن يتسلى بقراءتها ففعل، وصار بعدها لا يُرى إلاّ وهو يقرأ في كتاب، فصار يقرأ بشغف منقطع النظير!

كان يغرق نفسه بالرواية التي يقرأها، فيعيش مع أبطالها، يفرح لفرحهم ويتألم لألمهم، حتى صار لم يعد يفرّق بين القصة التي يقرأها والقصة التي يعيشها، مما ساعده على نسيان نفسه، ونسيان واقعه!

أما الجدة، فقد أصابها اكتئاب شديد، إذ كانت هي الأخرى تمضي كثيراً من وقتها تحدق، بعيون جامدة وعقل مغيّب في ما أمامها!

كانت السيدة جولييت لا تنفّك عن الإلحاح على راكان أن يلتحق بجامعة باسدينا، وأنها مستعدة لدفع جميع مصاريفه المعيشية؛ ولكنه كان دائماً يعلمها بأنه سيفعل ذلك في المستقبل القريب، إذ إنه في الوقت الحاضر، ليس عنده الرغبة ولا القوة لتحقيق طلبها!

استقال الفتى المهزوم من عمله، إذ إنه لم يستطع أن يصبر على تحمل المعاناة أكثر مما فعل؛ فطلبت الجدة إلى السيدة بويكو أن تأخذه إلى مدينة باسدينا، والتي تبعد حوالي عشرين دقيقة بالسيارة، إذ إن بها شركات كثيرة ومخازن تجارية، بعضها متميزة وفخمة، لبيع كل ما يحتاجه الإنسان!

إن الذي حيّر راكان، هو أن السيدة بويكو، على الرغم من ثرثرتها التي لا تنقطع، وخوضها تقريباً في كل موضوع؛ وعلى الرغم من أن الرحلة قد أخذت نصف نهار، إلاّ أنها لم تشر إلى نيكول، لا من بعيد ولا من قريب! لا شك بأن الجدة هي التي طلبت إليها ذلك، ولا شك أنها امرأة تحترم الخصوصيات وتلتزم بالعهود!

إن الذي أدخل بعض السرور إلى قلب الشاب، ومحا بعضاً من آلامه، وخفف جزءاً كبيراً من إحباطاته، ليس حصوله على الوظيفة في أول شركة يسألونها عن عمل له؛ والتي تعتبر إحدى خمس شركات تحتل الصدارة في جنوب ولاية كاليفورنيا؛ ولكن الملابسات التي أحاطت بها!

لقد دخلت السيدة بويكو وراكان مكتب التوظيف، في تلك الشركة، فناولته الموظفة طلباً ليعبئه، وعندما أعاده إليها، ألقت المرأة نظرة على ما كُتب، وابتسمت ابتسامة كبيرة وجذلى، ومن ثم طلبت إلى السيدة بويكو وإليه أن يتبعاها، حيث توجهت وإياهما إلى أحد أقسام الشركة!

كان مكتوباً على مدخل القسم "دائرة تغليف الطرود" وحالما رآها المدير مقبلة، سار نحوها وقابلها في منتصف القسم، وسألها وهو يبتسم:

- كيف حال فرختنا الجميلة هذا اليوم؟!

تضاحكت الصبية وقالت بدلع وهي تتثنى:

- أوه جورج! ألا تكفّ عن مناداتي بهذا الاسم؟! أنا لم أعد صغيرة! إن ابني الآن في الثانوية العامة!

- وحتى لو دخل الجامعة؛ فإنني مازلت أحب أن أضع حذائي تحت سريرك! قال هذا وانفجر يضحك، وكذلك فعلت هي الأخرى!

تبادل راكان والسيدة بويكو نظرات استغراب بل نظرات استهجان، ولكن الصبية أضافت:

- لقد أحضرت لك شاباً، أظنك ستحبه كثيراً! إنه من وراء البحار، من الأرض المقدسة! قالت ذلك والتفتت إلى راكان، واستطردت:

- راكان دهشان! أحب أن أقدمك إلى السيد جورج أبيكن! السيد جورج أبيكن! أحب أن أعرفك على السيد راكان دهشان! ثم ناولته طلب توظيف الشاب، وانصرفت!

تصفح الرجل الطلب وانفجر يضحك، مما جعل راكان يعتقد أن الرجل لا بد وأن يكون معتوهاً وبه لوثة!

تصافح الرجلان، ثم قدّم راكان له السيدة بويكو قائلاً:

- أقدم لك السيدة بويكو! إنني حتى الآن لم أبتع سيارة، وتكرمت هي بإحضاري إلى هنا مشكورة!

- وهل هي "القيرل فرند" لك؟!

- لا، لا؛ هي وزوجها أصدقاء للسيدة التي أسكن في بيتها! أجاب راكان خَجِلاً وشبه منرفز!

- وأنا أشكرها أيضاً، لأنها تكرمت وأحضرتك إلى شركتنا! قال الرجل وقد انقلب فجأة إلى إنسان عاقل وجدي ومسؤول، ومهذب أيضاً!

- كم هذا لطيفٌ! كم هذا ممتعٌ! إذن أنت من بلد الملك حسين؟! يا لها من مفاجأة مفرحة! لقد زرت الأردن أنا وزوجتي قبل أكثر من خمسة عشر عاماً... لقد كنت وقتها قوياً... كان عمري أربعين عاماً وقتها! إن الشعب الأردني شعب مضياف وكريم وودود! لقد عاملونا كالملوك! إن زوجتي ما زالت إلى اليوم، تذكر تلك الأيام الحلوة! لقد ذهبنا وشاهدنا البتراء وجرش وأم قيس ووادي رم، ثم المدرج الروماني وأماكن وأشياء أخرى كثيرة! لقد سررنا جداً جداً! قال ذلك وهو يصرّ على مقاطع الكلمات!

- ألم تزورا بقية البلدان العربية؟! إن جميعها بها آثار تستحق المشاهدة! قال الشاب.

- طبعاً! طبعاً! استغرقت رحلتنا ستة أسابيع! أنا من ايرلندا، وزوجتي أمريكية! أخذتها أولاً وأريتها ايرلندا وانجلترا؛ ثم ذهبنا بعد ذلك إلى الشرق الأوسط فزرنا مصر وسوريا ولبنان وإسرائيل! ولكننا أحببنا الشعب الأردني أكثر!

لقد تساءل راكان بينه وبين نفسه؛ إن كان الرجل قد عنى ما قال، أم أنه قالها لمجرد أن يسره؟!

- إننا عازمان أن نأخذ نفس الرحلة مرة أخرى بعد أن نتقاعد، وسيكون ذلك بعد سنوات قليلة من الآن! قال السيد جورج مونتيكو.

- وهل عندكم شاغر لراكان؟! سألت السيدة بويكو.

- طبعاً! طبعاً! إذا لم يكن عندنا فسنخلق له واحداً! قال الرجل بحماس مستنكراً سؤال السائلة، ثم أضاف:

- إن قسمنا هو قسم "تغليف الطرود"، ومعنى ذلك أن الزبون عندما يأتي إلى الشركة فيشتري حاجة، لا نضعها له بأكياس كما تفعل بقية الشركات! إننا نلف كل حاجة، ونضع حولها شريطاً ملوناً، وكأن الطرد هدية! نحن نفعل ذلك مجاناً لنسر الزبون! ثم أضاف:

- إن وظيفة "راكو" ستكون لف هذه الطرود وتسليمها للزبونة أو الزبون؛ وهناك بعض الزبائن يطلبون إليه أن يساعدهم بإيصالها لهم إلى سياراتهم! قال ذلك؛ ثم طلب إلى الشاب ومرافقته أن يتبعوه إلى مكتب التوظيف حيث أعلم نفس الموظفة بأن تكمل إجراءات توظيف راكان، بعدها شدّ على يد الفتى وكذلك على يد السيدة بويكو وقال:

- سأراك غداً صباحاً في تمام الساعة الثامنة والنصف؛ أي قبل افتتاح الشركة للزبائن بنصف ساعة.

بعد أن أنهت الموظفة إجراءات توظيف راكان، أعطته بعض الأوراق ليأخذها معه، ثم طلبت إليه وإلى صديقته أن يتبعاها، وأمام باب مكتب التوظيف توقفت، ومن ثم أشارت إلى لوحة كبيرة معلقة على الجدار وقالت:

- هذه اللوحة عليها بطاقات ساعات دوام جميع الموظفين، وهي كما تريان، بحدود المائة بطاقة. حال دخولك الشركة في الصباح أدخلها في هذه الساعة، وعند انصرافك في المساء أفعل نفس الشيء! إنها تسجّل لك الساعات التي اشتغلتها في ذلك اليوم! قالت ذلك وصافحت كلاً منهما وتمنت لهما يوماً سعيداً!

لقد أعلمت السيدة بويكو راكان عندما اتيا الى هذه الشركة ، بعد أن أوقفت سيارتها في مكان وقوف السيارات، بأنه سيكون محظوظاً جداً، إن استطاع أن يجد وظيفة في هذه الشركة، لأنها أشهر وأغلى وأرقى شركة في مدينة باسدينا وجميع المدن المحيطة بها، إذ إن لها فروعاً في جميع المدن المهمة في جنوب كاليفورنيا!

بعد أن غادرت السيدة بويكو وراكان الشركة، شكرها الشاب بحرارة لمساعدتها القيمة له، وشدّت هي بدورها على يده مهنئة إياه بالوظيفة الجديدة! كما شكر الشاب الله الذي رزقه بوظيفة خيراً من وظيفته الأولى!

قبل أن يعودا إلى البيت؛ أخذت المرأة الفتى إلى حيث مواقف الحافلات، وأرته أيّ حافلة يجب أن يأخذ، ثم أخذته وأرته موقف الحافلة في مدينة باسدينا وكذلك موقفه في مدينة آركاديا، كما وضّحت له جدول المواعيد، وصولاً ومغادرة. ولقد تبين أنه لكي يكون في مكان عمله في الساعة الثامنة والنصف فإن عليه أن يأخذ الحافلة من مدينة آركاديا الذي يمر الساعة السابعة والنصف وخمس دقائق، والذي يصل تقاطع شارع كولورادو مع شارع "ليك" حيث يصل الساعة الثامنة والدقيقة الثالثة والعشرين، وكل ما عليه سيره هو تقاطع شارع واحد فقط! وفي المساء يترك

عمله الساعة السادسة، ويأخذ حافلة الساعة السادسة واثنى عشرة دقيقة، المتوجه إلى آركاديا! لقد أفهمته كل شيء وأرته له؛ مواقف الحافلات التي يأخذها منها، والمواقف التي ينزل بها، وكذلك الجدول الزمني لها!

*****

فرحت السيدة جوليت فرحاً عظيماً عندما عاد راكان والسيدة بويكو، وأعلماها بأن الفتى قد حصل على وظيفة في شركة "بولكس" المتميزة في جودة بضائعها، وذات الاسم الشهير والأجور المرتفعة؛ وأن وظيفته هذه المرة لم تكن عامل تنظيفات، وإنما هو مسؤول عن تغليف الطرود وتسليمها للمتسوقين أو إيصالها لهم إلى سياراتهم! وفرحت أكثر عندما أعلمها عن رئيسه الجديد وكيف أنه إنسان ودود ومرح؛ وصاحب نكتة محببة! " فسبحان الذي بدل لنا الدرهم بدينار!"

على الرغم من تأكيد الفتى للجدة بأن السيدة بويكو قد أرته المكان الذي سيركب منه الحافلة، وموعد وصوله وإقلاعه، إلاّ أن العجوز أصرّت، في صباح اليوم التالي، على أن توصل الفتى إلى موقف الحافلة!

كانت رحلة راكان بالحافلة ممتعة جداً جداً، إذ كان غاصاً بالمستخدمين من الجنسين، والذين يسكنون في مدينتي منروفيا وآركاديا، ويعملون في مدينة باسدينا؛ يغادرون بيوتهم في الصباح إلى أعمالهم، ويعودون منها إلى بيوتهم في المساء!

نزل الشاب من الحافلة في المحطة التي أعلمته السيدة بويكو أن ينزل بها، ثم سار بهمة ونشاط، ولبضع دقائق، فوجد نفسه أمام مدخل الموظفين، في الشركة التي يعمل بها، وعندما نظر إلى ساعته وجد أنه حضر قبل موعد بدء عمله بحوالي العشرة دقائق، مما أراحه كثيراً!

سار في بهو واسع، ثم توقف أمام لوحة كبيرة معلقة على الحائط، وبها شقوق كثيرة، معبأة ببطاقات مطبوع على كل واحدة منها اسم الموظف، وكانت مرتبة حسب الحروف الأبجدية، فبحث عن بطاقته، ولما وجدها أدخلها بالساعة المزروعة إلى جانب اللوحة، فخرج منها صوتٌ، طبع عليها وقت إدخاله بها، وبعد أن نظر إلى ما طُبع عليها، أعادها الشاب إلى مكانها؛ بعد ذلك توجه إلى قسم تغليف الطرود.

ظنّ الفتى أن المكان الذي قابل به رئيس قسم التغليف أمس، كان غرفة متوسطة الحجم، ولكن لشدة دهشته وجده اليوم مكاناً يتسع لأكثر من مائة شخص؛ كما ظن أنه سيكون أول الحضور، فوجد أن المدير وحوله ثلاثة شبان وامرأتان كانوا قد سبقوه! لقد كانوا جميعهم يضحكون ويقهقهون، فأدرك بأن لا بد وأن الرجل العجوز يقص عليهم بعضاً من نكاته وطرائفه!

توقف الرجل عن إلقاء نكاته، وكذلك توقف من حوله عن الضحك حالما رأوا راكان مقبلاً نحوهم، ولما مدّ الفتى يده ليصافح رئيسه، رحب به الرجل ترحيباً حاراً وهو يشد على يده، ثم بعد ذلك قدمه إلى الحضور وقدمهم إليه، فرحبوا هم أيضاً به ترحيباً حاراً، مما أسعده كثيراً، واستبشر بأن تكون هذه الوظيفة خيراً من سابقتها!

تكلم الرجل فقال:

- أريدك أولاً وقبل كل شيء أن تتعرف على جميع الأقسام في الشركة، والتي عددها ثلاثة وعشرون قسماً، والمنتشرة في جميع أنحاء الطوابق الأربعة؛ حتى إذا هاتفنا أحد هذه الأقسام وطلبوا إلينا أن نرسل أحداً لإحضار طردٍ لتغليفه، أقول لك إذهب يا "راكو" مثلاً، إلى قسم ملابس السيدات الداخلية؛ عندها تعرف أنت أين يقع هذا القسم!

ابتسم الفتى لاختيار هذا العجوز لذكر قسم ملابس السيدات الداخلية، ولم يذكر قسم بدلات الرجال مثلاً، أو أحذيتهم، أو أيّ قسم آخر من بين الثلاثة والعشرين قسماً؛ تابع الرجل كلامه فقال:

- لقد أعلمت مارك أن يقوم بتدريبك! إنه سيعرّفك على جميع البائعات والبائعين، وستظل ملازماً له طيلة الأسبوع الأول. عندنا استراحتان في اليوم، مدة الواحدة عشر دقائق؛ واحدة في الصباح والثانية بعد الظهر! عندنا مطعمان في الطابق الرابع، واحد للمتسوقين، وهذا لا شأن لنا به، إذ إن له موظفيه الخاصين؛ أما المطعم الثاني فهو للموظفين، وأسعاره معتدلة جداً. قد تستطيع أن تشتري وجبة كاملة، وتستطيع أن تحضر "ساندويشات" مثلاً وتبتاع صحناً ساخناً من الشوربة لتأكل معه، أو كأساً من الحليب أو تنكة من المرطبات!

- وأيضاً تستطيع أن تجلس وتأكل ما أحضرت ولا تشتري شيئاً! الذي تكلم هذه المرة المستخدم مارك!

- والآن خذ يا مارك "راكو" وعرّفه على البائعين والبائعات وعلى جميع أقسام الشركة. قال السيد أيكن هذا وفتح درجاً وأخرج منه مريولاً أزرق اللون وعلى جيبة صدره اليسرى مكتوب اسم الشركة؛ ناوله إلى راكان وقال:

- ارتده طيلة الوقت وأنت داخل الشركة، وعلقه هناك على المشجب عند الانصراف، وقبل أن أنسى، كن هنا في تمام الساعة العاشرة والنصف، وسنأخذ، أنتَ وأنا، استراحتنا معاً! قال ذلك ورفع يده بالهواء وكأنما ليعلن للشابين، مارك وراكان، أن يبدأا رحلتهما؛ رحلة التعرف والاكتشاف!

كان طيلة الوقت والشاب مارك ، يشرح لراكان ما يخطر على باله عن الشركة ومبيعاتها وموظفيها، وعن السيد أيكن وكيف أنه صديق لهم أكثر مما هو رئيس، وعن روحه الخفيفة ومزاحه معهم والنكات التي يقصها عليهم!

ابتدأا بالطابق الأرضي، ومعظم أقسامه تتعامل مع الأشياء الثقيلة، كأثاث البيت وأدوات الرياضة ومعدات السيارات، وهذه لا تحتاج إلى خدمات فرع التغليف كثيراً، لأنها عادة لا تحتاج إلى تغليف؛ وإنما لمساعدة صاحبها إلى إيصالها لسيارته، إن كان يريد أخذها بسيارته، ولا يريد الشركة أن توصلها لبيته! وإن كان من الواجب أن يتعرف الفتى عليها.

الذي جلب انتباه راكان أن البائعين من الرجال الذين كان مارك يعرفه عليهم يكتفون بكلمات الترحيب به جملة أو جملتين، ولكن النساء من البائعات، لا يكتفين بالترحيب فقط، وإنما يسألنه عن البلد الذي قدم منه، ومتى حضر إلى أمريكا، وهل أحب بلده الجديد، وهل حضر مع أهله أم وحيداً، وهل افتقد أهله، وهل وجد أمريكا كما توقعها، أم أنها خيّبت ظنه؟! ثم إن ترحيبهن به دائماً ما يكون حاراً، ترافقه ابتسامة فوق وجوههن، مما أسعده كثيراً، فشكر الله أن أرسل له هؤلاء الناس ذوي القلوب الطيبة.

قبل العاشرة والنصف بدقائق عاد الشابان إلى قسم التغليف، وبعد أن سأل السيد أيكن الشاب إن كان ما رأى قد أعجبه، أكد له الشاب بأنه مسرور جداً جداً، لأن الجميع كانوا ودودين!

ملأ السيد أيكن إبريقاً صغيراً من الشاي وفعل راكان مثله، وسأل العجوز الشاب إن كان يحب قطعة من الحلوى إذ إنه اليوم ضيفه، فثمن وجبة الغداء، وما يتناوله في وقت الاستراحتين يدفعه هو؛ لكن الفتى اعتذر، بحجة أن معدته معبأة، مع أنها كانت خاوية جداً، ولكن قاتل الله المجتمع الذي أتى منه، فإنه مجتمع مزيف، يجب أن تُقسم للذي تدعوه بالطلاق، حتى يصدق أن دعوتك له صادقة وليست مجاملة!

على الرغم من أنه صار للرجل ما يزيد عن خمس وثلاثين عاماً يعيش في أمريكا، وعلى الرغم من أنه يحمل جنسيتها، إلاّ أنك إذا صادف وسألته عن جنسيته، فإنه لا يقول لك بأنه أمريكي، إذ إنه يعتبر أن الأمريكان سطحيون تافهون! إنه يقول لك بأنه إنجليزي، وأنه فخور أن يكون كذلك، لأن الإنجليز هم أصحاب العقول العظيمة، لأنهم هم الذين كتبوا "الماقنا كارتا" وهم الذين طبقوها؛ فهي أصل التشريع لكل الشعوب الأوروبية!

كان الرجل ملماً إلماماً واسعاً بالشرق الأوسط، دياناته وعاداته وتقاليده؛ وكذلك مشاكله! كما كان على قدر كبير من المعرفة بالعداء المستحكم بين العرب واليهود، أسبابه وجذوره!

وعلى الرغم من أنه يقرأ الكثير من الكتب الجدية، إلاّ أنك لا تتوقف عن الضحك وأنت معه! إنك ستضحك حتى لو سلّم عليك، إذ إنه يقولها بطريقة تجعلك تضحك رغماً عنك!

بعد الاستراحة، رافق راكان مارك في جولة في الطابق الثاني؛ والذي جلب انتباه راكان أن جميع البائعات في هذا الطابق كن نساء، وأن معظمهن كنّ على قدر لا بأس به من الجمال!

لقد كانت جميع أقسامه تخص الجنس اللطيف؛ من ملابس داخلية، إلى عطور، إلى مجوهرات، إلى أحذية، إلى فساتين، إلى معاطف، إلى بيجامات، إلى شنط، بدلات سباحة الخ... الخ!

كانت معظم البائعات، شابات رائعات، رقيقات ودودات، ذوات ابتسامات جذابة، لا تفارق الابتسامة شفاههن! كان بعضهن عندما ينظرن إلى الرجل يجعلنه يخيل إليه أنهن يدعونه إلى غرف نومهن؛ وإن كان معظم المتسوقات نساء مثلهن!

في تمام الساعة الواحدة صعد راكان بمعية رئيسه إلى الطابق الرابع حيث المطعم، ودفع السيد أيكن ثمن غداء ضيفه، ومرة أخرى طلب الفتى طعاماً أقل مما يأكل عادة، على الرغم من أن الرجل أعلمه بأنه يعرف أن عادة العرب أن لا يأكل الواحد إلاّ إذا أقسمت عليه بأغلظ الأيمان، أو حلفت له بالطلاق من زوجتك إن كان لك زوجة!

أثناء الغداء قص الرجل على الشاب قصة ضحك الأخير عند سماعها حتى جلب انتباه الجالسين على الطاولات حولهم، إذ قال:

- أرسلت الحكومة الإنجليزية، أيام انتدابها على إمارة شرقي الأردن، خبيراً مالياً، ولمدة شهر واحد، ليساعد المسؤول عن وزارة المالية الأردني، في تحديث وزارته، وأنزلت هذا الموظف بالفندق! دعا الرجل الأردني الخبير الإنجليزي إلي بيته مرات عديدة إما للغداء وأما للعشاء، ولكنه لم ير زوجته! وبعد انتهاء شهر انتدابه، وفي يوم عودته إلى انجلترا، زار المسؤول الأردني الخبير الإنجليزي بالفندق ليودعه، وبعد أن فعل، شكره الإنجليزي على حسن الضيافة وطلب إليه أن يسلم على زوجته ويشكرها للوقت الممتع الذي قضاه في بيتها!

لم يجد الإنجليزي نفسه إلاّ وهو ملقى على الأرض والأردني يركله ويرفسه، والدم ينزل من أنفه ووجهه وهو يصيح متسائلاً: "بحق جهنم ماذا قلت حتى أستحق هذا الضرب والركل؟" والأردني يقول له: "أيها الخنزير! لقد كانت لك علاقة غرامية مع زوجتي من خلفي! لقد كنتما تتبادلان الغرام وأنا خارج البيت! هل كانت هي تأتي إليك، أم كنت أنت تذهب إلى بيتنا؟" ولم ينقذ الإنجليزي إلاّ مستخدمو الفندق الذين فزعوا لنجدته!

لا شك أن السيد أييكن يتمتع بمخيلة فذة وذو خيالٍ خصب، حتى يستطيع أن ينسج خياله مثل هذه القصص!

بعد الغداء عرّف مارك راكان على بائعي وبائعات الدور الثالث، وقد جلب انتباه راكان أن إحدى السيدات، متوسطة الجمال ومتوسطة العمر، قد أعلمته، وأمام مارك، بأنها أحبّت لكنته الجذابة وشعره المجعد، وأنها في القريب ستدعوه في بيتها إلى العشاء! وكعربي جاء من هجير الصحراء، ومن تخوم حفر الباطن، فكّر الشاب بأنها لابد وأن تكون قد وقعت في غرامه، وأنها تريد منه أن يبادلها الغرام!

في استراحة بعد الظهر، قصّ المدير على راكان قصته، حيث أكدّ له أنها حدثت معه شخصياً، فقال:

- عندما زرت وزوجتي مصر، وبعد أن أرانا الدليل السياحي على الأهرامات، وكان الطقس حاراً، فكرت أن أتمدد في ظل الهرم، وأن أغفو لبعض الوقت، وعندما استيقظت وجدت أنني مازلت مرتدياً حذائي، ولكن جراباتي قد اختفت، إذ لا شك أن أحدهم سرقها دون أن يخلّعني حذائي! نظرت حولي فرأيت شاباً يقف غير بعيد مني، ينظر إليّ، ويلوح بجراباتي ويبتسم، ولما طلبتها منه رفض إعطاءها لي وهرب! عندما أمّم ناصر قناة السويس، ورأيت صورته في الجرائد، قلت لنفسي يا ولد يا جورج، إنك تعرف هذا الإنسان، ولقد رأيته من قبل؛ ولكن أين؟! فكرت وفكرت وفكرت، ثم تذكرت! لقد كان هذا الشاب الذي سرق جراباتي دون أن يخلعني حذائي هو نفسه الذي أمم قناة السويس جمال عبد الناصر!

ابتسم الشاب مجاملة لرئيسه، وإن أزعجته فكرة النكتة، إذ آلمه أن يتجرأ إنسان أجنبي، ويتقول كلاماً غير لائق، عن رمز من أعظم رموز أمته العربية العظيمة،وعملاقاً شامخاً من عمالقتها! إنساناً ولدت نساء الأمة العربية ، القليلين القليلين من أمثاله!

*****

نزل راكان من الحافلة القادمة من باسدينا إلى آركاديا، في آخر النهار، ولشدة دهشته وجد أن السيدة جولييت جالسة على المقعد بانتظاره ! ما كادت تراه حتى هجمت عليه وصارت تعانقه وتقبله على خديه ورقبته، ثم تشم جسده، وكأنما هي عنز تشم وليدها عندما تعود إليه من المرعى في آخر النهار؛ فاحتواها هو بين ذراعيه وصار يقبلها على رأسها وكتفيها!

- لقد افتقدتك كثيراً! لقد طمعت أن تهاتفني فتطمئنني عن عملك الجديد؛ والآن أخبرني كيف قضيت يومك؟! سألت وهي تحملق به بعينيها الغائرتين في محجريهما، وكأنما لتتأكد من أنه عاد إليها ثانية!

- لقد كان يوماً غريباً عجيباً حقاً! قال راكان ذلك وقد وضع يده اليمنى حول رقبتها وتوجها نحو البيت! ثم بدأ يقص عليها، وبالتفصيل، ما حدث معه منذ أن غادرها هذا الصباح!

- هذا ليس عملاً! إنه نزهة وفرجة تسويق، ولكن دون أن تشتري شيئاً! قالت المرأة والسعادة تتطاير من عينيها؛ بعد أن قصّ عليها الفتى ما حدث!

- حقاً يا أمّاه! إنها نزهة وفرجة! إنها بسبب أدعيتك لي، أنتِ، أمي التي هنا؛ وكذلك أدعية أمي التي هناك، في الوطن!

- أنت ابن طيب القلب ومخلص، والخالق لن يتخلى عنك! إنه سيقف دائماً إلى جانبك!

- أنا واثق من أنه دائماً يرسل لي الناس الطيبين، وأنت أكبر دليل على ذلك!

- شكراً يا بني! شكراً! إنك لا تتصور كم معرفتك جلبت لي السعادة والسرور! وهل بين النسوة اللواتي يعملن بالشركة شابات؟! سألت وهي تبتسم!

- نعم؛ يوجد شابات كثيرات، وكذلك متقدمات في السن. لقد علمت أن بينهن طالبات جامعات، يعملن جزءاً من الوقت، ويذهبن إلى الجامعة الجزء الآخر.

- أرجو أن تجد لك واحدة منهن تحبها وتحبك فتسعدك! قالتها العجوز شبه خجلى وبتردد!

- لا أظن يا أماه! لا أظن! إن الجرح عميق ويحتاج إلى وقت طويل ليشفى! قال الفتى وقد بدأت الذكريات تتزاحم في ذاكرته، وقشعريرة من الألم تسري في أوصاله!

- إنني لا أنقطع عن الصلاة من أجلك؛ وأنا واثقة أن الله سيستجيب لدعائي!

وهنا كانا قد وصلا البيت، ففتح لها الشاب باب المنخل فدخلت، وكان باب البيت مفتوحاً، فقالت بعد أن دلفا إلى غرفة الجلوس:

- تعال وانظر ماذا طبخت لك! قالت ذلك وتوجهت نحو المطبخ، فسحبت غطاء الفرن فخرجت منه رائحة زكية، فتحت شهية الشاب، بل زادت في تأججها وجوعه، ولما نظر صاح بها:

- ما هذا يا أماه! إن هذا كثير! كثير جداً!

كان في الفرن فخذة صغيرة كاملة من لحم الخروف، وحولها خليط من الخضار المشكلة، ثم صحن زجاج مطبوخ به بعض الأرز!

- سأضع لك غداً بعض الساندويشات من لحم الفخذة هذه تأخذها معك بدلاً من أن تشتري غداءك!

شكرها راكان كثيراً وجلسا يأكلان؛ ومن الطبيعي أن المرأة لم تذق اللحم، وإنما أكلت بعض الأرز والخضار المشكلة، والسلطة الخضراء. أما هو فقد أكل بشهية منقطعة النظير!

بعد أن انتهيا من تناول الطعام، تساعدا على غسل الصحون، فأعلمته المرأة بأنهما سيأكلان الحلوى ويشربان الشاي عندما يعودان من جولتهما في الخارج، فإنهما سيتمشيان قليلاً في الحديقة المجاورة، فيستمتعان بنسائم المساء المبكر، ويمران على المكتبة لأنها تريد أن تعيد بعض الكتب وتستعير غيرها، ثم يمران بعد ذلك على البقالة، ليشتريا بعض حاجيات البيت!

في المساء بعد أن أكلا الحلوى وبعض الفواكه، شربا الشاي الذي لا تستطيع الجدة أن تنام دون أن تشربه؛ ذلك الشاي النادر والثمين! أما راكان فشربه مثلها دون أن يحليه. بعدها فتح كل واحد منهما كتابه وبدءا يقرءان؛ وبين الفينة والأخرى يتوقف راكان عن القراءة، ويستأذنها ليقصّ عليها حادثة أو نكتة أسمعها له رئيسه، أو تصرف قام به، وما أكثر ما يفعل! فيضحكان، ثم يعودان لمتابعة قراءتهما!

حوالي الساعة الحادية عشرة، أعلمت الجدة راكان بأنهما يجب أن يأويا إلى فراشيهما، إذ إن عليه أن ينهض مبكراً حتى لا تفوته الحافلة!

توثقت عرى الصداقة بين راكان ورئيسه بسرعة فائقة لدرجة أن اليوم الذي يعطلان به في الأسبوع كان نفس اليوم لكليهما! كانت صداقة فكرية صميمية، إذ كان كلا الرجلين له اهتمام كبير واطلاع واسع على قضايا الشرق الأوسط ومشاكله، فكانا دائماً ينظرّان ويتناقشان؛ كما تأكد لراكان أن الرجل متعاطف مع قضايا وطنه وخصوصاً القضية الفلسطينية!

*****

لقد أحبَّ الفتى عمله كثيراً، لأنه اعتبره، كما قالت السيدة جوليت، ليس عملاً، وإنما هو نزهة وتنزه! بالإضافة إلى أن السيد أبيكن قد شجع الفتى على أن يلتحق بالجامعة، وأعلمه بأنه سيرتب له ساعات عمل مريحة، بحيث يستطيع أن يحضر المحاضرات في الصباح، ويشتغل في آخر النهار؛ كما وأنه يستطيع أن يعمل أيام السبت وأيام العطل الدراسية!

أفرحت هذه الفكرة راكان، وأفرحه أيضاً أن جميع الذين يعمل معهم، ذكوراً وإناثاً، يحترمونه ويحبونه، والكل يتمنى لو يستطيع أن يقدم له مساعدة! حتى إن البائعات كن عندما يهاتفن قسم التغليف، يطلبن إلى الذي يجيب الهاتف، سواء كان السيد أيكن أو واحداً من القسم، ويطلبن إليه أن يرسل "راكو" لأخذ هذا الطرد!

هذه الأشياء البسيطة أسعدت الشاب كثيراً، وزاد في سعادته، أنه ما عاد مرة من عمله، إلاّ ويجد، بعد أن ينزل من الحافلة، السيدة جولييت، مزروعة فوق مقعد الحافلة تنتظره، ليعودا إلى البيت سوية، فكانا في بعض الأحايين يتوقفان في إحدى المطاعم المجاورة والصغيرة، فيتناولان طعام العشاء!

كانت نيكول قبل القطيعة تقرأ لهما بعض الأشعار بصوتها الحنون الدافئ والرخيم؛ وبعد أن ذهبت الفتاة، كانت الجدة تطلب إلى راكان أن يقرأ لها بعضها، فكان الفتى وهو يقرأها يحسّ وكأنما تلاشى مع ذرات الأثير، إذ كان السامع يلمس روح الشاب وقلبه تخرج مع الكلمات! فكانا بعد كل قراءة يمران بموجة من ثوران العواطف ووابل من الدموع!

كانت السيدة جولييت تعامل الفتى وكأنما هو ابنها الوحيد الذي رزقها الله به، بعد انتظار سنوات طوال عجاف؛ فقد كانت تغسل له رأسه وتمشط له شعره، وتفرك له بالليفة ظهره! إن راكان يقسم ، برب السموات والأرضين ،بأنها كانت لا تكتفي بكي ملابسه الخارجية، بل كانت تكوي له ملابسه الداخلية وحتى الجرابات، وهذا ما لم يتعود عليه في الوطن!

كانت تأخذه إلى الحلاق وتقف إلى جانبه، فتعلم الحلاق أن يقص هذه الشعرات وأن يخفف من هذا الجانب؛ مما جعل الفتى يخجل من فعلتها هذه؛ ولكن المرأة كانت تؤكد له أن هذا ليس عيباً، وإنها كانت تأخذ أولادها إليه وهم كبار، وحتى زوجها أيضاً!

- أراكِ تهتمين بهذا الشاب أكثر من اهتمامك بأولادك عندما كنت تحضرينهم إليّ! قال الحلاق مرة للسيدة جولييت وهو يضحك!

- إنه ابني، وغريب! أجابت وهي ترشده ماذا يفعل!

إن الذي حيّر راكان وأطار صوابه، هو أن المرأة لم تطلب إليه أن يرحّل حاجياته إلى بيتها، وتوفر عليه دفع إيجار الغرفة التي لا يستعملها! إنه ومنذ رحيل نيكول، ينام كل ليلة في بيتها، بل يقضي كل وقته فيه؛ ولا يذهب إلى غرفته إلاّ كل بضعة أيام ليرى إن وصله بريد من الوطن أو من أي مكان آخر! بل الذي زاده حيرة واستغراباً هو أنها أعلمته بأنها ستطلب من السيدة بويكو، في القريب العاجل أن تبحث له عن غرفة في مدينة باسدينا، حيث مكان عمله ،ويترك غرفته التي إلى جوارها!

عاد الشاب في إحدى الأمسيات، فلم يجد السيدة جولييت بانتظاره في محطة الحافلة، كالعادة؛ فظن أنها ربما بدأت رحلتها متأخرة، فقال لا بد وأنه سيقابلها في الطريق، ولكن ظنه خاب، إذ إنه لم يجدها حتى أمام البيت! فقال لا بد أن تكون بانتظاره على البلكونة، ولما لم يجدها قال لا شك أنها تجهز العشاء، إذ تعلم أنه يعود جائعاً! ولكنه ما كاد يدلف من الباب حتى وصل إلى أذنيه صوت رجل جهوري، يتكلم بصوت عالٍ ذكره بأصوات بعض رجال مدينته ، السلط الصامدة، والذين عندما يتكلمون وكأنهم يتشاجرون مع محدثهم؛ ويشتمونه بأفحش الألفاظ بسبب ارتفاع أصواتهم، وخشونة ألفاظهم!

تجمد الفتى في مكانه محاولاً أن يتبين الرجل من صوته، ولكنه لم يتذكر أن قابله؛ أصاخ سمعه ليعرف ماذا كان الرجل يقول، ومن الذي كان الرجل يسبّه ويشتمه؛ ولكن نطقه كان من الغرابة بحيث لم يستطع الشاب أن يميز إن كان الرجل يتحدث حتى بالإنجليزية! لقد ذكره برئيسه في عمله القديم!

انتظر قليلاً، بعدها استطاع أن يلتقط كلمة هنا وكلمة هناك! كان الرجل يتحدث العامية العريقة، والتي لم يفهمها راكان؛ وكان يبتلع نصف الكلمة، مما كان من المستحيل على الشاب أن يفهم ما يقوله بالكامل! كان الرجل يتحدث عن بيوت وعقارات هنا في كاليفورنيا!

فتح الشاب باب المنخل ودخل، فتوقف الرجل عن الحديث؛ وعندما وصل باب غرفة الجلوس رأى السيدة جولييت تجلس في مكانها، ويجلس الرجل، ذو الجثة الضخمة، قبالتها؛ وقد وضع حذاءه الضخم، وبطريقة تبعث على الاستهجان، على طاولة الوسط المكدسة بالكتب والمجلات!

قفزت العجوز من مقعدها، واتجهت نحو راكان الذي سار بخطى واسعة واحتواها بين ذراعيه وقبلها على جبينها ورأسها ومؤخرة رقبتها؛ وهو يقول:

- ما أسعدني برؤيتك يا أماه! لقد ظننت أنه لا بد وأن يكون قد حدث لك مكروه عندما لم أجدك في انتظاري! الحمد لله أنك بخير! قال ذلك غير آبه بوجود الضيف!

لم تعلق المرأة على ما قاله الشاب، ولم تحاول حتى أن تعانقه أو تقبله كما كانت تفعل دائماً، فأدرك أنها في وضع قد حدّ من حرية تصرفها!

قادت المرأة الشاب بيده اليسرى، كما تقود طفلاً صغيراً، وسارت به نحو الرجل الجالس، والذي نهض عند قدومهما، فقالت المرأة مخاطبة الضيف بعد أن أرخت يد راكان من يدها:

- صديقي راكان! ثم خاطبت راكان وقالت:

- ابني، كلايتون.

كدّرت التقدمة خاطر راكان الذي تعود على تقديمه للآخرين "كابنها"! تصافح الرجلان، وقال كل منهما للآخر "سعيد بلقائك"! شدّ الابن بيده الخشنة على يد الفتى، الذي شعر وكأنما الرجل حطّم يده!

- إذن، أنت الشاب الذي يبقي والدتي هنا!

لقد استوعب راكان ما قاله الرجل تماماً! قالها الرجل ببطء ووضوح وهو يصرّ على مقاطع الكلمات، ولا شك أنه يريد أن يفهم الفتى كل كلمة يقولها!

التفت راكان إلى العجوز ليستفسر منها عما يعنيه الابن، ولشدة دهشته، لاحظ ما لم يلاحظه عند قدومه، وهو أن عينيها تعلوهما حمرة خفيفة، وأنهما مازالتا مبتلتين، مما يدل على أنها كانت تبكي!

اجتاحت الشاب موجة حزن شديدة، شعر أنها أحرقت عظامه، وهمّ أن يفتح فمه ليسألها السبب، ولكن المرأة سبقته فقالت مخاطبة ابنها:

- ألا تريد أن تحدث راكان عن مزرعتك؟! لقد أعلمني بأن والده كان يملك عدة مزارع، وأنه يحب أن يعيش في واحدة!

وهنا ابتسم الرجل وسأل الفتى:

- ولماذا تحب أن تعيش في مزرعة؟!

ومرة أخرى فهم الشاب ما قاله الرجل تماماً!

- لأنني لا أحب أن أعيش في المدن الكبيرة! إن الحياة فيها توتر أعصابي؛ وخصوصاً المدن الكبيرة جداً، فإن الإنسان يفقد بها هويته! قال الفتى بحماس!

- إنك تحمل نفس فكرتي! صدقني لو أنني أملك كل مدينة آركاديا، لما عشت فيها شهراً!

- إذن أنت لم تعش هنا في آركاديا؟! سأل راكان بمنتهى السذاجة مبالغاً في أدبه واحترامه للرجل!

- Hell...! No...! وحق جهنم كلا! وهل تظنني معتوها؟! قالها الرجل بغضب، وقد قطّب ما بين حاجبيه وكشّر عن أسنانه؛ وكأنما سؤال راكان له قد أهانه !

- أنا آسف يا سيدي! إنني لم أعنِ ذلك! قال الشاب ونظر إلى حيث تجلس الأم، فشعر بأنها تكاد تتلاشى خجلاً!

تابع الرجل حديثه، وكأنما لم يسمع اعتذار الفتى؛ فأضاف:

- هل تعتقد أن إنساناً عنده عقل يفكر، يعيش في مدينة لا يتنفس الواحد بها إلاّ الدخان، طيلة العام كله؟! إن الإنسان لا يكسب في هذه المدن إلاّ أمراض السل والسرطان، وعشرات الأمراض الأخرى، والذين يكتشفون مرضاً جديداً كل يوم! إنك إذا لم تصب بأحد هذه الأمراض، فإنك ستصاب بانهيار في الأعصاب!

- إنك صادق يا سيدي! قال الفتى وهو ينقل طرفه بين هذا الرجل الجلف الخشن، ضخم الجثة، نابي الألفاظ، وقح التعابير؛ وبين أمه، المؤدبة والمثقفة، والتي تذوب نعومة ورقة، ثم حاول أن يقارنه بشقيقتيه، إليزابيث ومارجي، فوجد أن لا مجال للمقارنة، لأن البون شاسع بينهم!

- ألا تسكن في مدينة، بولاية يوتا؟! سأل الشاب!

- Hell nooo! وحق جهنم كلا! أعادها الرجل ثانية!

- إذن أين تسكن؟!

- أنا أسكن في مزرعة خارج مدينة توولا! وهنا ابتسم، فبدت لراكان حتى ابتسامته كانت تضجّ بالجلافة والوقاحة! وأضاف:

- الحياة هناك تسير بسهولة وبطء، وكأننا نعيش في القرون الأولى!

- هذا النوع من الحياة التي أحبّ أن أعيشها! قال راكان صادقاً!

- أنا واثق أنك ستحبها! تعال لزيارتنا! ثم التفت إلى والدته التي لم تتفوه بكلمة منذ بدء الحديث وأضاف:

- يجب أن تدعيه لزيارتنا هناك!

- سأفعل! سأفعل! هزّت المرأة رأسها بعصبية، ولعلها تمنت لو أن ابنها لم يفعل ذلك!

نظر راكان إليها وقد قطّب ما بين حاجبيه، وكأنه يسألها تفسيراً لما قاله الابن، ولكن العجوز تجاهلت نظراته وقالت:

- إن كلايتون يملك مزرعة كبيرة وجميلة وبها بيت فخم، يقع على رابية تطل على مدينة توولا!

- إنني لا أستبدل مزرعتي وبيتي بمدينة لوس انجلوس كلها! ثم وكأنما الرجل أدرك أنه بالغ كثيراً، فاستدرك:

- أعني؛ أنني لا أستبدل بسكناها بسكن أجمل بيت في لوس انجلوس!

- لا شك أن راكان جائع جداً؛ وأنا كذلك؛ فهل تأتي وتجلس معنا وتحتسي بعض الشاي؟! قالت المرأة وهي تنهض محاولة أن تتجنب نظرات الفتى التي تلاحقها مستفسرة!

- شكراً يا أماه! أعتقد أنني يجب أن أذهب. إنه مازال أمامي ساعة سواقة بالسيارة! قال الرجل وهو ينهض.

- وهل أنت عائد إلى توولا الليلة؟! سأل الشاب.

- لا؛ لا؛ أنا ذاهب لزيارة شقيقتيّ إليزابيث ومارجي؛ في مدينة "قاردن قرووف". إنني لا أحب هذه المنطقة! إنني سأختنق من الدخان إن نمت هنا الليلة! لقد صار لي هنا؛ ونظر إلى ساعته وأضاف:

- حوالي العشر ساعات والنصف، وكأنها عشرة شهور ونصف قضيتها في السجن! ثم نظر إلى أمه وأضاف:

- اعذريني يا أماه! لقد تمتعت بكل ثانية معك؛ ولكنك تعرفين ما أعني!

- إنني أعرف يا بني! فلترافقك السلامة! قالت العجوز برقتها وأدبها المعهودين.

نظر الرجل إلى راكان وقال، ولعله شعر بأنه مدين له بإيضاح:

- إنني أحب والدتي كثيراً، وهي تعرف ذلك؛ ولكنني لا أستطيع أن أفهم، كيف أمضت كل هذه السنوات تعيش هنا! إنه لا يوجد لها شيء هنا يجبرها على البقاء! لقد قلت لها هذا قبل عشر سنوات، وكانت تحتج بأنها تريد أن تنهي نيكول المدرسة الثانوية، وكأن مدارس يوتا جميعها لا تصلح لدراسة نيكول؛ وأنهت نيكول الثانوية والتحقت بجامعة في ولاية يوتا! ثم مصمص شفتيه وأضاف:

- إن نيكول لم تعد تعيش معها؛ فما الذي يبقيها؟!

شعر راكان في آنٍ واحد، وكأنما سكينٌ غاصت في أحشائه، فمزقتها شر ممزق، وكأنما جبلٌ سقط فوق رأسه فسحقه، وأنه يترنح تحت الضربة، فأغمض عينيه وتمالك نفسه حتى لا يسقط!

مدّ الرجل يده ليودّع راكان، فرأى الشاب اليد الممدودة لمصافحته، وكالمنوم، رفع يده فوجدها ثقيلة كأنها جذع شجرة سنديان، وصافح اليد الممدودة إليه، فشد الرجل على يده بقوة أحسّ الفتى وكأنما الرجل يريد أن يوقظه من غيبوبته وقال:

- لقد سرتني مقابلتك، سأراك قريباً. يجب أن تأتي لزيارتنا. أنا واثق أنك ستحب مدينة توولا. ثم عانق والدته وقبّل رأسها، وقبلته هي على خديه وأضاف:

- سأراكِ قريباً! قال ذلك وهو يسير نحو باب الخروج؛ فقالت المرأة وهي تتبعه!

- سلم على هيلما و... ولم يسمع راكان بقية الأسماء، ولم تكن عنده القوة ليسير مع الرجل حتى سيارته، إذ سقط فوق الكنبة، منهك القوى جسمياً وعقلياً وعاطفياً!

لا يدري الشاب كم مضى من الوقت عندما عادت العجوز ووجدته محدقاً بالحائط، وسيلٌ من الدموع الغزيرة والحارة، قد تجاوزت وجهه فبلّت قميصه!

- انهض يا بني لنتعشى. لا شك أنك جائع؛ وأنا لم أذق شيئاً طيلة النهار.

حاول الفتى أن يفتح فمه ليعتذر لها، ولكنه لم يستطع، إذ وجد أن أطرافه قد تجمّدت؛ وأخيراً استطاع أن يهزّ رأسه، يمنة ويسرة؛ علامة عدم القبول!

لم تصر العجوز، ولم تذهب هي لتأكل، وإنما جلست قبالته! بعيون قرّحها البكاء، وفؤاد مثقل بالأحزان، وكذلك بجسم خائر متهدم، وبنفس والهة جزعة، وصوت ضعيف ضعيف؛ وكأنما هو آت من أعماق القبور! قصّت المرأة القصة التي أخفتها عنه، حتى لا تسبب له آلاماً فوق آلامه، وأحزاناً عنده منها الكثير!

لم يكن الشاب يتطلع إلى المرأة وهي تتكلم، وإنما كان هذه المرة ينظر في حجره، ولم يكن حتى يتحرك، وكان جامداً في جلسته وكأنما هو قطعة أثاث!

لقد أحسّ أن الألم قد خدّره حتى لم يعد يفرّق إن كان ما يسمعه هو حلماً أم حقيقة! لقد شعر بأن القدر كان قاسياً عليه، إذ ما يكاد ينتهي من توجيه ضربة له، حتى يتبعها بأخرى أكثر ضراوة وأشد قسوة! سبحانه جلّ شأنه، ولا اعتراض على حكمه!

لقد كان بيتهاهذا، عندما تعرف عليها راكان، لدى إحدى شركات العقارات لبيعه ، وفي الفترة التي توثقت أواصر المحبة بين حفيدتها وبينه، وجدت الشركة مشترياً للبيت؛ ولكن المرأة أرجأت البيع إلى أجل غير مسمى، بحجة أن ظروفاً طارئة قد حدثت.

عندما سمع أولادها، وخصوصاً زوجاتهم، غضبوا غضباً شديداً، وصارت الرسائل تتوالى عليها، إذ إنها تقدمت كثيراً بالسن وليس لها من أحد يرعاها إذا مرضت، وحتى أن ابنتيها رحلتا بعيداً عنها، وأنه لا يوجد مبرر أن تعيش بعيدة عن أولادها وأحفادها وممتلكاتها، ثم إنهم فوق ذلك وبعد ذلك مشتاقون إليها ويحبون أن تعيش بينهم، إذ إنهم لا يستطيعون أن يتركوا أعمالهم ويقطعوا مسافات طويلة لزيارتها!

كانت رسائل الزوجات أشد وأقسى، إذ ذكرن لها وبصراحة، سبب بقائها، فقد علمن أن حفيدتها قد تعرفت على شاب عربي، سحر المرأتين بطلاوة حديثه، وتظاهره بحبهما، وأن في نيته أن يحتال عليهما ليسرق ثروتها!

أرسلت المرأة لأولادها ولزوجاتهم رسالة واحدة ذات فقرة واحدة؛ تعلمهم بها، بأن سبب بقائها هو بناء على رغبة حفيدتها التي تعيش من أجلها، وأن تفكيرها وتصرفاتها هي الوحيدة المسؤولة عنها، وأن ذلك المحتال العربي هو مشكلتها وليس مشكلتهم، وطلبت منهم جميعاً أن لا يعودوا إلى ذكر هذا الموضوع، لأن ذلك تدخل صريح في شؤونها، ويغضبها جداً جداً!

انقطعت الرسائل، وتوقفت الطلبات والاتهامات، ولكن إلى حين؛ إذ بعد رحيل نيكول وسكناها في بيت والديها، بدأت الرسائل تتواصل رجاء وإلحاحاً، أن تحضر لتسكن بينهم ليتمتعوا بمحبتها ورؤيتها! وإزاء إلحاحهم وتوسلاتهم، وإزاء قناعتها بعدم وجود داعٍ لبقائها، فقد باعت بيتها، وأنها كانت تدفع إيجاراً للمشتري ، في الشهرين الأخيرين!

كان في نية المرأة أن تبقى وراكان حتى نهاية العام، فيحتفلان بعيد ميلاده وعيد الميلاد المجيد أيضاً، ثم أنها سترحل في أول العام الجديد، وأنها ستجد للشاب عملاً هناك ويلتحق بجامعة "برقميانق"، ولكن الجميع في توولا أرسلوا إليها ابنها الكبير ليقنعها بالرحيل الفوري، وعدم الانتظار، وبعد مناقشات ومحاولات وافقت على الرحيل على شرط أن يجدوا لراكان عملاً، وأن يساعدوه للالتحاق بالجامعة؛ في فصل الخريف الدراسي؛ فتعهد الابن بأن يحقق لها هذا الطلب!

- ومتى يكون الرحيل يا أماه؟! سأل الشاب بصوت ضعيف واهن وكأنما هو آتٍ من أعماق القبور!

- بعد حوالي ثلاثة أسابيع. قالت المرأة ثم أضافت:

- لن نفترق طويلاً، وستكون عندي في خلال شهر على أكثر تقدير! وبالمناسبة، يجب أن تعلم صاحبة الغرفة التي تسكنها، بأنك سترحل منها بعد شهر؛ كما وأنني سأطلب من السيدة بويكو، بعد أسبوع أو عشرة أيام، أن تساعدك باستئجار غرفة في نفس المدينة التي بها عملك، باسدينا.

- إن شاء الله! قالها راكان بالإنجليزية!

- إن شاء الله! أعادت المرأة جملته.

- إذن علينا أن نبدأ في حزم حاجياتك من الليلة! قال الشاب.

- لا يا بني! ستأتي شركة قبل سفري بيوم وتحزم كل شيء وتحمله في إحدى سياراتها العملاقة، ويتوجهون به إلى بيتنا في توولا، وقد أجده أمامي عندما أصل! إن كل ما عليّ فعله هو أن أشير لهم إلى الحاجيات التي أريد آخذها، إذ إن كثيراً من الأثاث سأتبرع به إلى الجمعيات الخيرية، وقسماً سأعطيه إلى إليزابيث ومارجي. إن الذي قد يتعبني عمله، هو أنني يجب أن أتصفح جميع ما تجمع عندي من أوراق ورسائل ووثائق، فاحتفظ بما أريد الاحتفاظ به، وأتخلص من القسم الذي لا أحتاجه!

- وهل تظنين أنني أستطيع المساعدة؟!

- لا شك! تجلس ونتحدث فتسليني، وأنا أتصفح هذه الكميات الضخمة من الأوراق! إنها تحتاج إلى ساعات طويلة! والآن انهض لنتناول عشاءنا!

عادا إلى غرفة القعاد، وصارت المرأة تحدث الشاب عن مدينتها الصغيرة والجميلة، وكيف أن الناس بها ما زالوا متمسكين بالعادات والتقاليد الأمريكية القديمة والأصيلة؛ والتي أحضروها معهم من أوروبا! وكيف أنهم يساعدون بعضهم بعضاً، وإن أبناء المدينة يعرفون بعضهم البعض بالوجه على الأقل، حتى وإن كانوا لا يعرفون أسماءهم!

- إنهم هم سكان أمريكا الأصليين، وليسوا ككليفورنيا سكانها من جميع أنحاء العالم، لا يعرف أحدهم الآخر؛ ولا يهتم لمساعدة أخيه الإنسان، ولا حتى الاستفسار عن صحته! ثم حدثته عن جمال الطبيعة والغابات العديدة والساحرة!

- حالما أصل إلى هناك سأعمل اتصالاتي لأجد لك عملاً، لأنني أعلم أن هذا ما تريده؛ مع أنك لا تحتاج أن تعمل حال وصولك، بل تستطيع أن تنتظر مدة طويلة! إن ما يكفي إنساناً واحداً من الطعام يكفي إنسانين اثنين؛ إذ نستطيع أن نأكل سوية، ثم إنك لست بحاجة إلى أن تدفع إيجاراً، لأن بيتي كبير جداً ويتسع لأكثر من عشرة أشخاص,

- أرجوكِ يا أماه! إنك تعلمين الآن، بأنني لا أقبل أن يدفع عني أحداً دولاراً واحداً! قال الشاب صادقاً وبحماس.

- ولهذا السبب يا بني، أقول بأنني سأجد لك عملاً، وإلاّ لما احتاجت إلى أن تعمل، على الأقل حتى تلتحق بالجامعة!

وبعد أن رشفت المرأة من فنجانها رشفة شاي أضافت:

- ستبقى معي حتى منتصف كانون الثاني، وبعدها ستلتحق بالجامعة فتعيش بالسكن الجامعي، وتأتي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معي، إن أحببت! يوجد طلبة كثيرون من مدينة توولا في الجامعة، يقضون عطلة نهاية كل أسبوع مع ذويهم، فنستطيع أن نؤمن لك من يأخذك ويعيدك، وسوف نساعده في شراء وقود لسيارته, ، إنهم يحبذون ذلك كثيراً!

ابتسمت العجوز ثم أضافت:

- إن الجامعة مملوءة بالطالبات المتدينات وذوات الأخلاق العالية، وقد تجد واحدة تحبها وتحبك فتتزوجا! إنك وربما تقابل طالبة من بلادك، إذ إن في الجامعة، كما قيل لي، طلبة من جميع الجنسيات!

وحوالي منتصف الليل أويا إلى فراشيهما.

طلبت السيدة جولييت إلى السيدة بويكو، أن تأخذ راكان إلى باسدينا، حيث أنها حجزت له غرفة في عمارة كبيرة بها غرف منفردة! لقد تكلمت مع صاحب النزل، وأعلمته عن راكان كثيراً، فرحب به، وإن كل ما عليها هو أن تذهب معه إلى هناك، حتى إذا أعجبته الغرفة أن يدفع إيجار شهر مقدّماً ويأخذ المفتاح!

أعجبت الغرفة الشاب كثيراً، وسرّه أكثر دماثة أخلاق صاحبي النزل، السيد والسيدة هانكوك، اللذين يديرانه، وهما عجوزان متدينان إلى درجة التصوف!

وبعدها بيومين، وفي المساء، ركبت السيدة جولييت وراكان مع السيدة بويكو، وتوجها إلى باسدينا، حيث وضعوا حاجيات الشاب في الغرفة، وحيث أوصت السيدة جولييت السيد والسيدة هانكوك خيراً براكان!

*****

لم ينزل راكان من الحافلة ولا مرة واحدة، خلال هذه الأسابيع الثلاثة المتبقية، إلاّ ووجد السيدة جولييت مزروعة على مقعد محطة الحافلة القادم من باسدينا، بانتظاره! إنه ما يكاد يخرج من باب الحافلة، حتى يهجم على المرأة يعانقها ويقبلها، بشوق متأجج وحماس شديد! كانت لحظة لقائهما ملتهبة حارة، وكأنما صار لهما غائبين عن بعض سنوات وليس ساعات!

كانا يقبلان على أحاديث بعض، وكأنهما عاشقان قد برّحهما البعد ويتمهما الوجد! كانا يقبلان على بعض وكأنهما كانا يخشيان أن لا يجتمعا ثانية، وأن هذه هي آخر أيامهما في هذه الدنيا!

كانا يسيرا من موقف الحافلة متماسكي اليدين وكأنهما عاشقان، شابان، يهيم الواحد منهما بالآخر لدرجة العبادة!

كانا يمشيان أحياناً باتجاه البيت، فيأكلان ما طبخت المرأة، وبعد أن يغسلا ما استعملاه من أدوات المطبخ، يجلسان ويشربان الشاي، ويتسامران، والمرأة تتطلع في أكوام الأوراق المكدسة أمامها، فتحتفظ بهذا، وتلقي بذلك في سلة المهملات، ثم يأويان إلى فراشيهما، وعادة ما يكون في ساعة متأخرة من الليل!

أما في بعض الأمسيات، فكانا يتمشيان إلى أحد المطاعم القريبة فيتناولا طعام العشاء، ويمران على البقالة فيشتريا ما يحتاجانه، ثم يعودان إلى البيت فيتسامرا وهما يحتسيان فناجين الشاي!

أما في يوم عطلة راكان، والتي كانت دائماً يوم الأربعاء، حيث إن هذا اليوم هو عطلة السيد جورج أيبكن أيضاً، بالإضافة إلى عطلة يوم الأحد، فإنهما يذهبان بعد الظهر إلى الحديقة العامة، والتي تقع غير بعيدة عن المنزل، فيقضيان بعض الوقت يتمشيان حول الأحواض المزروعة بالأزهار والورود، وهي تسمي له أسماءها، أو تحدثه عنها! وقبيل الغروب يدخلان أحد المطاعم فيتناولا عشاءهما، ثم يعودان بعد ذلك إلى البيت حيث يحتسيان فناجين الشاي، ويواصلان حديثهما!

كان راكان لا يشعر بالاطمئنان ولا بالأمان، إلاّ وهو مع السيدة جولييت؛ إذ كان يتصور نفسه وهو بعيد عنها، وكأنما العالم غول جبار، فاتح فمه ليبتلعه! ياله من شعور مخيف ومدمّر؛ شعور بالوحدة وشعور بالضياع!

لا شك أن حب الجدة قد عوض الفتى كثيراً عن حب الحفيدة، ولا شك أن وجوده معها قد ساعده كثيراً على تحمل قساوة الغربة وألم الفراق!

كانت إذا خرجت لتفتح رشاشات الماء لتسقي الحشائش والأزهار، تطلب إليه أن يرافقها؛ وإن دخلت المطبخ لتجهز شيئاً يأكلانه، تطلب إليه أن يساعدها! لقد خيل للفتى أنها لا تفعل شيئاً خلال النهار، سوى التفكير به وانتظار عودته!

وكان هو يهاتفها، كلما وجد دقائق يستطيع أن يسرقها من ساعات عمله! كان كالمدمن، إذ يشعر أحياناً بشوق جامح ورغبة لا توصف إلى رؤيتها، فيشعر وكأنه كان ظمآن إلى شربه ماء باردة، فيهرع إلى الهاتف ليستمع إلى صوتها، وليروي هذا الظمأ الشديد!

عاد راكان إحدى الأمسيات فلم يجد السيدة جولييت بانتظاره كالعادة، وعندما دخل من باب غرفة القعاد، لاحظ أن الغرفة شبه مظلمة وشبه خالية من أثاثها، فتذكر أنه اليوم الموعود! ليلة الرحيل!

لقد أعلمته اليوم المحدد لرحيلها عشرات المرات، ولكن رعبه الشديد وجزعه المدمر، وكرهه لذلك اليوم، لا شك أنها هي جميعها التي أنسته ذلك التاريخ!

وقف في مكانه مذهولاً، وكأن عقله قد فارقته قوة التفكير للحظات، وعندما عاد إليه تمنى لو أن يفارقه مدى الحياة! إن فقدان الإنسان لذاكرته، في بعض الأحايين، نعمة من الله يجود بها الخالق عزّ شأنه، على عبده!

- لم أنت واقف في مكانك؟! تعال، واجلس إلى جانبي! قالت جملتها بصوت واهنٍ، وكأنما هو آتٍ من أعماق الليل!

كانت تجلس على طرف الكنبة الكبيرة، إذ كان المقعد الوحيد الذي تُرك بالغرفة؛ وكانت تنظر في مجلة، دون أن تضع نظاراتها؛ فهو يعرف جيداً أنها لا تستطيع القراءة بدونها، فأدرك أنها لم تكن تقرأ، وإنما كانت تتظاهر بالقراءة؛ إذ لعلها لا تريد لعينيها أن تقابل عينيه!

إنها لم تبتسم كعادتها، ولم تهشّ للقائه، بل أنها لم ترفع حتى وجهها عن المجلة، فتقدم وجلس إلى جانبها، وأحاط رقبتها بذارعه وأمالها عليه؛ وهنا انفجرت المرأة تبكي بصوت أعلى كثيراً من الصوت الذي تعود سماعه منها؛ فوجد الشاب نفسه ينفجر هو الآخر، ولكن بصوت كالرعد!

بقي الاثنان يبكيان لبعض الوقت، ثم أزاحت المرأة الشاب من حول رقبتها ونهضت؛ ثم قالت:

- انهض واغسل وجهك لنتعشى!

وبقيا يتحدثان شتى الأحاديث حتى بعد الساعة الثانية صباحاً، بقليل، ثم أويا إلى فراشيهما؛ فقد نام الشاب على الكنبة ونامت المرأة على سرير قالت بأن زوجي ابنتيها سيأتيان غداً لأخذه هو وما تبقى من الأثاث!

لقد أعلمته بأن ابنتيها وعائلتيهما قد جاؤوا لوداعها، وأنهم قد أمضوا معظم الوقت عندها في تصنيف الحاجيات، ماذا يجب أن تأخذ، ومن ماذا يجب أن تتخلص، بأن تعطيه لهم أو للجمعيات الخيرية؛ ثم إنهم دعوها إلى الغداء وتغدوا جميعاً في الخارج!

قبيل الساعة السابعة صباحاً ببضع دقائق تعانقت العجوز والشاب عناقاً حاراً ومؤلماً، فقد أمضى راكان المسافة بين بيت السيدة جولييت وموقف الحافلة، وكذلك الوقت الذي أمضاه في الحافلة، حتى وصوله باسدينا، ثم الوقت الذي قطعه بين موقف الحافلة وعمله؛ ودموعه لا تكف عن النزول! كانت دموعاً ساخنة، لها نكهة طفولية، ذكرته بسنوات خلت، يوم وقف الصبي، أمام البنية زينة، وأعلمها بحبه لها؛ وعندما انفجرت تضحك وكأنما سمعت نكتة لوذعية، وأعلمته بأن الأجدى به، أن يلتفت إلى دروسه، بدلاً من أن يحبّ ويعشق! وكيف أنه أمضى أياماً يسفح الدموع، وشعور بعدم الأمان يستولي عليه!

حوالي الساعة العاشرة، وقبل أن يرافق الشاب رئيسه في ذهابهم إلى المطعم لقضاء استراحتهم الصباحية، اتصل بمنزل السيدة جولييت، وظل التليفون يرن ويرن ويرن، ولم يجب أحد، فعرف أنها غادرت!

لقد أعلمته المرأة، عندما سألها عن موعد طائرتها، بأنها لا تركب الطائرات إطلاقاً، لأن ركوبها يسبب لها حالة من الهستريا والاستفراغ الشديدين، ولكن السيدة إيمي، أخت زوجة ابنها، والتي تسكن هنا في نفس المدينة، والتي عرّفت راكان عليها، ستأخذها هي وزوجها، إذ إنهما ذاهبان لزيارة الأخت، وكذلك لحضور اجتماع ديني، في مدينة "صلت ليك ستي"، بولاية ، يوتا ، العاصمة!

*****

الفصل السادس عشر

The Rooming House

غادر راكان مكان عمله في الساعة الخامسة والنصف، وكان على غير عادته، يسير بخطىً بطيئة، وبغير حماس ولا رغبه ! إ نه 1لم يركض كما كان يفعل كل مساء، بل إنه لم يسر حتى مسرعاً، إنه في هذه الليلة لا يوجد داعٍ للسرعة، فلا حافلة ليلحق بها قبل أن تفوته، ولا إنسان ينتظر مجيئه ليسرع للقائه الحقيقة أنه لا يوجد إنسان على هذه القاره يشعر بوجوده، ولا من يهمه حتى موته أو حياته!

لأول مرة شعر الفتى بفراغ مخيف... مخيف... وبوحدة قاتلة... قاتلة... ولأول مرة أحسّ بأنه صفرٌ من هذه الأصفار التي تشغل حيزاً في هذا الكون وليس لها قيمة!

لم يفكر الفتى بركوب الحافلة، فإنه ليس على عجلة من أمره، إن أمامه ليل طويل طويل... ترتعد فرائصه لمجرد التفكير به!

إن المسافة بين مكان سكناه ومكان عمله حوالي الثلاثة أميال، وعلى الرغم من أنه كان يشعر بإرهاق شديد، وأنه لا يقوى حتى على السير، إلا أنه صمم على أن يقطع المسافة على قدميه.

إنه لم يعمل اليوم أكثر مما عمل في الأيام الماضية، إذ على العكس، فقد كان من الأيام التي أمضى معظمه وقوفاً أو جلوساً هو ورئيسه يتحدثان في السياسة وشؤون الشرق الأوسط، ولكنه كان متعباً جداً... تعب إحباط ووحدة... تعباً لم يشعر بمثله منذ أن بدأ العمل في هذه الشركة!

كان هناك قبل هذه الليلة من ينتظر عودته... من يفكر به... من يطبخ له طعامه... من يحدثه ويسليه... من يحبه؛ أما هذه الليلة، فهو كالكلب الضال الذي لا أهل له... لا أحد يفكر به، ولا أحد يشعر بوجوده، إن أمامه ليل طويل... وفراغ مخيف مخيف... فلم لا يقضي قسماً من هذا الليل الطويل على الطريق؟!

استغرب الفتى نفسه كيف وصل إلى مكان سكناه، إذ إنه لم يحس بالذاهبين ولا الغادين، وإنما بقي يسير على غير وعي، وهو مطرق الرأس محدقٌ بالأرض، سارحاً في بحور من التفكير...!

- أهلاً راكان... كم نحن سعداء لرؤيتك... قالت السيدة هانكوك بعد أن فتح الشاب الباب الخارجي ودخل، وبعد أن منحته ابتسامةً تفيض حناناً وحباً ،أضافت:

- أنا آسفة! لم يصل لك بريدٌ هذا اليوم.

- أنا لست هنا من أجل البريد، لقد رحل الجماعة الذين كنت في ضيافتهم إلى ولاية أخرى، ومنذ هذه الليلة سأنام في غرفتي! قال الفتى والحزن يفري كبده والألم يمزق أحشاءه، وإن حاول جاهداً أن يغتصب ابتسامةً يغطي بها وجهه العابس.

- نحن سعداء أنك أخيراً صممت أن تستقر في غرفتك، ولكننا آسفون أن يرحل أصدقاؤك! قالت المرأة ومسحة من الألم تغطي وجهها.

لا شك أن مواساة المرأة له، ومسحة الألم التي علت وجهها قد ثارت شجونه من جديد وزادت من أحزانه فأحسّ أنه على وشك أن ينفجر بالبكاء، ولك الخجل منعه من ذلك.

- أعتقد أنك تناولت عشاءك! قالت المرأة العجوز.

هزّ الفتى رأسه علامة النفي، ولكن يظهر أن المرأة أساءت فهمه إذ قالت:

- عظيم جداً... إذن تعال إلى غرفتنا ودعنا نتحدث." جون "وأنا مشتاقان للتحدث إليك، ولتخبرنا مزيداً عن الأرض المقدسة.

همّ الشاب أن يعتذر لها بأن عليه بعض الأعمال ليقوم بها، ولكنه قبل أن يفعل، انحرفت إلى اليمين وسارت بضع خطوات وفتحت باباً كبيراً اختفى في الحائط.

رأى الشاب السيد هانكوك جالساً على أريكة صغيرة داخل الغرفة يقرأ جريدة وصدغه الأيمن مواجهاً للفتى.

- لقد دعوت راكان يا عزيزي، ليحدثنا عن الأرض المقدسة! قالت المرأة لزوجها الذي وضع الجريدة جانباً، ونهض على عجل محيياً القادم، وقد علت وجهه ابتسامة كبيرة، وأخفى شاربه الكث وذقنه الطويلة قسماً كبيراً من وجهه:

- أدخل يا بني... زوجتي وأنا سعيدان أن نراك في البيت، ونرجو لك طيب الإقامة، لقد كنا دائماً نتساءل عن اليوم الذي ستنضم به إلى أسرتنا. ثم أضاف:

- لقد فكرنا أنك هجرتنا إلى الأبد، يظهر أن كفيلتك لاتريدك أن تبتعد عنها، إنني لا ألومها إن فعلت ذلك، إذ ليس من السهل في هذه الأيام أن يقابل المرء شاباً بمثل صفاتك! قال ذلك ثم أشار إليه أن يجلس على كرسي أمامه.

- لقد رحلت إلى ولاية يوتا! قالها راكان بمذلة وألم، ثم انتظر حتى جلست الزوجة، فجلس حيث أشار الزوج.

- ولهذا السبب تبدو على وجهك علائم الحزن؟! قال الرجل بلهجة المتعاطف.

- ولم رحلت؟! سألت الزوجة.

- لأنها من هناك، ومعظم أفراد عائلتها فيها.

- إنه ليس من السهل علينا أن ننسى من نحب بهذه السرعة! قالت الزوجة.

- ستجد لك صديقة وستسليك عن كفيلتك! قال الزوج وهو يجلس.

شعر الشاب بأن الرجل قالها بطيبة قلب ممزوجة بالسذاجة.

كان الزوجان يعرفان أن لراكان كفيلة تعيش في مدينة آركاديا، وأنه يسكن في بيتها، فكانا كلما أتى لأخذ بريده أو ليدفع إيجار غرفته يسألانه عن صحتها، كنوع من أنواع المجاملة، أو يعلمانه وهو يغادر بأن يبلغ تحياتهما إليها.

لقد سألاه عنها وكيف تعرف عليها، ثم سألاه عن عائلته وعن وطنه، وإن كان أحب أمريكا، وعن بعض العادات والتقاليد هنا وفي الوطن، إلى آخر مثل هذه الأسئلة الروتينية والتي يسمعها كلما قابله إنسان لأول مرة.

كان الفتى يجيب على أسئلتهم بغير حماس ولا رغبة، فقد كان منهكاً جسمياً وعاطفياً وروحياً أيضاً، ثم سألته الزوجة إن كان رأى في حياته بيت لحم وكنيسة القيامة والمهد وجبل الزيتون، وأسماء لم يسمع بها من قبل، لأنه لم يعرف جميع الأماكن المقدسة بالإنجليزية على الأقل.

كان المسكين يهز رأسه تارة، ويجيب بأسئلة مقتضبة جداً تارةً أخرى، أما هما فكانا يعلقان على إجاباته في بعض الأحايين، وفي أحايين أخرى يوضح الزوج لزوجته، ولراكان أيضاً، ما يظن أنهما لم يفهماه أو لم يستوعبا الحكمة من وجوده بهذا الشكل، أو لماذا وُجد أساساً.

لقد كان راكان في أول حضوره إلى أمريكا يجيب على أسئلة السائلين بحماس وبالتفصيل، وخصوصاً عن الدين والسياسة، والفروق الشاسعة بين المجتمع الذي أتى منه والمجتمع الذي أتى إليه، ولكنه بعد أن اكتشف التعصب الأعمى الذي يؤمن به البعض، فَقَدَ حماسه وحاول جهده أن يتجنب الخوض في هذه المواضيع.

لقد اكتشف الشاب أن السيد هانكوك وزوجته كانا يختلفان كثيراً عن بقية الذين قابلهم ؛ لقد كانت أسئلتهما حباً بالتعلم وبالمعرفة، كما لاحظ أن الرجل ذو خبرة عميقة واطلاع واسع بالأديان، كما وأنه متبحر بالفلسفة وخصوصاً فلسفة الأديان، مما أسعد قلبه وأفرح روحه.

كان السيد هانكوك يتحدث عن الإسلام بنفس الروح والحماس، وبنفس الاطلاع والمعرفة التي يتحدث بها عن المسيحية وكذلك عن اليهودية كديانات سماوية، كما تحدث عن الديانات القديمة كالبوذية والكونفوشسية والهندوسية والمجوسية والزرادشتية، وديانات أخرى سمع بها راكان لأول مرة منه!

كان السيد هانكوك يتحدث حديث إنسان مطلع ومتبحر، كما أكد عن حاجة الإنسان الشديدة إلى الأديان، وعن الفراغ الذي سيعانيه لو لم تكن هناك ديانات تمنح قلبه الهدوء والأمان، وروحه الطمأنينة والسلام، وصار يذكر أسماء فلاسفة دينيين وطبيعيين، قدماء ومحدثين، ويستشهد بأقوالهم وبنظرياتهم.

شعر راكان بالخجل من الرجل ومن نفسه، وأحس بضآلته أيضاً، فلقد ذكر الرجل أسماء فلاسفة ومفكرين ومصلحين اجتماعيين، قدماء ومحدثين، لم يسمع حتى بهم، وهو الذي يعتبر نفسه ذا اطلاع واسع، ومعرفة عميقة بالأديان وفلسفات وآداب العالم!

بقي الرجل يتحدث بإسهاب وحماس وبدون توقف، وكأنما هو يقرأ في كتاب، والفتى يصغي إليه بمتعة فائقة، وبتشوق متأجج، أنسته غربته ووحدته، وحتى أنسته صديقته السيدة جولييت !

أخيراً توقف الرجل العجوز وكأنما ليعطي الفرصة للفتى ليقول شيئاً، ولكنه لم يفعل، فقد كان مخدر العواطف، منوّم التفكير، أما المرأة التي كانت هي الأخرى تستمتع لحديث زوجها، والتي ربما لشغفها واستمتاعها لم يكونا يقلان عن شغف واستمتاع الفتى، فقد ابتسمت ابتسامة كبيرة، وكأنما هي تقبله وتقول له بأنها محظوظة وسعيدة أن تكون زوجةً له، وأنها فخورة ومتألقة أيضاً بعلمه وبمعرفته !

مرت فترة سكوت طويلة لم يقطعها سوى صوت بعض الصحون والطناجر آتية من المطبخ في آخر القاعة، فأدرك الشاب بأن بعض النزلاء يغسلون أدوات طبخهم.

أدرك الفتى أنه يجب أن يقول شيئاً، فسأل:

- هل أنت مبشّر يا سيدي؟! سأل راكان بمهابة واحترام.

- وما الذي جعلك تفكر بذلك؟! سأل الرجل وابتسامةٌ كبيرةٌ جذلى تعلو شفتيه، وكأنما هو أب يبتسم لسذاجة ابنه وطيبة قلبه.

أدرك الشاب سخافة سؤاله، وتمنى لو أنه لم يفعل فاستدرك قائلاً:

- اطلاعك الواسع في الدين وفي الفلسفة، أنت محيط من العلم والمعرفة، أنت موسوعة يا سيدي !

ابتسم الرجل من جديد، ونظر إلى زوجته التي كانت تنقل طرفها بين الرجل العجوز والفتى السائل.

- نعم يا بني، لقد صدقت إنني مبشر، ولكن ليس كالمبشرين الذين يقابلونك كل يوم، أنا أبشر بالمحبة... بالسلام... بالإخاء... بالمساواة... باحترام الرأي الآخر... أنا لا أبشر لدين واحد، ولا لكنيسة معينة، وإنما أبشر لجميع الأديان! إنني تلميذ لجميع الفلسفات! إن جميع المعابد هي معابد الله، وكل الأديان تحضنا على طاعة الله، وعمل الخير، وما فيه صلاح الإنسانية وسعادتها! أنا أعبد الله ومسحور بجمال ما أبدع في كل حقل وفي كل دين !

ازداد خجل الفتى من الرجل ومن نفسه أيضاً، وتعاظم مقدار سخافة سؤاله في وجدانه، فقال:

- اعذرني يا سيدي! إنني لم أعنِ... إنني أعني... أعني...! وارتبك الشاب ولم يدرِ ما يقول.

- ما عليك يا بني! إنني أعرف ما عنيت! قال الرجل ذلك ومدّ يده يطبطب بها على ظهر الفتى وأضاف:

- إنني أعرف السبب الذي جعلك تقول هذا، إن بعض الناس عندنا يزعجون الغرباء بملاحقاتهم وبمضايقاتهم بأن يحاولوا تغيير دياناتهم، وهذا في رأيي خطأ عظيم.

لفظ الرجل الكلمتين الأخيرتين بصوت أعلى من سابقتيهما، بحدة وبغضب، ورافقهما بضربة من يده على طرف مقعده، ثم أضاف:

- إن هذا التصرف الأحمق واللامسؤول يكرّه الناس بالدين، ويجعلهم ينظرون إلينا نحن الأمريكان نظرة احتقار وكراهية، وينعتوننا بالمتعصبين الأغبياء.

- هذا صحيح! ولطالما نصحت بعضهم فاتهموني بالجهل وبعدم غيرتي على الدين! قالت الزوجة بحماس ممزوج بالفخر.

تجاهل الزوج ما قالت زوجته وأضاف:

- إن هذا التصرف يجعل الناس يغلقون عقولهم وقلوبهم ضد الدين، حتى لو اقتنعوا به أحياناً. إن عندنا هنا في باسدينا، وفي جميع أنحاء جنوب كاليفورنيا، جماعات تتبع كنائس مختلفة، متعصبون بل ومتزمتون، يلاحقونك بعناد وإصرار، يريدونك أن تنسى دينك وتتبع ملّتهم، فأرجوك يا بني عندما تقابلهم -إذ لا شك أنك ستقابلهم يوماً- فلا تظن بنا سوءاً، إن كثيراً منا نحن الأمريكان لا يتفقون مع ما يقوله أولئك ولا مع ما يتصرفون.

- لقد قابلتهم يا سيدي، لقد فعلت، لقد أغضبوني كثيراً، وأثاروا قرفي واشمئزازي! لقد أعلموني بأننا نحن المسلمين نعبد الشمس والأصنام، وأنهم يريدون أن يخلصوا روحي من عذاب جهنم، وكل ما علي أن أفعل هو أن أؤمن بما يؤمنون به! قال راكان بغضب، وبعد أن استراح ورطب شفتيه بلسانه أضاف:

- إنني لا أستطيع أن أنكر يا سيدي أنني قابلت كثيراً من الناس، الذين أحببتهم واحترمتهم وكأنهم أصدقاء لي منذ مدة طويلة، كانوا واسعي الاطلاع عميقي المعرفة، لا يسألون عما تؤمن به ولا ماذا تعبد، وحتى عندما يعرفون فإنهم يحترمون معتقدك.

- أنا مسرور أن أسمع هذا، كما أنني آمل يا بني أن لا تكون قد أضعت وقتك بتوضيح معتقدك لأولئك المتعصبين المتزمتين، لأنهم لا يقبلون معتقداً غير معتقدهم، ولو أمضيت عمرك تحاول إقناعهم.

- هل لاحظت يا جون كيف أن راكان يرافق كلامه بتحريك يديه مما يجعل حديثه مؤثراً وأكثر تعبيراً؟ ثم هل لاحظت أيضاً أنه عندما يتكلم معي تحمّر أذناه وينظر إلى الأرض خجلاً؟! قالت الزوجة بسذاجة وبراءة طفل صغير ومقعدها يهتز تحتها.

نظر الشاب إليها مبتسماً وقد التهبت وجنتاه خجلاً.

تجاهل الزوج ما قالت زوجته مرة أخرى واستمر في حديثه، فلاحظ الفتى احمرار وجهها، وفكر أن يقول شيئاً يداري به خجلها، ولكن الزوج لم يعطه الفرصة إذ استمر في حديثه، وهنا تساءل الشاب عن سر تجاهل الزوج لما تقول زوجته، هل هي أنانيته، أم محدودية معرفة زوجته وجهلها بما يتحدث عنه، فتوصل فيما بعد إلى قناعة بأن سبب تجاهل الزوج لما تقوله زوجته هو قناعته بقلة معرفتها.

بعدها تحدث عن الكنائس في أمريكا، وعن الحركات التبشيرية، وشرح بعضاً من معتقداتها وفلسفاتها، أثنى على كثير منها وانتقد بعضها.

كان راكان طيلة الوقت يستمع لحديث السيد هانكوك بشوق شديد ومحبة صادقة، فقد كان الرجل حقاً موسوعة زاخرة بالعلم وبالمعرفة.

لقد بقي الفتى صامتاً والرجل يتكلم، لم يقاطعه وحتى لم يستوقفه بسؤال، كما لاحظ أن الزوجة هي الأخرى كانت لا تقل عنه إصغاءً واستمتاعاً.

بعد أن توقف الرجل عن الحديث، وقف الشاب وصافح العجوز وشكره على الوقت الثمين الذي تكرّم ومنحه له، ثم على المعلومات القيمة التي أسعد بها قلبه ونوّر بها عقله؛ شكره الرجل بدوره لسعة صدره ورحابة صبره للاستماع إليه وأضاف:

- أرجو أن لا تتردد بالحضور إلى غرفتنا كلما كان عندك متسعٌ من الوقت، أو تريد حاجةً أو أن تسأل سؤالاً، فإنه يسعدني أن أفعل ذلك! قالها الرجل بكرم وسخاء، وأفرح تبرعه قلب راكان.

- دعني أريك جزأك بالثلاجة والرفوف وأدوات الطبخ! قالت المرأة وهي توسع له من فتحة الباب ليخرج، وبعد أن فعلت سألها الشاب إن كان يستطيع أن يستعمل الحمام من الساعة السابعة صباحاً حتى السابعة والنصف، فأعلمته المرأة بأن ذلك الوقت مناسب جداً، حيث إن حمام الطابق الأرضي يشترك به أربعتهم، هي وزوجها والسيدة لويس وراكان، وكذلك يشتركون في ثلاجة واحدة، وأنها هي وزوجها يستيقظان في الساعة السادسة، أما السيدة لويس فلا تنهض قبل التاسعة وربما العاشرة، وطلب إليها الشاب أن تتكرم وتوقظه بعد أن تنتهي هي وزوجها من استعمال الحمام، فتعهدت أن تقوم بالمهمة وبكل محبة.

فتح راكان باب غرفته الذي اندفع وسط الحائط ثم دخل، فوصلت إلى أنفه رائحة رطوبة عفنة، تزكم الأنوف، وتصدع الرأس، وعلى الرغم من أنه لا يوجد مفتاح للباب فقد تأكد له أن لا الباب ولا النوافذ قد فُتحت منذ أن استأجرها.

لقد خُيل للفتى وهو يدخل الغرفة وكأنما يدخل قبراً، إذ شعر بخوف اصطكت له ركبتاه، وبقشعريرة هزت كيانه، وبانقباض شديد يكتم أنفاسه؛ وأحس وكأنما الغرفة جحرٌ ضيقٌ لا يتسع لجسمه، وبأنه يكاد يختنق.

خرج مسرعاً وأغلق الباب خلفه، فأضاء النور في صالة الطعام والغرفة الأمامية وكذلك المطبخ، فأصبح البيت شعلة من نور، ولكن جميع هذه الأنوار لم تبدد مخاوفه ولم تعد السكينة إلى قلبه؛ بعدها ألقى بنفسه فوق المقعد الجلدي الكبير الموضوع في الغرفة الأمامية.

لقد كان الشاب منهوك القوى، خائر العزيمة، ثم إنه لم يذق شيئاً إلا فطور الصباح الذي أعددته له السيدة جولييت بيديها الكريمتين.

فجأة شعر من جديد بأنه وحيد في هذا العالم، وأنه لا أهل له ولا صديق، وأنه جاء من المجهول، ويعيش بالمجهول! شعر بشوق ورغبة مجنونة إلى السيدة جولييت وتمنى لو أنها معه ليلقي بنفسه بين أحضانها ويظل يبكي لساعات.

فكر أن يذهب إلى غرفة السيد والسيدة هانكوك، ويرجوهما أن يجلس معهما لفترة أخرى، ولكنه رأى من تحت الباب أن غرفتهما تسبح في ظلام دامس! فتح الباب الخارجي وخرج، ثم أغلقه خلفه. إنه يريد أن يهرب إلى حيث يزدحم الناس فأحس بنسمات الليل الباردة تداعب وجهه وتتلاعب بشعره، فشعر ببعض الهدوء والسكينة.

كان الشارع شبه مظلم وخالياً من المارة، ولا يعكر صفو الليل وهدوءه إلا مرور سيارة بين الفينة والأخرى.

ظل الفتى يسير على غير هدى، وكانت دموع غزيرة تسفح فوق خديه، فكر أن يقف عند أكشاك الهاتف ويتصل بكفيلته، إذ شعر فجأة بشوق لاهب إليها وأنه افتقدها، ثم شعر بأنه يحبها... يحبها كثيراً، ويتمنى لو يستطيع أن يرمي بنفسه في أحضانها، فإنه مرهق، ويظل يبكي ويبكي ويبكي، حتى تدركه رحمة السماء فينام، ولا يستيقظ من نومه أبداً! ولكن ماذا سيقول لها، هذا إن قبلت أن تكلمه؟! فهل يقول لها أنه خائف، وأنه بحاجة إلى حمايتها؟! وبلا إرادة منه أوسع خطاه، وبدأ يهرول، إنه لا يدري هل كان يهرول مخافة أن يلحق به أحد، أو أنه يريد أن يدرك أحداً ليحتمي إليه؟!

- ماذا سرقت أيها اللص؟ ! هل البوليس يطاردك؟!

وجد راكان نفسه بين ذراعي إنسان كالعملاق ضخم الجثة، طوله يزيد عن مترين تنبعث منه رائحة خمر شديدة، ممزوجة برائحة التنباك المقرفة، يسد عليه الطريق!

تطلع مذهولاً في وجه الرجل فازداد فزعاً، إذ كان المخلوق زنجياً، حالك السواد، تفوح من جسمه وملابسه رائحة عرق نتنة، عيناه متقدتان كالجمر يقدح منهما الشرر، وبكل قوته، إذ شعر الفتى في تلك اللحظة وكأنما قوته قد تضاعفت، حرر نفسه من قبضة الرجل الذي انفجر يضحك بأعلى صوته، وهنا أطلق راكان ساقيه للريح!

كانت الظلمة حالكة، وأحس بشعر رأسه يقف كالمسلات، وقشعريرة شديدة تعتري جسمه، وأحس وهو يجري عائداً وكأن كعبي حذائه يضربان في مؤخرة رأسه، وظل يعدو حتى دخل البيت، وشعر وهو يدخله ببعض الأمان، ثم دخل غرفته وأغلق الباب خلفه، وبدون أن يخلع حذاءه، وبكامل ملابسه، دون أن يطفئ الأنوار، رمى بنفسه فوق الفراش، وهو يحس بألم يعصر قلبه! اللعنة! اللعنة! ما هذا؟! وصار يردّد:

"ما آب من سفرٍ إلاّ إلى سفرٍ ، وكأنماهو موكلٌ بقضاء الله يذرعه!"

بكى بحرقة شديدة! كان يبكي بصوت خافت حتى لا يسمعه أحد، وظل يبكي ويبكي! حتى شعر بأن كل جسمه قد انصهر في بوتقة الألم فتحول إلى دموع، وبقي يبكي حتى أدركته رحمة السماء فنام !

استيقظ الشاب حوالي الساعة الثالثة صباحاً، وكان كل عضو في جسمه يؤلمه ألماً مبرحاً، فنهض وخلع ملابسه بعصبية وإحباط، أطفأ الأنوار وراح من جديد في سبات عميق.

*****

بعد أن جلس الرجلان، راكان ورئيسه السيد أييكن ليشربا فناجين الشاي أثناء استراحة الصباح، سأل الرجل العجوز الفتى عما يحزنه، إذ إنه منذ حضوره في الصباح وحزن مرير يخيم على صدره، وعبوس قاتم يعلو وجهه، وأنه حاول جاهداً أن يسري عنه بإطلاق النكات من هنا وهناك، ولكن دون جدوى !

أعلم الفتى رئيسه وصديقه قصته الكاملة مع السيدة جولييت وحفيدتها، منذ أن تعرف عليهما، حتى رحيل الجدة يوم أمس، كما أعلمه عن حالته السيئة، وما جرى له في الليلة الماضية.

استمع الرجل باهتمام شديد لقصة الشاب، فلم يفتح فمه ولم يحاول أن يستوقفه بل تركه حتى أفرغ كل ما بجعبته!

إن الأمر الذي حيّر راكان كثيراً، هو أنه وهو يسرد قصته على مسامع صديقه، وحتى قبل أن يسمع رأي هذا الصديق، بل وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة، شعر الفتى بارتياح شديد في نفسه وفارقه جزء كبير من قلقه وخوفه!

- اسمع يا راكان! اسمعني يا بني! اسمعني جيداً! إنك في أول السلّم، والطريق أمامك طويل... طويل جداً... ومحفوفة بالصخور والأشواك والمخاطر...! إنك الآن على شفا هاوية، وحرية الاختيار متروكة لك، فإن أردت أن تجتاز المحنة التي أنت بها فعليك أن تتحمل وتصبر وتجالد، وإن اخترت السقوط فستنتهي وإلى الأبد، فإذا يئست من أول الطريق فالأفضل لك أن تعود إلى وطنك ومنذ الآن! قال الرجل بجد وحماس لم يعهده الشاب منه، وبعد أن رشف رشفةً من فنجان الشاي أضاف:

- أنت بألف نعمة! عندك عمل ولك غرفة، ووجدت قلوباً رحيمةً ساعدتك، وما زالت على استعداد لمساعدتك! بلع الرجل ريقه وحملق بمحدثه حتى شعر الفتى بأن عيني صديقه ستهربان من محجريهما لشدة ما ضغط عليهما، ثم أضاف:

- أما أنا فقد دخلت ميناء نيويورك وليس معي سنتٌ واحدٌ! لقد هربت إلى بريطانيا من مطاردة البوليس الإيرلندي لي، واتفقت مع ربان سفينة شحن على أن أشتغل في المركب مقابل إحضاري إلى أمريكا! لقد قضيت أربع ليالٍ في مدينة نيويورك، أنام في حديقة عامة وغطائي كان الجرائد! أشكر الله أن الوقت كان صيفاً، وإلا لكنت متّ من البرد! كنت أقضي طيلة النهار أفتش عن عمل، وأسطو على براميل القمامة أبحث عن فضلات الطعام، كالكلاب الضالة ليلاً!

همّ الفتى أن يقول بدوره كلاماً مواساةً لصديقه، ولكن الرجل اندفع بحماس أشد وأضاف:

- كان بوليس الحديقة العامة يطاردني من مكان إلى آخر، وأخيراً تعرفت إلى عجوز لعلها في الستين من عمرها، تبحث عمن يؤنس وحدتها.

توقف السيد أيبكن عن الكلام، ونظر يمنةً ويسرةً وخلفه، ثم قرب وجهه من وجه الشاب وقال هامساً:

- لقد كنت أبيعها نفسي، مقابل طعامي ونومي، ولقد بعتها نفسي لمدة تزيد عن الشهر، ولم أتخلص منها إلا بعد أن وجدت عملاً في مطعم أغسل به الصحون.

فتح الفتى فاه ليسأله عن سبب مطاردة البوليس له، ولكنه سبقه إذ سأل راكان بصوتٍ عالٍ وبحماس ممزوج بالفخر:

- هل تعرف كما أساوي الآن؟!

هزّ الفتى رأسه علامة النفي.

- إن ثروتي الآن تزيد عن خمسة ملايين دولار نقداً في البنوك، وأسهماً في شركات وعقارات.

- ولمَ تشتغل في هذا المكان إذن؟! أعني؛ ولمَ تقبل مثل هذه الوظيفة المتواضعة؟! سأل الشاب وقد فتح عينيه على وسعيهما استغراباً، واستولت عليه دهشة عظيمة.

- وهل تسمي ما أقوم به عملاً؟! أنا لا أشتغل، أنا أتسلى، أنا أطارد الأولاد لأتأكد من أنهم يقومون بواجباتهم ولا يهملونها؛ ثم أمزح معهم فنضحك ونتسلى! أنا شبه متقاعد الآن. صحيح أنني لم أصل سن التقاعد بعد، ولكني أعتبر نفسي متقاعداً! لو أردت أن أعمل حقاً لقمت بعملٍ أحصل منه على نقودٍ كثيرةٍ جداً.

- ولكن لم لا تتسلى في البيت؟ تقرأ... تكتب... تقوم برحلات... تسافر إلى بلدان بعيدة...؟! سأل الفتى محتاراً!

- لقد فعلنا ذلك، زوجتي وأنا، لمدة سنين عديدة، فتعبنا من الحلّ والترحال، وأتينا إلى هنا لنتسلى. إن مثلنا سيموت إن لم يشتغل! إن التوقف عن العمل هو التوقف عن الحياة بالنسبة لنا! إن الإنسان عندما يبلغ الستين ولا يشتغل يعتقد أنه انتهى وأنه ينتظر ساعة الموت، فيصبح كل فكره وكل ما يشغل عقله هو الموت!

- لمَ لا تعمل لك برنامجاً تستطيع أن تستمر في حلّك وترحالك، وفي نفس الوقت لا تتعب ولا تملّ من السفر؟!

- نعم، لقد فعلنا. كان برنامجنا هو أن نعود من رحلة ونرتاح قليلاً، ثم نبدأ برحلة ثانية، ما زلنا أحياء، ولكن بعد سنتين لم نستطع المواصلة، ربما بعد سنة أو أكثر من الآن، نقوم برحلة إلى الهند والصين واليابان، ثم إلى الاتحاد السوفييتي. إنها البلاد التي لم نرها بعد، لقد زرنا أوروبا والشرق الأوسط.

- وهل جمعت ثروتك من الوظيفة؟ ! سأل الشاب باهتمام شديد.

- لا شك أنك تمزح! إن الموظف بالكاد يحصل على قوت يومه! لم أكن موظفاً، لقد كنت تاجر ذهب كبير، وكان عندي أربعة باعة؛ كان عندي محل لبيع المجوهرات... ليس هنا في كاليفورنيا... كان في نيويورك! كنت أتنافس مع التجار اليهود فأتغلب عليهم! كانوا يكرهونني كثيراً! كنت أبتاع بعضه من دول أفريقيا الجنوبية. لقد بعت تجارتي وأملاكي في مدينة نيويورك وأتيت إلى كاليفورنيا، لأن طقس نيويورك شديد البرودة، وأتيت إلى بلاد الشمس الدافئة والطقس المعتدل الجميل.

- وأين تشتغل زوجتك؟!

- هنا في نفس الشركة، في قسم رسم سياسة الشركة وطريقة تعاملها مع الزبائن! إنهم في قسمهم كما في جميع الأقسام لا يأخذون استراحاتهم إلا مرة واحدة في اليوم، ولمدة عشرين دقيقة فقط، ويأخذونها عصراً. إن القسم الوحيد الذي يأخذ استراحتين في اليوم هو قسمنا فقط؛ هذه إكرامية مني لكم! إنه لمن المؤسف أن بعضهم، وأنا لا أعنيك أنت، يأخذ استراحتين وكل واحدة تزيد عن ثلاثين دقيقة! إنني أتسامح معهم، ولكنني إن غضبت يوماً فسأطردهم من العمل! ثم راح يقهقه بصوت جلب انتباه المحيطين بهما وأضاف:

- ولكن المشكلة أنني لا أغضب ! إنكم كلم أصدقائي وأعتبركم وكأنكم أولادي.

- وهل جميع أولادك متزوجون؟!

- لم أنجب أولاداً ولا بناتٍ! لقد تبنينا، زوجتي وأنا، فتاة من ملجأ أيتام عمرها الآن تسعة وعشرون عاماً، متزوجة من ضابط في البحرية الأمريكية، وعندها ثلاثة أطفال، ولد وابنتان، يسكنون في مدينة ”سانتي ياقو“! نتبادل الزيارات كثيراً... يحبوننا ونحبهم، ونحن مغرمون بالصغار كثيراً.

”سبحان الله ما أعجب تصرفات القدر! رجل يبيع شبابه لعجوز شمطاء مقابل سكن يأوي إليه هرباً من بوليس الحدائق، ويناطح الحياة طوال عمره، ليجمع ثروة ضخمة... ضخمة؛ فيورثها لأناس ليسوا من صلبه! ما أعجب تصرفات القدر!“ قال راكان مخاطباً نفسه.

قدم السيد أيبكن راكان إلى زوجته وقت الغداء، فوجد الفتى أنها على النقيض من زوجها تماماً، فهي لا تتكلم إلا نادراً، وتكره السياسة، ثم إنها على قدر لا بأس من الجمال والأناقة؛ وحالما انتهى ثلاثتهم من تناول الغداء، استأذنت إذ أنها تريد أن تستفيد مما تبقى من وقت ساعة الغداء، فتبتاع بعض الحاجيات من الشركة.

انتقل الرجلان إلى صالة الاستراحة، وهناك عرف الفتى حقائق كثيرة عن صديقة العجوز! لقد أعلمه بأنه من أب إنجليزي هاجر إلى إيرلندا، وأنه كان الابن الوحيد لأبويه، وعندما قامت الثورة الإيرلندية ضد الإنجليز ترك الجامعة وحارب هو ووالده ضد الثوار، وعندما انتصرت الثورة واستقلت البلاد، صادرت حكومة الثورة جميع أملاكهم ثم أعدمت والده، فتسببت هذه المآسي بوفاة والدته حزناً وغماً؛ أما هو فقد أصابته رصاصة في موقع حساس فحرمته من الإنجاب، ثم هرب على إثرها إلى بريطانيا.

- أنا أفخر جداً جداً بأنني إنجليزي! قالها الرجل باعتداد وكبرياء، ثم أضاف:

- لأن الأرستقراطية الحقة والديمقراطية الصحيحة هما ابنتا إنجلترا، وأن الإخاء والمساواة والحرية جميعها ولدت هناك، وأن أوروبا وأمريكا استوردتاها منها! قال الرجل بحماس، وبعد أن ضرب يده بالهواء أضاف:

- ”المقناكارتا“ هي مصدر التشريع في العالم، وهي أساس الديمقراطية فيه! إنها نتيجة كفاح الشعب الإنجليزي ونضاله ضد الظلم والقهر والاستعباد! إن الديمقراطية التي ينعم بها العالم اليوم، هي نتاج تلك ”المقناكارتا“!

لم يعلق الفتى ، لقد بقي صامتاً يحدق بصديقه بعيون جامدة وفم نصف مفتوح، ثم أضاف الصديق:

- إن الذين يطلقون على أنفسهم ثواراً في جميع بلاد العالم، هم جماعات من اللصوص والانتهازيين والمرتزقة وقطاع الطرق وكذلك تجار وطنية! إنهم بعد أن نجحوا بالاستيلاء على الحكم في إيرلندا، اقتسموا الكراسي بينهم، كما نهبوا ثروة البلاد!

ومرة أخرى لم يعلق الفتى على مقولة صديقه، فقد اكتفى بهزة رأسه، وابتسامة باهتة، طيب بهما خاطر رئيسه.

أعاد السيد أيبكن على مسامع صديقه الفتى، أثناء استراحة بعد الظهر، ما قاله له أثناء استراحة الصباح، من أن أمامه طريق طويل من النضال والكفاح، وأنه يجب أن يصبر ويصابر، فإن مستقبلاً باهراً لا شك ينتظره.

- إن فراستي لم تخني يوماً، وما أن وقعت عيناي عليك حتى توسمت بك النجابة، وأنا واثق من أنك ستنجح في حياتك نجاحاً باهراً! فقط تحتاج إلى شيء من الصبر والعزيمة! إن بك كل متطلبات التفوق والنجاح! قال الرجل بحماس أسعد الشاب كثيراً، وبعد أن رشف من فنجانه رشفة شاي أضاف:

- ستتعرّف على أناس كثيرين، وسيكون لك أصدقاء وصديقات، وستجد الفتاة التي تحبك وتحبها! إن الخطوة التي أريدك أن تتخذها هي أن تلتحق بالجامعة، وأن يكون هدفك الأول والأهم هو الدراسة؛ إذ إنك بعد أن تمزج الثقافة الغربية بثقافتك الشرق أوسطية تصبح علماً من الأعلام!

شكره راكان على تشجيعه له وثنائه عليه، وأكد له بأن سبب حضوره إلى أمريكا بقصد الدراسة وليس لأي سبب آخر.

- سأرتب لك جدول عمل بحيث تتناسب ساعاته مع برنامجك الدراسي. ستحضر المحاضرات في ساعات الصباح، وستعمل بعد الظهر وأيام السبت والعطل الدراسية، وأنا واثق بأنك تستطيع أن تكسب نقوداً تكفي لمعيشتك.

شكر الشاب رئيسه وشعر بسعادة غامرة، ووعده بأنه سيكون عند حسن ظنه، وأنه لن يعطي مجالاً لليأس ليتسرب إلى قلبه بعد اليوم.

*****

عندما عاد راكان من عمله مساءً، وحالما فتح الباب الخارجي للنزل، وصلت إلى أنفه رائحة طعام شهية زادت في جوعه، فأيقظت عصافير معدته النائمة، كما وصل إلى أذنيه هرج ومرج ، أناس وأصوات طناجر وصحون تضرب بعضها بعضاً. وعندما اجتاز الغرفة الأمامية، والتي يسكنها صاحب النزل، السيد والسيدة هانكوك، ودخل من الباب الذي يفصل بينها وبين غرفة الطعام، رأى السيدة لويس تجلس على طرف طاولة الطعام الكبيرة ومعطية ظهرها له، وعلى الطرف المقابل لها كان يجلس السيد هانكوك وعقيلته، اللذان ابتسما له ورحبا به، وكانوا ثلاثتهم يتناولون وجبة العشاء.

أرسل الشاب نظرة إلى داخل المطبخ فرأى ، النزيل فرانك يحرك بعصبية ما بداخل قلاية فوق النار، ومن حركاته غير المستقرة لاحظ أنه يريد أن ينتهي مما يطبخ في غاية السرعة، إما جوعاً وإما بسبب التزام خارج المطبخ. ورأى كذلك السيدة أندرسون تغسل أدوات الطبخ وزوجها يراقبها منرفزاً هو الآخر، إذ يبدو على وجهه وتصرفاته قلق شديد، عرف الفتى ذلك من روحانه ومجيئه في أرض المطبخ الواسعة، وبسرعة لافتة للنظر.

رمى راكان نفسه فوق فراشه الذي لم يرتب غطاءه في الصباح، كما وكان يشعر بجوعٍ شديدٍ وإرهاقٍ قاتل. إنه لا يعرف أن يطبخ، إذ لم يسبق له أن طبخ شيئاً في حياته كلها، ولم يذكر حتى أنه عمل فنجاناً من الشاي! عندما كان في الوطن كانت أمه وأخواته يقمن بذلك، وعندما كان طالباً في مصر كان عنده خادم نوبي يقوم بكل ما يلزمه، ومن جملتها شراء لوازم الطعام وطبخها! أما عندما جاء إلى أمريكا فكانت السيدة هييز ثم السيدة جولييت تقومان بهذه المهمة!

تمنى الفتى لو أن الله خلق عباده كما خلق ملائكته ، لا يأكلون ولا يشربون، عندها سيوفرون كثيراً من الوقت، وكثيراً من النقود، فيمضون وقتاً أطول على الأقل بالنسبة له هو ولكثيرين من أمثاله، في المطالعة والكتابة والتأمل؛ ولكن هيهات! هيهات!

"إنك ستضطر في أمريكا إلى أن تقوم بجميع واجبات المرأة المنزلية من غسل ملابس وكيّها وتنظيف وطبخ وغسل صحون، وستندم على أنك ذهبت إلى أمريكا!" قالت له أمه قبل سفره بيوم.

"إن كفيلتي ستقوم بكل ما ذكرت، وأنت تقولين هذا من أجل أن تجعليني أكره أمريكا وأعدل عن السفر إليها!" أجاب راكان والدته.

الآن فقط عرف أن الطريق أمامه شاق وطويل، إذ إن عليه أن يتعلم ما كانت أمه وأخواته يقمن به من أعمال منزلية، وكذلك فإن عليه أن يرتب سريره كل صباح، وينظف غرفته ويغسل الشراشف وكذلك ملابسه، ثم يكويها كل أسبوع؛ ثم إن عليه أن يبتاع حاجيات الأكل، ويطبخ ثم يغسل الصحون! يا لها من مهمة شاقة عسيرة! إن مجرد التفكير بها يجعله يصاب بإحباط ويأس شديدين!

إن راكان يقسم بأنه لا يعرف حتى أحجام الملابس التي يرتديها، ولا مقاسات الأحذية التي ينتعلها! لقد كان أخوه يقوم بهذه المهمة، حتى ملابسه الداخلية وربطات العنق كانت تختارها له شقيقاته. اللعنة! اللعنة!

وفجأة قفز تفكيره إلى السيدة جولييت وشعر بالفراغ الذي تركته في حياته، لمَ لمْ يرحل معها؟! لمَ لمْ يرجُها أن تأخذه معها؟! إنه خائف ليواجه الحياة لوحده! إنه ضعيف وبحاجة إلى الحماية! شعر الفتى فجأة بأن كل ذرة في جسمه ترتجف، فسحب الغطاءفوقه، وظل يسحبه حتى غطى رأسه!

هدأت الحركة في النزل، فنهض الفتى وفتح باب غرفته، فلاحظ أن المطبخ وغرفة الجلوس تسبحان في ظلام دامس، ونظر إلى يمينه حيث غرفة السيدة لويس فوجدها مغلقة، ولكنه لاحظ أن أشعة الضوء تخرج من أسفل الباب، ونظر إلى شماله حيث غرفة السيد والسيدة هانكوك، فوجدها أيضاً مغلقة، والنور ينبعث من تحت الباب، يرافقه أنغام موسيقى ناعمة! لقد تأكد للشاب أن النزلاء قد أووْا إلى غرفهم بعد عمل يوم شاق وطويل، مع أن الوقت كان مبكراً جداً، إذ إن نهار الصيف طويل!

عزم راكان على أن يذهب إلى البقالة ويبتاع بعض حاجيات الطعام، وأن يتعلم بأن يطبخ طعامه بنفسه، تماماً كما يفعل العزاب في هذا العالم. لقد أدرك الآن حقيقة كانت غائبة عنه، وهو أن الكثير من الرجال خارج وطنه العربي الكبير، يزاولون أعمال البيت من طبخ وغسل وتنظيف، كما تزاوله النساء تماماً لا فرق، وأن عليه أن ينسى عادات وتقاليد بلاده، التي تعيب على الرجل أن يقوم بهذه الأعمال، وأنها واجب النساء فقط!

شكر الله على أنه يوجد "سوبر ماركت" ضخم يكفي ما بداخله من مستلزمات الأكل لأسابيع بل لشهور لكل سكان مدينته الخالدة الصامدة، المدينة التي وُلد وترعرع، وعشق بها وتعذّب، وأن هذا "السوبر ماركت" يقع على بعد ثلاث دقائق سيراً على الأقدام، وأنه لا يغلق أبوابه لا ليلاً ولا نهاراً!

سحب الشاب عربة من هذه العربات المرصوصة أمام "السوبر ماركت"، وأمضى وقتاً طويلاً وهو يتجول في أرجاء المكان يبحث عما اعتقد أنه سيحتاجه لطبخه الليلة والليالي القادمة. إنه لا يوجد عنده شيء أبداً، إذ يجب عليه أن يبدأ من الصفر؛ وأن يبدأ بطبخة الليلة وما تتطلبه من مستلزمات. إنه يريد أن يطبخ بطاطا باللحمة وأرزاً. لقد افتقد هذه الأكلة التي يحبها جداً، والتي كانت تطبخها له والدته بيديها الطاهرتين الحنونتين؛ فأحس بأنه يكاد يذوب شوقاً إليها، وشعر كذلك بأنه يكاد يموت جوعاً!

اشترى كيساً من البطاطا ولحمة وبصلاً وصلصلة البندورة وملحاً وفلفلاً أسود، ثم أرزاً وزبدةً، وماذا يريد أيضاً؟! بندورة طازجة وخساً لعمل السلطة؛ كله لهذا المساء، وماذا عن الإفطار؟! حليباً ومربىً وخبزاً وقهوةً وشاياً وسكراً! وماذا يأخذ معه للغداء؟! كرتونة شطائر اللحم المفروم والمحشوة في مصارين الخراف أو البقر والذين يطلقون عليه "الكلاب الساخنة"! لقد كانت كفيلته، جزاها الله خيراً، تسلقها وتقدمها له مرة في اليوم على الأقل! ثم اشترى قارورة من "الكاتشب" كما أنه لم ينس أن يبتاع بعضاً من قوارير المرطبات، وكذلك بعض علب عصير البندورة، إذ إنه يحبها كثيراً، خصوصاً عندما يضيف عليها بعض التوابل وعصير الليمون!

عاد راكان إلى النزل فوجده أشد ظلاماً وأكثر هدوءاً مما تركه؛ فقد كانت غرفة السيد هانكوك وزوجته، وكذلك غرفة السيدة لويس، قد أطفئت الأنوار بهما، كما أن الموسيقى قد توقفت في غرفة الزوجين! شكر الشاب الخالق، إذ إن المطبخ الآن له وحده يستطيع أن يصول به ويجول، وأن يمارس به اختباراته وتجاربه في فن الطبخ والتفنن به!

وضع الشاب الطنجرة على النار ووضع بها قطعة من الزبدة، ثم أشعل النار تحتها، بعدها أدار منظم "البوتوغاز" عالياً وبدأ يقشر البصل، سمع صوت الزبدة يطشطش وهو يذوب، فوصلت إلى أنفه رائحة زكية، فشعر بأن جوعه قد ازداد، وأن شهيته قد تفتحت، وقدّر بأنه سيأكل صحنين من البطاطا ومثلها من الأرز! الآن يجب أن يفرم البصل ويضعه في الزبدة السائلة، وبعد أن يقلبه يكون قد انتهى من تقطيع البطاطا فيضعها على البصل! هكذا كانت أمه وأخواته يفعلن، هذا إذا لم تخنه الذاكرة! تلفت حوله يبحث عن لوح الخشب الذي يفرمون عليه، هكذا يفعلون في الوطن؛ فتح جميع أدراج المطبخ وأبواب الخزائن ولكنه لم يعثر على ضالته، فذهب إلى غرفته وأحضر جريدة فردها فوق منصة المطبخ، وهمّ بالقيام بالفرم ولكن وصلت إلى أنفه رائحة الزبدة المحروقة، كما سمع أصوات الزبدة التي تحترق! هرول باتجاه الطنجرة فوجد أن ما بها من الزبدة قد تبخر ولم يبق إلا بقاياها المتفحمة، وكان أسودَ قاتماً.

"لا بد وأنني تركتها على النار مدة أطول مما يجب!" هكذا حدث نفسه.

رفع الطنجرة عن النار ووضعها جانباً، وعاد ليفرم البصل، لم تمضِ إلاّ لحظات على بدء عملية فرم البصل حتى كانت عيناه وأنفه ينزلان سيلاً من الدموع والمخاط سقطت فوق ظهر يديه، وكذلك بللت السكين والبصل معاً، حتى أنه لم يستطع رؤية ما أمامه!

وضع السكين جانباً وتوجه إلى دورة المياه حيث غسل يديه ووجهه، وتساءل إن كان البصل في أمريكا يختلف عن البصل في الوطن؟! إنه لم يذكر في حياته كلها أن رأى والدته، أو إحدى أخواته ودموعهن أو أنوفهن تسيل بسبب فرم البصل، إذ ربما يكون البصل الأمريكي شديد الحرورة، فيجعل العيون تدمع!

لقد تساءل إن كان الناس يغلقون عيونهم عندما يفرمون البصل؛ ولكنه استبعد ذلك، إذ كيف يستطيعون رؤيته إذن؟!

فكّر طويلاً عله يهتدي إلى طريقة يفرم بها البصل دون أن تدمع عيناه، فتوصل إلى أنه يجب أن يربط منديلاً حول عينيه فيحول دون وصول رائحته إلى أنفه، فاستحمق الفكرة! لمَ لا يغمض عينيه ما دام القصد هو الحيلولة دون وصولها إلى عينيه؟!

أغمض عينيه وبدأ يفرم البصل، وما هي إلا لحظات حتى أطلق صرخة، بغير إرادة منه، تجاوب صداها في جميع أرجاء المنزل! لقد هوت السكينة على إبهام إصبعه الأيسر فاجتثت جزءاً منه، وصار الدم ينزف بغزارة أغرق البصل والجريدة معاً!

- ماذا حدث؟! ماذا حدث؟! سألت السيدة هانكوك وهي تهرول في طريقها إلى المطبخ عند سماعها الصرخة.

لم يجبها الفتى ولم يفتح فمه؛ بل وحتى لم يرفع رأسه؛ فقد شعر بألم حاد في قلبه وبمرارة محرقة في نفسه، ألمٍ شديدٍ أقسى كثيراً من ألم إصبعه النازف! كما وتصور بأن كبرياءه قد تمرغت بالوحل، وأن رجولته قد ابتلعتها إحدى الجور الامتصاصية! وهنا نزلت دمعتان من عينيه تخيلهما الفتى قطرتين من الدم المتّقد!!

- يا إله السماء، ماذا فعلت بنفسك يا بني؟! صاحت المسكينة بصوت عالٍ ملتاع وهي تنظر إلى الدم الذي ينفر من الإصبع.

فتحت المرأة أحد أبواب الخزائن القريبة بسرعة قياسية، وأخرجت منها رزمة من الورق الشفاف لفته حول الإصبع النازف، وطلبت إليه أن يمسكها،، ثم قادت الفتى خارج المطبخ حيث تتواجد مغسلة كبيرة تقع إلى جانب غسالة الملابس، وأزالت الورق الشفاف الذي كان مشبعاً بالدم وألقته في سلة المهملات، وغسلت الجرح ببعض المعقمات، ثم وضعت فوقه كمية كبيرة من المراهم، ولفته بأكداس من الشاش الأبيض، ثم ربطت الإصبع المجروح.

كانت المرأة تتحدث طيلة الوقت عن انتشار مطاعم الوجبات السريعة، وكيف أن الكثير من الناس الكسالى يفضلونها على الأكل في البيوت، لأنها تعفيهم من عناء الطبخ ومشقة شراء لوازم الأكل؛ ولكنها قالت بأنها هي وزوجها يفضلون أكل البيت، لأنه أنظف وأفيد للجسم، وأن طعام الوجبات السريعة مملوء بالسموم التي تؤذي الجسم.

لم يفتح الفتى فمه طيلة الوقت، إذ شعر بمهانة وإذلال أحرقتا وجدانه، وبضياع وغربة سحقتا عظامه؛ وحتى أنه لم يشكر المرأة لمساعدتها له؛ فقد استبد به حزن جمد لسانه، وعطل حركة كل خلجة في جسمه !

لفت المرأة الجريدة وما بها من بصل ودم وألقتها في سلة القمامة، وقالت وهي تسحب لوحاً من الخشب كان موضوعاً فوق أحد الرفوف:

- تستطيع أن تفرم كل شيء على هذا اللوح، ولكن دعني الآن أساعدك هذه المرة. قالت ذلك وتناولت رأساً من البصل، وبسكينة غير الأولى قشرت البصل وفرمته، ثم تناولت رأساً آخر وفرمته أيضاً.

ذهل الفتى وهو يرقب ما يحدث أمامه، إذ أن عيني السيدة هانكوك لم تدمعا، وكذلك مخاطها لم ينزل، ثم إن عملية التقشير والفرم لم تستغرق وقتاً يذكر!

- أشكرك يا سيدتي من أعماق قلبي! قالها الشاب بعد أن وضعت المرأة ما فرمته من بصل في صحن وقدمته له، وكانت كلماته تقطر ألماً.

- مرحباً بك يا بني، إنه يسعدني جداً أن أقوم بمساعدتك كلما احتجت إلى ذلك! لقد فهمت من حديثك البارحة أن الرجال في بلادكم قلما يمارسون عملية الطبخ إذ إن هذا واجب النساء.

لم يعلق راكان على ما قالت، إذ أنه كان بحراً من العواطف الجياشة والانفعالات الملتهبة، لهذا اللطف الذي غمرته به هذه المرأة الفاضلة، والتي تعاملت معه وكأنه ابنها لا مجرد مستأجر في نزلها؛ ولعل سكوته قد شجعها على الكلام فأضافت:

- إن كل نزيل هنا سيكون سعيداً جداً لو طلبت مساعدته، ليس أنا فقط! نحن هنا في النزل، نعيش كعائلة واحدة، ولو أننا لا نأكل معاً! والآن تصبح على خير! قالت ذلك وخرجت وتركته يتصارع مع أول تجربة له في الطبخ.

لقد تمنى الطباخ المهزوم لو أن المرأة تكمل معروفها معه فتساعده حتى يكمل ما ينوي طبخه، ولكنها سامحها الله لم تفعل، كما أنه لا يمكن أن يسأل أحداً أن يساعده، لأن عملية الطبخ هذه واجب تقوم به المرأة وعيب على الرجل أن يقوم بعمل تقوم به المرأة! هذه هي ثقافته القبلية !

بدأ الفتى يقشر البطاطا، وفكر أن يقشر كمية كبيرة منها تكفيه عشاء ليلتين اثنتين؛ ولكنه لاحظ أنه كان عليه أن يأخذ قسماً كبيراً من حبة البطاطا حتى يصل إلى المنحدرات والمرتفعات في جسم الحبة؛ وكانت حبة البطاطا تصغر وتصغر إلى درجة أنها تصبح قطعة صغيرة لكثرة ما يزيل عنها ! لقد وجد أن الكيس الذي اشتراه والذي فكر أنه سيكفي لعدة طبخات بالكاد يكفي لطبخة واحدة؛ كما لاحظ أيضاً أن التراب الأحمر الذي كان يغطي جسم البطاطا قد اختلط مع الأجزاء المفرومة، فصار لونها غير مسرٍ فعزم على غسلها.

أفرغ الزبدة المحروقة من الطنجرة ووضع بدلاً منها قطعة جديدة، ثم وضع فوقها البصل والبطاطا؛ إذ فكر أن هذه هي الطريقة التي ستحمي الزبدة من الاحتراق! أدار زر "البوتوغاز" تحتها على علوه، إذ أنه يكاد يموت جوعاً، ويريد أن يستوي الطعام بسرعة، وشرع في تقطيع اللحمة، وسرعان ما وصل إلى أنفه رائحة احتراق البصل والبطاطا والزبدة أيضاً! نظر إلى داخل الطنجرة، فأدرك بأنه لم يمزجها ببعض، كما أن النار تحتها كانت شديدة، وإن كل ما بالطنجرة قد احترق!

بقلب محزون وخاطر مكسور، حمل راكان الطنجرة وأفرغ جميع ما بها بسلة المهملات، وبعد أن غسلها وغسل السكينة والصحن، وجففها ببشكير لاحظه معلقاً على الحائط، أعادها إلى أماكنها، ثم أطفأ النور وتوجه إلى غرفته، وقد عزم في سره على أن لا يأكل الليلة وأن ينام جائعاً انتقاماً من نفسه وإذلالاً لها؛ واحتقاراً لمجتمعه البغيض المتزمت، ولقيمه ولعاداته ولتقاليده، وإلى ذلك المجتمع الذي جعل منه مشرداً ذليلاً محطماً مقهوراً في بلاد الغربة!

دخل الفتى غرفته وأغلق بابها خلفه بكل قوته وكل ما عنده من طاقات... وبغضب لاهب... وبكل أوجاعه وكل أحزانه وما عنده من إحباطات... أخرج من فمه بصقة ملتهبة كانت قطعة من جهنم... شعر الفتى وكأنما عواطفه تغلي كالمرجل، رمى بنفسه فوق الفراش، بحذائه وكامل ملابسه؛ وصار يرفع قدميه إلى أعلى ما يستطيع، وهو ممدد فوق السرير، وبكل طاقاته وقوته راح يضرب ويضرب بهما الفراش، حتى كان السرير يطجّ تحته فيرتفع وينخفض تحت عنف الضربات؛ وحتى ظن أنه سيتهاوى تحته وينهار!

فجأة خطرت على باله فكرة ظن أنه بتنفيذها سيتحدى القدر ويهزم المصاعب. إذ نهض من فراشه مسرعاً ودخل المطبخ، وملأ نفس الطنجرة بالماء ووضعها على "البوتوغاز" وأسقط كل ما تبقى من حبات البطاطا بها ثم وضع غطاءها عليها، وأشغل "البوتوغاز" بكامل طاقته تحتها، إذ أنها تحتاج إلى وقت طويل حتى تنضج، ربما ساعة كاملة!

هذه الطبخة لا تحتاج إلى دراية في فن الطبخ، فلقد طبختها له كفيلته أكثر من مرة! لقد سلقت البطاطا وعندما استوت قشرتها، وفتحت الحبة بالسكين ووضعت بها بعض الزبدة ورشت بعض الملح والفلفل فوقها، ثم قدمتها له! لقد كانت لذيذة جداً! لقد تفتحت شهيته من جديد، وشعر بأنه يكاد يموت جوعاً، وإن كل ما يحتاجه الآن هو الصبر.

نظر إلى ساعته فإذا هي قد تجاوزت العاشرة بدقائق. إذن فليذهب إلى غرفته، وليكتب رسالة إلى والدته، ولكن عليه أن يعود في تمام الساعة الحادية عشرة عندها سيكون جاهزاً ليغرق نفسه في أكلة بطاطا شهية.

أطفأ ضوء المطبخ ودخل غرفته، وجلس يكتب رسالة إلى والدته، لم يدرِ الفتى كم مضى من الوقت عندما سمع طرقاً متلاحقاً على الباب مصحوباً بصوت السيدة هانكوك.

- أوه راكان! طبختك! لقد احترقت، قالتها المرأة بصوت حزين وعلائم الألم تبدو على وجهها.

وصلت إلى أنف راكان رائحة كاز قوية تأتي من المطبخ، وعندما دخل راكضاً وجد أن السيدة هانكوك قد سبقته وفتحت جميع النوافذ وكذلك الباب المؤدي إلى خلف البيت، حيث مواقف السيارات.

- عندما تضع شيئاً على النار من المستحسن، يا بني، أن تبقى إلى جانبه تراقبه! قال السيد هانكوك بلهجة هادئة، شعر الفتى أن بها نغمة حزن وألم شديدين.

- يبدو أنك وضعت شعلة الغاز بكامل طاقتها! إنه من المستحسن أن تضعها متوسطة أو منخفضة، إذ إن الشعلة العالية تحرق بعض الطبخات! لقد وصلت رائحة الغاز إلى غرفتنا، وعندما فتحت الباب وجدت أنها ملأت الغرفة الأمامية وقاعة الطعام! قالت السيدة هانكوك بلهجة أكثر هدوءاً ونغمة أشد ألماً وحزناً مما قاله زوجها.

استغرب الفتى كيف أنه لم يشم رائحة الغاز العنيفة وغرفته أقرب إلى المطبخ من غرفتهما؛ ولكنه علل ذلك باندماجه بكتابة رسالته المشحونة بالعواطف الجياشة إلى والدته.

لقد رأى الشاب أن معظم ما كان في الطنجرة وكذلك غطاؤها قد سقط فوق "البوتوغاز"؛ مما تسبب في قذارته، فاختلط السائل بالغاز المحترق فكاد يسبب حريقاً لولا قدوم الزوجين مسرعين إلى المطبخ! كما ورأى أن محتويات الطنجرة قد وصل قسمٌ كبيرٌ منها إلى أرض المطبخ.

وجد راكان أن حبات البطاطا المتبقية كانت محروقة ولاصقة في قاع الطنجرة فحملها وألقى بها في سلة المهملات، ثم سحب بعض الأوراق من لفافة قريبة منه وكذلك فعلت السيدة هانكوك، وصار الاثنان ينظفان بها "البوتوغاز" وأرض المطبخ، وكانت دموع القهر والإحباط المتساقطة تحول أحياناً بين راكان وبين رؤية ما أمامه!

بعد أن انتهيا من تنظيف الغاز والأرض، وكان السيد هانكوك قد عاد إلى غرفته؛ فركت المرأة الطنجرة فأزالت ما علق بقاعها، ثم طلبت إلى الشاب أن يعطيها أربع قطع من الخبز وضعتها بحماصة الخبز، ثم طلبت له أن يفتح لها مرطبان المربى وكرتونة الزبدة، فعملت له شطيرتين وضعتها في صحن، ثم طلبت إليه أن يملأ كأساً من الحليب المبرد، وعندما جهزا كل هذا أطفأت أنوار المطبخ، ثم توجها إلى غرفة الطعام.

- أنا آسف جداً جداً، وحزين حتى العظام، إن سببت لك وللسيد هانكوك كل هذه المتاعب ؛ صدقيني أنني لم أعمل في حياتي حتى فنجاناً من الشاي! أنا أخجل جداً أن أقول لك ذلك، ولكن هذه هي الحقيقة! قال الفتى بألم وحسرة شديدتين.

- لا بأس يا بني! لا بأس! هذه هي ثقافة المجتمع عندكم! قالت المرأة مواسية.

"نعم يا سيدتي! إنها ثقافة الجهل والتجهيل! ثقافة التخلف الحضاري والتعصب القبلي!" قال الشاب لنفسه بحسرة!

وبينما كان الفتى يتناول عشاءه، كانت السدة هانكوك تجلس قبالته على الطرف الآخر من الطاولة. لقد أعلمته المرأة بأن الأسواق مملوءة بجميع أصناف الطعام المطبوخ، والموضوع في علب مصنوعة من التنك، وكذلك في عبوات من الكرتون والجيلاتين. وأن الملايين من الناس ذكوراً وإناثاً، لا يحبون الطبخ ولا يطبخون. إن باستطاعته أن يبتاع كل شيء... نعم كل شيء... مطبوخاً وجاهزاً للأكل؛ وإن كل ما عليه هو أن يفتح العلبة أو محتويات الكرتونة، ويضعها في وعاء ويسخنها، على النار أو في "المايكروويف".

-وحتى يوجد بعضها تأكله بارداً! إنك تجد جميع أنواع الشوربة، وجميع أنواع الخضراوات واللحوم والأرز والمعكرونة والبطاطا، وكذلك جميع أنواع الفواكه والحلويات! وحتى القهوة والشاي! قالت ثم أضافت:

- عندما تأتي غداً مساءً من عملك، سأكون بانتظارك، وسأذهب معك إلى السوق التجاري "السوبر ماركت" القريب من هنا، وسأريك كل شيء وأشرح لك عنه؛ فتختار أنت ما تحب، وسنحضره في إحدى عربات السوق، ثم نعيدها بعد أن نفرغها. وبعد أن استراحت قليلاً أضافت:

- إن محتويات كل علبة وكل كرتونة مكتوب عليها بالتفصيل، إذ إن هذه هي تعليمات الحكومة، فأنت تعرف ما تشتري قبل أن تدفع ثمنه، بل وحتى قبل أن تضعه في عربة التسوق! حاول أن تجهز شطائر الغداء التي تنوي أن تأخذها معك إلى عملك في مساء الليلة السابقة.

فرح راكان فرحاً شديداً، إذ رحمه القدر من أن يمضي ليلة تعذيب ومعاناة مثل هذه الليلة، من أجل تجهيز وجبة عشاء، كما وشكر السيدة ميردث هانكوك من أعماق قلبه، لصبرها وتفهمها ولكبر عقلها، وطلب من الباري تعالى، أن يحسن ختامها ويدخلها فسيح جناته. آمين! آمين!

*****

الفصل السابع عشر

مضى على رحيل السيدة جولييت ما يقرب الثلاثة أسابيع، عندما عاد راكان في إحدى الأمسيات ووجد رسالةً منها صار يرقص طرباً وهو يقص غلافها، ويكاد يطير فرحاً وهو يقرؤها، إذ كانت عواطفه تغلي شوقاً وحنيناً إليها! كانت رسالتها تزخر بالعواطف الجياشة على الرغم من قصرها.

لقد أعلمته أنها افتقدته كثيراً، وأنها تنتظر مجيئه بلاهب الشوق وفارغ الصبر، وإن ازدحام بيتها بالمهنئين والمسلّمين بعودتها من أقاربها وأصدقائها ومعارفها، لم يستطيعوا جميعاً أن ينسوها التفكير به، وإنها ومنذ وصولها وهي تحاول أن تكتب له، ولكن وجودهم المستمر لم يمكنها من فعل ذلك؛ حيث إن أولادها وأحفادها يبقون حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم أكدت له بأنها ستبدأ قريباً مساعيها من أجل الحصول له على وظيفة، وعندها ثقة بالخالق بأنه سيكون عندها قبل حلول عيد الميلاد!

*****

إن الذي كان يخيف راكان بل ويرعبه هو قدوم الليل! إنه كلما يفكر بأن عليه عندما يغادر عمله، أن يعود إلى سكناه يعتريه همّ شديد وخوف ممزق، فينقبض قلبه، وترتعد فرائصه هلعاً! إنه يتخيل غرفته وكأنما هي زنزانة سيدخلها مرغماً، ليقضي الليل في خوف ومعاناة لا يعلم إلا الله قسوتها وألمها! إنه ولطالما تمنى لو أن الله يعفيه من الذهاب إليها، وييسر له مكان آخر يقضي ليلته به! إنه ما يكاد يدخلها ويغلق بابها من دونه، حتى تعتريه موجةٌ من الهلع وكأنما هو طفل صغير تركته أمه في مكان مهجور!

كان يحاول أن يطرد خوفه ووحدته بالقراءة أو بكتابة الرسائل، أو بترتيب حوائجه المبعثرة، ولكن دون جدوى، فإنه كلما حاول الهرب من التفكير بوحدته كلما وجدها تزداد وتكبر!

كان كثيراً ما يترك باب غرفته مفتوحاً حتى وهو نائم، والأنوار بها مضاءة، خصوصاً في الأيام الأولى لمجيئه، وكان يتمنى لو أنه يستطيع كذلك أن يترك الأنوار مضاءة في غرفتيْ الجلوس والطعام؛ ولكن السيد والسيدة هانكوك، سامحهما الله، يطفئانها كلما رأوها مضاءة وخالية من النزلاء! ولقد فكر مرات عديدة أن يطلب إليهما تركها مضاءة وإعلامهما بأنه مستعد أن يساهم في دفع قيمة فاتورة الكهرباء، ولكن حتى مجرد التفكير بمثل هذا يجعله يخجل من نفسه، ثم كيف يعلل لهما ذلك؟!

كان الفتى في كثيرٍ من الليالي لا يذهب إلى غرفته رأساً بعد انتهاء ساعات العمل، وإنما يظل يتسكع في الشوارع المضيئة حتى إلى وقت متأخر من الليل، ثم يعود ماشياً على قدميه فيصل مكان سكناه منهوك القوى خائر العزيمة، فيسخن أحياناً شيئاً يأكله، ثم يلقي بنفسه في فراشه، وفي كثيرٍ من الأحايين ينام وهو جائع!

كان يدخل النزل فيجده غارقاً في بحر من الظلمة، فيرى النور المتسرب من تحت بابي جيرانه السيد والسيدة هانكوك والسيدة لويزا لويس! إذ إنه قلما تأتي الساعة الثامنة مساءً ولم يتناول نزيل من النزلاء عشاءه بعد، لأن السيد هانكوك وزوجته، وكذلك السيدة لويس يتناولون عشاءهم كما عُلم، في الساعة الخامسة، حتى يعطوا المجال لبقية النزلاء لاستعمال المطبخ وغرفة الطعام دون مضايقة ولا تزاحم.

حاول الفتى أن يقترب من بعض الشبان الذين يعملون معه، فقد أوحى إليهم بأنه وحيد وأنه لا أهل له ولا صديق، فلم يفهموا عليه ولم يتعاطفوا معه، إذ يبدو أنهم لم يجربوا الوحدة ولم يعرفوا كيف يكون إنسانٌ وحيداً، إذ أنهم يعيشون مع أهلهم، كما أن لكل واحد منهم صديقته، فليس عندهم وقتٌ يضيعونه معه!

لقد لاحظ راكان أن صداقة الشباب هنا ليست كصداقتهم في الوطن، فتتعمق الصداقة بينهم وتقوى، مع تقدمهم بالعمر، ولكنه اكتشف أنها غالباً ما تكون صداقة سطحية؛ إذ إن الصداقة القوية هنا غالباً ما تكون بين شاب وفتاة، أما إذا رأوا شابين بينهما صداقة متينة كالصداقات في الوطن، فإنهم يعتقدون بأنهما لا بد وأن يكونا شاذين جنسياً! هذه هي ثقافتهم، وهذه هي أخلاقياتهم!

"عليهم اللعنة! لقد قبّحوا هنا كل جماليات الحياة؛ وعهّروا كل قوانين الكون، وشوّهوا كل ما يُفرح قلب الإنسان ويسعده!"

*****

كان اليوم يوم عطلة راكان، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ظهراً عندما نهض الشاب من فراشه، وفتح باب غرفته وفي نيته أن يتوجه إلى دورة المياه، عندما رأى امرأة طاعنة في السن جالسة في غرفة الطعام تتناول غداءها ومعطية ظهرها له.

التفتت المرأة خلفها، إذ لا شك أن هدير باب غرفته الثقيل عند فتحه أو إغلاقه قد نبهها إلى وجود إنسان، عندما رأت الفتى ابتسمت وألقت عليه التحية! فابتسم هو بدوره ورد تحيتها بمثلها، وتابع سيره نحو الحمام، ولكن كلام المرأة استوقفه:

- أنا أعرف اسمك، وإن لم نتقابل! أنت راكان، ومن الأردن؛ أنا لويزا لويس؛ لقد أخبرتني السيدة هانكوك عنك كثيراً، وإنها لكثرة ما مدحتك، جعلتني أحبك قبل أن أراك! إنها تريدك كثيراً، وتعتقد أنها لم تؤجّر إنساناً بدماثة خلقك وحسن سيرتك!

على الرغم من أن المرأة كانت تتكلم بصوت واهن ومنخفض جداً وببطء شديد، إلا أنها لم تتوقف لتعطي الفتى فرصة ليقول شيئاً وليعلق على ما تقول.

لا شك أن ثناء السيدة هانكوك العاطر عليه، وإظهار السيدة لويس احترامها ومحبتها له، حتى قبل أن تقابله، أسعد الشاب كثيراً، ورفع من معنوياته المنهارة أصلاً.

- أنا سعيد جداً بالتعرف عليك يا سيدتي، وشكراً لكما، أنتِ والسيدة هانكوك على ثنائكما عليّ، وحسن ظنكما بي! قال الشاب بعد أن توقفت المرأة عن الحديث وأعطته ظهرها.

استغرب راكان عدم تعليق المرأة على ما قال، ولكن عجبه زال عندما التفتت إليه ثانية، وقالت:

- اعذرني يا بني؛ إذ أنني لا أسمع ما تقول، فقد تركت سماعتيْ أذنيّ في غرفتي؛ لا شك أنك ستجهز لنفسك شيئاً تأكله، فسأدخل غرفتي وسأضع سماعتيْ أذنيّ، وسأجلس معك حتى تنتهي من تناول طعامك وأكمل أنا طعامي! قالت هذا ونهضت من على كرسيها بصعوبة كبيرة، فأسرع الفتى ليساعدها في النهوض، ولكنها كانت قد فعلت قبل أن يصل إليها.

دبت المرأة فوق الأرض بحذائها الثقيل، فسُمع له صوتٌ عالٍ، وخيّل للفتى وهي تتحرك وكأنما هي إنسان آلي يمشي! كانت تتحرك بصعوبة وكأنها طفل صغير يتدرب على المشي! لقد كانت المرأة قصيرة القامة، صغيرة الجسم، تعلو وجهها الصغير تجاعيد عميقة وكثيرة، وكان شعرها الأبيض خفيفاً جداً وناصع البياض، وتضع فوق عينيها نظارات سميكة جداً يستطيع الإنسان أن يرى صورته بهما!

مدت المرأة يدها في جيب مريولها الساتان المخطط، وأخرجت منه مفتاحاً فتحت به باب غرفتها ودخلت بعد أن أغلقت الباب خلفها؛ أما راكان فقد توجه إلى دورة المياه وغسل وجهه ومشط شعره ثم توجه إلى المطبخ حيث حمّص بعض الخبز، ووضعها في صحن كبير ،ووضع إلى جانبها كمية من المربى وملأ كأساً من الحليب المثلج، وجلس قبالة السيدة لويس التي ما زالت تتناول طعامها.

لم يقابل الشاب السيدة لويس قبل اليوم، فقد كانت تستيقظ من نومها صباحاً بعد أن يكون هو قد غادر إلى عمله، وتتناول عشاءها مساءً وهو ما يزال في عمله، ثم تلزم غرفتها قبل عودته! ولكنه عرف عنها الشيء الكثير من السيدة هانكوك.

لقد عرف بأنها بعد أقل من شهرين ستبلغ الثالثة والتسعين من عمرها، وأنه صار لها تقطن في هذا النزل، وفي نفس الغرفة، أكثر من عشر سنوات؛ ثم إنها قدمت من ولاية بنسلفانيا، وأن دخلها الوحيد هو راتب التقاعد الذي تتقاضاه من الولاية، كما وأنه لا أهل لها ولا أقارب؛ وأنها وحيدة في هذا العالم!

كما وعرف أيضاً بأن الإنسان الوحيد الذي يتردد عليها هي امرأة من كنيستها الكاثوليكية، تأتي صباح كل يوم أحد وتأخذها لحضور الصلاة، ثم تذهبان بعدها إلى الغداء، ثم تتوقفان في أحدى محلات "السوبرماركت" فتبتاع مؤنتها لطيلة الأسبوع! كما وأنها تأتي مرة في الشهر لتأخذها إلى الصالون لتصفف شعرها ولتقلم أظافرها!

- الآن أستطيع أن أسمعك، إذا رفعت صوتك قليلاً! ماذا كنت تقول؟! قالت بعد أن جلس الفتى قبالتها.

- قلت: وها أنا أخيراً أقابلك، وإنني سعيد جداً بمقابلتك، إذ إن السيدة هانكوك حدثتني كثيراً عنك، وقالت أنك امرأة متميزة ومستنيرة ومثقفة جداً جداً، وشوقتني للتحدث إليك، والتمتع بالحِكَم التي تخرج من فمك! قالها راكان بصوتٍ عالٍ وبحماس ممزوج بالسعادة.

ابتسمت المرأة وأضاء وجهها إذ لا شك أن مديح الفتى لها قد أسعدها، وبعد أن حركت بلسانها الشق الأعلى لطقم أسنانها الاصطناعية قالت:

- شكراً لك يا بنيّ! لقد أفرحت قلبي كثيراً! ثم أضافت:

- لقد صار لي أعرف السيدة هانكوك عشر سنوات ونيّف، ولم أذكر أن إحدانا أغضبت الأخرى في يوم من الأيام، ولا أظن أن إحدانا قد أغضبت إنساناً من النزلاء! لم يكن قد مضى سوى بضعة شهور على شرائهم النزل عندما سكنت هنا، لذلك فقد عاصرت جميع من سكنوا هنا منذ ذلك الحين، قالت بصوتٍ متأنٍ.

- لا شك أنك مسرورة بسكنك هنا، وإلا لما بقيت كل هذه المدة الطويلة! قال الفتى مجاملاً.

- نعم، كثيراً جداً، إنني أحب غرفتي، وأحب النزل وموقعه، إذ إنه قريب من كل شيء؛ إنه قريب من الكنيسة والبقالة ووسط المدينة وموقف الحافلة، وكل ما أحتاج إليه! وبعد أن استراحت قليلاً، أو لعلها انتظرت أن يعلق الفتى على ما قالت، سألت:

- وهل أنت طالب؟!

- ليس في الوقت الحاضر؛ ولكنني سأكون طالباً الفصل الدراسي القادم، إن شاء الله! همس الشاب كلمة ”إن شاء الله“ في سره ونطقها بالعربية.

- يسعدني أن أسمع ذلك! لا شيء يدوم للإنسان ويسعده في هذا العالم إلا العلم، إنه السعادة الحقة! قالت العجوز بحماس ولكن ببطء شديد.

- هذا صحيح! قالها الشباب بصوت عالٍ رافقها بهزة من رأسه.

- هل تحب القراءة؟! سألتْ.

- أحبها كثيراً جداً! القراءة هي غذائي الروحي، تماماً مثلما الطعام غذائي الجسدي! لقد كنت أكمل قراءة رواية كل يومين أو ثلاثة أيام! لقد بدأت المطالعة منذ أن بلغت التاسعة من عمري! كنت أقرأ بنهم؛ أقرأ كل ما أستطيع الحصول عليه! لقد قرأت معظم روائع ما كتبه الروائيون العالميون، طبعاً كان مترجماً إلى العربية! قال الشاب بحماس ملتهب وفرحة طاغية، ثم أضاف:

- لقد قرأت الإلياذة، والأوديسا، وجحيم دانتي، وكذلك جمهورية أفلاطون، قبل أن أبلغ الثامنة عشرة من عمري! لقد كان أخي يشتري بعض الكتب التي أقرأها ويستعير البعض الآخر؛ فقد كان هو يحب الأدب كثيراً فأخذت هذه العادة منه.

- وماذا تقرأ الآن ؟! سألت المرأة وفرحةٌ غامرةٌ تضيء أخاديد خديها ودهاليز وجهها.

- لا شيء! نعم لا شيء! فمنذ وصولي إلى أمريكا قبل حوالي العام، وجميع قراءاتي تافهة لا تستحق الذكر، قصاصات جرائد ومجلات! قال الفتى بنغمة حزينة وبخاطر مسكور، وقبل أن تسأله السبب أضاف:

- إنه بسبب الوضع النفسي المتأزم والمتأرجح؛ فالمجتمع الذي أتيتُ منه مجتمع محافظ جداً بل ومتزمت، والمجتمع الذي قدمتُ إليه مجتمع متحرر جداً إلى درجة الانحلال، وقد فقدتُ هويتي بين تجاذب المجتمعين الراديكاليين! إنني الآن أبحث عن ذاتي، وعندما أجدها، وآمل أن يكون ذلك قريباً، عندها سأستأنف مطالعاتي الأدبية.

- أنا واثقة بأنك ستُوفّق؛ إذ يبدو لي أن لك إرادة قوية، وعندك تصميم شديد! وبعد أن شكرها الشاب أضافت:

- تستطيع أن تعتمد عليّ بتزويدك بالكتب التي تحب قراءتها؛ إذإن عندي بطاقة اشتراك في جميع المكتبات العامة في مدينة باسدينا، وكذلك أنا مشتركة في عدة مجلات أسبوعية وشهرية، ومشتركة أيضاً في جريدة ”لوس أنجلوس تايم“ اليومية.

- إذن؛ أنت تقرئين كثيراً! قال الشاب بفرح وقد غطت وجهه ابتسامة جذلى!

- كثيراً جداً بالنسبة لعمري ولصحتي! أنا لا أقتني تلفازاً ولا مذياعاً؛ وكل وقتي أمضيه بالمطالعة، فقط ساعات النوم، وتناول وجبات الطعام واستراحة القيلولة، هي الأوقات التي أتوقف بها عن المطالعة، ما زلت متواجدة في النزل! إنني أشكر الله على هذه النعمة، نعمة حب المطالعة! إن حياتي ستكون مؤلمة وموحشة جداً جداً لولا هذه الهواية، ولما كنت عشت حتى الآن، خصوصاً وأنا لا أغادر النزل كثيراً! إن المطالعة تمنحني القوة والأمل والسلام أيضاً!

كانت العجوز تتكلم بصوتٍ عالٍ، وبفرحة وحماس شديدين! على الرغم من أن صوتها كان متقطعاً وبطيئاً.

- ما أسعدك! حقاً ما أسعدك! لقد أفرحتني والله كثيراً! قال الفتى صادقاً وبحماس ملتهب! قالها بصوتٍ عالٍ أيضاً.

- إنني على الرغم من تقدم سني، فإنني على اتصال دائم بالعالم! وبعد أن ابتسمت وحركت بلسانها طقم أسنانها الاصطناعية الأعلى والأسفل أيضاً؛ أضافت بلهجة مازحة وهي تبتسم:

- لا تظن أنني جاهلة بأخبار بلادكم! إنني أعرف عنها الشيء الكثير، وخصوصاً ما يجري بينكم وبين جارتكم إسرائيل.

- هل لي أن أسأل ماذا كنت تفعلين قبل أن تتقاعدي؟! سأل الفتى بأدب.

- كنت مدرسة لغة إنجليزية في مدرسة ثانوية كاثوليكية للبنات، في ولاية بنسلفانيا! أنا كاثوليكية، فهل أنت كذلك؟!

- لا، أنا مسلم، وأحترم جميع الأديان، إذ إنها كلها تدعو إلى المحبة والسلام؛ وإن كان هناك من يسيء إليها بتصرفات تشوه جمالها وتحط من عظمتها! قال الفتى بحماس ورافق كلامه إشاراتٌ من يديه.

- صدقت يا بني، لقد درست تاريخ الأديان في الجامعة؛ لقد أخذته كمساق، فوجدتها كما قلت أنت، كلها تدعو إلى المحبة والسلام، ولكن المتزمتين هم الذين يشوهون جمالها. إنهم غالباً ما يكونون جهلة أو أشباه متعلمين!

يظهر أن البيت كان خالياً إلا منهما، إذ قبل أن يعلق الفتى على ما قالت المرأة سُمع صوت سيارة تمر من خلف البيت في طريقها إلى موقف السيارات؛ دخل بعدها بلحظات السيد والسيدة هانكوك، وبعد أن ألقيا عليهما التحية، أعلماهما بأنهما كانا في زيارة ابنتهما في لوس أنجلوس، وأنهما عادا مبكرين قبل أن تزدحم الطرق بالسيارات.

وعندما تطلع راكان إلى ساعته وجد أنها قد تجاوزت الثانية بعد الظهر بدقائق؛ فأطلق لا شعورياً تصفيرة استغراب، إذ تبين له بأنهما هو وجارته صار لهما ما يقارب الساعتين معاً!

- إنني سعيدة جداً أن أرى أنكما أخيراً قد تقابلتما! قالت السيدة هانكوك، وقد توقفت عن السير، وهي تفرد ابتسامة جذلى فوق شفتيها الضامرتين، ثم أضافت:

- أنا واثقة جداً بأن عندكما الكثير الكثير لما تودان قوله لبعض!

"نعم يا سيدتي! إن عندنا الكثير الكثير لنقوله لبعض؛ فكلانا مزّقه الشوق، وكلانا أحرقته الوحدة!" قال راكان مخاطباً نفسه!

- إن السيدة لويس محيط من المعرفة، وبحر زاخر من المحبة؛ وتسعدني معرفتها جداً جداً، ويسعدني أكثر أن تكون صديقةً لي! إنه شرف عظيم! قال الشاب بصوت مرتفع وبعفوية وصدق وحماس!

ابتسمت ابنة الثالثة والتسعين عاماً، وتوردت وجنتاها المتجعدتان، واحمرت أذناها الصفراوان؛ إذ لا شك أن إطراء الشاب لها قد أخجلها وأربكها، إذ حولت عينيها عن عيني راكان وألقت بهما في الصحن الفارغ أمامها! لقد خيل للشاب أن المرأة العجوز تصرفت وكأنها طالبة مدرسة مراهقة، امتدح أحدهما عذوبتها ورقتها وأشاد بمحاسنها وأنوثتها؛ فخفضت من طرفها خجلاً.

- أية أكلة تشتهيها... أنت اشتري لوازمها، وأنا سأطبخها لك، وبكل سرور! قالت السيدة هانكوك مخاطبةً راكان وهي تهم باللحاق بزوجها.

- شكراً لك سيدتي، لقد اعتدت الآن على تناول طعام المعلبات والمتجمدات، ولا أظنني سأستبدله بطعام آخر! قال الفتى ثم استدرك:

- على الأقل في الوقت الحاضر.

- إذا غيرت رأيك فلا تتردد بإعلامي! قالت السيدة هانكوك وهي تلحق بزوجها إلى غرفتهما.

نهضت السيدة لويس ونهض الفتى وقد حمل صحنه وكأسه الفارغين، ثم هرول وسبقها إلى حمل صحونها الفارغة، فلم تمانع، وتوجها كلاهما إلى المطبخ، فغسلت هي ما استعملاه من أدوات الطعام، فنشفها هو ووضعها في أماكنها؛ ثم ودعته وسارت بخطىً متثاقلة تدبّ فوق الأرض كالإنسان الآلي، وتوجهت إلى غرفتها، وأمام بابها وقفت، وأخرجت من جيب مريولها مفتاح غرفتها ففتحتها ودخلت وأغلقته خلفها! وقد سمع الشاب صوت الدرباس يغلق من الداخل.

دخلت إلى عالمها الصغير، العالم الذي تعيش به وحدها؛ تواصل الليل بالنهار في فراشها، تنتظر بشوق قدوم ملاك الموت إليها، لحظة بلحظة، وكأن الموت يسرّه انتظارها فيأبى أن يزورها! دخلت إلى عالمها المحدود، لتدفن نفسها في كتبها ومجلاتها، حتى ينسيها واقعها المزري وحياتها التعيسة!

ودخل راكان أيضاً غرفته، وهو لا يدري إن كان سعيداً أم تعيساً بهذا اللقاء! كان كالمخدر... كالمنوم... كالحالم... يتساءل إن كان هو يعيش حقاً، أم هو في عالم من الخيالات والأوهام، ويتصور نفسه عندما تتقدم به السن، ويعيش كما تعيش السيدة لويس، حياةً كلها فراغ ووحدة وترقب، ثم انتظار قدوم ملاك الموت! وحدوه...! ربٌ يُعبد!

عندما عاوده بعضٌ من هدوئه، جمع كل ما يحتاج إلى غسيل من شراشف ومناشف وغيارات، وحشاها في أحد وجوه المخدات، وحملها على ظهره، وخرج قاصداً المغسلة المتواجدة على ناصية الشارع القريب من النزل، ليمارس أول عملية غسيل لحاجياته في حياته منذ أن ولدته أمه!

*****

عندما جاء راكان إلى النزل، يوم استأجر غرفته، أعلمته السيدة هانكوك وهي تعدد له مناقب الغرفة: "مكالمات هاتفية مجانية لأكثر من عشر مدن محيطة... قريبة من وسط المدينة، ومن جميع الخدمات التي يحتاجها الإنسان، كالمواصلات والبقالات وخدمات البريد وأماكن العبادة والدراسة... هذا بالإضافة إلى أنه يوجد أيضاً غسالة لغسل الملابس، يمكنك استعمالها مجاناً وقتما تشاء... ولكن عيبها الوحيد هو أن موديلها قديم وتتعطل كثيراً، ولكننا عازمان على أن نشتري واحدة جديدة عندما يتحسن الوضع المالي للنزل!"

- وهل عليّ أن أغسل بيدي ما أريد غسله؟! سأل الشاب جاداً، فقد تذكر بأن بعض النساء في وطنه الحبيب ما زلن يغسلن بأيديهن كل ما يحتاج إلى غسيل.

- لا، لا يا بني! لقد كان هذا في الماضي، أما اليوم فلا أحد يغسل بيديه! يوجد غسالات في البيوت وفي الأماكن العامة! قالت المرأة وهي تبتسم، وربما قد استغربت كيف أن هذا الفتى الخام والساذج لا يعرف شيئاً من أمور الدنيا سوى الكتب والأفكار، ثم أضافت:

- إذا صادف وأن كانت غسالة النزل معطلة، واحتجت لاستعمال إحدى الغسالات التجارية، فإن كل ما عليك عمله هو أن تضع الملابس التي تريد غسلها في آلة الغسيل، وتسقط المبلغ المطلوب من النقود حيث يشير السهم، وهو مبلغ زهيد جداً، وتدير المفتاح، وعندما تتوقف الآلة تنقل ما بها إلى آلة أخرى لتجفيفها! وتفعل مع الآلة الثانية ما فعلته بالآلة الأولى! وبعد أن توقفت قليلاً أضافت:

- العملية تستغرق وقتاً قصيراً جداً؛ تستطيع أن تأخذ معك مجلة أو كتاباً لتقتل وقت الانتظار! التعليمات مكتوبة على كل ماكينة، وإن وجدت إشكالاً تستطيع أن تسأل أحد المتواجدين، وأنا واثق جداً أنه سيكون سعيداً لمساعدتك، خصوصاً إذا عرف أنك غريب!

وجد الشاب أن مجمع غسالات الملابس كان خالياً من الزبائن تماماً، فأحس برهبة وبشيء من الخوف، مما أقلقه وثبط من عزيمته؛ إذ كان يأمل أن يجد من يدله على كيفية استعمال إحدى الماكنات! وضع كل ما معه داخل آلة الغسيل وأسقط النقود المطلوبة، ولكنه لم يعرف بعدها ما يفعل على الرغم من محاولاته المتعددة! إذ لم يستطيع أن يفهم ما تقوله التعليمات، فصمم أن ينتظر حتى قدوم أحد الزبائن ليسأله، ولكنه في نفس الوقت أعاد الملابس إلى الكيس وربطها من جديد؛ إذ ربما لايأتي أحد فيعود من حيث أتى!

انتظر ما يقارب العشرين دقيقة فلم يحضر أحد، ففكر أن يعود أدراجه ويأتي في يوم آخر، ولكن فجأة أدركته رحمة السماء، فقد دخلت سيارة إلى مرآب المجمع، ونزلت منها امرأة زنجية لعلها في الثلاثين من عمرها، ونزلت معها فتاتان لا شك أنهما توأمان! استغرب الفتى كيف يستطيع أحد أن يميزهما عن بعض لشدة التشابه بينهما! لعلهما كانتا في السابعة أو الثامنة من عمريهما، ذواتي بشرة حالكة السواد، تضربان بالهواء عالياً بقدميهما كلما سارتا بضع خطوات، ذكّرتا راكان ببغلة شموس كان والده يملكها وهو طفل صغير؛ إذ كانت تضرب رجليها الخلفيتين بالهواء عالياً وتخرج صوتاً مكتوماً كلما مر أحدهم بالقرب منها! وعلى الرغم من نحافة أعلى جسم المرأة وارتفاع قامتها، إلا أنها بدت وكأنها حزمة ضخمة من الملابس السوداء تتحرك ! لقد كانت تدفع أمامها كرشها الضخم المنتفخ، وكأنما تدفع عربة فوقها صناديق من الباذنجان الأسود الكبير إنتاج أراضي غور الوطن الحبيب! لا شك أن المرأة كانت في أيامها الأخيرة من الحمل، ولا شك أيضاً بأنه كان في بطنها توأمان آخران.

حيّا الفتى المرأة بعد أن وضعت ما تحمله من ملابس قرب إحدى ماكنات الغسيل، وأعلمها بأنه لم يستعمل ماكنة غسيل من قبل، وأن تتكرم مشكورة بأن تريه كيفية استعمالها.

طلبت المرأة من الفتى أن يضع ما ينوي غسله في الماكنة، فحمل هو صرته وألقى بها في بطن الآلة، دون أن يفك عقدتها، ثم مد يده في جيبه وأخرج منها حفنة من أرباع الدولارات كان قد حصل عليها في اليوم السابق؛ فردها الفتى أمامها! لا شك أن المرأة اعتقدت، دون أن يكون هناك مجالٌ للشك، بأن الفتى الواقف أمامها هو إنسان معتوه معاق، رغم تأدبه الزائد وكلماته الحلوة، وأن إعاقته تتطلب منها الحزم والشدة؛ فقد صاحت به بغضب وقد قطبت ما بين حاجبيها:

- كيف تستطيع هذه الملابس أن تُغسل وهي مربوطة إلى بعضها؟! وقبل أن تسمع جوابه مدت يديها الاثنتين إلى بطن الماكنة، وأخرجت الصرة وفتحتها على عجل، وألقت بما فيها داخل الماكنة بعد أن فردته، ثم التقطت بعض أرباع الدولارات وأسقطتها في خزق موجود في طرف الماكنة، وقالت:

- والآن ضع مسحوق الصابون!

- وهل لا بد من مسحوق الصابون؟! سأل الفتى وقد أغمض عينيه استغراباً.

- يا إله السماء! ماذا أنت أيها الشاب؟! هل أنت قادم من أدغال أفريقيا؟! ألا تستعملون الصابون في بلادكم؟! قالتها وقد فتحت يديها استغراباً، ثم نظرت إليه نظرة خيل للفتى أنها مزيج من الشفقة والاحتقار! وهنا نفرت دمعتان كبيرتان من عيني راكان أحس الفتى وكأنهما جمرتان مشتعلتان أحرقتا جفنيه لشدة الألم والتأثر!

لا شك أن المرأة لاحظت ما حدث، إذ أنها توقفت فجأة عن الكلام، ثم دست يدها في صندوق من الكرتون كان معها أخرجت منه حفنة من مسحوق الصابون نثرته فوق غسيل الفتى، ثم ضغطت على زر فانطلقت الماكنة.

لاحظ الفتى أن المرأة قد وزعت ما أحضرته معها من ملابس على ثلاث ماكنات، وأنها كانت تضع الألوان المتشابهة مع بعضها البعض! تساءل أول الأمر عن عدم تطبيق هذه القاعدة على ما أحضر، ولكنه عزى ذلك، بعد تفكير وتحليل، إلى ضخامة ما معها وضآلة ما معه!

نقلت المرأة ما للفتى إلى النشافة، ثم نقلت بعدها ما لها هي، وهنا لاحظ مرة أخرى أنها صارت توزعها حسب مواصفات لم يستطع هو إدراكها، فقد كانت تضع أحياناً أحجاماً غير متناسقة مع ألوان مختلفة.

فتح راكان الكيس ليضع به غسيله، ولكن المرأة طلبت إليه أن يتمهل فقد طلبت إلى إحدى الفتاتين أن تحضر إحدى العربات المتواجدة عند المدخل، ثم أفرغت بها كل ما في النشافة وتوجهت حيث طاولة كبيرة، وبمساعدة الصغيرتين رتبت له ما أحضر حسب استعمالاته.

منذ أن وضعت السيدة آرلنقتون غسيل راكان في الغسالة إلى أن ودعها، وأسئلتها تنهال عليه كوابل من المطر؛ فقد سألته عن اسمه، وعن البلد التي أتى منها، وأين يسكن الآن، وأين كان يسكن في السابق، ولماذا رحل من بيت كفيلته، ولماذا لم تأخذه السيدة جوليبت معها إلى ولاية يوتا، وهل ما زالت تملك أموالاً وعقارات ضخمة، وماذا ينوي أن يفعل، وهل في نيته العيش دائماً هنا، أم سيعود إلى بلاده بعد أن ينهي دراسته!

كان الفتى يجيب على أسئلتها وبالتفصيل، بل وأكثر مما تسأل؛ إذ أسعده أن يجد من يهتم به ويسأله عن حياته! لقد تبرع فأعلمها حتى عن طموحاته، بأنه يأمل أن يكون في يوم ما روائياً عظيماً، يشار إليه بالبنان، مما جعل المرأة تضحك بملء فمها.

لقد تساءل الفتى في سره، إن كان سبب ضحكها هو سخرية منه ومن أحلامه وطموحاته الساذجة، أو من غبائه وتخلفه العقلي والحضاري!

لقد أعلمته أيضاً بأنها تأتي عادةً إلى هنا لاستعمال الغسالات كل أسبوع وفي مثل هذا الوقت تقريباً، وأضافت بأنه يسرها أن تساعده في غسل ما يحضر. كما أعلمته بأن زوجها يشتغل كموزع بريد نهاراً ويذهب إلى الكلية مساءً، إذ إنه يريد أن يكون أستاذ تاريخ، لأنه يحبه كثيراً.

شكر راكان الأم وابنتيها على صنيعهم، وحاول أن يعطي الصغيرتين بعض القطع الفضية فاعتذرتا شاكرتين.

- أنت ضيف في بلادنا، ونتمنى لك طيب الإقامة! قالت الأم للشاب وهي تمنحه ابتسامة كبيرة.

إن الفتى يقسم بخالق السموات والأرضين، بأن دموعه لم تنقطع عن النزول منذ أن ودع المرأة وابنتيها، ولمدة طويلة، حتى بعد أن فتح باب غرفته وألقى بنفسه وبما يحمل فوق الفراش. لقد شعر بمسحة صوفية تلامس قلبه وتعانق روحه، وأنه يسبح مع الأثير في سموات الله العلى!

*****

عندما نهض راكان من على فراشه كان في نيته أن يجهز طعامه، بعد أن توقفت الحركة في المطبخ، وبعد أن خيّم الهدوء على النزل، لاحظ أن رسالة ملقاة على الأرض تحت الباب، قرأ عنوان الرسالة فوجد أنها معنونةٌ له! لو أنه كان على الرسالة طوابع بريدية لاعتقد أنها مرسلة من الوطن الحبيب؛ فقد كان عليها اسمه وكذلك رقم الشارع ورقم الغرفة، واسم مدينة باسدينا في ولاية كاليفورنيا والرقم البريدي في الولايات المتحدة الأمريكية!

فضّ الفتى غلاف الرسالة وقرأ:

"عزيزي راكان! كانت لحظات ممتعة جداً جداً تلك التي قضيناها بعد ظهر هذا اليوم، نتحدث في شؤون شتى! إنك لا تستطيع أن تتصور فرحتي بل وسعادتي وكل منا يحدث الآخر عن نفسه وعن أحلامه وطموحاته المستقبلية! إنني لا أذكر عدد السنين التي مضت دون أن أتحدث إلى أحد، اللهم إلا في الشؤون اليومية الروتينية! لا أدري، لعلها عشرون أو ثلاثون عاماً، وربما أكثر! إن الشخص الوحيد الذي أتحدث إليه خارج النزل هو صديقة لي تأتي لزيارتي كل يوم أحد؛ فتأخذني بسيارتها فنحضر صلاة الأحد سوية، ثم نذهب بعدها فنتناول طعام الغداء، وفي طريق عودتنا تساعدني في شراء حاجيات الطعام.

إن الشخصين الوحيدين اللذين أتحدث معهما في النزل هما السيد والسيدة هانكوك. وحديثنا غالباً ما يكون قصيراً وحديث مجاملات! فهو عن الصحة وأحوال البيت والطقس! أما بقية النزلاء فلا نتحدث أكثر من إلقاء تحية الصباح أو المساء.

إنني أتطلع بشوق ومحبة إلى جلسات أخرى، آملة أن تكون في القريب العاجل، كما وأرجو مخلصة، أن لا تتردد بالحضور إلى غرفتي كلما كان عندك وقتٌ تحب به أن تتحدث إلى إنسان، أو كلما شعرت بالوحدة أو الغربة! وبالختام تقبل تحياتي... المخلصة: لويزا لويس..."

رمى الفتى المحزون بنفسه على المقعد الطويل وراح في تفكير عميق! لقد بدأت معاناته من الوحدة والشعور بالضياع قبل فترة قصيرة، وبالتحديد منذ رحيل السيدة جولييت إلى ولاية يوتا! فقد ظن أنها ستتوقف قريباً، بعد أن يلحق بها ويسكن معها في بيتها شهراً أو شهرين على أبعد تقدير، ولن يعود يشعر بالوحدة بعد ذلك اليوم! أما السيدة لويس فلا أحد يشعر بمعاناتها وبوحدتها إلا خالق الأكوان! من يدري، لعلها قضت معظم حياتها وحيدة وستمضي ما تبقى منها وحيدة أيضاً! إنها تعيش في غرفة مغلقة الأبواب والنوافذ، وتقاسي من وحدة مستمرة، مخيفة وقاتلة، تنتظر الموت وتتوقعه في كل لحظة! أما أنت فما زلت في ريعان شبابك وميوعة صباك، وأمامك حياة، إن شاء الله، مديدة وسعيدة، ولن تطول وحدتك؛ شهران على أكثر تقدير هكذا حدّث الفتى نفسه.

هدأت الحركة بالنزل وخيم عليه صمت عميق، وبدأ المطبخ وغرفة الطعام والغرفة الأمامية جميعها تسبح في ظلام دامس! لقد انتهى النزلاء من تناول وجبة العشاء فأوى بعضهم إلى غرفهم وغادر البعض الآخر إلى الخارج لأسباب مختلفة.

دخل راكان المطبخ وفتح بعض المعلبات والتهم محتوياتها على عجل، بعد أن سخنها، ومن ثم توجه نحو غرفة السيدة لويس ونقر على الباب نقراً خفيفاً، وانتظر قليلاً ولم يسمع صوتاً ولا حركة، ثم نقر مرة أخرى ولكن هذه المرة أشد، فسمع صوتاً يطلب إليه التمهل. لقد وصل إليه صوتُها ضعيفاً منهكاً، وكأنما هو آتٍ من أعماق القبور! سمع صليل السرير فعرف أن المرأة تنهض من على سريرها، ثم سمع خطوات تدب على أرض الغرفة، ثم صوت المفتاح يُدار من الداخل.

- أهذا أنت يا راكان؟! ما أسعدني برؤيتك يا بنيّ! لقد كنت أرجو أن تحضر، أرجوك تفضل! كم أنا سعيدة بزيارتك! صاحت العجوز فرحة بعد أن تبينت من الطارق.

شعر الفتى وكأنما ابنة الثالثة والتسعين عاماً قد انفلت صوتها فتقمص طاقة ابنة عشرين ربيعاً!

- كان لطيفاً منكِ أن تدعيني، فشكراً جزيلاً لكِ! قال الفتى وهو يدلف إلى داخل الغرفة وابتسامة كبيرة تضيء وجهه.

قابلت راكان رائحة نتنة تأتي من داخل الغرفة... رائحة أزعجته كثيراً؛ إذ شعر بأنه يكاد يختنق... لا شك أنها رائحة الهواء الفاسد ممزوجة بحرارة الجو.

- هل لنا أن نترك الباب نصف مفتوحٍ حتى يتجدد الهواء؟! سأل الشاب بأدب مبالغ به، والمرأة تهم بإغلاقه خلفه.

- طبعاً يا عزيزي، طبعاً... وبكل سرور. أجابت المرأة بكرم ورحابة صدر.

- وهل أستطيع أن أفتح كوة صغيرة من النافذة لعدة دقائق؟!

- بكل تأكيد! قالت المضيفة وقد نظرت نحو النافذة الواقعة في الجنوب.

سار راكان متحسساً طريقه على ضوء الغرفة الخافت، متجنباً أن يدوس على أكداس الكتب والمجلات التي تغطي معظم أرض الغرفة، وفتح كوة في النافذة، فدخل منها هواءٌ نقيٌّ طرد ما كان يملأ رئتيه من هواء فاسد.

عندما عاد الفتى، كانت المرأة قد وضعت السماعة فوق أذنيها، ودست نفسها في الفراش وأسندت ظهرها إلى الحائط، ثم أشارت إليه أن يجلس على كرسي قبالتها.

- آه! تلك صورة جميلة، أهي لابنتك؟ ! سأل الشاب وقد رأى صورة فتاة ذهبية الشعر، مملوءة الجسم، تفيض نضارة وحيوية، وفوق شفتيها ابتسامة خلابة أدخلت الفرح إلى قلب الشاب، موضوعة في إطار خشبي فوق طاولة صغيرة مثبتة إلى يمين سرير العجوز، بجانب المصباح.

- أنا لا بنت لي، إنها صورتي! أجابت المرأة بصوت ممزوج بالزهو والمرارة معاً.

- أحقاً ما تقولين؟! قال ذلك باندهاش ممزوج بالذهول! ثم بدأ يحملق بالصورة من جديد.

أدرك الفتى أنه كان غير مؤدب في سؤاله، فاستدرك:

- أعني... أعني... إنك جميلة جداً جداً في الصورة... أجمل من الموناليزا نفسها! قال الفتى صادقاً وبحماس.

- أشكرك، إنني سعيدة أن أعرف ذلك! قالت المرأة وقد علت وجهها إشراقة فرح.

- نعم، إنك جميلة جداً! قال الفتى وقد سرت في قلبه وروحه موجةٌ من الفرح الشديد برؤية جمال متميز.

- أُخذت لي هذه الصورة قبل حوالي سبعين عاماً، وكنت وقتها طالبة في جامعة بنسلفانيا. قالت العجوز بحسرة رافقتها بتنهيدة حارة؛ إذ لا شك أنها تتحسر على تلك الأيام الزاهرة.

- لقد أتيت إلى كاليفورنيا قبل حوالي ثلاثة وعشرين عاماً، عندما نصحني الأطباء بأن أعيش في منطقة دافئة المناخ؛ فاخترت كاليفورنيا، ومنذ ذلك اليوم لم أغادرها. ولما لم يقل الفتى شيئاً أضافت:

- إن ولاية بنسلفانيا باردة جداً في فصل الشتاء، لقد أحببتها جداً، عندما كان لي الجَلَد على مقاومة البرد؛ إذ إنني أحب أن أعيش في بلد به أمطار وثلوج، ثم شمس وربيع! بلد به أربعة فصول، وليس كمنطقتنا هنا، بها فصل واحد، فصل دخان المصانع والسيارات!

كانت المرأة تثرثر... تشرّق وتغرّب... تتحدث في كل شيء وفي لا شيء، وكان الفتى يحدق بها وبالصورة معاً فيخيل للناظر إليه وكأنه يستمع لكل نأمة تخرج من فمها... وإن كان في الحقيقة لم يعِ شيئاً مما قالت، اللهم إلّا كلمة هنا وكلمة هناك لا رابط بينهما!!

كان غارقاً في تفكير عميق، إذ كان ينقل طرفه بين الصورة الموضوعة على الطاولة، وصاحبتها التي تفيض جمالاً وجاذبية وسحراً؛ وتلك الصورة المملوءة قوةً وعافيةً وشباباً وحيويةً؛ والتي خدرت مشاعره وأسكرت روحه وهيّجت عواطفه؛ وبين تلك الكومة المهدمة من العظام والشرايين الراقدة أمامه في الفراش! رحمتك وغفرانك يا إله الكون وعفوك!

من ذا الذي يصدق أن هذا الشبح الراقد في الفراش والذي هو عبارة عن كومة من لا شيء، وليس بها ما يدل على أنها بشر، سوى هذا النفس الصاعد الهابط؛ وعلى صاحبة تلك الصورة التي تسحر الناظر إليها، بعينيها

الساحرتين، وشفتيها المغريتين، وصدرها النافر الناهد، وجسمها الدافق بالسحر والأنوثة...!! فسبحان الذي أخرج الميت من الحي، وأخرج الحي من الميت! سبحانه...! سبحانه...! سبحانه...! حقاً إنه رب يُعبد!!

وكأنما المرأة أدركت ما كان يجول بخاطر الفتى فقالت:

- نعم، إنه لمن الصعب التصديق بأن صاحبة تلك الصورة التي تفيض حيوية، هي أنا التي عبارة عن كومة من العظام والجلد! إنني لا أتوقف عن النظر إليها في كل يوم، بل في كل ساعة، فأتذكر تلك السنوات الباهرة، فتمنحني بعضاً من السعادة والرضا وشيئاً من القوة.

توقفت العجوز عن الكلام، وفكر الشاب أن يقول شيئاً ليطيب به خاطرها، ولكنه شعر بتفاهة وضحالة ما سيقوله؛ إذ إنه ما زال غرّاً لا يعرف من أمور الدنيا شيئاً.

استرسلت المرأة تقول وبنغمة حزينة:

- ما أجمل الذكريات؟! إنها هي التي تساعدني على الاستمرار بالعيش، إذ لولاها لفقدت عقلي منذ سنوات طويلة! إنها ضرورية لنا لنستمر بالحياة، وخصوصاً عندما يتقدم بنا العمر! إننا كالناقة التي تخرج أكلها من داخل جوفها وتظل تجتّر به، فنستعيد ذكرياتنا الماضية.

لاحظ الفتى أن المرأة قد استرسلت مع ذكرياتها فذهبت بعيداً فخشي أن تجلب لها زيارته آلاماً فوق آلامها، وتضاعف من شعورها بالوحدة والإحباط، فسأل:

- إذن أنت لم تتلقي تعليمك في كاليفورنيا؟!

- لا يا بنيّ! لقد تلقيت تعليمي في ولاية بنسلفانيا؛ دراستي الثانوية والجامعية. لقد درّست تسعةً وثلاثين عاماً في مدارس كاثوليكية مختلفة للبنات. أنا كاثوليكية الديانة.

لاحظ راكان أن صورة أخرى كانت موضوعة إلى جانب الصورة الأولى، وأن الصورتين كانتا تتألقان إلى جانب ضوء المصباح الخافت، وكان يراهما بوضوح كامل.

كانت ملامح الصورة الثانية تشبه الأولى ولكن كان وجه صاحبتها شاحباً حزيناً، فاقد التوهج والحيوية، كما كان جسمها ناحلاً ومتهدماً، وكانت عيونها ذابلة وأجفانها مقرحة، ويبدو للناظر جلياً أن صاحبتها مثقلةٌ بالهموم والأحزان، ولم تكن سعيدة، على الرغم من أنها كانت ترتدي بدلة الزفاف، وعلى رأسها إكليل من الزهور، ويقف إلى جانبها عريسها، الذي كانت الابتسامة تضيء وجهه والفرحة تشع من عينيه؛ يرتدي بذلة سوداء وقميصاً أبيض وربطة عنق قصيرة سوداءأيضاً.

لا شك أن المرأة قد لاحظت تأمل الفتى العميق والمتأني في الصورتين، ولا شك أنها لاحظت ذهوله واستغرابه من الفرق بين الصورتين، فقالت:

- هل تصدق أن الفرق الزمني بين الصورتين هو أربع سنوات فقط؟!

- فقط أربع سنوات؟! لقد كنت أظنها عشرين عاماً بل أكثر، قال الفتى صادقاً، وعاد يحدق بالصورتين من جديد ويقارن بينهما.

- نعم، أربع سنوات فقط! أُخذت الأولى في الشهر الأول لدخولي الجامعة، وأُخذت الثانية بعد تخرجي منها ببضعة شهور.

- لا شك أنك كنت مريضة جداً عندما أخذت لك الصورة الثانية!

- كلا، إنني لم أكن مريضة، ولكنني كنت غير سعيدة! قالتها بألم صارخ رغم وهن صوتها.

شعر الفتى بأن المرأة تقاسي ألماً عنيفاً من ذكريات دامية؛ فلام نفسه على أسئلته التي لا شك أنها أنكأت جراحها، وتساءل كيف لا تكون فتاة سعيدة يوم زفافها؟!

- وهل حضر معك زوجك إلى كاليفورنيا؟ ! كان الفتى يريد أن يبتعد عن مكان ذكرياتها، إذ شعر بأن في حياة المرأة شيئاً غير مسرٍّ.

- لا يا بني، لقد تزوجته وكنت في التاسعة والعشرين من عمري، وتوفي بعد زواج دام اثنين وثلاثين عاماً، فقط قبل عامين من حضوري إلى كاليفورنيا.

لم يقل الفتى شيئاً، وبقي محدقاً بها، فاستطردت:

- كنت عازمة على أن لا أتزوج في حياتي، ولكن أصدقائي ومعارفي أقنعوني بخطأ رأيي. لقد كان زوجي رجلاً مؤدباً جداً وكريماً وذا أخلاق حميدة، فلم يبخل عليّ بشيء! كان يسهر على راحتي وتهمه سعادتي كثيراً، وفي نفس الوقت يحترم مشاعري.

لاحظ الفتى أنها لم تذكر كلمة أقاربها عندما ذكرت الذين أقنعوها بخطأ رأيها!

نظرت إلى ضيفها من خلف نظارتها السميكة بعينين غائرتين، واللتين تبدوان وكأنهما جحران بصخرة، ولعلها كانت تنتظر منه أن يسألها السبب، ولكن الفتى لم يفعل، إذ أدرك بغريزته المتيقظة بأنه لا شك في حياة المرأة مأساة، فأراد أن يفوت عليها فرصة التكلم بأن يعفيها من نبش ذكرياتها الحزينة، فسأل:

- أليس لك أقارب في كاليفورنيا؟!

هزت المرأة رأسها علامة النفي، ثم قالت:

- إنني وحيدة والديّ، وليس لي أقارب سوى عمة توفيت قبل زواجي ببضعة شهور.

ومرة أخرى، لام الفتى نفسه، إذ كلما فكر أن يبتعد بها عن إثارة جروحها كلما قربها منها، فقال بغضب وكأنما يصفح نفسه ندماً:

- أعتقد أن غرفتك خيرٌ من بقية غرف النزل، إذ إنك قريبة من المطبخ وكذلك غرفة الطعام؛ ثم إنك لا تحتاجين إلى الخروج منها لتذهبي إلى الحمام، فالباب الجانبي يوصلك إليه.

- إنني أحبها! قالت العجوز بغير حماس.

كانت غرفتها بحجم غرفة راكان، وإن كانت تبدو أصغر منها كثيراً، إذ إن المكان الذي يستطيع أن يتحرك به الإنسان ضيق جداً. فلقد كانت الطريقة التي رتبت بها محتوياتها تجعلها تبدو للعين أصغر بكثير من حجمها الطبيعي! لقد كان السرير من الموديلات القديمة وكان لضخامته يتسع لأربعة أشخاص، وقد احتل مساحة نصف الغرفة! كان إلى جانبه من القسم الآخر طاولة متوسطة الحجم وضع عليها المصباح والصورتان الكبيرتان، وبعض الصور من الحجم الصغير لأناس من الجنسين، عند قدمي السرير وملاصقاً به كان يوجد صندوق من الحجم الكبير مقفلاً بقفل ضخم! لا شك أن به بعض المحتويات النفيسة، وفوقه وضعت عدة رزم من المجلات الأسبوعية والشهرية، بلغ ارتفاع كل رزمة منها ما يزيد على الثلاثة أقدام!

كان هناك عدة أماكن في الغرفة بها أكداس من الكتب القديمة الصفراء، مغطاة بطبقة سميكة من الغبار، كما كانت هناك خزانة للملابس ذات حجم متوسط، وإلى جانبها بعض الصناديق موضوعة فوق بعضها البعض، وجميعها بها أقفال كبيرة ومقفلة؛ وكان بين السرير والباب المؤدي إلى غرفة الحمام، كانت هناك طاولة عليها بعض الصور وصناديق صغيرة وكذلك بطاقات معايدة! كانت الغرفة تبدو كمخزون غير منظّم !

تذكر الفتى بأنها قالت له هذا الصباح بأنها تحب القراءة، وأنها تمضي كل وقتها بالقراءة. كما وتذكر أيضاً بأنه قال لها هو أيضاً بأنه يحب القراءة كثيراً، ومع ذلك سألها:

- إن غرفتك مملوءة بالكتب! لا شك أنك قرأت كثيراً وتحبين القراءة! قال الفتى وابتسامةٌ كبيرةٌ تغطي شفتيه، وفرحةٌ كبيرةٌ تضيء جنبات وجهه.

- نعم، كثيراً جداً! قالت المرأة وقد هزت رأسها عدة مرات، هزة رافقتها بابتسامة ظهرت من خلفها أسنانها الاصطناعية، ثم سألت:

- ألا تحب أنت الكتب؟ ! لقد ذكرت لي هذا الصباح بأنك تفعل!

- كثيراً جداً، قال الفتى بحماس وهو يحملق في إحدى كومات الكتب، التي وصلت أعلاها حتى غطى نصف فتحة الشباك.

- يسعدني ذلك، إنني أفرح كثيراً عندما أجد أن الذين أريدهم يحبون الكتب! وبعد أن تمهلت قليلاً أضافت:

- نعم، إنني أحب الكتب كثيراً، إنني أشعر بالهدوء والسلام وأنا أرى أكداس الكتب تحيط بي؛ وعندما أكون وحيدة أشعر وكأنما أبطالها أناس حقيقيون، وأنني أتحدث إليهم ويتحدثون إلي، أناقشهم ويناقشونني، وأستمتع بحديثهم؛ فأشعر بسعادة وغبطة عظيمتين! إنهم أحبائي المخلصون الذين قطعوا معي دروب الحياة، وساعدوني على اجتياز مسالكها والتغلب على وعورتها! كانت دائماً الرفيق الوفي الذي لا يخدع، والحبيب الذي لا يخون! كنت أجدها دائماً وكلما أطلبها !

ثم انتقلا بعد ذلك إلى الحديث عن مؤلفي هذه الكتب ومضامينها، ولشدة دهشة الفتى أنه وجد أنهما يلتقيان بالإعجاب في عدد كبير من الروائيين العالميين، وإن تأكد للشاب أنه يعرف القليل القليل عن روائيي العالم المشهورين وخصوصاً الأمريكيين، مقارنةً بما تعرف هذه المرأة التي هي عبارة عن كومة من العظام.

وقبيل انصرافه بقليل سألته عن عائلته؛ فحدثها عن والدته وإخوانه وأخواته.

*****

توطدت عرى الصداقة بين المرأة العجوز والفتى الشاب حتى تحولت إلى حب روحي عنيف! لقد كان حباً عارماً ألّف بين قلبين حزينين حرّقهما الهجر، ومزقتهما الوحدة، وجمع بين روحين تائهتين معذبتين، قد صقلتهما الغربة والاغتراب، وأذلهما الضياع والمعاناة!

نادراً ما يعود الفتى إلى غرفته من عمله مساءً ولا يجد رسالة من السيدة لويس موضوعة خلف الباب أو مدسوسة تحته! كان بعضها رسائل ساذجة تتحدث بها عما فعلته في ذلك اليوم، حيث حضرت صديقتها وأخذتها إلى البقالة، وعن ما تناولتاه في وجبة الغداء، وبعضها يتحدث عن ما جرى من حديث روتيني بينها وبين السيد والسيدة هانكوك؛ أما بعضها فكان حديثاً يدل على أن صاحبته قد فارقها عقلها تماماً، إذ تتحدث عن أفعال ستحدث قريباً وستهز العالم!

قالت له في إحدى الليالي وقد سألها راكان إن كانت سمعت الخبر الذي سمعه هو؛ وهو أن الرئيس سيزور كاليفورنيا الأسبوع القادم:

- إن السيد هانكوك هو زعيم الحزب الشيوعي في أمريكا، وقد اتفق مع زعيمي الحزب النازي والحزب الفاشستي، والذي يخبئهم في الغرفة الموجودة في الدور الثالث في النزل، تلك الغرفة التي يقطنها شاب إيطالي، على أن يقوموا ثلاثتهم بانقلاب عسكري ضد النظام الأمريكي الديمقراطي وضد البيت الأبيض! إنهم يجتمعون كل ليلة بعد أن ينام النزلاء، وقد رأيتهم بعينيّ وسمعتهم بأذنيّ، وأن الأموال التي يمولون بها حملتهم العسكرية هذه هي ثمن الحلي والذهب والجواهر، وكذلك النقود التي سرقوها من غرفتي عندما كنت أنا وصديقتي في الكنيسة يوم الأحد من الشهر الماضي! قالت ذلك ثم أضافت:

- كان عندي صندوق كبير مملوء بالحلي والمجوهرات والنقود، أعطاني إياها زوجي قبل وفاته بأيام، وأعلمني بأن أخبئها إلى السنوات العجاف! كنت أريد أن أعطيها لك إذ إنك أنت الشخص الوحيد الذي أحببته بعد فقداني لأحبائي؛ ولكن الأوغاد سرقوها!

نفرت دمعتان حارتان من عيني راكان، وتمنى بحرقة ووله ، لو أنه يستطيع أن يبكي ، ولمدة طويلة !

- إذا نجحوا في انقلابهم فإن السيد هانكوك يريد أن ينصب نفسه رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، وستكون زوجته السيدة الأولى في أمريكا! تصوّر!

وبعد أن هزت رأسها تألماً وحسرةً وقلبت شفتيها عجباً واستغراباً، أضافت:

- تصور السيدة ميردث هانكوك، المرأة البسيطة الساذجة، تصبح بين يوم وليلة زوجة رئيس جمهورية أمريكا ، والسيدة الأولى ومحط أنظار العالم! وكيف تستطيع أن تتصرف في البيت الأبيض، وكيف ستقابل علية القوم، وكيف ستجيب على أسئلة الصحفيين الدهاة! ولما لم يعلق الشاب أضافت:

- إن ثقافتها بدائية جداً جداً!

- اطمئني لن يحدث ذلك! قالها الشاب بحماس مصطنع!

- آمل ذلك! قالت بغير حماس وكأنما قطعت الرجاء من فشلهم، وعندها القناعة بنجاحهم.

من الغريب العجيب أن راكان عاد من عمله إلى النزل في أحد الأيام ساعة الغداء، لإحضار حاجة كان قد نسيها في الصباح، وعندما فتح الباب الخارجي رأى ذلك الشاب الإيطالي الذي يسكن الغرفة في الدور الثالث، يخرج من غرفة السيدة لويس ويغلق بابها بمفتاح كان في يده، وعندما قابل راكان في منتصف القاعة، حول نظره إلى الجهة الثانية، وتسلق السلم على عجل.

لا شك أنه تفاجأ بدخول راكان النزل، حيث إن جميع النزلاء بما فيهم السيدة لويس والسيد والسيدة هانكوك كانوا جميعاً في الخارج، وكان النزل خالياً إلا منه.

لم يُعلِم راكان أحداً بما رأى، ولكنه علم من السيدة هانكوك مساء اليوم الثاني بأن نزيل غرفة الدور الثالث قد رحل فجأة دون حتى أن يعطي إشعاراً، ودون أن يُعلِم أحداً برحيله ولا سبب الرحيل، ولا حتى إلى أين رحل؟!

*****

كانت السيدة لويس تقطع من الجريدة كل ما تجده مكتوباً عن العالم العربي وتركيا وإيران، ثم تضعه في مغلف مع رسالة قصيرة، فيها بعض التعليقات على ما حدث في النزل ذلك اليوم، حتى تساءل الفتى إن كانت صديقته تظن أن تركيا وإيران هما بلدان عربيان؟!

على الرغم من غرابة وسذاجة ما تذكر برسائلها، إلا أنها كانت تعطي راكان قدراً كبيراً من الراحة النفسية والانتعاش الروحي، إذ إنه ما يكاد يدخل غرفته بعد عودته من عمله مساءً، حتى يحمل ما يجده تحت الباب، ويجلس على مقعده الطويل المريح فيقرأ ما قصته من الجرائد وما كتبته له! في هذه الأثناء يكون المطبخ وغرفة الطعام خاليتين من النزلاء، فيدخل هو ليجهز عشاءه، وسرعان ما تخرج السيدة لويس لتفعل نفس الشيء!

لقد لاحظ الفتى أنه ومنذ أن تعرف على السيدة لويس فإنها قد أخرت موعد تناول عشائها حتى يلائم موعد عشائه، فقد أسعده هذا كثيراً، وخفف من شعوره بالوحدة والغربة أيضاً.

كانا يتزاوران وهما يتناولان طعامهما، وأحياناً يدخلا غرفتها بعد الانتهاء من غسل الأطباق، فتجلس هي في فراشها مسندة ظهرها إلى الحائط، بينما يجلس هو قبالتها يتحدثان لفترات ليست بالقصيرة، في مختلف المواضيع.

كان الشخص الوحيد من بين جميع سكان النزل المعصوم من كل خطأ، والمنزه عن كل رذيلة في نظر المرأة ذات الثالثة والتسعين خريفاً، هو راكان... كانت تتهم كل فرد منهم بتهمة قد تكبر وقد تصغر، حسب درجة كراهيتها لذلك الشخص.

كانت تهمة السيد والسيدة هانكوك هو أنهما يستعملان حيزاً كبيراً في الثلاجة، مما يضطرها لأن تضع حاجياتها بعضها فوق بعض، أما شكايتها من السيد والسيدة أندرسون؛ هو أن الزوج يأتي حاملاً جريدته ويجلس في غرفة الطعام، ويمضي طيلة وقت تواجد زوجته في المطبخ تهيء الطعام، ولا يساعدها حتى في غسل الصحون؛ أما مأخذها على فرانك والآنسة مكنمارا، فهي أنهما لا يجففان الصحون وما يستعملانه من أدوات المطبخ، ويعيدانها إلى أماكنها وهي مبتلة.

لقد تجذر حب روحي عميق وقوي بين المرأة العجوز والشاب الغريب؛ فقد ربطت الوحدة الممزقة، والشعور بالغربة والضياع، ثم احترام شعور ورغبات الواحد للآخر، وكذلك حبهما للفكر والأدب، بالإضافة إلى أن الفتى كان يستمع لهمومها ومشاكلها، كما كان يبثها همومه ومشاكله؛ جميع هذه العوامل مجتمعة ربطت بين روحيهما وقلبيهما !

كانت تسر كثيراً عند رؤيته، حتى كان يلاحظ وكأنما احمراراً يعلو وجنتيها! كانت تنزعج عندما يتأخر في عودته، وتقلق عندما ترى ضوءه مشتعلاً إلى ساعة متأخرة من الليل، وكانت ترجوه دائماً أن يعتني بصحته وتطلب إليه أن يترفق بعينيه من الدرس الطويل!

كانت الملاحظات التي تكتبها له والتي تعلمه بها عما فعلت في ذلك اليوم أو عما حدث في النزل، وتدسها له تحت الباب تجعله يبتسم عند قراءتها؛ فيشعر بالغبطة والفرحة وبالاعتزاز والفخر بصداقتها له واهتمامها به، كما وتؤكد له بأن هناك من يفكر به ويحزن لحزنه في بلاد الغربة! ولطالما شكر الله الذي أرسل له هذه المرأة العظيمة، ذات القلب الكبير، والعواطف الزاخرة لتمنحه حبها وعطفها وحنانها! حقاً ، ان الخالق لن ينسى أحداً من عباده !

كانت الأستاذة التي فتت الدهر قوتها، وألقى بها في قمامات النسيان، وهذا الشاب الذي تمزقه الوحدة، وتسحق عظامه الغربة، يتبادلان بطاقات التهنئة والهدايا بمناسبة وغير مناسبة؛ ولقد وجد الفتى مرة تحت باب غرفته، يوم عيد الحب، بطاقة جميلة كتبت عليها أبيات من الشعر العاطفي، المثير للذكريات، المؤجج للوجدان، أرسلتها حبيبة إلى معشوقها! وفي أسفل البطاقة عبارة مكتوبة بخط يد مرتجفة، تقول "أنت فلنتايني!" لويزا.

لقد كانت كثيراً ما تسأله أن يأتي إلى غرفتها، وبعد أن تجلس في فراشها مضطجعة إلى الخلف ومسندة ظهرها إلى الحائط، ويجلس هو قبالتها، مستمعاً إلى ملاحظاتها وتعليقاتها، محدثةً إياه عن أيام شبابها، وعن أهلها وأصدقائها، وكيف أنهم الآن قد رحلوا للقاء خالقهم، وأنها في شوق عظيم إلى اللحاق بهم! كان الفتى يقضي معظم الوقت مستمعاً، ومكتفياً بهزة من رأسه علامة الموافقة، وأنه معها فيما تقول.

لطالما شكى إليها هو أيضاً من قساوة الحياة هنا في أمريكا، وكيف أنها خيبت ظنه ودمرت أحلامه، فكانت دائماً تحثه على الصبر، وتشجعه على المثابرة وعدم اليأس والقنوط، فكان يشعر براحة نفسية عظيمة!

*****

كانت الرسائل بين السيدة جولييت وراكان لا تنقطع، وكانت في كل رسالة تحدثه عن شوقها العظيم إليه، ووحدتها الشديدة بعد أن فارقته. وكانت في كل مرة تؤكد له أن المساعي تبذل بهمة وإصرار لإيجاد عمل له! لقد ذكرت له أن توولا مدينة صغيرة وفرص العمل بها قليلة، وأن الكثير من سكانها يعملون في عاصمة الولاية نهاراً، ويعودون إلى بيوتهم في توولا ليلاً.

لقد حدثها راكان طويلاً عن صداقته للسيدة لويس، حدثها عن اجتماعاتهما الليلية، وعن تناولهما كثيراً من وجبات الطعام سوية، وعن قصاصات الورق التي تزوده بها من الجريدة، وكذلك الرسائل التي تكتبها له؛ ولكنه لم يحدثها عن شطحات عقلها الغريبة وهلوساتها العجيبة، مما أفرح المرأة وخفف من قلقها.

إن السيدة جولييت لم تشر إلى حفيدتها نيكول لا من قريب ولا من بعيد، وإن كانت تذكر في بعض الأحيان أنها استلمت رسالة من والدة نيكول أو من خالتها، فتعلمه ما تعرفه عن أخبار العائلتين.

ما أتعس الإنسان، وما أقسى شعوره بالضياع، عندما تكون حياته فارغة من الحب، فيعرف أن ليس هناك من يفكر به ويهتم بمشاعره وأحاسيسه! لم يعد راكان يشعر بالوحدة كما كان يفعل قبل صداقته للسيدة لويس، فقد كان يعود إلى البيت وهو واثق بأن هناك إنسان ينتظر عودته بشوق عارم، ويترقب رؤيته بصبر نافذ !

اقترح زميل لراكان في العمل أن يذهبا إلى مدينة هوليوود مساء السبت القادم؛ ليتناولا طعام العشاء في أحد المطاعم هناك، وأن يشاهدا بعد ذلك فليماً سينمائياً، ذكر الزميل بأنه حديث المدينة لجرأته وغرابة أفكاره.

استحسن الشاب الفكرة، إذ أن له فترة يشتغل ساعات طويلة، ويحتاج إلى بعض الرفاهية والاسترخاء، ثم إن اليوم التالي هو الأحد، يوم عطلة، ويستطيع أن ينام متأخراً.

كانت الساعة حوالي الثانية صباحاً عندما فتح راكان الباب الخارجي ودخل بخفة وحذر، حتى لا يوقظ النزلاء، فاندهش إذ رأى ضوء غرفة السيدة لويس يشع من تحت الباب، فاعتقد أنها نامت ونسيته مضاءً، ولكنه ما كاد يفتح باب غرفته، وقد أخرج الباب صوتاً مزعجاً، بسبب ضخامة حجمه وانزلاقه داخل الجدار، حتى وصل إلى أذني راكان صرير سرير السيدة لويس يرافقه صوتها:

- أهذا أنت يا راكان، شكراً لله! سألته بعد أن فتحت الباب، وقد تنفست الصعداء.

نظر الفتى إلى وجه صديقته، فارتعدت فرائصه واتسعت حدقتا عينيه، فقد كانت تعلو وجه العجوز المتجعد صفرةٌ كصفرة الموت، وكانت شفتاها جافتين كقطعة من البلاستيك المهترئ!

- ماذا حدث لكِ؟! سأل الفتى بانزعاج.

- لقد ظننت أن مكروهاً حدث لك! إنك لم تتأخر ولا مرة واحدة من قبل؛ فقلت لا بد وأن سوءاً قد حدث لك الليلة!

- أنا آسف جداً جداً! لم أكن أعرف أنك ستقلقين لتأخري، وإلا لكنت أخبرتك! مرة أخرى أنا آسف جداً جداً؛ إنني أكاد أذوب أسفاً وحزناً معاً! قال الفتى وهو يشعر بألم وندم شديدين.

- لا بأس عليك! هل تناولت عشاءك؟!

- طبعاً... طبعاً... منذ مدة طويلة. وهل فعلتِ أنتِ؟!

هزت كومة العظام رأسها علامة النفي، وأضافت:

- ليس عندي رغبة، سآكل في الصباح، تصبح على خير! سأراك غداً! قالت ذلك وأغلقت الباب خلفها.

لا شك أن الحوار الذي جرى بين الاثنين، والذي كان بصوت مرتفع نوعاً ما بسبب ثقل سمع المرأة، هو الذي أيقظ السيدة هانكوك من نومها، وجعلها تفكر بالانضمام إليهما، إذ إنه حالما أغلقت السيدة لويس باب غرفتها، وقبل أن يدخل الفتى غرفته، حتى كانت هي تقف أمام الفتى.

لقد أعلمته بأن ابنة الثلاثة والتسعين عاماً كانت قلقة جداً جداً لتأخره، وكانت تتأمل أن يكون كل إنسان يفتح باب النزل أن يكون هو، وأنها رجت السيد هانكوك أن يتصل بالشرطة ليسأل عنه، ولكن الزوج أعلمها بأن الليلة هي السبت وأن غداً يوم عطلة، ولا شك أنه في زيارة لأحد الأصدقاء وربما يقضي الليل عندهم! وفي الختام رجت السيدة هانكوك راكان أن يطمئن قلب العجوز بأن يخبرها مسبقاً، عندما يفكر في التأخير ليلاً.

إن راكان ومنذ تلك الليلة، لم يتوانَ عن إعلام السيدة لويس بأنه سيتأخر تلك الليلة، أو أنه سينام عند أحد الأصدقاء، حتى لا تقلق عليه، هذا إن كان يعرف مسبقاً، أما إذا صادف وحدث فجأة، فإنه يتصل بالسيدة هانكوك ويعلمها، لتطمئن بدورها السيدة لويس.

*****

الفصل الثامن عشر

في الأسبوعين الأخيرين من شهر تشرين ثاني، والثلاثة أسابيع الأولى من شهر كانون أول، وحتى ليلة عيد الميلاد، يصيب الشعب الأمريكي بجميع فئاته وأطيافه، فقيره وغنيه، يهوديّه ومسيحيّه، وجميع أديانه، موجة محمومة مسعورة من الشراء.

يُقبل الناس على الشراء بنهم وجنون، فلا يأتي عيد الميلاد إلا ويكون بعض الناس قد صرفوا كل ما ادخروه خلال العام؛ وحتى يكون البعض قد غرق في دين يحتاج إلى شهور طويلة لسداده!

في تلك الأسابيع الخمسة، تفتح معظم المخازن أبوابها من الصباح الباكر وحتى منتصف الليل، وكانت بعض هذه المتاجر تستأجر عشرات بل مئات العاملين لفترة هذه الأسابيع الخمسة فقط.

لاحظ راكان أن المستخدمين المؤقتين من مختلف الأعمار، من سن السادسة عشرة حتى سن السبعين؛ ولقد قيل له أن المتقاعدين وربات البيوت وطلاب العلم، وغيرهم وغيرهم، يعملون خصيصاً خلال هذه الأسابيع، من أجل شراء هدايا عيد الميلاد. كما قيل له أيضاً أن كثيراً من الموظفين في قطاعات مختلفة يأتون إلى هذه المتاجر بعد ساعات عملهم، فيعملوا حتى يكسبوا نقوداً أخرى من أجل شراء الهدايا!

كان أكبر عدد ساعات يشتغلها المستخدم هي ثمانية وأربعين ساعة أسبوعياً، ولكن راكان وجد نفسه خلال هذه الأسابيع الخمسة يعمل اثنين وسبعين ساعة في الأسبوع؛ أي بمعدل اثنتي عشرة ساعة في اليوم!

لم يزعج هذا البرنامج الشاب، وإنما أفرحه، لأنه مؤقت أولاً، ولأنه يستطيع أن يدخر أجر هذه الساعات الزائدة ليدفعها رسوماً جامعية! صحيح أنه لم يكن لينال قسطاً كافياً من الراحة، وإنما كان يعوضها بأن يقضي معظم نهار يوم الأحد نائماً.

استيقظ راكان من نومه مذعوراً على طرق شديد ومتواصل على باب غرفة نومه، ولشدة استغراقه بالنوم ظن أول الأمر أنه كان يحلم، ولكن الطرق اشتد وتواصل يرافقه صوتٌ ينادي اسمه، وأخيراً سأل بصوت كسول: من الطارق؟!

- أنا السيدة هانكوك، امرأة من مدينة بعيدة تريدك على الهاتف.

نهض الفتى من فراشه وهو ما زال مغمض العينين، فتحسس شبشبه وارتدى روبه وخرج.

- صباح الخير يا راكان، أنا السيدة إليزابيث بيرسون؛ آسفة جداً، يبدو أنني أيقظتك من نومك.

- آه... مرحباً يا سيدة بيرسون! كم لطيفاً أن أسمع صوتك، كيف حالك وحال عائلتك؟! إن شاء الله أنكم جميعاً بخير! قالها الفتى بحماس شديد وبصوت نشط، إذ شعر لفرحته بأن لسانه قد انفلت من عقاله، وقد استيقظت جميع حواسه.

- جميعنا بخير، وقد اشتقنالك! ونتمنى لو تشرفنا وتقضي عطلة نهاية الأسبوع القادم في بيتنا! وقبل أن يجيبها الفتى أضافت:

- نحن نعرف أنك لا تملك سيارة بعد، لذلك سنأتي مساء الجمعة لنأخذك! قالت المرأة بصوت عذب حنون، هيج عواطف الفتى وأثار ذكرياته.

- إنه يسعدني ذلك كثيراً، ولكنني أشتغل يوم السبت.

- إذن سنأتي مساء السبت ونأخذك من مكان عملك؛ ولكي نوفر الوقت سنأخذك إلى غرفتك لإحضار حاجياتك.

- فكرة ممتازة! سأقابلكم أمام باب الشركة في تمام الساعة السادسة.

- سنكون بانتظارك؛ الوالدة أعلمتنا اسم الشركة التي تعمل بها، وكذلك عنوان سكنك، ورقم هاتفك، إلى اللقاء! قالت ذلك وأغلقت السماعة.

ما كاد الفتى يضع السماعة في مكانها حتى بدأ جسمه يهتز ويرتجف وكأنما أصابته حمى شديدة، لقد حاول جاهداً أن يعرف السبب، ولكنه لم يوفق؛ وتساءل هل كان السبب فرحاً أم خوفاً؟! فرحاً لمَ؟! وخوفاً ممن؟! سأل نفسه هذا السؤال وهو يعود إلى غرفته ويغلق بابها خلفه؛ ثم وهو يضع نفسه في الفراش من جديد!

سحب الغطاء فوق جسمه، لعل دفء الفراش يوقف هذه العاصفة التي اجتاحت جسمه وزلزلت كيانه؛ ولكن دون جدوى؛ إذ على العكس من ذلك فقد صارت أسنانه هي الأخرى ترتجف بشدة وتضرب ببعضها البعض، حتى سمع لها صوتاً كصوت الجاروشة التي تجرش الحجارة والصخور!

إنه لا يعرف شيئاً إطلاقاً عن نيكول ولا عن أهلها، منذ أن غادرت الجدة آركاديا، وحتى إنه كان يعتقد بأنهم لا يعرفون عنه شيئاً، هل هو ما زال في أمريكا أم عاد إلى وطنه!

لا شك أن الذي أخبرهم عنه هي الجدة، ولا بد من أن تكون نيكول هي التي كتبت إليها تسألها عنه، بعد أن تأكدت أنه من المستحيل عليها أن تعيش بدون حبه، وبعد أن صممت وعزمت أمرها على أن تعود إليه! ما أسعده! ما أسعده!

كان كلما أمعن بالتفكير، كلما ازداد ارتجاف جسمه وكلما تعالى اصطكاك أسنانه، حتى صار السرير يهتز تحته، وكأنما هو الآخر قد دبت الفرحة في هيكله!

افرح يا راكان، إن أيام الوحدة والمعاناة قد ولت، وإن أيام السعادة والهناء قد أقبلت، إذ لا شك أن نيكول نفسها هي التي طلبت إلى والدتها أن تدعوه إلى بيتهم، لأنها لم تعد تقوى على فراقه! إنه في هذه المرة لن يمدد فترة الخطوبة، ولن يمضي شهر حتى يكونا قد تزوجا! وفجأة تحولت حمأة الارتجاف إلى موجة من العرق الساخن، غطت جميع أجزاء جسمه!

*****

وحلّ يوم السبت... اليوم الذي اعتقد الشاب بأن آلامه وإحباطاته قد ولّت إلى غير رجعة!! منذ الصباح الباكر وراكان شارد الذهن مشتت الفكر! كان خائفاً وقلقاً! لقد سأله رئيسه مرات عديدة عن سبب ذهوله وشرود عقله، فكان جوابه في كل مرة "لا شيء!"

إنه كلما حاول أن يشغل عقله بالتفكير في عمله أو بأشياء أخرى، كلما تحول تفكيره إلى نيكول، وأن سيقابلها الليلة وأنه سيتحدث إليها... وأنه سيشكو لها أوجاعه، وكم قاسى وتوجع لبعدها عنه!

إنه لا يدري كيف سيبدأ الحديث معها؛ فهل ينتظر حتى تبدأه هي، أم يبدأ هو بصفته رجلاً ولا يريد أن يحرج أنثاه؟! ماذا سيقول لها؟! فهل يتجاهل ما حدث ويعتبر بأنه كان درساً تعلمت هي منه الشيء الكثير؛ أم يذكره معاتباً؟! وأخيراً صمم على أن لا يذكر لها شيئاً، وحتى إن ذكرته هي، فإنه سيطلب إليها أن تنسى كل ما حدث؛ ليبدآ –الاثنين- صفحة جديدة !

إنه ومنذ أن كلمته والدة نيكول وهو خائف وقلق، ولكنه في هذا اليوم أكثر خوفاً وأشد قلقاً! كان كالجندي الجبان الذي يدخل المعركة بالسلاح الأبيض وجهاً لوجه مع عدوه ولأول مرة! هل يبتسم لها أو يعبس؟! أو يجب أن يكون طبيعياً؟! وهل يستطيع أن يخفي خوفه ونرفزته؟! وماذا عن خفقان قلبه المتواصل والمرتفع، والذي أحياناً يحسه وكأنما هو يقف في حلقه، يتجمد بعدها لسانه، فيحركه فلا يتحرك! وهل... وهل... وهل...؟! وأخيراً عزم أمره وصمم أن يترك الأمر إلى الخالق سبحانه وتعالى، يفعل ما يشاء.

قبل الموعد المحدد، دخل دورة المياه وصار يحرك يديه وقدميه ورأسه، ويحني ظهره ويحرك جميع أجزاء جسمه كأنما ليطرد عنه الخوف والقلق والتوتر والنرفزة، وبقي يفعل ذلك حتى اعتقد أنه تخلص من كل ما يعتريه، وأن السكينة والهدوء والاطمئنان جميعها قد عادت إلى قلبه!

- نحن هنا يا راكان! سمع الفتى صوتاً نسائياً يأتيه من بين الجمهور الواقف أمام باب دخول وخروج الموظفين؛ إذ إن كثيراً من أقارب وأصدقاء الموظفين يأتون لأخذهم إلى بيوتهم.

أحس الفتى وكأن قلبه قد سقط من مكانه، وبدأت كل ذرة في جسمه ترتجف من جديد، فلقد عرف صاحبة الصوت؛ إنها خالة نيكول؛ مارجي.

توجه كالمنوم نحو مصدر الصوت، وقالت الخالة وهي تتفحصه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه وقد مدت إليه يدها:

- كيف الحال يا راكان؟! إنك نحيف جداً...! ألا تأكل؟! قالت وهي تحدق به مذهولة.

مد الشاب إليها يداً مرتجفة، وقد فرد ابتسامة باهتة فوق شفتيه، متجاهلاً سؤالها، محاولاً أن لا تتقابل عيونهما، وقال:

- كيف حالك يا سيدة ورديبل؟ ! آمل أن تكوني أنت وعائلتك بخير.

- مالك ترتجف؟! هل أنت مصاب بالحمى؟! سألت المرأة وهي تمسك بيده، حتى لا تسقط من يدها.

- إنني لست مصاباً بالحمى، ارتجافي ربما سببه الإرهاق! قال ذلك وخلص يده من يدها، ثم صافح يد المرأة الأخرى الممدودة نحوه.

- كيف حالك يا عزيزي راكان؟! كيف حالك يا بني؟! كم أنا سعيدة برؤيتك! إنها مدة طويلة منذ أن رأيناك آخر مرة! لقد افتقدناك كثيراً! لمَ لم تكتب إلينا يا بني؟! نأمل أن لا تكون قد نسيتنا؟! قالت المرأة وهي تشد على يده، وبصوت حنون وكأنها تضمه بين عينيها!

- كيف حالك يا سيدتي؟! أنا ما نسيتكم، ولن أنساكم! قال الفتى وقد بدأ الهدوء يتسرب إلى قلبه، كما شجعه لطفها وأدبها ورقة كلامها!

- إن والدتي هي التي أعلمتنا أخبارك، مكان عملك ورقم تليفونك! قالت الخالة، ثم توجه ثلاثتهم نحو موقف السيارات.

كان الشاب طيلة الوقت يبحث بعينيه عن نيكول؛ ولما لم يجدها قال بأنها لا بد وأنها تنتظرهم في السيارة!

لا شك أن المرأتين عرفتا ما تبحث عيناه عنه، فلاحظ أنهما تبادلتا نظرة خاطفة، وإن استمرتا بالتحدث إليه؛ إذ صارتا تسألانه عن عمله وسكنه وأصدقائه وأهله؛ فكان يجيبهما باختصار شديد، إذ كان كل تفكيره مركزاً على التي تنتظره بالسيارة!

- أين بقية الأهل؟! سأل الشاب لا شعورياً، بلهجة المحبط المكلوم، ولكن بغضب لاهب بعد أن دخلوا السيارة!

- لقد أتينا، مارجي وأنا فقط! قالت الأم بلهجة الحزين المنكسر، وقد تبادلت نظرة ألم صامت مع شقيقتها.

شعر الفتى بخيبة أمل شديدة، وأحس بأنه يكاد يبكي؛ بل وتمنى حقاً لو أنه يستطيع أن يخلو بنفسه فيبكي!

لاحظ أن المرأتين كانتا تنظران إليه نظرات حزن وشفقة؛ إذ لا شك أنهما عرفتا السبب!

على الرغم من خيبة أمل راكان الشديدة، وشعوره بالمرارة والإحباط، إلا أنه شعر بعد مضي فترة بسيطة من الوقت ببعض الاطمئنان والراحة؛ إذ أحس وكأنما حملٌ ثقيلٌ قد انزاح عن كاهله! صحيح أن بداخله شوقاً جارفاً وحنيناً طاغياً لرؤية نيكول والتحدث إليها؛ إلا أنه كان خائفاً ومتهيباً لقاءها.

كان الحديث الذي دار بين الثلاثة حديثاً روتينياً، أسئلة عن الصحة والعمل والأكل والتسوق وما شابه ذلك؛ لم تذكر المرأتان شيئاً من أخبار عائلتيهما وإن كان الفتى قد تمنى، بل قد توقع أن يذكرا شيئاً من أخبارهم.

كان معظم أفراد عائلتي الأختين مجتمعين في منزل الخالة مارجي، عندما وصلت الأختان وراكان إلى مدينة"قاردنقرووف"في مقاطعة "أورنج كاونتي" وهو المنزل الملاصق لبيت عائلة نيكول. كان والد نيكول وأختها وأحد أخويها التوأمين، وكذلك كان زوج الخالة وابنها وابنتها؛ وكانوا جميعاً يشاهدون التلفاز الذي أطفأته الخالة حالما دخلت. أما نيكول والتوأم الثاني فكانا غير متواجدين.

بعد أن صافح راكان الجميع بحرارة، سألوه عن حاله وأحواله، وإن كان قد التحق بالجامعة! كما ذكروا له بأنهم لم يروه منذ فترة ليست بالقصيرة، وأنهم سعداء لرؤيته؛ ما عدا والد نيكول الذي صافح الشاب بأطراف أصابعه، وببرود ينم عن احتقار وكراهية شديدين، لاحظه جميع الموجودين، حيث صار كل واحد ينظر إلى الآخر، وكأنما ليقول له: هل رأيت ما أوقح ذلك الرجل، وما أقلّ أدبه؟!

الإنسانة الوحيدة التي أقبلت على راكان تحييه بحرارة فائقة، وتشد على يده بيدها الصغيرة الطرية الناعمة وفوق شفتيها ابتسامة فرحة، وتخبره بقلق عظيم تراه في عينيها، كانت الصغيرة نولا!

- آه يا راكان! لقد هزلت كثيراً! لم يبقَ منك إلا العظم والجلد؛ هل كنت مريضاً؟!

شكرها الفتى على اهتمامها به، وأكد لها بأنه لم يكن مريضاً، ولكنه يعمل ساعات طويلة، ولا يأكل بانتظام، ثم إنه لا ينام ولا يريح جسمه بما فيه الكفاية! قال ذلك وأتبعها بضحكة مصطنعة.

ومن جديد قالت الفتاة بأن وجهه شاحب، وأن جسمه نحيل، وأنه فقد الكثير من عافيته، وأنه يجب أن يهتم بنفسه، حتى لا يسقط طريح الفراش!

"إذا الليل أضواني بسطتُ يد الهوى وأنزلتُ دمعاً من علائمِهِ الكِبرُ"

لم تتوقف الصغيرة عن أسئلتها الحنونة والرقيقة إلا عندما صاح بها والدها ناهراً إياها بلهجة جافة وقحة.

- ألا تعتقدين بأنك سألته بما فيه الكفاية؟!

فجأة فارقت الصغيرة ابتسامتها، وعلت وجهها موجة من الصفرة الشديدة، سرعان ما تبدلت إلى حمرة شديدة! لاحظ راكان وكأنما نار قد اشتعلت في وجنتيها وأذنيها!

نظرت الصبية باندهاش وحيرة إلى والدها، ثم حولت عينيها ونظرت إلى والدتها، وكأنما تستنجد بها! لم تقل الأم شيئاً، وإنما حدجت زوجها بنظرة يتطاير منها الشرر، ثم إلى راكان الذي تجمد في مكانه، والذي لم يكن يتحرك به عضو سوى عينيه، ترقبان نظرات الجماعة ووجوههم.

وهنا صاحت الخالة بالأب وقد حملقت به مستفسرة:

- جاشوا! ماذا حدث لك يا رجل؟! إنك لم تنهر نولا حتى عندما ترتكب غلطة؟!

لا شك أن ما قالته الخالة قد شجع الصغيرة على البكاء، إذ لاحظ الشاب أن دموعها كانت تنزل على خديها بغزارة، وأنها كانت تبكي بانفعال شديد؛ وإن كانت تحاول ضبط نفسها حتى لا يُسمع صوت نحيبها!

- هل لك يا حبيبتي نولا أن تذهبي إلى البيت! وأن تنتظري في غرفة نومي، إن كنت قد نسيت منديل رأسي! لقد فكرت أنه كان في حقيبة يدي، ولكنني لم أجده! قالت الأم.

غادرت الصغيرة وهي تتعثر في مشيتها وعيناها تنظران إلى الأرض! لا شك أن تأنيب والدها قد أحرجها أمام الضيف؛ بينما كان الجميع محلقين حول الفتى يمطرونه بوابل من أسئلتهم الغريبة والعجيبة، المضحكة تارة والمحزنة تارات، وهو يحاول أن يجيب عليها!

- هل تعني أنه لا يوجد عندهم تلفاز ولا فيديو؟! سأل أخو نيكول مستغرباً وقد قطب ما بين حاجبيه!

- يقول لك ياولدي، بأنهم يسكنون في الكهوف والمغاور وتحت الشجر بعد أن طردهم اليهود من مدنهم وقراهم، وأنهم لا يجدون ما يأكلون! فكيف يكون عندهم تلفاز وفيديو؟! قالت الأم بحنان ممزوج بالشفقة! وكان راكان يحدثهم عن اللاجئين الفلسطينيين.

- زعماؤكم هم السبب فيما حل بهم! قال السيد بيرسون ذلك، ثم التقط مجلة كانت موضوعة أمامه على طاولة الوسط وبدأ يقرأ بها.

يجزم راكان بأن لا أحد من الحضور حتى ولا زوج الخالة قد فهم ما عنى الأب؛ لذلك تظاهر هو بعدم الفهم ولم يُعلق، وإن كانت عيناه قلما تتحولان عن مدخل البيت أملاً أن تدخل نيكول منه !

مضت فترة ليس بالقصيرة عندما أعاد الرجل المجلة إلى مكانها وقال باهتمام مصطنع، وهو يتطلع إلى زوجته:

- يا ترى؟! ما الذي أخر نيكول وهيوارد من العودة حتى الآن؟! إن مدينة "بالم سبرنق" لا تبعد كثيراً من هنا، ثم إنهما غادرا إليها منذ الصباح الباكر!

هوى قلب راكان لدى سماعه اسم نيكول يُذكر أمامه، بعد ترقب طويل؛ إذ شعر وكأن ناراً اشتعلت في داخله وبدأت تلتهم أحشاءه!

لاحظ الفتى أن الثلاثة –الأم والخالة وزوجها- قد حدجوه وفي آن واحد، بنظرات غاضبة، وكأنما يلومونه على ما قال.

لم يدرِ الفتى المهزوم إن كان الرجل قد رأى نظرات العيون الغضبى أو أنه تجاهلها متحدياً، لأنه استرسل قائلاً:

- إنني أول الأمر لم أهتم لهذا الفتى، وكحقيقة ثابتة، فقد كرهته؛ إذ فضلت عليه شارلي وجورج؛ ولكنني الآن أفضله عليهما.

وهنا أحس العاشق المهجور وكأن سكيناً حادة تغوص في جوفه وتمزق أحشائه!

كما لاحظ الفتى أيضاً أن ثمانية عيون أحدقت به هذه المرة، ورمته بنظرات كأنها شهب من نار؛ إذ انضم إلى الثلاثة الأول، الأخ التوأم لنيكول.

- هل تلاميذ المدارس في بلادكم أشقياء مثل تلاميذ المدارس عندنا؟! سألت الخالة راكان بصوتٍ عالٍ وغاضب، فتأكد للفتى بأنها حاولت أن يغطي صوتها على صوت زوج شقيقتها، ولكن قبل أن يجيب الشاب على سؤالها، قال الرجل وهو يضحك ويضرب يديه ببعضهما:

- إنه يختلف عن الاثنين الآخرين، وأنا مسرور أن نيكول قد فضلته عليهما! صحيح أنه مفلس في أكثر الأحيان، ولكنه عاشق ممتاز! قال ذلك وأتبعها بضحكة تدل على أن صاحبها إنسان غير مصقول ولا حضاري... إنسان جلف!

وهنا صاح به أربعتهم معاً، يقاطعون بعضهم بعضاً:

- بحق السماء! ماذا حدث لك يا رجل؟! قالت الخالة بغضب لاهب والشرر يتطاير من عينيها.

- إنك في كل ليلة مثل هذا الوقت تكون في فراشك تشخر منذ مدة طويلة! قال زوج الخالة.

- ماذا جرى لك يا جاشوا؟ ما حاجة هذا الكلام الجارح؟! سألت زوجته بعتاب حزين.

- لم تقول هذا يا أبتاه؟! سأل الابن.

لا شك أن الرجل قد شعر بالندم لتصرفه اللاحضاري، إذ لم يتفوه ولا بكلمة، وإنما غادر على عجل.

أما راكان فقد كان الله في عونه، إذ تمنى لو أن الله لم يخلقه، أو لو أن الأرض تتفتح تحته فتبتلعه! لقد كان يحلم بقضاء أمسية سعيدة مع نيكول يتعاتبان ويبثان أشواقهما لبعض؛ ولكن ها هو يتلقى بدل ذلك ضربتين قاتلتين، إهانة والدها المتعمدة له، وكذلك غيرته عليها، وهو يتصورها بين أحضان عشاقها تمنحهم جسدها فيبتذلونه ويدنسونه بشهواتهم الرخيصة!

"آه يا نيكول! يا عشتروت الإغريقية! يا إلهة الحب والجمال! يا من رفعتك وحلقت بك حتى وضعتك في مصاف الآلهة؛ أنت يا من أحببتك حتى احترق الحب،لِمَ تنحدرين تسقطين وتمارسين كل هذا الرخص والابتذال؟! لقد دمّرتِ حياتي ومزّقت قلبي، وأحرقتِ دمي، وجمدت الدموع في عيني؛ فليسامحك الله!"

- إن جاشوا لم يتصرف مثل هذا التصرف طيلة حياته! قالت الزوجة مخاطبة راكان، بصوت مثقل بالألم والحزن معاً، وقد علت وجهها صفرة كصفرة الموت.

- إنني لم أصدق أذني عندما سمعته ينهر نولا! إنها الحب الحقيقي والوحيد عنده! قالت الخالة وعيناها تحملقان بالضيف المنكسر والذي ينزف قلبه في داخله!

- منذ البارحة، وأنا أشعر بأن والدي يتصرف بطريقة غريبة! قال الابن، ثم وكأنما تذكر شيئاً فأضاف مخاطباً والدته:

- منذ أن طلبت منه يا والدتي أن يرافقك لإحضار راكان ورفض.

الآن تأكد للضيف أن تصرفات الرجل العدائية نحوه هي بسبب كرهه الشديد له واعتراضه على دعوته إلى بيته لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معهم.

- أرجوكم! دعونا نتحدث في موضوع غير هذا! قالت السيدة بيرسون، ثم التفتت إلى راكان وسألته عن أهله في الوطن، وإذا كانت تصله رسائل منهم؛ ثم تشعب الحديث بعد ذلك.

"راكان! أرجوك! لا تبتعد عني! إنني سأموت إن فعلت! قبلني بعنف! ضمني إلى صدرك! دعني أشعر بقوة ساعديك! بخفقان قلبك! بحرارة أنفاسك! إنني ضائعة بدونك! أنت لي كالهواء! يا حبيبي! لا تتركني!"

"لن أتركك يا نيكول، أنتِ روحي! أنتِ كل شيء حلو وجميل في حياتي! أنتِ الأهل وأنت العشيرة!"

- أعتقد أننا يجب أن ننصرف، لقد تجاوزت الساعة منتصف الليل! إن راكان متعب، ويجب أن يأوي إلى فراشه. قالت السيدة بيرسون وهي تنهض، ثم التفتت إلى الشاب وأضافت:

- ستنام الليلة هنا، في بيت مارجي، عندهم غرفة نوم زائدة خصيصاً للضيوف؛ سنراك غداً، تصبحون على خير.

دخل راكان غرفة النوم، وأغلق الباب خلفه، ونظر في المرآة المثبتة فوق خزانة الملابس، فهاله منظر وجهه! إنه يكاد يقسم بأن الوجه الذي ينظر إليه ليس هو وجهه، وإنما وجه إنسان صار له في عداد الأموات زمناً طويلاً! أما كيف قضى ليلته فخالق الأكوان وحده هو الذي يعرف!

كانت الساعة حوالي العاشرة صباحاً عندما جلست عائلة السيد ورديبل المكونة من أربعة أشخاص، الأب والأم وولد وبنت، ومعهم راكان لتناول طعام الإفطار. لم يلاحظ الفتى أن أحداً منهم يستعد للذهاب إلى الكنيسة، وكما علم فيما بعد فإن أفراد العائلتين لم يكن واحد من بينهم من الذين يترددون على الكنيسة، ولم يكونوا من الذين يرسلون صغارهم إلى مدرسة الأحد، كما تفعل الكثير من العائلات الأمريكية.

استأذنت العائلة من الفتى بعد الانتهاء للذهاب للتسوق، وأعلموه بأن السيدة بيرسون ستأتي ليرافقها إلى بيتهم، إذ أن الجميع مدعوون حوالي الساعة الثالثة إلى عشاء مبكر هناك.

كان الفتى مستلقياً فوق كنبة طويلة، وكان مغمض العينين، ومستغرقاً في تفكير عميق، كانت أفكاراً هلامية، سافر من خلالها إلى جميع أنحاء المعمورة !

- أسعد الله صباحك! سمعها راكان تخرج من فم ملاك طاهر.

عاد الفتى من سرحاته الهلامية، وعندما وقعت عيناه على صاحبة الصوت الحنون الرقيق الناعم، قفز واقفاً، وصار يحملق بها وقد لجمت المفاجأة لسانه، ولكنه استطاع أن يرد التحية بمثلها.

- هل تصدق أنني أمضيت بعض الوقت وأنا واقفة فوق رأسك، وأنت لم تشعر بوجودي؟! قالت بخجل وقد فردت فوق شفتيها ابتسامة خجلى، وكأنها ابتسامة ملاك نزل من السماء ليبشر أهل الأرض برحمة ملك السماء!

- أنا آسف جداً، اعذريني؛ لقد كنت مستغرقاً في تفكير بعيد من هنا! قالها الفتى بخجل وارتباك، ممزوج بفرحة عارمة، وهو يرى ذلك الوجه الطاهر والعينين البريئتين، ثم أضافت وقد فرد لها يديه احتراماً:

- أرجوكِ تفضلي بالجلوس؛ مرة أخرى أعتذر.

- لا حاجة للاعتذار، لقد لاحظت أنك كنت مستغرقاً في تفكير عميق عميق، كان وجهك يعبس تارة ويبتسم تارة أخرى!

إن نولا صورة طبق الأصل عن نيكول، فلقد أرته نيكول صورة كانت تحملها في حقيبة يدها في أول تعارفهما، فاعتقد أنها صورتها وهي صغيرة؛ وعندما قابل البنية سجد في داخله مهابة وتقديساً لخالق هذا الكون لإبداعاته المذهلة والمتميزة!

كان لنولا نفس العينين الزرقاوين الأخاذتين، وكان لها نفس الأنف الصغير الدقيق، ونفس الفم الذي يشبه زهرة خاتم سليمان، ولها نفس الشفتين الرقيقتين واللتين تشبهان حبات كرز قد نضجت لتوها! كانت أسنانها ناصعة البياض كأنها عقد من اللؤلؤ والزبرجد، أما عنقها فكان كأنه تمثال من الأبنوس لنصاعته وصفاء بشرته! أما قوامها فقد كان نحيفاً متناسقاً، لا شك أن يد الخالق الأعظم تمهلت وتفننت في خلقه وإبداعه!

جلست الصبية على كنبة صغيرة إلى جانب الكنبة التي يجلس عليها الفتى، برشاقة ورقة وأنوثة، وقد انحرفت بجسمها قليلاً حتى تواجهه، وفعل هو مثلها.

- لقد أتيت لأعتذر لك عن تصرفات والدي البارحة! لقد كان تصرفاً غير لائق بمكانة إنسان مثله! لا شك أنه جرح شعورك فتألمت بسبب ذلك! قالت الصبية وقد كست وجهها موجة من الحزن القاتم.

- لم أذكر أن والدك قال أو فعل شيئاً يجرح إحساسي ويوجب الاعتذار! أنا لا أعرف عن ماذا تتكلمين! قال الفتى بلهجة الجاد المتحمس.

- هكذا يفكر العظماء! إنك صاحب عقل راجح وقلب كبير؛ تجد دائماً عذراً لإساءات الناس لك! هكذا قالت والدتي بعد أول لقاء لنا معك.

- إن والدتك، يا آنسة نولا، امرأة عظيمة أنجبتها أم نادرة الوجود !قال الفتى وهو يشير بيديه ويهز رأسه، علامةَ الجد والحماس.

- لقد حزنتُ جداً عندما علمتُ أنك ونيكول قد فسختما خطبتكما، وأعلمتْ نيكول بأنها لن تجد شاباً يحترم مشاعرها، ويتفهم أحاسيسها، ويسعدها مثلك؛ وأنها ستندم ندماً شديداً على تصرفها الطائش وغير المسؤول.

كانت الفتاة تتكلم وكأنها ابنة الثامنة عشرة؛ بل وأكبر، وليست ابنة الثالثة عشرة!

- أنت شاب مثالي ونادر الوجود! هل تصدق أنني منذ قابلتك وأنا أتمنى أن يكون الشاب الذي سأتزوجه بشهامتك ورجولتك وبأخلاقك وأدبك! قالت الفتاة بحماس، وتبدلات وجهها تعبر عن انفعال شديد ترافقه حركات متواصلة من يديها.

- وأنت فتاة قليلات مثيلاتك! صدقيني يا آنسة نولا أنا لا أبالغ عندما أراك تمشين أتصور باقةً من الزهور تتحرك أو حزمةً من الغمام تحلق بأجواء السماء! أنت شمعة مضيئة باستمرار.

احمرت وجنتا الصبية خجلاً، وغطت وجهها بظهر يدها ولم تقل شيئاً.

- هل تقرئين كتباً؟! أعني هل تقرئين شيئاً خارج الكتب المدرسية؟!

- طبعاً؛ طبعاً! أحب المطالعة كثيراً؛ ولقد قرأت كثيراً من القصص والروايات! لقد قرأت كل ما كتب تشارلس ديكنز ومارك توين؛ لأنني أحبهما كثيراً! إن كل ما يصعب علي فهمه أسأل والدتي أن تفسره لي.

ذهل راكان لكلام الفتاة المتألق ولألفاظها المختارة؛ فقد كانت تختار كلماتها بشفافية وتأنٍ، حتى شعر بخجل منها ومن نفسه؛ إذ أنه كان يخاطبها وكأنها طفلة صغيرة.

اجتاحت الشاب موجة من الألم العنيف، وبدأت عواطفه تغلي كماء المرجل، وشعر بأنه يكاد يبكي؛ فخشي أن تخونه عيناه فيضعف أمام الصبية، فقال:

- إن كل ما يهمني هو سعادة نيكول! إن اليوم الذي أعرف به أنها قد تزوجت ممن تحب، وأنها سعيدة بزواجها، فإن ذلك اليوم سيكون أسعد يوم بحياتي.

كانت الفتاة طيلة الوقت ترقب حركات جسمه وإشارات يديه، وتحدق بوجهه فترى تقلصاته وتشنجاته، ولما توقف عن الكلام قالت:

- صدقني إنها ليست سعيدة، إنها على العكس شقية جداً؛ إنها ومنذ أن فسختما خطبتكما تعرفت إلى ثلاثة شباب، تقول عنهم بأنهم بلداء ووقحون، ووجودهم معها يضجرها حتى الموت!

أحس الفتى وكأن سكيناً تغوص في أحشائه فقال:

- إنها ستقابل يوماً الإنسان الذي يحبها وتحبه فتتزوج وتسعد.

- لا أظن ذلك! قالت الفتاة باستنكار ممزوج بألم وحسرة وهي تهز رأسها يمنةً ويسرةً؛ ثم أضافت:

- هذا ما يقوله والدي؛ ولكن والدتي تعتقد عكس ذلك تماماً، وإنه من الصعب جداً عليها أن تحب إنساناً، إذ أنها متقلبة وغير ناضجة عاطفياً، ولا تدري ماذا تريد! وهنا تحمست الصبية فأضافت:

- لقد أمضت طيلة يوم أمس ومساء البارحة مع هوارد، في مدينة "بالم سبرنق" ولم تعد إلا في ساعة متأخرة من الليل، واليوم ذهبت قبل أن آتي إلى هنا بقليل مع شارلي إلى البحر، ومساء الجمعة خرجت مع جورج وذهبا إلى مكان للرقص، ولم تعد إلا عند الفجر!

- وهل يعرف هؤلاء الشباب عن بعضهم؟! سأل راكان بقلب دامٍ ونفس ممزقة !

- طبعاً! طبعاً! إنها تخبرهم؛ وتقول الذي لا يعجبه؛ فليذهب إلى الجحيم.

- لا شك أنها تستمتع بما تفعل، وإلا لما أقدمت على فعله؟!

- لا أظن ذلك! قالت بتمهل وحسرة وبلهجة امرأة ناضجة قد حنكتها تجارب الحياة المريرة ومشاكلها المعقدة.

- وما الذي جعلك تقولين هذا؟!

لقد قالت والدتي لوالدي بأن تصرفات نيكول تدل على عدم النضوج العاطفي، وأنها تعاني من شعور مركب نقص شديد، ولكن والدي يشجعها على تصرفاتها، ويقول بأنها يجب أن تستمتع بحياتها وهي شابة؛ لأنها عندما تكبر ستحد مسؤوليات الحياة من انطلاقها؛ وإنها فترة فوران الشباب وستزول؛ ولكن والدتي تعتقد أنها بتصرفاتها الطائشة واللامسؤولة ستدمر حياتها وتؤدي بها إلى الضياع.

- وهل تعرف أنني هنا؟! سأل الفتى بتردد وخجل.

- للأسف الشديد نعم! منذ الأسبوع الماضي! لقد طلبت إليها والدتي أن ترافقها إلى مدينة باسدينا لإحضارك، ولكنها اعتذرت بحجة أنها مرتبطة بموعد سابق ولا تستطيع إلغاءه؛ ثم سألتها هذا الصباح أن تبقى لتراك؛ ولكنها ادعت بأنها مرتبطة بموعد سابق أيضاً.

لم يقل الفتى شيئاً، ورفع بصره إلى أعلى وتظاهر بأنه يتأمل صورة لمجموعة من الأبقار معلقة على الحائط، إذ خشي أن تلاحظ الفتاة إحباطاته، فقد كان مرتعاً لعواطف جياشة، وهنا قطعت الفتاة الصمت بأن قالت:

- إن والدتي تريدك كثيراً.

- ووالدك يكرهني كرهاً شديداً! قال الفتى وهو ما زال يتظاهر بالتطلع إلى الصورة.

لم تعلق الفتاة وعادا إلى الصمت من جديد.

- وكيف دراستك؟ !وهل تحصلين على علامات عالية؟!وماذا تفكرين أنك ستدرسين في الجامعة؟! قطع الفتى الصمت ثم حول نظره من الصورة إلى الفتاة.

- الشكر لله ولوالدتي، علاماتي كلها مئة من مئة؛ وأفكر أن أدرس الآداب وأن أحصل على الدكتوراة وأدرّس في جامعة! قالت الفتاة وقد أضاء وجهها وعلت شفتيها ابتسامة رقيقة.

- هل تعرفين يا نولا بأن عقلك أكبر من سنك كثيراً؟!

- شكراً على الإطراء! هذا ما يقوله أهلي وأساتذتي؛ ولكن ما الذي جعلك تعتقد ذلك؟ ! قالت وقد كبرت ابتسامتها.

- إنني كلما أتحدث إليك، أشعر أنني أمام فتاة ناضجة، فتاة تسعد القلوب وتسحر العقول لا يقل عمرها عن عشرين عاماً ؛ بالمناسبة كم عمرك الآن؟!

- عمري الآن أربعة عشر عاماً ونصف، وسأبلغ الخامسة عشرة في شهر شباط القادم.

- عمر سعيد مديد إن شاء الله!

وهنا رأى الشاب الصبية تفتح فمها لتتكلم، إذ لا شك أنها تريد أن تشكره، ولكنه سبقها قائلاً:

- اسمعي يا آنسة نولا! أريد أن أنصحك نصيحة أخ لأخته الصغيرة؛ لا شك سيقابلك أناس وسيسيئون إليك مع أنك كنت دائماً طيبة معهم؛ إن الذي أرجوه منك هو أن تتصرفي معهم دائماً بشموخ... بعظمة... بترفع... بكبرياء...! كوني دائماً كجدتك ووالدتك! عملاقة... شامخة... عظيمة... متألقة... ومتسامحة أيضاً!

- تعني كما تصرفت أنت مع أختي نيكول؟! هل تعرف ماذا قالت والدتي لأول مرة في بيت جدتي؟! لقد قالت: لقد خطف هذا الشاب عقلي واستولى على مشاعري لأدبه وأخلاقه؛ فلا عجب أن يخطف عقل وقلب نيكول! صدقني هذا ما قالته بالحرف الواحد، ومكثنا طيلة الطريق بين آركاديا وهنا، ونحن لا حديث لنا إلا عنك وعن عظمة أخلاقك وشهامتك!

- صدقيني يا آنسة نولا، إنكم أنتم كذلك، أنتم لم تخطفوا عقلي وقلبي فقط، أنتم خطفتم تفكيري ووجداني وعواطفي وكل أحاسيسي، جدتك ووالدتك وخالتك وأنت؛ جميعكن ملائكة تعيش على الأرض.

- شكراً يا راكان، أنت دائماً مؤدب وعظيم! قالت وقد التهبت وجنتاها وأذناها حياءً، ثم أضافت:

- إنني أشعر بزهوٍ وفخرٍ شديدين وأنت تطري ذكائي! قالت ذلك وألقت بناظريها إلى الأرض.

- وأنا أشعر باعتداد عظيم أن تكوني حفيدة السيدة أُومناي جولييت وابنة السيدة إليزابيث بيرسون.

- لقد حزنت جدتي كثيراً كثيراً عندما فسختما خطبتكما، أنت ونيكول، وقد خفنا أن تقضي الصدمة عليها! قالت الصبية وقد فارقتها ابتسامتها وحلت مكانها مسحة عبوس.

- إن جدتك ملاك يا نولا، إن مثيلاتها قليلات في هذه الأيام.

- هل صحيح أنك ستلحق بها إلى توولا، وتسكن عندها؟!

- آمل ذلك؛ إن هذه هي أمنيتي الوحيدة في الوقت الحاضر! لقد افتقدتها بجنون عندما رحلت، وصدقيني أنه لولا أملي أن ألحق بها قريباً ، لربما فقدت عقلي !

- لقد أعلمتنا برسائلها أنها افتقدتك كثيراً، وهي تسعى جاهدة لإحضارك عندها.

- آمل أن أكون في توولا خلال شهر.

- ستحب المدينة كثيراً، صحيح أنها صغيرة، ولكنها جميلة وهادئة، والناس هناك بسيطون وبشوشون.

- المدينة التي تسكنها جدتك، هي عندي أجمل مدينة في العالم.

لم تعلق الفتاة وإنما علت شفتيها ابتسامة خفيفة.

- لا تتصوري كم أنا شاكر وممتن لوالدتك على دعوتها لي.

- لقد كانت تتمنى كثيراً لو أنها تستطيع أن تدعوك بعد رحيل جدتي، ولكنها كانت تخشى إيلامك.

- إن والدتك رقيقة الإحساس.

- لقد ترددت كثيراً في دعوتك هذه المرة، ولولا خوفها من حزن جدتي لما كانت دعتك.

- إذن جدتك هي التي طلبت إليها دعوتي.

هزت الصغيرة رأسها عدة مرات، وكانت تحدق في نفس الوقت بوجه جليسها وكأنما لتقرأ ردة فعله. لا شك أنها لاحظت علائم حزن شديد على وجه الفتى فقالت مستدركة:

- أنا آسفة إنني نسيت فأعلمتك، لو عرفت والدتي لكانت لامتني كثيراً.

- اطمئني، إنها لن تعلم.

- لقد كانت جدتي تطلب دائماً إلى والدتي أن تدعوك إلى بيتنا، ولكن والدتي كانت تعارض بشدة مخافة إيلامك؛ ولكن هذه المرة أصرت جدتي على دعوتك وذلك بمناسبة... وتوقفت الصبية، إذ لا شك أنها أدركت أنها ارتكبت خطأً فادحاً، لاحظه الفتى بارتجافها واصفرار وجهها.

- ما هي المناسبة التي دعتني والدتك من أجلها؟ !سأل الشاب بإصرار واهتمام شديدين، وهو يحدق بوجهها وكأنما ليعرف سرها.

- لا يوجد مناسبة، فقط اشتقنا لك وأحببنا أن نراك! قالت الصبية على عجل وكأنما لتخرج من ورطة أوقعت نفسها بها.

- لا؛ يوجد مناسبة، إن شفتيك اللتين لم تنطقا بغير الصدق، وعينيك المتأججتين ذكاءً تقولان ذلك.

- شكراً على إطرائي، ولكن...

وهنا تدخلت رحمة السماء، فأنقذت الصغيرة من ورطتها، إذ فُتح الباب ودخلت منه الأم، وعلى وجهها ابتسامة حنونة. نهض الفتى واقفاً احتراماً لها ومرحباً بها، وبعد أن حيته قالت:

- آسفة إن تأخرت عليك، كنت عازمة أن آتي قبل الآن، ولكنني ذهبت للتسوق. قالت المرأة وهي تجلس إلى جانب ابنتها، ثم أضافت:

- آمل أن تكون نولا جليسة مسلية لك! قالت الأم وهي تنظر إلى ابنتها وكأنما تحتضنها برموش عينيها.

- إن الآنسة نولا لا تسلي جليسها فقط، وإنما تغرقه بمحيطات من رقتها وعذوبة حديثها وسعة اطلاعها! قال الشاب بحماس وصدق.

- إن راكان يا ماما يبالغ في مدحي! قالت الفتاة بخجل وقد احمرت وجنتاها.

- إن راكان يا بنيتي شاب رائع، نتمنى جميعنا له النجاح والتوفيق. قالت المرأة بلهجة حزينة، ثم التفتت إلى الفتى وأضافت:

- كلنا فخورون بها؛ فهي ذكية جداً، وذات شخصية قوية، ونأمل أن تكون أستاذة جامعية.

- آمل ذلك! قالت الصبية.

- ستكون أستاذة رائعة كوالدتها! قال الفتى.

- سيكون العشاء مبكراً، بعد حوالي ساعتين من الآن، فهل تعتقد أنك تستطيع أن تصبر حتى ذلك الوقت؟ سألت الأم.

- أستطيع أن أنتظر أطول من ذلك بكثير! قال الفتى.

- دعونا نذهب الآن إلى بيتنا! قالت الأم وهي تنهض، فنهضت ابنتها، وكذلك فعل الفتى.

*****

كان عدد الجالسين على طاولة الطعام عشرة أشخاص، السيد والسيدة بيرسون وولداهما التوأمان وابنتهما نولا، كما كان السيد والسيدة ورديبل وابنتهما بيانيكا، وابنهما ريموند، والضيف راكان؛ لم يكن أحد غائباً من أفراد العائلتين، سوى نيكول، والذي قيل أنها ذهبت وصديق لها إلى شاطئ البحر.

لقد طلبت السيدة بيرسون سامحها الله إلى راكان أن يجلس على يمين زوجها، مما أزعج الضيف وسبب له إحراجاً؛ فلقد تمنى الفتى لو أن المرأة أجلسته في الطرف الآخر من الطاولة، بل إنه فكر جدياً أن يعلمها بذلك، لولا أنه خشي إحراج المرأة وربما اتهامها له بسوء التصرف.

حالما جلس الضيف إلى جانب المضيف، منحه الرجل ابتسامة كبيرة طافحة بالمحبة والاحترام، ورحب به ترحيباً حاراً وسأله عن الصحة والحال، وشكره لتكرمه قبوله دعوتهم له، وتمنى لو أن يسعدهم بزيارته لهم مرة في الشهر على الأقل !!!

لقد جلب هذا التودد المبالغ به انتباه جميع الجالسين حول مائدة الطعام؛ فلقد لاحظ الفتى أنهم صاروا يتهامسون ويتغامزون، وأن بعضهم صار يبتسم.

لم يكتفِ الرجل بأن يكون راكان أول الذين يسكبون الطعام في صحونهم، بل أصر على أن يظل ممسكاً بجاط الطعام المملوء حتى يأخذ منه الفتى حاجته، ثم يأخذ هو بدوره، ومن ثم يناوله إلى زوجته الجالسة على شماله. وعندما طلب الضيف أن يعامله بالمثل، وهو أن يمسك له الجاط حتى يأخذ حاجته منه، رفض الرجل بإنكار شديد مدعياً أن الفتى هو ضيف الشرف، ويجب أن يقوم الجميع على خدمته.

ليلة خطبة راكان ونيكول وأثناء الحفل قام الأب بتصرفات اعتبرها بعض الحضور تجاوزات حضارية، ولكن السيدة جوليبت أفهمت راكان فيما بعد السبب.

قالت بأنه إنسان خشن وغير مصقول، وفي طبعه بعض الفظاظة والغلظة، وأنه في كثير من الأحيان وهو يتحدث إليك تظنه غاضب منك ويتشاجر معك؛ إنه وبسبب قضاء طفولته ويفاعته في قرية صغيرة نائية، ثم عدم نيله قسطاً كافياً من التعليم؛ إذ إنه لم يكمل حتى الابتدائية، فإنه قلما يتعامل مع الناس بلطف واحترام، لأنه لا يعرف كيف يقوم بهذا الدور؛ ولكن السيدة جوليبت أكدت لراكان بأن للرجل قلباً طيباً جداً، لا يحمل حقداً ولا كراهية لأحد.

في الحقيقة أن راكان سُر كثيراً لمعاملة السيد بيرسون الودودة والمحبة له، وأن قد تساءل عن أسباب هذا التبدل السريع، فقد عزا ذلك إلى سببين اثنين؛ وهما إما شعوره بالندم على تصرفه غير المبرر، وإما أن الذين شاهدوا ما حدث قد لاموه وأنّبوه على فعلته؛ ولهذا السبب لم يعد يحمل راكان له في قلبه كرهاً ولا ضغينة.

صار الرجل يسأل ضيفه بشغف واهتمام زائدين عن أصناف الأكل في بلده، ثم عن أنواع اللحوم بجميع أصنافها، وكذلك الخضار والفواكه، فكان راكان يجيبه بالتفصيل، وموجهاً كلامه إلى بقية الجالسين على طاولة الطعام.

فجأة تحول السيد بيرسون إلى إلقاء النكات؛ فصار يلقي النكتة تلو الأخرى حتى أضحك جميع الحضور بما فيهم راكان، الذي لم يفهم بعض النكات أحياناً، بسبب خلفيته غير الأمريكية؛ فكان يضحك أحياناً مجاملة للرجل! ولقد امتدت فترة الغداء ما ينيف على الساعتين.

عندما فرغ الجميع من تناول الطعام، بدؤوا كلهم ما عدا الزوجين السيد بيرسون والسيد ورديبل، ينقلون كل ما على الطاولة إلى المطبخ.

نهض راكان وقد حمل ما أمامه من صحون، ليشارك في نقل بقايا الطعام إلى المطبخ، ولشدة دهشته، فقد صاح الجميع به بصوت واحد، كأنهم في كورس:

- لا، أنت إبقَ جالساً في مكانك!

حاول الفتى أن يعترض بأنه يجب أن يساعد، ولكنهم اعترضوا على ذلك؛ مما أسعد الفتى كثيراً!

لم تمضِ إلا دقائق قليلة، عندما وصل إلى آذان الجالسين حول طاولة الطعام، أصوات غناء جماعية، تأتي من المطبخ: "عيد ميلاد سعيد... عيد ميلاد سعيد...!"

وهنا ظهرت السيدة بيرسون تحمل صينية كبيرة وفوقها قرصٌ كبيرٌ من الكيك، وفوقه عدد من الشمعات الصغيرة المضاءة، والجميع يغنون معها عيد ميلاد سعيد... وهنا قفز الزوجان بيرسون ووردبيل، وانضما إلى الآخرين يغنون معهم!

فكر راكان أنه من اللباقة أن ينضم إليهم بالغناء، فصار يتطلع حوله يحملق في وجهي الرجلين ويتساءل من المعني من الرجلين، ولكنه وجد أنهما ينظران إليه، وأخيراً غنوا جميعاً بصوت واحد قائلين:" عيد ميلاد سعيد لك يا راكان!"

وهنا تذكر الفتى أن عيد ميلاده سيكون بعد يومين اثنين، وإن كان قد نسيه تماماً في خضم الأحداث، كما أنه استوعب الآن إشارة الصغيرة نولا، بأن والدتها دعته بمناسبة، ولكنها لم تكشف له عن حقيقة هذه المناسبة.

توقف الجميع عن الغناء، ووضعت أم نيكول قرص الكيك عل الطاولة أمام راكان، وطلبت إليه أن يطفئ الشمعات المضيئة، وأحاط به الصغار يضحكون ويهزجون ويتدافعون وهم ينظرون إلى وجهه.

- أراهن على أنه سيطفئ الشمعات جميعها في ثلاث نفخات! قال ابن خالة نيكول، ابن التسع سنوات.

- لا، أنا أراهن على أنه سيطفئها في نفختين! قالت أخته التي تكبره بعامين.

- انفخ الشمعات يا راكان! قالت أم نيكول.

وقف الشاب، ثم انحنى قليلاً، وبنفخة واحدة أطفأها جميعاً.

ضج جميعهم بالضحك، وصار الصغار يعلقون ويتندرون على إطفاء الشمعات بنفخة واحدة.

ناولت الأم السكين إلى الفتى وطلبت إليه أن يقطع قرص الكيك إلى نصفين، وبعد أن فعل صارت المرأة تقطع الكيك وتوزعه على الحضور.

بعدها أُعطي راكان ثلاثة طرود، الأول من عائلة بيرسون وبه ربطتا عنق، والثاني من عائلة ورديبل وبه ثلاثة أزواج من الجرابات، أما الطرد الثالث والرابع فقد كانا من السيدة جولييت؛ وفي الأول محفظة نقود جلدية وبها مائة دولار أمريكي، أما الطرد الثاني فكان به راديو ترانزستور.

*****

أوصلت المرأتان الشاب إلى سكنه حوالي الساعة العاشرة مساءً، فوجد ضوء السيدة لويس يشع من تحت الباب، فأحس بحنين جارف وشوق جامح لرؤيتها.

فرحت المرأة كثيراً لرؤيته، وأعلمته بأنها افتقدته كثيراً، وأنها ولأول مرة منذ سنوات طويلة لم تستمتع بصلاة الأحد في الكنيسة، وأنها كانت مقبوضة النفس حزينة الفؤاد.

شعر الفتى بخجل شديد من نفسه، إذ إنه لم يفكر بها، بل وحتى لم تخطر على باله طيلة غيابه، وقد تذكرها فقد عندما دخل النزل.

سألته المرأة إن كان قد أمضى وقتاً ممتعاً فأجابها بالإيجاب، وحدثها عن كرم مضيفيه وحسن ضيافتهم له، وأعلمها السبب الحقيقي لدعوته! إذ أن الشاب أعلمها بدعوته قبل أن يغادر، حتى لا تقلق عليه، ولكنه لم يعلمها سبب الدعوة، لأنه هو نفسه لم يكن يعرف ذلك!

- إنني عاتبة عليك، لم خبأت عني هذه المناسبة السعيدة؟! قالت العجوز وفوق شفتيها ابتسامة كبيرة.

- إن عيد ميلادي هو غداً، وقد كنت عازماً أن أعلمك في نفس اليوم، قال الفتى ذلك ليجنب نفسه كثيراً من الأسئلة المحرجة، لأنها أمريكية، لا يمكن أن تصدق أن إنساناً ينسى عيد ميلاده! ثم إن هناك حقيقة هي أن مئات الملايين من دول العالم الثالث لا يعرفون تواريخ ميلادهم، ولا حتى السنة التي ولدوا فيها!

- هل تحب الطعام الصيني؟!

- جداً، لو آكل منه كل يوم وجبة لما مللته.

- يوجد مطعم صيني يبعد خمس دقائق من هنا سيراً على الأقدام، يقع على تقاطع شارعيْ "فيرأوكس" و"أورنج قرووف"، طعامه لذيذ جداً وأسعاره معتدلة.

- أعرفه جيداً! لقد دعاني إليه مرة زميل في العمل، ودعوته أنا بدوري مرة، وفي كلا المرتين استمتعت بأكله كثيراً! قال الفتى بحماس.

- عندما تعود من عملك مساءَ الغد ستجدني بانتظارك؛ أنت مدعو إلى العشاء في ذلك المطعم.

- أنا لم أمدح الطعام الصيني لتدعيني إليه؛ أرجوكِ اعفيني من هذه الدعوة؛ أنا لا أقبلها؛ سنأكل هنا معاً في النزل. قال الفتى بإصرار.

- أنا التي أرجوك أن لا ترفض! إنني سأحزن كثيراً إذا لم تقبل دعوتي! هذه المناسبة تمنحنا الفرصة للخروج من السكن وكذلك لنتحدث معاً.

- ولم لا أدعوكِ أنا؟!

- هذا لا يجوز إذ أن المناسبة تخصك، ولكنني سأقبل دعوتك في يوم عيد ميلادي الرابع والتسعين، قالت وأتبعتها بضحكة عالية شعر راكان وكأنها قصف الرعد لعلوها ولخشونتها.

- إذن اتفقنا! قال الفتى وهو يهز رأسه بالإيجاب!

كانت حقاً أمسية ممتعة جداً، تلك التي قضاها الشاب مع السيدة لويس، إذ كان الطعام متقن الطهو لذيذاً، كما أن جوع الفتى الشديد قد زاد من لذة الطعام؛ وضاعف من شهيته هو، كما لاحظ الفتى أن صديقته قد سرّت كثيراً وهي تراه يلتهم طعامه بمتعة وتلذذ زائدين.

عندما غادرا المطعم، كانت الشمس قد اختفت وراء الأفق؛ وكان نسيم المساء المنعش يبعث في جسميهما النشاط والقوة، وفي نفسيهما الفرح والبهجة! كانت المرأة تتكئ على عكازتها بيدها اليمنى، وبيدها اليسرى تجعل من ظهره مسنداً لها، وعندم دخلا النزل أشارت إليه بأن يتبعها إلى غرفتها.

دخلت العجوز غرفتها وأضاءت النور.

وقف الفتى مذهولاً لما رأى، فلقد وضعت المرأة طاولة في وسط الغرفة، بعد أن أفرغت ما فوقها من صور ورسومات، ثم أسندت في وسطها قرصاً من الكيك، زرعت به بعض الشموع؛ كما كانت هناك تشكيلة من علب وقوارير الأعصرة المختلفة، وكان هناك أيضاً ما يحتاجه الاثنان من صحون وشوك وسكاكين، وحول الطاولة كان هناك كرسيان اثنان.

ثارت عواطف الفتى، وازدحمت الدموع في عينيه، والتجم لسانه عن الكلام، ونظر إلى المرأة نظرات تطفح بالشكر والعرفان؛ ولما تقابلت عيونهما قالت وهي تدب على أرض الغرفة بحذائها الثقيل:

- لقد هاتفت صباح هذا اليوم صديقتي التي تأخذني دائماً إلى الكنيسة والتسوق؛ فجاءت وساعدتني في شراء الحاجيات، وكذلك في ترتيب الطاولة.

توجهت إلى شماعة الملابس وخلعت قبعتها التي ترتديها كلما خرجت، صيفاً أو شتاءً، وعلقتها فوقها، ثم علقت معطفها إلى جانبها، وأسندت عكازتها إلى الحائط.

- ولكن هذا شيء كثير، كثير جداً، أنا أعرف مقدار محبتك لي، فلا حاجة لأن ترهقي جسمك وتعذبي نفسك لأن تعبري لي عنها! صدقيني بطاقة معايدة، بل حتى قولك لي عام سعيد؛ هذا أكثر من كافٍ! قال الفتى بصدق وحماس.

بعد أن ضحكت المرأة بجذل وسعادة وتلاعبت بلسانها بطقم أسنانها الاصطناعية قالت:

- إنه من الصعب عليّ أن أصف لك النشاط المفاجئ والهمة العالية، اللذين اعتريا جسمي وروحي منذ الصباح الباكر! صدقني أنني شعرت وكأنما أطير بين السحاب، ولأول مرة ومنذ سنوات طويلة أشعر أنني أقوم بعمل يسعدني نحو إنسان أحبه، أنا أعتبرك ابني الذي لم ألده، وقد عوضني الله به عن الإنجاب!

- أرجوكِ لا تقولي أكثر، إذ إن عواطفي لا تحتمل الاستزادة! قال الفتى وقد انهمرت عيناه بالدموع، فحجبت رؤية المرأة أمامه.

- فلنترك العواطف الآن جانباً، ودعنا نحتفل! قالت المرأة وهي تجلس وقد أشارت إلى الفتى أن يفعل هو بالمثل؛ بعدها بدأت تغني له بصوتها الضعيف: عيد ميلاد سعيد... عيد ميلاد سعيد... لك يا راكان...! ثم طلبت إليه أن يطفئ الشموع فنفخ عليها وأطفأها بنفخة واحدة، ثم ناولته سكيناً كبيرة وطلبت إليه أن يقص الكيك، وبعد أن فعل قصت له قطعة وقدمتها له، وقصت أخرى وضعتها أمامها، ثم فتح كل واحد منهما تنكة عصير وصارا يأكلان وهما يتحدثان.

عند حوالي منتصف الليل استأذنها الشاب بالانصراف، فناولته طرداً صغيراً وبطاقة معايدة، ولما فتحهما وجد أن بالطرد ربطة عنق حريرية حمراء، وكتب على البطاقة بخط مهزوز كلمات عاطفية رقيقة أسعدت الفتى وأحزنته معاً!

*****

الفصل التاسع عشر

عاد راكان من عمله في إحدى الأمسيات ، فوجد ثلاث رسائل تحت الباب، الأولى كانت بدون مغلف وكانت من السيدة لويس، تعلمه بأن السيد والسيدة هانكوك قد أعلماها صباح هذا اليوم وثلاثتهم يتناولون طعام الإفطار بأن البيت الذي ورثته الزوجة عن والديها والواقع في مدينة "التدينا" المجاورة والذي يبعد بضعة أميال من النزل، قد أخلاه مستأجروه، وأنهما –أي السيد والسيدة هانكوك- سيرحلان إليه في نهاية الشهر ليتقاعدا، وأن النزل ستوكل إدارته إلى رجل متقاعد بسبب المرض مرسل من قبل كنيستهم! وفي ختام الرسالة تأمل أن يكون القادم الجديد حسن الأخلاق مهذباً خفيف الظل!

أما الرسالة الثانية فقد كانت من والدته وبخط أخيه، وفيها تلومه لوماً شديداً لعدم كتابته لهم منذ فترة ليست بالقصيرة، مما أقلقهم كثيراً وحيرهم، متهمةً إياه بقساوة القلب وانعدام المشاعر، وأن حياة الرغد والرفاهية في أمريكا قد أنسته إياهم!

أما الرسالة الثالثة فقد كانت من أمله المرتجى، السيدة جولييت، آملاً بل ومتوقعاً أن تعلمه بأنه سيلتحق بها في القريب العاجل.

ما كاد الفتى ينتهي من قراءة الفقرة الأولى من الرسالة، والتي تعلمها بها كم افتقدته وعن عمق الفراغ الذي تركه في حياتها، ثم عن شوقها الشديد لرؤيته! وحالماً بدأ بقراءة الفقرة الثانية من الرسالة حتى اكفهر وجهه وقطب جبينه وجف ريقه واسودت الدنيا في عينيه؛ إنه وقبل أن ينتهي من قراءة الرسالة حتى كانت دموعه قد بللت الرسالة فطمست سطورها وتشابكت حروفها.

لقد أعلمته المرأة بعد أن وصفت له ألمها وحزنها بأن لحاقه بها في الوقت الحاضر شبه مستحيل، أولاً لعدم إمكانية الحصول له على عمل في توولا، وثانياً والأهم من ذلك هو أن نيكول ستلتحق بجامعة "برقميانق" من جديد، وأنها ستسكن عندها، وأن الدراسة ستبدأ الشهر القادم.

وفهم من الرسالة أيضاً بأن حفيدتها غير متحمسة لمجيئه!

كانت السطور الأخيرة من الرسالة رجاءً حاراً إلى الفتى أن لا يحزن وأن لا ييأس، وطلبت منه أن يخطط منذ الآن ليقضي إجازته السنوية صيف العام القادم، والتي هي أسبوعان عندها في توولا، لأن نيكول ولا شك ستقضي عطلة الصيف الجامعية عند والديها في مدينة "قاردن قرووف" بكاليفورنيا.

ألقى الفتى بالرسالة جانباً ورمى بنفسه فوق السرير، بعد أن أطفأ النور، إذ كان في حالة شديدة من الإحباط والحزن الشديدين؛ كما استولت عليه حالة نفسية سيئة؛ إذ كره أمريكا وأهلها، كما كره نفسه أيضاً، وفكر أنه يجب أن يعود إلى الوطن وليقل عنه الناس ما يقولون!

تنبه الشاب على قرع متواصل على باب غرفته، وكانت السيدة لويس تعلمه بأن المطبخ وغرفة الطعام خاليتان، وأنهما يستطيعان الآن تجهيز طعامهما، اعتذر الشاب لها وأعلمها بأنه ليس جائعاً.

لا شك أن المرأة قد لاحظت هبوط معنوياته، وعبوس وجهه واكفهراره، وعلائم اليأس والخيبة في كلامه، فرجته أن يأتي إلى غرفتها ليتحدثا قليلاً، وليؤجلا تناول الطعام إلى بعد ذلك.

أعلمها راكان بعد أن جلس قبالتها بما جاء برسالة السيدة جولييت، وعظم ألمه وشدة خيبة أمله؛ وأنه يفكر جدياً بالعودة إلى وطنه، إذ أنه فشل في تحقيق ما جاء من أجله.

لم تفتح المرأة فاها، وإنما انتظرت حتى أفرغ الفتى كل ما بجعبته من آلام وهموم وإحباطات وخيبة أمل ثم قالت:

- الحياة مملوءة بالإحباطات وبخيبة الآمال يا ولدي! فإذا كنا سنذعن ونستسلم لكل فشل يقابلنا ويأس ونحني رؤوسنا لكل نازلة تلم بنا، فمن الخير لنا أن نرحل عن هذه الدنيا من الآن؛ ونوفر على أنفسنا أوجاع القلب وتمزقات الوجدان.

هز الفتى رأسه عدة مرات وكأنما ليقول لها، إنك صادقة فيما تقولين، وأنا أوافقك الرأي.

ولا يدري الفتى لماذا تذكر في تلك اللحظة، والمرأة تتكلم، نصيحة أخيه كريم له قبل عدة سنوات، وكان الفتى يمر بأزمة عاطفية حادة، ولقد قالت له تقريباً ما قاله له أخوه في ذلك اليوم.

لاحظ الفتى أن المرأة كانت تحدق في وجهه وكأنما لتستحثه على الكلام، ولما لم يفعل أضافت:

- إنك يا بني تضيع سنوات عمرك، وتهدر وقتك! إن الطريقة المثلى هي أن تلتحق بالجامعة هنا في كاليفورنيا في هذه المدينة، وليس في مدينة "أوقدن" بولاية يوتا! إن جامعة باسدينا ذات سمعة ممتازة جداً، وتبعد من هنا خمسة أميال فقط، وتأخذ الحافلة من أمام النزل؛ وتنزل منه أمام بوابة الجامعة، والدراسة بها مجاناً؛ لا تدفع ولا دولاراً واحداً رسوماً دراسية؛ فقط عليك أن تبتاع الكتب الدراسية، وثمنها زهيد جداً. ثم نظرت إلى أسفل لتتجنب النظر إلى عينيه؛ فشعر الفتى بأنها تريد أن تقول شيئاً تخشى إحراجه عندما قالت:

- أنا على استعداد أن أدفع ثمن الكتب!

وكأن الفتى كان في نوم عميق فاستيقظ فتطلع إلى المرأة والدهشة تغطي وجهه، وكأنما ليقول لها بالله عليك زيديني من آرائك النيرة وحكمك المتميزة فاسترسلت:

- يبدأ الفصل الدراسي في جميع أنحاء أمريكا الشهر القادم، وتستطيع أن تسجل للدراسة غداً وتسجل كطالب أجنبي فإن كل واحد هناك سيقدم لك أقصى درجات المساعدة.

- لقد قدمت لي مساعدة كبيرة بنصحك لي. إن ثمن الكتب مبلغ لكل الفصل أقل من راتبي أسبوعاً؛ فشكراً لك! ثم أضاف:

- لقد ذكر لي رئيسي بالعمل هذا، وقال بأنه سيرتب ساعات عملي حتى لا تتعارض مع دراستي، ولكنني شكرته لأنني كنت عازماً أن ألتحق بجامعة "برقميانق"، قال الفتى.

- الآن، وقد تبدلت الظروف، فإنني آمل أن تأخذ بنصيحة رئيسك في العمل!

اقتنع راكان بما قالت المرأة، وتحمس كثيراً لها وفرح رئيسه في العمل للفكرة واستعد بمساعدته لتأمين ساعات عمل له يكفي محصولها لسداد لوازم معيشته.

قبل مضي الشهر، كان راكان يحمل بطاقة تقول بأنه طالب في جامعة باسدينا، وقد قابل مرشده الدراسي، الذي ساعده على اختيار أربع مواد يأخذها ذلك الفصل.

- الآن بدأت تقطف ثمار مجيئك إلى أمريكا؛ بلد تكافؤ الفرص، ومطمع الملايين، الآن بدأت تستفيد مما تقدمه لك بلد الإخاء والمساواة والحرية والديمقراطية! قال السيد جورج أيبكن رئيس راكان في العمل وقد فرد ابتسامة كبيرة على وجهه، وهو يشد على يده ويهزها بحرارة ويهنئه على التحاقه بالجامعة للدراسة.

ضحك الفتى وشكره على خطبته العصماء وقال له مازحاً:

-لو كنت في الوطن الحبيب وألقيت خطبتك العصماء هذه في مدح عدالة وديمقراطية السلطان لعينك رئيساًلمجلس بلاطه.

- إذن فلنذهب أنا وأنت إلى هناك، وسأعينك أنا بدوري مساعداً لي! قال العجوز ذلك وانفجر يضحك.

في تلك الليلة كتب راكان رسالة إلى صديقته وأمه في أمريكا، السيدة أومناي جولييت، يعلمها بما فعل!

*****

كان اليوم يوم أحد، وكان اليوم الذي سبق يوم بدء راكان دراسته الجامعية، نهض الفتى من نومه مبكراً، على الرغم من أنه لم يأوِ إلى فراشه إلا في ساعة متأخرة جداً من الليل! كان باسم الوجه، مشرق الوجنتين، ضاحك العينين، مملوءاً قوةً ونشاطاً؛ وكان قلبه عامراً بالإيمان زاخراً بالأمل؛ إذ إن حياته في أمريكا قد بدأت تؤتي أُكُلَها، فإنه ومنذ صباح الغد سيبني أول لبنة في صرح مستقبله الباسم ، إن شاء الله.

قفز الفتى من فراشه بهمة ونشاط شديدين لم يعهدهما هو في نفسه من قبل، فرتب فراشه، لأول مرة منذ أكثر من شهر، ثم توجه إلى الحمام، وكان البيت ساكناً، إذ إن نزلاء النزل، ينامون متأخرين في هذا اليوم.

إن على راكان مهمات عديدة يجب أن يقوم بها هذا اليوم، وقبل أن يغرق نفسه في أمور الدرس والتحصيل، يجب أن يبتاع كل ما يحتاجه من طعام طيلة أسبوع كامل، ثم يجب أن ينظف غرفته التي أهمل تنظيفها لأكثر من شهرين، ويغسل ما تجمع عنده من غيارات وشراشف وبشاكير؛ ثم عليه أن يكوي بذلته وقمصانه.

عندما عاد الفتى من رحلة التسوق وجد السيد والسيدة أندرسون ما زالا يتناولان فطورهما، فأعلمته الزوجة بأن السيد هانكوك قد هاتف النزل قبل قليل، وطلب إليها أن تعلم جميع النزلاء، بأنه سيأتي حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر ومعه القادم الجديد الذي سيسكن في غرفته، والذي سيقوم بملاحظة أمور النزل، إذ إنه يريد أن يقدمه إليهم.

لم يكن الفتى قد انتهى بعد من كي ملابسه عندما سمع صوت الباب الخارجي يُفتح، وأصوات حقائب وصناديق ورجال يتكلمون، ثم يدخلون إلى الغرفة التي أخليت برحيل السيد والسيدة هانكوك، ثم سمع صوت هانكوك ومرافقه وهم يجتازون من أمام باب غرفته في طريقهم إلى غرفة الطعام والمطبخ وغرفة الغسيل! لا شك أن السيد هانكوك كان يُري مرافقه هذه الأماكن، ويعلمه ما عليه أن يفعل.

قدم السيد هانكوك الفتى إلى ضيفه، وقد أثنى عليه ثناءً عطراً، وقال بأنه شاب طموح ومؤدب ودمث الأخلاق، ولا يستطيع المرء إلا أن يحبه ويحترمه، مما أخجل الفتى وأربكه، ثم أضاف:

- إنني بعد أن عاشرت راكان وعرفت كم هو مثالي وشهم؛ تمنيت لو أنه يكون ابناً لي! قال وهز رأسه بحسرة ثم أضاف:

- لم يكن هذا رأيي أنا وحدي، وكذلك كان رأي زوجتي.

- شكراً لك يا سيدي، أنا أستمد ما عندي من شهامة مما عندك أنت وزوجتك! قالها راكان على الطريقة العربية.

لاحظ راكان أن يد القادم الجديد كانت سمينة جداً، وكأنها قطعة من اللحم الهبر، وناعمة كالحرير، وكأنها يد حسناء مترفة؛ ومملوءة الأصابع ولكنها قصيرة . كما لاحظ أن الرجل يتكلم كالفيلسوف وأنه يفكر قبل أن يخرج كلماته من فمه، وأن يختار الألفاظ الجزلة والكلمات ذات الوقع الرنان والموسيقى الحلوة، ثم يختار كلماته ويتكلم بلغة فصحى وجملٍ مركبة تركيباً محكماً ... وكذلك يلفظ كلماته بوضوح وتأنٍ وكثيراً ما يصر على مقاطع الكلمات، فيضيف عليها جمالاً فوق جمالها!

- هل بهرتك حضارتنا يا فتى؟! لا شك أنك ذُهلت عندما شاهدت تقدمنا التكنولوجي والعلمي! سأل الرجل.

شيء آخر لاحظه الفتى والسيد هانكوك يقدمه إلى النزلاء، وهو أنه عندما يصافح أحدهم فإنه يخلع قبعته ويحني قامته احتراماً لمن يصافحه ! لقد كان رأسه خالياً من الشعر تماماً وكأنما خرج من عند المزين للحظته!

احتار الفتى إن كان الرجل يفعل ذلك ظناً منه أنه لا يفهم اللغة جيداً بسبب أجنبيته، فيحاول أن يتأنى في لفظه، أو أن هذه هي طبيعته عند التحدث !

قطع السيد هانكوك على الفتى أفكاره عندما قال:

- سيقوم السيد "أدلن" بمراقبة شؤون النزل... بالإجابة على المكالمات الهاتفية... ويقوم بإفراغ سلال النفايات... ويُري الغرف التي يخليها ساكنوها إلى المستأجر الجديد...! وبعد أن توقف قليلاً أضاف:

- إن بيتنا يبعد دقائق قليلةً من هنا، وقد كتبت رقم هاتفنا على ورقة ألصقتها على الحائط فوق طاولة هاتف النزل، فإذا احتاجنا أحد النزلاء فستكون زوجتي وأنا خلال دقائق هنا، كما أنني سأمر هنا في معظم الأيام وربما لأكثر من مرة.

يبدو أن النزلاء في الدور الثاني والثالث قد سمعوا صوت السيد هانكوك الجهوري وهو يهدر متحدثاً إلى راكان والقادم الجديد، وما هي إلا لحظات حتى كان كل من يقطن النزل يتجمهرون حولهم، فيقدمهم إلى بعض، ثم يبدؤون بالتزاور معاً، باستثناء السيدة لويس، التي يبدو أنه بسبب ضعف سمعها لم تنضم إلى قائمة الحضور.

إن الذي أدهش راكان بل أذهله هي نظرة الكراهية والاحتقار الشديدتين، اللتين ألقتهما السيدة لويس على القادم الجديد وهي تصافحه والسيد هانكوك يقدمهما لبعض! لقد تصورهما راكان عدوين لدودين جمعهما القدر وجهاً لوجه دون دراية مسبقة! لقد جزم الفتى وقتها بأنهما يعرفان بعضاً مسبقاً، وأن بينهما عداوة مستحكمة، لأنه من غير

المألوف، ولا المعقول، أن تكره إنساناً وتحتقره حتى الموت حالما تقع عليه عيناك لأول مرة، ولكن تبين له فيما بعد أنه كان مخطئاً!

كان السيد أدلن في حوالي الخمسين من عمره، قصير القامة، مملوء الجسم، أسمر البشرة، منتفخ الوجه، ذو أنف كبير وأفطس، تستند عليه نظارتان سوداوان ضخمتي الإطار، وبهما زجاجتان سميكتان جداً، حتى يخيل إلى الناظر إليه أنهما حجران كبيران مزروعان في وجهه، أما فمه فكان وكأنه طاقة في صخرة كبيرة، غير أن أسنانه كانت ناصعة البياض، وكأنها عقد من اللؤلؤ أو الألماس!

شيء آخر حير الفتى هو كثرة الملابس التي كان يرتديها، على الرغم من أن الطقس كان شبه حار، ثم إن هذا القسم من كاليفورنيا لا يرى البرد حتى في عز فصل الشتاء، فقد كان يرتدي بذلة شتوية سوداء عتيقة جداً وقذرة، لا شك أنها لم تكوَ منذ زمن طويل، إذ كان البنطلون مكوراً كشكل بوري الصوبة، يرتديه سكان الجبال العالية في فصل الشتاء، وكان يرتدي تحت الجاكيت قميص صوفٍ أخضرَ سميكاً، وفوق القميص جارزة صوف سميكة بنية اللون، ذكرت راكان بجارزات من مخلفات الجيش كانت تباع في دكاكين بيع الملابس القديمة في مدينته الخالدة! لم يكن يضع ربطة عنق، وإن كانت قبة القميص مزررة!

كان يرتدي فوق جميع هذه الملابس معطفاً بنياً ثقيلاً، اهترأ قماشه حول فتحات الأزرة، وفي جيبه اليمنى زوجٌ من كفوف الجلد التي أطلت أصابعها، كما كان يرتدي قبعة سوداء قد شدها إلى أسفل حتى غطت حاجبيه!!

*****

- ما رأيك في الساكن الجديد؟! سألت السيدة لويس راكان وهما يجهزان طعاميهما في المطبخ، وكانا الوحيدين به.

- أعتقد أنه إنسان لا بأس به، مؤدب ومحترم.

- لا يا سيدي! أنا أخالفك الرأي؛ إنه لم يعجبني، إنني لم أره بنفس المنظار الذي رأيته أنت به! قالت وهي تشد على مقاطع الكلمات، وقد ظهر الامتعاض والاشمئزاز والقرف أيضاً على وجهها، وكأنما تذكرت شيئاً كريهاً، أو رأت منظراً مقرفاً أمامها.

- وما الذي لم يعجبك به؟!

- كل شيء! نعم كل شيء! شكله؛ ملابسه؛ تصرفه؛ حركات وإشارات يديه؛ طريقة كلامه؛ كل شيء، كل شيء! قالت بنرفزة وحدة، وبصوت عالٍ.

خاف الفتى أن يسمعها الرجل، فيعتقد أنهما هما الاثنان يحطان من قيمته، فنظر باتجاه غرفة الرجل لا شعورياً، ولكنها استرسلت وبحماس أشد.

- هل لاحظت الطريقة التي يرتدي بها قبعته؟! إنها تشبه الطريقة التي كان قطاع الطرق واللصوص والمافيا يرتدون بها قبعاتهم في شيكاغو! أما وهو يصافحك فتفكر أنه يريد أن يسلبك أصابعك، وهنا ابتسمت العجوز وأضافت:

- لقد تفقدت أصابعي بعد أن صافحني، لأتأكد من أنه لم يسرق أحدها.

وهنا انفجر الفتى يضحك بصوتٍ عالٍ، إذ تذكر حقاً أن المرأة نظرت إلى يدها، بعد أن صافحها السيد أدلن، ثم مسحتها بعد ذلك في ملابسها.

- هل رأيت كيف كان لافّاً نفسه بكل تلك الملابس الثقيلة، وكأنه يتسلق جبال الهملايا؟! إن اللفاع الذي كان يلفه حول عنقه لم أرَ أحداً يرتديه في كاليفورنيا! إنهم يرتدون مثله في بلاد الثلوج وفي الجبال العالية، ثم خفضت صوتها وقربت فمها من أذن الفتى، الذي طامن قامته حتى يقرب أذنه من فمها متظاهراً بالاهتمام الشديد، وقد كسى وجهه بجدٍ ووقار، فقالت:

- من يدرينا أن هانكوك قد أحضره ليأخذ مكانه في إدارة الخلية الشيوعية الإيطالية، ليستولوا على الحكم في البلاد! قالت ذلك وأتبعتها بهزة شديدة من رأسها، ثم قلبت شفتيها وتلاعبت بأصابع يديها.

- اطمئني... اطمئني... من هذه الناحية لا تقلقي، إذ إن مكتب التحقيقات الفيدرالي مفتوح العينين، وسيلقي القبض عليهم في الوقت المناسب.

- إنني أخشى أن ينفذوا مؤامراتهم قبل أن يُكشفوا فتصبح البلاد شيوعية! قالت المرأة وكأنها مسؤول عظيم في مركز حساس يواجه مشكلة عصي عليه حلها.

وهنا علت وجه جميل سحابة من الحزن والألم، فقد أدمى قلبه أن يرى امرأة عظيمة، منحته حبها وحنانها تفكر هذا التفكير الخرف، فقال وعيناه تغرغران بالدموع:

- لا تزعجي نفسك! سأتدبر الأمر!

- وهل أعتمد عليك؟! قالت بحزن واهتمام شديدين.

- طبعاً... طبعاً... إن شاء الله! قالها بالعربية، ثم مسح بظهر يده دمعتين كبيرتين حارتين سقطتا فوق خديه.

- اعذريني، إن في نيتي أن آوي إلى فراشي مبكراً حتى أستيقظ نشيطاً في أول يوم لي بالدراسة! تصبحين على خير! قال ذلك وقد نهض واقفاً.

- أسأل الله أن يوفقك يا بني، سأنتظرك غداً بفارغ الصبر، لأسمع رأيك في جامعاتنا.

- سأراك في المساء، إذ إنني سأذهب بعد انتهاء الدراسة رأساً إلى عملي.

- هل ستأتي في موعدك المعتاد؟!

- نعم، وسنتعشى سوية.

- رائع!! قالت وهي تدس يدها في جيب مريولها وتخرج مفتاح غرفتها.

- أحلاماً سعيدة! قال الفتى وهو يشكر الخالق الذي أرسل له هذه المرأة الحنونة.

- أحلاماً سعيدة لك! قالت وهي تؤشر له بيدها، ثم وهي تفتح باب غرفتها وتغلقه خلفها.

*****

كانت الساعة لم تبلغ الثامنة بعد، وقد فكر راكان أن يخلع ملابسه ويأوي إلى فراشه، ولكنه وجد أنه لم يشعر بالنعاس، إذ إن هذا الوقت بالنسبة له مبكر جداً، حيث أنه لم يتعود على مثل هذه الرفاهية.

فكر أن يقرأ في المجلد الضخم الذي أحضره معه من الوطن، والذي يقرأ به عادة بعض الصفحات قبل أن يأوي إلى فراشه، وكلما وجد عنده وقتاً؛ إنه "جمهورية أفلاطون!"

ابتسم الفتى بمرارة وهو يقرأ عن المجتمع المثالي السعيد، الذي تحدث عنه أفلاطون، قبل حوالي ألفين وخمسمائة سنة؛ فإنه لم يتحقق حتى الآن، إذ ازدادت تعاسة البشرية وتعاظمت إحباطاتها!

مسكين أفلاطون... لقد أمضى زهرة شبابه... أيامه ولياليه... وهو يرسم لنا، نحن بني البشر، مجتمعاً سعيداً نعيش به... مجتمعاً مثالياً؛ ونحن نهزأ بأفكاره، ونسخر من أحلامه! لو أنه بنى قناً للدجاج لكان الدجاج قد استحسن ما فعله من أجله خيراً من بني البشر!

وضع الكتاب جانباً، بعد أن قرأ صفحتين اثنتين فقط، إذ فقد الرغبة في القراءة، ثم تناول مجلة مصورة كانت ملقاة على الطاولة أمامه، وقبل أن ينتهي من تصفحها خطرت على باله فكرة زيارة جاره الجديد.

وقف خلف الباب يسترق السمع، بعد أن رأى الضوء ينبعث من تحته، ليتبين إن كان الرجل ما زال مستيقظاً، فوصلت إلى أذنيه نغمات موسيقى ناعمة! نقر على الباب نقرتين خفيفتين، وجاءه صوت من الداخل أن "تفضل"، دفع الباب قليلاً فدخل جزء منه في الحائط، وقبل أن يدخل هو جسمه داخل الغرفة، طلب إليه الرجل أن يغلق الباب خلفه.

كان للغرفة رائحة كريهة جداً تكاد تكتم الأنفاس، إذ كانت المدفأة الكازية مشتعلة على أشدها، وكانت النوافذ والباب جميعها مغلقة، إذ لم يكن هناك منفذ لدخول الهواء النقي!

كان السيد أدلن واضعاً نفسه بالفراش ومسنداً ظهره إلى الحائط، وكان يرتدي كل الملابس التي كان يرتديها عندما قدمه السيد هانكوك إلى راكان وبقية النزلاء باستثناء الحذاء والقبعة، إذ كان يلف رأسه بطاقية صوف سميكة سوداء، غطت كذلك قسماً كبيراً من رقبته!

رحب الرجل بالفتى ترحيباً حاراً دون أن يحرك نفسه قيد أنملة من سريره، بعد أن أعلمه راكان أنه قدم ليبارك له بالغرفة، وليرجو له طيب الإقامة.

- اعذرني إنني مستدفئ في فراشي، إذ إن عندي روماتزم شديداً، والطقس البارد يزعجني كثيراً، قرّبْ ذلك الكرسي واجلس عليه.

- لقد فكرت أن آتي لزيارتك لنعرف بعضنا أكثر، فآمل أن أكون قد أتيت في الوقت المناسب! قال الفتى وهو يجلس.

- لقد كان لطيفاً منك أن تفعل ذلك، إنه وقت مناسب جداً لي.

بعد أن أجاب الفتى على عشرات الأسئلة الروتينية التي يُسألها عادة عندما يقابل إنساناً لأول مرة، والتي غالباً ما تكون عن حياته الشخصية، متى حضر إلى أمريكا؛ وما رأيه فيها؛ والفرق بينها وبين وطنه... إلخ... إلخ... إلخ. سأله الفتى:

- هل لك مدة طويلة في منطقة باسدينا؟!

- تسعة شهور ونيف، كنت أسكن على بعد حوالي خمسة أميال من هنا، في أبعد نقطة في المدينة المجاورة (ألتدينا) في سفح الجبل، في غرفة صغيرة لها مطبخ بحجم غرفة الحمام! كانت مريحة جداً وكنت قانعاً بها، ولكن الذي كرّهني بها هو بعدها عن الناس! كنت أشعر دائماً بأنني وحيد وأن الوحدة تقتلني؛ لا أزور أحداً ولا أحد يزورني، أقضي الليل والنهار، وليس لي من صديق إلا هذا المذياع الصغير.

فجأة تغير وجه السيد أدلن، وعلته موجة حزن شديدة وأضاف:

- إنني قد أموت في غرفتي ولا أحد يعرف بموتي، وقد لا يكتشفون موتي إلا بعد شهور! إنك تعيش في رعب من مجرد فكرة قدوم الموت قبل أن يزورك أحد!

- هذا شيء حقاً مخيف، ولكن لم هذه العزلة؟ ! سأل الشاب وقد استبد به ألم ورعب شديدان! لقد تصور نفسه بمكان ذلك الرجل!

- كانت الغرفة التي أسكنها تقع خلف بيت كبير وقديم؛ منعزل عمّن حوله من البيوت؛ يقع على أرض مساحتها فدانان؛ يسكنه زوجٌ وزوجة في الثمانين من عمريهما، كانت ابنتهما تأتي كل يوم لمدة ساعة فترعى شؤونهما؛ لم يكن عندها وقت لي، رأيتها مرات قليلة خلال التسعة شهور التي سكنتها هناك!

- اعذر تطفلي، وكيف كنت تبتاع حاجياتك؟!

- كانت تأتيني سيدة من كنيستنا صباح كل يوم أحد، وبعد أن نحضر الصلاة ونتزاور مع بعض الحضور، أذهب وإياها ونتناول طعام الغداء، ثم تساعدني على شراء ما يكفيني طيلة ذلك الأسبوع.

فكر الفتى أن يسأله من أين يحصل على النقود، ولكن الرجل عفاه من السؤال، إذ قال:

- الكنيسة هي التي أوجدت لي هذه الغرفة، وكذلك تكفلت بدفع فاتورة مشترياتي من الطعام، أنا لا أدفع إيجاراً هنا.

"مسكين السيد أدلن، لقد جاء هنا ليعيش في بيت به أناس، حتى يشعر بالأمان والاطمئنان!" قال الفتى لنفسه، وقد استولت عليه موجة من الاكتئاب الشديد.

- أليس لك أقارب؟!

- والداي توفيا بحادث تصادم سيارتين، وكنت وقتها ابن خمس سنوات؛ كفلتني عمتي؛ ولكنها توفيت قبل أن أنهي دراستي الثانوية، بعدها كفلتني الكنيسة.

- وأين كنت تسكن قبل أن تأتي إلى هذه المنطقة؟!

- قبل وفاة والديّ، كنا نسكن في مدينة لوس أنجلوس، وعندما كفلتني عمتي كذلك كانت تسكن في نفس المدينة؛ ولكن بعد أن كفلتني الكنيسة وبعد أن أنهيت الدراسة الثانوية وجدوا لي عملاً في محطة للراديو كعامل نظافة، ولكنني أقرأ كل ما تقع عليه يداي، وأمضي كل دقيقة لا أعمل بها بقراءة التمثيليات أو بالاستماع إليها من المذياع.

"إن قصتك بالنسبة لهوسك بالمطالعة هي قصتي يا هذا؛ إننا في الهوى سوى!" قال الفتى لنفسه.

- بعد عملي بالإذاعة لمدة سنتين، كتبت أول تمثيلية إذاعية، لاقت استحساناً كبيراً، مما شجعني على مواصلة الكتابة حتى أصبحت مشهوراً جداً؛ وبقيت أكتب التمثيليات الناجحة مما أسعدني كثيراً!

توقف السيد أدلن عن الكلام لفترة، ولا يدري الفتى هل توقف ليعطيه الفرصة ليقول شيئاً، أو ليعطي نفسه الوقت ليجتر ذكرياته.

- ثم ظهر التلفاز وهنا حدثت الطامة الكبرى بالنسبة لي؛ إذ انصرف معظم الناس إليه، وخلال الخمس عشرة سنة الماضية ضعف الإقبال على المذياع، اللهم إلا اللذين يستمعون إليه وهم يقودون سياراتهم.

- لم لا تنتقل إلى التلفاز فتكتب له؟!

- لقد حاولت لمدة طويلة، ولكنني لم أُوفق، إذ أن متطلبات التلفاز غير متطلبات الراديو! لقد أعلموني بأن عندي موهبة الكتابة للإذاعة، وليس عندي الموهبة للتلفاز ! لقد كتبت للتلفاز عدة مسرحيات، ولكنها لم تكن ناجحة، بل ولا حتى مقبولة.

لاحظ الفتى أن مضيفه كان يستعمل اللغة الفصحى في حديثه ويميل إلى استعمال البلاغة، إذ كان ينطق الكلمات بتأنٍ ووضوح، كما أنه يتكلم بعمق وبحرارة، فتشعر وكأنما الكلمات تخرج من أعماق قلبه وليس من لسانه!

- لقد حدثتك طويلاً عن نفسي، إنك تعرف الآن عني كل شيء؛ فهل لك أن تحدثني عن نفسك... عن خططك... وطموحاتك! قال السيد أدلن.

- إنني أعشق كتابة الرواية، ولقد كتبت مئات الصفحات ولكنني لم أنشر ولا واحدة منها بعد! قال الفتى بفخر جاهلي.

- دعني أطلع على بعضها، إذ أستطيع أن أحكم إن كانت تصلح للنشر، كما أنني أستطيع أن أرشدك إلى أية دار للنشر ترسلها؛ أما إذا كانت بحاجة إلى بعض الملاحظات والإرشادات فسوف أساعدك على تقويمها، ثم لا تنس أن نشر أول رواية فيه صعوبة ويحتاج إلى وقت وصبر.

- ولكن جميع كتاباتي هي باللغة العربية! لم أكتب باللغة الإنجليزية بعد! قال الفتى وقد فقد بعضاً من حماسه.

- لا بأس، أنت ما زلت صغيراً؛ وغداً ستلتحق بالجامعة؛ وبعد أن تتخرج منها، ستنضج أكثر وتكون عندك خبرة أعمق؛ كما وستكون كتاباتك رائعة؛ أنا لا أقول أن لا تكتب حتى تنهي دراستك الجامعية، أبداً... اكتب كلما سمحت لك الظروف، ولكن لا تجعل عدم النشر يثبط عزيمتك. قال الرجل بحماس، وبعد أن رطب شفتيه بلسانه أضاف:

- أكتب كلما وجدت وقتاً للكتابة، المهم أن لا تيأس! إن طريق الكتابة صعب وشاق ...قد تكون عندك الموهبة، وما تكتبه جيد ويستحق النشر، ومع هذا لا يقبلون نشر كتاباتك؛ إنك تحتاج إلى إنسان يؤازرك ويأخذ بيدك.

- قد تضحك إن قلت لك بأنه لا يهمني كثيراً إن نُشرت كتاباتي أو لم تنشر؛ إذ إنني أكتب لأروي ظمأي إلى الكتابة، ولأشبع جوعي إليها! إنني أكتب أحياناً لأتخلص من هذا الشيطان الذي يستبد بي ولا يتركني حتى أجلس وأكتب ما يتأجج في داخلي!

- إنك تقول هذا في البداية؛ ولكن بعد فترة يهمك نشر ما تكتب، لأنه يدخل السرور إلى نفسك؛ هذا بالإضافة إلى أن الناشر سيدفع لك نقوداً؛ قد تكون قليلة ولكنها دخل لك. قال الرجل بحماس وقد رافقها بضربة من يده بالهواء.

بعدها تفرع الحديث عن الكتابة والكتاب والتلفاز والمذياع، إلى أن قال الرجل والفتى يتمنى له ليلة سعيدة وهو يهم بالمغادرة:

- إذن غداً أول يوم لك في الجامعة، أتمنى لك التوفيق! إياك أن تتردد في سؤالي عما يصعب عليك فهمه.

*****

أعلن منبه الساعة السادسة والنصف صباحاً، فنهض الفتى من فراشه فرحاً باسماً، يطفح قلبه حبوراً وتضمخ السعادة كل خلجة في كيانه، فتوجه إلى غرفة الحمام حيث اغتسل وحلق ذقنه، ثم دخل المطبخ، فشكر الخالق أنه كان خالياً من النزلاء، وحمّص بعض قطع الخبز والتهمها على عجل، بعد أن غطاها ببعض مربى التوت، وشرب معها كأساً من الحليب المبرد، ثم غادر النزل دون أن يشعر به أحد.

قطع الشارع إلى الرصيف المقابل، حيث موقف الحافلة، ونظر إلى ساعته فإذا هي السابعة والدقيقة الواحدة والعشرون بالضبط، أخرج برنامج الحافلة من جيبه ليتأكد للمرة العشرين من أن موعد وصولها إلى التقاء شارعي "أورنج قرووف" و"لنكن"، هو الساعة السابعة والتاسعة والعشرون دقيقة! لقد خالجه بعض القلق، إذ إنه لم ير أحداً متواجداً في محيط موقف الحافلات! فجأة ابتسم وشعر بارتياح عظيم، وازدادت سعادته، وهو يرى تلميذين، شاباً وفتاة مقبلين، يحمل كل واحد منهما كتبه، متشابكي اليدين ويتضاحكان، وما هي إلا لحظات حتى اكتظ موقف الحافلة بالعديد من الناس.

كان الصباح جميلاً ومشرقاً، وقد احتار الفتى فيما يرى، إذ صار يقارن بين ما يرى الآن وما رآه في الأيام الماضية! لم يكن هناك من أثر للدخان الذي كان يلف المدينة ويراه طيلة النهار، فقد رأى جبال ولسن الشاهقة وكأنما ارتدت حلة خضراء، وبدت وكأنها عروس ليلة جولتها، فاستبشر خيراً.

كان الطالب الجديد أول الواقفين في الطابور وكان يقف خلفه تماماً طالبة زنجية وصاحبها! خطا راكان جانباً وطلب إليها أن تتفضل بالدخول مفكراً أنه سيدخل بعدها، ولكن صاحبها دخل بعدها دون أن يأبه له، وكان يقف خلفه رجل وامرأة بخط متساوٍ، فأفسح راكان الطريق لتدخل المرأة مؤكداً لنفسه أنه لن يدع الرجل يدخل قبله، ولكن أغضبه أن رأى الرجل يتجاهل وجود المرأة ويدخل هو قبلها! نظر الشاب حوله وكأنما ليشهد الحضور على سوء تصرف الرجلين وليرى ردة فعلهم، ولكن هاله أن أحداً لم يُعِرْ ما حدث أقل اهتمام!

شعر الشاب بسعادة طاغية وهو يسير في باحة حرم الجامعة، وشكر الخالق الذي حقق له حلماً طالما راوده منذ الصغر، وهو الدراسة في جامعة أمريكية، كما أفرحه أن يرى الطلبة من الجنسين يطوقون خصور بعضهم بعضاً ويتضاحكون؛ وكأنهم في نزهة غرامية، وليس في حرم جامعي!

لقد سجل راكان في أربعة مساقات، كلها متطلبات جامعية؛ كان المساق الأول لغة إنجليزية كتابة وقواعد، وبه حوالي الثلاثين طالباً بينهم طالبان أجنبيان بالإضافة إلى راكان؛ واحد من الصين والثاني من الهند، أما بقية الطلاب فكانوا جميعهم خريجي المدارس الأمريكية؛ أما المساق الثاني فكان تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية منذ اكتشافها حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي؛ وكان نصف منتسبيه من الطلاب الأجانب، من قارتي آسيا وأفريقيا؛ وكان المساق الثالث دستور الولايات المتحدة الأمريكية والتعديلات التي أُدخلت عليه؛ أما المساق الرابع فكان فن الخطابة، وهي مادة تعد الطالب لأن يقف أمام حشد من الناس دون خوف ولا ارتباك ولا تلعثم! كان به حوالي عشرين طالباً، وجميعهم طلبة أجانب من البلاد التي لا يتكلم أهلها اللغة الإنجليزية!

كانت أستاذة مادة فن الخطابة امرأة جذابة وجميلة جداً، وبحدود الأربعين من عمرها؛ طويلة القامة، نحيفة الجسم، ممشوقة القوام، ذات عينين عسليتين ، تسحران الناظر إليهما! كانت بشوشة ومرحة لا تفارق الابتسامة الصادقة شفتيها! لقد قدمت نفسها إلى طلاب فصلها بأنها متزوجة، وزوجها أستاذ لغة إيطالية في نفس الجامعة، وعندهم ثلاثة أطفال ولد وبنتان، أكبرهم في الثالثة عشرة من عمره وأصغرهم في التاسعة ! هي وزوجها إيطالي الأصل، جاء أهلهما مهاجرين قبل ما يزيد عن خمسين عاماً؛ تعرفت إلى زوجها وأحبا بعضاً عندما كانا طالبين في جامعة جنوب كاليفورنيا! إنها الأستاذة الوحيدة من بين الأساتذة الأربعة التي حدثت الطلاب عن خلفيتها العائلية والأكاديمية!

كانت أول مهمة يقوم بها الطبة منتسبي هذا المساق، بدءاً من اللقاء القادم، وهي أن يقف الطالب خلف المايكروفون وأمام المجموعة، وغير بعيد منه مسجل، ثم يتحدث إليهم وإلى الأستاذة طبعاً عن نفسه... عن البلاد التي جاء منها... عن تجاربه... طموحاته... الصعوبات التي قابلته... لمدة ثلاث دقائق، ثم يدون كل طالب ملاحظاته؛ بعدها يستمتع الجميع إلى التسجيل، ثم يدلي كل بدلوه ناقداً أو مادحاً المتحدث؛ وقد اختيرت إحدى الطالبات، وكانت من النرويج، لتراقب الوقت !

لا شك أن المرأة ذكرت كل هذا، عن حياتها الخاصة لتشجيع طلابها على أن يتحدثوا عن حياتهم الخاصة هم الآخرين دون خجل أو الشعور بالحرج.

لم يكن الجمع بين واجبي العمل والدراسة بالسهولة التي ظنها راكان، فلقد كانت حياة قاسية جداً ! كان ينهض في الساعة السادسة والنصف صباحاً؛ فيحلق ذقنه ويرتدي ملابسه بغير تأنٍ ولا اعتناء؛ ثم يلقي بجوفه كأساً من العصير أو الحليب المثلوج، ثم يعمل عدداً من الشطائر يلتهم بعضها وهو يركب الحافلة في طريقه من البيت إلى الجامعة، إذ إن عليه أن يكون في قاعة المحاضرات ثلاثة أيام في الأسبوع في تمام الساعة الثامنة، وينتهي الساعة الواحدة إلا خمس دقائق!يلتهم القسم الآخر وهو يهرول من الجامعة إلى مكان عمله!

لم تكن الجامعة بعيدة عن مكان عمله، إذ كان يقطعها سيراً على الأقدام! لقد كان يعمل كل ما بوسعه؛ ليكون كل يوم على رأس عمله في الساعة الواحدة والربع، ليجمع ساعات عمل يمكّنه أجرها أن يكفي متطلباته المعيشية.

*****

لم يذكر راكان إطلاقاً أنه عاد إلى النزل قبل الساعة السابعة ليلاً، وإن كان في كثير من الأحايين يعود وقد تجاوزت الساعة الثامنة ! لقد كان ينتهي من العمل الساعة السادسة والنصف، ويسير على قدميه بأقصى سرعته إلى موقف الحافلة، حتى إذا كان محظوظاً لحق بها وركبها حتى أمام النزل، أما إذا فاتته الحافلة فعليه أن ينتظر التي تأتي بعدها، لنصف ساعة في العادة.

نادراً ما انتهى الفتى من تناول وجبة طعام العشاء، وغسل ما استعمله من أدوات الطبخ قبل الساعة التاسعة، وعندما كان يجلس للدراسة بعد يوم طويل مرهق وشاق، يجد أنه متعب جداً، لدرجة أنه كان عاجزاً عن القراءة، وحتى إن استطاع القراءة، كان يجد أن عقله لا يستوعب ما قرأه، على الرغم من قراءته لكل فقرة عدة مرات، عندها لا يجد بداً من أن يلقي بنفسه فوق الفراش ويروح في سبات عميق !

قلّت زيارات الفتى للسيدة لويس كثيراً، واكتفيا بالمحادثات القصيرة في المطبخ أو في غرفة الطعام؛ فقد كانت تحثه دائماً على أن يرحم نفسه بأن يقلل من ساعات العمل، وتطلب منه أن يترك لها ما استعمل من أدوات الطبخ إذ إنها ستقوم بغسلها !

قلما فتح الشاب باب غرفته، عند عودته في المساء، إلا ووجد رسالة قصيرة من السيدة لويس تخبره بها عما حدث معها أو ما جرى في النزل في ذلك اليوم، ومع الرسالة أيضاً قصاصات من جريدة "لوس أنجلوس تايم" والتي تصلها يومياً، وهذه القصاصات غالباً ما تكون عما يجري في الشرق الأوسط أو عما يُكتب عنه !

فقد الفتى كثيراً من وزنه، وبرزت عظام وجهه فظهرت وكأنها حجارة ناتئة في أرض بور، وبدا للناظر وكأنه مجموعة من العظام والجلد! عرض نفسه على طبيب الشركة الذي نصحه بعد أن عرف وضعه أن يتنازل عن إحدى المهمتين الدراسة أو العمل، وإلا فإنه حتماً سيصاب بانهيار في الأعصاب ! أما رئيسه فقد نصحه بأن يكتفي بحمل مساق أو مساقين، غير أن الفتى رفض الفكرة لأنه عندها سيحتاج إلى ثماني سنوات بدلاً من أربع، للحصول على الشهادة التي يطمح بالحصول عليها، وهي شهادة البكالوريوس !

لم تعجب الفكرة الفتى؛ بل رفضها جملةً وتفصيلاً، معتقداً بأنه بعد فترة وجيزة سيتعود على هذا الوضع، ويصبح حالة طبيعية، إذ إنه سمع وقرأ عن الكثيرين الكثيرين الذين جمعوا بين الدراسة والعمل ولسنوات طويلة، متناسياً حقيقة ثابتة؛ هي أن الذين سمع بهم وقرأ عنهم، كانوا يعملون ساعات قليلة وليست مثله طويلة جداً، كما أنهم كانوا يعملون بوظائف مكتبية وليست جسدية مرهقة، بالإضافة إلى أنهم لم تكن عندهم مشكلة لغة !

كان راكان يقضي طيلة يوم الأحد، وهو يوم العطلة الأسبوعية، من الساعة التاسعة صباحاً حتى منتصف الليل، يحاول أن يدرس ما تجمع عليه خلال الأسبوع، وكان يحرم نفسه ويرفض كثيراً من الدعوات التي توجه إلى الطلاب الأجانب من أمثاله للغداء أو العشاء، وحتى لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، ضيفاً على إحدى العائلات الكريمة، والتي كانت تدعو الطلاب من أمثاله، ليخففوا عنهم وطأة الغربة وقساوة الوحدة!

كانت رسائل السيدة جولييت إلى راكان لا تنقطع، رسالة كل أسبوع أو عشرة أيام، ولكنها كانت رسائل قصيرة جداً! كانت رسائل فيها شوق وحب وأمل في اللقاء القريب ! كانت تحدثه عن شوقها إليه، وكم افتقدته. وكان هو

يكتب إليها أيضاً، وكانت رسائله هي الأخرى قصيرة جداً، محاولاً أن لا يذكر لها آلامه ومعاناته، بل أن يخترع قصصاً تطمئنها عنه وتفرحها!

وصلت إلى راكان رسالة منها أسعدته كثيراً، إذ أعلمته بأنها هي ونيكول قد تحدثتا عنه الليلة الماضية طويلاً، وأنها المرة الأولى التي تذكره نيكول لها منذ قدومها من كاليفورنيا ... وذكرت الجدة بأن حفيدتها نادمة كثيراً على تركها له، إذ إنها لم تقابل شاباً، من بين جميع الذين عرفتهم، من عنده مثل شهامته وكرمه ودماثة أخلاقه ... وأضافت العجوز بأن حفيدتها لم تذكر لها صراحة بأنها تتمنى لو يعودا إلى بعض، وأنها هي نفسها لم تسألها، ولكنها أكدت له بأنها سوف تقبل بالرجوع إليه، إذا تقابلا وطلب هو منها أن تفعل ذلك !

وختمت الجدة رسالتها بقولها: إن عندها أملاً كبيراً بأنهما سيعودان لبعض عندما يأتي إلى توولا في تموز ...وكان راكان قد اتفق مع السيدة جولييت أن يقضي إجازته السنوية، والتي يستطيع أن يحصل عليها من الشركة التي يعمل بها، ومدتها أسبوعان، في بيت الجدة.

*****

كانت العلاقة بين راكان والسيد أدلن جيدة بل ممتازة، وكان بينهما احترام وتفاهم عظيمان، وإن كانا لم يُمضيا وقتاً طويلاً معاً، بسبب ضيق الوقت لدى الفتى. كان تواصلهما يقتصر على الأحاديث العابرة والجمل القصيرة، التي يتبادلانها كلما تقابلا في المطبخ أو في غرفة الطعام.

كان الرجل العجوز يبدي كبير اهتمام، وعظيم ميل إلى أحاديث الشاب، وقد ذكر الرجل للفتى مرات كثيرة بأنه يتمنى لو أن الوقت يسمح لهما بجلسات طويلة؛ يحدثه بها الفتى عن نفسه وعن عائلته ووطنه، وعن عادات وتقاليد الشرق الأوسط، إذ إنه ومنذ صغره وهو مولعٌ بأخباره، وكثيراً ما تمنى لو يستطيع زيارته ! وقد وعده الشاب أن يحقق له هذه الرغبة، وأنهما سيجلسان جلسات طويلة أثناء العطلة الصيفية الجامعية، حيث إن الفتى عازم أن يكتفي بالعمل وأن لا ينخرط في مساقات جديدة !

تصرف واحد كان يزعج الفتى من الرجل؛ بل كان كثيراً ما يثير حنقه وغضبه، هو كراهيته الشديدة وتحامله غير المبرر على السيدة لويس! كان دائم الشكوى منها وكثير الاتهام لها ظلماً وزوراً وبهتاناً! كان ينعتها بأقذع النعوت، ويصفها بأقبح الأوصاف مثل: الحيزبون، الخرفة، المجنونة، الحمقاء، صاحبة العكازة، ولم يذكر الفتى أن الرجل أشار إليها باسمها الحقيقي! كانت الأفعال التي يتذمر منها أفعالاً صبيانية تافهة؛ إذ إنها أعطته ظهرها ولم ترد تحيته عندما مرّ بها، وأنها أغلقت بابها بشدة عندما رأته مقبلاً من غرفته باتجاه المطبخ، وأنها عادت أدراجها إلى غرفتها عندما وجدته في المطبخ مع أنها كانت قادمة لتجهيز وجبة غدائها... إلخ... إلخ.

لقد ازدادت كراهية السيدة لويس للسيد أدلن، إن الأخير كان يجلس يوماً في غرفة الجلوس هو والشاب فرانك، أحد النزلاء، وكانا يتضاحكان عندما عبرت بهما السيدة لويس في طريقها إلى المطبخ، فاعتقدت أنهما يضحكان عليها.

لقد أحزن راكان كثيراً أن يرى السيد أدلن، ذو الاطلاع الأدبي الواسع، كاتب التمثيليات العظيم، وأحد أعضاء مدرسة الرعيل الأول، أن يتصرف هذا التصرف الصبياني، وأن يتفوه بهذه الألفاظ السوقية، نحو امرأة قد تخطت الثالثة والتسعين من عمرها !

عاد الفتى إلى النزل في إحدى الأمسيات، وحالما فتح الباب الخارجي، وجد السيد أدلن أمامه مزروعاً خلف الباب، إذ لا شك أنه كان ينتظر عودته ! و شرع يقص عليه بصوت عالٍ، وهو يتميز غيظاً، ما حدث ذلك اليوم:

- فتحت باب الثلاجة لأخرج منها بعض الطعام، عندما جاءت الحيزبون، ودفعتني بشدة بعيداً عن الثلاجة حتى كدت أسقط على الأرض؛ أزاحت حاجياتها إلى الطرف الآخر من الثلاجة بغضب وعصبية، وهي تقلب شفتيها قرفاً واشمئزازاً، وكأنما أنا شيء نجس قذر! كنت أريد أن أضع أصابعي في عينيها فأعميها حتى نتخلص من شرها.

كان الرجل يتكلم بغضب لاهب، وهو يطعن الفضاء بسبابته طعنات متواصلة؛ وكأنما ليفقأ بها عيني السيدة لويس !

على الرغم من شعور راكان بالإرهاق الشديد جسمياً وعقلياً، إلا أنه بقي لفترة ليست بالقصيرة واقفاً مع السيد أدلن خلف الباب، يسري عنه ويهون الأمر عليه، معلماً إياه بأن السيدة لويس امرأة في أرذل العمر، فقدت جميع أهلها

وأحبائها، وليس لها من معين سوى الخالق، وأننا يجب أن نتفهم وضعها النفسي والجسدي، وأن نسامحها على ما ترتكب من أخطاء بحقنا إن فعلت!

فتح الشاب بعدها باب غرفته فوجد كالعادة رسالة تحت الباب من السيدة لويس، تقول فيها أنها مسكت هذا اليوم، وبالجرم المشهود ،اللص الشيطان الخنزير ذو الرائحة النتنة، ساكن الغرفة الأمامية وهو يسرق بعض حاجياتها من الثلاجة، وأن هذه ليست المرة الأولى !

كان ساكنو النزل يغادرونه جميعاً في الصباح، وكان الشخصان الوحيدان اللذان يبقيان به طيلة النهار أو معظمه، هما السيدة لويس والسيد أدلن، فكان وجودهما وحيدين معاً يتيح لهما أسباب الاحتكاك والشجار، إذ قلما يمر يوم دون أن يقع بينهما صدام حتى ولو كان بسيطاً!

لقد ازدادت شقة الخلاف بين الخصمين اللدودين، وعظمت الكراهية ووصلت العداوة قمتها بينهما، عندما اتصلت الصديقة الوحيدة للسيدة لويس، واسمها السيدة فرايزر ، ضحى أحد الأيام هاتفياً، ليحددا موعداً لتذهبا إلى صالون الحلاقة، ومن ثم كالعادة تذهبا بعدها لتناول طعام الغداء، ولتبتاعا ما تحتاجه العجوز من متطلبات الطعام ! عندما رن الهاتف، كانت السماعة موضوعة في غرفة السيد أدلن، إلى جانب سريره، فأعلم المتحدثة بأن السيدة لويس نائمة، وستغضب إن أيقظها، فشكرته المتحدثة وأعلمته بأنها ستعاود الاتصال بعد الظهر ... وعندها ستكون العجوز قد استيقظت من نومها ... وعندما اتصلت الصديقة ثانيةً بعد الظهر، أعلمها السيد أدلن بأن السيدة لويس قد غادرت النزل قبل حوالي نصف ساعة، وأنها لم تعلمه أين ذاهبة ولا متى ستعود، مما أغضب المرأة التي خصصت هذا اليوم لتقضيه مع أستاذتها.

كانت السيدة فرايزر تلميذة متفوقة من تلميذات السيدة لويس في ولاية بنلسفانيا، وكانت تحب أستاذتها حباً جماً، وأنها ومنذ سنوات عدة تأخذ لنفسها يوماً في كل شهر، تحدده المرأة حسب ظروفها من بين زوجها وأولادها وعملها، لتقضيه مع أستاذتها المحبوبة تسليها وترفّه عنها!

عندما عاتب راكان صديقه أدلن على فعلته تلك، أجاب الرجل العجوز بأنه كان مستدفئاً في فراشه، وأنه لو غادره فإنه من السهل عليه أن يصاب بالبرد، وأنه فكر أن ينادي عليها ولكنها قطعاً لن تسمعه، ثم إنه لم يجد عنده الرغبة لدعوة امرأة تكرهه، ولا تطيق رؤيته، لتجيب على الهاتف.

- ولكن الاتفاقية بينك وبين صاحب النزل لكي يعفيك من دفع إيجار الغرفة هو، بالإضافة إلى قيامك بمهمات عديدة في النزل، هو أن تجيب على الهاتف، وتستدعي النزيل للرد على المكالمة إن كان موجوداً في النزل، وأن تكتب له ملاحظة تسلمها له عند عودته إن كان خارجه! قال راكان معاتباً صديقه.

- حقاً إنني أشعر بالندم، بعد أن أعلمتني السيدة فرايزر كم سببت لها من معاناة وإرباك في خطتها، إذ كان عليها أن تحصل على إجازة يوم آخر. قال الرجل العجوز معتذراً للفتى.

*****

سُرّ راكان سروراً عظيماً عندما قابل السيد أدلن في اليوم الأول لقدومه، وعندما أعلمه بأنه لا يقوم بأي عمل، وأن كل ما عليه أن يفعله هو القيام بالمهام البسيطة الموكل بها في البيت، والتي لا تأخذ من وقته في أغلب الأيام، ساعة في اليوم ! كما أعلمه بأنه متفرغ للأدب، وأنه لا عمل له سوى المطالعة والكتابة، مما جعل الفتى يحسده كثيراً، إذ تمنى لو أنه يستطيع هو نفسه أن يعيش ذلك النوع من الحياة.

لقد كان الفتى يطمع ومنذ نعومة أظفاره، أن يكون عنده دخل كافٍ يعتاش منه، ليستطيع أن يتفرغ للقراءة والكتابة، وأن يصبح أديباً كبيراً يشار إليه بالبنان ! ولكن الذي حيّره؛ بل خيب ظنه، هو أنه لم يرَ السيد أدلن يقرأ أو يكتب يوماً، بل إنه لم يشاهد في غرفته أي كتاب ولا حتى مجلة أو جريدة! إن كل ما رآه هو قاموسٌ للغة وقاموس مرادفات الكلمات، وآلة كاتبة قديمة ومهترئة أكل الدهر عليها وشرب! لقد رآه الفتى مرة واحدة يستعملها، وعندما سأله ماذا يكتب، أجابه بأنه يعيد طباعة أبيات من الشعر نظمها أيام الشباب، ليرسلها على بطاقات المعايدة بمناسبة عيد الميلاد!

لقد سأل الفتى صديقه يوماً عن هذا اللغز، لغز عدم رؤيته له يوماً يقرأ أو يكتب، وكانت صدمة عظيمة للشاب المثالي الحالم، وهو يسمع صديقه يقول له بفخر واعتزاز:

- لقد قرأت في حياتي كتباً كثيرة، ولست بحاجة إلى المزيد من القراءة! قالها الرجل بحماس واستعلاء!

- ولكن الإنسان لو عاش ألف عام سيظل بحاجة إلى المزيد من المعرفة والاطلاع !

- هذا صحيح بالنسبة لبعض الناس، ولكن ليس بالنسبة لي. ثم استدرك وأضاف:

- إنني أستمع دائماً إلى الراديو، وهو يزودني بكل ما يجد في العالم من جديد.

حقاً، إن السيد أدلن يقضي كل وقته الذي يتواجد به في غرفته، ليله ونهاره، إما جالساً أو ممدداً في سريره، يستمع إلى الراديو، أخباره وأغانيه، موسيقاه وتمثيلياته وحتى إعلاناته؛ والوقت الذي يكون به خارج السرير هو عندما يقوم بمهمة من مهام البيت أو يتناول طعامه !

كان من إحدى المهام الموكولة إلى السيد أدلن، بالإضافة إلى الرد على الهاتف، وإفراغ سلال المهملات، وقبض الإيجار من النزلاء، هو أن يعلق اليافطة التي تقول غرفة للإيجار أمام باب النزل عند خلو إحداها، وعندما يأتي الراغب باستئجار تلك الغرفة، فإن عليه أن يُري تلك الغرفة الخالية لراغب الاستئجار! ولكن المشكلة العويصة التي اعترضت مهمة السيد أدلن، هو أن النزل يحتوي على طابقين ،بالإضافة إلى الطابق الأرضي! إنه يحتوي على غرفته وبجانبها غرفة راكان، ثم غرفة السيدة لويس، وكذلك المطبخ وغرفة الطعام وغرفة الجلوس، ومكان صغير موضوع به الغسالة والجفافة، اللتين منذ أن جاء راكان إلى النزل وهما معطلتان وتنتظران التصليح !

كان في الطابق الثاني ثلاث غرف؛ كل غرفة تتسع لشخص أو لشخصين؛ زوج وزوجته مثلاً، أما الطابق الثالث فكان به غرفة كبيرة وبها غرفة جلوس صغيرة، من الممكن أن يسكنها زوجان وعندهم طفل، ثم إن جميع هذه الغرف باستثناء غرفة السيدة لويس ليس لها مفاتيح، وأصحابها، كما فهم راكان، يتركونها دائماً غير مقفولة.

كانت المشكلة التي اعترضت السيد أدلن هو أنه لم يرَ هذه الغرف، ولم يعرف أشكالها ولا أحجامها ولا حتى نوع الأثاث الذي بها، ومما زاد الطين بِلة أن هذه الغرف ليس لها أرقامٌ، فكان يشار إليها بالغرفة الوسطى أو الجنوبية أو الشمالية! إن سبب عدم رؤيته لها هو أنه لا يستطيع صعود الدرج بسبب اعتلال صحته.

كان السيد أدلن عندما يرسل أحد الراغبين في استئجار الغرفة الخالية في الطابق الثاني، فإنه يقول له الغرفة الوسطى، أو الغرفة الشمالية، أو الجنوبية، فكان المستأجر متعمداً أو غير متعمد يفتح أبواب الغرف الثلاثة وينظر بداخلها، ما زالت خالية من أصحابها وليست مقفلة، ربما من قبيل حب الاستطلاع، ولكي يرى إن كانت الغرفتان الأخريان أكبر أو أحسن أثاثاً ... وهل غرفته أغلى أم أرخص، ما زالوا يقولون بأن جميع الغرف إيجارها واحد !

عاد راكان إحدى الليالي متأخراً، بعد أن تناول طعام العشاء في أحد مطاعم الوجبات السريعة، المتواجدة في طريقه إلى مكان سكناه، وكان طيلة الوقت يحضر في مخيلته أفكاراً لموضوع عليه أن يكتبه الليلة؛ ليسلمه صباح اليوم التالي إلى أستاذة مادة اللغة الإنجليزية!

لقد اختار عنواناً للموضوع وهو (حياتي في أمريكا)، بعد أن استشار أستاذته التي رحبت بالفكرة، بل شجعته عليها، مضيفةً بأنه يسعدها بل يهمها كثيراً أن تعرف آراء طلابها الأجانب في بلدها وكيف ينظرون إليها.

دلف الشاب إلى غرفته على رؤوس أصابعه، بخفة وحذر حتى لا يزعج جاريْه ، السيد أدلن والسيدة لويس! وبعد أن أضاء النور جلس إلى طاولته وشرع يكتب، وقبل أن ينتهي من كتابة العنوان سمع باب غرفة السيد أدلن يُفتح ثم يُغلق، ثم خطوات مسرعة تتجه نحو غرفته، سمع بعدها طرقاً على الباب.

- من هناك؟ ! سأل راكان وهو ما زال ينظر إلى الورقة أمامه.

- أنا أدلن، هل أستطيع أن آخذ من وقتك بضع دقائق؟! سأل الرجل وهو يفتح الباب ويغلقه خلفه.

نهض الشاب في وجه ضيفه، ومد له يده فتصافح الرجلان، ثم أشار إلى الرجل أن يتفضل بالجلوس، وبعد أن فعل عاد هو إلى كرسيه، وشرع يرحب بضيفه على الطريقة العربية.

استغرب راكان جداً مجيء جاره إلى غرفته في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وتأكد له بأن حادثاً مهماً... حادثاً دراماتيكياً قد وقع هذا اليوم في النزل؛ حتى يجعل السيد أدلن يغادر فراشه، ويبقى مستيقظاً إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل! وزاد في استغرابه وهو يعلم أن جاره يأوي إلى فراشه حالما تغرب الشمس وينتهي من تناول وجبة العشاء، وهي عادة في الساعة السادسة أو قبل ذلك بقليل !

حالما ألقى الرجل بنفسه فوق الكنبة الموضوعة قرب الباب، حتى شرع يقص ما عنده من أخبار مثيرة.

- إنك لا تستطيع أن تتصور يا صديقي ما حدث صباح هذا اليوم! كان السيد أدلن وهو يتكلم يصر على مخارج الكلمات، وكانت الكلمات تخرج من فمه عميقة وحارة، وكأنما تخرج من أعماق قلبه ووجدانه، وكانت معبأة بالعواطف المتأججة والحرمان المزلزل ! وقبل أن يسأله الفتى عما حدث، أضاف:

- لقد أرسلت صباح هذا اليوم رجلاً إلى الطابق الثاني ليرى الغرفة التي أُخليت بسبب رحيل السيدة "برم فيلد"، فتح الرجل باب غرفة السيدة أندرسون بالخطأ! وهنا أغمض السيد أدلن عينيه نصف إغماضة، ورأى راكان وكأنما قبس من نار ملتهبة يخرج من عينيه، وتنهيدة حارة تخرج من أعماق جوفه، ثم مصمص شفتيه وأصر على أسنانه، وأضاف:

-كانت الحورية في تلك اللحظة قد نهضت لتوها من فراشها عارية ولم ترتدِ ملابسها بعد! بلع السيد أدلن ريقه ورقّص يديه في الهواء، ومصمص شفتيه الجافتين، وكأنما هو في صحراء يشوي حرها اللاهب الأجساد، وهو يموت ظمأً، أو كأنما هو يموت جوعاً، ويرى أمامه شواء تهيج رائحته شهيته، وأضاف:

- كانت واقفة أمام مرآتها عارية كما ولدتها أمها، وكانت تتأمل جسمها العاجي وصدرها الممشوق النافر، وتتحسس بأصابع يديها الأبنوسيتين تفاحتي صدرها، تلك التفاحتان اللتان أغرتا أبانا آدم فأكل بعضها، مما جلب للبشرية الشقاء الأبدي والتعاسة السرمدية! كانت تتأمل صدرها وكأنه معبد مقدس يطرقه عامة الناس من أربع أرجاء المعمورة؛ ليتبركوا به ويحجوا إليه! وهنا كزّ السيد أدلن على أسنانه وكأنما ليحطمها، وأغمض عينيه وشد عليهما وكأنه يريد أن يفجرهما، وأضاف:

- رفعت يديها من على صدرها وتحسست بهما عنقها الأتلع، الذي أبدع الخالق سبحانه وتعالى وتفنن وتمهل في خلقه، فلقد كان أكثر جمالاً وصفاءً من عنق فينوس وعشتروت، ملكتي الجمال والحب عند الإغريق! وهنا تراءى السيد أدلن لراكان وكأنما هو يلقي قصيدة يترنم بها ذات وقع موسيقي ساحر!

توقف السيد أدلن عن الكلام، وكأنما هو حصان سباق قطع شوطاً طويلاً ليستريح.

لم يفتح الفتى فمه طيلة تلك المدة، وإنما كان يستمع لمحدثه وهو يلاحظ انفعالاته وتقلصات عضلات وجهه، وفتح عينيه وإغلاقهما، ثم ارتفاع وانخفاض صوته؛ وبعد فترة لا شك أنها كانت فترة صمت وتأمل أضاف:

- ثم أنزلت يدها وتحسست المكان الذي يفقد الرجال عقولهم من أجل الحصول عليه، ويموت البعض هماً وغماً، فابتسمت وهي تطبطب على ظهره، وكأنما تطبطب على ظهر طفل أنجبته بعد عقم طويل تفخر بإنجابه، أو كأنما هو عقد ألماس أعطاه لها زوجها في عيد ميلادها!

كان السيد أدلن يتكلم وهو مغمض العينين، وكأنما قد أثقلت جفونه كؤوس الخمرة المترعة، أو كأنما كان يعيش في غيبوبة !لقد فكر الشاب أن الرجل يبكي من شدة تأثره وانفعالاته، ثم صار يضرب أرض الغرفة برجليه، يرفع واحدة وينزل الأخرى، وعندما توقف عن الضرب أضاف:

- وبعد أن اطمأنت على الكنز، انحنت قليلاً ومرت بيديها على ساقيها العاجيين؛ واللذان كانا كعمودين من نور، ثم صارت تسرح شعرها الطويل والذي يصل إلى خصرها، وفجأة وصل إلى أنفها رائحة عطر إلهي أسكرتها، تمنت في تلك اللحظة لو أن زوجها يقف إلى جانبها ليتأمل معها على انعكاس المرآة، كل ذلك الجمال الإلهي، وليرى كيف تعكس شمس الصباح جمال زوجته على المرآة فتبدو المرآة وكأنها بركة من المرمر! إن السيدة أندرسون تعرف قيمة الكنوز التي تملكها، وتعرف تأثير سحرها على زوجها وعلى الرجال المولعين بالجمال، وكذلك تعرف مقدار سيطرتها على العقول والقلوب الضعيفة من أمثالي !

وهنا ضغط السيد أدلن بعصبية على قنطرة نظارته حتى كاد يحطمها، وأضاف:

- لو كانت المرآة تتكلم لغنت لها أغاني شجية أسكرتها، ولرقصت لها رقصات غجرية أشعلت الحرائق في دمها وأسكرتها! وهنا صار العاشق الولهان يرقص يديه بالهواء وكأنما هو يراقص امرأة عاشقاً لها متيماً بهواها.

لم يفتح الفتى فمه طيلة كل هذه المدة التي يتحدث بها جارُه ، ولم ينطق ببنت شفة، وكانت يده اليمنى ما زالت ممسكة بالقلم، متكئاً على الورقة البيضاء التي أمامه، وقد وضع ذقنه على راحة يده اليسرى المسندة إلى الطاولة، وكانت عيناه مفتوحتين على وسعيهما تحملقان بمحدثه، وتلاحظان انفعالات وتقلصات وجهه وتشنجاته !

وهنا خفض السيد أدلن صوته وقال هامساً، وكأنما يناجي حبيبته وقال:

- وهنا سمعت المرأة باب الغرفة يُفتح فابتسمت بسرور وغبطة عظيمتين، وشكرت عناية السماء التي حققت أمنيتها بأن أرسلت لها زوجها في هذه اللحظة المميزة، ولكنها تظاهرت بأنها لم تعرف بمقدمه، فاستمرت تسرح شعرها، إذ كانت تريده أن يتمتع بالكنوز التي يملك! كانت تريده أن يفتح عينيه ويعي كم هو محظوظ ومبارك من السماء؛ لتكون له زوجة تتمتع بكل هذا الجمال، وكل هذه الفتنة، وكل هذا السحر! وهنا رفع السيد أدلن صوته قليلاً وبنبرة حازمة.

- كانت تريده أن يتقدم منها ويعانقها، ويضمها إلى صدره، ثم يدفن وجهه بين نهديها، ويعبث بهما بشفتيه! كانت تريده أن يقبلها على كل مكان في جسمها، حتى يسكر عطر أنفاسها وأريج سحرها وفتنتها... كانت... كانت... كانت...

كان السيد أدلن كثيراً ما يستعمل يديه في حركات تمثيلية لتساعداه على دراماتيكية المشهد.

- ولقد احتارت وتحيرت، لمَ لا يتقدم زوجها، وما الذي أخّره؟ ! ابتسمت وهي تنظر خلفها إلى اليمين، فقد صممت على أن تعلمه بأنها كانت عارفة بقدومه! وهنا رأت الرجل واقفاً بالباب مسمّراً في مكانه، فاتحاً فمه على وسعه، مأخوذاً مذهولاً، كأنه الصنم، محملقاً في جسدها وكأنما يأكلها بعينيه! وعندها صاحت بأعلى صوتها فزعة جزعة... النجدة...! النجدة...!

وهنا رفع السيد أدلن يديه وكأنما هو صقر فرد جناحيه وانقض على فريسته؛ مما أخاف الفتى وأرعبه.

- وطبيعياً، فقد انسحب الرجل معتذراً مرتبكاً وظلت هي تصرخ، ولم تهدأ إلا بعد أن سمعت صوتي من أسفل الدرج يطمئنها ويهدئ من روعها!

- يا لها من حادثة غريبة، آمل أن لا تكون الزوجة قد أعلمت زوجها فيسبب لك إشكالاً! قال الفتى.

- لقد فعلت! نعم لقد فعلت! إذ جاء الزوج إلى غرفتي وهو يزمجر ويرعد، وهددني بأنه سيشكوني إلى السيد هانكوك ليطردني من النزل.

- آمل أن لا يفعل! قال الشاب كالحالم.

- اطمئن إنه لن يفعل، أعني الزوج! قال السيد أدلن بزهو وفخر، وكأنما هو ديك دجاج ينفش ريشه، ويرفع رأسه، ويتمشى بين نسائه من الدجاج، وتابع حديثه وهو يبتسم:

- بعد أن خرج السيد أندرسون من النزل لشراء "كارتونة" من البيرة، جاءت السيدة أندرسون وأعلمتني وهي تبتسم بأن لا أقلق، لأنها لن تسمح لزوجها بإعلام السيد هانكوك، حيث إن أحداً لم يُؤذَ ! كما أنها قدمت لي قطعة كيك كبيرة من صنع يديها! إنك لو رأيت السيدة أندرسون هذا المساء لما صدقت عينيك، أنا لم أرها من قبل بمثل هذا الجمال، كانت تتمختر كالغزال، وهي تروح وتغدو في قاعة النزل، لظننتها امرأة يلامس الحب قلبها لأول مرة، وكأنها فتاة في الثامنة عشرة من عمرها !

- لا شك أن ذلك كرم أخلاق ولطف منها! قال الفتى بحماس.

- إن النساء ليشبع غرورهن وليسعد قلوبهن أن يُفتن الرجال بجمالهن، ولا شك أنه أسعد السيدة أندرسون أن رجلاً فتنه جمالها وسحرها وجاذبيتها! قال السيد أدلن وهو يبتسم، وشاركه الفتى ابتسامته بابتسامة بلهاء، وإن لم يعرف سبب ابتسامته !

- إنني منذ الآن فصاعداً، فسأؤكد على كل من أرسله إلى أعلى أن يقرع باب كل غرفة قبل أن يدخلها ثلاث مرات، ثم ينتظر قبل أن يفتح الباب.

- أطلب منه أن يتنحنح عدة مرات، وأن يقول دستور! قال راكان لا شعورياً، وهو في شبه غيبوبة؛ إذ لعله تذكر عادات الرجال في مدينته الصامدة، الذين يتنحنحون عدة مرات ليذكروا النساء بأن رجلاً قادماً، فيغطين رؤوسهن قبل أن يدخلوا البيت.

استمع الشاب مذهولاً إلى ما قاله السيد أدلن، وأحزنه كثيراً أن يقود الجوع الجنسي، والحرمان العاطفي، وكذلك الوحدة القاتلة، والافتقار إلى وجود الأهل والأصدقاء والأحباب، صديقه إلى هذه الدرجة المرعبة والمحزنة أيضاً، من

التصور والتخيل اللامعقولين؛ كما أرعبه أن يعرف أن الرجل يعاني من وحدة قاسية في مدينة مثل باسدينا مزدحمة بالناس! إن السيدة لويس تعاني من الوحدة، وكذلك راكان نفسه يعاني من وحدة مدمرة وباستمرار! ما أكثر المحرومين والمعذبين في هذه الدنيا!

أمضى راكان أكثر من خمس دقائق بعد انصراف صديقه يفكر بالجملة الأولى التي يبدأ بها موضوع إنشائه، ولكن الله لم يفتح عليه حتى ولو بكلمة، فقد شعر ببلادة في تفكيره، وإرهاق في جسمه، فاهتاجت مشاعره غضباً، وصار يكتب، على الورقة البيضاء التي أمامه بقهر وعصبية ونرفزة، وبخط كبير: إن حياتي في أمريكا عذاب... معاناة... قهر... إحباط... تمزق مستمر! إنني سأفقد عقلي، وسأصاب بانهيار في الأعصاب! وهنا ضرب وبغضب لاهب قلم الحبر فوق الطاولة، فطج كطابة إسفنج، تطاير الحبر بعدها أمامه على الطاولة، ثم انفصل القلم إلى قطعتين، هدّت كل واحدة منهما في زاوية من زوايا الغرفة!

نهض الفتى ورمى بجسمه وبكل قوته فوق السرير، وكأنما أراد أن يحطمه ثم ضرب يده ورأسه بقوة فوق المخدة، وسحب الغطاء فوقه وأغمض عينيه، لعل رحمة السماء تدركه فينام!

كان الفتى مرهف الإحساس متقد المشاعر، مما سبب له ألماً عظيماً ومعاناةً طويلةً، وهو يستمع لجاره المسكين يقص عليه قصته! لا شك أنها من نسج خياله المريض! كان يحزنه كثيراً ويقض مضجعه؛ بأن هناك أناساً يجتمع بهم ويتحدث إليهم يعانون من الوحدة، ويقاسون من الاغتراب الروحي والعاطفي، ولا يجدون من يخفف من وحدتهم ولا من يواسي غربتهم! لطالما ثار على قدره وغضب من نفسه، ولطالما تمنى لو أن الله خلقه كما خلق الملايين من البشر، لا يهمهم ما يصيب الآخرين، أو على الأقل لا يتأثرون لما يصيبهم!

مرات ومرات ثار الفتى على مجتمعه العربي البدائي الطيب المتسامح وعلى تربيته الدينية الساذجة والقاسية أيضاً، اللذين كوناه بهذا الشكل المفرط بالحساسية والتأثر، متهماً إياهما بالقسوة والجبروت ...غير أنه في بعض الأحايين يجد العذر والمبرر لعذاباته ومعاناته، بأنه إن كان يفكر بأن يصبح يوماً كاتباً عظيماً فإن هذه العذابات وتلك المعاناة، هي التي تمكنه من الخوض في أعماق النفس البشرية، يبحث عن آلامها ويكتب عن معاناتها ... وإن هؤلاء الناس هم من على شاكلته ؛ السيدة لويس، والسدة أدلن، وراكان نفسه !

*****

الفصل العشرون

كانت السيدة أوفيليا أندرسون في حوالي الثلاثين من عمرها، متوسطة الطول، نحيفة الجسم، ممشوقة القوام، ناصعة البياض، حلوة التقاطيع، شعرا القصير أقرب إلى الحمرة منه إلى الذهبي ! كانت دائماً محتشمة في ملبسها وفي حديثها، وكانت غير متبرجة، وتختار الألوان المحافظة غير الزاهية ولا الفاقعة؛ وكانت أجمل خصلة فيها، كما يعتقد راكان، هو تلك الابتسامة الجذابة والساحرة، والتي تعلقها دائماً فوق شفتيها القرمزيتين، كلما تحدثت معه ... وكذلك عيناها الزرقاوان واللتان تشبهان حوضاً متلألأً من العسل المصفى ، وكان ما يزيد ابتسامتها سحراً وعذوبةً، هو خالة تحت الطرف الأيسر من شفتها السفلى، والتي كانت كأنما تزغرد عندما تبتسم !

كانت تبدو في روعة جمالها وتألقها في نظر الفتى وهي مرتدية حلتها البيضاء، فقد كانت تعمل ممرضة في أحد المستشفيات الخاصة في المدينة ! كانت تتراءى له بتربيته الدينية الصارمة، وبعذريته البريئة الساذجة، وكأنها ملاك هبط من السماء، أرسلته العناية الإلهية ليبشر أهل الأرض بالحب والسلام !

لقد أحبها الشاب واحترمها كثيراً، فقد كانت دائماً معه مرحة ولطيفة، كما أنها كانت مؤدبة وبشوشة! إن أحب خصلة جذبت راكان إليها هو أنها مثقفة ثقافة عالية، على عكس زوجها الميكانيكي، غير المثقف، والذي لم يُنهِ كما أعلمت راكان، سوى الإعدادية! لقد لاحظ الشاب أن المرأة تحب زوجها وتحترم رأيه كثيراً، ولا تقوم بأي عمل إلا بعد استشارته وأخذ رأيه! ولقد استغرب الفتى أول الأمر، كيف تستطيع امرأة مثلها تتمتع بكل هذا الجمال وعندها كل هذه الثقافة، أن تحب رجلاً مثله ! غير أن الفتى عاد واقتنع بأن الحب الحقيقي لا تقيده قيود ولا تحده حدود، ثم إن لله في خلقه شؤون !

لقد سعد الفتى كثيراً بالمحادثات الأدبية القصيرة التي كان يتبادلها مع المرأة أثناء وجودهما الاثنين بالمطبخ لدقائق قليلة، وكل واحد منهما يقوم بتجهيز طعامه، بينما يكون الزوج جالساً في غرفة الطعام يقرأ جريدته اليومية، ينتظر انتهاء زوجته من عملية الطبخ ليتناولا طعام العشاء.

لقد خشي الفتى أول الأمر من غيرة الزوج وغضبته، ولكنه أدرك أنه كان مخطئاً، إذ لا شك أن الرجل جد واثق من حب زوجته وإخلاصها له، إذ لم يلاحظ الفتى أية دلائل تشير إلى ذلك، بل على العكس فقد لاحظ أن مخاطبة الزوج له قد ازدادت احتراماً وتأدباً.

لقد ازداد شغف راكان بالمرأة عندما عرف أنها تحب نفس الروائيين الشوامخ الذين يحبهم هو، مثل همنغوي وفولكنر وشيكوف ودستيوفسكي وسارتر وبروست وتوماس مان وآخرون كثيرون غيرهم.

شيء واحد أحزن الشاب وهو أنه سألها يوماً إن كانت قرأت النبي لجبران خليل جبران، وثلاثية نجيب محفوظ الذي طبق صيتهما آفاق العالم كله، شرقه وغربه، فأعلمته المرأة بأنها لم تقرأ لهما ولم تسمع حتى بهما، ولكنها وعدته بأنها ستسأل عنهما في المكتبة العامة وستقرؤهما.

لقد عرف الفتى بأنها ربة بيت ممتازة وطباخة ماهرة، فكانت كلما خبزت خبزاً أو صنعت كعكاً أو كيكاً كانت تعطيه بعضاً منه، وهذا لا تقوم به إلا يوم عطلتها الأسبوعية؛ أما إذا صادف وكان الفتى غير متواجد في النزل، فإنها تضع بعضاً منها في إحدى الصحون المخصصة له، والمتواجدة في خزانة المطبخ وتكتب اسمه عليه.

استغرب الشاب جداً أول الأمر كيف أن راتبي ممرضة وميكانيكي، وهما من أعلى الرواتب المهنية في أمريكا، لا يستطيعان أن يوفرا إيجار بيت أو شقة لزوجين، ويجنبهما السكن في نزل يتقاسمانه مع أكثر من ستة نزلاء؛ ولكن عجبه زال عندما أعلمته السيدة أوفيليا يوماً بأن لزوجها ثلاثة أطفال يعيشون مع جدتهم لأبيهم، بسبب وفاة والدتهم، وأنهم يكلفونه كل ما يكسب لمعيشتهم، وأنهما ، هي وزوجها، يعيشان على راتبها!

"هل تقبل المرأة الشرقية بوضع مثل هذا؟!" تساءل الفتى.

*****

كان السيد أدلن يعيش حياة غريبة عجيبة في تصرفاته اليومية، إذ قلما يغادر أحب بقعة إلى نفسه وأعزها على قلبه... فراشه! كان يجلس به وكأنما يجلس على عرش ملكي، يصل الغطاء حتى وسطه، ثم يتكئ بظهره مسنداً إياه إلى الحائط! كان يستمع إلى الراديو وهو متدثر في داخله وهويسامر ضيوفه، أو وهو يتناول طعامه فوق الصينية الموضوعة في حضنه، ويتكلم الساعات الطوال على الهاتف وهو متمدد به!

كانت المدفأة لا تتوقف عن الاحتراق ليلاً ونهاراً، تسعة شهور في السنة، وكان باب غرفته الذي لكي يُفتح يدخل في الحائط دائماً مغلقاً؛ فإذا حدث وقرع عليه أحدهم الباب مستأذناً بالدخول، فإن أول جملة يقولها السيد أدلن حتى قبل أن يرحب بالقادم (من فضلك أغلق الباب خلفك!)؛ أما إذا صادف وكان عليه أن يترك مكان استحكامه وتمترسه، كأن يذهب إلى المطبخ أو إلى دورة المياه، فقد كان يرتدي فوق البيجاما الشتوية الثقيلة جارزة خضراء سميكة وفوقها معطف أسود قديم ويلف حول رقبته لفحة صوفية، تغطي بالإضافة إلى رقبته ورأسه، فمه وأنفه وأذنيه!

عندما رآه راكان لأول مرة متدثراً بكل هذه الملابس ظنه ذاهباً في رحلة لتسلق قمم بعض الجبال العالية، والتي لا يغادر الثلج قممها مدار السنة، ولكن لشدة دهشة الفتى؛ فقد رأى الرجل يدخل المطبخ، ثم يحمل سلتي المهملات، ويفرغ محتوياتهما في حاوية القمامة المتواجدة خلف البيت، ويعود على عجل !

أما فرانك فقد كان شاباً طويل القامة، نحيف الجسم، حلو التقاطيع، جميل الوجه، جذاب النظرات، يعتني بهندامه دائماً، ذو صوت حنون رقيق، في حوالي الثلاثين من عمره.

لقد أعلم راكان أول مجيئه إلى النزل، بأنه لا يحب أن يبقى في عمل واحد أكثر من شهرين، وإن كان في كثير من الأحيان لا يبقى أكثر من أسبوع واحد !

- أنا لا أحب الأعمال الجسدية، أنا أحب أن أعمل في مكتب أو ما شابه ذلك،ولكنهم ،أعني أصحاب الأعمال، يسألونني دائماً إن كان عندي خبرة مكتبية، وبما أنه لا يوجد فإن الرفض دائماً حليفي! لقد التحقت قبل ثلاث سنوات في دورة تدريبية مكتبية مدتها ستة شهور، لم أستطع البقاء فيها إلا أسبوعين، ليس عندي ميل إلى حضور

المحاضرات ولا الاستماع إلى الذين يتكلمون لفترة تزيد عن خمس دقائق؛ ثم هناك واجبات تُعمل في البيت يحتاج عملها لساعات! قال إلى راكان يوماً، ثم أضاف:

- لقد جربت جميع الأعمال الجسدية، عامل تنظيفات في إحدى الشركات، أعبئ الكراتين وأنقلها إلى مكان آخر في شركة لصنع الخزفيات؛ أفرغ الكراتين وأعلق محتوياتها من الملابس في بعض مخازن الشركات؛ مساعد نجار في إحدى شركات النجارة؛ عامل في كراج، أعمل بها أسبوعاً أو اثنين على أكثر تقدير؛ ولكن معظم أيام عملي هي في مضخة للبنزين.

- وماذا تعمل الآن؟! سأل راكان.

- أنا الآن أبحث عن عمل، وأظن ليس أمامي من فرصة سوى إحدى مضخات البنزين ! لقد استلمت آخر" شيك" وصلني من قسم العاطلين عن العمل قبل أسبوع واحد فقط، وعلي أن أعمل ستة شهور كاملة حتى أستطيع أن أحصل على إعانة جديدة منهم.

- كان الله في عونك! قال الفتى صادقاً وبحزن ممزوج بالألم.

- أنا معجب جداً بأخلاقك وبتصرفاتك! أنت شاب مثالي، لقد تمنيت كثيراً لو أنني أستطيع أن أدرس وأشتغل لأعيل نفسي؛ كما تفعل أنت؛ ولكن مشكلتي أنه لا صبر عندي للدراسة! قال فرانك هذا، ثم ألقى بنظراته إلى الأرض بعد أن كان ينظر في وجه محدثه، وقال:

- هل أستطيع أن أستدين منك عشرة دولارا ت ، أعيدها لك الأسبوع القادم؟

- على الرحب والسعة! قال الفتى ذلك، ودخل غرفته وعاد يحمل ورقة العشرة دولارات ، وناولها له.

- أشكرك مرة أخرى، أنت شاب شهم وكريم.

وبالفعل عاد راكان في إحدى الأمسيات من عمله فوجد تحت باب غرفته مغلفاً وبه ورقة العشرة دولارات ، موضوعة داخل المغلف، ومعها ورقة صغيرة يشكره بها.

لم يجد فرانك غضاضة بعد تلك المحادثة من أن يأتي إلى راكان ويطلب إليه أن يدينه بعض النقود، ويعلمه متى سيعيدها إليه، وكان دائماً صادق الوعد! ولقد أخلف وعده مرتين كان في كل مرة يكتب ورقة اعتذار ويضعها تحت باب غرفة راكان، محدداً موعداً آخر، وغالباً ما يكون يوماً أو يومين.

الخصلة الجيدة التي وجدها راكان بفرانك هو أنه لا يستدين مبلغاً جديداً قبل أن يسدد المبلغ القديم، وإن كان قلما يمر أسبوعٌ دون أن يستدين!

كان الصديق الثاني لفرانك بالنزل، بالإضافة إلى راكان الآنسة مكنمارا؛ امرأة في أواخر الثلاثينات من عمرها، والتي كانت دائماً منطوية على نفسها لا تختلط ولا تكلم أحداً إلا إذا بدأها هو الحديث ... جادةً دائماً، حزينةً في أكثر الأحايين، تعيش في عالم خاص من صنع خيالها وأحلامها !

كانت تمضي وقتاً قليلاً في المطبخ، ونادراً ما تُرى في غرفة الطعام، إذ كانت تحمل ما تطبخه وقلما تطبخ وتتناوله في غرفتها ! كان الوقت الوحيد الذي تُرى به مسترخية ومنطلقة الأسارير هو عندما يكون فرانك في المطبخ أو في غرفة الطعام! لقد كان وجوده يعطيها شيئاً من السرور، ويخفف عنها بعضاً من وحدتها! كان الناظر إليها يرى آثار دموع جافة في عينيها، وكأنما توقفت قبل قليل عن البكاء.

لقد أفرح قلب راكان؛ بل وأسعده جداً، أن يرى إنساناً يزيل وحشة المرأة ويخرجها من أحزانها، كما أنه يجلب البسمة ويدخل السرور إلى إحدى ساكنات النزل ... ولكن الذي أزعج الفتى بل أحزنه عندما همست السيدة لويس بأذنه يوماً ، بأن الآنسة مكنمارا تصرف كل نقودها على الشاب الكسول، العاطل عن العمل ، فرانك !

لقد لاحظ الفتى أن فرانك يمضي وقتاً طويلاً يتكلم بالهاتف مع نساء عازبات ومطلقات وحتى متزوجات، كما أعلم راكان يوماً وهو يضحك؛ وأن معظم هذه المكالمات كانت غزلاً أحياناً وعتاباً في كثير من الأحايين! كان الشاب يجري مكالماته إما في غرفة الطعام أو غرفة الجلوس، يتكلم بصراحة وصوتٍ عالٍ وكأنما هو في غرفته، غير آبه للذين يسمعونه من النزلاء، لا ليلاً ولا نهاراً. لقد كان للهاتف حبل طويل جداً ، يصل غرف الدور الثاني !

استيقظ راكان في إحدى الليالي من نومه منزعجاً على صوت جرس الباب يضرب ضرباً متواصلاً، يصك الآذان، ولم يتوقف الرنين إلا بعد أن أضاء الفتى نور القاعة وفتح الباب.

- آمل أن لا أكون قد أيقظتك من نومك؟! قال صوت نسائي بكسل، وقبل أن يجيب استرسلت صاحبة الصوت:

- أنت راكان، أليس كذلك؟! ومرة ثانية همّ الفتى أن يفتح فمه ليجيب ولكن صاحبة الصوت استرسلت وهي تمد له يدها وتدخل قدمها اليمنى من فتحة الباب:

- اسمي كاثرين جفرسون؛ لا أعتقد أننا تقابلنا؛ أنا صديقة فرانك؛ ألم يخبرك عني؟! لقد أخبرني عنك كثيراً... إنه لكثرة ما مدحك تمنيت لو أن تكون فتاي! قالت ذلك وألحقتها بضحكة طويلة مبتذلة ورخيصة.

صافح راكان اليد الممدودة إليه وهو بين النوم واليقظة، وبين الاستغراب والتعجب؛ فقد كانت اليد التي تعانق يده طرية ناعمة وصغيرة، وكانت عديمة القوة، وإن صاحبتها مرهفة... مرهفة جداً!

دخلت الفتاة ودخلت خلفها فتاة أخرى في مثل سنها، وقد تبين لراكان من خلال عينيه المغمضتين نصف إغماضة وعقله شبه المعطل، بأنها كانت أقل منها رشاقةً وجمالاً وأضعف منها سحراً وجاذبيةً ! لقد كانت هي الأخرى تترنح في مشيتها!

- وأنا دورثي شيلدون! قالت صاحبتها دون أن تنظر إلى وجه راكان ودون أن تمد يدها لتصافحه.

أغلق الشاب الباب ولحق بالفتاتين اللتين توجهتا إلى غرفة الجلوس؛ حيث ألقيتا بنفسيهما فوق المقعد الجلدي الطويل:

- كيف حال فرانك؟! هل تعرف أن لي مدة طويلة لم أره، لقد افتقدته كثيراً، مسكين ذلك المخلوق الصغير، هل يشتغل في هذه الأيام؟! قالت الأولى.

- هل تردنني أن أصعد وأوقظه لكما؟! سأل الفتى وهو ما زال واقفاً، ويغمض عينيه ويفتحهما لتتعودا على النور الساطع.

- لا تزعج نفسك، أنت أريني غرفته؛ قالت ذلك وهمت بالنهوض ولكن يديها ورجليها لم تحملاها فبقيت في مكانها، وقالت:

- لقد حدثني فرانك عنك طويلاً، وذكر لي أشياء كثيرة، قال بأنك شاب كريم ولطيف ومهذب ! إنه يريدك كثيراً ومعجب بأخلاقك جداً جداً، وشوقني لأن أقابلك! كانت تتكلم ببطء شديد، وتلوك كلماتها وكأنما تعلكها.

- أشكرك يا آنسة... حاول جميل أن يتذكر اسمها عندما قدمت نفسها له، ولكن دون فائدة.

- أنا لست آنسة، بل مطلقة، وعندي ولد بهذا العلو، ورفعت يدها اليمنى إلى ما فوق ركبتيها، اسمه إرك، إنه ولد ذكي، ذكي جداً، لقد طلقت والده بعد أقل من عامين على ولادته، حاول أن يمنعني من الشرب... الغبي... المتخلف... ثم تبعتها بضحكة صفراء ! أما صاحبتها فقد كانت مغمضة العينين، لم يستطع الفتى أن يعرف إن كانت مستيقظة أم نائمة!

- هل تريدان أن أصنع لكما بعض القهوة؟! سأل راكان.

- أرجوك، لا... لا تزعج نفسك، لقد تناولنا بعضها قبل أن نأتي إلى هنا... وسكتت قليلاً، لعلها كانت متعبة من السكر، ثم أضافت:

- كنا في بار، ليس بعيد من هنا، لم تستطع ولا واحدة منا أن تقود السيارة، إننا كما ترى، "سكارى طينة" ! وضحكت واهتز جسمها، وعيناها مغمضتان نصف إغماضة، وأضافت:

- لقد ركبنا سيارة أجرة، وأتينا نزور فرانك ! مسكين ذلك المخلوق الصغير... إنه دائماً بلا نقود... لا يستطيع أن يجد عملاً يحبه... إنه شاب طيب القلب...

تركها الفتى تكلم نفسها، وصعد وأيقظ فرانك، وأعلمه بأن فتاتين في غرفة الجلوس تريدانه.

- في هذا الوقت ؟! كم الساعة الآن؟! سأل بانزعاج.

- الثانية والنصف وثماني دقائق! قال راكان بعد أن نظر إلى ساعة يده التي تنام معه.

قفز الشاب من فراشه على عجل، وارتدى بنطاله ونزل مهرولاً، وسمعه راكان بعد أن عاد إلى غرفته وأغلق بابها، ووضع نفسه في فراشه، يؤنب المرأتين على حضورهما في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

- إنني لا أستطيع أن أفتح عيني وأنظر إلى وجهك، إنني أكاد أذوب خجلاً؛ يا للعار! أرجوك أن تتقبل اعتذاري الشديد! قال فرانك لراكان عندما قابله مساء اليوم التالي.

- يجب أن لا تشعر هكذا يا رجل، أنا لم أعمل سوى واجب الصداقة ... أنا واثق أنك ستفعل مثلما فعلت أنا لو كنت أنت في مكاني !قال راكان مطمئناً صديقه ومطيباً خاطره.

- حقاً إنك إنسان شهم ونبيل! قال فرانك وهو يكاد يبكي من التأثر.

- كاثرين ودورثي تسلمان عليك، وتعتذران على تصرفهما تلك الليلة، وطلبتا إلي أن أدعوك لنتعشى أربعتنا سوية. قال فرانك بعد حوالي أسبوع على تلك المحادثة ... ولكن راكان اعتذر بحجة كثرة ما عليه من واجبات دراسية.

*****

كان اليوم يوم أحد، وكان راكان قد استيقظ من نومه على صرير المنبه في تمام الساعة الثامنة صباحاً، على الرغم من أنه لم يكن قد مضى على وجوده في الفراش سوى خمس ساعات فقط، بعد عمل شاق يوم أمس، ودراسة الليلة الماضية، اللذين امتدا لتسعة عشر ساعة متواصلة.

أيقظ منبه الساعة الفتى، فقفز من فراشه، ثم أسدل ستائر نوافذ غرفته بسرعة، وبعزم وتصميم، حتى لا يغريه منظر الطبيعة الخلاب في الخارج، وجمال الصباح الساحر عما استيقظ من أجله.

حقاً، لقد كان صباحاً جميلاً أخاذاً، يبعث نسيمه العليل، وعطره العابق، نشوة بالأعطاف وفرحة في القلب، وتوقظ شمسه الدافئة ذكريات بالنفس وحنيناً بالفؤاد !

لقد كان الهدف من هذا التصرف هو ليحتفظ بكامل تفكيره داخل جدران الغرفة، إذ إن عليه غداً امتحاناً عسيراً! كان عليه أن يدرس ما ينيف عن المائة صفحة، معظم كلماتها غريبة عنه، وعليه أن يخرج معانيها من قاموسه الإنجليزي العربي!

لقد تجمع هذا الكم الهائل من الصفحات لعدم توفر الوقت الكافي لدراستها في حينها، بسبب الجمع بين الدراسة والعمل.

كانت الساعة حوالي العاشرة والنصف صباحاً، ولم يكن الشاب قد غادر مقعده أو توقف عن الدرس ولو للحظة واحدة منذ البدء! كان مستغرقاً بالدراسة، ضائعاً بين السطور، يجري وراء الأفكار والحقائق، يهيم في وديان الإبهام والغموض؛ غارقاً في بحار الارتباك والحيرة، حتى نسي نفسه ووجوده وكل ما حوله ...عندما تنبه على صوت جاره السيد أدلن، يغني بأعلى صوته أغنية شجية عاطفية رومانسية، يستعطف بها الحبيب المهجور، هاجرته أن ترحم عذاباته وتعود إليه!

أثارت كلمات الأغنية شجون الفتى وأحزانه... "أحبيني بعنف... أحبيني بحنية... فإن حبك يلهب مشاعري... يكوي فؤادي... وإن بعادك قد أضناني... حرّقني... مزّقني... أرجوكِ... عودي إلي... عودي... عودي... ولا تتركيني أحترق بنار حبك... وأقاسي بعادك عني...!" لقد بعثت الأغنية في قلبه حنيناً مستعراً طاغياً مدمراً إلى ماضيه الهانئ السعيد في الوطن، يوم كان يعيش حياة كلها أحلام وردية، وخيالات رومانسية ، لا قهر فيها ولا إذلال ولا إحباط!

وجد راكان أن عينيه تطفحان بالدموع فبللت الصفحات أمامه... ثم صار ينهنه كطفل صغير!

ضغط الشاب على عواطفه وطرد صور ماضيه وأحلامه من مخيلته، محاولاً أن يستمر في دراسته، ظاناً أن جاره سيتوقف عن الغناء؛ بعد أن باح بمكنونات قلبه في هذا اليوم الجميل! ولكن الذي حدث هو العكس، إذ إن جاره وصديقه استرسل بالغناء، وخيل للفتى أن عاطفته قد ازدادت تأججاً والتهاباً! لقد أحس الفتى وكأنما روح جاره وتأوهاته تذوب مع كلمات الأغنية، وأن أجزاءً من قلبه تتطاير شظايا مع تنهداته! لم يكن الرجل يغني، كان ينوح ويبكي! كان في غنائه حرقة الهجر ومعاناة البعاد وألم الوحدة! الله! الله! الله!

استغرب الفتى، بادئ ذي بدء، أن يفعل صديقه مثل هذا، ولكنه عاد فعذره! فقد اعتقد أنه لا بد وأن يكون جمال الربيع الأخاذ وروعته، وصفاء الطقس ودفء الشمس، هي التي هزت مشاعر جاره، فأججت عواطفه وحركت ذكرياته!

إن للسيد أدلن كامل الحق على نفسه وعلى الذين يسكنون معه في النزل، أن يطلق العنان لصوته لدقائق قليلة، بأن يعبر عن مشاعره المكبوتة، في يوم ساحر مثل هذا اليوم الدافئ الرائع!إنه من الصعب على إنسان محب للفن ومولع بالجمال، أن يقاوم إغراء الطبيعة وسحرها، خصوصاً إذا كان هذا الإنسان مريضاً كالسيد أدلن، ملازماً للفراش دائماً، لا يستطيع مغادرة النزل كلما اشتهى التمتع بما أبدع الخالق من مفاتن الطبيعة وجمال الكون!

"إن السيد أدلن إنسان مريض، وصحته لا تسمح له بأن يبقى خارج الفراش طويلاً، ولا شك أنه سيعود إليه سريعاً، كما أن صوته قد بدأ يضعف ويرتجف!" قال راكان لنفسه مبرراً ما يفعله صديقه ، ومحاولاً أن يتجاهل صوت جاره وأن يركز على دراسته!

استمر الغناء وزاد تأجج العواطف، واخشوشن الصوت، ولم يعد الرجل إلى فراشه ولم يدخل حتى غرفته، وما زال واقفاً في قاعة الطعام، خلف باب غرفة راكان؛ حتى خيل للفتى أن صديقه كان يبكي وهو يغني، وأن نفثات روحه، وأجزاء من قلبه تخرج مع كلمات الأغنية!

نهض الشاب وأزاح الكرسي من تحته، ثم تثاءب ومط يديه إلى أعلى عدة مرات، ثم إلى أسفل، ثم يميناً وشمالاً، محاولاً أن يعيد إليهما الدماء المنحبسة.

كان الفتى من النوع الحساس جداً بالنسبة لقضية التركيز، إذ كان أقل صوت أو حركة تعكر عليه صفو تفكيره، إذا كان يقرأ أو يكتب أو يفكر؛ حتى صوت الموسيقى الناعمة والحالمة يشتت أفكاره، ويزعجه في بعض الأحايين! كان يستغرب عندما يرى بعض من يعرف في الوطن وهنا في أمريكا، وهم يقرؤون أو يدرسون أو يكتبون، والموسيقى الصاخبة تجلجل في كل أركان المكان! كان وهو في الوطن إذا أراد أن يقرأ أو يكتب أيام العطل، يطلب إلى أمه وأخواته، أن يلتزمن منتهى الهدوء والسكينة!

لقد كن يتذمرن ويحتججن بأن أعمالاً في البيت يجب أن تعمل؛ فكان جوابه دائماً بأنها يجب أن تؤجل إلى وقت يكون هو فيه غير جالس يقرأ أو يكتب! ولقد كن يقلن بأن الطبخ والجلي هي واجبات لا يمكن تأجيلها، فكان جوابه، فليعتبر كل واحد منا أنه الآن شهر رمضان، وأن الجميع كلهم صائمون! وتجنباً للنقاش والجدال والأخذ والعطاء، كن يسلمن أمرهن إلى الله ويرضين بالواقع!

عاد الفتى إلى مقعده وحاول أن يستأنف دراسته، ولكن الغناء ما زال مستمراً، والمغني لم تظهر عليه علائم التوقف، ولا دلائل الاسترخاء؛ بل إنه على العكس من ذلك فقد ازداد صوته ارتفاعاً، وازدادت عواطفه تأججاً، حتى خُيل للفتى أن جاره قد وصلت عواطفه إلى قمتها، وبلغت أحزانه شأواً بعيداً؛ فخاف أن ينفجر بالبكاء وبأعلى صوته!

وهنا لم يستطع الدارس أن يكبح جماح ثورة غضبه المتأججة، فرفس بقدمه وبشدة الكرسي الذي تحته حتى قلَبه، واتجه نحو باب غرفته يضرب أرضها الخشبي بقدميه وكأنما ليشعلها ناراً، وقد سمع لها صوتاً وكأنما هي تستغيث من جنونه! كان كلما خطى خطوة إلى الأمام، ازدادت مراجل غضبه غلياناً، متذكراً الوقت الذي أضاعه، وهو الذي بحاجة إلى كل ثانية منه! لقد بخل على نفسه، هذا الصباح، بدقائق يغسل بها وجهه، أو حتى يتناول كأساً من العصير أو فنجاناً من الشاي أو القهوة.

عندما وصل الفتى باب غرفته ووضع يده على القبضة المخصصة ليدفعه داخل الحائط، كانت المرئيات تتراقص أمامه كالأشباح لشدة غضبه، وسمع للباب عند فتحه صوتاً كقصف الرعد، مما ارتجت له طوابق البيت الثلاثة؛ كما خُيل له أن باب غرفته قد طار وارتطم بباب غرفة جاره!!

- حرام عليك أن تفعل هذا بي يا صديقي! عندي امتحان كبير غداً! وعلي أن أدرس عشرات الصفحات، وغناؤك هذا يزعج دراستي ويجعلني غير قادر على الاستيعاب!! قال الفتى بلهجة ممزوجة بالغضب والاستجداء.

لكن السيد أدلن لم يلتفت نحو جاره، ولم يكف عن الغناء، بل بقي حتى معطياً له ظهره! لقد كان واقفاً في منتصف قاعة الطعام، ناظراً خلال الشباك إلى الخارج، متطلعاً إلى أعلى؛ كعاشق من الأيام الخوالي، يقف تحت شباك غرفة حبيبته، مناجياً إياها في ضوء القمر، يبثها لواعج حبه ومكنونات قلبه!

بقي السيد أدلن مستغرقاً في غنائه، ولا شك أنه كان ناسياً نفسه، وناسياً وجوده، بينما بقي راكان يرقب جاره متفكراً ومتسائلاً ماذا عسى أن يكون قد حدث لصديقه، حتى يخرج عن وقاره ويتصرف مثل هذا التصرف الصبياني الأرعن والسخيف؟

توقف السيد أدلن عن غنائه ربما لأن الأغنية قد انتهت، وصار ينحرف بجسمه قليلاً قليلاً حتى واجه راكان الواقف خلفه، فرأى الفتى ما أذهله، فقد كانت عينا صديقه تذرفان الدمع الغزير، وكانتا حمراوين كالجمر المتقد!

- قل لي بربك ماذا حدث؟! لقد أقلقتني عليك يا رجل! صاح الفتى لا شعورياً، وقد أحزنه وآلمه جداً منظر صديقه الذليل.

- أنت هنا يا صديقي؟! لقد كنت أظنك قد خرجت ! لقد خرج جميع النزلاء حتى السيدة لويس ! لقد كنت أظن أنني الوحيد هنا! قال الرجل بصوت ضعيف مرهق.

- أرجوك ! عندي امتحان كبير غداً، وأحتاج لساعات وساعات للدراسة! إنني لا أستطيع التركيز، وأنت تغني.! قال الفتى مستعطفاً.

- تعال وهنئني يا صديقي؛ وأخيراً وجدتها ! لقد انتهت أيام الوحدة والمعاناة، وذهبت إلى غير رجعة !إنها نفس الفتاة التي أمضيت عمري أحلم بها وأبحث عنها! إنها حورية من حوريات الجنة ! إن في عينيها سحراً، وفي شفتيها إغراءً ! إنها أجمل من الموناليزا، وأعذب من السحر، وأرق من النسيم ! إنني أعرفها منذ أن ولدت، إن صوتها الحنون يسحر القلب، وابتسامتها الربانية تخلب اللب !!

همّ الفتى أن يسأله من هي تلك المرأة التي يتحدث عنها، والتي تتمتع بكل هذا الجمال الرباني، لولا أنه فجأة تذكر ! لقد أعلمه السيد أدلن قبل حوالي الشهر تقريباً، بأن الكنيسة التي ينتمي إليها قد استأذنته في إخراج تمثيلية له كتبها أيام شبابه ليمثلها بعض الهواة ، لمساعدة فقراء الكنيسة، ولكنه لم يعلمه بأنه هو أحد الممثلين :

- سامحك الله يا صديقي، لماذا لا تتدرب على دورك في مسرح الكنيسة وليس في قاعة طعام النزل ! لو أن النزلاء كانوا متواجدين هنا لربما اعترض بعضهم على غنائك، بحجة إزعاجه! وفجأة أدرك أنه ربما يكون قد جرح مشاعر صديقه فاستدرك:

- أنا شخصياً لا أعترض على أن تتدرب على دورك في المسرحية هنا، ولكن أقول هذا لأن عندي غداً امتحاناً مهماً جداً.

- أنا لا أمثل يا صديقي، أنا أتكلم حقائق! قالها الرجل بغضب لاهب، وهو يصر على مخارج الكلمات، إذ لا شك أن كلام الفتى قد ألحق به إهانة بالغة، ثم أضاف:

- لقد قابلتها هنا اليوم... في هذا النزل... وكلمتها في نفس هذه القاعة ! لقد رأيتها اليوم بأم عيني، وسمعتها بأذنيَّ هاتين ! قال ورافقها بإشارة بإبهامي يديه الاثنتين إلى عينيه أولاً، ثم إلى أذنيه بعدها، ثم تابع:

- لقد ناجيتها وناجتني، وتعانق عقلانا وقلبانا وروحانا ! إن صوتها موسيقى بيتهوفن نفسها، وشعرها قصائص ذهب، وأنفها زهرة خاتم سليمان، أعطيت أمي مرة باقة منها !آه... إنها... إنها... وهنا خنقته عبراته وغصت عيناه بالدموع فلم يستطع متابعة الكلام.

كان السيد أدلن يتكلم بأدب ورقة وبعاطفة ملتهبة، وكأنما يتكلم مع حبيبة تزمع على هجره، وهو يرجوها بل يتوسل إليها أن لا تفعل...!

- لو رأيتها وهي تتمختر كغزال شارد فوق أرض القاعة... لو رأيت سحر عينيها وهي تنظر إليك... لو سمعت صوتها وهي تتحدث... لو سمعت ضحكاتها وهي تزغرد... لكنت ألقيت بنفسك إلى الأرض وسجدت للخالق شكراً !

في تلك اللحظة استولت على الفتى عاطفة عارمة من الحزن الشديد، إذ تأكد له بما لا يدعُ مجالاً للشك بأن صديقه أصابه مسٌ من الجنون، ولا شك أن الوحدة والشعور بالضياع، وعدم تواجد محبين للإنسان على وجه البسيطة، يقوده إلى التمزق والقهر والإحباط؛ ثم إلى الجنون، فقال الشاب مواسياً:

- إنني كثيراً ما أتصور نفسي وقد قابلت الفتاة التي صنعها خيالي وصورها لي حرماني، وأنني كلمتها وكلمتني، وناجيتها وناجتني؛ بل وأننا تبادلنا أحاديث العشق والغرام، ثم أصحو من أحلامي، فأفاجأ بالحقيقة المرة! قال الفتى محتداً ومخاطباً صديقه!

- سامحك الله يا صديقي، سامحك الله، أنا لا أتخيل! أنا لا أحلم! إنها الحقيقة !

- وأين هي إذن، ومن هي؟!

- آه، من هي؟! سؤال مهم وعظيم، تستغرق الإجابة عليه العمر كله ! إنها فتاة أحلامي... الفتاة التي أمضيت كل عمري أحلم بلقائها وأنتظر قدومها وأفتش عنها... ! الفتاة التي لم تفارق صورتها مخيلتي منذ أن بلغت سن الحلم ! اليوم... فقط اليوم... اليوم هذا بالضبط... جاءت لتعلمني بأنني لم أعد بحاجة إلى الانتظار، وأنها قد حضرت لنقضي عمرينا معاً في سعادة ونعيم! قال ذلك وهو يحرك يديه وكأنما ليشهدها على ما تقول.

لم يكن الرجل يتكلم بلسانه فقط، فقد كانت يداه ووجهه وحركاته أكثر تعبيراً من حديثه ! لقد شعر الفتى بأن الرجل كان يذيب روحه وقلبه وأحاسيسه وعواطفه فتسيل مع حديثه؛ وإن كان قد أصر على الكلمتين الأخيرتين ثم أضاف بحزم وتأكيد:

- لا وحدة بعد اليوم يا صديقي! لا وحدة يا راكان! هل تسمعني؟! نعم، لا وحدة، ولا معاناة! قالها وكأنما يغني، ثم بدأ يرقص رقصة الفالس.

وهنا اجتاح الفتى إعصارٌ مدمرٌ أحس أنه قد أحرق حتى نخاع عظامه، إذ تأكد له بأن جاره وصديقه قد أدركته رحمة السماء، فانضم إلى قائمة المجانين، فصاح بأعلى صوته وبغير إرادة منه؛ صوتاً جلجل في كل جنبات النزل:

- وحدوووه...! وحدوووه...! وحدوووه...! قالها ثلاث مرات، ثم رافقها سيل من دموع حارة كالماء المغلي، وقشعريرة باردة عصفت بجسمه، وصار كل كيانه يهتز من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، وكأنما هو درويش صوفي شعر فجأة بأنه يقف وجهاً لوجه أمام خالقه وفي حضرة معبوده!

- ماذا قلت؟! سأل وقد اتسعت حدقتا عينيه.

- قلت لا إله إلا الله، العظمة له، ربٌّ يُعبد...!

- إنك ستقول ذلك مرة ثانية عندما تراها! قال بفرح وقد علت وجهه ابتسامة خالها الفتى ابتسامة طفل صغير أُعطي لعبة يحبها وانتظرهاطويلاً !

- والآن اسمح لي يا صديقي أن أعود إلى دراستي؛ فأمامي ما زالت ساعات طويلة من الدرس! قال الشاب ذلك وهمّ بمغادرة القاعة، غير أن جاره أمسك به وقال له بلهجة تفيض بالعاطفة والحنان... لهجة فيها رجاء وفيها توسل:

- لا يا صديقي، ليس هكذا يتصرف الأصدقاء المخلصون، لقد عهدتك دائماً صديقاً وفياً، تهب لنجدة المحتاجين، وأنا بحاجة ماسة إلى مساعدتك!

- وما هي المساعدة التي تريدني أن أقدمها لك؟!

- أرجوك أن تستمع إلي لأحدثك أولاً، حديث حبي، ولأروي لك قصة سعادتي ! إنني أشعر بأنني أكاد أطير فرحاً، وأنني اسعد مخلوق على هذه الأرض! أريد أن أحدثك عن سبب سعادتي وما جرى لي هذا اليوم. قال هذا وجلس على المقعد الجلدي إلى يمينه ثم أشار إلى راكان أن يجلس قبالته على المقعد المقابل.

- لقد جاءت إلى النزل صباح هذا اليوم فتاة لم أرَ في حياتي كلها من هي أجمل منها؛ وأنا رأيت في حياتي الطويلة جميلات كثيرات في مدينة هوليوود وغيرها من المدن التي تُقام بها مسابقات للجمال! إنها جميلة كالوردة، يصل أريج عطرها إلى أنفك من بعيد، فتشعر بسعادة لم تشعر بمثلها من قبل؛ سعادة طفولية عذرية! إنها رشيقة القوام كالغزال، ذات شعر ذهبي مرسل على كتفيها كأنه سبائك من ذهب؛ لها عينان زرقاوان صافيتان كزرقة السماء في أشهر الربيع! عندما تكلّمَتْ خُيل إلي وكأنما موسيقى ناعمة آتية من بعيد، تسللت إلى كل مسامة من مسامات كياني، فتخيلت أنني فجأة نقلت إلى عالم سحري عابق بالمحبة والعطور والرومانسية!

لم يفتح راكان فمه كل هذه المدة، ولم ينبس ببنت شفة، وإنما بقي محدقاً بمحدثه محوقل العينين فاغر الفم، شبه منوم، يراقب حركات شفتيه ولسانه وإيماءات يديه، ويحدق بتقلصات وجهه ورقبته وفكيه.

- لقد أحببتها من أول نظرة! ولا شك عندي إطلاقاً من أنها تحمل لي نفس الشعور! لقد ابتسمت لي وهي تغمز بعينها ابتسامة رقيقة عذبة مملوءة بالحب والحنان؛ ابتسامة لم أرَ في حياتي كلها أعذب منها ! إنك لا تعرف ما أتكلم عنه، حتى تراها.

وبعد أن استراح قليلاً، ورطب شفتيه بلسانه أضاف:

- إنها في حدود الخامسة أو السادسة والعشرين من عمرها، تعمل مديرة قسم في شركة الهاتف الآلي؛ واسمها جين! يا إله السماء، هل سمعت في حياتك كلها باسم أجمل من هذا الاسم؟! وهل أدركت كم هو ناعم وموسيقي؟ !ألم تشعر أنه تسلل إلى أعطافك، فدغدغها ثم أسكرك؟!

شعر راكان بأنه يجب أن يقول شيئاً ليشعر صديقه بأنه متعاطف معه ويشاركه فرحته، ففتح فمه وكان أن يقول (الجنون فنون يا صديقي) ولكنه عاد وغير رأيه، فسأل:

- وأين هي هذه الموناليزا؟!

- لقد أصبت يا صديقي، لقد أصبت ورب السماء! قالها بفرح صبياني، وقد هب واقفاً لشدة التأثر والانفعال. ثم قال:

- إنها حقاً موناليزا! إن الفنان الذي رسم الموناليزا كان في مخيلته الآنسة جين! إن في ابتسامتها سحراً وعذوبة لم أرَ في حياتي كلها كسحرها وعذوبتها! كانت كابتسامة قديس يعلم مذنباً اعترف له بأن الخالق قد غفر له وسامحه! إنك لن تدرك ما أتحدث عنه حتى يكرمك الخالق فتسعد برؤيتها! لقد رأت الغرفة فأعجبتها؛ ودفعت إيجار الشهر مقدماً، وذهبت لتحضر حاجياتها، وستأتي في آخر النهار.

- لقد شوقتني لرؤيتها؛ والآن اسمح لي أن أعود إلى دراستي، إلى اللقاء! قال الفتى ذلك ونهض لينصرف.

- لا يا صديقي! لا أرجوك! أريد منك خدمة صغيرة... صغيرة جداً... وهي أن تذهب إلى "السوبر ماركت" المجاور وتشتري لي بعض الحاجيات، بينما أنا أقوم ببعض المهام! لقد دعوتها الليلة إلى العشاء، ودعوت أيضاً على شرفها جميع سكان النزل قبل خروجهم هذا الصباح؛ وأنت كذلك مدعو الليلة.

- وهل دعوت السيدة لويس أيضاً؟!

- صدقني أنني فعلت؛ ولكنها نظرت إلي نظرة احتقار وغضب، ولم تقل شيئاً. لقد شعرت لأول مرة أنني لا أكرهها وأنني حزين من أجلها! إنه الحب يا صديقي، يعلم المحبة وينبذ الكراهية.

- لقد صدقت يا صديقي! لقد صدقت! إنه الحب! على كل حال لقد فعلت ما يجب فعله، بارك الله بك.

- إذن دعني أكتب لك قائمة بالحاجيات التي أريدك شراءها! لن تأخذ من وقتك أكثر من ساعة من الزمن، قال هذا ونهض ثم توجه إلى غرفته، وعاد يحمل ورقة وبعض النقود ناولها إلى الشاب، الذي أخذها على مضض ثم خرج.

*****

كانت أرومة الطعام تتسرب إلى أنف راكان من تحت باب غرفته، آتيةً من المطبخ، فتزكم أنفه وتثير شهيته، وتوقظ أيضاً ذكرياته! كانت تثير شهيته بشراسة، إذ إن كل ما تناوله طيلة هذا اليوم كان عبارة عن قطعتين صغيرتين محمصتين من الخبز، مدهونتين بالمربى مع كأس من الحليب المثلج، التهمهما على عجل، بعد أن عاد يحمل ما اشتراه هذا الصباح للسيد أدلن.

كما أثارت في نفسه ذكريات محمومة؛ إذ تذكر أيام كان في الوطن، في شهر رمضان الفضيل، عندما كان جميع أفراد العائلة يتجمهرون في غرفة الجلوس؛ وأمه تساعدها أخته الكبرى، أميرة، يجهزان طعام الإفطار، وكلهم صيام ينتظرون انطلاق مدفع الإفطار، لينقضوا على ما أنعم عليهم الخالق من أطايب الطعام.

حاول الفتى أن يتجاهل عواء أمعائه ونداء ذكرياته، ويركز على دراسته، ولكن كان من الصعب عليه أن يفعل ذلك، وهو يخوض ثلاث معارك في آن واحد؛ مما جعله يدفع بكتابه بعيداً عنه بقهر وغضب، ثم ينهض ويرمي بنفسه فوق فراشه ليتابع ذكرياته في الوطن!

كانت الحركة في النزل على أشدها، وكانت تصل إلى أذني راكان ضحكات وقهقهات نساء ورجال، استطاع الفتى أن يميزهم، وأن يعرف أن صاحبة الضحكة الغريبة، هي لا شك النزيلة الجديدة ! كان يسمع أيضاً وقع أقدام تمر من أمام غرفته ذاهبة آيبة، بين المطبخ وغرفة الطعام، بعضها ثقيل يهتز النزل لوقعه، وبعضها ناعم خفيف كأنها قبلات رقيقة؛ ثم أصوات صحون وملاعق وطناجر؛ وأوامر يطلقها السيد أدلن هنا وهناك ! يا له من جو عائلي دافئ!

وأخيراً سمع قرعاً على باب غرفته، فقفز من على سريره وفتح الباب!

- العشاء جاهز، ونحن بانتظارك، آمل أن تكون قد انتهيت من دراستك! قال السيد أدلن وعلى وجهه ابتسامة كبيرة ابتلعت نصف وجهه؛ وقبل أن يجيبه الفتى أشار إليه أن يتبعه.

لم يصدق راكان عينيه عندما رأى السيد أدلن! لقد كان وجهه يطفح بالبشر والسرور، وكانت عيناه تفيضان بهجة وسعادة! لقد استغرب الفتى هذا التحول السريع والمفاجئ في حياة صديقه، إذ لم يكن مرتدياً معطفه الشتوي الثقيل، ولا اللفحة الصوفية المخططة، ولا حتى الجارزة التي كانت لا تفارق جسمه حتى في أيام الصيف الحارة! كانت صلعته تلمع وكأنما أغرقت بكمية من زيت الزيتون؛ وكانت الشعيرات البيضاء المتناثرة على أطراف رأسه تتلألأ من كثرة ما غطيت بزيت الشعر!

- الآنسة جين! هل لي أن أقدم لك صديقي العزيز راكان، جاء من الوطن وترك خلفه ثلاث زوجات عربيات، سيلحقن به عندما يرسل في طلبهن! إنه يبحث الآن عن زوجة رابعة، ولكن هذه المرة أمريكية! قالها وقد بدت كل خلجة في جسمه تضج بالسعادة والحبور، وكذلك بمنتهى الجدية والحماس؛ ثم التفت إلى راكان وقال له:

- راكان! أقدم لك ضيفتنا العزيزة الآنسة جين آرلنغتون؛ ملكة جمال جنوب كاليفورنيا؛ والتي لا تملك إلّا أن تقع في حبها عندما تراها!

مد الفتى يده لتعانق اليد الممدودة إليه، وقد فتح فمه على وسعه؛ بينما كانت عيناه تحدقان بالتحفة الفنية التي يقف في حضرتها!

- أنا لا أقبل إلا أن أكون الزوجة الوحيدة !

لا شك أن الأفعى قد لاحظت وقع جمالها على صاحب اليد التي تمسك بها، فقالت وهي تتضاحك بغنج ودلال وتشد على يد الفتى المذهول أمامها.

كانت الحسناء ترتدي فستاناً بسيطاً من الحرير الخفيف الأبيض؛ ذا أكمام طويلة محتشمة، فوقه جارزة حمراء اللون خفيفة مما يدل على ذوق رفيع! كانت حمرة جارزتها تزيد في حمرة وجهها وخديها! لم تكن تضع مساحيق ولا أصباغاً، وكان جيدها وأذناها ويداها معطلة من الحلي! كانت شفتاها حمراوين كأنما خرجتا لتوهما من معركة قُبل!

لقد أعذر الفتى فيما بعد صديقه، لما قال ولما فعل! لقد كانت الفتاة حقاً رائعة الجمال، تلفها مسحة ربانية؛ ولا شك أن الخالق الأعظم، سبحانه وتعالى، قد خلقها لتكون آية من آياته العظمى، ومعجزة من معجزاته البينات !

حقاً ، لقد ألهبت ابتسامة الفتاة ونظراتها مشاعر الفتى وأحاسيسه، وعطلت مقولتها وجرأتها تفكير الدارس وجردته من صوابه!وهنا جدت الفتى موجة غزيرة من العرق الساخن، غمرت كل أجزاء جسمه، فقال وهو يمسح بظهر يديه الاثنتين عرق وجهه المتصبب:

- أنا لست متزوجاً! إن صديقي أدلن يقول هذا مازحاً لكل إنسان يقدمني إليه! قالها الفتى وهو كالمنوم، إذ لا شك أنه لا شعورياً، يريد أن ينفي عن نفسه تهمة الزواج، ليوحي للفتاة بأنه بطلٌ محتملٌ للحب والغرام!

- أنا لا يمكن أن أصدق بأن شاباً يحدث له ما حدث لك الآن، قد عرف أنثى في حياته! أنت خجول مني لدرجة يصعب تصديقها! قالتها الفتاة بصراحة وجرأة أذهلتا الشاب، الذي ظن وكأنما الفتاة تتحداه بل وتؤنبه على هذا التصرف المشين، والذي لا يليق بالرجال!

كان راكان ما زال مسمراً في وقفته أمام الحسناء، وإن كان بعد سماعه ما قالت، أنزل ناظريه خجلاً إلى الأرض بعد أن كانتا محدقتين بها.

- لقد برد الطعام وأنتم تتناوبون الثناء على بعضكم! أرجوكم إنني أكاد أموت جوعاً! سمع راكان صوت السيد فرانك يهدر بعتاب ممزوج بالغضب وهو يتجول بعينيه بين أطباق الطعام المكدسة فوق طاولة الأكل.

شكر الفتى، بسرّه، النزيل فرانك؛ إذ إنه أنقذه من وضع يعتقد بأنه مشين لرجولته ومهيناً لفحولته!

وقف السيد أدلن خلف الكرسي على رأس طاولة الطعام، وطلب إلى النزيلة الجديدة وضيفة الشرف، أن تجلس قبالته على الطرف الآخر من الطاولة، وهنا لاحظ راكان أن فرانك قد نظر إلى السيد أندرسون وغمز بعينه وهو يبتسم! وطلب إلى راكان أن يجلس إلى يمينه وإلى فرانك أن يجلس إلى شماله قبالة راكان، ثم طلب إلى السيدة أندرسون أن تجلس على يمين راكان وإلى زوجها أن يجلس قبالتها.

لم يبارك السيد أدلن الطعام ولم يطلب إلى أحد أن يباركه، كما تعود راكان أن يرى في مثل هذه المناسبة، وإنما نهض وحمل زبدية الشوربة ومدها باتجاه ضيفة الشرف، وربما بسبب بعد المسافة مد فرانك يده، بعد أن وقف هو الآخر وأخذها منه وأبقاها بين يديه، وطلب إلى ضيفة الشرف أن تأخذ حاجتها منها! وهنا لاحظ الفتى نظرة اشمئزاز وتكشيرة استنكار على وجه السيد أدلن؛ وبعد أن فعلت، ناولها إلى السيدة أندرسون التي أخذت بعضاً منها وناولتها إلى راكان الذي ناولها بدوره إلى السيد أندرسون، والذي هو بدوره ناولها إلى السيد أدلن! وهكذا ظلت أطباق الطعام المكدسة بأطايب ما خلق الله تقدم إلى الآنسة آرلنقتون أولاً، ثم إلى بقية الحضور بعد ذلك.

كان جميع من حول المائدة يثرثرون ويلقون النكات ويضحكون، ويتناولون طعامهم بشهية واستمتاع، باستثناء راكان الذي كان يفكر بامتحان الغد وبالصفحات العديدة التي لم يدرسها بعد؛ ولكنه وبسبب حميمية الجلسة وشاعريتها، وحرارة الأحاديث وطلاوتها، ثم الجو المرح الذي يسيطر على الحضور، وكذلك المحبة والسعادة التي تفيض من عيونهم؛ تناسى امتحانه، فانخرط يشاركهم ضحكهم وحبورهم، وإن كان لم يشاركهم نكاتهم والتعليق عليها، بسبب خلفيته التربوية!

لقد لاحظ راكان أن السيد أدلن قلما يحول عينيه عن النظر إلى الآنسة جين؛ وكان هو يتحدث إلى الحضور، يعنيها هي وحدها، فقد كان وجهه يطفح سعادة وعيناه تفيضان حباً وحناناً. وكثيراً ما توقف طويلاً فوق صدرها ونهديها البارزين وتنهد! كان وهو يتحدث إليها وكأنما كان يناجيها، وكانت نظراته الوالهة نظرات تهجد وعبادة ! كان وكأنه ينظر إلى صنمه ويتوسل إليه أن يسمع وجيب قلبه ونبضاته، ويتضرع إليه أن يرحم دموعه وشكواه !

حاول الشاب أن يتصور جين وأدلن بعين خياله، عاشقين حبيبين، ولكن خياله لم يقبل الفكرة، بل أحس بقشعريرة ممزوجة بالقرف والاشمئزاز وهو يتصور القبح يعانق الجمال!

إن الذي أحزن راكان بل آلمه حقاً، هو أن الآنسة آرلنقتون كانت تعيره هو اهتماماً أكثر مما تفعل حتى مع السيد أدلن، صاحب الدعوة والمهتم الأول بها! كانت كُلما التقت عيونهما يشعر وكأنما تعريه، وتكشف عن كل ذرة في جسمه، فيحمر وجهه وتلتهب وجنتاه وتحتقن أذناه، فيرتبك وتجدّ جسمه كله موجة من العرق الساخن، فكان هو لا ينفك يمسح بطرفي كمه وفوطته العرق المتصبب فوق وجهه ورقبته؛ حتى خشي أن يلاحظ الحضور ذلك، فيزداد حياؤه وخجله وارتباكه.

- حقاً إنها لليلة خالدة في حياة النزل والنزلاء أن تنضم إلينا الآنسة جين آرلنقتون! قال السيد أدلن وهو يضغط على مخارج الكلمات والسرور يطفح من عينيه، والسعادة يضج بها وجهه؛ ثم أضاف بعد أن رطب شفتيه بلسانه:

- إنه لشرف عظيم لنا أن تقبل دعوتنا للعشاء، وأن تكون بيننا ضيفة الشرف هذا المساء.

فأجابت ضيفة الشرف وعيناها تنظران إلى العرق المتصبب من فوق وجه راكان ورقبته، مما زاد في تدفق عرقه وإرباكه، وجعله يهرب من مطاردة نظراتها له، فينظر إلى صحنه:

- إنه ليسعدني جداً جداً أن أكون الليلة بينكم، ويشرفني كثيراً أن أكون أحد أفراد نزلكم النابض بالمحبة والسعادة! قالت الضيفة وابتسامة جذلى تزيد في جمال وجهها.

- إننا نشكرك يا سيد أدلن من صميم قلوبنا، أن أتحت لنا فرصة الجلوس معاً وتناول وجبة العشاء على طاولة واحدة، ولأول مرة في تاريخ النزل! وجد راكان لسانه يقول هذا بغير إرادة منه.

- حقاً يا سيد أدلن؛ لولا شهامتك وكرمك لما اجتمعنا الليلة على طاولة واحدة وتناولنا وجبة العشاء. قالت السيدة أندرسون.

- حقاً يا أدلن، الشكر لك أن أتحت لنا، نحن نزلاء النزل، بأن نأكل جميعاً من طبق واحد! الذي قال هذا السيد أندرسون.

- الشكر يجب أن يوجه إلى الآنسة جين، لأنه وبفضل وجودها بيننا؛ نحن نتعشى الليلة سوية! ولولاها لما أزعج أدلن نفسه بالطبخ وصرف نقوده وهو الحريص عليها! قال فرانك بلهجة تتضح بخشونة ألفاظه ووقاحة نظراته، وكذلك بسوء تصرفه!

احمر وجه السيد أدلن واصفر، واتسعت حدقتا عينيه، وانتفخت أوداجه، وحدج فرانك بنظرات غضبى ملتهبة، ثم حرك شفتيه ليقول شيئاً؛ ولكن الكلمات لم تخرج من فمه، لشدة غضبه!

- إن الذي عناه فرانك هو شكر السيد أدلن؛ لأنه صاحب فكرة الدعوة التي أتاحت لنا، نحن نزلاء النزل، ولأول مرة أن نتناول وجبة العشاء معاً ومن طعام واحد؛ وكأننا أفراد عائلة واحدة! قال راكان بتأنٍ يكاد يكون تلعثماً.

- يبدو أن راكان يحب فرانك كثيراً؛ فهو يدافع عنه بصدق وحرارة! قالت ضيفة الشرف.

- إن راكان شاب مؤدب جداً، وذو أخلاق عالية؛ يحترم جميع النزلاء؛ وكلنا نحبه ونحترمه! قالت السيدة أندرسون.

- هل تعرفون بأن التي ستتزوج السيد أدلن ستكون محظوظة جداً! إنه لن يدعها تدخل المطبخ، وسيحبها بكل طاقاته! قال راكان وهو ما زال ينظر أمامه في صحنه.

- شكراً لك يا صديقي! حقاً إنك صديق وفي! قال السيد أدلن وهو يبتسم وينظر إلى الآنسة كارلنقتون نظرة تهجد وعبادة، وكأنما يضمها بين عينيه! ثم أضاف:

- لأن غسل الصحون يفسد جمال يديها! سآخذها كل ليلة إلى مطعم يختلف عن الليلة السابقة، ولا تحتاج حتى لأن تضع أدوات الأكل في ماكنة غسل الصحون.

- إنه لن يطلب إليها غسل الصحون، وإنما سيطلب إليها جلب النقود! قال فرانك هذا وانفجر يضحك.

لا شك أن ما قاله فرانك قوبل بالاستهجان الشديد؛ إذ لاحظ راكان أن الجميع كانوا ينظرون إليه وقد عقدت الدهشة ألسنتهم؛ باستثناء السيد أدلن الذي اصفر وجهه وغطت جبينه موجة من العرق الغزير. كما لاحظ أيضاً أنه كان يحاول أن يقول شيئاً، ولكن يبدو أن شدة الإهانة قد ألجمت لسانه، وبقي محدقاً في فرانك وكأنما يريد أن يحرقه بنظراته.

حاول راكان أن يقول شيئاً ولكن الله لم يفتح عليه؛ وهنا التفتت المضيفة إليه وسألته؛ إذ تأكد للفتى بأن الفتاة تريد أن تلطف الجو المتكهرب بجو أكثر حميمية وأقل صداماً.

- قال لي أدلن بأن عندك امتحاناً غداً، فماذا تدرس؟! سألت الضيفة.

- أدرس أدب إنجليزي! قال الشاب مفاخراً، ثم أضاف:

- لقد درست في الوطن أدب عربي.

- يا إلهي! هذا عظيم جداً! ماذا تريد أن تكون؟! سألت وهي تحملق به وقد اتسعت حدقتا عينيها.

- أريد أن أكون أستاذ جامعة، وروائياً أيضاً ! وهنا شعر الفتى بأن هامته قد طاولت السماء.

- وعن ماذا ستكتب؟! سألت السيدة أندرسون هذه المرة.

- عن مآسي المعذبين في الأرض، وما أكثرهم!

مرت فترة صمت ليست بالقصيرة، إذ لا شك أن الحاضرين كانوا يفكرون بما أجاب به هذا الفتى.

- نعم، ما أكثرهم في هذه الدنيا! فجأة قال السيد أدلن وهو يهز رأسه من فوق إلى أعلى عدة مرات.

- وبأية جامعة ستلتحق بدراساتك العليا؟! سألت الضيفة.

- سألتحق بجامعة كاليفورنيا، بإذن الله! قال الشاب وقد فارقه شيءٌ من خجله وارتباكه.

- تعني UCLA، عظيم جداً! إنها من أحسن جامعاتنا! كنت أفكر أن ألتحق بها، بعد أن أنهي الثانوية العامة، غير أن طلاق والديّ أرغمني على العمل لأعيل نفسي ووالدتي. قالت الضيفة.

- نعم، إنها جامعة عظيمة! أعرف كتاباً كثيرين تخرجوا منها! قال السيد أدلن، وبعد أن غص في حديثه أضاف:

- كان أيام كنت أعمل في الإذاعة.

لاحظ راكان أن السيدين أندرسون وفرانك كانا متضايقين من الحديث عن الأدب والدراسة والجامعات، وعزا ذلك إلى أن الاثنين، كما أُخبر من قبل، لم ينهيا الثانوية العامة.

- إن أدلن طباخٌ ماهرٌ، أنا لم أذق طعاماً ألذ من طعام الليلة، وأين تعلمت الطهو يا رجل؟ يا حبذا لو أنك تعطي زوجتي بعض الدروس في الطهو! قال السيد أندرسون محولاً مجرى الحديث.

لا شك أن الزوج قد أدرك أن مبالغته في مدح الطبخ السيد أدلن قد ضايق زوجته فاستدرك:

- إن أوفيليا طباخة من الدرجة الأولى، ولكن طريقة مزج البهارات بالطعام هي التي شدتني إلى طهوك أكثر.

- إذن نحن كلنا مدعوون مساء الغد، أو بعده، أو الليلة التي تناسبكم إلى العشاء لنستمتع بما تطبخه لنا السيدة أندرسون! قال فرانك.

- على الرحب والسعة، وستكون جين ضيفة الشرف! قالت السيدة أندرسون.

- وبعدها سيكون الدور علي! قال فرانك ثم أضاف:

- ولكن لا تتوقعوا أن تكون وجبة متميزة، كالوجبة هذا المساء، أو كالوجبة التي ستطبخها لنا السيدة أوفيليا! ثم خفض من صوته قليلاً وأضاف:

- سيكون معظمها معلبات وطعاماً مجمداً أو جاهزاً.

- اعذروني! أنا سأحضر طعاماً جاهزاً؛ ربما بيتزا وبعض شطائر الوجبات السريعة. قال راكان.

- يا إلهي، ما أسعدني! كل هذا من أجلي؟! ليس عندي من كلمات كافية لتعبر عن شكري وامتناني! حقاً إنكم عائلتي الجديدة! قالت الآنسة جين آرلنقتون وقد أضاء وجهها وازداد جمالاً!

تفرع الحديث بعد ذلك وسلك مسالك شتى؛ ثم جيء بعد ذلك بالحلوى يرافقها إبريقان خزفيان؛ واحد مملوء بالشاي وآخر بالقهوة.

وقفت السيدة أندرسون ودفعت بكرسيها إلى الخلف وبدأت تجمع ما على الطاولة لتنقله إلى المطبخ؛ وهنا نهض كل من الحضور وصار يقلدها، ولم يتوقف واحد حتى كان كل ما على طاولة الطعام قد نقل إلى المطبخ.

وهنا التفتت السيدة أندرسون إلى راكان، وقالت:

- تستطيع الآن أن تذهب إلى غرفتك وتواصل دراستك، وحظاً سعيداً في امتحان الغد! قالتها بحزم.

- لا؛ يجب أن أساعد في غسل الصحون. قال راكان وكله أمل أن ترفض عرضه.

- أنت ساهمت مساهمة كبيرة بذهابك للبقالة وبشرائك للحاجيات. قال السيد أدلن.

- حظاً سعيداً في امتحان الغد، تصبح على خير وإلى اللقاء! قالت ضيفة الشرف وأتبعتها بتلويحة من يدها اليمنى وابتسامة جذلى من شفتيها الساحرتين.

دخل الفتى غرفته وأغلق بابها خلفه، ودس عينيه بين صفحات الكتاب، محاولاً أن يركز على دراسته، ولكن سماكة الباب وإرادة التركيز، لم تمنعا ضحكات الشلة ونكاتهم من أن تصل إلى أذنيه! ولقد سمع صوت السيد أدلن جذلان فرحان، وهو يوزع أعمال غسل الصحون عل الشلة، كما سمعه يطلب إلى الآنسة آرلنقتون، أن تجلس على الكرسي العالي الذي يجلس هو عادةً عليه وهو يغسل الصحون، وتراقب الشلة فقط، ولا تشاركهم الغسيل، لأنها ضيفة الشرف، ولا يجوز أن تتعب نفسها.

وهنا وجد راكان عقله ينفلت منه ويخرج من الغرفة ويذهب إلى حيث تجلس ضيفة الشرف، التي استحوذت على قلب السيد أدلن.

كانت نحيفة الجسم جداً، طويلة ممشوقة القوام، ذات شعر ذهبي طويل مرسل على كتفيها في إهمال مستحب! كان عنقها طويلاً كأنه عنق الغزال، وكان الناظر إليها وهو يتطلع في عينيها العسليتين يشعر بدفء عاطفي لذيذ وراحة نفسية عميقة، ويتمنى لو أنهما تحتضنان روحه وتلفان جسمه، ويود لو أنه يقضي طيلة عمره بين جفنيهما.

كانت وهي تبتسم، يشعر الناظر إليها أن ابتسامتها قد استولت على عقله وقلبه وروحه، وأنها جميعاً أصبحت ملك يديها ورهن إشارتها، أما إذا تكلمت، فإنها غالباً ما تستعمل حركة يديها لمساعدتها في التعبير عن أفكارها، إذ إن السامع إليها ينسى أنه يعيش في عالم أرضي، وأن روحه تحلق مع نغمات صوتها العذب الحنون، في عالم سحري، ولا تعود منه إلا بعد أن تكف عن الكلام !

أمانهداها فقد كانا منتصبين كأنهما فارسان مدججان بالسلاح، يتحديان كل مبارز، ويستهينان بكل طامع! كانت أصابع يديها طويلة ونحيفة كأنها أغصان من شجر الرمان، وكانت وهي تمسك بالشوكة والسكين وكأنها أصابع عازف كمان، يعزف إحدى سيمفونيات بيتهوفن!

*****

الفصل الحادي والعشرون

- هل جُن الرجل أم أنه قد خرف؟! هل يظن نفسه أنه ما زال شاباً قوياً؟! وهل من المعقول أن تقع جين في غرام إنسان مريض نصفه بالفراش ونصفه بالقبر؟! وماذا تحب به؟! عبقريته أم غناه؟! صلعته أم مرضه المتواصل؟! أما يخجل من نفسه؟! إنني في الثالثة والتسعين من عمري، وكلما أراه أشعر بأنني أكاد أستفرغ من القرف والاشمئزاز، لرائحته النتنة ولقذارة ملابسه!!!

بهذه الأسئلة والملاحظات، أمطرت السيدة لويس راكان عندما تواجدا في المطبخ معاً صباح يوم الأحد، الذي يلي دعوة العشاء التي أقامها السيد أدلن على شرف الآنسة جين، إذ كانت أول مرة تراه بها.

كانت المرأة تتكلم وكأنما تقرأ في كتاب، وكأنما تدربت على قراءته لمرات وحفظتها عن ظهر قلب؛ بل وحتى دون أن تضع سماعات أذنيها! كانت تتكلم بصوتٍ عالٍ جداً يسمعه سكان الطابق الثالث، وكانت تغمض عينيها تارة وتفتحهما تارة أخرى، وتعبس وجهها فتقلصه وتفرده أحياناً ثم تمط شفتيها، وكأنما فرغت لتوها من تناول دواء سائل مر!

قالت كل هذا وهي تخرج حاجيات تريد طبخها من الثلاجة، وتضعها على منصة المطبخ.

أمسك راكان بأنفاسه، وابتسم ابتسامة باهتة ولم يعلق على ما قالت المرأة، علها تتوقف عند هذا الحد، ثم حول عينيه إلى القاعة الطويلة المؤدية إلى غرفة السيد أدلن، آملاً أن يكون نائماً أو أن يكون صوت المذياع عالياً حتى لا يسمع ما تقوله المرأة.

- أما كان الأجدى به أن يوفر نقوده ويصرفها على حاجياته الضرورية، بدلاً من أن يصرفها على فرانك وجين؟! وهل يعتقد أن الدولارات الزهيدة التي صرفها على جين، ستجعلها تموت هياماً في رائحته النتنة؟! وهل يمكن لأنثى، مهما كانت على درجة من القبح والإهمال، أن تقبل أن يمسك يدها خنزير مثله؟!

كانت السيدة لويس تتكلم وكأنما تخطب في جمع غفير من الناس تحاول أن يصل صوتها إلى كل فرد فيهم.

وضع جميل سبابة يده اليمنى على فمه تارة، ومشيراً تارةً أخرى باتجاه غرفة السيد أدلن، على الطريقة العربية، طالباً إلى السيدة لويس أن تسكت أو أن تخفض من صوتها، مخافة أن يسمعها الإنسان الذي تتكلم بسوء عنه؛ ولكن قبل أن تدرك ما عناه الشاب من إشاراته، حتى سمع باب غرفة السيد أدلن يدخل بالحائط ويخرج له صوت كأنه الرعد، والرجل يقبل كالإعصار المدمر، يهدد ويتوعد؛ يرعد ويزمجر، يلعن ويشتم، ثم وقف بباب المطبخ، فقال وهو يضرب الفضاء بقبضة يده، ضربات قاسية موجعة، كأنما يضرب عدواً لدوداً له.

- لقد قلت لك مرات ومرات اتركيني وشأني! أنت امرأة خرفة... مجنونة... شريرة... يجب أن تقضي بقية أيام حياتك في مستشفى للمجانين، وليس في بيت محترم مثل هذا النزل! وبعد أن بلع ريقه ورطب بلسانه شفتيه الجافتين، أضاف:

- سأهاتف الآن السيد هانكوك، وسأطلب إليه أن يطردك من هذا البيت، ويلقي بك إلى الشارع! قال هذا وضرب الأرض بقدميه، ثم أدار ظهره وعاد إلى غرفته، ثم سحب الباب خلفه، وسمع راكان صوت صرير السرير وهو يلقي بنفسه فوقه، ثم صوت هدير المذياع.

أعادت السيدة لويس حاجيات الطعام التي أخرجتها من الثلاجة لوجبة غدائها إلى مكانها، وعادت إلى غرفتها دون أن تقول كلمة واحدة إلى راكان، الذي تأكد له الآن بأن المرأة لا شك قد سمعت كل ما قاله لها الرجل، أو حتى بعضاً منه لأنها وقتها كانت تضع السماعة على أذنيها.

حالما انتهى الشاب من تناول طعامه ودخل غرفته، كتب رسالة قصيرة إلى جارته يرجوها فيها أن تترك السيدة أدلن وشأنه، وإذا كان عندها أخبار عن الرجل وتحب أن تخبره بها؛ فلتتكلم بصوت منخفض أو تنتظر حتى يكون الرجل خارج النزل، ويكونا هما لوحدهما؛ أو حتى أن تعلمه بها في رسالة تكتبها إليه.

كتب الرسالة ودسها تحت باب غرفة جارته، وما هي إلا دقائق حتى سمع باب غرفتها يفتح وصوت أقدام تدب فوق الأرض كأنما هي أقدام رجل آلي وورقة توضع تحت الباب، وكان بها رسالة مختصرة جداً (أعدك بأنني سأفعل ذلك بعد اليوم! لويزا).

*****

كانت السيدة لويس تتكلم أحياناً كلاماً موزوناً حديثاً كله حكمة وصدق وموعظة، إلا أنها كانت في كثير من الأحايين تعيش في عالم من صنع خيالها، عالم غريب عجيب، لا شك أنه عالم زاخر خصيب، ابتدعته مخيلتها المثقفة وعقلها الكبير، ولا شك أن للأدب الذي تخصصت به ودرسته، وكذلك لقراءتها للروايات الأدبية، واطلاعها عما يحدث في العالم، نصيبٌ كبير في توسيع مداركها وإغناء مخيلتها.

لقد عرف راكان هذا، وأدركه من القصص الغريبة والعجيبة، التي كانت تقصها عليه عن النزلاء كلما اجتمعت به في المطبخ أو في غرفة الطعام، أو حتى من الرسائل القصيرة التي كانت تدسها له تحت باب غرفته.

كانت إذا كرهت أحدهم، وقد كرهت تقريباً جميع النزلاء على درجات متفاوتة، فإنها تحيك قصة خيالية عنه تؤكد للفتى حدوثها وصدق تفاصيلها.

كانت واثقة تماماً من أن الخنزير ساكن الغرفة الأمامية والمسمى أدلن، هو رئيس خلية شيوعية يخبئ أفرادها في الطوابق العليا للنزل، وأنهم يتآمرون لقلب نظام الحكم والاستيلاء على البيت الأبيض.

جاءت إلى الفتى في المطبخ صباح أحد أيام الأحد، وقد نهض مبكراً ليضع في معدته شيئاً قبل أن يبدأ الدراسة، وقالت له باهتمام شديد وأنفاسها تتلاحق وبلهجة متقطعة، وهي تحمل جريدة لوس أنجلوس تايم التي تصلها كل صباح وقالت:

- أشعر الآن بالراحة وأنني قد أُغثت، إنني لم أنم البارحة، وقد فكرت مراراً أن أوقظك، ولكنني أعرف أنك متعب وبحاجة إلى الراحة.

- وماذا حدث؟! سأل الشاب باهتمام وقلق شديدين وقد فكر أن شراً مستطيراً حدث في النزل!

- لقد كان الشيوعيون طيلة ليلة البارحة يروحون ويجيئون في الطوابق الثلاثة، واعتقدت بأنهم لا شك قد حددوا ساعة الصفر لقلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة، وخرجت لأهاتف البوليس، ولكن الخنزير كان قد خبأ آلة الهاتف في غرفته، ولم يهدأ لي بال إلا هذا الصباح عندما هرعت إلى الجريدة وقرأت عناوينها، فحمدت المسيح ! هل تظن أنهم أجلوا تنفيذ خطتهم؟! سألت وعيناها تدوران خلف نظاراتها السميكة، وكأنهما عجلا بحر يعومان في الماء.

حاول الفتى بشتى الطرق جاهداً ومخلصاً أن يقنعها بأن مخاوفها في غير محلها، وأن مكتب التحقيقات الفدرالي لهم بالمرصاد، ولكنها قالت:

- أنت لا تعرف خططهم القذرة والجهنمية، ولا حيلهم الخبيثة والدنيئة، إنهم خنازير... أنا أعرفهم جيداً... قالت بحزم وإصرار.

توقف الفتى عن محاولته إقناعها، إذ أدرك أن محاولاته ستبوء بالفشل، وأن إقناعها يبدو مستحيلاً، فاكتفى بابتسامة مؤدبة.

في مساء نفس ذلك اليوم، وبينما كان راكان متواجداً في المطبخ لإعداد وجبة العشاء، وقد انتظر حتى انتهى الجميع من تناول طعامهم والخلود إلى غرفهم جاءت السيدة لويس لتعد عشاءها هي الأخرى، وعندما جلسا إلى طاولة الطعام همست قائلة له:

- يوجد في المستشفى التي تعمل به السيدة أندرسون طبيب في مثل سنها يحبها حتى الجنون وهي تبادله نفس الحب، وهو يلحّ عليها أن تطلق زوجها ليتزوجها هو، ولكنها مترددة وتمهله حتى تصل إلى قناعة إما بالقبول أو الرفض، وقد هددها بأنها إن لم توافق فسيترك الخدمة بالمستشفى ويرحل إلى مكان بعيد ...إنه غير جاد في تهديده لأنه مجنون بحبها، فإن تركها وذهب فسيفقد عقله ويصيبه الجنون !

اكتفى الشاب بهزة من رأسه وابتسامة باهتة، وإن كان في داخله يعجب من خصوبة تفكير المرأة وجنوح خيالها، ثم أضافت:

- أما الآنسة مكنمارا فإنها مغرمة بفرانك إلى درجة الهوس، وإنها تعطيه كل ما يتبقى من راتبها بعد أن تدفع إيجار الغرفة، حتى إنها أحياناً لا تجد في حقيبتها نقوداً لشراء حاجيات الأكل، وقد ازدادت غيرتها في الفترة الأخيرة وهي تراه مهتماً بجين ومهملاً إياها، وطلبت إليه أن يكف عن فعلته هذه، ولكنه أعلمها بأنه لن يتوقف عن ما يفعل، وإذا لم يعجبها ذلك فلتذهب ولتلقي بنفسها في البحر.

- يا إلهي... إن هذا شيء فظيع! قال الشاب هذا وقد شعر بأنه لا بد من أن يقول شيئاً، حتى يشعر المرأة بأنه يستمع بشوق لما تقول.

- جين لا تحب الاثنين، لا فرانك ولا الخنزير أدلن، قالت باشمئزاز وهي تقلب شفتيها قرفاً، ثم أضافت:

- فرانك يحاول جاهداً أن ينال قلبها، ولكنه ليس بدرجة الخنزير، الذي يحبها حتى الجنون، وتأكل الغيرة قلب ذلك الشيوعي ساكن الغرفة الأمامية ! فرانك شاب وسيم وكثير من الفتيات يحببن صداقته، وإن كان معظم الأوقات لا عمل له ولا نقود في جيبه، أما السيد أندرسون فإن أدلن يحاول أن يقنعه بالانضمام إلى الحزب الشيوعي، ووعده بمنصب كبير في الدولة، ولكنه متردد حتى الآن ... حذار أن يحاول إقناعك أنت ... أنا أعرف أنك صديقه وأنه يحبك كثيراً، وإنه ليؤلمني أن أراك تنضم إلى زمرة الخونة الخنازير!

- اطمئني... لا يمكن أن أفعل ذلك! قال لها الفتى وهو يهز لها رأسه ليطمئنها وليؤكد لها ما يقول.

ما تكاد السيدة لويس ترى راكان يدخل المطبخ؛ إذ لا شك أنها كانت تترقب حضوره حتى تدخله هي الأخرى لتجهيز طعامها، وبعد أن تمنحه ابتسامة تقترب منه، وتبدأ تقص عليه قصصاً غريبة عجيبة عن السيد أدلن ! إنه وبسبب ضعف سمعها الشديد فإنها تتكلم بصوتٍ عالٍ جداً، فيسمع السيد أدلن ما تقوله عنه، وإن هي إلا لحظات حتى يسمع صوت بابه كقصف الرعد وهو يدخله بغضب إلى الجدار، ثم يغلقه خلفه ويأتي مسرعاً، ويقف في باب المطبخ أو باب غرفة الطعام، حيث تتواجد العجوز والشاب، ويبدأ يزأر، يلعن ويهدد ويتوعد، بأنه سيعلم السيد هانكوك بأن يطردها من النزل، ويطلب إرسالها إلى المكان الذي يجب أن تكون به، وهو مستشفى المجانين، وليرتاح سكان النزل من شرورها وقذاراتها.

كان يقترب منها أحياناً ويهز قبضة يده مهدداً ومتوعداً، وأحياناً أخرى يقف في وسط القاعة ويرفع يديه إلى السماء، وكأنه دجاجة تهم بالطيران ويصيح بصوتٍ عالٍ مملوءٍ بالغضب والحقد قائلاً: "لماذا؟! آه... لماذا بحق السماء يعيش بعض الناس هكذا طويلاً؟!" يعود بعدها إلى غرفته وأرض القاعة تهتز تحت ضربات قدميه؛ فيفتح باب غرفته من جديد، ويسمع له صوت كانهيار جدران عتيد، فيغلقه خلفه بغضب لاهب، ثم يلقي بنفسه فوق فراشه ! ويرفع صوت المذياع حتى يسمعه كل سكان النزل، ثم يعود فيخفضه ثانية.

لم يُعر السيد هانكوك شكايات السيد أدلن اهتماماً، وإن كان يطيب خاطره دائماً بقوله إن للمرأة أكثر من عشر سنوات تسكن النزل، وتدفع إيجار غرفتها دون تأخير؛ بل حتى قبل حلول موعدها، ثم إنها امرأة مسالمة لا تزعج ولا تؤذي أحداً، وكما أنه ليس من المعقول أن ترحل فإن رحيلها سيكون إلى العالم الآخر.

*****

- لقد بدأ الخنزير يكره فرانك ولا يستطيع أن يتصور رؤيته! إنه ينام وعندما يستيقظ في الصباح يتمنى لو أن أحدهم يعلمه بأن فرانك قد رحل إلى الرفيق الأعلى! إن فرانك شاب جميل، يفيض نشاطاً وحيوية، تجد الفتاة بصحبته كثيراً من المتع والمسرات! وماذا تجد الفتاة بصحبة ذلك الخنزير غير القحة والمرض والروماتيزم، بالله عليك أخبرني؟!

كانت هذه بعضاً من الأسئلة التي ألقتها السيدة لويس همساً على راكان ظهر يوم أحد؛ وكانت هذه المرة الأولى التي رآها بها بعد حادثة الأسبوع الماضي! لقد كانت المرأة تغسل الصحون في المطبخ، بعد أن انتهت من تناول وجبة الغداء، وكان الفتى قد قطع دراسته ليتناول بعض الطعام يسكت به جوعه، حيث مضى على آخر طعام دخل معدته ما ينيف عن أربع عشرة ساعة!

كانت المرأة تتكلم همساً، وعيناها ترقبان باب المطبخ، وقد قربت فمها من أذني الشاب، كما أن السماعتين كانتا هذه المرة موضوعتين فوق أذنيها، وأضافت:

- يجب أن نتكلم همساً حتى لا يسمعنا الشيطان، فيأتي ويبدأ بالزعيق، إن له أذنان كأذني الخلند!

- لا حاجة للهمس، تكلمي بحرية، لا يوجد أحد في النزل إلا أنتِ وأنا! لقد سمعتهم وهم يخرجون، بعضهم خرج من الباب الأمامي، والبعض الآخر خرج من الباب الخلفي! لقد سمعت جين وفرانك يستحثان أدلن للإسراع لينالوا قسطاً من السباحة قبل أن تحمى الشمس! قال الشاب للمرأة وهو يبتسم، وبصوتٍ عالٍ جداً، ليتأكد من أنها قد سمعت كل ما قال، بعد أن أبعد أذنيه عن فمها.

ضحكت المرأة بجذل طفولي، وصارت تتراقص وتكركر وكأنما إنسان يدغدغها تحت إبطيها! لقد لاحظ الفتى وكأنما شعاعٌ يخرج من عينيها؛ فيعكسه على عدستي نظارتها السميكة؛ فيتراءى للناظر إليها وكأنما نار تخرج من عينيها الصغيرتين الكليلتين.

- إن منازعات عديدة وجدلاً طويلاً بدأ يدب بين فرانك والشيوعي النتن بسبب جين، لقد صارت الغيرة الشديدة تأكل قلب العاشق الولهان، خصوصاً بعد أن رأى جين تعطي اهتماماً كبيراً لفرانك وتتجاهله هو! إنني لا ألومها فهل تلومها أنت؟!

ابتسم الفتى للمرة الثانية ولم يقل شيئاً.

- تصور أنه يتصرف كأنه شاب في ريعان شبابه، وأنه "دون جوان" العصر! سيفيق يوماً من أحلامه فيكتشف أن جين لم تحبه وإنما كانت تخدعه وتضحك عليه؛ عندها سيصاب بالجنون وقد تكون نهايته! لقد صار الشابان يتجاهلان الخنزير! إنه خنزير له شكله ورائحته.

وهنا انفجر راكان يضحك حتى دمعت عيناه، ولعل ضحكه شجعها على الاسترسال بحديثها فأضافت:

- ألم أقل لك أنه من المستحيل على أنثى، حتى ولو كانت في مثل سني، أن تحب ذلك الكريه النتن! ألا تذكر ذلك؟!

هز الفتى رأسه عدة مرات علامة الموافقة، وإن كان ما زال يضحك ويكركر.

- لقد ذهب ثلاثتهم إلى السينما بدعوة من الخنزير؛ وبعد انتهاء الفيلم الأول طلب إليهما أن يعودا إلى البيت بحجة أن الفيلم الثاني رديء ولا يستحق المشاهدة، كما أنه تعب من الجلسة الطويلة ويحتاج إلى أن يعود إلى سريره، فرفضا؛ بارك الله بهما! رجاهما فلم يستمعا إلى توسلاته؛ فأعلمه فرانك بأنه يدلل نفسه كثيراً؛ فأجابه الخنزير بأنه سيعود هو وجين وليبقى هو إن أراد، ولكن المشكلة عندما سئلت جين كان جوابها بأنها تحب أن تبقى لتشاهد الفيلم الثاني! هل تعرف ماذا قال لها الخنزير؟ لقد قال لها بأنها لا تحبه، وأنها تتظاهر بحبه فقط؛ ولكنها تحب فرانك، ولكن جين كانت دبلوماسية، إذ قالت له: بأنها تحب الاثنين؛ ثم التفتت إلى فرانك دون أن يلاحظها الخنزير وغمزته بطرف عينها أن لا تصدق ما تقول، لأنها تحبه هو فقط.

انفجرت المرأة تضحك من جديد، وبقيت تضحك لفترة ليست بالقصيرة، بعدها حركت بلسانها طقم أسنانها الاصطناعية، فبدت لراكان وكأنهما قطعتا لحم حمراوان.

- آسفة جداً جداً، يبدو أنني بحديثي معك قد أخرتك عن تناول وجبة طعامك! قالت المرأة وكأنما تذكرت وقد توقفت عن الضحك فجأة وعلت وجهها سحابة من الجدية.

- لا، لا أبداً! إنني متشوق جداً جداً لسماع أخبارك وأخبار سكان النزل . لقد صار لنا مدة لم نجتمع بسبب انشغالي بالعمل والدراسة! إنني أذهب كل ليلة بعد انتهاء ساعات العمل، وأتناول وجبة العشاء في أحد أماكن الوجبات السريعة، ثم أذهب بعد ذلك إلى مكتبة الجامعة وأفتِّش عن بعض المراجع، وأعمل أيضاً واجباتي الدراسية هناك! إنه

ولحسن الحظ فإن المكتبة تبقى مشرعة الأبواب حتى العاشرة، والحافلات تبقى تعمل حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً، وعندما أعود تكونين أنت قد نمت! على كل حال لقد أوشك العام الدراسي على الانتهاء، وليس في نيتي أن آخذ مساقات في الصيف وسيكون عندنا الوقت الكافي لنتحدث به معاً!

- إذن أستطيع أن آخذ من وقتك دقيقتين أخريين؟ !

- طبعاً، طبعاً وبكل بسرور! قال الفتى صادقاً.

- ليلة الاثنين الماضي تعشى ثلاثتهم هنا، في قاعة الطعام! يبدو أن الشيوعي هو صاحب الدعوة، إذ بقي لفترة طويلة في المطبخ، وسمعته من غرفتي وهو يحرك أوعية الطبخ من أماكنها، وكذلك وهو يروح ويغدو بين المطبخ وقاعة الطعام... بعد العشاء دخل ثلاثتهم إلى غرفة الخنزير... وبعد أن وضع هو نفسه بالفراش... صاروا يتحدثون عن ارتفاع الأسعار الذي طرأ على المواد الغذائية مؤخراً... بعد حوالي نصف ساعة استأذنت جين بحجة أنها متعبة وتريد أن تأوي إلى فراشها مبكرة حتى تكون نشيطة عندما تذهب إلى عملها صباح الغد... بعدها بدقائق قليلة استأذن فرانك هو الآخر بحجة أنه يريد أن يستيقظ مبكراً ليذهب ويبحث عن عمل! غضب الخنزير غضباً شديداً، فقد اعتقد بأن ما عملاه كان مؤامرة دنيئة للتخلص منه! انتظر بعض الوقت وصعد على رؤوس أصابعه، ولم يحُل اعتلال صحته عن تنفيذ مهمته، ولم يكن بقدميه القذرتين سوى جراباته الصوفية تنبعث منها رائحة تزكم الأنوف! هنا كشرت العجوز عن أسنانها وعبست وجهها ووضعت أصابعها فوق أنفها؛ كأنما تريد أن تمنع رائحة جرابات السيد أدلن من دخول أنفها، ثم أضافت:

- وقف الخنزير خلف باب غرفة فرانك وأصاخ السمع فلم يسمع نأمة، ثم انتقل فوقف خلف باب غرفة جين فأتاه صوتاهما واضحاً! كانا يسخران منه ويضحكان؛ فيصفانه بالمغفل تارة، وبالمعتوه تارة أخرى، ثم بالخرف مرة، وبصاحب الرائحة الكريهة مرات! دفع الباب بشدة وأخذ يكيل لهما الشتائم والتهم، مدعياً بأن فرانك يريد أن يسرق منه جين! دفعه فرانك إلى خارج الغرفة دفعة كادت تدحرجه فوق الدرج، فظل يتدحرج حتى وصل أسفل الدرج، لولا الحائط الذي أمام غرفة جين، متهماً إياه بالتصابي والخرف والحمق! لقد سمعت من غرفتي صياحهما، وصوت جسم الخنزير يرتطم بالحائط !

كانت السيدة لويس تضحك بسرور وغبطة وهي تصف الاحتقار والإذلال، وكذلك الصفعات والإهانات التي نالها السيد أدلن من فرانك... جذل وغبطة الأطفال الصغار الذين يفسدون على بعضهم لينال الآخر عقاباً إما من والديه أو من أستاذه، وليشعروا هم بلذة الانتصار.

كانت وهي تتكلم وكأنما تراقب فيلماً سينمائياً دراماتيكياً سيطر على عواطفها وأحاسيسها ، او تراقب مصارعة على خشبة المسرح، فتستعمل حركة يديها تارة، وانفعالات وجهها وتقلصاته تارات !

كان راكان يضحك بادئ ذي بدء من خصوبة وغزارة مخيلة السيدة لويس، ومن جموع وعنف مشاعرها وأحاسيسها؛ وكيف تخترع القصص وتتصور الحوادث؛ إلا أن قلبه وجف، وعيناه دمعتا، وهو يرى تلك المرأة العظيمة ، والتي لا شك بأنها كانت يوماً من الأيام امرأة عملاقة، تربي الأجيال الصالحة وتخرج الأمهات العظيمات، تفكر كما يفكر الصغار الذين حرموا من حنان الوالدين، وعاشوا مشردين لا يفكرون إلا بالأذى والأنتقام !

على الرغم من أن الفتى اعتبر قصصها خيالات وتوهمات، بل بقايا شراذم امرأة علكها الدهر، ثم بصقها ورمى بها في حاويات قمامة الضياع والوحدة؛ إلا أنه شاطرها شكوكها من أن جين لا يمكن أن تقع في غرام أدلن الغارق في حب الفتاة إلى ما فوق رأسه؛ كما أنه متفق مع مخاوفها من أن حب السيد أدلن لجين سيجلب له الألم والعذاب والدمار؛ لأن الرجل معتل وعاطفي جداً! لطفك يا رب!

لطالما فكر راكان أن ينصح صديقه ويحذره من عواقب حبه ولكنه خشي أن يجرح شعوره وأن يتهمه بالتدخل في خصوصياته.

بعد دخول العجوز غرفتها دخل هو أيضاً غرفته، وجلس إلى طاولته ليستأنف الدراسة، كانت عيناه تحدقان بالكتاب وكانت السطور تتراقص أمامه، فقد تخيل مأساة السيد أدلن ماثلة أمام عينيه، فاستعاذ بالله، ورجا الخالق أن يرأف بصديقه وأن يجعل العاقبة سليمة!

*****

كان راكان طيلة شهر «مايو – أيار» نادراً ما يعود إلى النزل قبل العاشرة ليلاً، حيث كان عليه أن يدقق في كثير من المراجع وأن يقوم بكتابة بعض الأبحاث فكان كثيراً ما يجد الثلاثة –جين وأدلن وفرانك-متواجدين في غرفة الطعام، وما زالت صحون الأكل الخالية أمامهم، وهم يحتسون فناجين القهوة؛ وإما أنهم يجلسون في غرفة القعاد يتسامرون.

كان الشاب في كثير من الأحيان يكتفي بإلقاء التحية ويدخل غرفته، وفي بعض الأحايين يعمل لنفسه شطيرة من لحم الدجاج المبرد فيأكلها مع كأس من الحليب المثلوج.

لاحظ الفتى أن الآنسة جين كانت تبدي اهتماماً كبيراً به، بأن تسأله بحميمية عن دراسته وعمله، وعن أخبار أهله وبلاده، فكان دائماً يجيبها بأدب واحترام شديدين وبجدية متناهية.

لقد سألته مرة، على مسمع من السيدين أدلن وفرانك، لماذا لا يجلس معهم في بعض الليالي ليتسامروا وليحتسوا فناجين القهوة معاً، فاعتذر لها الشاب بأن الدراسة والعمل لا يسمحان له بذلك؛ ولكنه أكد لها بأنه سيفعل بعد أن تبدأ العطلة الصيفية؛ حيث يكون عنده متسع من الوقت!

*****

سلم راكان آخر ورقة امتحان وخرج وتنفس تنفساً عميقاً، وكأنما ليلقي بكل همومه التي ناء بها كاهله إلى البحر! لقد حمد الله وشكره على وصوله إلى هذا اليوم وبه بقية من القوة والصبر، وبه شيءٌ من الإرادة والعقل.

لقد شعر وكأنه كان سجيناً محكوماً عليه بالإعدام أو المؤبد، فأطلق سراحه؛ أو كأنما جبل عملاق قد انزاح عن ظهره! لقد شعر لأول مرة في حياته بأن لحريته طعماً لذيذاً وشعوراً غريباً متميزاً، إذ أحس بانتعاش في جسمه وروحه، وهو يسير في بهو العمارة الطويل، وبنسمات باردة ومنعشة، وكأنما خلق من جديد.

وقف أمام إحدى نوافير الماء وشرب بشوق ولهفة وشهية، فشعر وكأنما هو يشرب من ماء كوثر، فيطفئ عطش العمر كله، ثم صعد بعدها إلى الطابق الثاني فدخل دورة المياه وترك الماء ينصب فوق رأسه، وكأنما ليعيد إليه عقله الذي غادره منذ زمن بعيد!

*****

لقد أمضى الدارس عاماً دراسياً كاملاً يصارع القهر والإحباط والوحدة، ويعاني من الإرهاق العقلي والجسدي والعاطفي، وكذلك من ضغط الوقت وكثرة المسؤوليات والواجبات في العمل والجامعة والبيت؛ ولجميع هذه الأسباب مجتمعة؛ فقد عزم بينه وبين نفسه أن يمضي طيلة عطلة الصيف الدراسية براحة عقلية وجسمية كاملتين.

لقد ساعده على تحقيق خطته هذه تعرفه على شاب في مثل سنه، يعمل في قسم القرطاسية في نفس الشركة، جمع بين الاثنين حبهما للأدب واهتمامهما بشؤون ومشاكل الشرق الأوسط! لقد تفوق "بروس" على راكان باهتمامه الزائد وحديثه الذي لا ينقطع كلما تقابلا عن مآسي الإنسانية المعذبة، وعن الظلم والقهر والقمع الذي يقع على شعوب العالم الثالث من قبل الدول الرأسمالية، وخصوصاً من بلاده أمريكا !

لقد ظنه راكان أول الأمر أحد أفراد وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وأنه مدسوس عليه ليعرف ميوله السياسية والحزبية، ولكنه سرعان ما اكتشف خطأه، إذ تبين له أن الشاب ينتمي إلى الحزب الاشتراكي الأمريكي، والذي لم يسمع به راكان من قبل، وأنه أحد أفراد حقوق الإنسان.

إن الذي أحزن راكان، أن صديقه هذا ليس متزوجاً، وليس له حتى صديقة كما يفعل غيره رغم ثقافته العميقة واطلاعه الواسع، ورغم أنه شاب جذاب وطويل ووسيم ونحيف! إنه لا يبدي ميلاً نحو النساء كحبيبات وكعشيقات، حتى ظنه راكان شاذاً، ولكن تبين له خطأه، فقد كان له معارف كثيرة من النساء، ومن مختلف الأعمار، متزوجات وعازبات، ولكنه يعاملهن كما يعامل الرجال!

كان لبروس سيارة قديمة جداً ولكنها بحالة ميكانيكية جيدة، فعرض عليه راكان أن يملأ له خزان الوقود مرة كل أسبوع، مقابل إيصاله إلى غرفته كل مساء، ثم يمر عليه في الصباح فيأخذه في طريقه إلى عمله، حيث أنه يسكن ليس بعيداً عنه، في غرفة مستأجرها من زوجين متقاعدين.

كانا الشابان ينصرفان من العمل سوية ويذهبان إلى أحد الأماكن التي تقدم الوجبات السريعة، فيمضيان وقتاً طويلاً يتحدثان إلى أن يحين وقت عودتهما إلى أماكن سكناهما؛ أما في عطلة نهاية الأسبوع فكانا كثيراً ما يذهبان إلى شاطئ البحر، يسبحان ويعرضان جسميهما للشمس.

لقد أتاح فصل الصيف لراكان أن يستأنف أمسياته وجلساته وأحاديثه مع السيدة لويس، فكان يذهب إلى غرفتها ويستمع إلى أحاديثها، والتي كثيراً ما تكون عن العشاق الثلاثة كما كانت تسميهم؛ فيسعد هو بها وتسعد هي به.

كانت رسائل السيدة جولييت تصله تباعاً طيلة هذا الوقت، وكانت تعلمه دائماً بأنها تنتظر قدومه بفارغ الصبر، وأنها تحلم بالجلسات معاً، ليتحدثا في الأدب وفي شؤون العالم! لقد ألمحت له أكثر من مرة بأن هناك إمكانية عودة المجاري إلى ما كانت عليه بينه وبين نيكول، وأنها مصممة الآن وتريده أكثر من أي وقت مضى، على أن يلتحق بجامعة "برقميانق" في مدينة أوقدن، ويدرس السنوات الثلاثة أو الاثنتين المتبقية لحصوله على البكالوريوس.

كان الوقت الذي حدداه لأخذ إجازته واللحاق بها هو اليوم الأول من آب، وقد كان سرور رئيسه عظيماً عندما أعلمه الفتى بخطته، وتمنى له حظاً سعيداً ومستقبلاً باهراً! لقد شجعه كثيراً عندما أعلمه قبل شهور عن اتفاقه مع السيدة جولييت خصوصاً وهو يعرف كل شيء عنها، وعن ما جرى بينه وبين نيكول، لقد نصحه الرجل بأن لا يستقيل من عمله، وأنه أثناء الإجازة يستطيع أن يدرس الوضع هناك، وعلى ضوء ذلك يتصرف معلماً إياه بأنه قد يفضل العودة إلى كاليفورنيا من البقاء في ولاية يوتا.

لقد ابتاع راكان هدايا كثيرة للجدة وللحفيدة؛ بعضاً من العطور، شنط اليد، بنطلونات الجينز، وجارزات الصوف، وغيرها، وغيرها!

*****

كان راكان قد اتفق وصديقه بروس على أن يتناولا طعام العشاء هذا المساء في المطعم الصيني الذي عرفه الصديق عليه، لقد جمعت بين الصديقين هواية أخرى غير هواية الكتب، وهي هواية الأكل الصيني، حتى أنهما كانا على استعداد أن يتناولا وجبة العشاء كل مساء طعاماً صينياً.

بينما كان الصديقان بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء يحتسيان أكواب الشاي الصيني، ويتحدثان بالأدب والسياسة ومختلف المشاكل اليومية، إحدى أمسيات يوم السبت، صاح بروس وهو ينهض واقفاً:

- يجب أن ننصرف في الحال، إذ إنني أريد أن أعيد كتاباً للمكتبة العمومية تنتهي مدة إعارته هذا المساء، وأريد أن أستعير بدلاً منه.

كان بروس قد أعلم صديقه قبل عدة أيام بأنه سيذهب يوم الأحد القادم إلى مدينة "سانتا مونيكا"، حيث يعقد الحزب الاشتراكي مؤتمره السنوي، وأنه سيذهب في الصباح ويعود في المساء، وطلب إلى صديقه، أن يرافقه حيث سيقدمه إلى رئيس الحزب وإلى الكثير من أعضائه، رجالاً ونساءً، والذي تربطه بهم صداقة متينة! ولقد ألمح إلى راكان بأنه إذا انضم إلى الحزب ، فإن وضعه كقادم جديد إلى أمريكا سيتحسن كثيراً، وأنه قد يحتاج يوماً، لمساعدة الحزب.

اعتذر الفتى لصديقه بحجة أن عليه أن يقوم بواجبات كثيرة، قبل أن يذهب في إجازته التي ستكون بعد حوالي أسبوعين، إذ إن عليه أن يغسل ملابسه وشراشف غرفة نومه، كما إن عليه أن يقوم بتنظيف الغرفة وشبابيكها، كما وعده بأنه سيذهب معه إلى الاجتماع الثاني.

شعر راكان بهدوء وسلام وسكينة حالما وضع قدميه داخل باب المكتبة، ذلك الشعور الذي يخالجه كلما يدخل مكتبة، ولطالما تمنى لو أنه يستطيع يوماً أن يقرأ كل ما بتلك المكتبة من كتب، على الأقل الكتب الأدبية منها.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بدقائق قليلة عندما أنزل بروس صديقه أمام النزل، الذي وجده راكان يسبح في ظلمة دامسة! فتح الباب الخارجي، وعلى ضوء لامبة خافت تنبعث من المطبخ سار على رؤوس أصابع قدميه متسللاً إلى غرفته حتى لا يزعج جاريه السيد أدلن والسيدة لويس.

فتح باب غرفته بحذر شديد وأضاء النور بعد أن أغلق الباب خلفه، فشعر أن قدميه قد اصطدمتا برسالة ملقاة تحت الباب، وبعفوية هجم على الرسالة ليعرف مصدرها، وكله أمل أن تكون منها، أمه في المهجر، إذ إن له شهراً كاملاً ينتظر رسالة تصله منها.

لقد أرسل لها رسالة بعد انتهاء العام الدراسي، أعلمها بها عن حياته وأنه نجح في جميع المواد، وحصل على نتائج جيدة، ثم كيف أنه الآن ومن جديد بدأ يعيش حياة طبيعية هادئة ومسترخية، لا قهر بها ولا إحباط؛ واستلم رسالة منها تهنئه بالنجاح، وتعلمه بها بأنها على أحر من الجمر لحضوره منتصف الصيف حسب الاتفاق.

كتب لها بعد ذلك أربع رسائل متتالية دون أن يستلم منها جواباً مما أقلقه وأزعجه، فكتب لها رسالة خامسة يرجوها بل يلح عليها أن تكتب له حال استلامها رسالته هذه لأنه في غاية القلق والتوتر.

حملقت عينا راكان بالرسالة فوجد أنها مرسلة من مدينة توولا ، عرف ذلك من ختم البريد الكبير، ولكن الخط لم يكن خط السيدة جولييت، ونظر إلى شمال المغلف فقرأ اسم السيدة بيرسون، ابنة السيدة جولييت ووالدة نيكول، ولكن العنوان هو عنوان والدتها.

فض الفتى غلاف الرسالة على عجل، فلم يدرِ كم من الوقت مضى وعيناه مجمدتان فوق سطور الرسالة، وعندما عاد إليه وعيه، لاحظ أن عينيه قد زاغتا وأن السطور قد تشابكت ببعضها وأن الكلمات تتراقص فوق الورقة !

أغمض الفتى عينيه ودعكهما بشدة بظهر يديه، ثم فتحهما وأغمضهما عدة مرات، ثم نفض رأسه بشدة مرات ومرات، وكأنما ليعيد خلايا عقله إلى مكانها الطبيعي، بعد دقائق استطاع أن يقرأ.

"عزيزي راكان! لقد اتصل بي أخي جيمس هاتفياً الأسبوع الماضي، وأعلمني بأن الوالدة قد أُدخلت المستشفى وأن صحتها سيئة وتتدهور كل يوم، وتلح في طلب رؤيتنا؛ مارجي وأنا؛ فحضرنا في تلك الليلة ولكنها للأسف قد فقدت النطق، إنها ما زالت هكذا، والطبيب يؤكد بأنه وبسبب كبر سنها من الصعب جداً أن تستعيد نطقها! لقد رأيت رسالتك إليها فذكرتني بك... المخلصة إليزابيث بيرسون."

قرأ راكان الرسالة للمرة الثالثة ثم الرابعة، ليتأكد من أن ما قرأه حقيقة وليس حلماً، ثم حاول بعدها أن يتبين كم مضى على كتابة الرسالة، ولكنه ولشدة صدمته لم يستطع أن يتذكر تاريخ يومه هذا، مع أنه كتبه أثناء عمله مرات كثيرة، ثم لاحظ أن روزنامة معلقة فوق طاولته، وبعد أن عرف تاريخ هذا اليوم، قارن بينه وبين التاريخ الذي كتبت به الابنة رسالتها فعرف أنها كتبت قبل خمسة أيام.

كانت أول فكرة خطرت على باله هو أن يسافر الليلة، إذ إنه يعرف أن هناك قطاراً يغادر مدينة لوس أنجلوس عند منتصف الليل يذهب إلى الولايات الشرقية ماراً بمدينة توولا في ولاية يوتا، وهو ما كان مصمماً على أخذه عند حلول وقت إجازته! نظر إلى ساعته فوجد أنها تقترب من الحادية عشرة، فأدرك استحالة التنفيذ.

رمى الرسالة فوق الفراش وفتح درج مكتبه، وأخرج منه رقم هاتف السيدة جولييت وخرج مهرولاً نحو الهاتف، كانت دقات قلبه المتلاحقة وهو يقف أمام آلة الهاتف وينتظر من عاملة المقسم أن تعطيه الرقم الذي طلبه، تكاد تفجّر جمجمة رأسه، وأحس كأنما انتقلت فكتمت أنفاسه وأغلقت سمعه !كانت كل ذرة في جسمه ترقص ألماً، وخيل إليه كأنما الزمن قد توقف عن السير، وأن الأرض قد توقفت هي الأخرى عن الدوران !

ما كاد الفتى ينتهي من سؤاله للمرأة التي ردت على الهاتف، فيما إذا كان هذا منزل السيدة جولييت من فضلك، حتى أجابت بصوت حزين ومكسور:

- أهلاً يا راكان! أنا إليزابيث! كيف حالك يا بني؟!

- كيف حالك أنت يا سيدة بيرسون؟! وكيف حال الوالدة الآن؟! سأل الفتى بصوت متلعثم، وقلب واجف هلع.

- لقد توفيت مساء أمس، وغداً سنشيع جنازتها، أنا آسفة، لم أتذكر رقم هاتفك وإلا لكنت كلمتك! قالت وهي تنشج، ثم أضافت:

- أنا أعرف أن والدتي...

لم يتبين بقية ما قالت، فقد سقطت سماعة الهاتف من بين يديه وازدادت رجفة جسمه، وأحس كأنما هو في أعالي الجبال الثلجية عارياً من ملابسه؛ فتشنجت أطرافه، وصارت أسنانه تضرب في بعضها كأنها راقصة غجرية أشعلت دمها أنغام الجاز المعربدة، فراحت تضرب الأرض بأقدام محمومة مسعورة!

جرى مهرولاً بأقصى سرعته نحو غرفته، فدخلها وأغلق بابها خلفه، وبجميع ملابسه وحذائه ألقى بنفسه في فراشه، ثم دثر بالأغطية كل جسده ورأسه، وجسمه يهتز بشدة، تارة إلى اليمين وأخرى إلى الشمال وتارة إلى أعلى ثم إلى أسفل!

كان وكأنه يجلس فوق فوهة بركان! عندما أخرج رأسه من تحت الغطاء، كان يسبح في بحر من العرق، وأدرك أن عقله كان معطلاً عن التفكير، وأن حواسه متبلدة لا تشعر بما حولها!

حاول أن يتذكر من هو وأين يعيش، وشيئاً عن حاضره أو ماضيه، ولكنه كان قد فقد جميع ما يميزه عن الأموات! لقد مات وإن كان ما زال يتنفس.

بقي فترة ليست بالقصيرة ممداً في فراشه يحملق بسقف غرفته بعيون جامدة كالأبله !

فجأة فتح باب غرفته وخرج، دون أن يغلق الباب خلفه ودون أن يطفئ النور؛ ثم سار بخطى ثابتة، وفتح الباب الخارجي وصفقه خلفه! على الرغم من أنه كان يسير كالمنوم، إلا أنه كان يسمع وقع خطواته فوق إسمنت الرصيف، وكأنها أصوات ندابة في مأتم، آتية من بعيد؛ من أعماق الليل البهيم، تعدد مناقب المتوفية، وتذكر الحضور بفداحة الخطب!

بقي سائراً حتى وصل البقالة المجاورة فدخلها؛ حيث توجه إلى قسم المشروبات الروحية وابتاع قارورة نبيذ مرّ وخرج، فما كاد يضع أقدامه فوق رصيف الشارع حتى عاوده سماع صوت الندابة من جديد، وإن كان في هذه المرة أشد حرقة وأكثر ألماً!

دخل المطبخ وأخرج من أحد الأدراج فتاحة قوارير فتح بها غطاء القارورة التي يحملها، وباعد بين قدميه ورفع القارورة، وظل يديرها في جوفه حتى آخر قطرة بها؛ ثم رمى بالزجاجة الفارغة في سلة المهملات، وبعدها مسح بأطراف كمه ما انسكب على ذقنه، ثم توجه إلى غرفته وأغلق الباب خلفه وأطفأ النور ثم تمدد بكامل ملابسه فوق السرير!

لم تمضِ سوى دقائق قليلة عندما بدأ السرير يرتفع قليلاً قليلاً، وبدأ السقف هو الآخر ينزل بنفس السرعة، ليعانق السرير؛ ثم التحما الاثنين؛ وهنا شعر الفتى أن جسمه يضمحل شيئاً فشيئاً حتى تلاشى بينهما! فجأة رأى الفتى نفسه يدخل قاعة ضخمة كالقاعات التي تقام بها حفلات الأعراس مملوءة بالناس، رجالاً ونساءً، شيباً وشباباً، رجالاً ونساءً، عرباً وأمريكان، بعضهم يرقص على أنغام موسيقى الجاز الصاخبة؛ وآخرون يرقصون على أنغام الفالس الحالمة؛ الخدود على الخدود، والرؤوس ترقد فوق الصدور وعلى النهود؛ ثم هناك آخرون يولولون ويبكون، ويمزقون ملابسهم ويشدون شعورهم ويخشطون خدودهم ورقابهم؛ والدم ينزف من كل بقعة في أجسامهم؛ يتصايحون ويصرخون، وقد اختلط الحابل بالنابل؛ فلا تستطيع أن تفرق بين السعيد والحزين، ولا بين الواله والجذل!

لم يسبق لراكان أن رأى أحداً من هذه المجموعة من قبل!

كانت هناك مجموعة أخرى، يعرفهم الفتى جيداً... إنه يعيش بينهم... إنهم سكان النزل! كان السيد هانكوك مرتدياً ملابس (الكاوبوي)، بنطلون الفرسان الذي يعانق ساقيه وفخذيه، والصدرية الواسعة مفكوكة الأزرار؛ الطاقية الحمراء الطويلة ذات التيجان الذهبية، "والبوت" الأسود الطويل؛ يعزف على قيثارة ويرافق زوجته وهي تغني أغاني فلكلورية؛ عذبة وشجية، بينما كان السيد أدلن يغني أغنية حزينة وشجية، وكأنما ينادي بها على حبيبته ودموعه الغزيرة تنزل على خديه مدراراً؛ وكان فرانك وجين يرقصان رقصة التانجو، وتبدو السعادة الغامرة على وجهيهما وهما في غاية الانشراح والانسجام! أما السيدة أندرسون فقد كانت تراقص زوجها وكانا يرقصان رقصة (الشاشا)، ولكن بخطوات ثابتة وبسرعة مذهلة! كما كانت الآنسة مكنمارا ترقص لوحدها بهدوء وببطء شديدين، حتى فكر الفتى أن يجبر بخاطرها فيطلب إليها أن يرقص معها.

إن الذي حير راكان؛ بل أذهله؛ هو أنه رأى السيدة لويس ذات الثلاثة والتسعين عاماً، والتي تدب على الأرض كأنها إنسان آلي، والتي سمك نظاراتها التي يرى الناظر إليها صورته بها، والتي... والتي... والتي... كانت كما رآها في الصورة، في أول سنة لها طالبة في جامعة بنلسفانيا، ترقص مع شاب في مثل سنها، طويل، نحيف، أشقر الشعر، أزرق العينين، والاثنان يرقصان رقصات الفالس الحالمة، والمرأة نائمة برأسها فوق صدر مراقصها!

*****

كانت الساعة حوالي الخامسة عصراً عندما استيقظ راكان من نومه، فقد وجد نفسه ممدداً فوق فراشه، راقداً على معدته! لقد شعر بأنه متعب جداً بل أنه لا يقوى على الحراك! لقد حاول أن يقلب جسمه ليرقد على ظهره بدلاً من معدته فلم يستطع أن يفعل ذلك أول الأمر، وظل يحاول لعدةِ مرات حتى حالفه الحظ أخيراً! كانت كل خلجة في جسمه تؤلمه ألماً مبرحاً؛ وكان يشعر كأن كل مفصل من مفاصله قد بُتر عن الآخر! كانت عظام جسمه كأنما كُسرت بل تفتت؛ فبالإضافة إلى كل هذا، وجد أن عنده صداعاً يكاد يفجر دماغه لعنفه وقسوته! حاول أن يفتح عينيه فوجد وكأن جفونه قد خيطتا إلى بعض، ثم حاول أن يبلغ ريقه فشعر وكأنما خنجرٌ متمددٌ وسط حلقه!

حاول أن يتذكر السبب الذي جلب له كل هذه الآلام، فلم يستطع أول الأمر، وبقي لفترة ليست بالقصيرة يبحث في مسارب عقله وتلافيف دماغه إلى أن اهتدى أخيراً! لقد تذكر أنه شرب البارحة قارورة نبيذ كاملة... شربها دفعة واحدة... وتساءل لماذا فعل ذلك؛ وهو لا يشرب الكحول إلا نادراً جداً وبمناسبات خاصة؛ وأنه عندما يفعل فإنها لا تتجاوز كأساً واحدةً صغيرةً، ويتناولها عادة مجاملة للآخرين! ثم تذكر أيضاً أنه بعد أن شربها ألقى بنفسه فوق الفراش بكامل ملابسه، ولا يدري ما حدث بعد ذلك!

وفجأة تذكر السبب، لقد أعلمته السيدة بيرسون – والدة نيكول وابنة السيدة جوليبت- بأن أمه في أمريكا قد توفيت، وذهبت لملاقاة خالقها، وأنه لن يستطيع أن يراها بعد اليوم، وتساءل هل حقاً توفيت؟! وهل صحيح أنه لا يستطيع أن يراها، أم أنه يحلم؟! ثم تساءل ما الفرق بين الحلم وبين الحقيقة؟! وفجأة أجهش بالبكاء.

لقد تأكد الآن بأن المرأة التي اتخذت منه ابناً، والتي خففت من آلامه وعذاباته في بلاد الغربة ، قد توفيت حقاً! لله ما أقسى قلبها! إن هذا ليس عمل المحبين! كيف تموت وتتركه وحيداً في هذا العالم الظالم؟! كيف تتركه وترحل ليبدأ غربته من جديد؟!

كان من المفروض أن يراها بعد أسبوعين تقريباً! إنه مشتاق جداً لرؤيتها؛ بل يكاد يموت شوقاً للقائها! إنه يعد الثواني ويرجو الزمن أن يسرع في سيره ليقرب بينه وبين لقائها... والآن ها هي تهرب منه وتتركه وحيداً، يقاسي آلام الغربة والوحدة والضياع من جديد، بعد أن ظن أنها قد فارقته إلى غير رجعة!!

لمَ لمْ تنتظر على الأقل حتى يراها ويعلمها عن معاناته وأحزانه وغربته، ثم تذهب لملاقاة بارئها؟! لمَ لمْ تنتظر أسبوعين آخرين، ما زال لها تنتظر أكثر من ثمانين عاماً؟! لله ما أقسى قلبها! لطالما بكى طويلاً على كتفيها، ولطالما بكى مرات ومرات في حجرها، ولطالما كفكفت دموعه، ومرت بيديها الكريمتين على رأسه، وطلبت إليه أن يصبر؛ فإن الخالق سيكافئه يوماً بأن يرزقه امرأة تسعده، وتنجب له ذرية صالحة! هكذا قالت له يوماً وبالحرف الواحد.

توقف عن البكاء ومسح دموعه بكم يده اليمنى، فقد شعر بأنه مرهق جداً وأن رأسه بحجم جبل، فاستولى عليه نعاس شديد فنام!

لا يدري كم طالت نومته ولكنه لاحظ عندما استيقظ بأن غرفته تسبح في ظلام دامس، وبجهد جهيد غادر فراشه وأضاء النور، ثم توجه إلى المرآة المعلقة بالحائط، فارتعد لهول ما رأى، فقد كان وجهه أصفر كوجوه الموتى، مما ضاعف في ألمه وخوفه معاً!

لاحظ مغلفاً تحت الباب فقرأ عليه اسمه، فعرف صاحبة الخط، إنها السيدة لويس! ابتسم بمرارة ابتسامة باهتة، وقال مخاطباً نفسه: مسكينةٌ السيدة لويس! إنها لا تعرف ما حل بي، ولا تعرف أنني متعب جداً وعاجز حتى عن القراءة، كما إنها لا تعرف أن جميع أحلامي للمستقبل قد انهارت وتلاشت؛ وأنني أصبحت ضائعاً كالأيتام على مأدبة اللئام!

ألقى بالرسالة فوق الفراش، وقال بأنه سيقرأها فيما بعد، وألقى بنفسه على الصوفة الصغيرة المجاورة للسرير، واستغرق في تفكير عميق، ماذا يجب أن يفعل؟! هل يترك الدراسة ويكتفي بالعمل؟! أو هل يعود إلى الوطن وينسى أمريكا نهائياً؟! وماذا يقول عنه الأهل والأصدقاء والمعارف؟!

اللعنة... اللعنة... اللعنة...! نحن في الشرق نتصرف حسب ما يريده الآخرون لنا، ونعمل ما يرضيهم، حتى نتجنب أقوالهم وانتقاداتهم!

بعد فترة ليست بالقصيرة توقف عن التفكير لأنه لم يوصله إلى حل، فمد يده وتناول الرسالة وفض غلافها وبدأ يقرأ:

"باسدينا –كاليفورنيا،الساعةالرابعةصباحاً!

عزيزي راكان! إنني حتى هذه اللحظة لم يغمض لي جفن ولم تتوقف لي دمعة! لقد بكيت لأجلك، وما زلت أبكي، وربما سأظل أبكي حتى آخر يوم في حياتي! إنني كلما أفكر بما حدث لك أحس بأن دمي يحترق، وأن الحزن يصل إلى عظامي فيحرقها! إنني لم أكن أعرف بأن الرجال يبكون بحرقة تمزق القلب وتفتت الكبد، ويذرفون الدموع الغزيرة؛ كما نفعل نحن النساء ! لم أرَ في حياتي رجلاً يبكي حتى رأيتك، وليتني مت قبل أن يحدث ذلك!

لقد حدثتني عن حبك للسيدة جولييت، وكم ترك رحيلها إلى ولاية يوتا فراغاً في حياتك وجروحاً في قلبك؛ ولكنني لم أكن أتصور أنك تحبها كل هذا الحب، ولدرجة أن تظل تبكي بحرقة تفتت القلب، وحتى بكى لبكائك جميع سكان النزل! اعذرني يا بني، إن قلت لك بأنني حسدت السيدة جولييت على هذا الحب، حتى أنني تمنيت لو أن إنساناً يحبني مثل هذا الحب العظيم النادر وبهذا الزخم!

لا شك أن السيدة جولييت الآن حزينة جداً لفراقك، ولا شك أن روحها قد رأت ما حل بك وما فعلت بنفسك عند سماعك خبر وفاتها؛ ولكنني استغربت كيف أنك تلومها على موتها وتركها إياك وحيداً! وهل تظن يا عزيزي أن الناس لهم حرية اختيار الموت؟! إنني واثقة بأنك لا تؤمن بذلك، وإنما الحالة السيئة التي كنت بها هي التي جعلتك تنطق بما قلت.

اعذرني يا بني، لا أستطيع أن أستمر بالكتابة فقد تعبت... المخلصة لويزا..."

كانت عواطف الفتى وهو يقرأ الرسالة تغلي كحمم بركانية، وكانت دموعه تنزل غزيرة حارة فتحرق مآقي عينيه، وتمتزج بحبر الرسالة فتختلط سطورها وتتشابك حروفها!

لقد ذهل الشاب بل ووقف شعر رأسه! كيف عرفت السيدة لويس بوفاة السيدة جولييت؟! إنه لم يخبرها ولم يخبر أحداً إطلاقاً، لا من داخل النزل ولا من خارجه! إنه حتى لم يغادر غرفته منذ أن دخلها! فهل السيدة لويس تكاشف؟! وهل وصلت درجة من الورع والتقوى حتى زال عن عينيها الغشاء، فصارت ترى ما يحدث دون أن تكون هناك؟!

لقد سمع راكان عن أناس قيل عنهم بأنهم وصلوا درجة من الورع والتقوى، حتى صاروا يرون ما سيحدث قبل حدوثه، كما أنه قرأ في كتب التاريخ، بأن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان يخطب بالمصلين في المسجد يوم الجمعة ، عندما توقف عن الخطابة، ونظر فجأةً إلى بعيد وصاح بأعلى صوته: يا سارية الجبل... الجبل...، يا سارية. وكان سارية هذا قائداً للجيوش الإسلامية التي أرسلها الخليفة لمحاربة المشركين في بلاد الفرس، وعندما عاد سارية إلى الوطن، ذكر بأنه والمعركة على أشدها بين جيوش المسلمين وجيوش المشركين، سمع صوت أمير المؤمنين يناديه بأن يتسلق الجبل، ففعل؛ حيث نجا هو وأصحابه من موت محقق!

ارتدى راكان الروب دي شمبر فوق بيجامته ثم فتح باب غرفته، وسمع للباب صوتاً عالياً والفتى يُدخله في الجدار ثم وهو يعيده إليه، وقبل أن ينتهي من إغلاقه سمع صوت باب السيد أدلن يفتح ويغلق بسرعة والرجل يقبل نحوه بشوق ولهفة ويسأله:

- كيف أنت الآن يا عزيزي؟ ! والله لقد أقلقتنا عليك كثيراً جداً، لست أنا وحدي... كلنا... جميع سكان النزل. آمل أن تكون الآن بخير! طمئنّي!

وقبل أن يجيبه الشاب، سمع باب السيدة لويس يفتح وتقبل نحوه هي الأخرى بشوق ولهفة ممزوجة بالقلق، تدب فوق الأرض وكأنها الإنسان الآلي، وقالت:

- آه يا بني، كم أنا سعيدة أن أراك! لقد أقلقتني عليك! قالت المرأة وهي تقترب منه، ولكنها تراجعت وقد عبس وجهها وعادت إلى غرفتها عندما رأت السيد أدلن يتكلم مع راكان.

- أنا بخير! ولكن ما هي الحكاية؟ ولم أنت والسيدة لويس تسألانني وكأنما أصابني مكروه؟! سأل الفتى باستغراب وقد قطب ما بين حاجبيه حيرةً واندهاشاً وهو يحملق بالرجل!

- هكذا قلت لهم؛ ولكنهم لم يصدقوني! لقد أخبرتهم، أعني جميع ساكني النزل، بأنك غير واعٍ ولا مدرك لما تفعل، ولكنهم سامحهم الله لم يصدقوني، ما عدا الآنسة جين؛ التي كانت تبكي بحرارة وحرقة شديدتينِ لمعاناتك! قال السيد أدلن مفاخراً بذكائه وحزيناً أيضاً لما أصاب صديقه.

- أرجوك! إنني لا أدري عمَّ تتحدث! سأل الشاب بعصبية ممزوجة بالاهتمام.

- لقد كنت الليلة الماضية في حالة سيئة جداً ومن الصعب وصفها! لقد كنت سكران وتصرخ بأعلى صوتك، وأنت تركض بين باب المطبخ والباب الخارجي وتقول: جونزي ماتت...! جونزي ماتت...! لقد ذهبت وتركتني وحيداً؛ تقتلني الوحدة وتعذبني الغربة! يجب أن ألحق بها! إنني أريد أن أموت! أنا لا أستطيع أن أعيش بعدها... إلى مثل هذا الكلام.

نكّس الفتى رأسه حياءً وخجلاً، وأغمض عينيه؛ وتمنى لو أن الأرض تفتح تحت قدميه وتبتلعه!

- كنت أول القادمين إليك، وبعدها تجمع بقية النزلاء؛ ولم تتوقف عن الصراخ وتلتزم السكوت إلا بعد أن استفرغت كل ما بجوفك! لا شك أنك قد شربت كثيراً لعظم ما تقيأته!

كان راكان طيلة الوقت الذي يتكلم به السيد أدلن وعيناه تنظران إلى قدميه، متجنباً النظر إلى وجه صديقه الذي تابع كلامه:

- بعد أن تقيأت كل ما بجوفك، سقطت على أرض غرفة الجلوس؛ فحملك فرانك والسيد أندرسون ووضعاك في فراشك!

الآن فقط تذكر راكان أنه بعد أن شرب قارورة النبيذ ألقى بنفسه فوق الفراش بكامل ملابسه، ولكنه عندما استيقظ عصر هذا اليوم، وجد أنه كان مرتدياً بيجامته!

- أرجو أن تتقبل تعازي الحارة بوفاة صديقتك السيدة جولييت؛ وسأصلي الليلة من أجل خلاص روحها! لا شك أنها كانت صديقة عظيمة! قال السيد أدلن بمهابة واحترام.

أعطى راكان ظهره لصديقه وتجنب حتى النظر إلى وجهه، وانصرف دون أن يودعه أو حتى يفتح فمه، وعاد إلى غرفته؛ وبعد أن أغلق الباب خلفه وأطفأ الأنوار، شعر برهبة شديدة، ووحدة قاتلة! شعر بأنه خائف...! خائف...! خائف جداً....!

رفع غطاء فراشه وألقى بنفسه به، وسحب الغطاء فوق جسمه بهدوء وقدسية، وصار يقرأ ما يحفظ من القرآن الكريم، ثم انخرط في بكاء عميق... عميق... عميق... وظل يبكي بلوعة وحرقة لفترة ليست بالقصيرة وهو يتابع تلاوة ما يحفظه من سور؛ وظل يبكي ويقرأ حتى أدركته رحمة السماء فنام!

*****

لم تُسعد راكان الطريقة الجديدة التي يعامله بها سكان النزل؛ بل إنها على العكس من ذلك، أحزنته وآلمته! إنه ومنذ تلك الحادثة، وكل واحد منهم يعامله بأدب واحترام زائدين! حتى السيد أندرسون؛ والذي كان كلامه عادةً ما يكون خشناً وغير مصقول، فإنه صار عندما يتكلم مع راكان ينقلب إلى إنسان رقيق ناعم يذوب لطفاً وأدباً!

صاروا يعاملونه وكأنما هو طفل صغير فقَدَ حديثاً والديه! إذ إن كل واحد عندما يقابله يحييه بحرارة وشوق، وكأنهما صديقان صار لهما فترة بعيدان عن بعض! كان الكل يسأله عن صحته وحاله وأحواله كلما يراه؛ والكل يطلب إليه أن يشاركه طعامه إن كان يأكل، أو يطلب إليه أن يعمل له فنجاناً من القهوة والشاي، أو يطلب إليه حتى أن يترك له صحونه ليغسلها له! إن الذي حيّر راكان بل وأقلقه، وإن كان في نفس الوقت أراح باله وأسعده، هو أن أحداً منهم لم يشر إلى تلك الحادثة لا من قريب ولا من بعيد!

لم يكن سكان النزل وحدهم هم الذين شاركوا الفتى حزنه وآلامه، واحترموا مشاعره ودموعه؛ بل كذلك شاركهم رئيسه في العمل وجميع زملائه من العاملين معه في الشركة!

عندما توقف بروس في طريقه إلى عمله، ليأخذ صديقه راكان معه كالعادة صباح يوم الاثنين، لاحظ شحوب وجهه واحمرار عينيه وتورمهما؛ كما لاحظ هدوءه وانخفاض صوته الذي يشبه الهمس، وبطء حركة جسمه على غير عادته، وعندما سأله الصديق عن السبب، وفيما إذا كانت قد وصلته أخبار سيئة من الوطن؛ أجاب بصوت واهن وضعيف وقد انفجر يبكي بصوت مكتوم:

- لقد ماتت السيدة جولييت! ماتت أمي في بلاد الغربة!

تعني صديقتك في ولاية "يوتا" والتي كنت تنوي السفر إليها قريباً؟! كيف ومتى ومن أعلمك؟! سأل بروس بلهجة المصعوق، وكأنما هو أيضاً فاجأه الخبر وأزعجه!

هز الفتى رأسه علامة الموافقة، إذ لا شك أن حدة لهجة تأثر صديقه وانفعاله قد أثارتا كوامن ألمه الدفين، وشجعتاه على البكاء بصوت مرتفع!

كانت الكلمات التي بقي بروس يرددها طيلة الطريق وصديقه مغرق بالنحيب:

- أنا حزين جداً جداً من أجلك يا صديقي! أنا آسف أن أسمع هذا الخبر المحزن! تعازي الحارة! أرجو لك الصبر والسلوان! فليرحمها الله وليدخلها جناته! حقاً لقد صدمني الخبر.

حالما دخلا قاعة العمل، رأى راكان بروس يتوجه بسرعة نحو السيد أيكن ويهمس بأذنه كلاماً، لاحظ الفتى الاندهاش على وجه رئيسه، وقد اتسعت حدقتا عينيه، ثم سمعه بعدها ينادي على بقية المستخدمين ويقول لهم كلاماً بصوت منخفض، ثم رآهم بعدها يتهامسون فيما بينهم! وأخيراً توجهوا جميعاً حيث يقف راكان يتقدمهم السيد أيكن، فيصافحون زميلهم المحزون ويعزونه بحرارة وصدق، بوفاة صديقته؛ طالبين لها المغفرة ولروحها السلام، وراجين له هو الصبر والسلوان.

وكما تصرف سكان النزل، كذلك فعل زملاء راكان في العمل؛ فإن أحداً منهم، لم يذكر له شيئاً عن وفاة صديقته، ولا عن آلامه وأحزانه بعد رحيلها! لقد احترم الجميع انطواءه على نفسه وندرة كلامه، كما وزادت محبتهم واحترامهم له.

*****

لقد صهرت وفاة السيدة جولييت الشاب في بوتقة من الألم الشديد، وسمت بروحه حتى أصبحت شفافة وصافية كعمود من نور!

حقاً إن الألم يطهر النفوس من أدرانها، ويسمو بالأرواح إلى ملكوت الله العلي! لقد قرأ راكان يوماً جملة تقول: "إنه لا شيء يجعلنا عظماء في هذا العالم غير ألمٍ عظيم ! "

صار الفتى دائماً منطوياً على نفسه، منعزلاً عن الآخرين، لا يبدأ أحداً الكلام، كما وكانت إجاباته دائماً مقتضبة ومبتورة! حتى صديقه بروس لم يعد يذهب وإياه ليتناولا طعام العشاء، ويتناقشا طويلاً في مختلف القضايا السياسية والفكرية والاجتماعية؛ كما كانا يفعلان قبل وفاة السيدة جولييت؛ ولم يعد يركب معه سيارته مساءً ليوصله إلى غرفته. كان يركب معه في الصباح فقط، أما في المساء فكان يسير على قدميه فيتوقف أحياناً في بعض أماكن الطعام فيأكل شيئاً، ثم يتابع سيره؛ وأحياناً يظل سائراً فيصل غرفته منهكاً خائر العزيمة، فيلقي بنفسه بالفراش أحياناً، وفوق الفراش في أكثر الأحايين! يخلع ملابسه بعض المرات، ومرات كثيرة ينام بها حتى الصباح، دون أن يأكل شيئاً!

كان أحياناً يتمدد فوق سريره ويحدق بسقف الغرفة لفترات طويلة؛ وأحياناً يتسلل إلى المطبخ بعد أن يتأكد من خلوه من النزلاء فيعمل شيئاً على عجل فيدخل غرفته ويأكله؛ وأحياناً يجلس إلى طاولته يظل يكتب ويكتب صفحات كثيرة، ملتهبة العواطف، يخاطب بها صديقته المتوفاة، ولا يتوقف عن الكتابة حتى لم يعد يقوى على مسك القلم؛ وفي الصباح يمزق ما كتب معتقداً أن صديقته قد قرأت ما كتب؛ ولا حاجة للاحتفاظ به!

*****

فكر راكان أن يلغي إجازته السنوية؛ ولكن رئيسه أصر عليه أن يأخذ أسبوعاً واحداً من الأسبوعين اللذين كان عازماً أخذهما، ما زال لا يريد مغادرة كاليفورنيا، إذ إنه بحاجة إلى الراحة أولاً، ثم إن هذا الأسبوع حق له مكتسب من الشركة، وإن لم يأخذه فسيخسره، إذ إن قانون الشركة لا يسمح بصرف نقود بدل الإجازة لعامليها.

لقد استطاع بروس أخيراً، بما له من مكانة عند راكان، وبناءً على إلحاح من رئيسه بواسطة الهاتف، أن يمر على صديقه المكلوم بعد انتهاء ساعات الدوام، ويذهبا سويةً لتناول طعام العشاء في المطاعم التي كانا يترددان عليها قبل وفاة السيدة جولييت.

إن راكان اليوم هو ليس راكان الأمس، ذلك الشاب المملوء طموحاً وحيويةً؛ المحاور المقنع؛ والمناقش العنيد! لقد فقد شهيته للأكل؛ فلا يأكل إلا وجبةً واحدةً في اليوم مع بعض فناجين من القهوة والشاي؛ بحيث صار جسمه

هزيلاً جداً؛ إذ برزت عظام وجهه، وغارت عيناه في محجريهما؛ حتى بدتا وكأنهما قطعتان من الزجاج مزروعتان في جمجمة رأسه!

*****

لم يجدّ جديدٌ في النزل طيلة فصل الصيف، فالنزلاء هم هم، والحياة تسير عادية كما كانت عليه قبل حلول فصل الصيف! هكذا لاحظ راكان، وهكذا قيل له من أحاديثه العابرة ومن مبادلته التحيات مع النزلاء.

عاد الفتى إلى غرفته متأخراً في إحدى الليالي فوجد أن النزل غارق في ظلمة دامسة، ولا أثر للحياة فيه، ولم يكن قد تناول وجبة العشاء بعد، ففكر أن يقلي قطعة من لحم الخروف ويسلق بعضاً من الخضار المشكلة المجمدة، ويفتح تنكة شوربة ويسخنها؛ فيأكل وجبة كبيرة حيث أن له فترة طويلة لم يأكل وجبة كاملة.

وبينما كان يرقب شريحة اللحم في المقلاة، وصل إلى أنفه رائحة عطر أنثوي شديدة الأرومة امتزجت برائحة الشواء، تأتي من خلفه تماماً، وعندما تلفت خلفه رأى الآنسة جين واقفة ترقب ما يفعل وفوق شفتيها ابتسامة كبيرة.

- هل أرعبتك؟! قالت وهي تقترب منه وتتضاحك.

- أبداً، لقد وصلت إلى أنفي رائحة عطر أخاذة، فعرفت أن أنثى ساحرة تقترب مني! قال الفتى وهو يحاول أن يشعرها بأنه سعيد برؤيتها.

ضحكت وقد بدت أسنانها ناصعة البياض وكأنها عقد من اللؤلؤ النادر، فسألت:

- وهل تميز النساء الجميلات من عطرهن؟!

ابتسم الفتى ولم يقل شيئاً، وهنا تقدمت وقربت وجهها من قطعة اللحم التي تستوي في المقلاة، وقالت وهي تشم رائحة الشواء:

- إن لها رائحة شهية، لا شك أنها لذيذة الطعم!

- يبدو أنك لم تتناولي وجبة العشاء بعد.

- إذا أردت الحقيقة؛ لا! قالت بتردد.

- هل تقبلين أن نتناول طعام العشاء معاً؟! إن عندي عدة قطع مثلها بالثلاجة، اشتريتها هذا المساء من "السوبر ماركت" المجاور، ويسعدني جداً أن تكوني ضيفتي! قالها الشاب بصدق ممزوج بالحماس.

- وأنا يسعدني أيضاً أن أكون ضيفتك، وأتناول طعام العشاء معك! قالت بلهجة رقيقة وصوت حنون.

بينما كان الفتى يطبخ اللحم والفاصوليا ويسخن الشوربة، كانت الفتاة ترتب طاولة الطعام.

- هل تصدق إن قلت لك أنني لم أذق يوماً أزكى ولا أشهى من هذا الطعام! لا شك أنك طباخ ماهر! قالت وهي تمضغ قطعة لحم الخروف بين أسنانها، بلتذذ وشهية.

- لا شك أنك تمزحين، إنني أسوأ طباخ عرفه العالم! لو تعرفين كم قاسيت وتعذبت أول مجيئي إلى أمريكا! لم أكن أعرف أن أجهز حتى فنجاناً من الشاي.

- قد يكون هذا في الماضي، ولكنك الآن طباخ من الدرجة الأولى! صدقني؛ إنني لا أجاملك؛ إنه طعام لذيذ جداً جداً!

- يقولون في أمثالنا العربية: "الجوع أمهر الطباخين"، إذ يبدو أنك لم تتناولي غداءك أو أنك تناولت غداءً خفيفاً! وإلا لما وجدت طعامي شهياً!

وهنا انفجرت تضحك من جديد وقالت:

- ما أذكاك! صدقت. كان غدائي شطيرة صغيرة بحجم أصابع اليدين. قالت ذلك وأشارت إلى أصابع يديها.

وهنا قص عليها راكان قصة تجربته الأولى في الطبخ، عندما جرح إصبعه وهو يقطع البصل، وهرعت لنجدته السيدة هانكوك، كما أخبرها عن بعض تجاربه المريرة والمضحكة أيضاً في الطبخ.

- مسكين! ليتني كنت وقتها هنا، لكنت ساعدتك ولعلمتك الطبخ أيضاً!

- ليس عندي شك في ذلك! أنت فتاة رائعة! لا شك أن الكثيرين يتمنون صداقتك ومحبتك أيضاً! قالها الشاب صادقاً.

- ولكن الشاب الذي أتمنى صداقته لا يعيرني اهتماماً!

- لا شك أنه أعمى القلب والبصيرة؛ وغبي التفكير أيضاً! قال الفتى بحماس وقد فكر أنها تعني بقولها هذا فرانك، ثم أضاف:

- بالمناسبة، أين هو؟!

- من هو؟! سألت وهي تحدق به وعلائم الحيرة على وجهها، وقد توقفت عن الأكل.

- فرانك! ألا تعنين فرانك؟! سأل الفتى وقد توقف هو عن الأكل أيضاً، وصار هو الآخر يحدق بها محتاراً.

- لا، أنا لا أعني فرانك! أنا أعنيك أنت! قالتها بلهجة العاتب والغاضب أيضاً.

ما نطقت به الفتاة حير الشاب وأربكه وألجم لسانه! فلم يدر كيف يتصرف، وأخيراً فتح الله عليه فقال:

- بالمناسبة، أين السيد أدلن وفرانك؟! لم أسمع لهما صوتاً! قالها الفتى بصوت المخذول الضعيف.

لم تجب على سؤاله، وإنما قالت:

- أنا أعرف أنك تكره النساء ولا تثق بهن، وواثقة بأنك مخطئ جداً باعتقادك هذا! إن هناك نساءً كثيرات حولك، ذكيات وجميلات، ويستطعن أن يبادلنك حباً بحب، ووفاءً بوفاء! إذ لا شك أن نيكول تافهة، وإلا لما خدعتك وحطمت قلبك، وأفقدتك ثقتك بالمرأة.

تجمدت يدا راكان فوق الشوكة والسكين، ونظر إليها بعينين كأنهما جمرتان متقدتان يتطاير منهما الشرر، ولكنه كظم غيظه فلم يقل شيئاً، وتابعت هي:

- نعم يا راكان، إنني أعني ما أقول! أنت شاب شهم... مؤدب... مثقف... كريم... أمين... مخلص... ملتزم... جدي... وتستطيع الفتاة أن تعيش معك سعيدة! إنك تستحق فتاة تفهمك وتقدر ما عندك من مزايا جيدة ؛ بل نادرة !

- شكراً لك يا آنسة جين! ولكن من الذي أخبرك عن نيكول؟! أخيراً استطاع أن يقول.

- أنت! قالتها وكأنما ألقت قنبلة.

- أنا، ومتى؟! سأل وقد حملق بها من جديد.

- تلك الليلة التي ماتت بها صديقتك العجوز، اعذرني لقد نسيت اسمها.

- السيدة جولييت، فليرحمها الله! قال.

- نعم السيدة جولييت؛ تذكرتها الآن، لقد ذكرت الاثنتين معاً! لقد أعلمتنا أنك أحببت نيكول حب العبادة، وكنتما على وشك الزواج، ولكنها غدرت بك وهربت.

- أنا لا أتذكر هذا إطلاقاً! قال راكان بقهر ممزوج بالحزن، وقد ألقى بناظريه إلى الأرض خجلاً.

- هكذا قال السيد أدلن، ولكننا لم نصدقه إلا مساء اليوم التالي عندما أعلمنا بأنه تحدث إليك، وأنك لم تتذكر حتى أنك غادرت فراشك.

انتظرت الفتاة قليلاً، ولعلها كانت تتأمل بأن يقول الفتى شيئاً، ولكنه عندما لم يفعل أضافت:

- لقد أردتك منذ الليلة التي قابلتك بها؛ فلقد لاحظت أنك شاب خجول ومهذب؛ وتتمتع بمزايا حميدة كثيرة؛ وإنني من الممكن أن أعيش معك حياة هادئة مستقرة وسعيدة، فحاولت أن أجلب انتباهك وأعلمك برغبتي بمصادقتك؛ ولكنك كنت دائماً تتجنبني مما زاد من اهتمامي بك، وحبي لك!

توقفت الآنسة جين قليلاً لترطب بلسانها شفتيها الجافتين، فكانت كالندى الذي يسقي زهرتين عطشتين، ثم تطلعت إلى وجه الفتى وتمهلت؛ إذ لعلها كانت تريد أن تتأكد من وقع كلامها عليه فأضافت:

- وجزمت تلك الليلة، بأنه لا بد من أن تكون في حياتك قصة محزنة؛ قد تكون عاطفية وقد تكون عائلية، المهم أدركت أنك حزين نتيجة صدمة ما زلت تعاني منها! وهنا ضحكت الآنسة جين شبه خجلى، وأضافت:

- لقد قلت لنفسي بأنني أستطيع بصداقتي ومساعدتي لك أن أنسيك ما حدث لك، وأن أخرجك من أحزانك، ولكنك أصررت على أن تتجاهلني وأن تتجنب حتى محادثتي.

- أنا آسف جداً جداً، لم يكن قصدي إيلامك أو جرح مشاعرك! إنني دائماً أحب الوحدة والعزلة! هذه طبيعتي منذ أن ولدت! قال الفتى وقد شعر حقاً بالحزن لما تفوهت به الفتاة، ثم أضاف:

- والآن وقد عرفت أنني قد صدمت في حياتي، فلا شك أنك أعذرتني لتجنبي الاختلاط بالآخرين! بالمناسبة يبدو أن السيد أدلن وفرانك خارج النزل، فالساعة الآن تقترب من العاشرة، ولم أسمع لهما صوتاً!

- نعم، إنهما خارج النزل ولن يعودا قبل العاشرة والنصف، وربما حتى الحادية عشرة! لقد دعينا ثلاثتنا إلى العشاء، إذ إن الكنيسة التي يذهب إليها أدلن عندهم اجتماع عشاء كبير هذا المساء، وبعد العشاء هناك عدة خطباء! لقد حضرنا عدة مرات مثل هذا الاجتماع! وهي بالنسبة لي لقاءات اجتماعية أكثر منها دينية.

همّ راكان أن يسألها عن عدم ذهابها، ولكنها أضافت:

- السبب أنني لم أذهب معهما مع أنني مدعوة؛ هو لأنه كان علي أن أعمل الليلة لوقت متأخر. ثم ابتَسمتْ وأضافت:

- إنني سعيدة جداً أن القدر رتب لي أن أتعشى معك الليلة، إذ أتاح لي الفرصة التي انتظرت حدوثها طويلاً، لأحدثك عن أفكاري ومشاعري نحوك.

- يقولون بأن هدف تلك الاجتماعات الكنسية هو اجتماعي أكثر مما هو ديني! قال الفتى هذا إذ أراد أن يبعدها عن موضوع حديثها عن نيكول وكذلك عن موضوع إعجابها به.

- هذا صحيح؛ إن الكنيسة، كل الكنائس في أمريكا يكثرون من هذه اللقاءات الاجتماعية، ليتيحوا الفرصة للشباب من الجنسين، حتى يتعرفوا على بعض ويتزوجوا داخل إطار الكنيسة.

- أعتقد أنها فكرة ممتازة! قال الفتى بإخلاص.

- نعم، هذا صحيح! ولكنها عادة للشباب، مما يسبب ضيقاً لأدلن، إذ يشعر بأنه يغرد خارج السرب، فيسبب له ألماً عظيماً، مما يجعلني أتألم له.

- ألا يوجد نساء من عمره؟!

- نعم يوجد، ولكنه لا يقترب منهن؛ بل يظل دائماً ملاصقاً لي، مما يحيرني ويربكني، وأحياناً كثيرة يغضبني!

- ألا تعتقدين أن السيد أدلن يحب صحبتك؟! وفجأة شعر الفتى بندم شديد لسؤاله هذا، فاستدرك قائلاً:

- أعني؛ يشعر بالاطمئنان لأنكما تسكنان في نفس النزل.

- قد يكون هذا سبباً ثانوياً، ولكن السبب الرئيسي هو أن أدلن يحبني، ويغار علي من الآخرين! قالت ذلك وقد غيمت سحابة من الحزن على وجهها.

- وهل أنت متضايقة من هذا الحب؟!

- طبعاً... طبعاً... كثيراً جداً...! إنه حب يكتم أنفاسي! قالت بعصبية.

- وهل قال لك صراحة بأنه يحبك؟!

- كلا؛ ولكن كل تصرفاته وأقواله تدل على ذلك.

- وهل تبادلينه أنت نفس العاطفة والمشاعر؟!

- لا بد وأنك تهزر! كيف أستطيع أن أحب رجلاً عمره ضعف عمري؛ ثم إنه إنسان مريض يعيش على الأدوية والمسكنات!

- هذه هي المهزلة الإنسانية! إننا نحب أحياناً أناساً لا يبادلوننا نفس المشاعر والأحاسيس! قال راكان.

وفجأة شعر الفتى بجفاف في لسانه وبمرارة في فمه فسأل:

- وهل أنت مدركة لحقيقة ساطعة؛ بأن حبه لك قد يدمره ويقضي عليه؟!

- هذا هو ما يقلقني! قالتها بلهجة حزينة تقطر ألماً، وقد تبدلت أسارير وجهها.

- ولمَ لا تفعلين شيئاً بأن تفهميه مثلاً وبطريقة ودية، بأنك تحبينه كأب، كأخ، كصديق... بسبب فارق السن، وليس لسبب آخر.

- لقد حاولت ذلك ولكن متأخراً! أقول لك الصدق يا راكان أن بعض اللوم يقع عليّ ! إذ كنت أول الأمر سعيدة جداً، أن أعرف بأن هناك رجلاً في مثل سنه يهيم بي غراماً، ويموت بي عشقاً ! و للحقيقة والتاريخ أنا لم أكن أشجعه، ولكنني لم أكن أردعه! فقط كنت سعيدة!

- وماذا عن فرانك؟!

- إنه يغار كثيراً من فرانك، حتى أنني رأيته ولمرات كثيرة يكاد يبكي من شدة غيرته منه.

- أعني، ما رأي فرانك بما يحدث؟!

- إنه يقول أن أدلن رجل خرف، فلا تنتبهي لما يقول؛ ثم إنه طلب إلي أن أتزوجه ولكنني رفضت.

- آسف أن أسأل؛ ولم فعلت ذلك؟! إنه إنسان طويل ووسيم جداً، ويفيض نشاطاً وحيوية.

- ولكنه إنسان أناني لدرجة مذهلة! مغرور... متعجرف... سطحي... جاهل... غير صادق... لا يمكن الاعتماد عليه! معظم أيامه يقضيها في غرفته؛ لا يحب العمل، ولا يحب إلا نفسه ولا يفكر بمخلوق سواه... هو يعتقد أنه "دون جوان" العصر، هذا بالإضافة إلى أنه لا يُوثق به، والفتاة معه تشعر بعدم الأمان والخوف، ليس من أن يحب غيرها، ولكن من أن يأخذ كل ما تملك من أمتعة الدنيا ويختفي!

لم يعلق راكان وإنما قال في سره: "فلترحمنا السماء!" ثم استغرق في تفكير عميق... بهذا الوضع الإنساني الغريب والمذهل!

مرت فترة قصيرة لم يقل أحدهما شيئاً، إذ يبدو أنها هي الأخرى راحت في تفكير عميق، وفجأة أعادته من أفكاره، إذ سألت:

- بماذا تفكر؟!

- أنا أسألك، ماذا تنوين فعله؟!

- أن تحدث معجزة وأن يفيق أدلن من غيه.

- وإن لم يفعل؟!

- لا أدري، ولا أريد حتى أن أفكر بالمشكلة! قالت هذا وألقت بالشوكة في صحنها بعصبية، ثم أضافت:

- إن إدلن إنسان طيب القلب، حساس جداً، صادق، مخلص، كريم، مؤدب معي جداً، يحترمني كثيراً، ولم يحاول يوماً حتى لمس يدي، كثيراً ما فكرت أن أرحل وأختفي في مكان لا يعرفانه، ولكنني تذكرت أنهما يعرفان مكان عملي.

- ما رأيك بفنجان شاي آخر؟ ! الفتى.

وقبل أن تجيب الصبية، سمعا صوت مفتاح يدخل بالباب الخارجي، ثم يفتح الباب ويصلهما صوتا السيد أدلن وفرانك يتضاحكان، ويتابعان تعليقهما على بعض ما جرى في الاجتماع؛ إذ ما كادا يريان الآنسة جين وراكان حتى صاحا بصوت واحد وبلهجة جذلة:

- تتعشيان معاً؟! أليس هذا رائعاً؟!

لقد دعاني راكان مشكوراً إلى العشاء، وكان طعاماً لذيذاً جداً! إنه طباخ ماهر! قالت الآنسة جين بفرح صبياني وقد فردت ابتسامة كبيرة فوق وجهها.

- إننا سعداء أن نرى صديقنا راكان يسترد عافيته، ويعود إلينا بعد انقطاع آلمنا كثيراً ! قال السيد أدلن بلهجة تنم حقاً عن السعادة والسرور وهو يبتسم ابتسامة ابتلعت نصف وجهه، ثم أضاف مخاطباً هذه المرة الآنسة جين:

- لقد افتقدناك، فرانك وأنا، كثيراً، على الرغم من أن عدد الحضور الليلة كان أكثر من المرات السابقة، وبرنامجهم الترفيهي وكذلك طعامهم كانا متميزين؛ وكذلك المحاضر كان أعلى مسؤول في الكنيسة، وكانت محاضرته ممتعة وشيقة جداً.

- وكيف حال فتاتي الليلة؟ ! سأل فرانك مخاطباً الآنسة جين.

- أنا لست فتاة أحد! أجابته الفتاة بغضب وعصبية.

- يا إلهي...! ماذا حدث؟! يبدو أنك غاضبة علي، ماذا فعلت؟!

- أنا لست غاضبة عليك، ولكنني لا أريد أن تقنع نفسك بأنني رهن إشارتك.

- الآنسة جين محبوبة من جميع أصدقائها ومعارفها! إنها فتاة متميزة في أخلاقها وسلوكياتها؛ إنها تحب الكل، والكل يحبها. قال السيد أدلن وهو يتأمل السنيورة الجالسة غير بعيدة عنه.

- شكراً يا سيد أدلن، أقوالك وأفعالك دائماً عظيمة مثلك! أجابت حواء وهي تبتسم.

- ما رأيكم في بعض الشاي؟! الإبريق ما زال ممتلئاً؟! قال راكان محاولاً أن يضع حداً للجدل.

- فكرة رائعة! قال السيد أدلن، وجلس على الكرسي الذي أمامه وأشار إلى فرانك أن يجلس على الكرسي المقابل.

نهض راكان وأحضر فنجانين فارغين مع صحنيهما من المطبخ، ووضع واحداً أمام كل منهما وملأه بالشاي، ثم وضع أمامهما السكرية، فأخذ كل منهما حاجته وبدأ يحتسيان الشاي.

بعدها تفرع الحديث، وإن كان في معظمه عن الاجتماع الذي حضر منه الرجلان، وعندما نظر راكان إلى ساعته نهض واقفاً وقال:

- الساعة الآن تجاوزت منتصف الليل بقليل، ويجب أن أنهض مبكراً للذهاب إلى عملي، ثم صار يجمع ما أمامهم من صحون وأكواب، ثم أضاف:

- يجب أن أغسل الأطباق قبل أن آوي إلى فراشي.

- لا، أنا أغسلها، اذهب أنت ونمْ، إذ إن دوامي غداً يبدأ متأخراً! قالت الآنسة جين.

احتدم الجدل بينهما، الكل يقول بأنه هو الذي يغسل الصحون، وأخيراً فض السيد أدلن الجدل قائلاً:

- نشترك أربعتنا في غسلها.

وافق الجميع، واحد يغسل الأطباق، وآخر يجففها، وثالث يضعها في مكانها، وفي خلال دقائق كان كل شيء نظيفاً ومجففاً وموضوعاً في مكانه على الرف وفي الخزائن.

شكرت الصبية الفتى على دعوتها، وأثنت مرة أخرى على مهارته في الطبخ، وكذلك شكره الرجلين.

*****

مكث راكان وبروس في المكتبة العامة حتى أغلقت أبوابها في تمام الساعة العاشرة، وكانا قد تناولا طعام العشاء قبل أن يذهبا إليها! دلف الفتى إلى غرفته في حوالي الساعة العاشرة والنصف، بعد أن أنزله صديقه أمام النزل، وبينما كان يستعد لوضع نفسه في الفراش، سمع مفتاح باب غرفة السيدة لويس يُدار والباب يفتح ثم وقع أقدامها الثقيلة تدب فوق أرض القاعة، مقبلة نحو غرفته، وهنا داخل الفتى شيء من السرور، إذ إن له ليلتين متتاليتين ، لم يسمع لها حركة، على غير عادتها، وحتى أنه خشي أن تكون مريضة !

!اعتقد الشاب أنها ستقرع عليه بابه، وأنهما سيتزاوران لبعض الوقت، فنهض ليكون باستقبالها، ولكن لشدة خيبته لم تفعل، وإنما اكتفت بأن دست ورقة تحت بابه، وكانت كالتالي:

"أحب أن أراك الليلة قبل أن تأوي إلى فراشك، إذ إن في داخلي نفثات دفينة أتمنى أن أبوح لك بها قبل أن أموت؛ وأعدك بأنني لن آخذ من وقتك طويلاً ، إذ إنني مدركة أنك متعب ولا تستطيع السهر طويلاً...! لويزا لويس..."

رحبت المرأة بالفتى كثيراً، وأعلمته بأنها مشتاقة جداً لرؤيته، فقد مضت مدة لم يريا بعضهما، ثم جلست في فراشها مسندة ظهرها إلى الجدار كالعادة، وجلس هو قبالتها ملقياً بناظريه إلى الأرض.

- إنني ما زلت حزينة لفقدانك صديقتك السيدة جولييت، ولكن حزني يتعاظم عندما أتذكر بأنك فقدت أيضاً الفتاة التي أحببتها كثيراً، وكنتما على و شك الزواج ! لو كنتما أحببتما بعضاً وصممتما على الزواج؛ ثم تركتما بعضاً لأي سبب كان بالاتفاق بينكما لما حزنت؛ لأن مثل هذا يحدث في كل يوم؛ ولكن الذي أوجع قلبي هو أنها تركتك لسبب غير مقنع؛ وأنها كانت تتسلى بحبك؛ مما سبب لك آلاماً عظيمة، وأنا واثقة أنها ستلازمك طويلاً!

وهنا اخضلت عينا الشاب وصارت دموعه تنزل على صدره غزيرة وساخنة، وما زال ملقياً برأسه إلى الأرض، إذ أنه لا يريد أن ترى المرأة دموعه، ثم تابعت:

- لا شك أن سبب تألمي وحزني من أجلك هو لأنني أحبك كثيراً، إذ إنني اعتبرتك ابناً لي ولو أنني لم أنجب أولاداً؛ ولكن السبب الأهم هو لأنني أحببت يوماً كحبك، وفقدت من أحببت، لا بسبب خيانة أو غدر، ولكن لأن الخالق، المجد له، لم يرد لهذا الحب أن يكتمل.

كان صوت العجوز يصل إلى أذني الشاب عالياً وواضحاً، وكأنه صوت شابة في عنفوان شبابها.

- كان ذلك قبل حوالي واحد وسبعين عاماً، وكنت حينها في الثانية والعشرين من عمري، كان آخر فصل لي في الجامعة، وبعدها سأحصل على البكالوريوس في الأدب الإنجليزي! كانت أول حصة ندخل بها قاعة المحاضرات , وكان اسم المساق "أدب مقارن" ! دخلت وجلست، ودخل هو وجلس على يميني، إنني ما زلت أذكر ذلك وكأنما حدث الليلة الماضية، وأرى المنظر وكأنما هو الآن أمام عيني !

وهنا رفع راكان عينيه من النظر إلى الأرض، وتطلع نحو كومة العظام الجالسة في سريرها، فهاله ما رأى! لقد أضاء وجه العجوز إضاءة غريبة، وأشرق إشراقة متلألئة؛ وكأنما عادت إليها الحياة فجأة بعد أن كانت قد فارقتها؛ ثم استرسلت:

- لمحت نحو جاري فمسكته يتأمل وجهي خلسة، وعندما تقابلت عيوننا احمرت أذناه وتوردت وجنتاه، ثم هربت عيناه من أمام عيني، فارتبك واهتز جسمه، وكأنما مسكه الأستاذ يغش بالامتحان !

وهنا أطلقت المرأة ضحكة غريبة وكأنها طفلة صغيرة شقية قد ألقت نكتة أعجبتها، أو كأنها قامت بعمل صبياني انتصرت به على إحدى أترابها، وتابعت حديثها:

- لاحظت أن جاري طويل القامة، عريض المنكبين، ضخم الجسم، حاد النظرات، واسع الوجه، له عينان زرقاوان، وأسنان ناصعة البياض؛ وكأنها عقد من اللؤلؤ، أحمر الشعر، وكان أميز ما به إشراقة وجهه حتى وهو لم يبتسم! لاحظت بطرف عيني اليسرى بأنه كان يختلس النظرات إلي، عندما يعرف أنني أتطلع أمامي إلى الأستاذ المحاضر.

تنهدت المرأة تنهيدة عميقة وشعر الفتى وكأن شرر تنهداتها وصلت إلى وجهه لشدة حرارتها، وكانت كمن يتحسر على فقد عزيز انتقل إلى العالم الآخر، ثم ضحكت ضحكة مكتومة، وهنا رفعت جسمها إلى أعلى قليلاً واسترسلت:

- هل تصدق إن قلت بأن الحصة انتهت ولم أعِ كلمة واحدة مما قاله المحاضر؛ وأكاد أجزم بأن ما أصابني قد أصابه هو أيضاً! غادر هو القاعة بعد أن انتهت المحاضرة، أما أنا فقد بقيت في مقعدي كالمنومة! إنني لم أعرف ما حدث لي ولم أفقه كنهه، كل ما أعرفه؛ هو أنه استولى علي شعور غريب عجيب؛ إذ صرت أرتجف كالمحمومة، وإنني فقدت السيطرة على جسمي، الذي صار يقفز كقفزات الأرنب الشارد فوق المقعد! إنني ما زلت أتساءل حتى هذه اللحظة عن سبب كل هذا؛ فهل هو شعور بالفرح أم بالحزن؟ ! بالسعادة أم بالتعاسة؟! بالتشاؤم أم بالتفاؤل؟ لا أدري! نعم، حتى الآن لا أدري !

سكتت العجوز لفترة ليست بالقصيرة، وعندما نظر الفتى إليها وجدها تنظر إلى بعيد وقد اتسعت حدقتا عينيها خلف نظارتها السمكية، وكأنما لتخترقا زجاجيهما وتهتكا أسرار الغيب البعيد لتعود إلى الماضي السحيق، ولعلها أيضاً تريد أن تستشعر وتستشف منه نسمات حالمة سعيدة افتقدتها لسنوات وسنوات؛ ومن جديد بدأت تتكلم:

- كنت أشعر أنني أعيش في عالم سحري، عالم ليس أرضياً! إننا كثيراً ما نكون نأكل، نشرب، نتنفس، نتحرك، ولكننا أموات في أجسام أحياء، ونولد من جديد، وننضم إلى مجموعة الأحياء يوم يبدأ الجزء الإنساني فينا يتحرك، ولن يتحرك هذا الجزء إلا عندما نحب! أنا ألا أتكلم عن تلك الرغبة التي تتحقق بالتقاء جسمين، لا أبداً، أنا أتكلم عن التقاء روحين تنصهران في بوتقة واحدة، ثم تحلقان وتسموان إلى درجة مصاف القديسين أو الأنبياء، وحتى إلى مصاف الآلهة !

كانت المرأة تتكلم بقوة وانفعال وحيوية؛ ممزوجة بحماس لاهب وكأنها في الثلاثين من عمرها، وقد أعاد حماسها المندفع مستمعها من تحليقه وسرحانه البعيد إلى حيث هو الآن !

- كيف كنت أشعر في تلك الأيام؟! لم أستطع أنا، ولما استطعت أنت أن تتصور! ولا أن تستوعب ما أقول، اللهم إلا إذا مررت بنفس التجربة التي مررت بها أنا، وخالجتك نفس المشاعر والعواطف التي خالجتني!

كانت عواطف راكان تغلي في داخله كماء المرجل، إذا اجتاحته موجة من العواطف المجنونة المستنفرة! لقد هم أن يقول لها بأنه مر بنفس تجربتها، وأنه ركب نفس مركبها، يوم قابل سميحة ، لأول مرة ، ولكنه عدل عن فكرته معللاً ذلك بعدم جدوى ما يقول؛ ثم إنه لا يريد أن يقطع على المرأة نشوة سعادتها، وكذلك استرسالها وتدفق أفكارها !

- لقد تساءلت مرات ومرات، لمَ نحب؟! وما اهو الحب؟! وما الهدف من الحب؟! وتوصلت إلى نتيجة، هو أنه الحد الفاصل بين الآدمية واللاآدمية، بين الإنسان والحيوان !!!

"آه يا امرأة، كم أنت صادقة! وكم أوافقك على ما تقولين!" قال الفتى هامساً لنفسه، في زحمة ثوران عواطفه وتأجج مشاعره !

- مر أسبوعان... أي ست محاضرات... أي ست ساعات... يجلس كل منا إلى جانب صاحبه، تضرب كتفانا ببعضها البعض، وتكاد تتلامس رؤوسنا، ولا يأتي أحد منا بنأمة، ما عدا تلك النظرات التي يسرقها كل منا من الآخر! انتظرت منه، بصفته الرجل، أن يبدأ هو بمكالمتي؛ أن يقول شيئاً، أي شيء، يقول: الطقس حار اليوم... الأستاذ محاضر ممتع أو ممل... ولكنه لم يفعل؛ فثرت عليه بيني وبين نفسي، وتساءلت هل هو أخرس؟! وهل هو مربوط اللسان؟! وعندما أسريت بأفكاري إلى زميلتي، التي تشاركني الغرفة في سكن الجامعة، شجعتني بأننا ما زلنا نريد بعضاً فلا بد لواحد منا أن يكسر حاجز الحياء... حاجز الرهبة... حاجز التردد... إذ ربما تكون تربيته العائلية أو الدينية تجعله يخشى أو يتردد من مكالمة الجنس الآخر! وهنا توقفت المرأة لبعض الوقت، إذ لعلها فعلت ذلك لتلقط أنفاسها، ثم أضافت:

- وبالفعل فقد كانت صادقة! إذ عرفت فيما بعد بأنه كان يتيم الأبوين، وأنه تربى ودرس في الدير، وقد عاش في رعاية الراهبات والقساوسة؛ مثلي تماماً! لم يكن الشباب في تلك الأيام من الجنسين يستطيعون التكلم معاً بنفس الشجاعة والجرأة اللتين يملكونها في هذه الأيام... على كل حال تجرأت وكلمته، ونحن نهم بمغادرة مقاعدنا، فقلت له وأنا أرتجف حياءً وخوفاً معاً: اسمي لويزا لويس، قلت ذلك ومددت يدي لأصافحه، فأجاب وهو يمد يده لتقابل يدي: وأنا اسمي فيليب هانز، قالها بصوت لا يقل عن صوتي ارتباكاً وانفعالاً؛ وانخرطنا في الحديث، كان حديثاً عادياً، غير مترابط ومقتضباً. لقد تحدثنا عن الأستاذ المحاضر، وطريقة أسلوبه، وعن عدد الطلاب الذي يفوق كثيراً عدد الطالبات، وعن أشياء كثيرة تافهة، وإن كان كل منا مدركاً في قرارة نفسه بأن هناك حديثاً أكثر إمتاعاً، وأحب إلى القلب والنفس، وهو حديث العواطف وما يشعر به كل واحد منا نحو الآخر! كنا خائفين ووجلين بادئ ذي بدء، ثم تشجعنا حتى وكأنما نعرف بعضنا منذ زمن بعيد، وفجأة سألني فيليب إن كنت أؤمن بالحب من أول نظرة؛ فأجبته بأني لم أكن أفعل، قبل أن تتقابل عيوننا، فأعلمني هو والسعادة تملأ قلبه والفرحة تطل من عينيه، بأنه كان يعتقد بأن الذين يؤمنون بالحب من أول نظرة هم أناس جاهلون لا يفقهون ما يقولون، ولكنه عندما وقعت عيناه علي شعر بحب جارف نحوي وكأنما هو يعرفني منذ سنوات وسنوات، وأنه أمضى عمره كله يبحث عني؛ وقال أيضاً بأنه كان يقسم بينه وبين نفسه عندما يكون وحيداً بأنه سيكلمني عندما نتقابل في المحاضرة، ولو كلمة مرحبا، ولكنه كان دائماً يجبن إذ يحس بأن قلبه يقفز بين ضلوعه، وأن لسانه ينعقد، ويصير جسمه كله يرتجف، وأنه لم يكن يفهم ما يقوله الأستاذ المحاضر؛ فأعلمته بأن ما كان يحدث له كان يحدث لي أنا أيضاً! ثم قال بأن أخشى ما كان يخشاه، هو أن ينتهي الفصل الدراسي دون أن نكلم بعضاً، وسألته وأنا أنظر إلى الأرض حياءً وخجلاً إن كان اعتبرني وقحة وغير مؤدبة، فأجابني بأنه يعتقد عكس ذلك تماماً، إذ اعتبرني فتاة جريئة وشجاعة، وأنه مقدر لي جرأتي، إذ لولا شجاعتي الأدبية

لما كنا أصبحنا أصدقاء ولكان بقي يتعذب ويندب سوء حظه، وإنه ومنذ ذلك اللقاء ونحن قلما نفترق، اللهم إلا لنذهب إلى غرفتينا في سكن الطلبة!

كان راكان طيلة الوقت والمرأة وهي تتكلم يسأل نفسه بإصرار وعناد، ثم يعيد عليها السؤال ثانية، هل القصة التي تقصها عليه تلك المرأة هي قصة قد حدثت لها فعلاً، أم أنها من اختراع مخيلتها؛ تماماً كما تخترع القصص الآن عن سكان النزل؟! ثم سأل نفسه أيضاً لم لا تكون القصص التي تقصها عليه عن سكان النزل، هي قصص حقيقية وليست من نسج خيالها؟!

- صدقني يا بني، ما كنت لأجرؤ فأفكر بأن أضيع وقتك وأزعجك، بأن أقص عليك قصة حدثت لي قبل أكثر من سبعين عاماً لولا رؤيتي لك تلك الليلة الحزينة؛ ليلة وفاة صديقتك وفقدك لحفيدتها التي كنت تنوي الزواج بها، وقد رأيتك تتعذب بقسوة مزقت قلبي، وأدمت وجداني! قالت المرأة وهي تحملق بالفتى الجالس أمامها، وكأنما تنتظر أن تسمع رأيه فيما تقول.

- حاشا لله يا سيدتي أن أفكر بمثل هذا! إنني أستمع لقصتك بكل جوارحي وأحاسيسي، ومتشوق جداً جداً لأن أعرف ما حدث، قال الشاب بصوت عالٍ ليتأكد من أن المرأة قد سمعت كل كلمة تفوه بها.

- إنني ومنذ حادثة تلك الليلة التي أدمت قلبي، قد عزمت أن أخبرك بقصتي، لأعلمك بأن هناك آخرين أحبوا، ولكن القدر اختار لهم أن لا يسعدوا بهذا الحب.

- فكر راكان أن يقول لها بأنه أدرك أن في حياتها قصة حب فاشلة منذ الليلة الأولى لدخوله غرفتها، خصوصاً بعد أن رأى صورتيها والفرق الكبير بينهما، مع أن الفترة الزمنية بينهما كانت قصيرة جداً؛ ولكنه لم يفعل لأن ذلك يتطلب جهداً كبيراً حتى يمكنها من سماع صوته، وحتى أيضاً لا يقطع عليها تسلسل أفكارها.

- كان فيليب يكبرني ببضعة شهور، وكان دائماً من المتفوقين في كل مجال من مجالات الحياة، ليس بالدرس فقط، ولكن حتى بالرياضة، وكان كريماً وشهماً ورقيقاً، لا تستطيع إلا أن تحبه وتحترمه وتسعد بمعرفته وصداقته، ولكنه كان خجولاً جداً ومؤدباً أكثر مما يجب، إذ لا شك أن تربيته الدينية هي التي شكلت سلوكه الحياتي؛ ولهذا السبب لم تكن عنده الجرأة الكافية لمكالمتي، مما زاد في حبي له وهيامي به.

كان النزل في سكون شامل، لا تسمع به حركة ولا حتى نأمة، وقد لزم جميع النزلاء غرفهم، وكأنما يعلمون مقدماً بأن السيدة لويزا لويس، ابنة الثلاثة والتسعين عاماً، ستبوح الليلة بسر مقدس كتمته في صدرها، واحداً وسبعين عاماً، وفي هذه الليلة بالذات عزمت أخيراً أن تبوح به لفتى قادم من وراء البحار وخلف المحيطات؛ يعاني هو نفسه من أوجاع وجروح في قلبه، وشروخ ودمامل في حياته!

- لقد قضينا عاماً دراسياً كاملاً، شربنا به من بحر الحب الزاخر، حتى لم يعد فينا مكانٌ للزيادة، فعزمنا على الزواج أثناء العطلة الصيفية! كان اختصاصنا نحن الاثنين أدب إنجليزي، وكان في نيتي قبل أن نتعرف على بعض أن أتخرج ثم أعمل كمدرسة وبعدها أتزوج، كما تفعل معظم الفتيات في ذلك الوقت، أما خطته هو فكانت تشابه خطتي، هو أن يشتغل لفترة زمنية محددة يوفر بها بعض النقود، هذا بعد حصوله على البكالوريوس، ثم يتابع دراسته حتى يحصل على الدكتوراة ، فيكون أستاذاً بالجامعة! صمتت قليلاً ثم أضافت:

- لم تكن التسهيلات المعيشية والدراسية متوفرة للطلبة في تلك الأيام مثلها في هذه الأيام، فقد كانت المنح الدراسية قليلة بل نادرة، بينما في هذه الأيام يستطيع أن يحصل عليها تقريباً كل طالب متفوق؛ ولم تكن القروض للطلبة معروفة في ذلك الوقت، بينما في هذه الأيام يستطيع كل طالب يحصل على علامات معقولة أن يحصل على قرض مالي، يستطيع أن يسدده على دفعات بسيطة بعد تخرجه! لا أدري إن كنت أنت تستطيع أن تحصل على أحدها نظراً لأنك مواطن غير أمريكي.

همّ الفتى أن يعلمها بأن القانون لا يعطيه هذا الحق، فقد أعلمته طالبة من سوريا، التقى بها صدفة في مطعم الجامعة، بأنها تقدمت بطلب إلى إدارة الجامعة تطلب قرضاً فرفض طلبها كونها لا تحمل الجنسية الأمريكية، ومرة أخرى عدل عن فكرته، إذ أنه لا يريد أن يشتت أفكارها.

- اعذرني يا بني إن قلت لك أن حبنا في تلك الأيام يختلف كثيراً عن حب هذه الأيام! إنني بعد أن رأيت ما جرى لك تلك الليلة، قلت بأنك في مثل حبك هذا تنتمي إلى جيلنا وليس إلى هذا الجيل! كان الواحد منا يحب الآخر بكل

عواطفه وأحاسيسه، وبكل ما عنده من قوة وإيمان! كان حباً كله إخلاص واحترام! كان نوعاً من العبادة والتقديس والإجلال! أما حب اليوم فأنت تعرفه؟!

"بالله عليك يا سيدة لويس أن لا تقولي لي بأن فيليب كان مراوغاً ومخادعاً، أو أنه كان نذلاً خسيساً إذ هرب مع فتاة أخرى، فتركك مكلومة الفؤاد محطمة القلب، تلعقين دم جراحك النازفة، قولي لي بأنه قد غرق في البحر، دهسته سيارة، مات، أي شيء مثل هذا، ولكن لا تقولي أنه لم يكن صادقاً في حبه لك، وأنه كان يخدعك، فأنا ليس عندي المناعة ولا الطاقة لأن أسمع عن خداعات أخرى، ولا عن خيانات جديدة، إن جراحي ما زالت تنزف، ودموعي لم تجف بعد، ومرارة الخيانة ما زالت في فمي!" هكذا قال الفتى لنفسه وهو يستمع لقصة العجوز.

- اتفقنا بادئ ذي بدء على أن يعمل كلانا كأستاذيْ لغة إنجليزية، هو في مدرسة للصبيان وأنا في مدرسة للإناث؛ إذ كان الاختلاط في أوقاتنا ما زال غير مسموح به قبل دخول الجامعة، وخصوصاً في كنيستنا الكاثوليكية، ونوفر نقوداً لندرس دراسات عليا، ثم عدلنا فكرتنا بأن أعمل أنا ويواصل هو دراسته، وعندما يكملها يعمل هو وأواصل أنا دراستي.

وسكتت المرأة، وظلت صامتة هذه المرة لفترة طويلة، ونظر الفتى إلى وجهها، فقد كانت مغمضة العينين، إذ لا شك أنها كانت تعيش لحظات ماضيها الغابر السعيد.

- أحببت طالباتي كثيراً؛ فقد كنت أتصور أن بناتي سيكن يوماً بينهن! لقد كان فيليب شاباً يفيض نشاطاً وحيوية... يتسع قلبه لحب العالم أجمع... لا تفارق الابتسامة شفتيه... شاباً بعمر الزهور... لا تملك إلا أن تحبه وتحترمه، كله رجولة وكرم وشهامة...!

حملق الفتى بها وهي تردد جملها دون توقف؛ فظن أن العجوز قد فقدت عقلها وأنها أصابها مس من الجنون، ولكن تنفس الصعداء عندما توقفت عن الكلام للحظات، ثم تابعت:

- وكان عيد ميلاده، ودعوته لنحتفل بهذه المناسبة السعيدة، وصممنا على أن نشرب في تلك الليلة لأول مرة في حياتينا... نعم لأول مرة تلامس شفاهنا قطرة خمر! صحيح أن ديننا يقول: قليل من الخمر يفرح القلب، ولكننا لم نكن قد شربنا حتى هذا القليل من قبل! لذلك لم تكن عندنا المعرفة غير أنه يفرح القلب وينعش الروح! وشربنا في تلك الليلة كثيراً، أكثر مما تستطيع معدتانا أن تحتمل! لقد شربنا وكأنما نريد أن نحصل على كل ما في الكون من سعادة ومتع في ليلة واحدة! لقد فقدنا اتزاننا، وفارقنا خجلنا واحتشامنا فصرنا نتبارى في إطلاق النكات... فنضحك لها من أعماق قلوبنا وكأننا طفلان صغيران مع والديهما، وقد اشتريا لهما كل ما في المتجر من ألعاب! كان كل واحد منا يتكئ على الآخر عندما غادرنا المطعم، وكنا نتناوب مساعدة أحدنا الآخر! لقد أمضينا طيلة الطريق من المطعم حتى السكن تارة يساعدني على النهوض من سقوطي على الأرض، وتارة أساعده أنا، وتارة نجلس على رصيف الشارع، فنبدأ من جديد بإطلاق النكات التي نحن أنفسنا نستغرب كيف عرفناها وأين سمعناها؟!

اخشوشن صوت العجوز حتى أصبح به بحة عميقة، ولاحظ الفتى بأنها تحملق في ظلمة الغرفة البعيدة، وأن دموعاً غزيرة متواصلة تنزل فتملأ أخاديد وشقوق وجنتيها.

هزّ منظر العجوز الفتى، وأحس بأن قلبه يتمزق بين جنبيه، واستولى عليه حزن شديد، فتمنى لو أن المرأة تكف عن الحديث، كما وشعر بضآلة آلامه وأحزانه أمام تلك المرأة العملاقة، التي تحمل على كتفيها المهدمتين ثلاثةً وتسعين خريفاً.

- وعند الظهر وكان يوم السبت، قرعت المشرفة وأعلمتني بأن أجيب على الهاتف، وكان المتكلم شريك فيليب بالغرفة! لقد أعلمني بأن فيليب حملته سيارة الإسعاف الليلة الماضية إلى المستشفى وهناك فارق الحياة، هكذا وبكل بساطة مات فيليب!

ومن جديد انفجرت العجوز تبكي، وعيون الفتى الجالس قبالتها تشاركها البكاء، كما ويشاركها قلبه النازف الأحزان والآلام!

- منذ ذلك اليوم، وأنا لا أكف عن الدعاء والطلب إلى الخالق أن يعجل بلقائي بفيليب؛ لأنني وعلى الرغم من زواجي بالسيد لويس، وحبه الشديد لي، واحترامه المتميز لمشاعري ولحريتي، ولقائي بآلاف الناس، إلا أنني كنت أشعر دائماً بالوحدة! كانت الوحدة دائماً تأكل أحشائي! إن الوحدة شيء مخيف... مخيف... مخيف جداً...!

بدأ صوت السيدة لويس وهي تردد كلمة مخيف يرتفع قليلاً قليلاً، حتى جاوز الغرفة؛ ولا شك لو أن أحداً كان في المطبخ أو في غرفة الطعام لكان سمع صوتها! وهنا لم يستطع الفتى أن يضبط عواطفه فنهض مذعوراً، وخرج من غرفتها كالزوبعة ودخل غرفته! إنه وعلى الرغم من أن بابي الغرفتين كانا مغلقين، إلا أن صوتها ظل يصل إلى أذنيه، فيزيد من آلامه وعذاباته ! ومضت مدة طويلة قبل أن يسكت الصوت الذي يفطر القلب ويحرق الوجدان !

*****

الفصل الثاني والعشرون

بحلول منتصف شهر نوفمبر من كل عام، تصيب سكان أمريكا حالة هستيرية مجنونة، جميعهم ودون استثناء، ودون اعتبار لمعتقداتهم الدينية والعرقية، تصيبهم موجة محمومة من الشراء؛ موجة تقتلعهم من جذورهم؛ وذلك بسبب اقتراب حلول أعياد الميلاد المجيدة! لقد تحولت الشركة التي يعمل بها راكان إلى خلية نحل ضخمة! كانت طوابق الشركة الثلاثة، ليس بها مكانٌ خالٍ لقدم! كان الناس وكأنما بهم سعار، يتدافعون بالمناكب وبالأيدي والأرجل؛ وكأن الشركة توزع البضائع بالمجان؛ فيتزاحمون بوحشية وفظاظة؛ ليصل كل منهم قبل أن ينفد المخزون؛ فلا يحصل هو على شيء!

لم تكن الشركة التي يعمل بها راكان هي الوحيدة بازدحامها، فقد كانت جميع المحال التجارية بمختلف الحاجيات التي تبيعها! وكذلك كانت المطاعم ووسائل النقل والشوارع؛ كلها مكتظة بالناس، حتى يعتقد المرء بأن الناس قد هجرت بيوتها، وجاءت إلى تلك المحلات، ولا تعود إليها إلا بعد منتصف الليل أحياناً!

كان الناس يهرولون ويركضون وكأنهم في يوم الحشر؛ أو كأنما كانت تركبهم عفاريت وتطاردهم شياطين! كان لكل إنسان حبيب أو قريب أو صديق، يريد أن يشتري له شيئاً ما، أو حتى عدة أشياء؛ ليقدمها له ليلة عيد الميلاد المجيد، وليستلم هو بدوره منه ما يُقدم له.

لاحديث للناس في هذه الستة أسابيع إلا حديث شراء الهدايا، فكل إنسان يريد أن يشتغل تلك الفترة ليحصل على نقود يشتري بها هدايا يقدمها إلى الآخرين، بمناسبة هذا العيد الذي، والحمد لله، لا يأتي إلا مرة واحدة في السنة!

لقد سمع راكان أكثر من أستاذ في الجامعة، يسأل طلاب مساقه إن كانوا قد اشتروا كل ما ينوون شراءه من هدايا؛ متمنياً لهم التوفيق في مهمتهم الشاقة والمحيرة!

خلال هذه الفترة يرتفع عدد المستخدمين في كل متجر، حتى يصل في بعضهم إلى عشرة أضعاف، وهذا ما حصل للشركة التي يعمل بها راكان! لقد كان عدد موظفيها حوالي المائة قبل حلول هذه الفترة، فارتفع إلى ما يزيد عن ألف مستخدم! إنهم مستخدمون مؤقتون، ويسمونهم مستخدمي "أعياد الميلاد"، وكان من المضحك أن يصير الفراش في هذه الفترة رئيساً على مجموعة من المستخدمين الجدد!

كانت بعض المتاجر، ومنها الشركة التي يعمل بها راكان، تفتح أبوابها لاستقبال الزبائن، في هذه الأسابيع الستة، من التاسعة صباحاً حتى منتصف الليل، بما فيهم أيام الأحد، غير أنها تستقبل مستخدميها من الساعة السادسة صباحاً حتى الثانية من صباح اليوم التالي؛ تاركة حرية اختيار الساعات للمستخدم نفسه، وإن كان بعضهم يعمل في اليوم إلى ما يصل ثماني عشرة ساعة!

كان مستخدمو أعياد الميلاد المؤقتين يأتون من عدة شرائح من المجتمع؛ كان بينهم العاطلون عن العمل؛ طلاب الجامعات والمدارس الثانوية؛ ربات المنازل؛ المتقاعدون وكبار السن؛ هذا بالإضافة إلى أن مستخدمي المحلات التجارية أنفسهم والذين يعملون جزءاً من الوقت أو وقتاً كاملاً، يستطيعون أن يضاعفوا ساعات عملهم، فيحصلوا على أجور إضافية !

لقد اكتشف راكان أنه في الأسبوع الأخير من تلك الفترة، قد وصل عدد الساعات التي اشتغلها إلى ستة وسبعين ساعة، نعم، ستة وسبعين ساعة! ففكر الفتى هو الآخر أن يقدم لنفسه هدية، وهو أن يبتاع سيارة مستعملة ويدفع هذه النقود لتكون الدفعة الأولى؛ وإن كان قد وضع في حسابه شراء هدية بسيطة للسيدة لويس، وربما يضيف إليها واحدة لصديقه السيد أدلن وأخرى للآنسة جين، وكذلك للسيد والسيدة أندرسون!

خلال هذه الفترة الزمنية المشوشة والمحمومة، لم يكن راكان على علم بأخبار النزل؛ فقد كان يأتي أحياناً والجميع نيام، ويغادره وبعضهم في أعمالهم أو ملازمون لغرفهم، كالسيدة لويس والسيد أدلن!

لم يكن يدخل المطبخ إطلاقاً؛ إذ إنه لم يكن عنده الوقت ليجهز لنفسه شيئاً يتناوله، فقد كان يأكل ما يحتاج أكله وشربه، إما في مطعم الشركة أو في أحد مطاعم الوجبات السريعة المجاورة، والذي كان غالباً ما يكون إما بصحبة رئيسه السيد أبيكن أو صديقه بروس! إنه وفي هذه الفترة، حتى ملاحظات وقصاصات جريدة السيدة لويس قد انقطعت، مما جعله يتساءل عن سر الانقطاع؛ إذ كان شوقه لرؤيتها والتحدث إليها، وكذلك قراءة ملاحظاتها لم ينقطع بل ازداد.

لا شك أن خوف راكان من أن تمر حافلة الساعة السابعة صباحاً من أمام سكنه ولا يركبها، هو الذي جعله مستعداً للخروج والذهاب إلى عمله قبل حوالي الربع ساعة تقريباً! لقد فكر الفتى هذا الصباح، بأنه بدلاً من أن يمضي هذا الوقت واقفاً على رصيف الشارع، فلمَ لا يمضيه بتناول قطعتين محمصتين من الخبز، مغطاتين ببعض مربى التوت مع كأس من الحليب المثلج، كما كان يفعل في كل صباح قبل أن يبدأ هيجان فترة أعياد الميلاد!

إنه ومنذ أن تعرف على بروس والشاب يمر عليه ويأخذه معه بسيارته، معظم أيام الأسبوع، أما عندما يكون الصديق معطلاً ذلك اليوم، أو أن أوقات عملهما متباينة، عندها فإن على راكان أن يأخذ الحافلة إلى الشركة.

كان راكان قد جهز الشطيرة على عجل وكانت كأس الحليب إلى جانبها، وبينما كان يهم بقضم طرفها سمع وقع خطوات تقبل من نهاية القاعة، وعطر نسائي يصل إلى أنفه! ما كادت المرأة تراه حتى صاحت بابتهاج:

- هلو راكان! كم لطيفاً أن أراك...! لقد مضت مدة طويلة على رؤيتك آخر مرة! كيف حالك؟! قالت الآنسة جين.

- شكراً لك يا آنسة جين! وأنا سعيد جداً أن أراكِ...! أنا أعمل ساعات طويلة في هذه العطلة؛ ككل الناس كما تعلمين! قال الفتى والشطيرة ما زالت معلقة في الهواء بين يده وفمه.

- إن وجهكِ شديد الشحوب، وعينيكِ ذابلتان، وكأنكِ لم تنامي ليلة البارحة! قال الفتى بصوت ضعيف وبنبرة صادقة.

- إنني لم أنم الليلة الماضية لشدة حزني وتأثري! وبعد أن صمتت للحظة أضافت:

- آه صحيح... أنت لم تعرف...!

- أعرف ماذا؟! سأل الفتى وقد اتسعت حدقتا عينيه فزعاً.

- لم تعرف عن الذي جرى للسيدة لويس؟!

- وماذا جرى لها؟! صاح الفتى بأعلى صوته وقد شعر بأن قلبه قد سقط إلى ما بين قدميه.

لا شك أن الطريقة التي سأل بها الفتى، أرعبت الفتاة، إذ إنها حاولت أن تتملص من إجابته.

- أرجوك قولي لي.. ماذا حدث لها؟!

- كانت تقف ضحى الأمس في قاعة النزل، وتصرخ بأعلى صوتها وبكل ما عندها من طاقات، بأنها أخيراً ذاهبة لمقابلة حبيبها فيليب! لقد هرعت إليها السيدة أندرسون، وحاولت أن تعيدها إلى فراشها، ولكنها رفضت وازداد صراخها؛ وتجمهر المارة؛ فتلفتت السيدة أندرسون إلى صديقتها التي لا أعرف اسمها، والتي جاءت على عجل، ثم طلبتا لها سيارة الإسعاف و...

لم يسمع راكان بقية القصة، فإنه وبطريقة لا شعورية، وليسامحه الرب، فقد ألقى بقطعة الخبز التي في يده في حاوية القمامة، وسكب كأس الحليب في المغسلة، وراح يعدو خارج النزل!

كان وكأنما أصابت الفتى حمى شديدة، فقد كان يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ودموعه تنزل كالمطر، حتى كان يقف أحياناً أثناء سيره يجفف دموعه التي كانت تحول بينه وبين رؤية ما أمامه!

خفق قلب الفتى عندما فتح باب غرفته عندما عاد ليلاً من عمله، ووجد أن ورقة موضوعة تحت الباب! لقد اعتقد بأن السيدة لويس قد عادت إلى غرفتها معافاة، ولكن عيناه تجمدتا فوق السطور فقد كانت الورقة من الآنسة جين

تعلمه بأن صديقة السيدة لويس قد هاتفت النزل، وتكلمت مع السيدة أندرسون وأعلمتها بوفاة صديقتها؛ كما أن ساكني النزل قد قرروا أن يتقاسموا ثمن إكليل زهور يرسلونه ليوضع على قبر المرحومة!

عصرت يد راكان الورقة، وعادت إليه الحمى من جديد، فأحس بأن قدميه قد بدأتا ترتجفان، وأنهما لم تعودا تقويان على حمله، فارتمى فوق السرير وراح يبكي بحرقة ولوعة؛ كطفل صغير فقد والديه!

لم يعد إلى الفتى وعيه كاملاً إلا عندما وقف أمام رئيسه عندما ذهب في صباح اليوم التالي إلى عمله؛ حيث صاح به متعاطفاً قائلاً:

- يا إلهي... ماذا حدث لك؟! إن وجهك كوجوه الموتى؛ فهل وصلتك أخبار سيئة من الوطن؟!

بقي الفتى واقفاً أمامه صامتاً كالصنم، ينظر إلى موطئ قدميه.

- أراهن على أن عزيزاً لك في الوطن قد توفي... صديقتك الوحيدة هنا في أمريكا توفيت قبل فترة وجيزة... إنني أعرف أنه لا يؤخرك عن عملك سبب بسيط! ونظر إلى الساعة المثبتة على الحائط وأضاف:

- إنك متأخر أكثر من ساعتين! أنت دائماً تصل قبل الوقت المحدد بدقائق.

وتذكر الفتى بأنه كان يقطع شوارع المدينة تائهاً من شارع إلى شارع... على غير هدى ودون اتجاه محدد! وأنه قطع المسافة بين النزل والشركة سيراً على الأقدام، إذ إنه لم يكن يشعر بوجوده ولا بآدميته! وفجأة شعر الفتى بعظم الألم الذي كان يعصر قلبه ووجدانه!

ساعة الغداء قص راكان على رئيسه قصته مع السيدة لويس، وكيف أن موتها أوجع قلبه وأدمى جوانحه؛ فحاول صديقه ورئيسه أن يخفف من ألمه، معلماً إياه بأن هذه هي سُنّة الحياة، وأن كل إنسان لا بد من أن يلاقي وجه ربه يوماً!

*****

لم يكن قد مضى أسبوعان على رحيل السيدة لويس لملاقاة حبيبها الذي طال انتظارها للقائه، ولم تكن دموع راكان قد جفت، ولا نزيف قلبه قد توقف بعد، فإن ما حدث زاد في تعميق جراحاته ومضاعفة أحزانه.

عاد الفتى إلى النزل من عمله بعد الساعة العاشرة بقليل، فأضاء نور غرفة الطعام حتى يستطيع أن يتبين طريقه إلى غرفته عندما رأى إنساناً مستلقياً فوق أحد المقاعد الجلدية، وسرعان ما تبينه فإذا هي الآنسة جين.

لا شك أنه عندما سطع الضوء على وجهها قد أيقظها ففتحت عينيها؛ وبعد أن تبين لها من القادم، عادت وأغمضتهما.

ارتبك الفتى واحمرت وجنتاه خجلاً وبسرعة حول عينيه إلى الجهة المعاكسة، إذ إن ملابسها كانت قد تراجعت إلى الوراء؛ فظهر جزء كبير من فخذيها وسروالها، فقال بأدب مبالغ به وقد علت شفتيه ابتسامة حزن وأسى:

- آسف جداً جداً! أرجو أن لا أكون قد أزعجتك!

- لقد كنت أستريح! أجابت ببطء شديد وهي تحاول أن تحرك لسانها.

- يظهر أنكِ تعبتِ اليوم كثيراً في عملك مما أنهك قواكِ؟!

- كان اليوم يوم عطلتي! قالت وهي تعلك كلماتها بصعوبة وبضيق شديد.

وهنا تطلع الفتى إليها فقد كانت ملقاة فوق المقعد الجلدي كالخرقة البالية، وقد أثار منظرها في قلبه الحزن والشفقة معاً! لقد كان لون وجهها أصفر يعلوه شحوب شديد، كما لاحظ أن نضارة وجهها وحمرة خديها قد فارقتها، وأصبحت كالزهرة التي قُطفت قبل أيام وألقيت أرضاً دون ماء!

عندما فتحت البنية عينيها ثانية، لاحظ الفتى بريقاً مخيفاً يخرج منهما، واحمراراً شديداً وكأنه نار تتأجج في داخلهما، كما ويحيط بهما سواد شديد القتامة! كانت منكوشة الشعر مهلهلة الملابس تفوح من فمها رائحة خمر شديدة.

حاولت أن تنهض متكئة على يديها ولكنها لم تستطع، وأعادت المحاولة لأكثر من مرة ولكنها فشلت؛ وهنا أسرع الشاب لمساعدتها، فاتكأت عليه، واتجه بها نحو سلم الدور الثاني حيث تقع غرفتها؛ ولكنها طلبت إليه أن يأخذها إلى غرفته! رفض الفتى بشدة معلماً إياها بأنه من غير اللائق أن تدخل فتاة غرفة فتى في هذه الساعة المتأخرة من الليل!

- ومن الذي يعرف اللائق وغير اللائق في هذه الدنيا؟! قالت مقاطعة إياه بغضب لاهب وقد شعر الفتى بأن قوة عجيبة وطاقات جبارة قد ولدت في جسمها فجأة!

وقبل أن يقول شيئاً كان قد توجه تحت ضغط جسمها باتجاه غرفته الواقعة ليس بعيداً عن مكانهما، متجنباً جدالها حتى لا يزعج النزلاء.

ألقت بنفسها فوق فراشه وجلس هو على المقعد الموضوع في الجانب الآخر من الغرفة.

بدأت الفتاة تتكلم، تكلمت عن أشخاص ومواضيع وأماكن لا رابط بينها... تكلمت عن أشياء تافهة لا قيمة لها، وأخرى مهمة وحساسة مرت في حياتها... حدثته عن حكايات حدثت لها في حياتها، اعتبرها الفتى القادم من أوطان التابوهات، بأنها سرية وخطيرة جداً أن تبوح بها فتاة لشاب غريب مثله!

كانت تتكلم وهي مغمضة العينين والغرفة تسبح في ظلام دامس، اللهم إلا ما يعكسه ضوء غرفة الطعام خلال فتحة الباب الصغيرة.

لم يفتح الفتى فمه ولم ينبس ببنت شفة، وإن كان يحدق بها من بعيد! كان يستمع إلى كلامها برهبة وخشوع، وقد تصور نفسه وكأنما هو رجل دين أو طبيب نفسي، يستمع إلى اعتراف مذنب اقترف جرماً شنيعاً، ويريد أن يخفف من ثقل هذا الذنب على ضميره!

لقد بقيت الفتاة ما يقارب الساعتين وهي تتكلم وهو يستمع! كانت تتحدث أحياناً بهدوء، وأحياناً أخرى بصوتٍ عالٍ! كانت مرة تبتسم ثم تضحك، وأحياناً تثور وتغضب؛ ثم مرة تبكي وأخرى تفرح، وأحياناً تسكت وكأنما هي تستريح أو تفكر! كان الفتى طيلة الوقت صامتاً لم يفتح فمه! كان فقط يستمع إلى ارتفاع وانخفاض أنفاسها المتلاحقة.

لقد حدثته عن طفولتها وكيف أن والدها هرب تحت جنح الظلام مع امرأة أخرى، وتركها هي وأمها ولا معيل لهما سوى ما تكسبه الأم من العمل في محلات الأكل الرخيصة؛ تاركة الابنة مع جارتها بعد عودتها من المدرسة إلى أن تعود هي إلى المنزل، وكثيراً ما تعود في ساعة متأخرة من الليل!

كما وحدثته عن حداثتها... عن أحلامها وأمانيها... عن طموحاتها وانكساراتها... عن صديقاتها وأصدقائها... وكيف أن الرجال لا يفكرون بشيء إلا المتعة التي يحصلون عليها من جسدها!

لقد أعلمته بأنها كانت دائماً تشعر بأن حياتها كانت خاوية... تعيش بلا هدف...! والويل للإنسان إذا كان عنده هذا الإحساس، إذ إنه يشعر بالضياع والإحباط، ويحس وكأنما هو إنسان ميت! كانت دائماً تهرب من نفسها، لأنها لا تدري ماذا تريد ولا ماذا ستكون؟! كانت تعرف حقيقة واحدة هي أن حياتها جرداء... بليدة... خاملة... وتشعر دائماً بالوحدة القاتلة المميتة؛ كما كانت تشعر بفراغ في قلبها... في عاطفتها... بوجدانها... في روحها... وبكل أحاسيسها!

- كنت أغير مسكني كل بضعة شهور، وكنت أظن في كل مرة بأن مشاكلي ستفارقني؛ وأن عقدي ستحل، وأن السكن الجديد سيخرجني من وحدتي وفراغي؛ ولكنني نسيت أن مشاكلي هي في داخلي... في قلبي... في روحي... في وجداني...! لقد عرفت كثيراً من الشباب، ولكن واحداً منهم لم يدخل قلبي! وهنا ضحكت الفتاة ضحكة المرارة والغضب معاً، ضحكة القهر والإحباط، وأضافت:

- لقد شعرت في أول ليلة أتيت بها إلى هذا النزل... لأول مرة في حياتي... بالراحة و الأمان... وبالجو العائلي السعيد! عندما جلسنا جميعاً حول مائدة واحدة، نتناول طعامنا بمتعة وصفاء! لقد تمنيت في تلك الليلة لو أنك تصبح صديقي، لأن ذلك يجعل حياتي مثيرة وممتعة، إذ أنك شاب مهذب ومؤدب، ويتمتع بجميع ما تطمح المرأة أن تجده في من تحب، وتصورتك زوجاً لي... شيخ عرب... نسكن في خيمة ونعيش بالصحراء، ونركب الجمل! لقد أسعدتني تلك الفكرة كثيراً، حاولت أن أتقرب منك بأن أتودد إليك، ولكنك كنت دائماً بعيداً عني، في قلبك وعقلك ومشاعرك! لقد ظننت أول الأمر بأن السبب هو انشغالك بدراستك وعملك، وكذلك غربتك وبعدك عن الأهل؛ فعزمت على أن أساعدك بأن أخفف عنك بعدك عن الأهل، وأوفر لك كل أسباب الراحة حتى تتفرغ لدراستك، ولم أكن أعرف بأنك كنت مجروحاً من خيانة تلك الغبية البلهاء التي اسمها نيكول!

مرت فترة صمت ليست بالقصيرة خالها الشاب دهراً، وظن أن الفتاة راحت في سبات عميق بعد عناء عاطفي وجسدي مريرين، فعزم أن يوقظها من نومها ويساعدها على الوصول إلى غرفتها، ولكنها فجأة انتفض جسمها،

ووضعت ساقها اليمنى فوق اليسرى واستأنفت كلامها، دون أن تعي إن كان الفتى ما زال مستيقظاً أو أنه قد نام فوق مقعده.

- لقد أسعدني كثيراً، وجعلني أشعر بالزهو والفخر والغرور أيضاً، أول الأمر، اهتمام السيد أدلن بي، وأنا أراه يفعل كل ما بوسعه لراحتي وسعادتي! لقد كنت أظن أن حبه لي هو حب رجل طاعن بالسن لابنته التي ليست من نسله، فيعوضني عن الحب الذي لم أحصل عليه من والدي، فأشعر بسعادة لا أستطيع أن أوصفها لك! سعادة إلهية؛ ولكن سرعان ما اكتشفت خطأي، عندما لاحظت أنه يتنافس مع فرانك، فيغار منه وأحياناً يتشاجر معه! تصور يتشاجر معه متهماً إياه بأنه يحاول أن يأخذني منه؟! لقد عرفت أن حبه لي هو ليس حب أب لابنته، وإنما هو حب رجل لامرأة، فأزعجني هذا الحب، بل أرعبني !

صمتت الفتاة قليلاً، ثم أضافت:

- ما أغباني، كان يجب علي أن أعلمه حال معرفتي بحبه هذا، بأنني لا يمكن أن أبادله حباً بحب، اللهم إلا إذا كان حباً أبوياً، أو أخوياً، أو حتى صداقة بريئة؛ ولكنه لا يريد هذا النوع من الحب! تصور! لقد طلب إلي أن أتزوجه؛ فظننته يهزّر أول الأمر، ولكنني سرعان ما اكتشفت جديته؛ وعندما أعلمته بأن ذلك مستحيلٌ بسبب أنني لا أحبه ذلك النوع من الحب؛ وكذلك بسبب فارق السن بيننا؛ صار يبكي! راكان...! هل رأيت في حياتك رجلاً طاعناً بالسن يبكي؟! أنا لم أرَ إلا في السينما، أعني... حتى ولا في السينما؛ لأن الذين نراهم يبكون نرى دموعهم فقط؛ أما أدلن فكان يبكي بأعلى صوته؛ ولو كنت أنت موجوداً في النزل لكنت سمعت بكاءه، لأن السيدة والسيد أندرسون هرعا من الطابق الثاني على صوت بكائه! لقد هزّ بكاؤه وجداني من الأعماق! لقد كان يبكي ويولول كما كنت أنت تفعل ليلة رحيل صديقتك السيدة جوليت. يا ويلاه! ما أقسى ذلك المنظر! لن أنساه ما حييت!

وهنا شعر الفتى بخجل شديد؛ فوضع يده اليمنى على عينيه، شاعراً بالخزي والعار من نفسه ومن المرأة السكرى الممددة أمامه فوق السرير!

- إنني حتى هذه اللحظة ما زلت أشعر بندم شديد يمزقني! ما كان يجب أن أعلمه برفضي لحبه؛ كان يجب أن أتركه يعيش مع أوهامه وأحلامه في العالم الذي صنعه لي من نسج خياله! ولكن للأسف الشديد جاءتني هذه الأفكار متأخرة... متأخرة جداً! إنني أشعر بشفقة عميقة وبحزن شديد عليه!

"إن مشكلتنا في هذا الكون أننا نولد أحياناً في الوقت غير الملائم، ونجتمع بالناس الذين يختلفون عنا بالمفاهيم والمشاعر! إننا كثيراً ما نحب الشخص الذي لا يحبنا، وقد يكون من الصعب عليه أن يحبنا؛ لأن ذلك الشخص يحب إنساناً هو بدوره يحب إنساناً آخر! هذه هي مأساة الحياة وملهاتها معاً!" قال الفتى الجالس في الظلام فوق المقعد يحدق بالمجهول لنفسه متفلسفاً !

- مسكين أدلن! إنني كلما أتذكر ما قال لي يصيبني جنون مدمر! لقد أعطاني رسالة صباح الأمس وأنا أهم بالخروج من النزل، أن أقرأها عندما أصل مكان عملي! يا لها من رسالة تمزق القلب وتحرق الوجدان! أنا لا أتذكر كلماته بالضبط! فقد كتبها بلغة عاطفية رقيقة... لغة أدبية جميلة جداً! كانت مملوءة بالعواطف المشتعلة والأحاسيس المرهفة! لقد أعلمني بأنه كان ميتاً وحبي هو الذي بعثه حياً من جديد، وأنه يعتبر يوم ولادته هو اليوم الذي قابلني به، وأنني أنا النور الذي أنار ظلمات حياته، وأنه قبل لقائي كان يتخبط في ظلام الحياة ويسير في متاهات التعاسة، وأنني إذا فكرت أن أغادر من حياته فإنه لن يكون له لا سببٌ ولا حافزٌ للحياة، وأنه سيضع نهايةً لحياته! إنني كلما أتصوره وقد فعل بنفسه سوءاً، يتجمد الدم في شراييني! وهنا انفجرت تبكي بهستيريا أشد من السابق.

وكذلك فعل راكان... فقد تجمد الدم في عروقه هو الآخر، وهو يتصور صديقه يؤذي نفسه بأن يضع حداً لحياته، من أجل حب ولد ميتاً... حبّاً من طرف واحد! الله! الله! ما أعجب غرائب الكون!

لقد أحبّ راكان سميحة حبّاً جنونيّاً ، ولم تعرف هي حتى انه ولد ! يالمهازل القدر ومفارقات الحياة !

- إنه لا يعرف أنني كنت قد منحت نفسي لفرانك، وأنني قد وعدته بأن أتزوجه حالما نرتب أمورنا ونحل بعض مشاكلنا! قالتها بحنق وقهر... بإحباط وغضب!

وهنا شعر الفتى بقشعريرة تختلج كيانه وتهزه بعنف، كما شعر بقرف واشمئزاز شديدين، إذ إن عقله الشرق أوسطي، القادم من بلاد المحرمات والممنوعات، لا يقبل أن تمنح العذراء جسدها لرجل قبل أن يقفا أمام رجل الدين!

لقد كان يعتقد أن الآنسة جين تختلف عن كثير من الفتيات الأمريكيات؛ وأنها على قدر كبير من الخلق والتدين، طبقاً لما سمع من كلامها وتصرفاتها! لقد اهتزت صورتها في معتقده... بل سقطت وغارت في الوحل! حقاً... لقد فجع بها وإن لم يكن يحبها!

"اللعنة! اللعنة! لماذا الحياة تغصّ بكل هذه القاذورات والعفن؟! لماذا كلها عهر ودنس؟! هل هي هكذا أوجدها الخالق؟! أم نحن الذين عهّرناها... بُلنا عليها... دنّسناها؟!" تساءل الفتى في نفسه.

- كان فرانك يغازلني دائماً، وكانت مغازلته أول الأمر تضايقني كثيراً، بل وتثير اشمئزازي وقرفي؛ خصوصاً وأنا أعرف أنه كاذب! لقد كان يتبجح ويتشدق بأن كثيراً من الفتيات على استعداد أن يمنحنه كل ما يملكن من مال وأنفس ليكون صديقاً لهن؛ ولكنه كان دائماً يرفض عروضهن بحجة أنه لم يقع في حبهن؛ وأنه لم يشعر بأية عاطفة تشده نحوهن؛ ثم إنهن كن غير جميلات وسطحيات، ورخيصات أيضاً! وقال بأنه وقع في حبي منذ أن رآني ،لأنني أختلف عنهن جمالاً وثقافةً وجديةً؛ وأنه يرى بي أمّاً لأولاده؛ كما وأنه لا يستطيع أن يعيش بدوني... إلى آخر هذا النوع من لطع البقر؛ حتى صدقته! ثم ضحكت بمرارة وغضب وأضافت:

- إن الفتاة منا يسعدها ويشبع غرورها أن تسمع الشاب يطري جمالها ويعلمها بأنها تختلف عن غيرها من النساء؛ كما وأنه ولمدة أسبوعين كاملين، غمرني بالهدايا الغالية الثمينة، وأخذني إلى عدة مطاعم فاخرة، وإلى السينما؛ فكنت أتساءل دائماً من أين له هذه النقود وهو عاطل عن العمل؟! إلى أن اكتشفت أنه كان يأخذها من المسكينة ساندرا مكنمارا.

"رحمك الله يا لويزا لويس... كنت أقول بأن اتهامك لفرانك، بأنه يأخذ نقود من الآنسة مكنمارا هو افتراء ووهم، صورهما لكِ كبر سنكِ وخيالك الجامح!" قال الفتى محدثاً نفسه.

وهنا لم تستطع الاستمرار في البكاء لأن العبرات قد خنقتها، فظن الفتى مرة أخرى أنها ربما راحت في نوم عميق بعد هذا الإجهاد العاطفي؛ وهمّ الفتى أن يوقظها ويطلب إليها أن يساعدها بالنهوض ليوصلها إلى غرفتها، ولكنها، وقبل أن يفعل، استأنفت كلامها من جديد، وقالت من بين دموعها ونهنهاتها:

- وبسبب كلامه المعسول وكرمه المبالغ به وأحلام المستقبل التي كان يحدثني عنها وكيف أننا سنبني عشنا الزوجي؛ صدقته فوقعت بحبه، وشعرت بأننا نعيش في شهر عسل! قصة حب رائعة! وعندما تأكد له ذلك طلب إليّ أن أقرضه بعض النقود فأعطيته بكرم وسخاء، وصرت أنا التي تدفع للمطاعم والتي تشتري له الهدايا، حتى نفد معظم ما ادخرته من نقود.

وهنا نهضت الفتاة مستندة، وكأنما نخزها أحدهم بمخرز، فقالت بغضب وثورة وهي تهدر وكأنما تلقي خطبة بمظاهرة جماهيرية حاشدة:

- أقسم لك يا راكان أنني ذهبت معه ذلك الصباح إلى البنك، وسحبت له آخر دولار في حسابي، وأقسم لك ثانية، بأنني رأيته ذلك المساء، نعم، ذلك المساء، ويده تلف خصر امرأة، أعرفها جيداً؛ تمنح جسدها لكل سائل، وهما يدخلان أحد المطاعم التي طالما دعوته إليها!

وفجأة، وبدون إنذار، وكالزوبعة، وكأنها لم تكن مخمورة من قبل، نهضت الفتاة من على الفراش، ووقفت كالمارد في وسط الغرفة، وحتى دون أن تنظر إلى راكان، فتحت باب الغرفة بطاقة غير معقولة، وبغضب مجنون، وخرجت دون أن تنطق بحرف، وقبل أن تكمل قصتها! بعدها وصلت إلى سمع الفتى وقع خطواتها وهي تضرب أرض القاعة، ثم تصعد درجات السلم، وصوت قدميها كأنها مهدّات تدك الأرض!

نهض الفتى وأغلق الباب خلفها، وعاد إلى مقعده دون أن يضيء النور، وراح في تفكير عميق!

طلع النهار وحان وقت استيقاظه ليعد نفسه ويذهب إلى عمله، وهو ما زال مسمّراً فوق مقعده يفكر بمفارقات الحياة العجيبة الغريبة! كان يفكر بالقدر الذي يرسم خطى الناس ويتحكم بمصائرهم؛ ثم يوزع أدوارهم بالحياة، وكأنهم ممثلون على خشبة مسرح، يعطي كلاً دوره؛ ومع كل هذا يعتقدون أنهم مخيّرون وليسوا مسيّرين! وأنهم هم أنفسهم يصنعون أقدارهم ويتحكمون في مصائرهم!

وهنا تذكر الفتى الفيلسوف الإغريقي العظيم، "أبكتيتص" وهو يقول: "بأننا في هذا الكون كأحجار الشطرنج، يسيّرنا القدر كما يشاء، ويرسم أدوارنا كما يريد، وليس باستطاعتنا أن نعترض ولا أن نفعل شيئاً! " الله! الله! رب يعبد! حقّاً إنّه رب يعبد!

طيلة الوقت الذي كان ينتقل به راكان بين أقسام الشركة صباح اليوم التالي، بطوابقها الثلاثة، لينقل إلى قسم التغليف ما تجمع فيها من مشتريات لتغليفها وتسليمها إلى أصحابها؛ وسؤال واحد يلح عليه، لماذا بحق السماء يختاره أصحاب المآسي في هذه الحياة من بين عشرات الذين حولهم، ليقصّوا عليه مآسيهم وعذاباتهم؟! ألأنه غريب ممزق، أم لأنهم يلاحظون على وجهه، ويقرؤون في عينيه آلام الوحدة وعذابات الضياع؟! نعم! بحق السماء؛ لماذا؟! لماذا؟!

*****

وأخيراً وبعد معاناة مبرحة وسهر ليالٍ طويلة ومضنية، حلت ليلة عيد الميلاد، فأغلقت الشركة أبوابها ولأول مرة منذ أسابيع، في تمام الساعة السادسة مساءً! لا شك أن كثيراً من الناس قد تنفسوا الصعداء، وانزاحت عن ظهورهم وقلوبهم أثقال عانوا منها لمدة شهرين كاملين، فلقد أُفرغت المخازن من محتوياتها، ونفدت النقود من جيوب أصحابها؛ وتوقف شراء الهدايا؛ وصار الناس يعطون ويأخذون !

لقد طلبت إدارة الشركة، التي يعمل بها راكان، إلى جميع رؤساء الأقسام أن يسجلوا أسماء المستخدمين لديهم، والذين يرغبون في مواصلة العمل حتى منتصف الليل؛ لينزعوا الزينات والزخارف وليلقوا بها في حاويات القمامة، والتي أمضى مختصون أياماً طويلة يزينون بها كل بقعة داخل الشركة، بمناسبة أعياد الميلاد المجيدة، والتي كلفت مجهوداً وأموالاً ضخمة لإقامتها!

على الرغم من أن وضع راكان الصحي كان متدنياً جداً بسبب ساعات العمل الطويلة والمرهقة، طيلة الشهرين الماضيين، وكذلك كانت معنوياته ووضعه النفسي في الحضيض، بسبب فقدان الأحبة وبُعد الأهل؛ إلا أنه فرح فرحاً عظيماً عندما سأله رئيسه وكذلك صديقه بروس إن كان يحب أن يعمل حتى منتصف الليل! لم يكن سبب فرحته هي الدولارات الزائدة التي سيكسبها من عمل هذه الساعات الستة، وإنما حتى لا يقضي ليلة عيد الميلاد في غرفته؛ وحيداً... حزيناً... يجتر أحزانه وتمزقه ذكرياته !

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل بقليل عندما نزل راكان من سيارة صديقه بروس أمام النزل؛ وعندما فتح باب غرفته وجد ورقة صغيرة من السيدة أندرسون تتمنى له هي وزوجها عيداً سعيداً، وكذلك تعلمه بأن السيد أدلن مريض جداً، ويرغب في رؤيته عندما يعود مهما كان الوقت متأخراً !

كانت غرفة السيد أدلن تسبح في بحر من الظلمة، وقد أمضى الفتى بضع دقائق متردداً، فيما إذا كان من الواجب أن يحقق رغبة صديقه، أو أن لا يزعجه ويتركه نائماً ويزوره في الصباح، ولكنه تذكر أنه كان قد عقد العزم على أن يمضي طيلة يوم عيد الميلاد في فراشه وكذلك الليلة التي تليها؛ ولا يغادر فراشه إلا في صباح اليوم التالي عندما يكون موعد ذهابه إلى عمله.

حمل الفتى الهدية التي اشتراها لصديقه، وقرع باب غرفته نقرات خفيفة جداً؛ وكم كان سروره عظيماً عندما وصل إلى أذنيه صوت صديقه، وإن كان ضعيفاً وكأنما هو آتٍ من أعماق القبور؛ يطلب إليه أن يدخل؛ إذ تأكد للفتى بأن صديقه لا شك كان ينتظره، وأنه لم ينمْ بعد؛ ولكن فرحة الفتى فارقته فانقبض قلبه وكأنما يداً قاسية قد أطبقت عليه، فقد كان الراقد في الفراش كومة من العظام، وكانت عيناه غائرتين في محجريهما!

- آسف جداً يا صديقي لعدم مجيئي لزيارتك قبل الليلة! لم أكن أعرف أنك مريض، ثم إنك تعرف أنني أعمل حتى ساعة متأخرة من الليل! وجد راكان نفسه يقول والألم يعصر قلبه !

شعر الفتى بتفاهته وضحالة قوله؛ وكره ذاته، واحتقر وجوده؛ وتمنى لو أن الأرض تبتلعه، فقد شعر فجأة بتأنيب محرق من ضميره! لقد أدرك بأنه قصّر بحق صديقه، وأنه لا يمكن أن يسامح نفسه!

انتظر أن يقول صديقه شيئاً، ولكن مدة ليست بالقصيرة مضت ولم تفتح كومة العظام فمها؛ فابتلع الشاب ريقه وأدار لسانه بفمه ومصمص شفتيه، وقال ليبدد هذا السكون الرهيب:

- لقد مضت مدة طويلة لم أرَ خلالها أحداً من سكان النزل، وذلك بسبب خروجي المبكر صباحاً وعودتي المتأخرة ليلاً! لقد كان الشخص الوحيد الذي رأيته صباح الأمس وبطريق الصدفة هو السيد أندرسون، وهو الذي أعلمني برحيل الآنسة جين؛ إذ لولاه لما كنت عرفت برحيلها حتى الآن! إنك تعرف كيف أن المتاجر في مثل هذا الوقت من السنة تفتح أبوابها لساعات طويلة، وأن لا همّ للناس إلا الشراء وتقديم الهدايا! بالمناسبة كل عام وأنت بخير؛ كما وأنني قد أحضرت لك...

وقبل أن يُنهي الفتى جملته، انفجر كومة العظام يبكي بأعلى صوته... صوت تردد صداه وكـأنما يضرب جدران الغرفة الأربعة؛ وبحرقة ولوعة إنسان فقد كل ما يمت له بصلة من مخلوقات وممتلكات في هذه الحياة...!

لم تدم فترة بكائه طويلاً وصمت؛ وكما أن فترة بكائه كانت قصيرة كذلك كانت فترة صمته، إذ لعله فكر بعظم مأساته فانفجر يبكي من جديد؛ ولكن هذه المرة بصوت أعلى وبحرقة أشد!

احتار الفتى ما عساه يفعل؛ فقد كان منظر كومة اللحم التي تنوح يمزق القلب، ويحرق الدم ويدمر الوجدان؛ ووجد أن عبارات التعزية، في هذا الوضع المأساوي، ومهما كانت حارة ومخلصة؛ فإنها كلمات جوفاء لا تأثير لها ولا شفاء فيها!

لم يستطع الفتى أن يكبح جماح عواطفه المتأججة وأحزانه الممزقة، فقد وجد نفسه يشارك صديقه بكاءه! كان يبكي بصمت فإنه لا يريد أن يسمعه صديقه فيشجعه على البكاء!

لم يتوقف السيد أدلن عن النحيب، ولم يتوقف جسمه عن الارتجاف، وكذلك لم تكف دموع الفتى عن النزول، ومرت فترة ليست بالقصيرة خالها الفتى ساعات طويلة، عندما بدأ هو الآخر جسمه يرتجف وكأنما أصابته بردية شديدة! وهنا شعر راكان بضيق في تنفسه وأنه يكاد يختنق، فوضع الهدية على الطاولة وخرج يجري على عجل!

لا يعلم إلا الله وحده كم حزن راكان وقاسى تلك الليلة؛ فلقد عمّقت دموع صديقه جروحه التي ما زالت تنزف، وهيّجت ذكرياته التي ما زالت تعصف به ولم تتوقف بعد! لقد كان يتمزق تارةً حزناً على فشل صديقه في حبه؛ وتارةً أخرى يبكي على فشله هو نفسه! لقد منحا، الاثنين، قلبيهما وروحيهما وعواطفهما، وكل كيانهما ووجدانهما لمن أحبا، وحصد الاثنان الخيبة والفشل والدموع! لقد كان الأول ضحية عدم النضج العقلي والعاطفي، وكان الثاني شهيد الاستهتار وعدم الشعور بالمسؤولية الأخلاقية!

*****

الفصل الثالث والعشرون

أعلم بروس صديقه راكان بأن رفيقةً له من الحزب الاشتراكي، تنوي إحياء حفلة عيد رأس السنة الميلادية في منزلها بمدينة لوس أنجلوس، وأنها دعته هو وحوالي الخمسين شخصاً من أعضاء الحزب وخارجه؛ وقد سألها بروس إن كان يستطيع أن يحضر معه صديقاً له؛ طالباً أجنبياً من وراء البحار؛ فرحبت المرأة وطلبت إليه أن يدعوه باسمها !

فرح الفتى فرحاً عظيماً، إذ أنه وغنيّ عن الذكر بأنه يحزنه بل يرعبه أن يقضي ليلة عطلة، سواء أكانت عطلة دينية أو اجتماعية، مسجوناً في غرفته وليس معه أحد.

- ولكنني وكما تعرف، لا أتناول المشروبات الكحولية؛ وأعرف أنه في هذه الليلة يشرب الناس كثيراً، وكثيراً جداً! وجد الفتى نفسه يقول.

- ومن قال لك بأنك يجب أن تفعل؟! أنت تعرف أنني لا أتناولها أنا أيضاً؛ هناك الكثيرون الذين لا يشربونها، وإن شربوا فكأساً صغيرة! وبعد أن صمت قليلاً أضاف:

- ثم إن الذي يشرب الكحول عليه أن يحضر معه ما يشرب.

- لا أفهم ما تعني؟! سأل الفتى وقد هزّ رأسه يمنة ويسرة، وكأنما ليطرد غباءه أو لكي يستوعب ما يقوله صديقه، إذ أنه لم يسمع بعد عن أناس يحضرون مشروبهم معهم إلى منزل داعيهم !

- فقط الأغنياء هنا، هم الذين يقدمون الطعام والمشروب لضيوفهم لمثل هذا العدد الضخم من الناس! الأغلبية الساحقة يقدمون بيوتهم فقط، وربما المرطبات أيضاً وأحياناً الطعام ! المشروبات الروحية يحضرها المدعوون معهم! قال بروس موضحاً.

- آسف لجهلي! عندنا في الوطن، صاحب الدعوة هو الذي يقدم كل شيء، والمدعوون لا يحضرون معهم شيئاً؛ إذ أن هذا معيب جداً! توقف الفتى للحظة ثم أضاف:

- إذا كان لا يستطيع أن يقدم لهم كل شيء؛ فلماذا يدعوهم أصلاً؟! سأل راكان.

- هذا لأن كل سكان وطنك الكبير أغنياء وكرماء! قالها بروس وأتبعها بضحكة.

- من الصعب على عقول القادمين من بلاد النخوة والمروءة أن يتقبل ما تقوله! إنهم يعتبرون ذلك عيباً! قال راكان وهز كتفيه استهجاناً، ثم أضاف بعد أن بلع ريقه:

- لا تقل لي بأننا يجب أن نحضر أكلنا معنا! قالها الفتى وهو لا شعورياً يريد أن يسخر من هذه العادات، التي من الصعب على ثقافته الشرق أوسطية أن تتقبلها.

- نعم، ندفع ثمن أكلنا؛ ولكننا لا نحضره معنا.

فتح الفتى فمه على وسعه وحملق مشدوهاً بعينيه وقد تجمدت الكلمات فوق شفتيه.

- ولم تستغرب ذلك؟! سأل الصديق.

- وهل نطبخ أكلنا ونحضره معنا؟! سأل الفتى ساخراً.

- الأكل لا نحضره معنا، ولكن كل واحد من المدعوين يتبرع بما تجود به نفسه من نقود. صاحبة الدعوة، عادة، توصي أحد المطاعم على طعام يكفي لعدد المدعوين، أو تشتري هي لوازم الأكل وتطبخه بنفسها، أو تهيء هي جزءاً منه كالمقبلات والسلطات.

- صدقني إنها فكرة جيدة، وإن كان من الصعب على ثقافتي العربية أن تتقبلها. توقف الفتى للحظة ثم أضاف:

- إنها تشجع الناس على قبول دعوة الآخرين، وتشجع الآخرين على دعوة أصدقائهم!

- إنه من غير المعقول أن تتحمل ميزانية إنسان متوسط الدخل إطعام خمسين شخصاً! إنه كثيراً ما يجتمع زملاء من الجنسين، في بيت أحدهم أو حتى في حديقة عامة، ويتحدثون في أمور دينية أو سياسية، ويحضر كل واحد منهم طعامه وشرابه! الغاية هي التجمع، أن يكون الناس معاً، ليشعروا بروح المشاركة الجماعية!

- أعتقد أنها فكرة رائعة!

"ليت مجتمعنا العربي يتقبل مثل هذه الأفكار، فهي تبسط الحياة كثيراً، وتجنب الكثيرين من الناس إحراجات وأزمات!" قال الفتى بنفسه.

- ومتى نذهب إلى هناك؟! سأل الفتى صديقه.

- نكون هناك بحدود الساعة التاسعة! ننصرف من العمل الساعة السادسة، أوصلك إلى مسكنك، وتهيء نفسك وأمر عليك لآخذك بحدود الساعة الثامنة.

- رائع! سأكون وقتها بانتظارك؛ وهل تريدني أن أحضر معي شيئاً؟!

- فقط أحضر المبلغ التي تريد أن تتبرع به! ضعه في مغلف وأغلقه! لا تقل لي ولا لأحد غيري كم هو المبلغ الذي تجود نفسك به! في العادة يضعون وعاءً ويسقط به كل إنسان ما تجود به نفسه؛ كلٌ حسب قدرته، قد يتبرع أحدهم بدولار واحد فقط، وقد يتبرع آخر بعشرين أو ثلاثين دولاراً؛ وربما أكثر أو أقل، المهم هو روح المشاركة والعطاء!.

"نعم، هذا ما ينقصنا في الوطن العربي الكبير، روح المشاركة وروح العطاء؛ وليس روح المفاخرة والمباهاة!" قال الفتى محدثاً نفسه.

قبل حلول الساعة الثامنة بوقت ليس بالقصير، كان راكان جالساً في غرفة الجلوس بكامل ملابسه وتمام زينته؛ ينتظر قدوم صديقه بروس ليبدآ رحلة سعيدة! رحلة ليلة رأس السنة الميلادية.

قالت السيدة أندرسون بصدق وحرارة لاحظهما راكان في كلامها عندما دخلت هي وزوجها من باب النزل الرئيسي، ورأت الفتى مرتدياً ملابس الخروج، وبعد أن أعلمها بأنه مدعو إلى حفلة رأس السنة في مدينة لوس أنجلوس، وينتظر قدوم صديقه بلهفة وحرارة.

- صدقني يا راكان أنني سألت الله من أعماق قلبي أن تدعى الليلة إلى حفلة رأس السنة؛ لأنني كنت سأحزن كثيراً لو عرفت أنك ستقضيها لوحدك في غرفتك! إننا ذاهبان –زوجي وأنا- لنقضي الليلة عند والدتي، إذ لا نحب أن نقود السيارة وقد تناولنا بعض المشروبات الكحولية لنعود إلى هنا، وشقة والدتي صغيرة جداً؛ لا تكاد تتسع لنا نحن الثلاثة!

- شكراً لك يا سيدة أندرسون! أنت عظيمة وذات قلب كبير! صدقيني إنني كلما أتحدث إليك؛ أتذكر أختي الكبيرة أميرة، فأشعر بالسلام والهدوء والاطمئنان!

- نحن جميعاً في هذا النزل، نحبك ونحترمك كثيراً يا راكان! أنت شاب لا يملك الذي يعرفك إلا أن يحبك ويحترمك! ولقد ناقشنا، زوجي و أنا،أخذك معناالليلةوندعك أنت تنام على الصوفه وننام نحن على الأرض ! قال الزوج هو الآخر بحرارة وصدق أحس بهما الفتى.

- إن قولكما يسعدني كثيراً! وشكراً لكما! وأتمنى لكما سنة جديدة كلها خير وبركة وسعادة ، عليكما وعلى جميع من تحبان! إن صداقتكما تشرفني كثيراً، إنكما زوجان مثاليان! قال الفتى وهو يغض بطرفه خجلاً.

- بالمناسبة أنت جميل جداً يا راكان، ولا شك أن الفتيات الليلة سيتهافتن عليك لترقص معهن! حاول أن تختار لك واحدة منهن لتكون لك صديقة! قال الزوج وأتبعها بضحكة.

- هل لاحظت يا عزيزي بأن راكان قد فقد كثيراً من وزنه؟! لقد كانت صحته أحسن كثيراً عند أول قدومه إلى النزل! قالت الزوجة شبه حزينة.

- لا تقلقي، سيسترد عافيته عندما يقابل الفتاة التي تحبه! قال الزوج يطمئن زوجته.

أدرك الفتى بأن الزوج لا شك يشير إلى حادثة تلك الليلة وحبه الفاشل ليقول ما قال!

- وهل ستقضيان الليلة في لوس أنجلوس؟! سألت الزوجة، ولكنها قبل أن يجيب الفتى أضافت:

- من الخير لكما أن تقضيا الليلة حيث أنتما ذاهبان! ستحدث كثيرٌ من الاصطدامات الليلة بسبب أن السائقين يسوقون وهم ثملون.

- اطمئني، لا أنا ولا صديقي نشرب الخمر! أعتقد أننا سنعود إلى باسدينا بعد الحفلة! قال الفتى بفخر جاهلي.

- إذن ستكونان، أنت والسيد أدلن، الوحيدين الليلة في النزل.

- وأين البقية؟!

- فرانك ذهب منذ صباح الأمس لقضاء ليلة رأس السنة عند والدته في مدينة "سانتي ياقو" والآنسة مكنمارا ذهبت هي الأخرى إلى مدينة "بيكرزفيلد" لنفس الغرض، هؤلاء كل سكان النزل بعد وفاة السيدة لويس ورحيل الآنسة جين.

- بالمناسبة؛ كيف السيد أدلن؟! أظن يجب أن أبارك له بالعام الجديد، وهل أحضر له أحدهم طبيباً؟!

- حالته سيئة جداً! من الخير أن لا تدخل غرفته؛ إذ أنه كلما رأى أحدنا يجهش بالبكاء ولا يقول شيئاً! على كل حال، لقد جاءه بالأمس أناس من كنيسته، وقالوا بأنهم سينقلونه إلى بيت للعجزة، بعد عطلة رأس السنة، ربما بعد غدٍ.

- معلومة صغيرة لك يا راكان، لقد سألت إن أحضر أحدهم طبيباً إلى السيد أدلن! هنا في أمريكا لا يحضرون للمريض طبيباً، وبعد أن يفحصه يكتب له الدواء! هذا يحدث في كل بلاد العالم، أما هنا في أمريكا فإما أن يؤخذ المريض إلى عيادة الطبيب أو المستشفى أو العيادات الخارجية، أو أن يطلب له الإسعاف! قال الزوج وهو يضحك.

- سبحان الله... كل شيء في أمريكا يختلف عن بقية بلدان العالم! العادات... التقاليد... التفكير... نظام الحكم... التصرف... الـ... وهنا سمع راكان منبه سيارة صديقه بروس، فاعتذر للزوجين وتمنى لهما سنة سعيدة وخرج مهرولاً.

عندما وصل الشابان إلى موقع الاحتفال، كان المكان غاصاً بالمدعوين، وكانت الموسيقى تجلجل في جنبات البيت وتهدر؛ والراقصون والراقصات كأنهم شياطين هائجة ركبتها عفاريت محمومة مسعورة، تقفز إلى الأمام وإلى الخلف تارة، وإلى اليمين ثم إلى الشمال تارة أخرى.

كان هناك عدد غير قليل يجلسون حول قاعة الرقص، يحمل كل منهم كأسه المترعة بشتى أنواع المشروبات الروحية؛ يرقبون الراقصين تارة ويتحدثون إلى الذين بجانبهم تارة أخرى، ولكن بعد أن يضع فمه بأذن جاره حتى يستطيع سماعه، بسبب صخب الموسيقى المزلزل.

قدم بروس صديقه لجميع الحضور وكذلك قدم الجميع له، حيث تأكد له بأن صديقه يعرفهم جميعاً معرفة جيدة جداً؛ والذي أثار استغراب راكان إن كل واحد منهم حفظ اسمه، بينما هو لم يحفظ اسم واحد منهم، مما فسره بروس فيما بعد، وهو أن المقطع الأول من اسمه العربي شائع جداً في أمريكا، إن راكان لا يُعرف باسمه كاملاً وإنما بالجزء الأول منه فقط!

كان البيت قديماً جداً، والبيوت التي بنيت قديماً في أمريكا كبيرة وواسعة، وذلك بسبب رخص الأرض ورخص مواد البناء في ذلك الوقت؛ ولهذا السبب استوعب البيت أعداداً ضخمة من المدعوين والمدعوات!

جلس راكان وبروس مع الجالسين الذين يرقبون الراقصين، ولكن الذي أفرح الفتى وجعله يشعر بأنه مرحب به حقاً، هو أن كل واحد أو واحدة منهم، عندما ينهض ليذهب إلى المطبخ ليملأ كأسه من ما أحضر معه من المشروبات الروحية، يسأل راكان بصدق وحرارة ولا يسأل بروس، إن كان يجب أن يحضر له معه كأساً مما يشرب هو، بعد أن يعلمه نوع المشروب الذي يتناوله!

لقد أدرك راكان بأنهم لا يعرضون على صديقه لأنهم يعرفون جيداً، ومن طول المعاشرة، بأنه لا يتناول المشروبات الروحية لسبب صحي؛ أما راكان فقد كان يعتذر لهم بأنه لا يتعاطى المشروبات الروحية إطلاقاً، حتى أن إحدى المدعوات كانت جريئة وسألته، إن كان السبب دينياً أو صحياً، فأجابها الفتى بجرأة وشجاعة وكأنما يتحداها ويتحدى مجتمعها؛ شجاعة استغربها هو نفسه:

- الاثنين معاً! فهزت رأسها يمنة ويسرة ومطت شفتيها وهزت كتفيها!

شيء واحد أثار استغراب الفتى وهو أنه ولا واحد من الحضور، باستثنائه هو وصديقه، كان عمره دون الثلاثين، وإن كان معظمهم قد تجاوزوا سن الأربعين! لقد أزال بروس حيرة صديقه فأعلمه السبب.

- الشباب الذين في مثل عمرينا لا يقضون عيد ليلة رأس السنة مع أمهاتهم وآبائهم وأجدادهم وجداتهم، ومعظم الحضور ينطبق عليهم هذا الوصف، إذ إنهم يقضونها مع من يحبون في مثل أعمارهم في النوادي الليلة والأماكن العامة، بعيدين عن من هم أكبر منهم من ذويهم، يشربون ويدخنون و... و... إلخ.

فجأة نهضت امرأة مربوعة تميل إلى السمنة ولعلها تجاوزت الخمسين عاماً من عمرها، وأعطت كأسها إلى رجل ليمسكها لها، لعله زوجها أو صديقها، وقد كانا يتحدثان بآذان بعضهما بين فترة وأخرى بسبب صخب الموسيقى، ومدت يدها إلى بروس وقالت:

- تعال وارقص معي! فناول بروس صديقه راكان كأس المرطبات ودخلا قاعة الرقص.

كانت المرأة ترقص بجنون ووحشية، وكانت الأرض تتأوه تحت أقدامها وكأنما ترجوها أن تتلطف بها وترحمها! لا شك أن المرأة كانت راقصة ماهرة عندما كانت صبية! لقد شعر راكان بأن ناراً تشتعل في جسمها وأن شرراً يتطاير من عينيها. إنه ولا شك صخب الموسيقى! أما بروس فقد كان بالكاد يحرك قدميه، إذ خيل للفتى بأن صديقه لا شك راقص ضعيف... ضعيف جداً؛ مقارنة مع هذه العفاريت التي تقفز كالشياطين!

فجأة توقفت الموسيقى الصاخبة ووضعت بدلاً منها موسيقى ناعمة حالمة، فتوقف الذين كانوا يتقافزون كالسعادين وينطنطون كالقردة، فأبطأوا في خطاهم، كما وتشجع بعض الجالسين، هكذا شعر راكان، ونهضوا وانضموا إلى من في باحة الرقص! وكذلك، فإن الذين كانوا يرقصون قد عانقوا راقصيهم فنام بعضهم على صدور بعض، ووضع البعض الآخر خدودهم على خدود بعض وراحوا يحلمون!

- هل لك يا عزيزتي روزال أن تأخذي راكا وترقصي معه؟! إنه لا يمكن أن يظل طيلة الليل يرقب الراقصين دون أن يشارك في الرقص.

سمع راكان رجلاً ضخم الجثة في حدود الخمسين من عمره، يدخن سيجاراً ثخيناً جداً، لا شك أنه من النوع الثمين، وبيده كأسٌ مترعة من الويسكي والثلج، يخاطب المرأة الجالسة بينه وبين راكان، والتي تتمتع بقدر لا بأس به من الجمال والرشاقة؛ طويلة القامة نحيفة العود !

انتفض الفتى في مقعده وجدّته موجة من العرق الساخن , وهمّ بفتح فمه ليشكر المتكلم؛ ولكنه قبل أن يفعل ذلك كانت المرأة قد وضعت كأسها على الطاولة أمامها، وأخذت كأس راكان منه ووضعته إلى جانب كأسها، ومدت يدها نحو الفتى وكأنها الرجل يتقدم من فتاة لتراقصه.

وجد الضيف نفسه ينقاد لها، وهو يتعثر في مشيته مرتبكاً، وينظر إلى مقدمة حذائه خجلاً، وعندما دخلا حلبة الرقص، كانت هي البادئة في تطويق خصره!

- إنك خجول جداً! لم أنت مرتبك ومتوتر؟!

- إنني لا أعرف أن أرقص ! قال راكان وهو يحاول أن يرطب شفتيه الجافتين بلسانه الجاف أيضاً.

- لا تقلق! سأقودك أنا! فقط اتبع خطواتي وحركاتي! قالت بثقة وحزم وجرأة أذهلت الفتى!

نفّذ الفتى ما طلبته منه المرأة، وما هي إلا فترة قصيرة حتى فارقه توتره وقلقه، وصار يشعر بمتعة فائقة ولذيذة وهو يعانق أستاذته الفاتنة !

- إن كالونيا الحلاقة التي تستعملها ذات رائحة محببة ومنعشة! قالت المرأة وهي تبتسم.

- شكراً... والعطر الذي تستعملينه تنعش رائحته وتفرح القلب! قال الفتى وهو يتجنب النظر إلى عينيها.

- أليس لك صديقة؟!

- كان لي ثم ماتت! وجد لسانه يقول.

- آسفة أن أسمع ذلك، تعازيّ الحارة، وكيف ماتت؟!

- في حادث سيارة! مرة أخرى وجد الفتى لسانه ينطلق بغير إرادة منه.

- ومرة أخرى تعازي الحارة! يحزنني أن أسمع ذلك! أنت شاب وسيم جداً وتبدو عليك الجدية الزائدة، ستقابل يوماً من تعوضك عنها.

- شكراً! وهل الرجل الذي طلب إليك أن ترقصي معي زوجك؟!

- تعني ديفيد؟! ليس بالضبط.

- ماذا تعنين؟!

- هو أب أولادي، صار لنا نعيش معاً كزوج وزوجة ما يزيد عن اثنين وعشرين عاماً، ولكن دون عقد زواج! عندي منه بنت عمرها عشرون سنة، وولده عمره ثمانية عشر عاماً.

- وهل تحبان بعضاً؟! وجد الفتى لسانه يقول.

- كثيراً؛ لم أخدعه يوماً، ولا أعتقد أنه فعل.

- وما الحكمة من عدم عقد زواج؛ إذ إن هذا هو شرع الله في جميع الأديان السماوية؟!

- بعض النساء يعتقدن أنهن بهذه الطريقة يستطعن التخلص من الرجل بسهولة في حالة عدم انسجامها معه، فيجنبها مشاكل المحاكم والطلاق؛ وكذلك فإن بعض الرجال يعتقدون أن هذه أسلم طريقة ليتخلص من دفع نفقة في حالة الطلاق، وليحمي ممتلكاته من مقاسمة الزوجة له، إذ إن القانون هنا يعطي الزوجة نصف ما يملك زوجها في حالة الطلاق، وأحياناً أكثر من النصف.

سكتت المرأة للحظات ثم أضافت:

- على كل حال، لقد عزمنا مرتين أن نعقد قراننا أمام رجل الدين، ولكن حدث ما عطل ذلك.

- وهل يجوز الآن؟! سأل الفتى وقد حملق مشدوهاً بالمرأة.

- الآن وغداً وآخر العمر! تحب المرأة أن تلبس فستان الزفاف متى استطاعت! أعرف أن امرأة تكللت هي وابنتها في يوم واحد.

"حقاً إن أمريكا بلد العجائب والغرائب، ما يحدث بها لا يحدث في بلد آخر، العالم الجديد وكل شيء جديد!" قال الفتى لنفسه.

وفجأة تذكر راكان وكأنما أفاق من حلم لتوه، لقد تذكر بأن صديقه بروس عندما قدمه لزوج المرأة التي يراقصها بأنه هو مساعد مسؤول الحزب الاشتراكي في جنوب ولاية كاليفورنيا، لقد تذكر مركزه ولكنه لم يتذكر اسمه.

لمح الفتى إلى ساعته فوجد أن بينهم وبين منتصف الليل حوالي الثلاثين دقيقة فقال لرفيقته:

- يجب أن نعود إلى أماكننا إذ لا شك أن زوجك تواق الآن لأن يقضي الدقائق المتبقية من العام القديم بين ذراعيك!

انفجرت المرأة تضحك وبدت أسنانها الناصعة البياض وكأنها كومة من اللآلئ والزبرجد أيضاً، وقالت:

- لم أقابل رجلاً من قبل تجتمع به الوسامة ودماثة الأخلاق وكذلك البلاغة، على كل حال دعنا نعود! قالت ذلك وأسقطت يديها من على كتفه حول خصره، وتوجها إلى حيث يجلس الزوج.

انحنى راكان احتراماً وهو يجلس المرأة في كرسيها، ثم توجه بعد ذلك إلى حيث يجلس الزوج وشكره لأنه سمح لزوجته أن ترقص معه.

- هل رأيت يا ديفيد كم راكان مؤدب وصاحب إتيكيت؟! قالت المرأة لزوجها وهي تتضاحك، ثم أضافت:

- لقد طلب إلي أن نعود، لأنك لا بد وأنك تريد أن أقضي الثلاثين دقيقة المتبقية من السنة بين ذراعيك! انفجر الرجل يضحك وأضاف:

- لقد حدثني بروس عنه كثيراً... عن شهامته وطيبة قلبه وكرمه ورقة مشاعره، وأخبرته بأن يطلب إليه أن ينضم إلى حزبنا ولكنه رفض. وضحك الرجل وأضاف:

- يقول بأن جميع أعضاء الأحزاب منافقون ولا يخدمون إلا مصالحهم الخاصة.

- هذا ما أعتقده في أحزاب وطننا العربي الكبير، كلهم انتهازيون ومدعو حب الوطن، ولا يحبون إلا أنفسهم ومصالحهم ! القليلون جداً جداً تهمهم مصلحة الوطن والمواطن.

- الوضع يختلف هنا يا بني! قال الرجل.

- راكان أعلمني بأن له تجارب سيئة في أحزاب وطنه! قال بروس الذي عاد هو الآخر من حلبة الرقص.

لم يعلق الفتى وإنما هزّ رأسه ومطّ شفتيه.

قبل حوالي عشرة دقائق من تعانق عقربي الساعة منتصف الليل، وقفت المضيفة وقالت من فوق مكبر الصوت:

- سأحزن كثيراً إذا دخل العام الجديد ولم أرَ كل واحد من الحضور، أقول كل واحد، لا يعانق شريكه ولا يتواجد في حلبة الرقص! لا أحب أن أرى واحداً منكم جالساً أو واقفاً متفرجاً، أريد كل واحد أن يستقبل العام الجديد مستبشراً فرحاً راقصاً! أرجوكم أن تحققوا لي هذه الرغبة! قالت المرأة شبه متوسلة.

وهنا أخذ زوجها أو صديقها مكبر الصوت منها وقال وهو يضحك:

- الذي ليس له شريك يستطيع أن ينضم إلى أي زوجين يرقصان؛ فنحن أخوة وأرجو أن لا يتضايق اثنان إذا انضم إليهما ثالث!

وهنا نهض جميع الجلوس دون استثناء ودخلوا حلبة الرقص، وكذلك فعل الواقفون؛ أما راكان فاحتار ماذا يفعل، إذ وقف وصار يحملق بالراقصين ويفكر إلى أي زوجين سينضم، ولشدة دهشته، لم يرَ إلا وروزال تخطفه من يده وتدخله الحلقة وتدور به مع الراقصين.

كانت الموسيقى في هذه الرقصة صاخبة وسريعة، كالموسيقى التي كانت تعزف عندما دخل هو وبروس، وكان الجميع يدورون حول بعضهم البعض، وكأنما هم شياطين يقفزون ويتسابقون!

بعد دقائق قليلة توقف زوج المضيفة وقال وهو يلهث:

- استعدوا الآن... واحد... اثنان... ثلاثة... وما كاد ينتهي من قوله ثلاثة حتى أطفئت الأنوار دفعة واحدة، وكأنما القاعة كلها كانت مربوطة بزر كهربائي واحد، وهنا هجم القوم على بعضهم كل يقبل ويضم من يجده أمامه؛ بعضهم فوق الشفاه وبعضهم فوق الخدود، أما الكثيرون منهم فكانوا يكتفون بالعناق التقليدي.

شعر راكان بنشوة عارمة وروزال تطبع على شفتيه قبلة سريعة خاطفة، بعد أن انتهت من قبلة متأنية وطويلة لرجلها، وتمنى لو أنها منحته نفس الوقت الذي منحته لديفيد!

مضت فترة ليست بالقصيرة والظلمة ما زالت تخيم على المكان، ولم يتوقف التقبيل والضم والعناق حتى بعد إعادة الأنوار من جديد؛ إذ لعل الكثيرين منهم لم يطفئوا لهيب رغباتهم وأجيج مشاعرهم بقبلات وضمات عابرة!

انسحب من قاعة الرقص جميع الأشخاص الذين لا رفيق لهم، وكذلك قسمٌ من الذين لهم رفيق، وواصل الباقون الرقص.

- واصلي الرقص يا روزال مع راكان؛ أريد أن أعود إلى سيجاري وكأسي! قال الزوج وهو ينسحب من قاعة الرقص.

خجل الفتى كثيراً، وتمنى لو يستطيع أن يعتذر؛ إذ أن عطر المرأة الفاغم كان مثيراً لشتى الانفعالات وكذلك للشهوة العارمة؛ خصوصاً وهي تحتوي جسمه بذراعها اليسرى وتطوق عنقه باليمنى، وتحرق بأنفاسها العطرية اللاهبة شفتيه وخديه وعنقه، وكأنما تضاجعه!

تنفس الفتى الصعداء عندما أعلنت المضيفة بأن الرقص سيستمر حتى ساعات الصباح الأولى، ولكنه سيتوقف الآن ولمدة ساعة واحدة لتناول طعام العشاء.

لم يكن سبب قلق الفتى وتوتر أعصابه بسبب عدم رضاه عما يحدث، فإنه على العكس من ذلك فقد كان في غاية السرور والانسجام؛ ولكن ثقافته الاجتماعية والدينية، هي التي سببت له هذه المشكلة، إذ خشي أن يغار الزوج ويأتي لتأنيبه هو والمرأة!

لم يحدث أثناء العشاء ما يستحق الذكر، فقد جلست روزال محاطة بالرجال الثلاثة ديفيد وبروس وراكان، على طاولة يتناولون طعامهم ويتحدثون عن أشياء هنا وهناك، كما اتفق الشابان بروس وراكان بناءً على رغبة الأول، على الانصراف بعد العشاء مباشرة بحجة أنهما متعبان أولاً ولأنهما يسكنان بعيداً ثانياً. لقد تمنى راكان لو أنهما يبقيان حتى ينصرف آخر مدعو؛ إذ إنه كان في غاية السرور والانسجام أولاً؛ ولأنه لا يحب أن يكون في غرفته منفرداً؛ ولكن ما باليد حيلة!

*****

الفصل الرابع والعشرون

كانت الساعة حوالي الثالثة صباحاً عندما أنزل بروس صديقه راكان من سيارته أمام النزل، بعد أن تمنى كل منهما للآخر عاماً سعيداً! ولقد اتفق الشابان على أن يناما طيلة النهار وحوالي الساعة السادسة مساءً، يأتي بروس إلى مكان صديقه فيطبخا شيئاً يأكلانه، لأن المطاعم وجميع المحال التجارية مغلقة في ذلك اليوم.

فتح الفتى الباب الخارجي، ودس قدمه اليمنى داخل النزل، فغرقت بماء غمر حذاءه، ووصل إلى ما فوق جواربه؛ وبسرعة أضاء النور الذي كان زره مزروعاً في الجدار إلى يساره، ورأى منظراً مرعباً وجمد تفكيره! لقد كانت أرض القاعة مغطاةً بالماء، وكان بعضه يدخل من تحت الأبواب إلى داخل الغرف الثلاث المتواجدة في الدور الأرضي، وبكل ما عنده من طاقات ركض باتجاه المطبخ معتقداً أن الماء يتدفق من إحدى حنفياته، فلم يرَ شيئاً، ولكنه لاحظ أن الماء يأتي متدفقاً من على يمينه حيث غرفة الحمام.

كان نور الحمام مضاءاً وبابه مردوداً، دفعه الفتى بشدة وعلى عجل ليوقف تدفق الماء الهادر فرأى... ويا لهول ما رأى... رأى منظراً جمّد الدم في عروقه وكاد أن يوقف نبضات قلبه وتردد أنفاسه !

لقد رأى الماء يتدفق من حنفية الحمام الكبيرة، وكأنما بها حمى شديدة، ورأى السيد أدلن بكامل ملابسه ممداً على ظهره في قاع البانيو مفتوح الفم والعينين، والماء يخرج من فمه ومن فتحتي أنفه، كالنبع المتدفق ويداه تطفوان على سطح الماء وكأنما هو يسبح !

ولشدة صدمته ولهول ذهوله، لم يغلق الفتى حنفية الحمام ليوقف نهر الماء المتدفق، كما كان من المفروض أن يفعل، وإنما غاص يتخبط بنهر الماء المتدفق وجرى متجهاً إلى خارج البيت !

وقف على رصيف الشارع أمام النزل، وصار يصرخ بهستيريا مجنونة، يقول ويكرر، وأسنانه تصطك وجسمه يرتجف:

- السيد أدلن انتحر... السيد أدلن انتحر... يا ويلاه... ويا حسرتاه...!

خلال دقائق قليلة كان جمهورٌ من الناس، رجالاً ونساءً، من الجيران ومن المارة، يحيطون براكان، ثم يركضون على عجل لداخل البيت، وبعدها بقليل كانت سيارة الإسعاف تقف أمام البيت، وبعدها بلحظات كان السيد والسيدة هانكوك صاحبا النزل متواجدين في الداخل.

أغمض راكان عينيه وأعطى ظهره لحاملي النقالة التي كان عليها جسم السيد أدلن، وهم ينقلونه من داخل النزل إلى سيارة الإسعاف !

لا شك أن مكانة ومحبة السيد والسيدة هانكوك العظيمتين لدى الجيران، وصلاتهما الحميمة وسمعتهما الطيبتين، قد جعلت كل من حضر يشارك في تجفيف وتنظيف ما ابتل وما اتسخ من النزل، و في خلال ساعة من الزمن كان البيت في وضعه السابق، وكأن شيئاً لم يحدث له!

"ما أتفه الحياة! يمر الإنسان بها، كما تمر غيمة صيف عابرة!"

*****

ساءت صحة راكان كثيراً بالفترة الأخيرة، وخصوصاً بعد رحيل صديقه أدلن، والطريقة البشعة والمفزعة التي توفي بها؛ لا شك أن المسكين قد انتحر لأن الآنسة جين سامحها الله، سخرت من حبه لها واحتقرت مشاعره نحوها، ولم تبادله حباً بحب، بل إنها حتى حرمته من متعة رؤيتها برحيلها من النزل الذي يسكنانه معاً!

لقد بلغ الوهن بالفتى درجة مخيفة حتى صار من الصعب عليه أن يقطع المسافة بين الكلية ومكان عمله والتي كان يقطعها بدقائق قليلة، دون أن يتوقف لأكثر من مرة ليستريح، كما وأنه فقد قابليته للأكل فنحل جسمه واحدودب ظهره فكان من الصعب عليه أن يبقى واقفاً لفترة طويلة، واصفر وجهه وغارت عيناه حتى بدتا وكأنهما جحران في رأسه.

أعلم طبيب الشركة راكان الذي زاره بناءً على إلحاح رئيسه وكذلك زملائه في العمل، بأن ما به هو هزال جسمي نتيجة إرهاق شديد، وأن العلاج الوحيد له هو الراحة والغذاء المتكامل؛ ونصحه بأن يتخلى عن إحدى المهمتين اللتين يزاولهما وهما الدراسة والعمل وإلا فإنه سيصاب قطعاً بانهيار في الأعصاب، أو ما هو أسوأ من ذلك، وهو الجنون! قالها الطبيب بصراحة متناهية.

رفض الفتى الفكرة رفضاً قاطعاً، لأنه حضر إلى أمريكا من أجل الدراسة ولا يستطيع أن يستمر في دراسته دون أن يعمل لكي يدفع مصاريف إعاشته.

لقد تأكد له الآن، بأنه كان يجري وراء سراب خادع، وأنه كان يعيش في كذبة كبرى، وأن كل توقعاته وأحلامه عن أمريكا كانت زائفة ومضللة، إذ إنه لا يحصد هنا إلا الغربة والضياع والتشرد، ولا يجني إلا الألم والعرق والدموع! إنه نادم... نادم... نادم... حزين... حزين... وحزين؛ ولكن ماذا يجدي الندم وماذا ينفع الحزن؟!

لقد راودته فكرة العودة إلى الوطن، ولكن ماذا سيقول الناس عنه هناك، وكيف سيقابلهم وماذا سيجيبهم؟! لقد نصحته والدته وأخواته، وكذلك خالاته وعماته، وكنّ بكين الدموع الغزيرة، وكذلك رجاه الكثيرون من الأقارب والمعارف؛ مؤكدين له بأنه سيتعذب كثيراً في بلاد الغربة، خصوصاً وهو لم يسبق له أن عاش بعيداً عن الوطن، بل لم يعرف العيش خارج البيت! لقد كان دائماً يستهين بأقوالهم ويسخر من أفكارهم، إذ إنه قادم إلى بلاد السمن والعسل... بلاد الرزق الكثير والخير العميم... بلاد الترف والرفاهية!!!

انقضت العطلة الصيفية وبدأت الدراسة من جديد، ولم تتوقف متاعب الفتى ولا آلامه، فقد صار من الصعب عليه أن يستوعب ما يقرأ من المرة الأولى، مما يضطره لأن يعيد القراءة مرات ومرات، وكان حتى مجرد القراءة يتعبه ويشعره بالإعياء الشديد، فتجتاحه رغبة عارمة في النوم، فيضع نفسه بالفراش وسرعان ما يستغرق في سبات عميق، متمنياً لو يستطيع أن ينام لأيام، بل ولأسابيع طويلة !

وفجأة حدثت معجزة أو ما يشبهها، فقد جاءه رئيسه يوماً وهو يكاد يطير فرحاً، وأعلمه بأن بعضاً من جهوده المضنية –لاكلها- قد تكللت بالنجاح.

لقد قال للفتى بأنه كان يخفي عنه خبراً مهماً، وكان يريد أن يفاجئه به عندما يحصل على نتائج إيجابية! لقد صار له مدة ليست بالقصيرة يسعى لدى المدير المحلي ليحصل للفتى على منحة دراسية من الشركة، لتخفف من وطأة مصاعب الحياة عليه؛ معللاً السبب بأن تلك المنحة لطالب أجنبي، تكون كنوع من الدعاية للشركة، ثم إنها سترفع من احترام الشركة في عيون زبائنها !

- لقد وافق المدير على أن تشتغل كل يوم لمدة ساعتين فقط، أما يوم السبت، وبما أنه عطلة دراسية، فتعمل لمدة ثماني ساعات، فيكون مجموع ما تعمله هو ثماني عشرة ساعة، تدفع لك الشركة راتباً وكأنك اشتغلت أربعين ساعة، قال السيد أييكن وهو يرقص فرحاً.

شكر الطالب العربي رئيسه المهاجر الإيرلندي من صميم قلبه ومن أعماق وجدانه، على كرمه الحاتمي وعلى المساعدة القيمة التي قد لا يقدمها أخٌ لأخيه، ولكنه سأل السبب عن قوله بأن بعضاً من جهوده –لاكلها- قدتكللت بالنجاح، فأجاب:

- لقد كان طلبي أن تبقى المنحة سارية المفعول حتى تحصل على البكالوريوس، ولكنه أصر على أن تكون لمدة فصل دراسي واحد فقط، على أن تطلب موافقة جديدة لكل فصل !

- وهل تعتقد أنه لن يوافق على التجديد في الفصول الدراسية القادمة؟ !سأل الفتى.

- إذا بقي هو المدير فإنه سيوافق طبعاً، ولكن الخشية أن يأتي مدير جديد، إذ إن هناك إشاعة عن تنقلات لمدراء فروع الشركة في جميع أرجاء كاليفورنيا ستجري الشهر القادم.

أمضى الفتى فصلاً دراسياً واحداً فقط مريحاً، مستمتعاً ومسترخياً، فقد عاد إليه بعضٌ من صحته واسترد قليلاً من نشاطه، وكذلك عاودته بعضٌ من آماله وطموحاته التي فقدها، إذ حصل على علامات متميزة مما أسعده وأضاء شعلة جديدة في مستقبل حياته.

لقد كانت مخاوف رئيسه في محلها، فقد نُقل مدير الشركة إلى فرع مدينة "سانتا مونيكا" وجاء مكانه مدير الفرع هناك.

لقد كان مدير الشركة الجديد من جذور ألمانية، ناصع البياض، أشقر الشعر، أزرق العينين، طويل القامة، حاد النظرات، كان متعصباً ضد كل من لا يحمل مواصفاته الجسدية وجذوره الأوروبية، فرفض أن يجدد للفتى منحته الدراسية، بحجة أنه طالب أجنبي، وسيعود إلى وطنه الأم بعد أن ينهي دراسته الجامعية، فلا الشركة ولا البلاد ستستفيد من دراسته.

- ليته يكون صادقاً فيقول الحقيقة، بأن السبب هو لأن شعر رأسك أسود جعدي وليس أشقر ذهبي مثله! قال رئيسه وهو يرتجف غضباً عندما عاد من مقابلة المدير وأعلمه بالرفض، ثم أضاف:

- لقد أعلمت ابن الكلبة، بأنك أكثر إخلاصاً وتفانياً للشركة من كثير من المهابيل والفاشلين الذين يعملون في قسمنا، ولكنه لم يقتنع لأنه لا يريد أن يفعل !

- إنك أنت أيضاً مثله ذو شعر أشقر ذهبي! قال الفتى محاولاً أن يخفف من غضب رئيسه وليريه بأنه قانع بما قسم الله له متقبلاً حكمه دون غضب ولا تذمر.

- ولكنني لست متعصباً ولا أحمق مثله! قال السيد جورج أييكن.

- إنني لا أريد أن تغضب وتتأثر من أجلي، يكفيني فخراً أنك أنت تقدر حرصي على مصلحة الشركة وإخلاصي لها! قال الفتى.

- لا تيأس، سأظل أحاول معه، عله يغير رأيه! وبعد أن توقف قليلاً أضاف:

- لقد فكرت أن أطلب زيادة راتبك، ولكنه سيرفض قطعاً، بحجة أن جميع العاملين في قسمنا هم أقدم منك وأكثر خبرة.

*****

تجددت متاعب راكان وزادت آلامه، وعاودته حياة القهر والإحباط، لقد كان عليه أن يكون متواجداً في قاعة المحاضرات في تمام الساعة الثامنة ثلاثة أيام في الأسبوع، وينتهي في الواحدة، ثم يبدأ العمل في الشركة في الواحدة والنصف، أما في اليومين المتبقيين فيبدأ في التاسعة وينتهي في الثانية، ويكون في الشركة في الثانية والنصف، وبدون اعتبار للوقت الذي يحضر به للشركة، فإنه لن يغادرها قبل الساعة الثامنة مساءً، وحوالي الساعة العاشرة أو بعدها بقليل، يكون الفتى قد استحم وتناول طعام العشاء، وعمل ما يجب عليه أن يفعله ويكون جاهزاً للدرس.

بعد يوم طويل حافل بالمحاضرات والجري والعمل، يكون من الصعب جداً على الفتى أن يجلس طويلاً خلف مكتبه ويستوعب ما يدرس، إذ سرعان ما تزوغ عيناه ويثقل رأسه، وتتبلد حواسه ويستبد به نعاس شديد! كان يرجئ ما يجب أن يدرسه تلك الليلة إلى يوم الأحد القادم، حتى إذا جاء ذلك اليوم الموعود يمضي معظمه في الفراش محاولاً أن يعوض بعضاً مما فقده طيلة الأسبوع من نوم، ويجمع شتات عقله المتناثر، فلا ينجز به إلا القليل القليل من الدرس.

وهكذا تراكمت الصفحات التي لم تُقرأ، والأبحاث التي لم تكتب بعد، فصار من شبه المؤكد لدى الفتى بأنه سيرسب في معظم المساقات المسجل بها! أما وضعه الصحي والنفسي فقد بلغا الحضيض من جديد !

وضع راكان نفسه بالفراش في إحدى الليالي لحظة عاد إلى النزل، دون أن يغسل قدميه ولا أن يفرشي أسنانه، ودون حتى أن يتناول وجبة العشاء، فقد كان مرهقاً لدرجة الإعياء الشديد، بسبب العمل الشاق والمتواصل، الذي مارسه طيلة ذلك اليوم.

لم يكن قد مضى على وجوده بالفراش سوى دقائق قليلة عندما بدأ رنين الهاتف يجلجل في القاعة، لم يجبه الفتى آملاً أن يجيبه أحد النزلاء، أو أن الطالب يدرك أن الوقت ليلاً والناس نيام فيغلق السماعة، ولكن الرنين لم يتوقف حتى صار الفتى يحس وكأنما الرنين منشارٌ يحفر في عظامه.

- آسفة يا راكان للإزعاج، ولكن فرانك أحضرني إلى مدينة "سان برناردينو" الأسبوع الماضي، وعاد ليحضر حاجياته من النزل؛ لنتزوج هذا الأسبوع، ولكنه لم يعد حتى الآن! لقد بدأت أشك في صدقه، إذا كان يظن أنني طفلة صغيرة يستطيع أن يضحك علي فهو واهم؛ أو أنه سيهرب مني! إنني سأشتكي عليه وأدفّعه نفقة لي ومعيشة الطفل الذي أحمله في رحمي!

كان راكان طيلة هذا الوقت يحاول أن يستوقفها ليسألها عن حالها وأحوالها، ولكن الفتاة لم تعطه الوقت ليفعل!

- إنني أهاتف النزل كل يوم مرات كثيرة، ولكن الذي يجيب على الهاتف، إذ يبدو أنه النزيل الجديد، يقول بأنه لا يوجد ساكن بهذا الاسم، أما السيدة أندرسون فأعلمتني بأنه رحل ولا تعلم عنه شيئاً! فما هي الحقيقة؟! قل لي! أرجوك! أنا أعرفك... أنت دائماً أمين وصادق!

- الحقيقة... الحقيقة... الحقيقة... أصابت راكان موجة من القشعريرة وتجمدت يده فوق سماعة الهاتف، ثم سقطت من يده! وقف صامتاً مذهولاً... متجمداً... يحدق بالجدار أمامه، وصوت الفتاة يصل إلى أذنيه وهي تعيد وتردد:

- هالو راكان، أين أنت؟! ماذا حدث؟! لم لا تتكلم؟! راكان! هالو! راكان! هالو...!

وجد الفتى نفسه يهرول نحو غرفته بأقصى سرعته دون حتى أن يغلق السماعة، ثم يضع نفسه في الفراش ويغطي رأسه، والسرير تحته يهتز لاهتزاز جسمه، ولم يتوقف قبل مضي بعض الوقت!

لقد أعلمت السيدة أندرسون راكان صباح هذا اليوم، نعم هذا اليوم، بأنهما ذاهبان هي وزوجها بعد الظهر إلى الكنيسة في مدينة "روزمبيد" المجاورة، لحضور إكليل زواج فرانك، وأنه قد طلب إليها أن تدعو راكان أيضاً!

- هل عروسته هي الآنسة جين؟! سأل الفتى.

- لا ! إنه وجين لم يحبا بعضهما حباً كافياً ليربط بينهما عقد زواج ! عروسه هي ابنة صاحب محطة بنزين يعمل بها، أحبها فرانك من أول نظرة وصمما على الزواج، مع أنه لم يمضِ على تعارفهما إلا أسبوعان! قالت المرأة، ثم أضافت وهي تبتسم:

- لقد أعلمني فرانك بأن الفتاة وحيدة والديها، وأنهما يملكان بالإضافة إلى محطة البنزين عقارات كثيرة وسيولة نقدية هائلة!

- باركي له نيابةً عني، وأعلميه أنني وبسبب الدراسة والعمل لا أستطيع الحضور اليوم، ولكنني سأزوره يوماً وآخذ له هدية تليق به وبعروسه! قال الفتى.

*****

عاد راكان من عمله في إحدى الأمسيات، وبعد أن استحم وتناول طعام العشاء، صنع لنفسه فنجاناً من الشاي وجلس خلف مكتبه ليبدأ الدراسة، طامعاً أن يكون فنجان الشاي عاملاً مساعداً له على جلد الدراسة؛ ولكن للأسف الشديد حدث العكس؛ إذ أن تناوله للشاي سارع في نعاسه فلم يرَ بداً من أن يضع نفسه في الفراش.

وبينما هو بين النوم واليقظة، رأى السيدة جولييت بدمها ولحمها تدخل عليه غرفته تعلو وجهها فرحةٌ عارمةٌ وفوق شفتيها ابتسامة جذلى، نفس الفرحة والابتسامة اللتين كانت تقابله بهما أيام سكنهما في مدينة آركاديا!

هجم أحدهما على الآخر يضمه عناقاً وتقبيلاً؛ يقبلا بعضاً على الرأس والوجه والرقبة والكتفين؛ تماماً كما كانا يفعلان سابقاً، ثم انفجرا يبكيان كطفلين صغيرين وجدا أمهما بعد أن يأسا من لقائها!

توقفا عن العناق وصارا يشكوان لبعضهما قساوة البعاد، وآلام الوحدة ولعنة الغربة.

- إنك لا تتصورين يا أماه كم تعذبت وعانيت بعد رحيلك وتركك إياي! كنت أتخبط على غير هدىً في هذا العالم المسعور! لقد كنت أجوب الشوارع ليلاً في برد الشتاء القارس أبحث عنك!! قال الفتى وهو يرقص طرباً ويطير فرحاً باللقاء.

- أعرف يا بني؛ أعرف! أعرف كل عذاباتك يوماً بيوم، بل ساعةً بساعة! قالت العجوز ورافقتها بهزة من رأسها إلى الأسفل عدة مرات.

- وكيف تعرفين ذلك يا أماه؟! ومن ذا الذي أخبرك؟! سأل الفتى وقد فتح عينيه وفمه على وسعهم استغراباً.

- نحن في العالم الآخر نعرف ما يجري لمن نحب على الأرض! كنت أتألم كثيراً؛ وكذلك كنت أصلي من أجلك كل ليلة؛ تماماً كما كنت أفعل أيام كنا في آركاديا سوية!

- إذن كنت تعرفين ما كنت ألاقي من آلام وضياع؟!

- وكذلك كنت أسعد باللحظات التي أراك بها منشرح الصدر.

- إذن أنت تعرفين أخبار نيكول؛ كيف حالها يا أماه؟! سأل الفتى وقد استولت عليه عاطفة محمومة... مدمرة... من الذكريات، واستبدت على كل ذرة في جسمه !

فارقت المرأة فرحتها، وغطت وجهها موجةٌ من الحزن والكآبة، ثم هزت رأسها عدة مرات علامة النفي وقالت:

- حالها سيئة يا بني، إنها ومنذ أن تركتما بعضاً وهي ما تكاد تنهض من مشكلة إلا وتقع في أخرى أكثر سوءاً وأكثر تعقيداً! مسكينةً نيكول، لقد كنت قلقة عليها في الدنيا، وها أنا أتعذب من أجلها في الآخرة! إنني أتألم كثيراً وأصلي من أجلها هي الأخرى كل ليلة.

- وما نوع الصعوبات التي تواجهها والمشاكل التي تعترض حياتها يا أماه؟!

اختفت المرأة فجأةً مثلما ظهرت وكأنها شبح.

- أماه...! أماه...! أين أنتِ؟! لا تذهبي وتتركيني ثانية! أرجوكِ...! أرجوكِ...! أرجوكِ ...! صاح الفتى مرعوباً وقد قفز من فراشه واقفاً !

لم يغمض للمسكين جفن، فقد طلع النهار ثم ذهب إلى جامعته وهو ما زال يفكر ويتساءل؛ هل حقاً زارته السيدة جولييت في غرفته، أم أنها كانت أضغاث أحلام؟! وأخيراً توصل إلى نتيجة وهي أن الزيارة سواء أكانت حقيقة أم أضغاث أحلام فقد أفرحته كثيراً كثيراً!

عادت المرأة في الليلة التالية لزيارة الفتى ثانية؛ فعاتبها على تركها إياه قبل أن يروي ظمأه من رؤيتها؛ وحتى دون أن تعلمه بمغادرتها!

- لأن فترة غيابي كانت قد انتهت، ولهذا عدت على عجل.

- إلى أين عدت يا أماه؟!

- إلى السماء يا بني! إلى السماء!

- وماذا تفعلين هناك؟!

- أعبد الواحد الأحد! أنا لست لوحدي... هناك الملايين... نمضي الليل والنهار... نصلي ونتعبد... نهلل ونكبر، وكلما تعمقنا في عباداتنا، كلما تعملقنا وشمخنا في معرفة الخالق وحبه!

- وهل تفعلون شيئاً غير الصلاة والتعبد يا أماه؟!

- طبعاً... طبعاً حبيب القلب! نواصل دراستنا عن الخالق والأكوان، وكذلك الحكمة من خلقه لها !

- ما أسعدك يا أماه، لقد جعلتني أتشوق للحاق بك! قال الفتى بحسرة.

- أنت ما زلت صغيراً يا بني، وأمامك حياة طويلة تعيشها.

- إنني أتحرق شوقاً لمعرفة أخبار نيكول يا أماه، فكيف حالها؟! طمئنيني عليها أرجوك!

ومرة ثانية اختفت المرأة مثلما ظهرت فجأة، وكأنها شبح.

- أماه...! جونزي...! السيدة جولييت...! لا تذهبي قبل أن تخبريني! أرجوكِ...! أرجوكِ...! صاح الفتى وقد قفز من فراشه واقفاً !

لم يمكث راكان طويلاً مستيقظاً فقد كان منهوك القوى عاطفياً وجسدياً وروحياً أيضاً، إذ سرعان ما راح من جديد في سبات عميق! كان الله في عونه!

"مشيناها خطىً كُتبتْ علينا ومن كتبتْ عليه خطىً مشاها!"

*****

حالما ينتهي راكان من عمله في الشركة يضع نفسه إلى جانب صديقه بروس الذي يوصله إلى مكان سكناه، إذا كان وقت انصراف هذا الصديق يتفق ووقته، إذ إن ساعة انصرافهما لا تكون واحدة في بعض الأمسيات، فيطلق راكان ساقيه للريح متوجهاً نحو موقف الحافلة التي سيركبها لتوصله إلى النزل.

لقد أعادت قصة جريه بين مكان عمله وموقف الحافلة، ذكريات عزيزة على قلبه، يوم كان يسابق الريح ليلحق بالحافلة المتوجهة إلى مدينة آركاديا، حيث كانت السيدة جولييت تنتظره عند موقف الحافلة كل مساء، ثم ليسيرا جنباً إلى جنب متوجهين إلى بيتها ليتناولا طعام العشاء سوية، وليشربا كؤوس الشاي، ثم يشكو لها آلامه وعذاباته، بسبب هجر نيكول له! ما أشبه الليلة بالبارحة؟!

حالما يصل الفتى النزل، يدخل الحمام ثم يجهز عشاءه، ويجلس خلف مكتبه فيدرس بعض الوقت، وينتظر حتى تهدأ الحركة بالنزل، ويلفه الظلام بغلالة رقيقة، ويأوي كلٌ إلى فراشه، عندها يضع هو نفسه في الفراش ينتظر قدوم حبيبة قلبه السيدة جولييت، أمه في بلاد الغربة!

انقضت الليلة الثالثة والرابعة والخامسة وراكان ينتظر كل ليلة زيارة المرأة، ولكنها لم تفعل!! الله! الله! ماذا حدث؟!

في الليلة السادسة زارته ومكثت طويلاً! وضع رأسه في حجرها، تماماً كما كان يفعل أيام كانا في مدينة آركاديا، وصار يشكو إليها قساوة الحياة وظلم الأيام؛ فكانت تواسيه تارةً وتهون عليه الأمور، ثم تشجعه على الصبر تارات.

- صدقني يا بني وتذكر ما أقول لك، إن المعاناة التي تقاسيها الآن هي التي ستجعل منك رجلاً عظيماً ذا مستقبل متميز! أوصيك يا بني بأن لا تهمل دراستك، وأن لا تتخلى عنها مهما كانت العقبات والمصاعب، حتى تحصل على شهادة عالية! إن مستقبلا باهراً ينتظرك، وستكون ناجحاً في كل مهنة تختارها في الحياة؛ بإذن الله، فهل تعدني يا بني؟!

- أعدك... أعدك يا أماه...! قال الفتى بحماس.

لقد بكى في حجرها طويلاً، فكان يشعر بأن آلامه تذوب مع دموعه! كانت دموعه تبلل ملابسها، وكان هو يحس بسقوط دموعها الحارة والغزيرة فوق وجهه وشعر رأسه؛ وكان يسمع نهنهة بكائها! لم يكن بكاؤه هو عذاباً وألماً ومعاناةً؛ بل كان لذةً روحيةً هائلةً ونشوةً وجدانيةً عظيمةً! كان يشعر بحالة من الصفاء الوجداني والانسجام الروحاني والتوحد مع الله؛ وبأنه يحلّق في أجواء السماوات العلى، وأنه صوفي يصول ويجول في العالم اللامحدود !

كان الفتى يتمنى طيلة الوقت لو أن تخبره عن نيكول، ولكنها لم تفعل، وفكر مرات ومرات أن يسألها عنها، ولكنه خشي أن تختفي حال سؤاله، كما فعلت في المرتين السابقتين.

عند طلوع الفجر، استأذنته المرأة للانصراف بعد أن وعدته بأنها ستزوره، بناءً على إلحاحه الشديد عليها!

*****

كان اليوم التالي يوم أحد، وكان النزل خالياً من جميع النزلاء الذين غادروه كعادتهم مثل هذا اليوم منذ ساعات الصباح الأولى، إلا من راكان الذي كان من المفروض أن يمضي معظم النهار وشطراً من الليل بالدراسة.

إنه ومنذ استيقظ الفتى من نومه، وكان في حوالي منتصف النهار، وهو يشعر بحنين جارف وشوق لاهب إلى الأهل والأصدقاء والوطن, وخصوصاً والدته! كانت عواطفه تغلي بداخله كماء المرجل، وكانت عيناه تذرفان الدموع الغزيرة الساخنة، فيشعر بسعادة طفولية تدغدغ أعطافه وتسخن الدم في شرايينه.

لقد زاد في إلهاب عواطفه وتأجج الحنين في وجدانه، صوت مغنيته المفضلة فيروز، والذي بدأه منذ أن استيقظ، يصدح بصوت ناعم حنون، فوق المسجلة.

رن جرس الباب الخارجي، فتجاهله الفتى وعزم على أن لا يجيبه أول الأمر، ولكن إصرار الجرس على الرنين الذي شعر وكأنما يحفر في عظامه، أرغمه على تغيير رأيه.

- أهلاً وسهلاً بكما يا سيدة بيرسون ويا سيدة ورديبل، كم أنا سعيد جداً جداً برؤيتكما! أرجوكما تفضلا... تفضلا...! صاح الفتى بحرارة وصدق بعد أن فتح الباب ورأى المرأتين.

- هل من المعقول أن تكون أنت راكان الذي نعرفه؟! صاحت المرأتان بصوت واحد وهما تحدقان بالفتى وقد عقدت الدهشة لسانيهما، بعد أن فتح لهما الباب.

- وهل تغيرت إلى ذلك الحد؟! سأل الفتى وقد حاول أن يفرد ابتسامة فوق شفتيه.

- كثيراً جداً جداً! قالت السيدة بيرسون وهي تحملق به مشدوهة!

- صدقاً لو رأيتك خارج هذا النزل لما عرفتك! قالت السيدة ورديبل.

- على كل حال، أهلاً وسهلاً بكما؛ تفضلا؛ لقد أسعدتني زيارتكما! قال الفتى وهو يفسح لهما الطريق لتدخلا.

بعد أن جلست المرأتان في غرفة الجلوس، دلف الفتى إلى غرفته وأوقف المسجلة، ثم أحضر لهما كأسين من عصير البرتقال المثلج، ورحب بهما من جديد وشكرهما على التكرم بزيارته، وذكر لهما كم أسعدته هذه الزيارة المفاجأة، ثم أضاف:

- يوجد مطعم قريب جداً من هنا؛ تقاطع شارعين فقط؛ طعامه لذيذ جداً وأظنه سيعجبكما؛ سنذهب إليه ونتناول طعام الغداء بعد أن تستريحا قليلاً.

لم تعلق المرأتان على دعوته واعتبر سكوتهما موافقة.

- اعذرنا أننا أتينا دون موعد مسبق؛ مارجي لها صديقة حميمة أجرت اليوم عملية جراحية في مستشفى المدينة هنا، وطلبت مني مرافقتها ووعدت أن نزورك إن سمح لنا الوقت! لقد نسينا أن نحضر رقم هاتفك معنا، كما أننا كنا غير واثقين من أنك ما زلت تسكن في نفس هذا النزل! قالت السيدة بيرسون.

- لا شك أنني إنسان محظوظ! صدقاني أني ومنذ مدة طويلة وأنا أتمنى لو أن أعرف أخباركم؛ أنتن تعلمن كم أكن لكن في قلبي من حب ومعزة! قال بحماس وفرح شديدين.

- نعرف ذلك، نعرف ذلك! قالت السيدة ورديل.

- كنا نتمنى أن يتواصل التقارب، ولكن حدث ما لم يكن بالحسبان! قالت السيدة بيرسون، ونفرت دمعتان من عينيها مسحتهما بظهر يدها اليسرى.

عرف الفتى ما عنت، إذ لم يكن أحد يتوقع الانفصال بعد ذلك الحب العظيم.

- قل لي يا راكان، لقد كنت في آخر مرة رأيناك بها تتمتع بعافية لا بأس بها، فما الذي حدث حتى لم يبق منك سوى العظم والجلد؟! هل أنت مريض؟! سألت السيدة ورديل.

- لا، أنا لست مريضاً؛ قال الطبيب إنه إرهاق؛ فأنا أدرس وأشتغل وقتاً كاملاً للاثنين.

- معظم الطلاب في أمريكا يدرسون ويشتغلون في نفس الوقت، ولكن ليس وقتاً كاملاً للاثنين! قالت السيدة بيرسون.

- يجب أن لا تفعل ذلك يا بني، لأنه يؤذي صحتك! قالت السيدة ورديل.

هز الفتى رأسه عدة مرات علامة الموافقة، ثم سأل:

- كيف أفراد عائلتيكما؟! أرجو أن يكونوا جميعاً بخير!

- كلهم بخير، وكثيراً ما نتذكرك بأحاديثنا! قالت السيدة مارجي، أما السيدة بيرسون فصارت تبكي وتنهنه.

- وهل سنظل نبكي إلى آخر الدهر؟! وهل هي الوحيدة التي حدث لها ذلك؟! قالت السيدة ورديل لأختها بعتاب ممزوج بالغضب.

- ماذا جرى؟! وهل حدث لأحد مكروه؟! سأل الفتى وهو ينقل طرفه بين المرأتين.

- نيكول تعرفت على زميل لها في الجريدة التي تعمل بها؛ فأحبا بعضاً وتزوجا خلال شهر من تعارفهما، وبعد ثلاثة شهور على زواجهما وجدته ورجلاً آخر عاريين في غرفة نومها؛ رفعت عليه قضية طلاق؛ هي حامل الآن في شهرها السادس! قالت السيدة ورديل.

لو أن أحدهم ضرب الفتى بكل قوته بعمود من الحديد الثقيل على رأسه، لم كانت الضربة أشد إيلاماً من وقع الخبر عليه!

علت وجهه صفرة شديدة، وأصابت جسمه رجفة قوية، وشعر بأن الأرض تميد تحت قدميه، فسقط على المقعد الجلدي القريب منه!

توقفت السيدة بيرسون عن البكاء؛ ومرت فترة صمت ليست بالقصيرة كانت المرأتان خلالها تتبادلان بينهما نظرات التساؤل والحيرة؛ أما الفتى فكان يحدق بالجدار أمامه بعيون جامدة وعقل معطل!

فجأة حرك راكان جسمه يمنه ويسرة، ثم رطب شفتيه بلسانه وبلع ريقه بصعوبة وقال بلهجة عتاب ممزوجة بحزن ممزق:

- ولهذا السبب كانت الوالدة تختفي من أمامي كلما سألتها عن أحوال نيكول!

- ومن هي الوالدة التي تعنيها؟! سألت السيدة بيرسون.

- ومن الذي يختفي عن الأنظار كلما سألته؟! سألت السيدة ورديل أختها في نفس الوقت الذي سألت به الأخت.

- أعني أمكما... السيدة أومناي جولييت... جونزي...! أجاب الفتى بحدة وبلهجة غاضبة وقد عبس وجهه؛ وكأنه يعجب لغباء المرأتين وعقم تفكيرهما!

- ومتى رأيت الماما؟! سألت المرأتان معاً.

- آخر مرة رأيتها البارحة؛ لا؛ هذا الصباح! قالها بحدة وعصبية.

- وأين رأيتها؟! سألت السيدة ورديبل.

- جاءت إلى غرفتي وأمضينا وقتاً طويلاً نتحدث... تحدثنا طويلاً جداً...! ثم أضاف:

- لم أسألها عن نيكول البارحة؛ فقد خفت أن تختفي، لأنها اختفت في المرتين اللتين سألتها بهما ! إنها حالما أطرح عليها السؤال عن أخبار نيكول تتهرب من الإجابة على سؤالي وتختفي، الآن فقط عرفت السبب!

- راكان! أرجوك استيقظ! أمي صار لها متوفية ما يقارب العام! فكيف أتت البارحة إلى غرفتك؟! قالت السيدة ورديبل، أما أختها فأجهشت بالبكاء من جديد.

لا شك أن الأم تبكي هذه المرة، على الفتى الذي فقد عقله، والذي كان من المفروض أن يكون ابنهاً لها في القانون، وليس على ابنتها الحامل من زوج طلقته لأنه شاذ جنسياً، ويضاجع هو النساء ولكنه يسمح لرجل مثله أن يضاجعه.

- الآدميون في السماء يعرفون أخبار أحبابهم على الأرض ويأتون لزيارتهم والتحدث إليهم إذا أرادوا ذلك، هكذا أعلمتني السيدة جولييت عندما زارتني لأول مرة الأسبوع الماضي! قال الفتى بلهجة الواثق.

وهنا انضمت الأخت إلى أختها في البكاء، ولكن ليس بالصدق والحرارة التي تبكي بها أم نيكول.

- والآن، اسمحا لي أن أستبدل ملابسي فنخرج لنتناول الغداء! قال الفتى وهو ينهض واقفاً.

- لا، لا، أرجوك... يجب أن نذهب، الطريق السريع ستزدحم بآلاف السيارات ويكون من الصعب علينا الحركة! قالت السيدة ورديبل وهي تمسح دموعها بالمنديل الورقي الذي أحضره راكان لها مع عصير البرتقال، ثم التفتت إلى أختها وأضافت:

- هيا! لا نريد أن نمضي ساعات طويلة على الطريق المزدحمة!

- ولكن اليوم هو الأحد! لا يوجد زحمة سير! قال الفتى محتداً وموضحاً أيضاً.

- لا، لا، يجب أن نذهب؛ على كل حال شكراً على الدعوة، ونعدك بأننا في المرة القادمة سنعمل حسابنا لنتغدى أو لنتعشى سوية! قالت السيدة بيرسون وهي تنهض وتحمل حقيبة يدها.

- لا، لا، لا أقبل عذركما! يجب أن نتغدى سوية، لن نأخذ وقتاً طويلاً، لن أؤخركما! قال الفتى.

احتدم الجدل والنقاش بين الثلاثة، كلٌ متمسك برأيه، وأخيراً تعانق ثلاثتهم وغادرت المرأتان دون غداء.

- وهل تريدانني أن أقول شيئاً للوالدة عندما أقابلها؟! سأل الفتى وهو يفتح لهما باب النزل ليغادرا.

- بلغها تحياتنا وقل لها أننا نحبها وقد افتقدناها كثيراً! قالت السيدة ورديبل، أما أختها فقد خنقتها عبراتها ولم تقل شيئاً وإنما اكتفت بأن لوحت له بيدها.

أدار راكان زر المسجلة، فوصل إلى أذنيه هذه المرة صوت عملاقة لبنانية أخرى، الفنانة ماجدة الرومي، فحركت ذكرياته وألهبت عواطفه من جديد!

يا الله كم هو يحب لبنان! لقد أفتقده كثيراً، تماماً كما أفتقد الأردن! لقد كان يمضي كل إجازاته في ربوعه وبين أحضانه، لطالما استمتع بأكل كبته وشرب من عذب مياهه. أما حسناواته فإنهن حوريات من جنة الخلد! أليس جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وسعيد عقل هم آباءه الروحيين؟!

استلقى على السرير فوق الغطاء، وحملق بسقف الغرفة وسرح بعيداً مع ذكرياته، وكانت دموعه تنزل غزيرة وساخنة فتبلل أذنيه وصدغيه، وكذلك المخدة تحت رأسه.

أوشك النهار على الانتهاء، وخيمت ظلمة خفيفة على الغرفة، وعاد سكان النزل إليه بعد أن قضوا يومهم يستمتعون فيما يحبون، ثم التقوا في المطبخ كل يحاول أن يجهز وجبة العشاء.

لم ينهض الفتى من فوق فراشه منذ أن ألقى بنفسه فوقه قبل ساعات طويلة، ولم يتوقف عن الاستماع إلى الموسيقى منذ أن غادرت المرأتان.

لم يدخل معدته زادٌ منذ أن استيقظ وقت الظهر سوى قطعتين من الخبز المحمص، مدهونتين بمربى التوت، مع كأسٍ من الحليب المبرد.

لم يكن في نيته أن يفعل شيئاً، لا بالنسبة للأكل ولا بالنسبة للدراسة، ولم يكن في نيته حتى أن ينهض من فوق الغطاء ويضع نفسه تحته !

كان مخدراً... منوماً... ليس عنده القوة ولا الرغبة أن يواصل الحياة! كان مخدر التفكير، متجمد العواطف، وكان يغوص في محيط من الذكريات، ويسبح في بحور من الأشواق، لم تجف دموعه منذ أن بدأت النزول قبل ساعات وساعات، وكان يشعر بألم لم يعاني مثله من قبل، ألم شعر أنه وصل إلى داخل عظامه فأحرقها !

انقطع الهرج والمرج في المطبخ، وتوقف رنين الطناجر وأصوات الصحون والملاعق، وكذلك توقفت المسجلة بعد أن وصل الكاسيت نهايته، وخيم على النزل سكون كسكون المقابر، وراح الفتى في سبات عميق، وكله أمل أن تزوره المرأة، فإنه يشعر الليلة بوحدة ممزقة وبشوق وحاجة إليها لم يشعر مثلهما من قبل !

لم تخيب المرأة أمل الفتى ولم تدعه ينتظر طويلاً، فقد جاءت هذه المرة مكتئبة النفس، عابسة الوجه، مكسورة الخاطر، على عكس مظهرها في المرات السابقة !

تعانقا بحرارة، وبكى كل منهما على كتف الآخر، وبللا بدموعهما وجه وشعر وثياب الآخر، وبث كل وجده وما يلاقي بعيداً عن الآخر.

أعلمها الفتى عن زيارة ابنتيها المفاجئة له، وعاتبها على عدم إعلامه عما حدث لنيكول؛ فأكدت له بأن السبب كان لمعرفتها الأكيدة بأن الخبر كان سيؤلمه كثيراً.

لاحظ الفتى أن المرأة تتجنب بإصرار وعناد ذكر حفيدتها والخوض فيما جرى لها، فاحترم رغبتها ولم يشر إليها لا من بعيد ولا من قريب.

تحدثا طويلاً في شتى المواضيع، وتأكد للفتى بأن الوقت الذي مكثته هذه المرة أطول بكثير من المرات السابقة، ولكنه شعر بأن في ضمير المرأة شيئاً يقلقها تريد أن تقوله له ولكنها مترددة.

لقد تمنى على الله لو أنها تبوح له بما يقلقها قبل أن تغادر هذا المساء لأنه لا يريد أن تؤجل قوله حتى تحضر في المرة القادمة ويظل هو يتقلب على نار اللظى، وأخيراً استجاب الخالق لأمنيته.

فجأة وقفت المرأة وقالت بلهجة تقطر ألماً:

- أريد أن أقول لك خبراً أحزنني كثيراً، ولا شك أنه سيحزنك أنت أيضاً، ولكن لا أنت ولا أنا نستطيع أن نستبدله ولا حتى أن نعترض عليه! قالت المرأة بحزم وجدية وإصرار لم يعهدهم الفتى بها!

شعر الشاب بأن قلبه قد سقط من مكانه، وأن لسانه قد تيبس وتحول إلى قطعة من الخشب، وبدأت كل ذرة في جسمه ترتجف حتى شعر بأنه سيطير في أجواء الغرفة.

- لقد أعلموني من حيث أتيت بأن هذه هي آخر مرة أراك بها!

حالما نطقت آخر كلمة، اختفت كالشبح من الغرفة.

حاول الفتى أن يصرخ ولكن لسانه كان مجمداً في فمه! حاول أن ينهض من سريره ويلحق بها، ولكن جسمه كان كجذع شجرة ممدد فوق السرير.

بعد مضي حوالي خمس دقائق، استطاع أن يحرر لسانه ويحرك جسمه، فنهض من على فراشه كالصاروخ، فتح باب الغرفة وخرج إلى القاعة وصار يصرخ وينادي:

- أماه...! أماه...! لا تتركيني... عودي إلي... لا يمكن أن تختفي ثانية بعد أن عدت إلي! إنني لا أستطيع أن أعيش بدونك هذه المرة... سأفقد عقلي... سأجن... سأموت... أرجوك...! عودي إلي! لا تذهبي ليس لي أحد في أمريكا إلا أنت! أماه...! أماه...! أماه...!

وفي مثل لمح البصر، كانت جميع الأنوار تسطع في طوابق النزل الثلاثة، وكان كل النزلاء، نعم ، كل النزلاء متواجدين بالقاعة، يقفون أمام راكان يستفسرون منه عما جرى؟!

كان أول الواصلين إليه السيدة أندرسون ثم زوجها؛ وتبعهم بقية النزلاء، وكانت المرأة أكثر المهتمين بحالة الفتى وأكثر المستفسرين عن سبب تفجعه وتوجعه !

- السيدة جولييت، أمي هنا في أمريكا، قالت بأنها لن تأتي لزيارتي بعد الليلة! أجاب الفتى من بين دموعه وهو ينهنه ويشهق بحرقة ولوعة!

- ولكن السيدة جولييت، توفيت قبل حوالي عام ! قالت السيدة أندرسون.

- نعم، هذا صحيح! ولكنها عادت لتزورني! أجاب الفتى شبه مقهور.

- الذين يموتون لا يعودون! قالت المرأة وهي تصر على كل كلمة.

- ولكنها هي عادت، لقد كانت في غرفتي قبل قليل، صدّقيني! قال الفتى وقد ازداد قهراً.

- رحمتك اللهم! قالت السيدة أندرسون وقد امتلأت مآقيها بالدموع.

- إذا كانت زارتك الليلة فستزورك الليلة القادمة، أرى أن تعود إلى فراشك وتستريح الآن! قال السيد أندرسون مطيباً خاطر الفتى وهو يطبطب على ظهره.

- ولكنها أكدت لي بأنها لن تفعل! لقد قالت بأنها هذه آخر مرة تزورني بها! قال الفتى بانفعال مستغرباً عدم فهم الزوج.

أما بقية النزلاء فقد كانوا يتبادلون نظرات الاستغراب والاستهجان، ويتهامسون فيما بينهم.

- راكان! قلت لك، الذين يموتون لا يعودون! قالت المرأة شبه غاضبة.

- قلت لك عادت؛ وكانت في غرفتي الليلة ولساعات طويلة، لماذا لا تصدقينني؟! هل كذبت عليك يوماً؟! أنت تعرفينني جيداً!

وبعد أن بلع ريقه ورطب شفتيه بلسانه أضاف:

- زيارتها الليلة لم تكن الأولى؛ لقد زارتني قبلها ثلاث مرات! قال الفتى وجسمه يرتجف غضباً.

- أبانا الذي في السماوات، ارحم عبدك هذا بأن تعيد إليه عقله الذي فقده! قالت إحدى النزيلات؛ والتي تبدو أنها تجاوزت الستين من عمرها، وقد رسمت إشارة الصليب على صدرها، والتي لم يتذكر راكان اسمها مع أنهما قُدما إلى بعض، وكانت قد سكنت حديثاً.

- ماذا جرى لك يا رجل؟! لقد كنت صباح الأمس هنا في المطبخ بكامل قواك العقلية، قال السيد أندرسون وأشار بأصبعه إلى المطبخ.

- إنني أكرهكم... أحتقركم... أزدريكم... ألعنكم...! لقد تبولتم وتغوطتم على مبادئي... على قيمي... على مثلي العليا... على كل معتقداتي وما أؤمن به، وألقيتم بها في المياه العادمة والحفر الامتصاصية...! صاح راكان بالسيد أندرسون!

- سامحك الله! أوفيليا وأنا نحبك ونحترمك كثيراً؛ وأنت تعرف ذلك!

- ليس الوقت الآن وقت عتاب يا بيتر! صاحت السيدة أندرسون بزوجها!

- لقد أتيت إلى أمريكا... طاهراً نقياً.. ورعاً تقياً.. ولكنكم سلبتم كل شيء جميل مني، وتركتموني بلا قيم... وبلا مبادئ... وحتى بلا أخلاق!

- ما قصته؟! سألت الساكنة الجديدة.

- كانت له صديقة هنا في أمريكا، كانت تعامله وكأنه ابنها وكان يحبها حبا جما، توفيت قبل عام وهو يعتقد الآن أنها قد عادت إليه من العالم الآخر! تبرع السيد أندرسون وأجابها.

- يا ولدي! لا شك أنها كانت عزيزة عليه جداً، وإلا لما اعتقد أنها عادت إليه بعد موتها! مسكين هذا الشاب!

أما راكان فقد استمر في اتهاماته لهم:

- إنكم أمة بلا أخلاق... بلا ضمير ... بلا مبادئ... وبلا قيم...! إن قويّكم يأكل ضعيفكم، وغنيّكم يلغي وجود فقيركم!

- أهذا هو تقييمك لنا ورأيك فينا؟! سأل الزوج.

- إنكم تتناكحون كحيوانات الغاب، تمنح المرأة جسدها لكل طارق، وترفع رجليها لكل عابر سبيل، حتى صار لا يعرف الابن أباه ولا الأخ أخاه! إنكم تثيرون قرفي واشمئزازي! عليكم اللعنة!

- راكان! ما هذا الكلام؟! أبهذه السهولة نهون عليك؟! وهل نسيت صداقتنا ومحبتنا لك؟! قال الزوج.

- اعذره يا عزيزي! سامحه الله! إن جراحه عميقة وموجعة! قالت السيدة أندرسون وهي تشد على مقاطع الكلمات!

- إنني أمقتكم...! إنكم تعبدون الدولار من دون الله...! إنه ربكم الأعلى... وأنا أحتقر معبودكم وأدوس عليه...!

وهنا تقدم راكان خطوة إلى الأمام، وبرجله اليمنى ضرب الأرض بشدة، ثم حاول رفع قدمه اليسري ، ليجد نفسه ساقطا على الارض وراح جسمه يهتز ويرتعش، كأنما مسه تيار كهربائي، فظل يهزه ويهزه وهو يرتجف، ففتح فاه وجحظت عيناه وأغمي عليه !

وهنا صاحت المرأة بزوجها وهي ترتعش:

- أطلب سيارة الإسعاف يارجل! أطلب سيارة الإسعاف!

لا يدري راكان ما حدث بعد ذلك، ولكنه يتذكر كالحلم البعيد... البعيد... أنه سمع السيدة أندرسون تقول للرجلين اللذين كانا يحملانه على نقالة:

- المسكين! لقد أصابه انهيار عصبي! لقد فقد عقله !

- إنتهت -

باسدينا - كاليفورنيا.

للمؤلف

1- في بلاد السمن والعسل رواية
2 - تيه البروفيسور دهشان رواية
3 - فبكت وبكيت رواية
4 - كريستينا ... الحب المُحرّم ! رواية

باللغة الإنجليزية:

- ✓ Beads of Memory — Triology
- ✓ August Rain — Novel
- ✓ The Sucide of my Taboos (or) Elizabeth! — Novel
- ✓ Celeste… A Teardrop on the Cheek of Destiny! — Novel

*****

للتواصل مع المؤلف على البريد الإلكتروني:

majidabujohar@yahoo.com